تيسير التفسير
(١)

تيسير
تفسير الميزان

تيسير تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي
مع الاحتفاظ بكل محتوياته

١٢

أ. د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار
للنشر والتوزيع

تيسير التفسير

(١)

تيسير تفسير الميزان

تيسير تفسير اليزان للعلامة الطباطبائي مع الاحتفاظ بكل محتوياته

١٢

أ. د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الأولى: ١٤٤٨ هـ - ٢٠٢٦ م

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات	٧
سورة الصف	٧
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٧
مقاطع السورة ونظمها:	٧
١. التسبيح الإلهي وذم القول بلا فعل:	٨
٢. حب الله للذين يقاتلون في صف واحد:	٩
٣. أذى قوم موسى لنبيهم وزيغ قلوبهم:	٩
٤. بشارة عيسى بأحمد واتهامهم له بالسحر:	١١
٥. أشد الظلم افتراء الكذب على الله مع الدعوة للإسلام:	١٦
٦. إرادة الكفار إطفاء نور الله وإتمامه رغم كرههم:	١٧
٧. إظهار دين الله الحق على جميع الأديان رغم كره المشركين:	١٧
٨. تجارة النجاة: الإيمان والجهاد:	١٨
٩. المؤمنون أنصار الله كالحواريين مع عيسى:	٢٠
سورة الجمعة	٢٣
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٢٣
مقاطع السورة ونظمها:	٢٣
١. تسبيح كل شيء للملك القدوس العزيز الحكيم:	٢٤
٢. بعث الرسول في الأميين للتلاوة والتزكية والتعليم:	٢٥
٣. فضل الله على الآخرين الذين لم يلحقوا بهم من بعدهم:	٢٧
٤. مثل حملة التوراة كالحمار يحمل أسفاراً:	٢٨
٥. تحدي اليهود بتمني الموت إن كانوا أولياء لله:	٣٠
٦. السعي إلى ذكر الله وترك البيع يوم الجمعة:	٣٢
٧. ترك النبي للهو والتجارة وما عند الله خير:	٣٤
سورة المنافقون	٣٧
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٣٧
مقاطع السورة ونظمها:	٣٧

١. شهادة المنافقين بالكذب واستغلال الأيمان: ٣٧
٢. الإعجاب بأجساد المنافقين وهم كالخشب المسندة: ٤٣
٣. استكبار المنافقين عن طلب الاستغفار وحرمانهم من الهدى: ٤٤
٤. منع النفاق عن الإنفاق وجهل المنافقين بخزائن الله وعزته: ٤٥
٥. تحذير المؤمنين من أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذكر الله: ٤٧
٦. الحث على الإنفاق قبل الموت وعدم التأخير: ٤٧
سورة التغابن ٥٠
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٥٠
مقاطع السورة ونظمها: ٥٠
١. تسبيح كل شيء لله ذي الملك والحمد والقدرة: ٥٠
٢. الخلق والكفر والإيمان والتصوير: ٥١
٣. عاقبة الكفر والتكذيب بالرسل وعذابهم الأليم: ٥٣
٤. إثبات البعث والجزاء بعد إنكار الكافرين له: ٥٦
٥. الأمر بالإيمان بالله ورسوله والنور المنزل: ٥٧
٦. يوم الجمع والتغابن والفوز العظيم لأهل الإيمان: ٥٧
٧. كل مصيبة بإذن الله ومن يؤمن يهد الله قلبه: ٦٠
٨. الطاعة والبلاغ والتوكل والإيمان: ٦٢
٩. التحذير من عداوة بعض الأزواج والأولاد: ٦٤
١٠. الوصية بالتقوى والسمع والطاعة واتقاء الشح: ٦٦
١١. القرض الحسن والمضاعفة والمغفرة: ٦٧
سورة الطلاق ٦٩
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٦٩
مقاطع السورة ونظمها: ٦٩
١. الطلاق والعدة والتقوى والإحصاء: ٦٩
٢. النهي عن إخراج المطلقات من البيوت: ٧١
٣. المعاشرة بالمعروف أو الفراق والإشهاد عليه: ٧٣
٤. التقوى سبب الفرج والرزق: ٧٣
٥. عدة الآيسات والحوامل: ٧٤

٦. إسكان المطلقات حسب الوسع وعدم المضارة: ٧٦
٧. الإنفاق على الحوامل والإرضاع والأجرة بالمعروف: ٧٦
٨. النفقة بحسب السعة والتيسير بعد العسر: ٧٧
٩. عذاب القرى العاتية: ٧٨
١٠. إخراج المؤمنين من الظلمات إلى النور بآيات الله: ٨٠
١١. خلق السماوات والأرض وإحاطة الله بكل شيء علماً: ٨١
سورة التحريم ٨٤
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٨٤
مقاطع السورة ونظمها: ٨٤
١. نهي النبي عن تحريم الحلال لإرضاء الأزواج: ٨٥
٢. إسرار النبي لبعض أزواجه وإطلاع الله له عليه: ٨٩
٣. دعوة الزوجين إلى التوبة وتحذيرهما من المظاهرة عليه: ٩٠
٤. إبدال النبي بأزواج خير منهن إن طلقهن: ٩٢
٥. وقاية النفس والأهل من النار بالتزام التقوى: ٩٣
٦. جزاء الكافرين بأعمالهم وعدم قبول الاعتذار: ٩٥
٧. التوبة النصوح سبب للتكفير ودخول جنات النعيم: ٩٦
٨. جهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم: ٩٨
٩. مثل امرأة نوح ولوط اللتين خانتا زوجيهما: ٩٨
١٠. مثل امرأة فرعون التي سألت الجنة والنجاة: ١٠٠
١١. مثل مريم التي عفّت وصدقت بالكلمات وكانت من القانتين: ١٠٢
سورة الملك ١٠٤
مقاصد السورة ومحتوياتها: ١٠٤
مقاطع السورة ونظمها: ١٠٤
١. تبارك الله ذو الملك والموت والحياة: ١٠٥
٢. خلق السماوات وإتقانها: ١٠٧
٣. المصابيح والرجوم والشياطين والسعير: ١٠٩
٤. المغفرة والأجر الكبير للذين يخشون ربهم بالغيب: ١١٢
٥. علم الله بالسر والجهر: ١١٢

٦. جعل الأرض ذلولاً: ١١٤
٧. التحذير من خسف الأرض أو إرسال الحاصب: ١١٥
٨. الطير والصف والقبض وإمساك الرحمن: ١١٦
٩. الغرور والرزق والعتو والنفور: ١١٧
١٠. إنشاء الله للسمع والأبصار والأفئدة والحشر إليه: ١١٩
١١. سؤال المعاندين عن وقت الوعيد: ١٢٠
١٢. الإهلاك الرحمة وتوكل المؤمنين على الله: ١٢١
١٣. فضل الله بإمساك الماء: ١٢٢
سورة القلم ١٢٣
مقاصد السورة ومحتوياتها: ١٢٣
مقاطع السورة ونظمها: ١٢٣
١. القسم بالقلم وبما يسطرون: ١٢٣
٢. نعمة الله على النبي وأجره وخلقه العظيم: ١٢٥
٣. علم الله بالضال والمهتدي والنهي عن طاعة المكذبين: ١٢٨
٤. من صفات المعاندين: ١٢٩
٥. بلاء أصحاب الجنة وقسمهم على صرمها: ١٣١
٦. اعترافهم بالظلم وتوبتهم ورجاء الإبدال: ١٣٥
٧. عذاب الآخرة أكبر مما في الدنيا: ١٣٦
٨. جنات النعيم للمتقين وعدم تساوي المسلمين والمجرمين: ١٣٧
٩. تحديهم بأن لهم كتاباً أو أيماناً أو شركاء: ١٣٩
١٠. يوم القيامة وذلة المعاندين وعجزهم عن السجود: ١٤١
١١. استدراج المكذبين وإمهالهم حتى يلقوا كيد الله: ١٤٤
١٢. دعوة المعاندين للتفكر فيما جاء به النبي وهل يسأل عنه أجراً: ١٤٥
١٣. الصبر لأمر الله وعدم التشبه بصاحب الحوت: ١٤٦
١٤. إزلاق الكفار بأبصارهم واتهامهم النبي بالجنون: ١٤٧
سورة الحاقة ١٤٩
مقاصد السورة ومحتوياتها: ١٤٩
مقاطع السورة ونظمها: ١٤٩

١. التساؤل عن الحاقة وعظمتها وخطرها: ١٤٩
٢. تكذيب ثمود وعاد بالقارعة وإهلاكهم: ١٥٠
٣. مجيء فرعون والمؤتفكات بالخاطئة: ١٥١
٤. حمل البشر في الجارية عند طغيان الماء وجعلها تذكرة: ١٥٢
٥. نفخة الصور ودك الأرض والجبال ووقوع الواقعة: ١٥٤
٦. فرحة من أوتي كتابه بيمينه على نجاته وفوزه: ١٥٦
٧. حسرة من أوتي كتابه بشماله على هلاكه: ١٥٨
٨. أمر الملائكة بتقييد من أوتي كتابه بشماله: ١٥٩
٩. لا حميم لمن أوتي كتابه بشماله ولا طعام إلا من غسلين: ١٥٩
١٠. القسم على أن القرآن قول رسول كريم: ١٦٠
١١. لو تقوّل النبي على الله لعذّبه: ١٦٢
١٢. القرآن تذكرة وحسرة على الكافرين: ١٦٣
سورة المعارج ١٦٤
مقاصد السورة ومحتوياتها: ١٦٤
مقاطع السورة ونظمها: ١٦٥
١. سؤال سائل بعذاب واقع: ١٦٦
٢. الأمر بالصبر الجميل: ١٦٩
٣. تمني المجرم أن يفتدي من العذاب بجميع من في الأرض: ١٧٠
٤. نار لظى نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى: ١٧٢
٥. خلق الإنسان هلوعاً جزوعاً منوعاً: ١٧٢
٦. استثناء المصلين الدائمين على صلاتهم من العذاب: ١٧٣
٧. استثناء الذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم: ١٧٤
٨. استثناء الذين يصدقون بيوم الدين ويخافون عذاب ربهم: ١٧٥
٩. استثناء الذين يحفظون فروجهم: ١٧٦
١٠. استثناء الذين يرعون أماناتهم وعهدهم ويقيمون شهاداتهم: ١٧٦
١١. استثناء الذين يحافظون على صلاتهم وهم في جنات مكرمون: ١٧٧
١٢. التعجب من الكفار الذين يطمعون في الجنة: ١٧٧
١٣. القسم بقدرة الله على تبديلهم وأنه غير مسبوق: ١٨٠

١٤. تركهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلقوا يومهم الموعود:	١٨٢
سورة نوح	١٨٤
مقاصد السورة ومحتوياتها:	١٨٤
مقاطع السورة ونظمها:	١٨٤
١. إنذار نوح لقومه ودعوتهم للعبادة والتقوى:	١٨٤
٢. دعوة نوح الدائمة لقومه المستكبرين:	١٨٧
٣. دعوة نوح جهراً وإسراراً وأمرهم بالاستغفار:	١٨٨
٤. عدم تعظيم قوم نوح لله:	١٨٩
٥. خلق السماوات طباقاً وجعل القمر نوراً والشمس سراجاً:	١٩١
٦. إنبات الله البشر من الأرض وإعادتهم إليها وإخراجهم منها:	١٩٢
٧. شكوى نوح من عصيان قومه واتباعهم للطغاة:	١٩٢
٨. مكر قوم نوح الأكبر وتمسكهم بآلهتهم:	١٩٣
٩. إغراقهم بذنوبهم وإدخالهم ناراً بلا أنصار:	١٩٤
١٠. دعاء نوح بعدم ترك كافر على الأرض:	١٩٥
١١. دعاء نوح بالمغفرة له ولوالديه والمؤمنين:	١٩٦
سورة الجن	١٩٧
مقاصد السورة ومحتوياتها:	١٩٧
مقاطع السورة ونظمها:	١٩٧
١. استماع نفر من الجن للقرآن وإيمانهم به:	١٩٧
٢. تعالي الله عن الصاحبة والولد:	١٩٩
٣. قول سفيه الجن على الله شططاً:	٢٠١
٤. ظن الجن أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً:	٢٠١
٥. استعاذة الإنس بالجن وزيادتهم رهقاً:	٢٠١
٦. لمس الجن للسماء وكونها ملئت حرساً وشهباً:	٢٠٢
٧. من الجن الصالحون ومنهم دون ذلك:	٢٠٤
٨. ظن الجن أن لن يعجزوا الله في الأرض:	٢٠٥
٩. إيمان الجن بالهدى وعدم خوفهم من نقصان أو رهق:	٢٠٥
١٠. من الجن المسلمون ومنهم القاسطون وحطب جهنم:	٢٠٦

١١. لو استقام الجن على الطريق لسقاهم ماءً غدقاً: ٢٠٧
١٢. المساجد لله فلا يجوز أن يُدعى مع الله أي أحد: ٢٠٨
١٣. قيام النبي للدعاء وتكالب الأعداء عليه: ٢١٠
١٤. دعوة النبي لربه وعدم ملكه ضراً أو رشداً: ٢١٠
١٥. لا مجير من الله ومن يعص الله فله نار جهنم: ٢١١
١٦. الله عالم الغيب لا يظهره إلا لمن ارتضى من رسول: ٢١٣
سورة المزمل ٢١٥
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٢١٥
مقاطع السورة ونظمها: ٢١٥
١. أمر النبي بقيام الليل: ٢١٦
٢. الأمر بترتيل القرآن: ٢١٨
٣. إلقاء القول الثقيل على النبي: ٢١٩
٤. ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً: ٢٢٢
٥. للنبي في النهار سبحاً طويلاً: ٢٢٣
٦. ذكر اسم الله والتبتل إليه واتخاذه وكيلاً: ٢٢٤
٧. الصبر على أذى المعاندين والهجر الجميل: ٢٢٦
٨. تهديد المكذبين أولي النعمة: ٢٢٦
٩. إرسال النبي إلى قومه كإرسال موسى إلى فرعون: ٢٢٨
١٠. هول يوم القيامة الذي يشيب فيه الولدان: ٢٢٩
١١. القرآن تذكرة لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً: ٢٣٠
١٢. علم الله بقيام النبي ومن معه الليل وقدره وتخفيفه على المؤمنين: ٢٣٠
١٣. التيسير على المرضى والمسافرين والمجاهدين: ٢٣٣
١٤. تقديم الخير والاستغفار ووجدانه عند الله: ٢٣٤
سورة المدثر ٢٣٦
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٢٣٦
مقاطع السورة ونظمها: ٢٣٦
١. الأمر بالإنذار والتكبير وتطهير الثياب وهجر الرجز: ٢٣٧
٢. النفخ في الصور وعسر ذلك اليوم على الكافرين: ٢٤١

٣. تهديد المستكبر على النبي والقرآن: ٢٤٤
٤. عناد المكذّب وتفكيره وتقديره واستكباره: ٢٤٤
٥. المعاند وسقر: ٢٤٦
٦. جعل خزنة النار ملائكة وعددهم فتنة للكفار: ٢٤٧
٧. إضلال الله وهدايته لمن يشاء وعدة جنوده: ٢٤٩
٨. القسم على صدق النبي وما جاء به من إنذارات: ٢٥٠
٩. كل نفس رهينة بما كسبت إلا أصحاب اليمين: ٢٥١
١٠. إعراض الكفار عن التذكرة وتشبيههم بالحمر المستنفرة: ٢٥٣
١١. عدم خوف الكفار من الآخرة: ٢٥٤
١٢. القرآن تذكرة لمن شاء أن يتذكر: ٢٥٦
سورة القيامة ٢٥٩
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٢٥٩
مقاطع السورة ونظمها: ٢٥٩
١. القسم بيوم القيامة والنفس اللوامة: ٢٥٩
٢. إثبات قدرة الله على بعث العظام: ٢٦٠
٣. إنكار الإنسان ليوم القيامة واستعجاله: ٢٦١
٤. أهوال يوم القيامة وانكشاف الحقائق: ٢٦٢
٥. شهادة الإنسان على نفسه يوم القيامة: ٢٦٣
٦. تعليم النبي كيفية تلقي القرآن: ٢٦٥
٧. تفضيل الكفار الدنيا على الآخرة: ٢٦٨
٨. نعيم أهل الجنة ونضارة وجوههم: ٢٦٨
٩. وجوه أهل النار ذليلة محطمة: ٢٧١
١٠. سكرات الموت ومصير الإنسان: ٢٧١
١١. عاقبة من كذّب وتولى عن الحق: ٢٧٣
١٢. دليل قدرة الله على إحياء الموتى: ٢٧٣
سورة الإنسان ٢٧٧
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٢٧٧
أحاديث وآثار: ٢٧٧

مقاطع السورة ونظمها:	٢٧٩
١. الإنسان بين العدم والوجود:	٢٨٠
٢. خلق الإنسان من نطفة أمشاج وامتحانه:	٢٨٢
٣. هداية الإنسان واختياره بين الشكر والكفر:	٢٨٣
٤. عذاب الله للكافرين في الآخرة:	٢٨٦
٥. شراب الأبرار في الجنة:	٢٨٦
٦. وفاء الأبرار بالنذر وخوفهم من الله:	٢٨٨
٧. إيثار الأبرار وإطعامهم للفقراء:	٢٨٩
٨. جزاء الأبرار في الجنة:	٢٩٣
٩. آنية الجنة وأطعمتها وأشربتها:	٢٩٤
١٠. خدمة الولدان لأهل الجنة:	٢٩٥
١١. نعيم الجنة وملكها العظيم:	٢٩٦
١٢. لباس أهل الجنة وحليهم وشرابهم:	٢٩٧
١٣. الجزاء على السعي المشكور:	٢٩٨
١٤. توجيه النبي إلى الصبر والذكر والعبادة:	٢٩٩
١٥. محبة الكفار للدنيا وإعراضهم عن الآخرة:	٣٠٠
١٦. قدرة الله على الخلق والإبدال:	٣٠١
١٧. التذكرة بالقرآن ومشيئة الله ورحمته:	٣٠١
سورة المرسلات	٣٠٤
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٣٠٤
مقاطع السورة ونظمها:	٣٠٤
١. القسم بالمرسلات وإثبات وقوع الوعد:	٣٠٤
٢. أهوال يوم الفصل:	٣٠٨
٣. سنة الله في إهلاك المكذبين:	٣١٠
٤. خلق الإنسان من ماء مهين وقدرة الله:	٣١١
٥. نعم الله في الأرض من ماء وجبال:	٣١٢
٦. وعيد المكذبين بظل جهنم وشررها:	٣١٣
٧. يوم القيامة لا ينطق المذنبون ولا يعذرون:	٣١٤

٨. يوم الفصل وجمع الأولين والآخرين: ٣١٤
٩. نعيم المتقين في ظلال وعيون وفواكه: ٣١٥
١٠. تهديد المكذبين ورفضهم للسجود: ٣١٦
سورة النبأ ٣١٨
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٣١٨
مقاطع السورة ونظمها: ٣١٨
١. تساؤل المشركين عن النبأ العظيم: ٣١٨
٢. آيات الله في الأرض والسماء للإنسان: ٣٢١
٣. يوم الفصل ونفخ الصور وأهوال القيامة: ٣٢٤
٤. عذاب الطاغين في جهنم: ٣٢٦
٥. جزاء المتقين في الجنان: ٣٢٩
٦. عطاء الله الجزيل للمتقين: ٣٣٠
٧. قيام الروح والملائكة لله: ٣٣٢
٨. اليوم الحق ودعوة الإنسان للمآب: ٣٣٥
٩. التحذير من عذاب قريب وندم الكافر: ٣٣٥
سورة النازعات ٣٣٧
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٣٣٧
مقاطع السورة ونظمها: ٣٣٧
١. القسم بالملائكة المدبرات لأمر الله: ٣٣٧
٢. البعث بعد الموت وما فيه من أهوال: ٣٤٢
٣. قصة موسى وفرعون عبرة للمتقين: ٣٤٥
٤. خلق السماء أعظم من خلق الإنسان: ٣٤٩
٥. تسخير الأرض وما فيها للإنسان: ٣٥٠
٦. يوم الطامة الكبرى وتذكر الإنسان: ٣٥١
٧. مصير الطاغين المؤثرين للدنيا: ٣٥١
٨. مصير الخائفين من مقام ربهم: ٣٥٣
٩. علم الساعة عند الله وإنذار الناس: ٣٥٤
سورة عبس ٣٥٨

مقاصد السورة ومحتوياتها: ٣٥٨
مقاطع السورة ونظمها: ٣٥٨
١. عتاب العابس لمجيء الأعمى: ٣٥٩
٢. القرآن تذكرة في صحف مكرمة: ٣٦٣
٣. الإنسان بين خلق الله وإماتته وإحيائه: ٣٦٤
٤. نعم الله في الطعام والشراب والنبات: ٣٦٨
٥. يوم الصاخة والفرار من الأقربين: ٣٧١
٦. وجوه المؤمنين والكافرين يوم القيامة: ٣٧١
سورة التكوير ٣٧٣
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٣٧٣
مقاطع السورة ونظمها: ٣٧٣
١. من أهوال يوم القيامة: ٣٧٣
٢. سؤال الموؤودة عن الذنب الذي جعلهم يقتلونها بسببه: ٣٧٦
٣. نشر الصحف يوم القيامة: ٣٧٦
٤. كشف السماء وإزاحتها: ٣٧٦
٥. إيقاد النار وتقريب الجنة: ٣٧٧
٦. القسم بالكواكب والليل والصبح: ٣٧٧
٧. القرآن قول رسول كريم عند الله: ٣٧٩
٨. النبي ليس بمجنون ورؤيته للوحي: ٣٨٠
٩. القرآن تنزيل من الله وليس من شيطان: ٣٨١
١٠. القرآن ذكر للعالمين لمن أراد الاستقامة: ٣٨٢
سورة الانفطار ٣٨٤
١. انفطار السماء وانتثار الكواكب وانفجار البحار: ٣٨٤
٢. توبيخ الإنسان على غروره بالله الكريم: ٣٨٥
٣. حفظة الأعمال يكتبون ما يفعلون: ٣٨٨
٤. الأبرار في النعيم والفجار في الجحيم: ٣٩٠
٥. عظمة يوم الدين والأمر كله لله: ٣٩٠
سورة المطففين ٣٩٢

مقاصد السورة ومحتوياتها: ٣٩٢
مقاطع السورة ونظمها: ٣٩٢
١. وعيد المطففين الذين يبخسون المكيال والميزان: ٣٩٢
٢. إيقاظ المطففين بيوم البعث العظيم: ٣٩٣
٣. كتاب الفجار في سجين: ٣٩٤
٤. تكذيب المكذبين بيوم الدين: ٣٩٦
٥. الران على قلوب المكذبين من كسبهم: ٣٩٧
٦. حجاب الكفار عن ربهم يوم القيامة: ٣٩٩
٧. دخول الكفار النار جزاء تكذيبهم: ٣٩٩
٨. كتاب الأبرار في عليين: ٣٩٩
٩. نعيم الأبرار ورؤيتهم للنعيم في وجوههم: ٤٠١
١٠. شراب الأبرار من الرحيق المختوم: ٤٠١
١١. استهزاء المجرمين بالمؤمنين في الدنيا: ٤٠٣
١٢. ضحك المؤمنين من الكفار يوم القيامة: ٤٠٤
سورة الانشقاق ٤٠٥
١. انشقاق السماء وامتداد الأرض: ٤٠٥
٢. كدح الإنسان إلى ربه ويوم اللقاء: ٤٠٦
٣. القسم بالشفق والليل والقمر: ٤١٠
٤. عذاب الكفار وأجر المؤمنين غير الممنون: ٤١١
سورة البروج ٤١٣
١. القسم بالسماء ذات البروج واليوم الموعود: ٤١٣
٢. قصة أصحاب الأخدود: ٤١٦
٣. سبب حرق أصحاب الأخدود هو إيمانهم بالله: ٤١٨
٤. عذاب الذين فتنوا المؤمنين ولم يتوبوا: ٤٢٠
٥. الفوز العظيم للمؤمنين العاملين الصالحات: ٤٢٠
٦. بطش الله شديد وهو الغفور الودود: ٤٢٠
٧. جنود فرعون وثمود وإحاطة الله بهم: ٤٢٢
٨. القرآن المجيد في اللوح المحفوظ: ٤٢٢

سورة الطارق	٤٢٤
١. القسم بالسماء والنجم وحفظ الله للنفس:	٤٢٤
٢. خلق الإنسان من ماء دافق:	٤٢٥
٣. قدرة الله على إعادة الإنسان واختبار السرائر:	٤٢٦
٤. القسم على أن القرآن قول فصل وليس بالهزل:	٤٢٨
٥. كيد الكفار وكيد الله لهم:	٤٢٩
سورة الأعلى	٤٣٠
١. تسبيح اسم الله الأعلى الذي خلق فسوى:	٤٣٠
٢. تسبيح اسم الله الذي قدّر فهدى:	٤٣٢
٣. تسبيح اسم الله الذي أخرج المرعى فجعله أحوى:	٤٣٢
٤. وعد الله نبيه بإقرائه القرآن وتيسيره له:	٤٣٣
٥. التذكير ينفع من يخشى:	٤٣٥
٦. أفلح من تزكى وذكر الله وصلى:	٤٣٧
٧. المعاندون وإيثار الدنيا والآخرة خير وأبقى:	٤٣٨
٨. الحقائق الموجودة في صحف إبراهيم وموسى:	٤٣٨
سورة الغاشية	٤٤٠
١. أهوال الغاشية وعذاب الكفار:	٤٤٠
٢. نعيم أهل الجنة في الجنات العالية:	٤٤١
٣. دعوة للتفكر في خلق الإبل والسماء والجبال والأرض:	٤٤٢
٤. النبي مذكر وليس بمسيطر:	٤٤٣
٥. إياب الخلق إلى الله وحسابهم عليه:	٤٤٥
سورة الفجر	٤٤٦
١. القسم بالفجر والليالي العشر والشفع والوتر:	٤٤٦
٢. عقاب الله لعاد وإرم ذات العماد:	٤٤٩
٣. عقاب ثمود وفرعون الطاغين في البلاد:	٤٥٠
٤. ظن الإنسان الخاطئ في الابتلاء بالنعم والنقم:	٤٥١
٥. ذم الإنسان على إهماله اليتيم والمسكين:	٤٥٣
٦. دك الأرض ومجيء أمر الله والملائكة:	٤٥٤

٧. تذكير الإنسان بجهنم وندمه ووعده: ٤٥٥
٨. نداء الله للنفس المطمئنة بدخول الجنة: ٤٥٦
سورة البلد ٤٥٩
١. القسم على أن الإنسان في كبد: ٤٥٩
٢. ظن الإنسان أنه لن يقدر عليه أحد: ٤٦٢
٣. نعم الله على الإنسان وبيان النجدين: ٤٦٣
٤. اقتحام العقبة بالإيمان والعمل الصالح: ٤٦٤
٥. الكافرون بآيات الله أصحاب المشأمة والنار: ٤٦٦
سورة الشمس ٤٦٧
١. القسم بالشمس والقمر والنهار والليل: ٤٦٧
٢. فلاح من زكى نفسه وخيبة من دسها: ٤٧٠
٣. قصة ثمود وناقة الله وعقابهم: ٤٧١
سورة الليل ٤٧٤
١. القسم بالليل والنهار والذكر والأنثى: ٤٧٤
٢. تيسير اليسرى لمن أعطى واتقى وصدق: ٤٧٥
٣. تيسير العسرى لمن بخل واستغنى وكذب: ٤٧٦
٤. الهدى والآخرة والأولى لله: ٤٧٧
٥. النار تلظى للأشقى المكذب المتولي: ٤٧٩
٦. تجنب النار للأتقى المتصدق: ٤٨٠
٧. العطاء لوجه الله والرضا: ٤٨٢
سورة الضحى ٤٨٤
١. القسم بالضحى والليل على عدم ترك الله لنبيه: ٤٨٤
٢. الآخرة خير للنبي من الأولى: ٤٨٤
٣. وعد الله لنبيه بالعطاء والرضا: ٤٨٥
٤. تذكير النبي بنعمة الإيواء بعد اليتم: ٤٨٥
٥. تذكير النبي بنعمة الهداية بعد الضلال: ٤٨٦
٦. تذكير النبي بنعمة الغنى بعد العيلة: ٤٨٧
٧. وصية النبي باليتيم والسائل والتحدث بنعمة الله: ٤٨٧

سورة الشرح	٤٨٩
١. شرح الصدر ورفع الوزر والذكر:	٤٨٩
٢. سنة الله في وضع اليسر مع العسر:	٤٩٢
٣. الفراغ والنصب والرغبة إلى الله:	٤٩٣
سورة التين	٤٩٥
١. القسم بالتين والزيتون وطور سينين والبلد الأمين:	٤٩٥
٢. خلق الإنسان في أحسن تقويم ورده أسفل سافلين:	٤٩٦
٣. تساؤل عن تكذيب الدين وحكم الله:	٤٩٧
سورة العلق	٥٠٠
١. الأمر بالقراءة باسم الرب الذي خلق الإنسان من علق:	٥٠٠
٢. الرب الأكرم الذي علم بالقلم وعلم الإنسان:	٥٠٣
٣. طغيان الإنسان إذا رأى نفسه غنياً:	٥٠٤
٤. توبيخ المانع للعبد عن الصلاة:	٥٠٥
٥. تهديد الكذاب الخاطئ بالناصية والزبانية:	٥٠٧
سورة القدر	٥٠٩
١. إنزال القرآن في ليلة القدر:	٥٠٩
٢. تنزل الملائكة والروح في ليلة القدر:	٥١٣
سورة البينة	٥١٥
١. الكفار لم يكونوا منفكين حتى تأتيهم البينة:	٥١٥
٢. تفرق أهل الكتاب بعد مجيء البينة:	٥١٧
٣. الأمر بعبادة الله بإخلاص:	٥١٨
٤. الكفار في نار جهنم وهم شر البرية:	٥١٩
٥. المؤمنون الذين يعملون الصالحات هم خير البرية:	٥٢٠
٦. جزاء الصالحين جنات عدن ورضوان من الله:	٥٢٠
سورة الزلزلة	٥٢٢
١. زلزلة الأرض وإخراج أثقالها:	٥٢٢
٢. تحديث الأرض أخبارها بإذن الله:	٥٢٢
٣. خروج الناس أشتاتاً ورؤيتهم أعمالهم:	٥٢٣

سورة العاديات	٥٢٦
١. القسم بالخيل العاديات المغيرات:	٥٢٦
٢. الإنسان كنود لربه وشهيد على ذلك:	٥٢٨
٣. بعثرة القبور وتحصيل الصدور:	٥٢٩
سورة القارعة	٥٣٠
١. هول القارعة:	٥٣٠
٢. حال الناس والجبال يوم القارعة:	٥٣٠
٣. العيشة الراضية لمن ثقلت موازينه:	٥٣١
٤. جزاء من خفت موازينه:	٥٣١
سورة التكاثر	٥٣٣
١. التكاثر يلهي حتى الممات:	٥٣٣
٢. اكتشاف اللاهين للحقائق ورؤيتها رأي العين:	٥٣٤
٣. رؤية الجحيم عين اليقين والسؤال عن النعيم:	٥٣٥
سورة العصر	٥٣٧
١. القسم بالعصر على خسران الإنسان:	٥٣٧
٢. نجاة المؤمنين العاملين الصالحات المتواصين:	٥٣٨
سورة الهمزة	٥٤٠
١. الويل للهمزة اللمزة الذي حصر اهتمامه في جمع المال:	٥٤٠
٢. الحطمة نار الله الموقدة على الأفئدة:	٥٤١
سورة الفيل	٥٤٤
١. فعل الله بأصحاب الفيل:	٥٤٤
٢. إرسال الطير الأبابيل بالحجارة من سجيل:	٥٤٦
سورة قريش	٥٤٧
١. إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف:	٥٤٨
٢. دعوة قريش لعبادة رب البيت الذي أنعم عليهم بالطعام والأمن:	٥٤٩
سورة الماعون	٥٥١
١. الذي يكذّب بالدين والقسوة على اليتيم والمسكين:	٥٥١
٢. الويل للمرائين مانعي الماعون:	٥٥١

سورة الكوثر	٥٥٤
١. إعطاء النبي الكوثر:	٥٥٤
٢. الأمر بالصلاة والنسك والنحر:	٥٥٦
٣. الشانئ هو الأبتر:	٥٥٧
سورة الكافرون	٥٥٩
١. البراءة من عبادة الكفار:	٥٥٩
٢. تميز الأديان وعدم اختلاطها:	٥٦١
سورة النصر	٥٦٢
١. نصر الله وفتحه:	٥٦٢
٢. دخول الناس في دين الله أفواجاً:	٥٦٧
٣. الأمر بالتسبيح والاستغفار والتوبة:	٥٦٨
سورة المسد	٥٧٠
١. هلاك أبي لهب:	٥٧٠
٢. امرأة أبي لهب حمالة الحطب:	٥٧١
سورة الإخلاص	٥٧٤
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٥٧٤
أحاديث وآثار:	٥٧٤
١. الله أحد صمد:	٥٧٥
٢. الله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد:	٥٧٧
سورة الفلق	٥٨٠
مقاصد السورة ومحتوياتها:	٥٨٠
أحاديث وآثار:	٥٨٠
١. الاستعاذة من شر ما خلق:	٥٨١
٢. الاستعاذة من شر غاسق إذا وقب:	٥٨٢
٣. الاستعاذة من شر النفاثات في العقد:	٥٨٢
٤. الاستعاذة من شر حاسد إذا حسد	٥٨٣
سورة الناس	٥٨٥
١. الاستعاذة برب الناس وملكهم وإلههم:	٥٨٥

٢. الاستعاذة من شر الوسواس الخناس: ٥٨٦

سورة الصف

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٩] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. السورة ترغب المؤمنين وتحرضهم على أن يجاهدوا في سبيل الله ويقاتلوا أعداء دينه، وتنبئهم أن هذا الدين نور ساطع لله سبحانه، يريد الكفار من أهل الكتاب أن يطفئوه بأفواههم، والله متمه ولو كره الكافرون، ومظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

ب. وأن هذا النبي الذي آمنوا به رسول من الله أرسله بالهدى ودين الحق، وبشر به عيسى بن مريم عليه السلام بني إسرائيل.

ج. فعلى المؤمنين أن يشدوا العزم على طاعته وامتثال ما يأمرهم به من الجهاد ونصرة الله في دينه، حتى يسعدهم الله في آخرتهم وينصرهم ويفتح لهم في دنياهم ويؤيدهم على أعدائهم.

د. وعليهم أن لا يقولوا ما لا يفعلون، ولا ينكصوا فيما يعدون، فإن ذلك يستوجب مقتاً من الله تعالى وإيذاء الرسول، وفيه خطر أن يزيغ الله قلوبهم، كما فعل بقوم موسى عليه السلام لما آذوه وهم يعلمون أنه رسول الله إليهم، والله لا يهدي القوم الظالمين.

هـ. والسورة مدنية بشهادة سياق آياتها.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٨] على المؤمنين أن يشدوا العزم على طاعته وامتثال ما يأمرهم به من الجهاد ونصرة الله في دينه، حتى يسعدهم الله في آخرتهم وينصرهم ويفتح لهم في دنياهم ويؤيدهم على أعدائهم، وعليهم أن لا يقولوا ما لا يفعلون ولا ينكصوا فيما يعدون، فإن ذلك يستوجب مقتاً من الله تعالى وإيذاء الرسول، وفيه خطر أن يزيغ الله قلوبهم كما فعل بقوم موسى عليه السلام لما آذوه وهم يعلمون أنه رسول الله إليهم، والله لا يهدي القوم الظالمين.

٢. الآيات [١٠ ـ ١٤]:

أ. دعوة للمؤمنين إلى الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله، ووعد جميل بالمغفرة والجنة في

الآخرة، وبالنصر والفتح في الدنيا، ودعوة لهم إلى أن يثبتوا على نصرهم لله، ووعد جميل بالتأييد.

ب. والمعنيان هما الغرض الأقصى في السورة، والآيات السابقة كالتوطئة والتمهيد بالنسبة إليهما.

١. التسبيح الإلهي وذم القول بلا فعل:

المقطع [١] من سورة الصّف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ١ـ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٤٨»:

١. ﴿سَبَّحَ للهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدم تفسيره، وافتتاح الكلام بالتسبيح لما فيها من توبيخ المؤمنين بقولهم ما لا يفعلون وإنذارهم بمقت الله وإزاغته قلوب الفاسقين.

٢. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ﴾:

أ. ﴿لِمَ﴾ مخفف لما، و(ما) استفهامية، واللام للتعليل، والكلام مسوق للتوبيخ ففيه توبيخ المؤمنين على قولهم ما لا يفعلون ولا يصغي إلى قول بعض المفسرين: أن المراد بالذين آمنوا هم المنافقون والتوبيخ لهم دون المؤمنين لجلالة قدرهم.

ب. وذلك لوفور الآيات المتضمنة لتوبيخهم ومعاتبتهم وخاصة في الآيات النازلة في الغزوات وما يلحق بها كأحد والأحزاب وحنين وصلح الحديبية وتبوك والإنفاق في سبيل الله وغير ذلك، والصالحون من هؤلاء المؤمنين إنما صلحوا نفسا وجلوا قدرا بالتربية الإلهية التي تتضمنها أمثال هذه التوبيخات والعتابات المتوجهة إليهم تدريجا ولم يتصفوا بذلك من عند أنفسهم.

ج. ومورد التوبيخ وإن كان بحسب ظاهر لفظ الآية مطلق تخلف الفعل عن القول وخلف الوعد ونقض العهد وهو كذلك لكونه من آثار مخالفة الظاهر للباطن وهو النفاق لكن سياق الآيات وفيها قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ وما سيأتي من قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ﴾، وغير ذلك يفيد أن متعلق التوبيخ كان هو تخلف بعضهم عما وعده من الثبات في القتال وعدم الانهزام والفرار أو تثاقلهم أو تخلفهم عن الخروج أو عدم الإنفاق في تجهز أنفسهم أو تجهيز غيرهم.

٣. ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ﴾ المقت البغض الشديد، والآية في مقام التعليل لمضمون الآية السابقة فهو تعالى يبغض من الإنسان أن يقول ما لا يفعله لأنه من النفاق، وأن يقول الإنسان

ما لا يفعله غير أن لا يفعل ما يقوله فالأول من النفاق والثاني من ضعف الإرادة ووهن العزم وهو رذيلة منافية لسعادة النفس الإنسانية فإن الله بنى سعادة النفس الإنسانية على فعل الخير واكتساب الحسنة من طريق الاختيار ومفتاحه العزم والإرادة، ولا تأثير إلا للراسخ من العزم والإرادة، وتخلف الفعل عن القول معلول وهن العزم وضعف الإرادة ولا يرجى للإنسان مع ذلك خير ولا سعادة.

٢. حب الله للذين يقاتلون في صف واحد:

المقطع [٢] من سورة الصّف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٤٩»:

١. ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ﴾:

أ. الصف جعل الأشياء على خط مستو كالناس والأشجار، كذا قاله الراغب، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل ولذا لم يجمع، وهو حال من ضمير الفاعل في ﴿يُقاتِلُونَ﴾، والمعنى: يقاتلون في سبيله حال كونهم صافين.

ب. والبنيان هو البناء، والمرصوص من الرصاص، والمراد به ما أحكم من البناء بالرصاص فيقاوم ما يصادمه من أسباب الانهدام.

ج. والآية تعلل خصوص المورد، وهو أن يعدوا الثبات في القتال ثم ينهزموا، بالالتزام كما أن الآية السابقة تعلل التوبيخ على مطلق أن يقولوا ما لا يفعلون، وذلك أن الله سبحانه إذا أحب الذين يقاتلون فيلزمون مكانهم ولا يزولون كان لازمه أن يبغض الذين يعدون أن يثبتوا ثم ينهزمون إذا حضروا معركة القتال.

٢. أحاديث وآثار: في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا، كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ﴾ قال: يصطفون كالبنيان الذي لا يزول.

٣. أذى قوم موسى لنبيهم وزيغ قلوبهم:

المقطع [٣] من سورة الصّف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهَّ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهَّ قُلُوبَهُمْ وَاللهَّ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٤٩»:

١. ﴿وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ﴾:

أ. في الآية إشارة إلى إيذاء بني إسرائيل رسولهم موسى عليه السلام ولجاجهم حتى آل إلى إزاغة الله قلوبهم، وفي ذلك نهي التزامي للمؤمنين عن أن يؤذوا رسول الله ﷺ فيئول أمرهم إلى ما آل إليه أمر قوم موسى من إزاغة القلوب وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً﴾ [الأحزاب: ٥٧]

ب. والآية بما فيها من النهي الالتزامي في معنى قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قالُوا وَكانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ [الأحزاب: ٧٠]

ج. وسياق الآيتين وذكر تبرئة موسى عليه السلام يدل على أن المراد بإيذائه بما برأه الله منه ليس معصيتهم لأوامره وخروجهم عن طاعته إذ لا معنى حينئذ لتبرئته بل هو أنهم وقعوا فيه عليه السلام وقالوا فيه ما فيه عار وشين فتأذى فبرأه الله مما قالوا ونسبوا إليه، وقوله في الآية التالية: ﴿اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ يؤيد هذا الذي ذكرناه.

د. ويؤيد ذلك إشارته تعالى إلى بعض مصاديق إيذاء النبي ﷺ بقول أو فعل في قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾، إلى أن قال ـ﴿وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ﴾، إلى أن قال ـ﴿وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٥٣]

هـ. فتحصل أن في قوله: ﴿وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ﴾، تلويحا إلى النهي عن إيذاء النبي ﷺ بقول أو فعل على علم بذلك كما أن في ذيل الآية تخويفا وإنذارا أنه فسق ربما أدى إلى إزاغته تعالى قلب من تلبس به.

٢. ﴿فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾:

أ. الزيغ الميل عن الاستقامة ولازمه الانحراف عن الحق إلى الباطل.

ب. وإزاغته تعالى إمساك رحمته وقطع هدايته عنهم كما يفيده التعليل بقوله: ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ

الْفاسِقِينَ﴾ حيث علل الإزاغة بعدم الهداية، وهي إزاغة على سبيل المجازاة وتثبيت للزيغ الذي تلبسوا به أولا بسبب فسقهم المستدعي للمجازاة كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، وليس بإزاغة بدئية وإضلال ابتدائي لا يليق بساحة قدسه تعالى.

ج. ومن هنا يظهر فساد ما قيل: إنه لا يجوز أن يكون المراد بقوله: ﴿أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ الإزاغة عن الإيمان لأن الله تعالى لا يجوز أن يزيغ أحدا عن الإيمان، وأيضا كون المراد به الإزاغة عن الإيمان يخرج الكلام عن الفائدة لأنهم إذا زاغوا عن الإيمان فقد صاروا كفارا فلا معنى لقوله: أزاغهم الله عن الإيمان.

• وجه الفساد أن قوله: لا يجوز له تعالى أن يزيغ أحدا عن الإيمان ممنوع بإطلاقه فإن الملاك فيه لزوم الظلم وإنما يلزم فيما كان من الإزاغة والإضلال ابتدائيا وأما ما كان على سبيل المجازاة وحقيقته إمساك الرحمة وقطع الهداية لتسبيب العبد لذلك بفسقه وإعراضه عن الرحمة والهداية فلا دليل على منعه لا عقلا ولا نقلا.

• وأما قوله: إن الكلام يخرج بذلك عن الفائدة فيدفعه أن الذي ينسب من الزيغ إلى العبد ويحصل معه الكفر تحقق ما له بالفسق والذي ينسب إليه تعالى تثبيت الزيغ في قلب العبد والطبع عليه به فزيغ العبد عن الإيمان بسبب فسقه وحصول الكفر بذلك لا يغني عن تثبيت الله الزيغ والكفر في قلبه على سبيل المجازاة.

٣. أحاديث وآثار: في المجمع: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ، يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ﴾ روي في قصة قارون أنه دس إليه امرأة، وزعم أنه زنى بها، ورموه بقتل هارون.

٤. بشارة عيسى بأحمد واتهامهم له بالسحر:

المقطع [٤] من سورة الصّف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٥١»:

١. ﴿وَإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾:

أ. تقدم في صدر الكلام أن هذه الآية والتي قبلها والآيات الثلاث بعدها مسوقة لتسجيل أن النبي ﷺ رسول معلوم الرسالة عند المؤمنين أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون من أهل الكتاب، وما جاء به من الدين نور ساطع من عند الله يريد المشركون ليطفئوه بأفواههم والله متم نوره ولو كره المشركون.

ب. فعلى المؤمنين أن لا يؤذوه ﷺ وهم يعلمون أنه رسول الله إليهم، وأن ينصروه ويجاهدوا في سبيل ربهم لإحياء دينه ونشر كلمته.

ج. ومن ذلك يعلم أن قوله: ﴿وَإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ﴾، كالتوطئة لما سيذكر من كون النبي ﷺ رسولا مبشرا به من قبل أرسله الله بالهدى ودين الحق ودينه نوره تعالى يهتدي به الناس.

د. والذي حكاه تعالى عن عيسى بن مريم عليه السلام أعني قوله: ﴿يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ ملخص دعوته وقد آذن بأصل دعوته بقوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ﴾ فأشار إلى أنه لا شأن له إلا أنه حامل رسالة من الله إليهم، ثم بين متن ما أرسل إليهم لأجل تبليغه في رسالته بقوله: ﴿مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ﴾

هـ. فقوله: ﴿مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ﴾ بيان أن دعوته لا تغاير دين التوراة ولا تناقض شريعتها بل تصدقها ولم تنسخ من أحكامها إلا يسيرا والنسخ بيان انتهاء أمد الحكم وليس بإبطال، ولذا جمع عليه السلام بين تصديق التوراة ونسخ بعض أحكامها فيما حكاه الله تعالى من قوله: ﴿وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، ولم يبين لهم إلا بعض ما يختلفون فيه كما في قوله المحكي: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف: ٦٣]

٢. ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾:

أ. إشارة إلى الشطر الثاني من رسالته عليه السلام وقد أشار إلى الشطر الأول بقوله: ﴿مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ﴾

ب. ومن المعلوم أن البشرى هي الخبر الذي يسر المبشر ويفرحه ولا يكون إلا بشيء من الخير يوافيه ويعود إليه، والخير المترقب من بعثة النبي ودعوته هو انفتاح باب من الرحمة الإلهية على الناس فيه

سعادة دنياهم وعقباهم من عقيدة حقة أو عمل صالح أو كليهما، والبشرى بالنبي بعد النبي وبالدعوة الجديدة بعد حلول دعوة سابقة واستقرارها والدعوة الإلهية واحدة لا تبطل بمرور الدهور وتقضي الأزمنة واختلاف الأيام والليالي، إنما تتصور إذا كانت الدعوة الجديدة أرقى فيما تشتمل عليه من العقائد الحقة والشرائع المعدلة لأعمال المجتمع وأشمل لسعادة الإنسان في دنياه وعقباه.

ج. وبهذا البيان يظهر أن معنى قوله عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي﴾، يفيد كون ما أتى به النبي أحمد ﷺ أرقى وأكمل مما تضمنته التوراة وبعث به عيسى عليه السلام وهو عليه السلام متوسط رابط بين الدعوتين.

د. ويعود معنى كلامه: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً﴾، إلى أني رسول من الله إليكم أدعو إلى شريعة التوراة ومنهاجها، ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم، وهي شريعة سيكملها الله ببعث نبي يأتي من بعدي اسمه أحمد.

هـ. وهو كذلك فإمعان التأمل في المعارف الإلهية التي يدعو إليها الإسلام يعطي أنها أدق مما في غيره من الشرائع السماوية السابقة وخاصة ما يندب إليه من التوحيد الذي هو أصل الأصول الذي يبتني عليه كل حكم ويعود إليه كل من المعارف الحقيقية وقد تقدم شطر من الكلام فيه في المباحث السابقة من الكتاب.

و. وكذا الشرائع والقوانين العملية التي لم تدع شيئا مما دق وجل من أعمال الإنسان الفردية والاجتماعية إلا عدلته وحدت حدوده وقررته على أساس التوحيد ووجهته إلى غرض السعادة.

ز. وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وآيات أخرى يصف القرآن.

ح. والآية أعني قوله: ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي﴾ وإن كانت مصرحة بالبشارة لكنها لا تدل على كونها مذكورة في كتابه عليه السلام غير أن آية الأعراف المنقولة آنفا: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ وكذا قوله في صفة النبي ﷺ: ﴿ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ الآية: [الفتح: ٢٩]، يدلان على ذلك.

٣. ﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾:

أ. دلالة السياق على تعبير عيسى عليه السلام عنه ﷺ بأحمد وعلى كونه اسما له يعرف به عند الناس كما كان يسمى بمحمد ظاهرة لا سترة عليها، ويدل عليه قول حسان:

صلى الإله ومن يحف بعرشه...والطيبون على المبارك أحمد

ومن أشعار أبي طالب قوله:

وقالوا لأحمد أنت امرؤ...خلوف اللسان ضعيف السبب

ألا إن أحمد قد جاءهم...بحق ولم يأتهم بالكذب

وقوله مخاطبا للعباس وحمزة وجعفر وعلي يوصيهم بنصر النبي ﷺ:

كونوا فدى لكم أمي وما ولدت...في نصر أحمد دون الناس أتراسا

ومن شعره فيه ﷺ وقد سماه باسمه الآخر محمد:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمدا...نبيا كموسى خط في أول الكتب

ويستفاد من البيت أنهم عثروا على وجود البشارة به ﷺ في الكتب السماوية التي كانت عند أهل الكتاب يومئذ ذاك.

ب. ويؤيده أيضا إيمان جماعة من أهل الكتاب من اليهود والنصارى وفيهم قوم من علمائهم كعبد الله بن سلام وغيره وقد كانوا يسمعون هذه الآيات القرآنية التي تذكر البشارة به ﷺ وذكره في التوراة والإنجيل فتلقوه بالقبول ولم يكذبوه ولا أظهروا فيه شيئا من الشك والترديد.

ج. وأما خلو الأناجيل الدائرة اليوم عن بشارة عيسى بما فيها من الصراحة فالقرآن، وهو آية معجزة باقية، في غنى عن تصديقها، وقد تقدم البحث عن سندها واعتبارها في الجزء الثالث من الكتاب.

٤. ﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾:

أ. ضمير (جاء) لأحمد ﷺ، وضمير ﴿جاءَهُمْ﴾ لبني إسرائيل أو لهم ولغيرهم، والمراد بالبينات البشارة ومعجزة القرآن وسائر آيات النبوة.

ب. والمعنى: فلما جاء أحمد المبشر به بني إسرائيل أو أتاهم وغيرهم بالآيات البينة التي منها بشارة عيسى عليه السلام قالوا هذا سحر مبين، وقرئ هذا ساحر مبين.

ج. وقيل: ضمير (جاء) لعيسى عليه السلام، والسياق لا يلائمه.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ الآية قال: وسأل بعض اليهود لعنهم الله رسول الله ﷺ: لم سميت أحمد ومحمدا وبشيرا ونذيرا؟ فقال: أما محمد فإني في الأرض محمود، وأما أحمد فإني في السماء أحمد مني في الأرض، وأما البشير فأبشر من أطاع الله بالجنة، وأما النذير فأنذر من عصى الله بالنار.

ب. وفي الدر المنثور، في الآية أخرج ابن مردويه عن العرياض بن سارية سمعت رسول الله ﷺ يقول: إني عبد الله في أم الكتاب وخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسوف أنبئكم تأويل ذلك، أنا دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور، أضاء له قصور الشام.

ج. وفي العيون، بإسناده إلى صفوان بن يحيى صاحب السابري قال: سألني أبو قرة صاحب الجاثليق أن أوصله إلى الرضا عليه السلام، فاستأذنته في ذلك، قال: أدخله علي، فلما دخل عليه قبل بساطه وقال: هكذا علينا في ديننا أن نفعل بأشراف أهل زماننا، ثم قال: أصلحك الله ما تقول في فرقة ادعت دعوى فشهدت لهم فرقة أخرى معدلون؟ قال: الدعوى لهم، قال: فادعت فرقة أخرى دعوى فلم يجدوا شهودا من غيرهم؟ قال: لا شيء لهم، قال: فإنا نحن ادعينا أن عيسى روح الله وكلمته، فوافقنا على ذلك المسلمون، وادعى المسلمون أن محمدا نبي فلم نتابعهم عليه، وما أجمعنا عليه خير مما افترقنا فيه، فقال أبو الحسن عليه السلام ما اسمك؟ قال: يوحنا، قال: يا يوحنا إنا آمنا بعيسى روح الله وكلمته الذي كان يؤمن بمحمد ويبشر به ويقر على نفسه أنه عبد مربوب فإن كان عيسى الذي هو عندك روح الله وكلمته ليس هو الذي آمن بمحمد وبشر به ولا هو الذي أقر لله بالعبودية فنحن منه براء فأين اجتمعنا؟ فقام وقال لصفوان بن يحيى: قم فما كان أغنانا عن هذا المجلس.

• أقول: كأنه يريد بقوله: قم فما كان أغنانا عن هذا المجلس، أن دخوله عليه السلام لم يفده فائدة حيث لم ينجح ما أتى به من الحجة.

د. وفي كمال الدين، بإسناده إلى يعقوب بن شعيب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان بين عيسى ومحمد ﷺ، خمس مائة عام منها، مائتان وخمسون عاما ليس فيها نبي ولا عالم ظاهر، قلت: فما كانوا؟ قال:

كانوا متمسكين بدين عيسى عليه السلام، قلت: فما كانوا؟ قال: كانوا مؤمنين، ثم قال: ولا يكون إلا وفيها عالم.

• أقول: المراد بالعالم الإمام الذي هو الحجة، وهناك روايات واردة في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ﴾، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِ﴾ تذكر أن النور والهدى ودين الحق ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وهي من الجري والتطبيق أو من البطن وليست بمفسرة، وعد الفصل بين المسيح وبين محمد ﷺ خمس مائة عام يخالف ما عليه مشهور التاريخ لكن المحققين ذكروا أن في التاريخ الميلاد اختلالا وقد مرت إشارة ما إلى ذلك في الجزء الثالث من الكتاب.

٥. أشد الظلم افتراء الكذب على الله مع الدعوة للإسلام:

المقطع [٥] من سورة الصّف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعى إِلَى الْإِسْلامِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٥٤»:

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعى إِلَى الْإِسْلامِ﴾:

أ. الاستفهام للإنكار وهو رد لقولهم: ﴿هذا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ فإن معناه أن النبي ﷺ ليس برسول وأن ما بلغه من دين الله ليس منه تعالى.

ب. والمراد بالإسلام الدين الذي يدعو إليه رسول الله بما أنه تسليم لله فيما يريده ويأمر به من اعتقاد وعمل، ولا ريب أن مقتضى ربوبيته وألوهيته تعالى تسليم عباده له تسليما مطلقا فلا ريب أن الدين الذي هو الإسلام لله دينه الحق الذي يجب أن يدان به فدعوى أنه باطل ليس من الله افتراء على الله.

ج. ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿وَهُوَ يُدْعى إِلَى الْإِسْلامِ﴾ يتضمن الحجة على كون قولهم: ﴿هذا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ افتراء على الله.

د. والافتراء ظلم لا يرتاب العقل في كونه ظلما وينهى عنه الشرع ويعظم الظلم بعظمة من وقع عليه فإذا كان هو الله سبحانه كان أعظم الظلم فلا أظلم ممن افترى على الله الكذب.

هـ. والمعنى: ولا أظلم ممن افترى على الله الكذب، بنفي نسبة دين الله إليه، والحال أنه يدعى إلى دين الإسلام الذي لا يتضمن إلا التسليم لله فيما أراد ولا ريب أنه من الله، والله لا يهدي القوم الظالمين.

٦. إرادة الكفار إطفاء نور الله وإتمامه رغم كرههم:

المقطع [٦] من سورة الصّف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٥٥»:

١. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ﴾:

أ. إطفاء النور إبطاله وإذهاب شروقه، وإطفاء النور بالأفواه إنما هو بالنفخ بها.

ب. وقد وقعت الآية في سورة التوبة وفيها: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ﴾ قال الراغب: (قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللهِ﴾ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللهِ﴾ والفرق بين الموضعين أن في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا﴾ يقصدون إطفاء نور الله، وفي قوله: ﴿لِيُطْفِؤُا﴾ يقصدون أمرا يتوصلون به إلى إطفاء نور الله) ومحصله أن متعلق الإرادة في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللهِ﴾ نفس الإطفاء، وفي قوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللهِ﴾ السبب الموصل إلى الإطفاء وهو النفخ بالأفواه والإطفاء غرض وغاية.

ج. والآية وما يتلوها كالشارح لمعنى ما تقدم في الآية السابقة من ظلمهم برمي الدعوة بالسحر وعدم هدايته تعالى لهم بما أنهم ظالمون، والمحصل أنهم يريدون إطفاء نور الله بنفخة أفواههم لكن الله لا يهديهم إلى مقصدهم بل يتم نوره ويظهر دينه على الدين كله.

د. فقوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ﴾ أي بالنفخ بالأفواه كما يطفأ الشمعة بالنفخة كناية عن أنهم زعموا أن نور الله وهو دينه نور ضعيف كنور الشمعة يطفأ بأدنى نفخة فرموه بالسحر وانقطاع نسبته إلى الله.

• وقد أخطئوا في مزعمتهم فهو نور الله الذي لا يطفأ وقد شاء أن يتمه ولو كره الكافرون والله بالغ أمره، وهو قوله: ﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ﴾

٧. إظهار دين الله الحق على جميع الأديان رغم كره المشركين:

المقطع [٧] من سورة الصّف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٥٥»:

١. ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾:

أ. الإضافة في ﴿دِينِ الْحَقِ﴾ بيانية كما قيل، والظاهر أنها في الأصل إضافة لامية بعناية لطيفة هي أن لكل من الحق والباطل دينا يقتضيه ويختص به، وقد ارتضى الله تعالى الدين الذي للحق، وهو الحق تعالى، فأرسل رسوله.

ب. وإظهار شيء على غيره نصرته وتغليبه عليه، والمراد بالدين كله كل سبيل مسلوك غير سبيل الله الذي هو الإسلام والآية في مقام تعليل قوله في الآية السابقة: ﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾، والمعنى: والله متم نوره لأنه هو الذي أرسل رسوله بنوره الذي هو الهدى ودين الحق ليجعله غالبا على جميع الأديان ولو كره المشركون من أهل الأوثان.

ج. ويستفاد من الآيتين أن دين الحق نور الله في الأرض كما يستفاد ذلك من قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيها مِصْباحٌ﴾ الآية: [النور: ٣٥]، وقد تقدم في تفسير الآية.

٨. تجارة النجاة: الإيمان والجهاد:

المقطع [٨] من سورة الصّف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ـ١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٥٨»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾:

أ. الاستفهام للعرض وهو في معنى الأمر.

ب. والتجارة، على ما ذكره الراغب، التصرف في رأس المال طلبا للربح، ولا يوجد في كلام العرب تاء بعده جيم إلا هذه اللفظة.

ج. فقد أخذ الإيمان والجهاد في الآية تجارة رأس مالها النفس وربحها النجاة من عذاب أليم، والآية في معنى قوله: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾، إلى أن قال ـ ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ﴾ [التوبة: ١١١]

د. وقد فخم تعالى أمر هذه التجارة حيث قال: ﴿عَلى تِجارَةٍ﴾ أي تجارة جليلة القدر عظيمة الشأن،

وجعل الربح الحاصل منها النجاة من عذاب أليم لا يقدر قدره.

هـ. ومصداق هذه النجاة الموعودة المغفرة والجنة، ولذا بدل ثانيا النجاة من العذاب من قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ﴾، وأما النصر والفتح الموعودان فهما خارجان عن النجاة الموعودة، ولذا فصلهما عن المغفرة والجنة فقال: ﴿وَأُخْرى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ فلا تغفل.

٢. ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾، استئناف بياني يفسر التجارة المعروضة عليهم كأنه قيل: ما هذه التجارة؟ فقيل: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ﴾، وقد أخذ الإيمان بالرسول مع الإيمان بالله للدلالة على وجوب طاعته فيما أمر به وإلا فالإيمان لا يعد إيمانا بالله إلا مع الإيمان برسالة الرسول قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ﴾، إلى أن قال ـ﴿أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١]

٣. ﴿ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

أ. أي ما ذكر من الإيمان والجهاد خير لكم إن كنتم من أهل العلم وأما الجهلة فلا يعتد بأعمالهم.

ب. وقيل: المراد تعلمون خيرية ذلك إن كنتم من أهل العلم والفقه.

٤. ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾:

أ. جواب للشرط المقدر المفهوم من الآية السابقة أي إن تؤمنوا بالله ورسوله وتجاهدوا في سبيله يغفر لكم.

ب. وقد أطلقت الذنوب المتعلقة بها المغفرة فالمغفور جميع الذنوب والاعتبار يساعده إذ هذه المغفرة مقدمة الدخول في جنة الخلد ولا معنى لدخولها مع بقاء بعض الذنوب على حاله، ولعله للإشارة إلى هذه النكتة عقبها بقوله: ﴿وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي جنات ثبات واستقرار فكونها محل ثبات وموضع قرار يلوح أن المغفرة تتعلق بجميع الذنوب.

ج. مضافا إلى ما فيه من مقابلة النفس المبذولة وهي متاع قليل معجل بجنات عدن التي هي خالدة فتطيب بذلك نفس المؤمن وتقوى إرادته لبذل النفس وتضحيتها واختيار البقاء على الفناء.

د. ثم زاد في تأكيد ذلك بقوله: ﴿ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

٥. ﴿وَأُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾، عطف على قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾، و﴿أُخْرى﴾

وصف قائم مقام الموصوف وهو خبر لمبتدء محذوف، وقوله: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ بيان لأخرى، والتقدير ولكم نعمة أو خصلة أخرى تحبونها وهي نصر من الله وفتح قريب عاجل.

٦. ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

أ. معطوف على الأمر المفهوم من سابق الكلام كأنه قيل: (قل يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم)، وبشر المؤمنين.

ب. وتحاذي هذه البشرى ما في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾، إلى أن قال ـ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ﴾ [التوبة: ١١١]، وبه يظهر أن الذي أمر أن يبشروا به مجموع ما يؤتيهم الله من الأجر في الآخرة والدنيا لا خصوص النصر والفتح.

ج. هذا كله ما يعطيه السياق في معنى الآية وإعراب أجزائها، وقد ذكر فيها أمور أخرى لا يساعد عليها السياق تلك المساعدة أغمضنا عن ذكرها، واحتمل أن يكون قوله: ﴿وَبَشِّرِ﴾ استئنافا.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾ فقالوا: لو نعلم ما هي لنبذلن فيه، الأموال والأنفس والأولاد، فقال الله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

• أقول: وهذا المعنى مروي من طرق أهل السنة أيضا.

ب. وفيه: في قوله تعالى: ﴿وَأُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ يعني في الدنيا بفتح القائم عليه السلام، وأيضا قال: فتح مكة.

٩. المؤمنون أنصار الله كالحواريين مع عيسى:

المقطع [٩] من سورة الصّف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٦٠»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللهِ﴾:

أ. أي اتسموا بهذه السمة ودوموا واثبتوا عليها فالآية في معنى الترقي بالنسبة إلى قوله السابق: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾ ومآل المعنى: اتجروا بأنفسكم وأموالكم فانصروا الله بالإيمان والجهاد في سبيله ودوموا واثبتوا على نصره.

ب. والمراد بنصرتهم لله أن ينصروا نبيه في سلوك السبيل الذي يسلكه إلى الله على بصيرة كما قال: ﴿قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]

ج. والدليل على هذا المعنى تنظيره تعالى قوله: ﴿كُونُوا أَنْصارَ اللهِ﴾ بقوله بعده: ﴿كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ﴾ فكون الحواريين أنصار الله معناه كونهم أنصارا لعيسى بن مريم عليه السلام في سلوكه سبيل الله وتوجهه إلى الله وهو التوحيد وإخلاص العبادة لله سبحانه فمحاذاة قولهم: ﴿نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ﴾ لقوله: ﴿مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ﴾ ومطابقته له تقتضي اتحاد معنى الكلمتين بحسب المراد فكون هؤلاء المخاطبين بقوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللهِ﴾ أنصارا لله معناه كونهم أنصارا للنبي ﷺ في نشر الدعوة وإعلاء كلمة الحق بالجهاد، وهو الإيمان بالنبي ﷺ وطاعته فيما يأمر وينهى عن قول جازم وعمل صادق، كما هو مؤدى سياق آيات السورة.

٢. ﴿فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَكَفَرَتْ طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ﴾:

أ. إشارة إلى ما جرى عليه وانتهى إليه أمر استنصار عيسى وتلبية الحواريين حيث تفرق الناس إلى طائفة مؤمنة وأخرى كافرة فأيد الله المؤمنين على عدوهم وهم الكفار فأصبحوا ظاهرين بعد ما كانوا مستخفين مضطهدين.

ب. وفيه تلويح إلى أن أمة النبي ﷺ يجري فيهم ما جرى في أمة عيسى عليه السلام تؤمن منهم طائفة وتكفر طائفة فإن أجاب المؤمنون استنصاره، وقد قام هو تعالى مقامه في الاستنصار إعظاما لأمره وإعزازا له، أيدهم الله على عدوهم فيصبحون ظاهرين كما ظهر أنصار عيسى والمؤمنون به.

ج. وقد أشار تعالى إلى هذه القصة في آخر قصص عيسى عليه السلام من سورة آل عمران حيث قال: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ﴾ [آل عمران:

٥٢]، إلى تمام ست آيات، وبالتدبر فيها يتضح معنى الآية المبحوث عنها.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الاحتجاج، عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث: ولم يخل أرضه من عالم بما يحتاج الخليقة إليه، ومتعلم على سبيل نجاة، أولئك هم الأقلون عددا، وقد بين الله ذلك من أمم الأنبياء، وجعلهم مثلا لمن تأخر مثل قوله في حواريي عيسى، حيث قال لسائر بني إسرائيل: ﴿مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ، قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ، وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ يعني مسلمون لأهل الفضل فضلهم، ولا يستكبرون عن أمر ربهم، فما أجابه منهم إلا الحواريون.

- أقول: الرواية وإن وردت في تفسير آية آل عمران لكنها مفيدة فيما نحن فيه.

ب. أخرج ابن إسحاق وابن سعد عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: قال رسول الله ﷺ للنفر الذين لاقوه بالعقبة: أخرجوا إلى اثني عشر رجلا منكم، يكونوا كفلاء على قومهم، كما كفلت الحواريون لعيسى بن مريم.

سورة الجمعة

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٧] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة هو الحث البالغ على الاهتمام بأمر صلاة الجمعة والقيام بواجب أمرها، فهي من شعائر الله المعظمة، التي في تعظيمها والاهتمام بأمرها صلاح أخراهم ودنياهم.

ب. وقد سلك تعالى إلى بيان أمره بافتتاح الكلام بتسبيحه والثناء عليه، بما من على قوم أميين برسول منهم أمي، يتلو عليهم آياته ويزكيهم بصالحات الأعمال والزاكيات من الأخلاق، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فيحملهم كتاب الله ومعارف دينه أحسن التحميل، هم ومن يلحق بهم أو يخلفهم من بعدهم من المؤمنين، فليحملوا ذلك أحسن الحمل، وليحذروا أن يكونوا كاليهود حملوا التوراة ثم لم يحملوا معارفها وأحكامها، فكانوا مثل الحمار يحمل أسفاراً.

ج. ثم تخلص إلى الأمر بترك البيع والسعي إلى ذكر الله إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة، وقرعهم على ترك النبي ﷺ قائماً يخطب، والانفضاض والانسلال إلى التجارة واللهو، وذلك آية عدم تحملهم ما حملوا من معارف كتاب الله وأحكام.

د. والسورة مدنية.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٨] بافتتاح الكلام بتسبيحه والثناء عليه، بما من على قوم أميين برسول منهم أمي، يتلو عليهم آياته ويزكيهم بصالحات الأعمال والزاكيات من الأخلاق، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فيحملهم كتاب الله ومعارف دينه أحسن التحميل، هم ومن يلحق بهم أو يخلفهم من بعدهم من المؤمنين، فليحملوا ذلك أحسن الحمل، وليحذروا أن يكونوا كاليهود حملوا التوراة ثم لم يحملوا معارفها وأحكامها، فكانوا مثل الحمار يحمل أسفاراً.

٢. الآيات [٩ ـ ١١] تأكيد إيجاب صلاة الجمعة وتحريم البيع عند حضورها، وفيها عتاب لمن انفض إلى اللهو والتجارة عند ذلك، واستهجان لفعلهم.

١. تسبيح كل شيء للملك القدوس العزيز الحكيم:

المقطع [١] من سورة الجمعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٦٣»:

١. ﴿يُسَبِّحُ للهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾:

أ. التسبيح تنزيه الشيء ونسبته إلى الطهارة والنزاهة من العيوب والنقائص، والتعبير بالمضارع للدلالة على الاستمرار، والملك هو الاختصاص بالحكم في نظام المجتمع، والقدوس مبالغة في القدس وهو النزاهة والطهارة، والعزيز هو الذي لا يغلبه غالب، والحكيم هو المتقن فعله فلا يفعل عن جهل أو جزاف.

ب. وفي الآية توطئة وتمهيد برهاني لما يتضمنه قوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ﴾، من بعثة الرسول لتكميل الناس وإسعادهم وهدايتهم بعد إذ كانوا في ضلال مبين.

ج. وذلك أنه تعالى يسبحه وينزهه الموجودات السماوية والأرضية بما عندهم من النقص الذي هو متممه والحاجة التي هو قاضيها فما من نقيصة أو حاجة إلا وهو المرجو في تمامها وقضائها فهو المسبح المنزه عن كل نقص وحاجة فله أن يحكم في نظام التكوين بين خلقه بما شاء، وفي نظام التشريع في عباده بما أراد، كيف لا؟ وهو ملك له أن يحكم في أهل مملكته وعليهم أن يطيعوه.

د. وإذا حكم وشرع بينهم دينا لم يكن ذلك منه لحاجة إلى تعبيدهم ونقص فيه يتممه بعبادتهم لأنه قدوس منزه عن كل نقص وحاجة، ثم إذا حكم وشرع وبلغه إياهم عن غنى منه ودعاهم إليه بوساطة رسله فلم يستجيبوا دعوته وتمردوا عن طاعته لم يكن ذلك تعجيزا منهم له تعالى لأنه العزيز لا يغلبه فيما يريده غالب.

هـ. ثم إن الذي حكم وشرعه من الدين بما أنه الملك القدوس العزيز ليس يذهب لغي لا أثر له لأنه حكيم على الإطلاق لا يفعل ما يفعل إلا لمصلحة ولا يريد منهم ما يريد إلا لنفع يعود إليهم وخير ينالونه فيستقيم به حالهم في دنياهم وأخراهم.

و. وبالجملة فتشريعه الدين وإنزاله الكتاب ببعث رسول يبلغهم ذلك بتلاوة آياته، ويزكيهم ويعلمهم من منه تعالى وفضل كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ﴾

٢. بعث الرسول في الأميين للتلاوة والتزكية والتعليم:

المقطع [٢] من سورة الجمعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٦٥»:

١. ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾:

أ. الأميون جمع أمي وهو الذي لا يقرأ ولا يكتب، والمراد بهم، كما قيل، العرب لقلة من كان منهم يقرأ ويكتب وقد كان الرسول ﷺ منهم أي من جنسهم وهو غير كونه مرسلا إليهم فقد كان منهم وكان مرسلا إلى الناس كافة.

ب. واحتمل أن يكون المراد بالأميين غير أهل الكتاب كما قال اليهود، على ما حكى الله عنهم ـ: ﴿لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]

• وفيه أنه لا يناسب قوله في ذيل الآية: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ﴾، فإنه ﷺ لم يخص غير العرب وغير أهل الكتاب بشيء من الدعوة لم يلقه إليهم.

ج. واحتمل أن يكون المراد بالأميين أهل مكة لكونهم يسمونها أم القرى.

• وفيه أنه لا يناسب كون السورة مدنية لإيهامه كون ضمير ﴿يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ راجعا إلى المهاجرين ومن أسلم من أهل مكة بعد الفتح وأخلافهم وهو بعيد من مذاق القرآن.

د. ولا منافاة بين كونه ﷺ من الأميين مبعوثا فيهم وبين كونه مبعوثا إليهم وإلى غيرهم وهو ظاهر، وتلاوته عليهم آياته وتزكيته وتعليمه لهم الكتاب والحكمة لنزوله بلغتهم وهو أول مراحل دعوته ولذا لما استقرت الدعوة بعض الاستقرار أخذ ﷺ يدعو اليهود والنصارى والمجوس وكاتب العظماء والملوك.

هـ. وكذا دعوة إبراهيم وإسماعيل عليه السلام على ما حكى الله تعالى: ﴿رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾، إلى أن قال ـ﴿رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، تشمل جميع آل إسماعيل من عرب مضر أعم من أهل مكة وغيرهم، ولا ينافي كونه ﷺ مبعوثا إليهم وإلى غيرهم.

٢. ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ﴾ أي آيات كتابه مع كونه أميا، صفة للرسول.

٣. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾:

أ. التزكية تفعيل من الزكاة بمعنى النمو الصالح الذي يلازم الخير والبركة فتزكيته لهم تنميته لهم نماء صالحا بتعويدهم الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة فيكملون بذلك في إنسانيتهم فيستقيم حالهم في دنياهم وآخرتهم يعيشون سعداء ويموتون سعداء.

ب. وتعليم الكتاب بيان ألفاظ آياته وتفسير ما أشكل من ذلك، ويقابله تعليم الحكمة وهي المعارف الحقيقية التي يتضمنها القرآن، والتعبير عن القرآن تارة بالآيات وتارة بالكتاب للدلالة على أنه بكل من هذه العناوين نعمة يمتن بها، كما قيل.

ج. وقد قدم التزكية هاهنا على تعليم الكتاب والحكمة بخلاف ما في دعوة إبراهيم عليه السلام لأن هذه الآية تصف تربيته ﷺ لمؤمني أمته، والتزكية مقدمة في مقام التربية على تعليم العلوم الحقة والمعارف الحقيقية وأما ما في دعوة إبراهيم عليه السلام فإنها دعاء وسؤال أن يتحقق في ذريته هذه الزكاة والعلم بالكتاب والحكمة، والعلوم والمعارف أقدم مرتبة وأرفع درجة في مرحلة التحقق والاتصاف من الزكاة الراجعة إلى الأعمال والأخلاق.

٤. وضع هنا مبحثا حول [معنى تعليم الحكمة]، خلاصته:

أ. لا محيص للإنسان في حياته من سنة يستن بها في جميع مساعيه، وهذه السنة تتبع ما عند الإنسان من الرأي في حقيقة الكون والإنسان، فمن لا يرى لما وراء المادة وجوداً يقتصر في سنته على المزايا المادية، ومن يرى كينونة العالم عن سبب فوق المادة ووجود الآخرة، يخالف ذلك ويتوخى سعادة الأخرى.

ب. الإنسان بحسب طبعه المادي رهين للمادة، يرى الأصالة لحياته الدنيوية، وما عند أهلها من النعمة والقوة هي هي بحقيقة المعنى، وهذا يجعله في تدافع بين قوله وفعله، حتى المؤمنين قد يقعون في هذا التدافع.

ج. الدعوة الإسلامية تندب إلى ما يطابق الفطرة الإنسانية، والفطرة لا تهتدي إلا إلى ما فيه كمالها الواقعي وسعادتها الحقيقية، ولذا سمى الله هذا الدين بدين الحق، والحق هو الرأي والاعتقاد الذي يطابقه الواقع ويلازمه الرشد من غير غي، وهو الحكمة.

د. القرآن يقلب الإنسان في قالب جديد من حيث العلم والعمل، فيصوغه صوغاً جديداً، ويحيي

حياة لا يتعقبها موت أبداً، كما قال: ﴿اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ﴾

هـ. التعليم القرآني هو تعليم الحكمة، وهو بيان ما هو الحق في أصول الاعتقادات الباطلة والخرافية التي دبت في أفهام الناس، وما هو الحق في الاعتقادات الفرعية المترتبة على تلك الأصول، والقرآن يرد على الأوهام الخاطئة كأن يرى الناس الأصالة لحياتهم المادية، أو استقلالهم في المشية، أو أن لهم قوة وعزة بمال وبنين، أو أن القتل في سبيل الله موت، فيصححها بالحق.

و. يتبين من ذلك فساد قول من قال إن تفسير القرآن تلاوته، وإن التعمق في مداليل آيات القرآن من التأويل الممنوع.

٥. ﴿وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة والمراد أنهم كانوا من قبل بعثة الرسول ﷺ في ضلال مبين، والآية تحميد بعد تسبيح ومسوقة للامتنان كما سيأتي.

٦. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ عن أبيه عن ابن أبي عمير عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام: في الآية قال: كانوا يكتبون ولكن لم يكن معهم كتاب من عند الله ولا بعث إليهم رسول فنسبهم الله إلى الأميين.

٣. فضل الله على الآخرين الذين لم يلحقوا بهم من بعدهم:

المقطع [٣] من سورة الجمعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٣-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٦٥»:

١. ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ عطف على الأميين وضمير ﴿مِنْهُمْ﴾ راجع إليهم و(من) للتبعيض والمعنى: بعث في الأميين وفي آخرين منهم لم يلحقوا بهم بعد وهو العزيز الذي لا يغلب في إرادته الحكيم الذي لا يلغو ولا يجازف في فعله.

٢. ﴿ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾:

أ. الإشارة بذلك إلى بعث الرسول ﷺ، وقد فخم أمره بالإشارة البعيدة، فهو ﷺ المخصوص بالفضل، والمعنى: ذلك البعث وكونه يتلو آيات الله ويزكي الناس ويعلمهم الكتاب والحكمة من فضل الله وعطائه يعطيه من تعلقت به مشيته وقد شاء أن يعطيه محمد ﷺ والله ذو الفضل العظيم كذا قال

المفسرون.

ب. ومن الممكن أن تكون الإشارة بذلك إلى البعث بما له من النسبة إلى أطرافه من المرسل والمرسل إليهم، والمعنى: ذلك البعث من فضل الله يؤتيه من يشاء وقد شاء أن يخص بهذا الفضل محمدا ﷺ فاختاره رسولا، وأمته فاختارهم لذلك فجعله منهم وأرسله إليهم.

ج. والآية والآيتان قبلها أعني قوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ﴾، إلى قوله: ﴿الْعَظِيمِ﴾ مسوقة سوق الامتنان.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قال: دخلوا الإسلام بعدهم.

ب. وفي المجمع: (وروي: أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية، فقيل له: من هؤلاء؟ فوضع يده على كتف سلمان وقال: لو كان الإيمان بالثريا لنالته رجال من هؤلاء.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن عدة من جوامع الحديث منها صحيح البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وفيه: فوضع يده على رأس سلمان الفارسي وقال: والذي نفسي بيده لو كان العلم بالثريا، لناله رجال من هؤلاء.

ج. وروي أيضا عن سعيد بن منصور وابن مردويه عن قيس بن سعد بن عبادة: أن رسول الله ﷺ قال: لو أن الإيمان بالثريا، لناله رجال من أهل فارس.

٤. مثل حملة التوراة كالحمار يحمل أسفاراً:

المقطع [٤] من سورة الجمعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٦٥»:

١. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً﴾:

أ. قال الراغب: (السفر، بالفتح فالسكون، كشف الغطاء ويختص ذلك بالأعيان نحو سفر العمامة عن الرأس والخمار عن الوجه، إلى أن قال، والسفر، بالكسر فالسكون، الكتاب الذي يسفر عن الحقائق قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً﴾)

ب. والمراد بتحميل التوراة تعليمها، والمراد بحملها العمل بها على ما يؤيده السياق ويشهد به ما في ذيل الآية من قوله: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾، والمراد بالذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها اليهود الذين أنزل الله التوراة على رسولهم موسى عليه السلام فعلمهم ما فيها من المعارف والشرائع فتركوها ولم يعملوا بها فحملوها ولم يحملوها فضرب الله لهم مثل الحمار يحمل أسفارا وهو لا يعرف ما فيها من المعارف والحقائق فلا يبقى له من حملها إلا التعب بتحمل ثقلها.

ج. ووجه اتصال الآية بما قبلها أنه تعالى لما افتتح الكلام بما من به على المسلمين من بعث نبي أمي من بين الأميين يتلو عليهم آيات كتابه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فيخرجهم من ظلمات الضلال إلى نور الهدى ومن حضيض الجهل إلى أوج العلم والحكمة وسيشير تعالى في آخر السورة إشارة عتاب وتوبيخ إلى ما صنعوه من الانفضاض والانسلال إلى اللهو والتجارة والنبي ﷺ قائم يخطبهم يوم الجمعة وهو من الاستهانة بما هو من أعظم المناسك الدينية ويكشف أنهم لم يقدروها حق قدرها ولا نزلوها منزلتها.

د. فاعترض الله سبحانه بهذا المثل وذكرهم بحال اليهود حيث حملوا التوراة ثم لم يحملوها فكانوا كالحمار يحمل أسفارا ولا ينتفع بما فيها من المعرفة والحكمة، فعليهم أن يهتموا بأمر الدين ويراقبوا الله في حركاتهم وسكناتهم ويعظموا رسوله ﷺ ويوقروه ولا يستهينوا بما جاء به، وليحذروا أن يحل بهم من سخطه تعالى ما حل باليهود حيث لم يعملوا بما علموا فعدهم الله جهلة ظالمين وشبههم بالحمار يحمل أسفارا.

هـ. وفي روح المعاني: (وجه ارتباط الآية بما قبلها تضمنها الإشارة إلى أن ذلك الرسول المبعوث قد بعثه الله تعالى بما نعته به في التوراة وعلى السنة أنبياء بني إسرائيل كأنه قيل: هو الذي بعث المبشر به في التوراة المنعوت فيها بالنبي الأمي المبعوث إلى أمة أميين، مثل من جاءه نعته فيها وعلمه ثم لم يؤمن به مثل الحمار)

- وأنت خبير بأنه تحكم لا دليل عليه من جهة السياق.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ، ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ﴾ قال:

الحمار يحمل الكتب ولا يعلم ما فيها، ولا يعمل به، كذلك بنو إسرائيل قد حملوا مثل الحمار، لا يعلمون ما فيه ولا يعملون.

ب. أخرج ابن أبي شيبة والطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب، فهو كالحمار يحمل أسفارا، والذي يقول له: أنصت ليس له جمعة.

• أقول: وفيه تأييد لما قدمناه في وجه اتصال الآية بما قبلها.

٥. تحدي اليهود بتمني الموت إن كانوا أولياء لله:

المقطع [٥] من سورة الجمعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٦ـ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٦٧»:

١. ﴿قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾:

أ. احتجاج على اليهود يظهر به كذبهم في دعواهم أنهم أولياء الله وأحباؤه، وقد حكى الله تعالى ما يدل على ذلك عنهم بقوله: ﴿وَقالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٩٤]، وقوله: ﴿وَقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً﴾ [البقرة: ١١١]

ب. ومحصل المعنى: قل لليهود مخاطبا لهم يا أيها الذين تهودوا إن كنتم اعتقدتم أنكم أولياء لله من دون الناس إن كنتم صادقين في دعواكم فتمنوا الموت لأن الولي يحب لقاء وليه ومن أيقن أنه ولي لله وجبت له الجنة ولا حاجب بينه وبينها إلا الموت أحب الموت وتمنى أن يحل به فيدخل دار الكرامة ويتخلص من هذه الحياة الدنية التي ما فيها إلا الهم والغم والمحنة والمصيبة.

ج. قيل: وفي قوله: ﴿أَوْلِياءُ للهِ﴾ من غير إضافة إشارة إلى أنه دعوى منهم من غير حقيقة.

٢. ﴿وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾:

أ. أخبر تعالى نبيه ﷺ أنهم لا يتمنونه أبدا بعد ما أمره أن يعرض عليهم تمني الموت.

ب. وقد علل عدم تمنيهم الموت بما قدمت أيديهم وهو كناية عن الظلم والفسوق، فمعنى الآية: ولا يتمنون الموت أبدا بسبب ما قدمته أيديهم من الظلم فكانوا ظالمين والله عليم بالظالمين يعلم أنهم لا يحبون لقاءه لأنهم أعداؤه لا ولاية بينه وبينهم ولا محبة.

ج. والآيتان في معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٥]

٣. ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾ في معنى جواب الشرط، وفيه وعيد لهم بأن الموت الذي يكرهونه كراهة أن يؤاخذوا بوبال أعمالهم فإنه سيلاقيهم لا محالة ثم يردون إلى ربهم الذي خرجوا من زي عبوديته بمظالمهم وعادوه بأعمالهم وهو عالم بحقيقة أعمالهم ظاهرها وباطنها فإنه عالم الغيب والشهادة فينبؤهم بحقيقة أعمالهم وتبعاتها السيئة وهي أنواع العذاب.

٤. ففي الآية إيذانهم:

أ. أولا: أن فرارهم من الموت خطأ منهم فإنه سيدركهم ويلاقيهم.

ب. وثانيا: أن كراهتهم لقاء الله خطأ آخر فإنهم مردودون إليه محاسبون على أعمالهم السيئة.

ج. وثالثا: أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ظاهرها وباطنها ولا يحيق به مكرهم فإنه عالم الغيب والشهادة.

٥. ففي الآية إشارة:

أ. أولا: إلى أن الموت حق مقضي كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠]

ب. وثانيا: أن الرجوع إلى الله لحساب الأعمال حق لا ريب فيه.

ج. وثالثا: أنهم سيوقفون على حقيقة أعمالهم فيوفونها.

د. ورابعا: أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وللإشارة إلى ذلك بدل اسم الجلالة من قوله: ﴿عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ﴾

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا﴾ الآية، قال: إن في التوراة مكتوب: أولياء الله يتمنون الموت.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جاء رجل إلى أبي ذر فقال: يا أبا ذر ما لنا نكره الموت؟ فقال: لأنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة، فتكرهون أن تنقلوا من عمران إلى خراب

٦. السعي إلى ذكر الله وترك البيع يوم الجمعة:

المقطع [٦] من سورة الجمعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ٩-١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٧٣»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ الله وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾:

أ. المراد بالنداء للصلاة من يوم الجمعة الأذان كما في قوله: ﴿وَإِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَلَعِباً﴾ [المائدة: ٥٨]

ب. والجمعة بضمتين أو بالضم فالسكون أحد أيام الأسبوع وكان يسمى أولا يوم العروبة ثم غلب عليه اسم الجمعة، والمراد بالصلاة من يوم الجمعة صلاة الجمعة المشرعة يومها، والسعي هو المشي بالإسراع، والمراد بذكر الله الصلاة كما في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، على ما قيل وقيل: المراد به الخطبة قبل الصلاة وقوله: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أمر بتركه، والمراد به على ما يفيده السياق النهي عن الاشتغال بكل عمل يشغل عن صلاة الجمعة سواء كان بيعا أو غيره وإنما علق النهي بالبيع لكونه من أظهر مصاديق ما يشغل عن الصلاة.

ج. والمعنى: يا أيها الذين آمنوا إذا أذن لصلاة الجمعة يومها فجدوا في المشي إلى الصلاة واتركوا البيع وكل ما يشغلكم عنها.

٢. ﴿ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حث وتحريض لهم لما أمر به من الصلاة وترك البيع.

٣. ﴿فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله﴾:

أ. المراد بقضاء الصلاة إقامة صلاة الجمعة، والانتشار في الأرض التفرق فيها، وابتغاء فضل الله طلب الرزق نظرا إلى مقابلته ترك البيع في الآية السابقة لكن تقدم أن المراد ترك كل ما يشغل عن صلاة الجمعة، وعلى هذا فابتغاء فضل الله طلب مطلق عطيته في التفرق لطلب رزقه بالبيع والشرى، وطلب ثوابه بعيادة مريض والسعي في حاجة مسلم وزيارة أخ في الله، وحضور مجلس علم ونحو ذلك.

ب. ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أمر واقع بعد الحظر فيفيد الجواز والإباحة دون الوجوب وكذا قوله: ﴿وَابْتَغُوا﴾، ﴿وَاذْكُرُوا﴾

٤. ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المراد بالذكر أعم من الذكر اللفظي فيشمل ذكره تعالى قلبا بالتوجه إليه باطنا، والفلاح النجاة من كل شقاء، وهو في المورد بالنظر إلى ما تقدم من حديث التزكية والتعليم وما في الآية التالية من التوبيخ والعتاب الشديد، الزكاة والعلم وذلك أن كثرة الذكر يفيد رسوخ المعنى المذكور في النفس وانتقاشه في الذهن فتنقطع به منابت الغفلة ويورث التقوى الديني الذي هو مظنة الفلاح قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الفقيه، روي: أنه كان بالمدينة إذا أذن المؤذن يوم الجمعة نادى مناد: حرم البيع لقول الله عز وجل: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن ميمون بن مهران ولفظه كان بالمدينة إذا أذن المؤذن من يوم الجمعة، ينادون في الأسواق: حرم البيع حرم البيع.

ب. وفي تفسير القمي: وقوله: ﴿فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ﴾ قال: الإسراع في المشي، وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في الآية يقال: فاسعوا أي امضوا، ويقال: اسعوا اعملوا لها وهو قص الشارب ونتف الإبط وتقليم الأظفار والغسل ولبس أنظف الثياب والتطيب للجمعة فهو السعي يقول الله: ﴿وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾

• أقول: يريد أن السعي ليس هو الإسراع في المشي فحسب.

ج. وفي المجمع: (وروى أنس عن النبي ﷺ قال: في قوله: ﴿فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، ليس بطلب الدنيا ولكن عيادة مريض، وحضور جنازة وزيارة أخ في الله.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن ابن جرير عن أنس عن النبي ﷺ وعن ابن مردويه عن ابن عباس عنه ﷺ.

د. وفيه، وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: الصلاة يوم الجمعة والانتشار يوم السبت.

• أقول: وفي هذا المعنى روايات أخر.

هـ. وفيه، وروى عمر بن يزيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إني لأركب في الحاجة التي كفاها الله ما أركب فيها إلا التماس أن يراني الله أضحي في طلب الحلال أما تسمع قول الله عز اسمه: ﴿فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾؟ أرأيت لو أن رجلا دخل بيتا وطين عليه بابه، ثم قال: رزقي ينزل علي أكان يكون هذا؟ أما أنه أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم، قال: قلت: من هؤلاء؟ قال: رجل يكون عنده المرأة فيدعو عليها فلا يستجاب له لأن عصمتها في يده لو شاء أن يخلي سبيلها، والرجل يكون له الحق على الرجل فلا يشهد عليه فيجحده حقه فيدعو عليه فلا يستجاب له لأنه ترك ما أمر به، والرجل يكون عنده الشيء فيجلس في بيته ولا ينتشر ولا يطلب ولا يلتمس حتى يأكله ثم يدعو فلا يستجاب له.

٧. ترك النبي للهو والتجارة وما عند الله خير:

المقطع [٧] من سورة الجمعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٧٤»:

١. ﴿وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً﴾:

أ. الانفضاض، على ما ذكره الراغب، استعارة عن الانفضاض بمعنى انكسار الشيء وتفرق بعضه من بعض.

ب. وقد اتفقت روايات الشيعة وأهل السنة على أنه ورد المدينة عير معها تجارة وذلك يوم الجمعة والنبي ﷺ قائم يخطب فضربوا بالطبل والدف لإعلام الناس فانفض أهل المسجد إليهم وتركوا النبي ﷺ قائما يخطب فنزلت الآية، فالمراد باللهو استعمال المعازف وآلات الطرب ليجتمع الناس للتجارة، وضمير ﴿إِلَيْها﴾ راجع إلى التجارة لأنها كانت المقصودة في نفسها واللهو مقصود لأجلها، وقيل: الضمير لأحدهما

كأنه قيل: انفضوا إليه وانفضوا إليها وذلك أن كلا منهما سبب لانفضاض الناس إليه وتجمعهم عليه، ولذا ردد بينهما وقال: ﴿تِجارَةً أَوْ لَهْواً﴾ ولم يقل: تجارة ولهوا والضمير يصلح للرجوع إلى كل منهما لأن اللهو في الأصل مصدر يجوز فيه الوجهان التذكير والتأنيث.

ج. ولذا أيضا عد ﴿ما عِنْدَ اللهِ﴾ خيرا من كل منهما بحياله فقال: ﴿مِنَ اللهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ﴾ ولم يقل: من اللهو والتجارة.

٢. ﴿قُلْ ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾:

أ. أمر للنبي أن ينبههم على خطئهم فيما فعلوا، وما أفظعه، والمراد بما عند الله الثواب الذي يستعقبه سماع الخطبة والموعظة.

ب. والمعنى قل لهم: ما عند الله من الثواب خير من اللهو ومن التجارة لأن ثوابه تعالى خير حقيقي دائم غير منقطع، وما في اللهو والتجارة من الخير أمر خيالي زائل باطل وربما استتبع سخطه تعالى كما في اللهو.

ج. وقيل: خير مستعمل في الآية مجردا عن معنى التفضيل كما في قوله تعالى: ﴿أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، وهو شائع في الاستعمال.

د. وفي الآية أعني قوله: ﴿وَإِذا رَأَوْا﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة، والنكتة فيه تأكيد ما يفيده السياق من العتاب واستهجان الفعل بالإعراض عن تشريفهم بالخطاب وتركهم في مقام الغيبة لا يواجههم ربهم بوجهه الكريم.

هـ. ويلوح إلى هذا الإعراض قوله: ﴿قُلْ ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ﴾ حيث لم يشر إلى من يقول له، ولم يقل: قل لهم كما ذكرهم بضميرهم أولا من غير سبق مرجعه فقال: ﴿وَإِذا رَأَوْا﴾ واكتفى بدلالة السياق.

و. وخير الرازقين من أسمائه تعالى الحسنى كالرزاق وقد تقدم الكلام في معنى الرزق فيما تقدم.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: قال جابر بن عبد الله: أقبل عير ونحن نصلي مع رسول الله ﷺ فانفض الناس إليها فما بقي غير اثني عشر رجلا أنا فيهم فنزلت الآية ﴿وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً﴾

ب. وعن عوالي اللئالي، روى مقاتل بن سليمان قال: بينا رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة، إذ قدم

دحية الكلبي من الشام بتجارة، وكان إذا قدم لم يبق في المدينة عاتق إلا أتته، وكان يقدم، إذا قدم، بكل ما يحتاج إليه الناس، من دقيق وبر وغيره، ثم ضرب الطبل ليؤذن الناس بقدومه، فيخرج الناس فيبتاعون منه، فقدم ذات جمعة، وكان قبل أن يسلم، ورسول الله ﷺ يخطب على المنبر فخرج الناس، فلم يبق في المسجد إلا اثنا عشر، فقال النبي ﷺ: لولا هؤلاء لسومت عليهم الحجارة من السماء، وأنزل الله الآية في سورة الجمعة.

• أقول: والقصة مروية بطرق كثيرة من طرق الشيعة وأهل السنة واختلفت الأخبار في عدد من بقي منهم في المسجد بين سبعة إلى أربعين.

ج. وفيه ﴿انْفَضُّوا﴾ أي تفرقوا، وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: انصرفوا إليها وتركوك قائما تخطب على المنبر.

د. قال جابر بن سمرة: ما رأيت رسول الله ﷺ يخطب إلا وهو قائم، فمن حدثك أنه خطب وهو جالس فكذبه.

• أقول: وهو مروي أيضا في روايات أخرى.

هـ. أخرج ابن أبي شيبة عن طاووس قال: خطب رسول الله ﷺ قائما وأبو بكر وعمر وعثمان، وإن أول من جلس على المنبر معاوية بن أبي سفيان.

سورة المنافقون

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٦] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تصف السورة المنافقين وتسمهم بشدة العداوة، وتأمر النبي ﷺ أن يحذرهم، وتعظ المؤمنين أن يتحرزوا من خصائص النفاق، فلا يقعوا في مهلكته ولا يجرهم إلى النار.

ب. والسورة مدنية.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٨] تصف المنافقين وتسمهم بشدة العداوة، وتأمر النبي ﷺ أن يحذرهم.

٢. الآيات [٩ ـ ١١] تنبيه للمؤمنين أن يتجنبوا عن بعض الصفات التي تورث النفاق، وهو التلهي بالمال والأولاد والبخل.

١. شهادة المنافقين بالكذب واستغلال الأيمان:

المقطع [١] من سورة المنافقون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ١ـ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٧٨»:

١. ﴿إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ﴾:

أ. المنافق اسم فاعل من النفاق وهو في عرف القرآن إظهار الإيمان وإبطان الكفر، والكذب خلاف الصدق وهو عدم مطابقة الخبر للخارج فهو وصف الخبر كالصدق وربما اعتبرت مطابقة الخبر و لا مطابقته بالنسبة إلى اعتقاد المخبر فيكون مطابقته لاعتقاد المخبر صدقا منه وعدم مطابقته له كذبا فيقال: فلان كاذب إذا لم يطابق خبره الخارج وفلان كاذب إذا أخبر بها يخالف اعتقاده ويسمى النوع الأول صدقا وكذبا خبريين، والثاني صدقا وكذبا مخبريين.

ب. فقوله: ﴿إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ﴾ حكاية لإظهارهم الإيمان بالشهادة على الرسالة فإن في الشهادة على الرسالة إيمانا بما جاء به الرسول ﷺ ويتضمن الإيمان بوحدانيته تعالى وبالمعاد، وهو الإيمان الكامل.

٢. ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ تثبيت منه تعالى لرسالته ﷺ، وإنما أورده مع أن وحي القرآن ومخاطبته ﷺ كان كافيا في تثبيت رسالته، ليكون قرينة مصرحة بأنهم كاذبون من حيث عدم اعتقادهم بما يقولون وإن كان قولهم في نفسه صادقا فهم كاذبون في قولهم كذبا مخبريا لا خبريا فقوله: ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ﴾ أريد به الكذب المخبري لا الخبري.

٣. ﴿اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾:

أ. الأيمان جمع يمين بمعنى القسم، والجنة الترس والمراد بها ما يتقى به من باب الاستعارة، والصد يجيء بمعنى الإعراض وعليه فالمراد إعراضهم أنفسهم عن سبيل الله وهو الدين وبمعنى الصرف وعليه فالمراد صرفهم العامة من الناس عن الدين وهم في وقاية من إيمانهم الكاذبة.

ب. والمعنى: اتخذوا أيمانهم الكاذبة التي يحلفون وقاية لأنفسهم فأعرضوا عن سبيل الله ودينه أو فصرفوا العامة من الناس عن دين الله بما يستطيعونه من الصرف بتقليب الأمور وإفساد العزائم.

٤. ﴿إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تقبيح لأعمالهم التي استمروا عليها منذ نافقوا إلى حين نزول السورة.

٥. ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾:

أ. الظاهر أن الإشارة بذلك إلى سوء ما عملوا كما قيل، وقيل: الإشارة إلى جميع ما تقدم من كذبهم واستجنانهم بالأيمان الفاجرة وصدهم عن سبيل الله ومساءة أعمالهم.

ب. والمراد بإيمانهم، على ما قيل، إيمانهم بألسنتهم ظاهرا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسوله ثم كفرهم بخلو باطنهم عن الإيمان كما قال تعالى فيهم: ﴿وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ﴾ [البقرة: ١٤]

ج. ولا يبعد أن يكون فيهم من آمن حقيقة ثم ارتد وكتم ارتداده فلحق بالمنافقين يتربص بالنبي ﷺ وبالمؤمنين الدوائر كما يظهر من بعض آيات سورة التوبة كقوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ

يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللهَ ما وَعَدُوهُ﴾ [التوبة: ٧٧]، وقد عبر تعالى عمن لم يدخل الإيمان في قلبه منهم بمثل قوله: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]

د. فالظاهر أن المراد بقوله: ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ إظهارهم للشهادتين أعم من أن يكون عن ظهر القلب أو بظاهر من القول ثم كفرهم بإتيان أعمال تستصحب الكفر كالاستهزاء بالدين ورد بعض الأحكام.

٦. ﴿فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾:

أ. تفريع عدم الفقه على طبع القلوب دليل على أن الطبع ختم على القلب يستتبع عدم قبوله لورود كلمة الحق فيه فهو آيس من الإيمان محروم من الحق.

ب. والطبع على القلب جعله بحيث لا يقبل الحق ولا يتبعه فلا محالة يتبع الهوى كما قال تعالى: ﴿طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ﴾ سورة [محمد: ١٦]، فلا يفقه ولا يسمع ولا يعلم كما قال تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧]، وقال: ﴿وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، وقال: ﴿وَطَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣]، والطبع على أي حال لا يكون منه تعالى إلا مجازاة لأنه إضلال والذي ينسب إليه تعالى من الإضلال إنما هو الإضلال على سبيل المجازاة دون الإضلال الابتدائي وقد مر مرارا.

٧. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق حقيقة النفاق في صدر الإسلام: نشأته واستمراره]

أ. بيان أن النفاق لم يقتصر على المدينة بعد الهجرة، بل من المحتمل بل المتعين أنه تسرب بين المؤمنين بمكة قبل الهجرة، وإن كانت دوافعه تختلف.

ب. إثبات أن النفاق لا يتوقف على وجود قوة مهيبة أو رجاء خير عاجل، بل قد ينبعث من دوافع أخرى كطمع في الرئاسة والاستعلاء، أو ارتداد يكتمه صاحبه.

ج. توضيح أن إيمان كفار مكة يوم الفتح كان إيمان اضطرار لا إخلاص، وأن من البديهي أن يدب فيهم دبيب النفاق مع بقائهم على أهوائهم الباطنة.

د. بيان أن استمرار النفاق إلى قرب رحلة النبي ﷺ أمر مسلم به، وأن انقطاع الخبر عنهم بعد الرحلة لا يدل على زوال نفاقهم، بل قد يكون لصالحتهم مع الحكومة الجديدة.

هـ. طرح أسئلة مهمة حول سبب اختفاء النفاق بعد الرحلة، وترك الإجابة للتدبر في حوادث الفتن الواقعة بعد عهد النبي ﷺ.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: نزلت الآيات في عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه وذلك أن رسول الله ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجتمعون لحربه وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية زوج النبي ﷺ، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق وقتل منهم من قتل ونفل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم، فبينا الناس على ذلك الماء إذ وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن سعيد يقود له فرسه فازدحم جهجاه وسنان الجهني من بني عوف بن خزرج على الماء فاقتتلا فصرخ الجهني يا معشر الأنصار وصرخ الغفاري يا معشر المهاجرين فأعان الغفاري رجل من المهاجرين يقال له: جعال وكان فقيرا فقال عبد الله بن أبي لجعال: إنك لهتاك فقال: وما يمنعني أن أفعل ذلك؟ واشتد لسان جعال على عبد الله، فقال عبد الله: والذي يحلف به لأزرنك ويهمك غير هذا.

ب. وغضب ابن أبي وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم حديث السن فقال ابن أبي قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل يعني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما جعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ولأوشكوا أن يتحولوا من بلادكم ويلحقوا بعشائرهم ومواليهم، فقال زيد بن أرقم: أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك ومحمد ﷺ في عز من الرحمن ومودة من المسلمين والله لا أحبك بعد كلامك هذا فقال عبد الله: اسكت فإنما كنت ألعب، فمشى زيد بن أرقم إلى رسول الله ﷺ وذلك بعد فراغه من الغزو فأخبره الخبر فأمر رسول الله ﷺ بالرحيل وأرسل إلى عبد الله فأتاه فقال: ما هذا الذي بلغني عنك؟ فقال عبد الله والذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئا من ذلك قط وإن زيدا لكاذب، وقال من حضر من الأنصار: يا رسول الله، شيخنا وكبيرنا لا تصدق عليه كلام غلام من غلمان الأنصار، عسى أن يكون هذا الغلام وهم في حديثه، فعذره رسول الله ﷺ وفشت الملامة من

الأنصار لزيد، ولما استقل رسول الله ﷺ، فسار لقيه أسيد بن الحضير فحياه بتحية النبوة، ثم قال: يا رسول الله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها، فقال رسول الله ﷺ: أوما بلغك ما قال صاحبكم؟ زعم أنه إن رجع إلى المدينة، أخرج الأعز منها الأذل، فقال أسيد: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله ارفق به، فو الله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، وإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا، وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي ما كان من أمر أبيه فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنه قد بلغني أنك تريد قتل أبي فإن كنت لا بد فاعلا فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه فو الله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالديه مني وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي أن يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار، فقال ﷺ: بل ترفق به وتحسن صحبته ما بقي معنا، قالوا: وسار رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك، حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس فلم يكن إلا أن وجدوا مس الأرض وقعوا نياما، إنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي خرج من عبد الله بن أبي، ثم راح بالناس حتى نزل على ماء بالحجاز، فويق البقيع يقال له: بقعاء، فهاجت ريح شديدة آذتهم وتخوفوها، وضلت ناقة رسول الله ﷺ وذلك ليلا، فقال: مات اليوم منافق عظيم النفاق بالمدينة، قيل: من هو؟ قال: رفاعة، فقال رجل من المنافقين: كيف يزعم أنه يعلم الغيب، ولا يعلم مكان ناقته؟ ألا يخبره الذي يأتيه بالوحي؟ فأتاه جبريل فأخبره بقول المنافق وبمكان الناقة، وأخبر رسول الله ﷺ بذلك أصحابه وقال: ما أزعم أني أعلم الغيب وما أعلمه ولكن الله تعالى أخبرني بقول المنافق وبمكان ناقتي، هي في الشعب فإذا هي كما قال فجاءوا بها وآمن ذلك المنافق، فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد في التابوت أحد بني قينقاع وكان من عظماء اليهود مات ذلك اليوم، قال زيد بن أرقم: فلما وافى رسول الله ﷺ المدينة، جلست في البيت لما بي من الهم والحياء، فنزلت سورة المنافقون في تصديق زيد، وتكذيب عبد الله بن أبي، ثم أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد، فرفعه عن الرحل ثم قال: يا غلام صدق فوك، ووعت أذناك، ووعى قلبك، وقد أنزل الله فيما قلت قرآنا، وكان عبد الله بن أبي بقرب المدينة، فلما أراد أن يدخلها، جاء ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي، حتى أناخ على مجامع طرق المدينة، فقال: ما لك ويلك؟ فقال: والله لا تدخلها إلا بإذن رسول الله، ولتعلمن اليوم من الأعز؟ ومن الأذل؟ فشكا عبد الله ابنه إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إليه أن خل عنه

يدخل فقال: أما إذا جاء أمر رسول الله ﷺ فنعم فدخل، فلم يلبث إلا أياما قلائل حتى اشتكى ومات، فلما نزلت هذه الآيات وبان كذب عبد الله، قيل له: نزل فيك آي شداد، فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك، فلوى رأسه ثم قال: أمرتموني أن أؤمن فقد آمنت، وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت، فما بقي إلا أن أسجد لمحمد، فنزل: ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ﴾، إلى قوله: ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾

• أقول: ما أورده من القصة مأخوذ من روايات مختلفة مروية عن زيد بن أرقم وابن عباس وعكرمة ومحمد بن سيرين وابن إسحاق وغيرهم دخل حديث بعضهم في بعض.

ج. وفي تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ﴾ الآية، قال: قال: نزلت في غزوة المريسيع، وهي غزوة بني المصطلق في سنة خمس من الهجرة، وكان رسول الله ﷺ خرج إليها، فلما رجع منها نزل على بئر وكان الماء قليلا فيها، وكان أنس بن سيار حليف الأنصار، وكان جهجاه بن سعيد الغفاري أجيرا لعمر بن الخطاب فاجتمعوا على البئر فتعلق دلو سيار بدلو جهجاه، فقال سيار: دلوي وقال جهجاه: دلوي فضرب جهجاه على وجه سيار فسال منه الدم، فنادى سيار بالخزرج ونادى جهجاه بقريش، وأخذ الناس السلاح وكاد أن تقع الفتنة، فسمع عبد الله بن أبي النداء فقال: ما هذا؟ فأخبروه بالخبر فغضب غضبا شديدا، ثم قال: قد كنت كارها لهذا المسير إني لأذل العرب، ما ظننت أني أبقى إلى أن أسمع مثل هذا، فلا يكن عندي تغيير، ثم أقبل على أصحابه فقال: هذا عملكم، أنزلتموهم منازلكم وواسيتموهم بأموالكم، ووقيتموهم بأنفسكم وأبرزتم نحوركم للقتل فأرمل نساؤكم وأيتم صبيانكم ولو أخرجتموهم لكانوا عيالا على غيركم، ثم قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، وكان في القوم زيد بن أرقم وكان غلاما قد راهق، وكان رسول الله ﷺ في ظل شجرة في وقت الهاجرة، وعنده قوم من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فجاء زيد فأخبره بما قال عبد الله بن أبي، فقال رسول الله ﷺ: لعلك وهمت يا غلام، قال: لا والله ما وهمت، قال: فلعلك غضبت عليه؟ قال: لا والله ما غضبت عليه، قال: فلعله سفه عليك، فقال: لا والله، فقال رسول الله لشقران مولاه: أحدج فأحدج راحلته وركب وتسامع الناس بذلك فقالوا: ما كان رسول الله ﷺ ليرحل في مثل هذا الوقت، فرحل الناس ولحقه سعد بن عبادة فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فقال: وعليك السلام، فقال: ما كنت لترحل في مثل هذا الوقت،

فقال: أوما سمعت قولا قال صاحبكم؟ قال: وأي صاحب لنا غيرك يا رسول الله؟ قال: عبد الله بن أبي زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال: يا رسول الله فإنك وأصحابك الأعز، وهو وأصحابه الأذل، فسار رسول الله ﷺ يومه كله لا يكلمه أحد، فأقبلت الخزرج على عبد الله بن أبي يعذلونه، فحلف عبد الله أنه لم يقل شيئا من ذلك، فقالوا: فقم بنا إلى رسول الله، حتى نعتذر إليه فلوى عنقه، فلما جن الليل سار رسول الله ﷺ ليله كله فلم ينزلوا إلا للصلاة فلما كان من الغد نزل رسول الله ﷺ ونزل أصحابه وقد أمهدهم الأرض من السفر الذي أصابهم فجاء عبد الله بن أبي إلى رسول الله ﷺ فحلف عبد الله له أنه لم يقل ذلك، وأنه يشهد أن لا إله إلا الله وأنك لرسول الله وإن زيدا قد كذب علي، فقبل رسول الله ﷺ منه وأقبلت الخزرج على زيد بن أرقم يشتمونه ويقولون له: كذبت على عبد الله سيدنا، فلما رحل رسول الله ﷺ كان زيد معه يقول: اللهم إنك لتعلم أني لم أكذب على عبد الله بن أبي فما سار إلا قليلا حتى أخذ رسول الله ﷺ ما كان يأخذه من البرحاء عند نزول الوحي فثقل حتى كادت ناقته أن تبرك من ثقل الوحي فسري عن رسول الله ﷺ وهو يسكب العرق عن جبهته ثم أخذ بأذن زيد بن أرقم فرفعه من الرحل ثم قال: يا غلام صدق قولك ووعى قلبك وأنزل الله فيما قلت قرآنا، فلما نزل جمع أصحابه وقرأ عليهم سورة المنافقين: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ﴾، إلى قوله: ﴿وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ ففضح الله عبد الله بن أبي.

٢. الإعجاب بأجساد المنافقين وهم كالخشب المسندة:

المقطع [٢] من سورة المنافقون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٨٠»:

١. ﴿وَإِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾، الظاهر أن الخطاب في ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ و﴿تَسْمَعْ﴾ خطاب عام يشمل كل من رآهم وسمع كلامهم لكونهم في أزياء حسنة وبلاغة من الكلام، وليس خطابا خاصا بالنبي ﷺ، والمراد أنهم على صباحة من المنظر وتناسب من الأعضاء إذا رآهم الرائي أعجبته أجسامهم، وفصاحة وبلاغة من القول إذا سمع السامع كلامهم مال إلى الإصغاء إلى قولهم لحلاوة ظاهره وحسن نظمه.

٢. ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾:

أ. ذم لهم بحسب باطنهم والخشب بضمتين جمع خشبة، والتسنيد نصب الشيء معتمدا على شيء آخر كحائط ونحوه.

ب. والجملة مسوقة لذمهم وهي متممة لسابقتها، والمراد أن لهم أجساما حسنة معجبة وقولا رائعا ذا حلاوة لكنهم كالخشب المسندة أشباح بلا أرواح لا خير فيها ولا فائدة تعتريها لكونهم لا يفقهون.

٣. ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ ذم آخر لهم أي إنهم لإبطانهم الكفر وكتمانهم ذلك من المؤمنين يعيشون على خوف ووجل ووحشة يخافون ظهور أمرهم واطلاع الناس على باطنهم ويظنون أن كل صيحة سمعوها فهي كائنة عليهم وأنهم المقصودون بها.

٤. ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ أي هم كاملون في العداوة بالغون فيها فإن أعدى أعدائك من يعاديك وأنت تحسبه صديقك.

٥. ﴿قاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾:

أ. دعاء عليهم بالقتل وهو أشد شدائد الدنيا وكان استعمال المقاتلة دون القتل للدلالة على الشدة.

ب. وقيل: المراد به الطرد والإبعاد من الرحمة، وقيل: المراد به الإخبار دون الدعاء، والمعنى: أن شمول اللعن والطرد لهم مقرر ثابت، وقيل: الكلمة مفيدة للتعجب كما يقال: قاتله الله ما أشعره، والظاهر من السياق ما تقدم من الوجه.

٦. ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ مسوق للتعجب أي كيف يصرفون عن الحق؟ وقيل: هو توبيخ وتقريع وليس باستفهام.

٧. أحاديث وآثار: في تفسير القمي أيضا، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ يقول: لا يسمعون ولا يعقلون ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ يعني كل صوت، ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، فلما أنبأ الله رسوله خبرهم مشى إليهم عشائرهم، وقالوا افتضحتم ويلكم، فأتوا رسول الله يستغفر لكم فلووا رءوسهم وزهدوا في الاستغفار، يقول الله: ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾

٣. استكبار المنافقين عن طلب الاستغفار وحرمانهم من الهدى:

المقطع [٣] من سورة المنافقون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٥-٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٨١»:

١. ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ الله لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ﴾:

أ. التلوية تفعيل من لوى يلوي ليا بمعنى مال.

ب. والمعنى: وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله، وذلك عند ما ظهر منهم بعض خياناتهم وفسوقهم، أمالوا رءوسهم إعراضا واستكبارا ورآهم الرائي يعرضون عن القائل وهم مستكبرون عن إجابة قوله.

٢. ﴿سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾، أي يتساوى الاستغفار وعدمه في حقهم وتساوي الشيء وعدمه كناية عن أنه لا يفيد الفائدة المطلوبة منه، فالمعنى: لا يفيدهم استغفارك ولا ينفعهم.

٣. ﴿لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ دفع دخل كان سائلا يسأل: لما ذا يتساوى الاستغفار لهم وعدمه؟ فأجيب: لن يغفر الله لهم.

٤. ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾ تعليل لقوله: ﴿لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾، والمعنى: لن يغفر الله لهم لأن مغفرته لهم هداية لهم إلى السعادة والجنة وهم فاسقون خارجون عن زي العبودية لإبطانهم الكفر والطبع على قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين.

٤. منع النفاق عن الإنفاق وجهل المنافقين بخزائن الله وعزته:

المقطع [٤] من سورة المنافقون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٧-٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٨٢»:

١. ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ الله حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾، الانفضاض التفرق،

والمعنى: المنافقون هم الذين يقولون: لا تنفقوا أموالكم على المؤمنين الفقراء الذين لازموا رسول الله واجتمعوا عنده لنصرته وإنفاذ أمره وإجراء مقاصده حتى يتفرقوا عنه فلا يتحكم علينا.

٢. ﴿وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. جواب عن قولهم: ﴿لا تُنْفِقُوا﴾، أي إن الدين دين الله ولا حاجة له إلى إنفاقهم فله خزائن السماوات والأرض ينفق منها ويرزق من يشاء كيف يشاء فلو شاء لأغنى الفقراء من المؤمنين لكنه تعالى يختار ما هو الأصلح فيمتحنهم بالفقر ويتعبدهم بالصبر ليوجرهم أجرا كريما ويهديهم صراطا مستقيما والمنافقون في جهل من ذلك.

ب. وهذا معنى قوله: ﴿وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يفقهون وجه الحكمة في ذلك واحتمل أن يكون المعنى أن المنافقين لا يفقهون أن خزائن العالم بيد الله وهو الرازق لا رازق غيره فلو شاء لأغناهم لكنهم يحسبون أن الغنى والفقر بيد الأسباب فلو لم ينفقوا على أولئك الفقراء من المؤمنين لم يجدوا رازقا يرزقهم.

٣. ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾:

أ. القائل هو عبد الله بن أبي بن سلول، وكذا قائل الجملة السابقة: لا تنفقوا إلخ، وإنما عبر بصيغة الجمع تشريكا لأصحابه الراضين بقوله معه.

ب. ومراده بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ ويريد بهذا القول تهديد النبي ﷺ بإخراجه من المدينة بعد المراجعة إليها وقد رد الله عليه وعلى من يشاركه في نفاقه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ فقصر العزة في نفسه ورسوله والمؤمنين فلا يبقى لغيرهم إلا الذلة ونفى عن المنافقين العلم فلم يبق لهم إلا الذلة والجهالة.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده إلى سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى فوض إلى المؤمن أموره كلها، ولم يفوض إليه أن يذل نفسه، ألم تر قول الله سبحانه وتعالى هاهنا، ﴿لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ والمؤمن ينبغي أن يكون عزيزا ولا يكون ذليلا.

• أقول: وروي هذا المعنى بإسناده عن داود الرقي والحسن الأحمسي وبطريق آخر عن سماعة.

ب. وفيه، بإسناده عن مفضل بن عمر قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، قلت: بما يذل نفسه؟ قال: يدخل فيما يعتذر منه.

٥. تحذير المؤمنين من أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذكر الله:

المقطع [٥] من سورة المنافقون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٩١»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله﴾:

أ. الإلهاء الإشغال، والمراد بإلهاء الأموال والأولاد عن ذكر الله إشغالها القلب بالتعلق بها بحيث يوجب الإعراض عن التوجه إلى الله بما أنها زينة الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيا﴾ [الكهف: ٤٦]، والاشتغال بها يوجب خلو القلب عن ذكر الله ونسيانه تعالى فلا يبقى له إلا القول من غير عمل وتصديق قلبي ونسيان العبد لربه يستعقب نسيانه تعالى له، قال تعالى: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وهو الخسران المبين، قال تعالى في صفة المنافقين: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦]

ب. وإليه الإشارة بما في ذيل الآية من قوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾

ج. والأصل هو نهي المؤمنين عن التلهي بالأموال والأولاد وتبديله من نهي الأموال والأولاد عن إلهائهم للتلويح إلى أن من طبعها الإلهاء فلا ينبغي لهم أن يتعلقوا بها فتلهيهم عن ذكر الله سبحانه فهو نهي كنائي آكد من التصريح.

٦. الحث على الإنفاق قبل الموت وعدم التأخير:

المقطع [٦] من سورة المنافقون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠-١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٩١»:

١. ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾، أمر بالإنفاق في البر أعم من الإنفاق

الواجب كالزكاة والكفارات أو المندوب، وتقييده بقوله: ﴿مِنْ ما رَزَقْناكُمْ﴾ للإشعار بأن أمره هذا ليس سؤالا لما يملكونه دونه، وإنما هو شيء هو معطيه لهم ورزق هو رازقه وملك هو ملكهم إياه من غير أن يخرج عن ملكه يأمرهم بإنفاق شيء منه فيما يريد فله المنة عليهم في كل حال.

٢. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي فينقطع أمد استطاعته من التصرف في ماله بالإنفاق في سبيل الله.

٣. ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ عطف على قوله: ﴿أَنْ يَأْتِيَ﴾، وتقييد الأجل بالقريب للإشعار بأنه قانع بقليل من التمديد، وهو مقدار ما يسع الإنفاق من العمر، ليسهل إجابته، ولأن الأجل أيا ما كان فهو قريب، ومن كلامه ﷺ: كل ما هو آت قريب.

٤. ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ نصب ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ لكونه في جواب التمني، وجزم ﴿أَكُنْ﴾ لكونه في معنى جزاء الشرط، والتقدير إن أتصدق أكن من الصالحين.

٥. ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها﴾ إياس لهم من استجابة دعاء من يسأل تأخير الأجل بعد حلوله والموت بعد نزوله وظهور آيات الآخرة، وقد تكرر في كلامه تعالى أن الأجل المسمى من مصاديق القضاء المحتوم كقوله: ﴿إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]

٦. ﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾ حال من ضمير ﴿أَحَدَكُمُ﴾ أو عطف على أول الكلام ويفيد فائدة التعليل، والمعنى: لا تتلهوا وأنفقوا فإن الله عليم بأعمالكم يجازيكم بها.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في الفقيه: وسئل عن قول الله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ من الصدقة، و﴿أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أحج.

• أقول: الظاهر أن ذيل الحديث من قبيل الإشارة إلى بعض المصاديق.

ب. وفي المجمع: (عن ابن عباس قال: ما من أحد يموت وكان له مال فلم يؤد زكاته، وأطاق الحج فلم يحج إلا سأل الرجعة عند الموت، قالوا: يا ابن عباس اتق الله، فإنما نرى هذا الكافر يسأل الرجعة، فقال: أنا أقرأ به عليكم قرآنا ثم قرأ هذه الآية، يعني قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: الصلاح هنا الحج، وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن عدة من أرباب الجوامع عن ابن عباس.

ج. وفي تفسير القمي، بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها﴾ قال: إن عند الله كتبا موقوفة يقدم منها ما يشاء، ويؤخر ما يشاء، فإذا كان ليلة القدر أنزل الله فيها، كل شيء يكون إلى مثلها، فذلك قوله: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها﴾ إذا نزله الله وكتبه كتاب السماوات، وهو الذي لا يؤخر.

سورة التغابن

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١١] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. السورة شبيهة بسورة الحديد في سياق كسياقها ونظم كنظمها، كأنها ملخصة منها، وغرضها تحريض المؤمنين وترغيبهم في الإنفاق في سبيل الله، ورفع ما يهجس في قلوبهم ويدب في نفوسهم من الأسى والأسف على المصائب التي تهجم عليهم في تحمل مشاق الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله والإنفاق فيها، بأن ذلك كله بإذن الله.

ب. والسورة مدنية بشهادة سياق آياتها.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٠] الآيات من صدر السورة تقدمه وتمهيد لبيان الغرض المذكور، تبين أن أسماءه تعالى الحسنى وصفاته العليا تقضي بالبعث ورجوع الكل إليه تعالى رجوعاً يساق فيه أهل الإيمان والعمل الصالح إلى جنة خالدة، وأهل الكفر والتكذيب إلى نار مؤبدة، فهي تمهيد للأمر بطاعة الله ورسوله والصبر على المصائب والإنفاق في سبيل الله من غير تأثر من منع مانع ولا خوف من لومة لائم.

٢. الآيات [١١ ـ ١٨]:

أ. شروع فيما هو الغرض من السورة، بعد ما مر من التمهيد والتوطئة، وهو الندب إلى الإنفاق في سبيل الله والصبر على ما يصيبهم من المصائب في خلال المجاهدة في الله سبحانه.

ب. وقدم ذكر المصيبة والإشارة إلى الصبر عليها، ليصفو المقام لما سيندب إليه من الإنفاق وينقطع العذر.

١. تسبيح كل شيء لله ذي الملك والحمد والقدرة:

المقطع [١] من سورة التغابن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٩٤»:

١. ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

أ. تقدم الكلام في معنى التسبيح والملك والحمد والقدرة، وأن المراد بما في السماوات والأرض يشمل نفس السماوات والأرض ومن فيها وما فيها.

ب. ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ مطلق يفيد إطلاق الملك وعدم محدوديته بحد ولا تقيده بقيد أو شرط فلا حكم نافذا إلا حكمه، ولا حكم له إلا نافذا على ما أراد.

ج. وكذا قوله: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ مطلق يفيد رجوع كل حمد من كل حامد، والحمد هو الثناء على الجميل الاختياري، إليه تعالى لأن الخلق والأمر إليه فلا ذات ولا صفة ولا فعل جميلا محمودا إلا منه وإليه.

د. وكذا قوله: ﴿وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بما يدل عليه من عموم متعلق القدرة غير محدودة ولا مقيدة بقيد أو شرط.

هـ. وإذ كانت الآيات، كما تقدمت الإشارة إليه، مسوقة لإثبات المعاد كانت الآية كالمقدمة الأولى لإثباته، وتفيد أن الله منزه عن كل نقص وشين في ذاته وصفاته وأفعاله يملك الحكم على كل شيء والتصرف فيه كيفما شاء وأراد، ولا يتصرف إلا جميلا، وقدرته تسع كل شيء فله أن يتصرف في خلقه بالإعادة كما تصرف فيهم بالإيذاء، الإحداث والإبقاء، فله أن يبعثهم إن تعلقت به إرادته ولا تتعلق إلا بحكمه.

٢. الخلق والكفر والإيمان والتصوير:

المقطع [٢] من سورة التغابن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٢-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٩٥»:

١. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

أ. الفاء في ﴿فَمِنْكُمْ﴾ تدل على مجرد ترتب الكفر والإيمان على الخلق فلا دلالة في التفريع على كون الكفر والإيمان مخلوقين لله تعالى أو غير مخلوقين، وإنما المراد انشعابهم فرقتين: بعضهم كافر وبعضهم مؤمن، وقدم ذكر الكافر لكثرة الكفار وغلبتهم.

ب. و (من) في قوله: ﴿فَمِنْكُمْ﴾ و﴿فَمِنْكُمْ﴾ للتبعيض أي فبعضكم كافر وبعضكم مؤمن.

ج. وقد نبه بقوله: ﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ على أن انقسامهم قسمين وتفرقهم فرقتين حق كما ذكر، وهم متميزون عنده لأن الملاك في ذلك أعمالهم ظاهرها وباطنها والله بما يعملون بصير لا تخفى عليه ولا تشتبه.

د. وتتضمن الآية مقدمة أخرى لإثبات المعاد وتنجزه وهي أن الناس مخلوقون له تعالى متميزون عنده بالكفر والإيمان وصالح العمل وطالحه.

٢. ﴿خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾:

أ. المراد بالحق خلاف الباطل وهو خلقها من غير غاية ثابتة وغرض ثابت كما قال: ﴿لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ [الأنبياء: ١٧]، وقال: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٩]

ب. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ المراد بالتصوير إعطاء الصورة وصورة الشيء قوامه ونحو وجوده كما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وحسن الصورة تناسب تجهيزاتها بعضها لبعض والمجموع لغاية وجودها، وليس هو الحسن بمعنى صباحة المنظر وملاحته بل الحسن العام الساري في الأشياء كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]

ج. ولعل اختصاص حسن صورهم بالذكر للتنبيه على أنها ملائمة للغاية التي هي الرجوع إلى الله فتكون الجملة من جملة المقدمات المسوقة لإثبات المعاد على ما تقدمت الإشارة إليه.

د. وبهذه الآية تتم المقدمات المنتجة للزوم البعث ورجوع الخلق إليه تعالى فإنه تعالى لما كان ملكا قادرا على الإطلاق له أن يحكم بما شاء ويتصرف كيف أراد وهو منزه عن كل نقص وشين محمود في أفعاله، وكان الناس مختلفين بالكفر والإيمان وهو بصير بأعمالهم، وكانت الخلقة لغاية من غير لغو وجزاف كان من الواجب أن يبعثوا بعد نشأتهم الدنيا لنشأة أخرى دائمة خالدة فيعيشوا فيها عيشة باقية على ما يقتضيه اختلافهم بالكفر والإيمان وهو الجزاء الذي يسعد به مؤمنهم ويشقى به كافرهم.

هـ. وإلى هذه النتيجة يشير بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾

٣. ﴿يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾

دفع شبهة لمنكري المعاد مبنية على الاستبعاد وهي أنه كيف يمكن إعادة الموجودات وهي فانية بائدة وحوادث العالم لا تحصى والأعمال والصفات لا تعد، منها ظاهرة علنية ومنها باطنة سرية ومنها مشهودة ومنها مغيبة، فأجيب بأن الله يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون.

٤. ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾:

أ. قيل: إنه اعتراض تذييلي مقرر لشمول علمه تعالى بما يسرون وما يعلنون والمعنى: أنه تعالى محيط علما بالمضرات المستكنة في صدور الناس مما لا يفارقها أصلا فكيف يخفى عليه شيء مما تسرونه وما تعلنونه.

ب. وفي قوله: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾، وضع الظاهر موضع الضمير والأصل (وهو عليم) والنكتة فيه الإشارة إلى علة الحكم، وليكون ضابطا يجري مجرى المثل.

٣. عاقبة الكفر والتكذيب بالرسل وعذابهم الأليم:

المقطع [٣] من سورة التغابن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللهُ وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٥-٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٩٦»:

١. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾:

أ. وبال الأمر تبعته السيئة والمراد بأمرهم كفرهم وما تفرع عليه من فسوقهم.

ب. لما كان مقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العليا المعدودة في الآيات السابقة وجوب معاد الناس ومصيرهم إلى ربهم للحساب والجزاء فمن الواجب إعلامهم بما يجب عليهم أن يأتوا به أو يجتنبوا عنه وهو الشرع، والطريق إلى ذلك الرسالة فمن الواجب إرسال رسول على أساس الإنذار والتبشير بعقاب الآخرة وثوابها وسخطه تعالى ورضاه.

ج. ساق تعالى الكلام بالإنذار بالإشارة إلى نبأ الذين كفروا من قبل وأنهم ذاقوا وبال أمرهم ولهم في الآخرة عذاب أليم ثم انتقل إلى بيان سبب كفرهم وهو تكذيب الرسالة ثم إلى سبب ذلك وهو إنكار البعث والمعاد.

د. ثم استنتج من ذلك كله وجوب إيمانهم بالله ورسوله والدين الذي أنزله عليه وختم التمهيد المذكور بالتبشير والإنذار بالإشارة إلى ما هيئ للمؤمنين الصالحين من جنة خالدة ولغيرهم من الكفار

المكذبين من نار مؤبدة.

هـ. فقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ الخطاب للمشركين وفيه إشارة إلى قصص الأمم السالفة الهالكة كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، ممن أهلكهم الله بذنوبهم، وقوله: ﴿فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ﴾ إشارة إلى ما نزل عليهم من عذاب الاستئصال وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ إشارة إلى عذابهم الأخروي.

٢. ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا﴾:

أ. بيان لسبب ما ذكر من تعذيبهم بعذاب الاستئصال وعذاب الآخرة، ولذلك جيء بالفصل دون العطف كأنه جواب لسؤال مقدر كان سائلا يسأل فيقول: لم أصابهم ما أصابهم من العذاب؟ فقيل: ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ﴾، والإشارة بذلك إلى ما ذكر من العذاب.

ب. وفي التعبير عن إتيان الرسل ودعوتهم بقوله: ﴿كانَتْ تَأْتِيهِمْ﴾ الدال على الاستمرار، وعن كفرهم وقولهم بقوله: ﴿فَقالُوا﴾ و﴿فَكَفَرُوا﴾ و﴿تَوَلَّوْا﴾ الدال بالمقابلة على المرة دلالة على أنهم قالوا ما قالوا كلمة واحدة قاطعة لا معدل عنها وثبتوا عليها وهو العناد واللجاج فتكون الآية في معنى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١]، وقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ﴾ (أي بعد نوح) ﴿رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤]

٣. ﴿فَقالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا﴾:

أ. يطلق البشر على الواحد والجمع والمراد به الثاني بدليل قوله: ﴿يَهْدُونَنا﴾ والتنكير للتحقير، والاستفهام للإنكار أي قالوا على سبيل الإنكار: آآحاد من البشر لا فضل لهم علينا يهدوننا؟

ب. وهذا القول منهم مبني على الاستكبار، على أن أكثر هؤلاء الأمم الهالكة كانوا وثنيين وهم منكرون للنبوة وهو أساس تكذيبهم لدعوة الأنبياء، ولذلك فرع تعالى على قولهم: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا﴾ قوله: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا﴾ أي بنوا عليه كفرهم وإعراضهم.

٤. ﴿وَاسْتَغْنَى اللهُ﴾:

أ. الاستغناء طلب الغنى وهو من الله سبحانه، وهو غني بالذات، إظهار الغنى وذلك أنهم كانوا

يرون أن لهم من العلم والقوة والاستطاعة ما يدفع عن جمعهم الفناء ويضمن لهم البقاء كأنه لا غنى للوجود عنهم كما حكى الله سبحانه عن قائلهم: ﴿قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً﴾ [الكهف: ٣٥]، وقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً﴾ [فصلت: ٥٠]

ب. ومآل هذا الظن بالحقيقة إلى أن لله سبحانه حاجة إليهم وفيهم، وهو الغني بالذات، فإهلاكه تعالى لهم وإفناؤهم إظهار منه لغناه عن وجودهم، وعلى هذا فالمراد بقوله: ﴿وَاسْتَغْنَى اللهُ﴾ استئصالهم المدلول عليه بقوله: ﴿فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ﴾

ج. على أن الإنسان معجب بنفسه بالطبع يرى أن له على الله كرامة كان من الواجب عليه أن يحسن إليه أينما كان كان لله سبحانه حاجة إلى إسعاده والإحسان إليه كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى﴾ [فصلت: ٥٠]، وقوله: ﴿وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً﴾ [الكهف: ٣٦]

د. ومآل هذا الزعم بالحقيقة إلى أن من الواجب على الله سبحانه أن يسعدهم كيفما كان كأن له إليهم حاجة فإذاقته لهم وبال أمرهم وتعذيبهم في الآخرة إظهار منه تعالى لغناه عنهم، فالمراد باستغنائه تعالى عنهم مجموع ما أفيد بقوله: ﴿فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾

هـ. فهذان وجهان في معنى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْنَى اللهُ﴾ والثاني منهما أشمل، وفي الكلمة على أي حال من سطوع العظمة والقدرة ما لا يخفى، وهو في معنى قوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤]

و. وقيل: المراد واستغنى الله بإقامة البرهان وإتمام الحجة عليهم عن الزيادة على ذلك بإرشادهم وهدايتهم إلى الإيمان.

ز. وقيل: المراد واستغنى الله عن طاعتهم وعبادتهم أزلا وأبدا لأنه غني بالذات، والوجهان كما ترى.

٥. ﴿وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ في محل التعليل لمضمون الآية، والمعنى: والله غني في ذاته محمود فيما فعل، فما فعل بهم من إذاقتهم وبال أمرهم وتعذيبهم بعذاب أليم على كفرهم وتوليهم من غناه وعدله لأنه مقتضى عملهم المردود إليهم.

٤. إثبات البعث والجزاء بعد إنكار الكافرين له:

المقطع [٤] من سورة التغابن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٩٩»:

١. ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾:

أ. ذكر ركن آخر من أركان كفر الوثنيين وهو إنكارهم الدين السماوي بإنكار المعاد إذ لا يبقى مع انتفاء المعاد أثر للدين المبني على الأمر والنهي والحساب والجزاء ويصلح تعليلا لإنكار الرسالة إذ لا معنى حينئذ للتبليغ والوعيد.

ب. والمراد بالذين كفروا عامة الوثنيين ومنهم من عاصر النبي ﷺ منهم كأهل مكة وما والاها، وقيل: المراد أهل مكة خاصة.

٢. ﴿قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ﴾:

أ. أمر النبي ﷺ أن يجيب عن زعمهم أن لن يبعثوا، بإثبات ما نفوه بها في الكلام من أصناف التأكيد بالقسم واللام والنون.

ب. ﴿ثُمَ﴾ في ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَ﴾ للتراخي بحسب رتبة الكلام، وفي الجملة إشارة إلى غاية البعث وهو الحساب وقوله: ﴿وَذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ أي ما ذكر من البعث والإنباء بالأعمال يسير عليه تعالى غير عسير، وفيه رد لإحالتهم أمر البعث على الله سبحانه استبعادا، وقد عبر عنه في موضع آخر من كلامه بمثل قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]

ج. والدليل عليه ما عده في صدر الآيات من أسمائه تعالى وصفاته من الخلق والملك والعلم وأنه مسبح محمود، ويجمع الجميع أنه الله المستجمع لجميع صفات الكمال.

د. ويظهر من هنا أن التصريح باسم الجلالة في الجملة أعني قوله: ﴿وَذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ للإيماء إلى التعليل، والمفاد أن ذلك يسير عليه تعالى لأنه الله، والكلام حجة برهانية لا دعوى مجردة.

هـ. وذكروا أن الآية ثالثة الآيات التي أمر الله نبيه ﷺ أن يقسم بربه على وقوع المعاد وهي ثلاث:

إحداها قوله: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ [يونس: ٥٣]، والثانية قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣]، والثالثة الآية التي نحن فيها.

٥. الأمر بالإيمان بالله ورسوله والنور المنزل:

المقطع [٥] من سورة التغابن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٢٩٩»:

١. ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾:

أ. تفريع على مضمون الآية السابقة أي إذا كنتم مبعوثين لا محالة منبئين بما عملتم وجب عليكم أن تؤمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزله على رسوله وهو القرآن الذي يهدي بنوره الساطع إلى مستقيم الصراط، ويبين شرائع الدين.

ب. وفي قوله: ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير ولعل النكتة فيه تتميم الحجة بالسلوك من طريق الشهادة وهي أقطع للعذر فكم فرق بين قولنا:

ج. والنور الذي أنزل وهو إخبار، وقوله: ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ ففيه شهادة منه تعالى على أن القرآن كتاب سماوي نازل من عنده تعالى، والشهادة آكد من الإخبار المجرد.

د. سؤال وإشكال: لا يقال: ما ذا ينفع ذلك وهم ينكرون كون القرآن كلامه تعالى النازل من عنده ولو صدقوا ذلك كفاهم ما مر من الحجة على المعاد وأغنى عن التمسك بذيل الالتفات المذكور، والجواب: لأنه يقال: كفى في إبطال إنكارهم كونه كلام الله ما في القرآن من آيات التحدي المثبتة لكونه كلام الله، والشهادة على أي حال آكد وأقوى من الإخبار وإن كان مدللا.

٢. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تذكرة بعلمه تعالى بدقائق أعمالهم ليتأكد به الأمر في قوله: ﴿فَآمِنُوا﴾ والمعنى: آمنوا وجدوا في إيمانكم فإنه عليم بدقائق أعمالكم لا يغفل عن شيء منها وهو مجازيكم بها لا محالة.

٦. يوم الجمع والتغابن والفوز العظيم لأهل الإيمان:

المقطع [٦] من سورة التغابن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٩ـ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٠٠»:

١. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ ظرف لقوله السابق: ﴿لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَ﴾، والمراد بيوم الجمع يوم القيامة الذي يجمع فيه الناس لفصل القضاء بينهم قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً﴾ [الكهف: ٩٩]، وقد تكرر في القرآن الكريم حديث الجمع ليوم القيامة، ويفسره أمثال قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٧]، وقوله: ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥]، فالآيات تشير إلى أن جمعهم للقضاء بينهم.

٢. ﴿ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ﴾:

أ. قال الراغب: (الغبن أن تبخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء، قال: ويوم التغابن يوم القيامة لظهور الغبن في المعاملة المشار إليها بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ﴾ وبقوله: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، وبقوله: ﴿الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ فعلموا أنهم غبنوا فيما تركوا من المبايعة وفيما تعاطوه من ذلك جميعا، وسئل بعضهم عن يوم التغابن فقال: (تبدو الأشياء لهم بخلاف مقاديرهم في الدنيا)

• وما ذكره أولا مبني على تفسير التغابن بسريان المغبونية بين الكفار بأخذهم لمعاملة خاسرة وتركهم معاملة رابحة، وهو معنى حسن غير أنه لا يلائم معنى باب التفاعل الظاهر في فعل البعض في البعض.

ب. وما نقله عن بعضهم وجه ثان لا يخلو من دقة، ويؤيده مثل قوله تعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الم [السجدة: ١٧]، وقوله: ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا [مَزِيدٌ﴾ ٣٥]، وقوله: ﴿وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، ومقتضى هذا الوجه عموم التغابن لجميع أهل الجمع من مؤمن وكافر أما المؤمن فلما أنه لم يعمل لآخرته أكثر مما عمل، وأما الكافر فلأنه لم يعمل أصلا، والوجه المشترك بينهما أنهما لم يقدرا اليوم حق قدره.

• ويرد على هذا الوجه ما يرد على سابقه.

ج. وهناك وجه ثالث وهو أن يعتبر التغابن بين أهل الضلال متبوعيهم وتابعيهم فالمتبوعون وهم المستكبرون يغبنون تابعيهم وهم الضعفاء حيث يأمرونهم بأخذ الدنيا وترك الآخرة فيضلون، والتابعون يغبنون المتبوعين حيث يعينونهم في استكبارهم باتباعهم فيضلون، فكل من الفريقين غابن لغيره ومغبون من غيره.

د. وهناك وجه رابع وردت به الرواية وهو أن لكل عبد منزلا في الجنة لو أطاع الله لدخله، ومنزلا في النار لو عصى الله لدخله ويوم القيامة يعطى منازل أهل النار في الجنة لأهل الجنة، ويعطى منازل أهل الجنة في النار لأهل النار فيكون أهل الجنة وهم المؤمنون غابنين لأهل النار وهم الكفار هم المغبونون.

• وقال بعض المفسرين بعد إيراد هذا الوجه: (وقد فسر التغابن قوله ذيلا: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾)، وليس بظاهر ذاك الظهور.

٣. ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً﴾، إلى قوله: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ تقدم تفسيره مرارا.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في صحيح البخاري، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ما من عبد يدخل الجنة إلا أري مقعده من النار، لو أساء ليزداد شكرا، وما من عبد يدخل النار إلا أري مقعده من الجنة، لو أحسن ليزداد حسرة.

• أقول: وفي هذا المعنى روايات كثيرة من طرق العامة والخاصة وقد تقدم بعضها في تفسير أول سورة المؤمنون.

ب. وفي تفسير البرهان، عن ابن بابويه بإسناده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يوم التلاق يوم يلتقي أهل السماء والأرض، ويوم التناد يوم ينادي أهل النار أهل الجنة ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ ويوم التغابن يوم يغبن أهل الجنة أهل النار، ويوم الحسرة يوم يؤتى بالموت فيذبح.

• أقول: وفي ذيل آيات صدر السورة المبحوث عنها عدة من الروايات توجه الآيات بشئون الولاية كالذي ورد أن الإيمان والكفر هما الإيمان والكفر بالولاية يوم أخذ الميثاق، وما ورد أن المراد بالبينات الأئمة، وما ورد أن المراد بالنور الإمام وهي جميعا ناظرة إلى بطن الآيات وليست بمفسرة البتة.

٧. كل مصيبة بإذن الله ومن يؤمن يهد الله قلبه:

المقطع [٧] من سورة التغابن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٠٣»:

١. ﴿ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله وَمَنْ يُؤْمِنْ بالله يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ المصيبة صفة شاع استعمالها في الحوادث السوء التي تصحب الضر، والإذن الاعلام بالرخصة وعدم المانع ويلازم علم الإذن بما أذن فيه، وليس هو العلم كما قيل.

٢. فظهر بما تقدم:

أ. أولا أن إذنه تعالى في عمل سبب من الأسباب هو التخلية بينه وبين مسببه:

- برفع الموانع التي تتخلل بينه وبين مسببه فلا تدعه يفعل فيه ما يقتضيه بسببيته كالنار تقتضي إحراق القطن مثلا لولا الفصل بينهما والرطوبة فرفع الفصل بينهما والرطوبة من القطن مع العلم بذلك إذن في عمل النار في القطن بما تقتضيه ذاتها أعني الإحراق.
- وقد كان استعمال الإذن في العرف العام مختصا بما إذا كان المأذون له من العقلاء لمكان أخذ معنى الاعلام في مفهومه فيقال: أذنت لفلان أن يفعل كذا ولا يقال: أذنت للنار أن تحرق، ولا أذنت للفرس أن يعدو، لكن القرآن الكريم يستعمله فيما يعم العقلاء وغيرهم بالتحليل كقوله: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ الله﴾ [النساء: ٦٤]، وقوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ٥٨]، ولا يبعد أن يكون هذا التعميم مبنيا على ما يفيده القرآن من سريان العلم والإدراك في الموجودات كما قدمناه في تفسير قوله: ﴿قالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]
- وكيف كان فلا يتم عمل من عامل ولا تأثير من مؤثر إلا بإذن من الله سبحانه فما كان من الأسباب غير تام له موانع لو تحققت منعت من تأثيره فإذنه تعالى له في أن يؤثر رفعه الموانع، وما كان منها تاما لا مانع له يمنعه فإذنه له عدم جعله له شيئا من الموانع فتأثيره يصاحب الإذن من غير انفكاك.

ب. وثانيا: أن المصائب وهي الحوادث التي تصيب الإنسان فتؤثر فيه آثارا سيئة مكروهة إنما تقع بإذن من الله سبحانه كما أن الحسنات كذلك لاستيعاب إذنه تعالى صدور كل أثر من كل مؤثر.

ج. وثالثا: أن هذا الإذن إذن تكويني:

• غير الإذن التشريعي الذي هو رفع الحظر عن الفعل فإصابة المصيبة تصاحب إذنا من الله في وقوعها وإن كانت من الظلم الممنوع فإن كون الظلم ممنوعا غير مأذون فيه إنما هو من جهة التشريع دون التكوين، ولذا كانت بعض المصائب غير جائزة الصبر عليها ولا مأذونا في تحملها ويجب على الإنسان أن يقاومها ما استطاع كالمظالم المتعلقة بالأعراض والنفوس.

• ومن هنا يظهر أن المصائب التي ندب إلى الصبر عندها هي التي لم يؤمر المصاب عندها بالذب والامتناع عن تحملها كالمصائب العامة الكونية من موت ومرض مما لا شأن لاختيار الإنسان فيها، وأما ما للاختيار فيها دخل كالمظالم المتعلقة نوع تعلق بالاختيار من المظالم المتوجهة إلى الأعراض فلإنسان أن يتوقاها ما استطاع.

٣. ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾:

أ. كان ظاهر سياق قوله: ﴿ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ يفيد أن لله سبحانه في الحوادث التي تسوء الإنسان علما ومشية فليست تصيبه مصيبة إلا بعد علمه تعالى ومشيته فليس لسبب من الأسباب الكونية أن يستقل بنفسه فيما يؤثره فإنما هو نظام الخلقة لا رب يملكه إلا خالقه فلا تحدث حادثة ولا تقع واقعة إلا بعلم منه ومشية فلم يكن ليخطئه ما أصابه ولم يكن ليصيبه ما أخطأه.

ب. وهذه هي الحقيقة التي بينها بلسان آخر في قوله: ﴿ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]

ج. فالله سبحانه رب العالمين ولازم ربوبيته العامة أنه وحده يملك كل شيء لا مالك بالحقيقة سواه، والنظام الجاري في الوجود مجموع من أنحاء تصرفاته في خلقه فلا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا عن إذن منه، ولا يفعل فاعل ولا يقبل قابل إلا عن علم سابق منه ومشية لا يخطئ علمه ومشيته ولا يرد قضاؤه.

د. فالإذعان بكونه تعالى هو الله يستعقب اهتداء النفس إلى هذه الحقائق واطمئنان القلب وسكونه وعدم اضطرابه وقلقه من جهة تعلقه بالأسباب الظاهرية وإسناده المصائب والنوائب المرة إليها دون الله سبحانه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾

هـ. وقيل: معنى الجملة: ومن يؤمن بتوحيد الله ويصبر لأمر الله يهد قلبه للاسترجاع حتى يقول:

إنا لله وإنا إليه راجعون، وفيه إدخال الصبر في معنى الإيمان.

و. وقيل: المعنى: ومن يؤمن بالله يهد قلبه إلى ما عليه أن يفعل فإن ابتلي صبر وإن أعطي شكر وإن ظلم غفر، وهذا الوجه قريب مما قدمناه.

٤. ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تأكيد للاستثناء المتقدم، ويمكن أن يكون إشارة إلى ما يفيده قوله: ﴿ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها﴾ [الحديد: ٢٢]

٨. الطاعة والبلاغ والتوكل والإيمان:

المقطع [٨] من سورة التغابن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن: ١٢-١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٠٥»:

١. ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ظاهر تكرار ﴿أَطِيعُوا﴾ دون أن يقال: أطيعوا الله والرسول اختلاف المراد بالإطاعة، فالمراد بإطاعة الله تعالى الانقياد له فيما شرعه لهم من شرائع الدين والمراد بإطاعة الرسول الانقياد له وامتثال ما يأمر به بحسب ولايته للأمة على ما جعلها الله له.

٢. ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾:

أ. التولي الإعراض، والبلاغ التبليغ، والمعنى: فإن أعرضتم عن إطاعة الله فيما شرع من الدين أو عن إطاعة الرسول فيما أمركم به بما أنه ولي أمركم، فلم يكرهكم رسولنا على الطاعة فإنه لم يؤمر بذلك، وإنما أمر بالتبليغ وقد بلغ.

ب. ومن هنا يظهر أن أمر النبي ﷺ فيما وراء الأحكام والشرائع من تبليغ رسالة الله فأمره ونهيه فيما توليه من أمر الله ونهيه، وطاعته فيهما من طاعة الله تعالى كما يدل عليه إطلاق قوله تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [النساء: ٦٤]، الظاهر في أن طاعة الرسول فيما يأمر وينهى مطلقا مأذون فيه بإذن الله، وإذنه في طاعته يستلزم علمه ومشيته لطاعته، وإرادة طاعة الأمر والنهي إرادة لنفس الأمر والنهي فأمر النبي ﷺ ونهيه من أمر الله ونهيه وإن كان فيما وراء الأحكام والشرائع المجعولة له تعالى.

ج. ولما تقدم من رجوع طاعة الرسول إلى طاعة الله التفت من الغيبة إلى الخطاب في قوله:

﴿رَسُولِنَا﴾ وفيه مع ذلك شيء من شائبة التهديد.

٣. ﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾:

أ. في مقام التعليل لوجوب إطاعة الله على ما تقدم أن طاعة الرسول من طاعة الله، توضيح ذلك أن الطاعة بمعنى الانقياد والائتمار للأمر والانتهاء عن النهي من شئون العبودية حيث لا أثر لملك المولى رقبة عبده إلا مالكيته لإرادته وعمله فلا يريد إلا ما يريد المولى أن يريده ولا يعمل إلا ما يريد المولى أن يعمله فالطاعة نحو من العبودية كما يشير إليه قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ﴾ [يس: ٦٠]، يعاتبهم بعبادة الشيطان وإنما أطاعوه.

ب. فطاعة المطيع بالنسبة إلى المطاع نوع عبادة له، وإذ لا معبود إلا الله فلا طاعة إلا لله عز اسمه أو من أمر بطاعته فالمعنى: أطيعوا الله سبحانه إذ لا طاعة إلا لمعبود ولا معبود بالحق إلا الله فيجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به بطاعة غيره وعبادته كالشيطان وهوى النفس وهذا معنى كون الجملة في مقام التعليل.

ج. وبما مر يظهر وجه تخصيص صفة الألوهية التي تفيد معنى المعبودية، بالذكر دون صفة الربوبية فلم يقل: الله لا رب غيره.

٤. ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾:

أ. تأكيد لمعنى الجملة السابقة أعني قوله: ﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾، توضيحه: أن التوكيل إقامة الإنسان غيره مقام نفسه في إدارة أموره ولازم ذلك قيام إرادته مقام إرادة موكلة وفعله مقام فعله فينطبق بوجه على الإطاعة فإن المطيع يجعل إرادته وعمله تبعا لإرادة المطاع فتقوم إرادة المطاع مقام إرادته ويعود عمله متعلقا لإرادة المطاع صادرا منها اعتبارا فترجع الإطاعة توكيلا بوجه كما أن التوكيل إطاعة بوجه.

ب. فإطاعة العبد لربه اتباع إرادته لإرادة ربه والإتيان بالفعل على هذا النمط وبعبارة أخرى إيثار إرادته وما يتعلق بها من العمل على إرادة نفسه وما يتعلق بها من العمل.

ج. فطاعته تعالى فيما شرع لعباده وما يتعلق بها نوع تعلق من التوكل عليه، وطاعته واجبة لمن عرفه وآمن به فعلى الله فليتوكل المؤمنون وإياه فليطيعوا، وأما من لم يعرفه ولم يؤمن به فلا تتحقق منه طاعة.

د. وقد بان بما تقدم أن الإيمان والعمل الصالح نوع من التوكل على الله تعالى.

٩. التحذير من عداوة بعض الأزواج والأولاد:

المقطع [٩] من سورة التغابن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤-١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٠٦»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾:

أ. ﴿مِنْ﴾ في ﴿أَزْواجِكُمْ﴾ للتبعيض، وسياق الخطاب بلفظ ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وتعليق العداوة بهم يفيد التعليل أي إنهم يعادونهم بما أنهم مؤمنون، والعداوة من جهة الإيمان لا تتحقق إلا باهتمامهم أن يصرفوهم عن أصل الإيمان أو عن الأعمال الصالحة كالإنفاق في سبيل الله والهجرة من دار الكفر أو أن يحملوهم على الكفر أو المعاصي الموبقة كالبخل عن الإنفاق في سبيل الله شفقة على الأولاد والأزواج والغصب واكتساب المال من غير طريق حله.

ب. فالله سبحانه يعد بعض الأولاد والأزواج عدوا للمؤمنين في إيمانهم حيث يحملونهم على ترك الإيمان بالله أو ترك بعض الأعمال الصالحة أو اقتراف بعض الكبائر الموبقة وربما أطاعوهم في بعض ذلك شفقة عليهم وحبا لهم فأمرهم الله بالحذر منهم.

٢. ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. قال الراغب: (العفو القصد لتناول الشيء يقال: عفاه واعتفاه أي قصده متناولا ما عنده، إلى أن قال، وعفوت عنه قصدت إزالة ذنبه صارفا عنه، وقال: الصفح ترك التثريب وهو أبلغ من العفو، ولذلك قال تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ وقد يعفو الإنسان ولا يصفح، وقال: الغفر البأس ما يصونه عن الدنس، ومنه قيل: اغفر ثوبك في الوعاء واصبغ ثوبك فإنه أغفر للوسخ، والغفران والمغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب قال: ﴿غُفْرانَكَ رَبَّنا﴾ و﴿مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ﴾)

ب. ففي قوله: (فاعفوا واصفحوا واغفروا) ندب إلى كمال الإغماض عن الأولاد والأزواج، إذا ظهر منهم شيء من آثار المعاداة المذكورة، مع الحذر من أن يفتتن بهم.

ج. وفي قوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إن كان المراد خصوص مغفرته ورحمته للمخاطبين أن يعفوا

ويصفحوا ويغفروا كان وعدا جميلا لهم تجاه عملهم الصالح كما في قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]

د. وإن أريد مغفرته ورحمته العامتان من غير تقييد بمورد الخطاب أفاد أن المغفرة والرحمة من صفات الله سبحانه فإن عفوا وصفحوا وغفروا فقد اتصفوا بصفات الله وتخلقوا بأخلاقه.

٣. ﴿إِنَّمَا أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾:

أ. الفتنة ما يبتلى ويمتحن به، وكون الأموال والبنين فتنة إنما هو لكونهما زينة الحياة تنجذب إليهما النفس انجذابا فتفتتن وتلهو بهما عما يهمها من أمر آخرته وطاعة ربه، قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيا﴾ [الكهف: ٤٦]

ب. والجملة كناية عن النهي عن التلهي بهما والتفريط في جنب الله باللي إليهما ويؤكده قوله: ﴿وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ وذلك أن الرجل إذا أراد الهجرة، تعلق به ابنه وامرأته، وقالوا: ننشدك الله أن تذهب عنا فنضيع بعدك، فمنهم من يطيع أهله فيقيم، فحذرهم الله أبناءهم ونساءهم ونهاهم عن طاعتهم، ومنهم من يمضي ويذرهم ويقول: أما والله لئن لم تهاجروا معي، ثم جمع الله بيني وبينكم في دار الهجرة، لا أنفعكم بشيء أبدا، فلما جمع الله بينه وبينهم، أمر الله أن يتوق بحسن وصله، فقال: ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

• أقول: وروي هذا المعنى في الدر المنثور، عن عدة من أصحاب الجوامع عن ابن عباس.

ب. وفي الدر المنثور: في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ عن ابن مردويه عن عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي أوفى عن النبي ﷺ: لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال.

• أقول: وروي مثله أيضا عنه عن كعب بن عياض عنه ﷺ.

ج. أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم وابن مردويه عن بريدة قال: كان النبي ﷺ يخطب فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول

الله ﷺ من المنبر فحملهما واحدا من ذا الشق وواحدا من ذا الشق، ثم صعد المنبر فقال: صدق الله، قال: ﴿إِنَّمَا أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، إني لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران، لم أصبر إن قطعت كلامي ونزلت إليهما.

• أقول: والرواية لا تخلو من شيء وأنى تنال الفتنة من النبي ﷺ وهو سيد الأنبياء المخلصين معصوم مؤيد بروح القدس.

د. وأفظع لحنا من هذا الحديث ما رواه عن ابن مردويه عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ بينما هو يخطب الناس على المنبر، خرج الحسين بن علي فوطأ في ثوب كان عليه، فسقط فبكى فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر، فلما رأى الناس أسرعوا إلى الحسين يتعاطونه، يعطيه بعضهم بعضا حتى وقع في يد رسول الله ﷺ، فقال: قاتل الله الشيطان إن الولد لفتنة، والذي نفسي بيده ما دريت أني نزلت عن منبري.

هـ. ومثله ما عن ابن المنذر عن يحيى بن أبي كثير قال: سمع النبي ﷺ بكاء حسن أو حسين، فقال النبي ﷺ الولد فتنة، لقد قمت إليه وما أعقل.

• فالوجه طرح الروايات إلا أن تؤول.

١٠. الوصية بالتقوى والسمع والطاعة واتقاء الشح:

المقطع [١٠] من سورة التغابن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٠٨»:

١. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، أي مبلغ استطاعتكم، على ما يفيده السياق فإن السياق سياق الدعوة والندب إلى السمع والطاعة والإنفاق والمجاهدة في الله، والجملة تفريع على قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْوالُكُمْ﴾، فالمعنى: اتقوه مبلغ استطاعتكم ولا تدعوا من الاتقاء شيئا تسعه طاقتكم وجهدكم فتجري الآية مجرى قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وليست الآية ناظرة إلى نفي التكليف بالاتقاء فيما وراء الاستطاعة وفوق الطاقة كما في قوله: ﴿وَلا تُحَمِّلْنَا ما لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]

٢. وقد بان مما مر:

أ. أولا: أن لا منافاة بين الآيتين أعني قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ

تُقاتِهِ﴾ وأن الاختلاف بينهما كالاختلاف بالكمية والكيفية، فقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أمر باستيعاب جميع الموارد التي تسعها الاستطاعة بالتقوى، وقوله: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ﴾ أمر بالتلبس في كل من موارد التقوى بحق التقوى دون شبحها وصورتها.

ب. وثانيا: فساد قول بعضهم: إن قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ناسخ لقوله: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ﴾ وهو ظاهر.

٣. ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ﴾ توضيح وتأكيد لقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ والسمع الاستجابة والقبول وهو في مقام الالتزام القلبي، والطاعة الانقياد وهو في مقام العمل، والإنفاق المراد به بذل المال في سبيل الله.

٤. ﴿خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ﴾ منصوب بمحذوف، على ما في الكشاف، والتقدير آمنوا خيرا لأنفسكم، ويحتمل أن يكون ﴿أَنْفِقُوا﴾ مضمنا معنى قدموا أو ما يقرب منه بقرينة المقام، وفي قوله: ﴿لِأَنْفُسِكُمْ﴾ دون أن يقال: خيرا لكم زيادة تطييب لنفوسهم أي إن الإنفاق خير لكم لا ينتفع به إلا أنفسكم لما فيه من بسط أيديكم وسعة قدرتكم على رفع حوائج مجتمعكم.

٥. ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ تقدم تفسيره في تفسير سورة الحشر.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير البرهان، عن ابن شهرآشوب عن تفسير وكيع حدثنا سفيان بن مرة الهمداني عن عبد خير سألت علي بن أبي طالب عن قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ﴾ قال: والله ما عمل بها غير أهل بيت رسول الله ﷺ، نحن ذكرنا الله فلا ننساه ونحن شكرناه فلن نكفره، ونحن أطعناه فلم نعصه، فلما نزلت هذه قالت الصحابة: لا نطيق ذلك، فأنزل الله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، الحديث.

ب. وفي تفسير القمي، حدثني أبي عن الفضل بن أبي مرة قال: رأيت أبا عبد الله عليه السلام يطوف من أول الليل إلى الصباح، وهو يقول: اللهم وقني شح نفسي، فقلت: جعلت فداك ما رأيتك تدعو بغير هذا الدعاء، فقال: وأي شيء أشد من شح النفس؟ إن الله يقول: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

١١. القرض الحسن والمضاعفة والمغفرة:

المقطع [١١] من سورة التغابن، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [التغابن: ١٧-١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٠٩»:

١. ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ المراد بإقراض الله الإنفاق في سبيله سماه الله إقراضا لله وسمي المال المنفق قرضا حسنا حثا وترغيبا لهم فيه.

٢. ﴿يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ إشارة إلى حسن جزائه في الدنيا والآخرة.

٣. والشكور والحليم وعالم الغيب والشهادة والعزيز والحكيم خمسة من أسماء الله الحسنى تقدم شرحها، ووجه مناسبتها لما أمر به في الآية من السمع والطاعة والإنفاق ظاهر.

سورة الطلاق

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١١] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تتضمن السورة بيان كليات من أحكام الطلاق، تعقبه عظة وإنذار وتبشير.

ب. والسورة مدنية بشهادة سياقها.

ج. أحاديث وآثار: أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: نزلت سورة النساء القصرى بعد التي في البقرة بسبع سنين.

• أقول: سورة النساء القصرى هي سورة الطلاق.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٧] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تبين أحكام الطلاق والعدة والسكنى والنفقة للمطلقات، وتأمر بتقوى الله، وتذكر أن الله سيجعل لمن يتقيه مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب.

٢. الآيات [٩ ـ ١٢] موعظة وإنذار وتبشير، تؤكد التوصية بالتمسك بما شرع الله لهم من الأحكام، ومن جملتها ما شرعه من أحكام الطلاق والعدة، ولم يوص القرآن الكريم ولا أكد في التوصية في شيء من الأحكام المشرعة كما وصى وأكد في أحكام النساء، وليس إلا لأن لها نبأ.

١. الطلاق والعدة والتقوى والإحصاء:

المقطع [١] من سورة الطّلاق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ﴾ [الطلاق: ١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣١٢»:

١. ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾، بدئ الخطاب بنداء النبي ﷺ لأنه الرسول إلى الأمة وإمامهم فيصلح لخطابه أن يشمله وأتباعه من أمته وهذا شائع في الاستعمال يخص مقدم القوم وسيدهم بالنداء ويخاطب بما يعمه وقومه فلا موجب لقول بعضهم: إن التقدير يا أيها النبي قل لأمتك: إذا طلقتم النساء.

٢. ﴿إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَ﴾:

أ. أي إذا أردتم أن تطلقوا النساء وأشرفتم على ذلك إذ لا معنى لتحقق الطلاق بعد وقوع الطلاق فهو كقوله: ﴿إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا﴾ الآية: [المائدة: ٦]

ب. والعدة قعود المرأة عن الزوج حتى تنقضي المدة المرتبة شرعا، والمراد بتطليقهن لعدتهن تطليقهن لزمان عدتهن بحيث يأخذ زمان العدة من يوم تحقق التطليقة وذلك بأن تكون التطليقة في طهر لا مواقعة فيه حتى تنقضي أقراؤها.

٣. ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي عدوا الأقراء التي تعتد بها، وهو الاحتفاظ عليها لأن للمرأة فيها حق النفقة والسكنى على زوجها وللزوج فيها حق الرجوع.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج مالك والشافعي وعبد الرزاق في المصنف وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فتغيظ فيه رسول الله ﷺ ثم قال: ليراجعها ثم يمسها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها، فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء، وقرأ النبي ﷺ: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَ﴾ في قبل عدتهن)

• أقول: قوله: (في قبل عدتهن) قراءة ابن عمر وما في المصحف ﴿لِعِدَّتِهِنَ﴾

ب. أخرج ابن المنذر عن ابن سيرين في قوله: ﴿لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً﴾ قال: في حفصة بنت عمر طلقها النبي ﷺ واحدة، فنزلت ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ﴾، إلى قوله: ﴿يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً﴾ قال: فراجعها.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: كل طلاق لا يكون على السنة أو على العدة فليس بشيء، قال زرارة فقلت لأبي جعفر عليه السلام: فسر لي طلاق السنة وطلاق العدة، فقال: أما طلاق السنة، فإذا أراد الرجل أن يطلق امرأته، فينتظر بها حتى تطمث وتطهر، فإذا خرجت من طمثها طلقها تطليقة من غير جماع، ويشهد شاهدين على ذلك ثم يدعها حتى تطمث طمثين، فتنقضي عدتها بثلاث حيض وقد بانت منه، ويكون خاطبا من الخطاب إن شاءت تزوجته، وإن شاءت لم

تتزوجه، وعليه نفقتها والسكنى ما دامت في مدتها، وهما يتوارثان حتى تنقضي العدة، قال: وأما طلاق العدة الذي قال الله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ فإذا أراد الرجل منكم أن يطلق امرأته طلاق العدة فلينتظر بها حتى تحيض وتخرج من حيضتها ثم يطلقها تطليقة من غير جماع ويشهد شاهدين عدلين ويراجعها من يومه ذلك إن أحب أو بعد ذلك بأيام قبل أن تحيض ويشهد على رجعتها ويواقعها وتكون معه حتى تحيض فإذا حاضت وخرجت من حيضها طلقها تطليقة أخرى من غير جماع ويشهد على ذلك ثم يراجعها أيضا متى شاء قبل أن تحيض ويشهد على رجعتها ويواقعها وتكون معه إلى أن تحيض الحيضة الثالثة فإذا خرجت من حيضتها الثالثة طلقها التطليقة الثالثة بغير جماع ويشهد على ذلك فإذا فعل ذلك فقد بانت منه ولا تحل له حتى تنكح زوجا غيره، قيل له: فإن كانت ممن لا تحيض؟ قال: مثل هذه تطلق طلاق السنة.

د. وفي قرب الإسناد، بإسناده عن صفوان قال: سمعت يعني أبا عبد الله: وجاء رجل فسأله فقال: إني طلقت امرأتي ثلاثا في مجلس، فقال: ليس بشيء، ثم قال: أما تقرأ كتاب الله تعالى ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾، ثم قال: ألا تدري ﴿لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً﴾ ثم قال: كلما خالف كتاب الله والسنة، فهو يرد إلى كتاب الله والسنة.

٢. النهي عن إخراج المطلقات من البيوت:

المقطع [٢] من سورة الطّلاق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣١٣»:

١. ﴿وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَ﴾ ظاهر السياق كون ﴿لا تُخْرِجُوهُنَ﴾، بدلا من ﴿اتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ﴾ ويفيد ذلك تأكيد النهي في ﴿لا تُخْرِجُوهُنَ﴾ والمراد ببيوتهن البيوت التي كن يسكنه قبل الطلاق أضيفت إليهن بعناية السكنى.

٢. ﴿وَلا يَخْرُجْنَ﴾ نهي عن خروجهن أنفسهن كما كان سابقه نهيا عن إخراجهن.

٣. ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ أي ظاهرة كالزنا والبذاء وإيذاء أهلها كما في الروايات المأثورة

عن أئمة أهل البيت عليه السلام.

٤. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي الأحكام المذكورة للطلاق حدود الله حد بها أعمالكم ومن يتعد ويتجاوز حدود الله بأن لم يراعها وخالفها فقد ظلم نفسه أي عصى ربه.

٥. ﴿لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً﴾ أي أمرا يقضي بتغير الحال وتبدل رأي الزوج في طلاقها بأن يميل إلا الالتيام ويظهر في قلبه محبة حب الرجوع إلى سابق الحال.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في معنى قوله: ﴿لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ، إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ قال: لا يحل لرجل أن يخرج امرأته إذا طلقها، وكان له عليها رجعة، من بيته وهي لا تحل لها أن تخرج من بيته، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، ومعنى الفاحشة أن تزني أو تسرق على الرجل، ومن الفاحشة أيضا السلاطة على زوجها، فإن فعلت شيئا من ذلك حل له أن يخرجها.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن وهب بن حفص عن أحدهما عليهاالسلام في المطلقة تعتد في بيتها، وتظهر له زينتها، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا.

• أقول: وفي هذه المعاني ومعاني جمل الآيتين روايات أخرى عن أئمة أهل البيت عليه السلام.

ج. أخرج عبد الرزاق عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن أبا عمرو بن حفص بن المغيرة، خرج مع علي إلى اليمن، فأرسل إلى امرأته فاطمة بنت قيس، بتطليقة كانت بقيت من طلاقها، وأمر لها الحارث بن هشام وعباس بن أبي ربيعة بنفقة، فاستقلتها فقالا لها والله ما لك نفقة، إلا أن تكوني حاملا، فأتت النبي ﷺ فذكرت له أمرها، فقال لها النبي ﷺ: لا نفقة لك، فاستأذنته في الانتقال فأذن لها، فأرسل إليها مروان يسألها عن ذلك فحدثته، فقال مروان: لم أسمع بهذا الحديث إلا من امرأة، سنأخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها، فقالت فاطمة: بيني وبينكم كتاب الله، قال الله عز وجل: ﴿وَلا يَخْرُجْنَ، إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ حتى بلغ ﴿لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً﴾ قالت: هذا لمن كانت له مراجعة، فأي أمر يحدث بعد الثلاث؟ فكيف تقولون: لا نفقة إذا لم تكن حاملا؟ فعلا م تحبسونها،؟ ولكن يتركها حتى إذا حاضت، وطهرت طلقها تطليقة، فإن كانت تحيض فعدتها ثلاث حيض، وإن كانت لا تحيض فعدتها ثلاثة أشهر، وإن كانت حاملا فعدتها أن تضع حملها، وأن أراد مراجعتها قبل أن تنقضي عدتها، أشهد على ذلك

رجلين كما قال الله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ عند الطلاق وعند المراجعة، فإن راجعها فهي عنده على طلقتين، وإن لم يراجعها فإذا انقضت عدتها، فقد بانت عدتها منه بواحدة وهي أملك لنفسها، ثم تتزوج من شاءت هو أو غيره.

٣. المعاشرة بالمعروف أو الفراق والإشهاد عليه:

المقطع [٣] من سورة الطّلاق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣١٣»:

١. ﴿فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾:

أ. المراد من بلوغهن أجلهن اقترابهن من آخر زمان العدة وإشرافهن عليه، والمراد بإمساكهن الرجوع على سبيل الاستعارة، وبمفارقتهن تركهن ليخرجن من العدة ويبن.

ب. والمراد بكون الإمساك بمعروف حسن الصحبة ورعاية ما جعل الله لهن من الحقوق، وبكون فراقهن بمعروف أيضا استرام الحقوق الشرعية فالتقدير بمعروف من الشرع.

٢. ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أي أشهدوا على الطلاق رجلين منكم صاحبي عدل، وقد مر توضيح معنى العدل في تفسير سورة البقرة.

٣. ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ﴾ تقدم توضيحه في تفسير سورة البقرة.

٤. التقوى سبب الفرج والرزق:

المقطع [٤] من سورة الطّلاق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣١٣»:

١. ﴿ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي ما مر من الأمر بتقوى الله وإقامة الشهادة لله والنهي عن تعدي حدود الله أو مجموع ما مر من الأحكام والبعث إلى التقوى والإخلاص في الشهادة والزجر عن تعدي حدود الله يوعظ به المؤمنون ليركنوا إلى الحق وينقلعوا عن الباطل، وفيه إيهام أن في الإعراض عن هذه الأحكام أو تغييرها خروجا من الإيمان.

٢. ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهَّ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَّ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ودلالته على التقوى والتوكل]، خلاصته:

أ. بيان أن التقوى هي التورع عن محارم الله والالتزام بحدوده، وأنها توجب المخرج من مضائق الحياة والرزق من حيث لا يحتسب.

ب. إثبات أن التوكل على الله هو الاعتماد عليه مع الأخذ بالأسباب، وأن من يتوكل على الله فهو كافيه في جميع أموره.

ج. توضيح أن الآية لها معنى خاص ينطبق على سياق آيات الطلاق، ومعنى عام يشمل جميع المتقين والمتوكلين، ولكل منهما حكمه.

د. بيان أن الولاية الإلهية مراتب، وأن للمؤمنين والمتوسطين نصيبهم منها بحسب درجات تقواهم وإخلاصهم.

هـ. الرد على الأقوال التي تقصر الآية على مورد النزول، وبيان أنها عامة في جميع أحوال المتقين.

و. عرض الروايات الواردة في تفسير الآية، وبيان أنها تدل على عموم المعنى وشموله للدنيا والآخرة.

٥. عدة الآيسات والحوامل:

المقطع [٥] من سورة الطّلاق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ذَلِكَ أَمْرُ اللهَّ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٤-٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣١٦»:

١. ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ المراد بالارتياب الشك في يأسهن من المحيض أهو لكبر أم لعارض، فالمعنى: واللائي يئسن من المحيض من نسائكم

وشككتم في أمر يأسهن أهو لبلوغ سنهن سن اليأس أم لعارض فعدتهن ثلاثة أشهر.

٢. ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ عطف على قوله: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ﴾، والمعنى: واللائي لم يحضن وهو في سن من تحيض فعدتهن ثلاثة أشهر.

٣. ﴿وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي منتهى زمان عدتهن وضع الحمل.

٤. ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ أي يسهل عليه ما يستقبله من الشدائد والمشاق، وقيل: المراد أنه يسهل عليه أمور الدنيا والآخرة إما بفرج عاجل أو عوض آجل.

٥. ﴿ذلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ أي ما بينه في الآيات المتقدمة حكم الله أنزله إليكم.

٦. في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾:

أ. دلالة على أن اتباع الأوامر من التقوى كاجتناب المحرمات ولعله باعتبار أن امتثال الأمر يلازم اجتناب تركه.

ب. وتكفير السيئات سترها بالمغفرة، والمراد بالسيئات المعاصي الصغيرة فيبقى للتقوى كبائر المعاصي، ويكون مجموع قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾ في معنى قوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ [النساء: ٣١]، ومن الآيتين يظهر أن المراد بالمحارم في قوله عليه السلام في تعريف التقوى: أنها الورع عن محارم الله المعاصي الكبيرة.

ج. ويظهر أيضا أن مخالفة ما أنزله الله من الأمر في الطلاق والعدة من الكبائر إذ التقوى المذكورة في الآية تشمل ما ذكر من أمر الطلاق والعدة لا محالة فهو غير السيئات المكفرة وإلا اختل معنى الآية.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: عدة المرأة التي لا تحيض، والمستحاضة التي لا تطهر ثلاثة أشهر، وعدة التي تحيض ويستقيم حيضها ثلاثة قروء، وسألته عن قول الله عز وجل: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ ما الريبة؟ فقال: ما زاد على شهر فهو ريبة، فلتعتد ثلاثة أشهر ولتترك الحيض الحديث.

ب. وفيه، بإسناده عن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال: عدة الحامل أن تضع حملها، وعليه نفقتها بالمعروف حتى تضع حملها.

ج. وفيه، بإسناده عن أبي الصباح الكناني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا طلق الرجل المرأة وهي حبلى، أنفق عليها حتى تضع حملها، فإذا وضعته أعطاها أجرها ولا تضارها، إلا أن يجد من هي أرخص أجرا منها، فإن رضيت بذلك الأجر فهي أحق بابنها حتى تفطمه.

٦. إسكان المطلقات حسب الوسع وعدم المضارة:

المقطع [٦] من سورة الطّلاق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣١٧»:

١. ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ﴾:

أ. قال في المفردات: (وقوله تعالى: ﴿مِنْ وُجْدِكُمْ﴾ أي تمكنكم وقدر غناكم، ويعبر عن الغنى بالوجدان والجدة، وقد حكي فيه الوجد والوجد والوجد، بالحركات الثلاث في الواو)

ب. وضمير ﴿أَسْكِنُوهُنَ﴾ للمطلقات على ما يؤيده السياق، والمعنى: اسكنوا المطلقات من حيث سكنتم من المساكن على قدر تمكنكم وغناكم على الموسر قدره وعلى المعسر قدره.

٢. ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَ﴾ أي لا توجهوا إليهن ضررا يشق عليهن تحمله من حيث السكنى والكسوة والنفقة لتوردوا الضيق والحرج عليهن.

٧. الإنفاق على الحوامل والإرضاع والأجرة بالمعروف:

المقطع [٧] من سورة الطّلاق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ [الطلاق: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣١٧»:

١. ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَ﴾ معناه ظاهر.

٢. ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَ﴾ فلهن عليكم أجر الرضاعة وهو من نفقة الولد التي على الوالد.

٣. ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ الائتمار بشيء تشاور القوم فيه بحيث يأمر بعضهم فيه بعضا، وهو خطاب للرجل والمرأة أي تشاوروا في أمر الولد وتوافقوا في معروف من العادة بحيث لا يتضرر الرجل بزيادة الأجر الذي ينفقه ولا المرأة بنقيصته ولا الولد بنقص مدة الرضاع إلى غير ذلك.

٤. ﴿وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى﴾ أي وإن أراد كل منكم من الآخر ما فيه عسر واختلفتم فسترضع الولد امرأة أخرى أجنبية غير والدته أي فليسترضع الوالد غير والدة الصبي.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله: ﴿وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَ﴾ قال: المطلقة الحامل أجلها أن تضع ما في بطنها، إن وضعت يوم طلقها زوجها، فلها أن تتزوج إذا طهرت، وأن تضع ما في بطنها إلى تسعة أشهر لم تتزوج إلا أن تضع.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي الحسن عليه السلام قال: سألته عن الحبلى إذا طلقها زوجها فوضعت سقطا، تم أو لم يتم أو وضعته مضغة؟ قال: كل شيء وضعته يستبين أنه حمل تم أو لم يتم، فقد انقضت عدتها.

ج. أخرج ابن المنذر عن مغيرة قال: قلت للشعبي: ما أصدق إن علي بن أبي طالب كان يقول: عدة المتوفى عنها زوجها آخر الأجلين، قال: بلى فصدق به كأشد ما صدقت بشيء، كان علي يقول: إنما قوله: ﴿وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَ﴾ في المطلقة.

٨. النفقة بحسب السعة والتيسير بعد العسر:

المقطع [٨] من سورة الطّلاق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣١٧»:

١. ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾ الإنفاق من سعة هو التوسعة في الإنفاق وهو أمر لأهل السعة بأن يوسعوا على نسائهم المطلقات المرضعات أولادهم.

٢. ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ﴾ قدر الرزق ضيقه، والإيتاء الإعطاء، والمعنى: ومن ضاق عليه رزقه وكان فقيرا لا يتمكن من التوسع في الإنفاق فلينفق على قدر ما أعطاه الله من المال أي فلينفق على قدر تمكنه.

٣. ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها﴾ أي لا يكلف الله نفسا إلا بقدر ما أعطاها من القدرة فالجملة تنفي الحرج من التكاليف الإلهية ومنها إنفاق المطلقة.

٤. ﴿سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾ فيه بشرى وتسلية.

٥. أحاديث وآثار: في الفقيه، بإسناده عن ربعي بن عبد الله والفضيل بن يسار عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللهُ﴾ قال: إن أنفق عليها ما يقيم ظهرها مع الكسوة، وإلا فرق بينهما.

- أقول: ورواه في الكافي بإسناده عن أبي بصير عنه عليه السلام.

٩. عذاب القرى العاتية:

المقطع [٩] من سورة الطّلاق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق: ٨-١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٢٣»:

١. ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَعَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً﴾:

أ. قال الراغب: (العتو النبوء عن الطاعة)، فهو قريب المعنى من الاستكبار، وقال: (النكر الدهاء والأمر الصعب الذي لا يعرف)، والمراد بالنكر في الآية المعنى الثاني، وفي المجمع: (النكر المنكر الفظيع الذي لم ير مثله)

ب. والمراد بالقرية أهلها على سبيل التجوز كقوله: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، وفي قوله: ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ﴾ إشارة إلى أنهم كفروا بالله سبحانه بالشرك وكفروا كفرا آخر برسله بتكذيبهم في دعوتهم، على أنهم كفروا بالله تعالى في ترك شرائعه المشرعة وكفروا برسله فيما أمروا به بولايتهم لهم كما مر نظيره في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢]

ج. وشدة الحساب المناقشة فيه والاستقصاء لتوفية الأجر كما هو عليه، والمراد به حساب الدنيا غير حساب الآخرة والدليل على كونه حساب الدنيا قوله تعالى: ﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]

د. فما يصيب الإنسان من مصيبة، وهي المصيبة في نظر الدين، هو حاصل محاسبة أعماله والله يعفو عن كثير منها بالمسامحة والمساهلة في المحاسبة غير أنه تعالى يحاسب العاتين المستكبرين عن أمره ورسله حسابا شديدا بالمناقشة والاستقصاء والتثريب فيعذبهم عذابا نكرا.

هـ. والمعنى: وكم من أهل قرية عتوا واستكبروا عن أمر ربهم ورسله فلم يطيعوا الله ورسله فحاسبناها حسابا شديدا ناقشنا فيه واستقصيناه، وعذبناهم عذابا صعبا غير معهود وهو عذاب الاستئصال في الدنيا.

و. وما قيل: إن المراد به عذاب الآخرة، والتعبير بالفعل الماضي للدلالة على تحقق الوقوع غير سديد.

ز. وفي قوله: ﴿فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَعَذَّبْناها﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير، ونكتته الدلالة على العظمة.

٢. ﴿فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَكانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً﴾ المراد بأمرها عتوها واستكبارها، والمعنى: فأصابتهم عقوبة عتوهم وكان عاقبة عتوهم خسارا كأنهم اشتروا العتو بالطاعة ف) انتهى إلى أن خسروا.

٣. ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً﴾:

أ. هذا جزاؤهم في الأخرى كما كان ما في قوله: ﴿فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَعَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها﴾ جزاؤهم في الدنيا.

ب. والفصل في قوله: ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ﴾، لكونه في مقام دفع الدخل كأنه لما قيل: ﴿وَكانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً﴾، قيل: ما المراد بخسرهم؟ فقيل: ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً﴾

٤. ﴿فَاتَّقُوا اللهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً﴾:

أ. استنتاج مما تقدم خوطب به المؤمنون ليأخذوا حذرهم ويقوا أنفسهم أن يعتوا عن أمر ربهم ويطغوا عن طاعته فيبتلوا بوبال عتوهم وخسران عاقبتهم كما ابتليت بذلك القرى الهالكة.

ب. وقد وصف المؤمنين بأولى الألباب فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ استمدادا من عقولهم على ما يريده منهم من التقوى فإنهم لما سمعوا أن قوما عتوا عن أمر ربهم فحوسبوا حسابا شديدا وعذبوا عذابا نكرا وكان عاقبة أمرهم خسرا ثم سمعوا أن ذلك تكرر مرة بعد مرة وأباد قوما بعد

قوم، قضت عقولهم بأن العتو والاستكبار عن أمر الله تعرض لشديد حساب الله ومنكر عذابه فتنبههم وتبعثهم إلى التقوى وقد أنزل الله إليهم ذكرا يذكرهم به ما لهم وما عليهم ويهديهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ قال: أهل القرية.

ب. وفي تفسير البرهان، عن ابن بابويه بإسناده عن الريان بن الصلت عن الرضا عليه السلام في حديث المأمون قال: الذكر رسول الله ﷺ ونحن أهله، وذلك بين في كتاب الله حيث يقول في سورة الطلاق: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا، قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً، رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللهِ مُبَيِّناتٍ﴾ قال: فالذكر رسول الله ونحن أهله.

١٠. إخراج المؤمنين من الظلمات إلى النور بآيات الله:

المقطع [١٠] من سورة الطّلاق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٢٥»:

١. ﴿رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللهِ مُبَيِّناتٍ﴾:

أ. عطف بيان أو بدل من ﴿ذِكْراً﴾ فالمراد بالذكر الذي أنزله هو الرسول سمي به لأنه وسيلة التذكرة بالله وآياته وسبيل الدعوة إلى دين الحق، والمراد بالرسول محمد ﷺ على ما يؤيده ظاهر قوله: ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللهِ مُبَيِّناتٍ﴾

ب. وعلى هذا فالمراد بإنزال الرسول بعثه من عالم الغيب وإظهاره لهم رسولا من عنده بعد ما لم يكونوا يحتسبون كما في قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥]

ج. وقد دعي ظهور الإنزال في كونه من السماء بعضهم كصاحب الكشاف إلى أن فسر ﴿رَسُولاً﴾ بجبريل ويكون حينئذ معنى تلاوته الآيات عليهم تلاوته على النبي ﷺ بما أنه متبوع لقومه ووسيلة الإبلاغ لهم لكن ظاهر قوله: ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ﴾، خلاف ذلك.

د. ويحتمل أن يكون ﴿رَسُولاً﴾ منصوبا بفعل محذوف والتقدير أرسل رسولا يتلو عليكم آيات الله، ويكون المراد بالذكر المنزل إليهم القرآن أو ما بين فيه من الأحكام والمعارف.

٢. ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ تقدم تفسيره في نظائره.

٣. ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً﴾ وعد جميل وتبشير.

٤. ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً﴾ وصف لإحسانه تعالى إليهم فيما رزقهم به من الرزق والمراد بالرزق ما رزقهم من الإيمان والعمل الصالح في الدنيا والجنة في الآخرة، وقيل المراد به الجنة.

١١. خلق السماوات والأرض وإحاطة الله بكل شيء علماً:

المقطع [١١] من سورة الطّلاق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٢٥»:

١. ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾:

أ. بيان يتأكد به ما تقدم في الآيات من حديث ربوبيته تعالى وبعثة الرسول وإنزاله الذكر ليطيعوه فيه وأن في تمرده ومخالفته الحساب الشديد والعذاب الأليم وفي طاعته الجنة الخالدة كل ذلك لأنه قدير عليم.

ب. فقوله: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ﴾ تقدم بعض الكلام فيه في تفسير سورة حم السجدة.

٢. ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾:

أ. ظاهره المثلية في العدد، وعليه فالمعنى: وخلق من الأرض سبعا كما خلق من السماء سبعا فهل الأرضون السبع سبع كرات من نوع الأرض التي نحن عليها والتي نحن عليها إحداها؟ أو الأرض التي نحن عليها سبع طبقات محيطة بعضها ببعض والطبقة العليا بسيطها الذي نحن عليه؟ أو المراد الأقاليم السبعة التي قسموا إليها المعمور من سطح الكرة؟ وجوه ذهب إلى كل منها جمع وربما لاح بالرجوع إلى ما تقدم في تفسير سورة حم السجدة محتمل آخر غيرها.

ب. وربما قيل: إن المراد بقوله: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أنه خلق من الأرض شيئا هو مثل

السماوات السبع وهو الإنسان المركب من المادة الأرضية والروح السماوية التي فيها نماذج سماوية ملكوتية.

٣. ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾:

أ. الظاهر أن الضمير للسماوات والأرض جميعا والأمر هو الأمر الإلهي الذي فسره بقوله: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ [يس: ٨٣]، وهو كلمة الإيجاد، وتنزله هو أخذه بالنزول من مصدر الأمر إلى سماء بعد سماء حتى ينتهي إلى العالم الأرضي فيتكون ما قصد بالأمر من عين أو أثر أو رزق أو موت أو حياة أو عزة أو ذلة أو غير ذلك قال تعالى: ﴿وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها﴾ [فصلت: ١٢]، وقال: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]

ب. وقيل: المراد بالأمر الأمر التشريعي يتنزل ملائكة الوحي به من السماء إلى النبي وهو بالأرض، وهو تخصيص من غير مخصص وذيل الآية ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ﴾، لا يلائمه.

٤. ﴿أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ من الغايات المترتبة على خلقة السماوات السبع ومن الأرض مثلهن وتنزيله الأمر بينهن، وفي ذلك انتساب الخلق والأمر إليه واختصاصهما به فإن المتفكر في ذلك لا يرتاب في قدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء فليتق مخالفة أمره أولوا الألباب من المؤمنين فإن سنة هذا القدير العليم تجري على إثابة المطيعين لأوامره، ومجازاة العاتين المستكبرين وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد.

٥. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ﴾ فقال: هي محبوكة إلى الأرض وشبك بين أصابعه، فقلت: كيف تكون محبوكة إلى الأرض والله يقول: ﴿رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾؟ فقال: سبحان الله أليس الله يقول: بغير عمد ترونها؟ قلت: بلى، قال: فثم عمد ولكن لا ترونها، قلت: فكيف ذلك جعلني الله فداك؟ قال: فبسط كفه اليسرى ثم وضع اليمنى عليها فقال: هذه أرض الدنيا والسماء الدنيا فوقها قبة، والأرض الثانية فوق السماء الدنيا والسماء الثانية فوقها قبة، والأرض الثالثة فوق السماء الثانية والسماء الثالثة فوقها قبة، والأرض الرابعة فوق السماء الثالثة والسماء الرابعة فوقها قبة، والأرض الخامسة فوق السماء الرابعة والسماء الخامسة فوقها قبة، والأرض السادسة فوق السماء الخامسة والسماء السادسة فوقها قبة، والأرض السابعة فوق السماء السادسة والسماء السابعة فوقها قبة وعرش

الرحمن تبارك وتعالى فوق السماء السابعة وهو قول الله عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَ﴾، فأما صاحب الأمر فهو رسول الله ﷺ، والوصي بعد رسول الله قائم على وجه الأرض، فإنما يتنزل الأمر إليه من فوق السماء، من بين السماوات والأرضين، قلت: فما تحتنا إلا أرض واحدة؟ فقال: ما تحتنا إلا أرض واحدة وإن الست لهن فوقنا.

• أقول: وعن الطبرسي عن العياشي عن الحسين بن خالد عن الرضا عليه السلام: مثله.

• والحديث نادر في بابه، وهو وخاصة ما في ذيله من تنزل الأمر أقرب إلى الحمل على المعنى منه إلى الحمل على الصورة والله أعلم.

سورة التحريم

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١١] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تبدأ السورة بالإشارة إلى ما جرى بين النبي ﷺ وبين بعض أزواجه من قصة التحريم، فيعاتب النبي ﷺ بتحريمه ما أحل الله له ابتغاء لمرضاة بعض أزواجه، ومرجعه إلى عتاب تلك البعض والانتصار له ﷺ، كما يدل عليه سياق الآيات.

ب. ثم تخاطب المؤمنين أن يقوا أنفسهم من عذاب الله النار التي وقودها الناس والحجارة، وليسوا يجزون إلا بأعمالهم، ولا مخلص منها إلا للنبي والذين آمنوا معه.

ج. ثم تخاطب النبي بجهاد الكفار والمنافقين.

د. وتختتم السورة بضربه تعالى مثلاً من النساء للكفار، ومثلاً منهن للمؤمنين.

هـ. وظهور السياق في كون السورة مدنية لا ريب فيه.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٩] تبدأ السورة بالإشارة إلى ما جرى بين النبي ﷺ وبين بعض أزواجه من قصة التحريم، فيعاتب النبي ﷺ بتحريمه ما أحل الله له ابتغاء لمرضاة بعض أزواجه، ومرجعه إلى عتاب تلك البعض والانتصار له ﷺ، كما يدل عليه سياق الآيات.

٢. الآيات [١٠ ـ ١٢]:

أ. تتضمن الآيات الكريمة مثلين يمثل بهما الله سبحانه حال الكفار والمؤمنين، في أن شقاء الكفار وهلاكهم إنما كان بخيانتهم لله ورسوله وكفرهم، ولم ينفعهم اتصال بسبب إلى الأنبياء المكرمين، وأن سعادة المؤمنين وفلاحهم إنما كان بإخلاصهم الإيمان بالله ورسوله والقنوت وحسن الطاعة، ولم يضرهم اتصال بأعداء الله بسبب، فإنما ملاك الكرامة عند الله التقوى.

ب. يمثل الحال:

• أولاً: بحال امرأتين كانتا زوجين لنبيين كريمين، عدهما الله سبحانه عبدين صالحين، ويا له من

كرامة، فخانتاهما، فأمرتا بدخول النار مع الداخلين، فلم ينفعهما زوجيتهما للنبيين الكريمين شيئاً، فهلكتا في ضمن الهالكين من غير أدنى تميز وكرامة.

• وثانياً: بحال امرأتين: إحداهما امرأة فرعون الذي كانت منزلته في الكفر بالله أن نادى في الناس فقال: أنا ربكم الأعلى، فآمنت بالله وأخلصت الإيمان، فأنجاها الله وأدخلها الجنة، ولم يضرها زوجية مثل فرعون شيئاً، وثانيتهما مريم ابنة عمران الصديقة القانتة، أكرمها الله بكرامته ونفخ فيها من روحه.

ج. وفي التمثيل تعريض ظاهر شديد لزوجي النبي ﷺ حيث خانتاه في إفشاء سره وتظاهرتا عليه وآذتاه بذلك، وخاصة من حيث التعبير بلفظ الكفر والخيانة وذكر الأمر بدخول النار.

١. نهي النبي عن تحريم الحلال لإرضاء الأزواج:

المقطع [١] من سورة التّحريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ١-٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٢٩»:

١. ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. خطاب مشوب بعتاب لتحريمه ﷺ لنفسه بعض ما أحل الله له، ولم يصرح تعالى به ولم يبين أنه ما هو؟ وما ذا كان؟ غير أن قوله: ﴿تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ﴾ يومئ أنه كان عملا من الأعمال المحللة التي يقترفها النبي ﷺ لا ترتضيه أزواجه فضيقن عليه وآذينه حتى أرضاهن بالحلف على أن يتركه ولا يأتي به بعد.

ب. فقوله: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ علق الخطاب والنداء بوصف النبي دون الرسول لاختصاصه به في نفسه دون غيره حتى يلائم وصف الرسالة.

٢. ﴿لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ﴾:

أ. المراد بالتحريم التسبب إلى الحرمة بالحلف على ما تدل عليه الآية التالية فإن ظاهر قوله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ﴾، إنه ﷺ حلف على ذلك ومن شأن اليمين أن يوجب عروض الوجوب إن كان الحلف على الفعل والحرمة إن كان الحلف على الترك، وإذ كان ﷺ حلف على ترك ما أحل الله له فقد حرم ما أحل الله له بالحلف.

ب. وليس المراد بالتحريم تشريعه ﷺ على نفسه الحرمة فيما شرع الله له فيه الحلية فليس له ذلك.

٣. ﴿تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ﴾ أي تطلب بالتحريم رضاهن بدل من ﴿تُحَرِّمُ﴾، أو حال من فاعله، والجملة قرينة على أن العتاب بالحقيقة متوجه إليهن، ويؤيده قوله خطابا لهما: ﴿إِنْ تَتُوبا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما﴾، مع قوله فيه: ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

٤. ﴿قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ وَاللهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾:

أ. قال الراغب: (كل موضع ورد فرض الله عليه ففي الإيجاب الذي أدخله الله فيه، وما ورد من فرض الله له فهو في أن لا يحظره على نفسه نحو ﴿ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللهُ لَهُ﴾ وقوله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ﴾)

ب. والتحلة أصلها تحللة على وزن تذكرة وتكرمة مصدر كالتحليل، قال الراغب: (وقوله عز وجل: ﴿قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ﴾ أي بين ما تحل به عقدة أيمانكم من الكفارة.

ج. فالمعنى: قد قدر الله لكم، كأنه قدره نصيبا لهم حيث لم يمنعهم عن حل عقدة اليمين، تحليل أيمانكم بالكفارة والله وليكم الذي يتولى تدبير أموركم بالتشريع والهداية وهو العليم الحكيم.

د. وفي الآية دلالة على أن النبي ﷺ كان قد حلف على الترك، وأمر له بتحلة يمينه.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، بإسناده عن ابن سيار عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ، تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ﴾ قال: اطلعت عائشة وحفصة على النبي ﷺ وهو مع مارية، فقال النبي ﷺ: والله لا أقربها، فأمر الله أن يكفر بها عن يمينه.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن رجل قال لامرأته: أنت عليّ حرام فقال: لو كان لي عليه سلطان لأوجعت رأسه وقلت: الله أحلها لك فما حرمها عليك؟ أنه لم يزد على أن كذب فزعم أن ما أحل الله له حرام ولا يدخل عليه طلاق ولا كفارة، فقلت: قول الله عز وجل: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ﴾ فجعل فيه كفارة؟ فقال: إنما حرم عليه جاريته مارية القبطية، وحلف أن لا يقربها، وإنما جعل على النبي ﷺ الكفارة في الحلف، ولم يجعل عليه في التحريم.

ج. أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس قال: كان

رسول الله ﷺ يشرب من شراب، عند سودة من العسل، فدخل على عائشة فقالت: إني أجد منك ريحا، فدخل على حفصة فقالت: إني أجد منك ريحا، فقال: أراه من شراب شربته عند سودة، والله لا أشربه، فأنزل الله: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ﴾ الآية.

• أقول: والحديث مروي بطرق متشتتة وألفاظ مختلفة، وفي انطباقها على الآيات، وهي ذات سياق واحد، خفاء.

د. أخرج ابن سعد وابن مردويه عن ابن عباس قال: كانت عائشة وحفصة متحابتين، فذهبت حفصة إلى بيت أبيها تحدث عنده، فأرسل النبي ﷺ إلى جاريته فظلت معه في بيت حفصة، وكان اليوم الذي يأتي فيه عائشة فوجدتهما في بيتها، فجعلت تنتظر خروجها وغارت غيرة شديدة، فأخرج النبي ﷺ جاريته ودخلت حفصة، فقالت: قد رأيت من كان عندك والله لقد سوأتني، فقال النبي ﷺ: والله لأرضينك وإني مسر إليك سرا فاحفظيه، قالت: ما هو؟ قال: إني أشهدك، أن سريتي هذه علي حرام رضا لك، فانطلقت حفصة إلى عائشة، فأسرت إليها أن أبشري، أن النبي ﷺ قد حرم عليه فتاته، فلما أخبرت بسر النبي ﷺ أظهر الله النبي ﷺ عليه، فأنزل الله: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ﴾

• أقول: انطباق ما في الحديث على الآيات وخاصة قوله: (عرف بعضه وأعرض عن بعض) فيه خفاء.

هـ. أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً﴾ قال: دخلت حفصة على النبي ﷺ في بيتها وهو يطأ مارية، فقال لها رسول الله ﷺ: لا تخبري عائشة حتى أبشرك بشارة، فإن أباك يلي الأمر بعد أبي بكر إذا أنا مت، فذهبت حفصة فأخبرت عائشة، فقالت عائشة للنبي ﷺ: من أنبأك هذا؟ قال: نبأني العليم الخبير، فقالت عائشة: لا أنظر إليك حتى تحرم مارية فحرمها، فأنزل الله ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾

• أقول: والآثار في هذا الباب كثيرة على اختلاف فيها، وفي أكثرها أنه ﷺ حرم مارية على نفسه لقول حفصة لا لقول عائشة، وأن التي قالت للنبي ﷺ: ﴿مَنْ أَنْبَأَكَ هذا﴾ هي حفصة تريد من أخبرك أني أفشيت السر دون عائشة.

• وهي مع ذلك لا تزيل إبهام قوله تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾، نعم فيما رواه ابن

مردويه عن علي قال: ما استقصى كريم قط لأن الله يقول: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾، وروي عن أبي حاتم عن مجاهد، وابن مردويه عن ابن عباس: أن الذي عرف أمر مارية، والذي أعرض عنه قوله: إن أباك وأباها يليان الناس بعدي مخافة أن يفشو.

• ويتوجه عليه أنه ما وجه الكرم في أن يعرف ﷺ ما قاله من تحريم مارية ويعرض عما أخبرها من ولايتهما مع أن العكس أولى وأقرب.

و. وقد روي بعده طرق عن عمر بن الخطاب سبب نزول الآيات ولم يذكر ذلك ففي عدة من جوامع الحديث منها البخاري ومسلم والترمذي عن ابن عباس قال: لم أزل حريصا أن أسأل عمر، عن المرأتين من أزواج النبي اللتين قال الله: ﴿إِنْ تَتُوبا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما﴾ حتى حج عمر وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة، فتبرز ثم أتى فصببت على يديه فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين من المرأتان، من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله: ﴿إِنْ تَتُوبا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما﴾ فقال: وا عجبا لك يا ابن عباس، هما عائشة وحفصة ثم أنشأ يحدثني، فقال: كنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فغضبت على امرأتي يوما فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني فقالت: ما تنكر من ذلك؟ فو الله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، قلت: قد خابت من فعلت ذلك منهن وخسرت، قال: وكان منزلي بالعوالي، وكان لي جار من الأنصار، كنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ، فينزل يوما فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وأنزل يوما فآتيه بمثل ذلك، قال: وكنا نحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا، فجاء يوما فضرب على الباب فخرجت إليه، فقال: حدث أمر عظيم، فقلت: أجاءت غسان؟ قال: أعظم من ذلك طلق رسول الله ﷺ نساءه، قلت في نفسي: قد خابت حفصة وخسرت، قد كنت أرى ذلك كائنا، فلما صلينا الصبح شددت علي ثيابي، ثم انطلقت حتى دخلت على حفصة، فإذا هي تبكي فقلت: أطلقكن رسول الله ﷺ؟ قالت: لا أدري هو ذا معتزل في المشربة، فانطلقت فأتيت غلاما أسود، فقلت: استأذن لعمر فدخل ثم خرج إلي، فقال: قد ذكرتك له فلم يقل شيئا، فانطلقت إلى المسجد، فإذا حول المسجد نفر يبكون فجلست إليهم، ثم غلبني ما أجد فانطلقت فأتيت الغلام، فقلت: استأذن لعمر فدخل ثم خرج، فقال: قد ذكرتك له فلم يقل شيئا، فوليت منطلقا فإذا الغلام يدعوني، فقال: ادخل فقد أذن لك، فدخلت فإذا

النبي ﷺ متكئ على حصير، قد رأيت أثره في جنبه، فقلت: يا رسول الله أطلقت نساءك؟ قال: لا، قلت: الله أكبر لو رأيتنا يا رسول الله، وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فغضبت يوما على امرأتي، فإذا هي تراجعني فأنكرت ذلك، فقالت: ما تنكر؟ فو الله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، فقلت: قد خاب من فعل ذلك منهن، فدخلت على حفصة، فقلت: أتراجع إحداكن رسول الله، وتهجره اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم، فقلت: قد خابت من فعلت ذلك منكن وخسرت، أتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله ﷺ، فإذا هي قد هلكت فتبسم رسول الله ﷺ، فقلت لحفصة: لا تراجعي رسول الله ﷺ، ولا تسأليه شيئا وسليني ما بدا لك، ولا يغرنك إن كانت جارتك أوسم منك، وأحب إلى رسول الله ﷺ فتبسم أخرى، فقلت: يا رسول الله أستأنس قال: نعم، فرفعت رأسي فما رأيت في البيت إلا أهبة ثلاثة، فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالسا وقال: أوفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، وكان قد أقسم أن لا يدخل على أزواجه شهرا، فعاتبه الله في ذلك وجعل له كفارة اليمين.

• أقول: وهذا المعنى مروي عنه مفصلا ومختصرا بطرق مختلفة، والرواية، كما ترى، لا تذكر ما أسره النبي ﷺ إلى بعض أزواجه؟ وما هو بعض النبإ الذي عرفه وما هو الذي أعرض عنه وله شأن من الشأن.

• وهي مع ذلك ظاهرة في أن المراد بالتحريم في الآية تحريم عامة أزواجه وذلك لا ينطبق عليها وفيها قوله تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ﴾ مضافا إلى أنه لا تبين به وجه التخصيص في قوله: ﴿إِنْ تَتُوبا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ﴾

٢. إسرار النبي لبعض أزواجه وإطلاع الله له عليه:

المقطع [٢] من سورة التّحريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٣٠»:

١. ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ

عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾:

أ. السر هو الحديث الذي تكتمه في نفسك وتخفيه، والإسرار إفضاؤك الحديث إلى غيرك مع إيصائك بإخفائه، وضمير ﴿نَبَّأَتْ﴾ لبعض أزواجه، وضمير ﴿بِهِ﴾ للحديث الذي أسره النبي ﷺ إليها، وضمير ﴿أَظْهَرَهُ﴾ للنبي ﷺ، وضمير ﴿عَلَيْهِ﴾ لإنبائها به غيرها وإفشائها السر، وضمير ﴿عَرَّفَ﴾ و﴿أَعْرَضَ﴾ للنبي ﷺ، وضمير ﴿بَعْضَهُ﴾ للحديث، والإشارة بقوله: ﴿هذا﴾ لإنبائها غيره وإفشائها السر.

ب. ومحصل المعنى: وإذ أفضى النبي إلى بعض أزواجه، وهي حفصة بنت عمر بن الخطاب، حديثا وأوصاها بكتمانه فلما أخبرت به غيرها وأفشت السر خلافا لما أوصاها به، وأعلم الله النبي ﷺ أنها نبأت به غيرها وأفشت السر عرف وأعلم بعضه وأعرض عن بعض آخر، فلما خبرها النبي ﷺ بالحديث قالت للنبي ﷺ: من أنبأك وأخبرك أني نبأت به غيري وأفشيت السر؟ قال النبي ﷺ: نبأني وخبرني العليم الخبير وهو الله العليم بالسر والعلانية الخبير بالسرائر.

٣. دعوة الزوجين إلى التوبة وتحذيرهما من المظاهرة عليه:

المقطع [٣] من سورة التّحريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٣١»:

١. ﴿إِنْ تَتُوبا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْملائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ﴾:

أ. أي إن تتوبا إلى الله فقد تحقق منكما ما يستوجب عليكما التوبة وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه..

ب. وقد اتفق النقل على أنهما عائشة وحفصة زوجا رسول الله ﷺ.

ج. والصغو الميل والمراد به الميل إلى الباطل والخروج عن الاستقامة وقد كان ما كان منهما من إيذائه والتظاهر عليه ﷺ من الكبائر وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾

[التوبة: ٦١]

د. والتعبير بقلوبكما وإرادة معنى التثنية من الجمع كثير النظير في الاستعمال.

٢. ﴿وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ﴾:

أ. التظاهر التعاون، وأصل ﴿وَإِنْ تَظاهَرا﴾ وإن تتظاهرا، وضمير الفصل في قوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ﴾ للدلالة على أن الله سبحانه عناية خاصة به ﷺ ينصره ويتولى أمره من غير واسطة من خلقه، والمولى الولي الذي يتولى أمره وينصره على من يريده بسوء.

ب. و ﴿جِبْرِيلُ﴾ عطف على لفظ الجلالة، و﴿صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف كجبريل، والمراد بصالح المؤمنين على ما قيل الصلحاء من المؤمنين فصالح المؤمنين واحد أريد به الجمع كقولك: لا يفعل هذا الصالح من الناس تريد به الجنس كقولك لا يفعله من صلح منه ومثله قولك: كنت في السامر والحاضر.

• وفيه قياس المضاف إلى الجمع إلى مدخول اللام فظاهر ﴿صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ غير ظاهر (الصالح من المؤمنين)

ج. ووردت الرواية من طرق أهل السنة عن النبي ﷺ ومن طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليه السلام أن المراد بصالح المؤمنين علي عليه أفضل السلام، وستوافيك إن شاء الله.

د. وفي المراد منه أقوال أخر أغمضنا عنها لعدم دليل عليها.

٣. ﴿وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ﴾ إفراد الخبر للدلالة على أنهم متفقون في نصره متحدون صفا واحدا، وفي جعلهم بعد ذلك أي بعد ولاية الله وجبريل وصالح المؤمنين تعظيم وتفخيم.

٤. ولحن الآيات في إظهار النبي ﷺ على من يؤذيه ويريده بسوء وتشديد العتاب على من يتظاهر عليه عجيب:

أ. وقد خوطب فيها النبي ﷺ أولا وعوتب على تحريمه ما أحل الله له وأشير عليه بتحلة يمينه وهو إظهار وتأييد وانتصار له وإن كان في صورة العتاب.

ب. ثم التفت من خطابه إلى خطاب المؤمنين في قوله: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ﴾ يشير إلى القصة وقد أبهمها إبهاما وقد كان أيد النبي وأظهره قبل الإشارة إلى القصة وإفشائها مختوما عليها، وفيه مزيد إظهاره.

ج. ثم التفت من خطاب المؤمنين إلى خطابها وقرر أن قلوبهما قد صغت بما فعلتا ولم يأمرهما أن تتوبا من ذنبهما بل بين لهما أنهما واقعتان بين أمرين إما أن تتوبا وإما أن تظاهرا على من الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك أجمع ثم أظهر الرجاء إن طلقهن أن يرزقه الله نساء خيرا منهن، ثم أمر النبي ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين ويغلظ عليهم.

د. وانتهى الكلام إلى ضربه تعالى مثلين مثلا للذين كفروا ومثلا للذين آمنوا.

هـ. وقد أدار تعالى الكلام في السورة بعد التعرض لحالها بقوله: ﴿إِنْ تَتُوبا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ﴾، بين التعرض لحال المؤمنين والتعرض لحال الكفار فقال: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾، و﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا﴾، وقال: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا﴾، و﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ﴾، وقال: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، بإسناده عن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: ﴿إِنْ تَتُوبا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: صالح المؤمنين علي عليه السلام.

ب. أخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: علي بن أبي طالب.

• أقول: ذكر صاحب البرهان بعد إيراد رواية أبي بصير السابقة أن محمد بن العباس أورد في هذا المعنى اثنين وخمسين حديثا من طرق الخاصة والعامة ثم أورد نبذة منها.

٤. إبدال النبي بأزواج خير منهن إن طلقهن:

المقطع [٤] من سورة التّحريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٣٣»:

١. ﴿عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَ﴾:

أ. استغناء إلهي فإنهن وإن كن مشرفات بشرف زوجية النبي ﷺ لكن الكرامة عند الله بالتقوى كما

قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٢٩]، انظر إلى مكان ﴿مِنْكُنَ﴾ وقال: ﴿يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً﴾ [الأحزاب: ٣١]

ب. ولذا ساق الاستغناء بترجي إبداله إن طلقهن أزواجا خيرا منهن، وعلق الخبر بما ذكر لأزواجه الجديدة من صفات الكرامة وهي أن يكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات، أي صائمات، ثيبات وأبكارا.

ج. فمن تزوج بها النبي ﷺ وكانت متصفة بمجموع هذه الصفات كانت خيرا منهن وليس إلا لأجل اختصاص منها بالقنوت والتوبة أو القنوت فقط مع مشاركتها لهن في باقي الصفات، والقنوت هو لزوم الطاعة مع الخضوع.

د. ويتأيد هذا المعنى بما في مثل مريم الآتي في آخر السورة من ذكر القنوت ﴿وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ﴾ فالقنوت هو الذي يفقدنه وهو لزومهن طاعة النبي ﷺ التي فيها طاعة الله واتقاؤهن أن يعصين النبي ﷺ ويؤذينه.

هـ. وبما مر يظهر فساد قول من قال إن وجه خيرية أزواجه اللاحقة من أزواجه السابقة إن طلقهن، هو تزوج النبي ﷺ بهن وانفصال الأزواج السابقة وزوجيته ﷺ شرف لا يقدر قدره.

و. وذلك أنه لو كان ملاك ما ذكر في الآية من الخير هو الزوجية كان كل من تزوج ﷺ من النساء أفضل وأشرف منهن إن طلقهن وإن لم تتلبس بشيء مما ذكر من صفات الكرامة فلم يكن مورد لعد ما عد من الصفات.

ز. قال في الكشاف: (فإن قلت: لم أخليت الصفات كلها عن العاطف ووسط بين الثيبات والأبكار؟ قلت: لأنها صفتان متنافيتان لا يجتمعن فيهما اجتماعهن في سائر الصفات)

٥. وقاية النفس والأهل من النار بالتزام التقوى:

المقطع [٥] من سورة التّحريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٣٤»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ﴾ ﴿قُوا﴾ أمر من الوقاية بمعنى حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، والوقود بفتح الواو اسم لما توقد به النار من حطب ونحوه، والمراد بالنار نار جهنم وكون الناس المعذبين فيها وقودا لها معناه اشتعال الناس فيها بأنفسهم كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ [يُسْجَرُونَ﴾ ٧٢]، فيناسب تجسم الأعمال كما هو ظاهر الآية التالية ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وفسرت الحجارة بالأصنام.

٢. ﴿عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾:

أ. أي وكل عليها لإجراء أنواع العذاب على أهلها ملائكة غلاظ شداد.

ب. والغلاظ جمع غليظ ضد الرقيق والأنسب للمقام كون المراد بالغلظة خشونة العمل كما في قوله الآتي: ﴿جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [الآية: ٩] من السورة، والشداد جمع شديد بمعنى القوي في عزمه وفعله.

٣. ﴿لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾:

أ. كالمفسر لقوله: ﴿غِلاظٌ شِدادٌ﴾ أي هم ملتزمون بما أمرهم الله من أنواع العذاب لا يعصونه بالمخالفة والرد ويفعلون ما يؤمرون به على ما أمروا به من غير أن يفوت منهم فائت أو ينقص منه شيء لضعف فيهم أو فتور فهم غلاظ شداد.

ب. وبهذا يظهر أن قوله: ﴿لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ﴾ ناظر إلى التزامهم بالتكليف، وقوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ﴾، ناظر إلى العمل على طبقه فلا تكرار كما قيل.

ج. قال في التفسير الكبير، في ذيل الآية: (وفيه إشارة إلى أن الملائكة مكلفون في الآخرة بما أمرهم الله تعالى به وبما ينهاهم عنه، والعصيان منهم مخالفة للأمر والنهي)

• وفيه أن الآية وغيرها مما تصف الملائكة بمحض الطاعة من غير معصية مطلقة تشمل الدنيا والآخرة فلا وجه لتخصيص تكليفهم بالآخرة.

• ثم إن تكليفهم غير سنخ التكليف المعهود في المجتمع الإنساني بمعنى تعليق المكلف، بالكسر، إرادته بفعل المكلف، بالفتح، تعليقا اعتباريا يستتبع الثواب والعقاب في ظرف الاختيار وإمكان الطاعة والمعصية بل هم خلق من خلق الله لهم ذوات طاهرة نورية لا يريدون إلا ما أراد الله ولا يفعلون إلا ما

يؤمرون، قال تعالى: ﴿بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] ولذلك لا جزاء لهم على أعمالهم من ثواب أو عقاب فهم مكلفون بتكليف تكويني غير تشريعي مختلف باختلاف درجاتهم، قال تعالى: ﴿وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، وقال عنهم: ﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا﴾ [مريم: ٦٤]

د. والآية الكريمة بعد الآيات السابقة كالتعميم بعد التخصيص فإنه تعالى لما أدب نساء النبي ﷺ ببيان ما لإيذائهم النبي ﷺ من الأثر السيئ عمم الخطاب فخاطب المؤمنين عامة أن يؤدبوا أنفسهم وأهليهم ويقوهم من النار التي وقودها نفس الداخلين فيها أي إن أعمالهم السيئة تلزمهم وتعود نارا تعذبهم ولا مخلص لهم منها ولا مناص عنها.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً﴾ جلس رجل من المؤمنين يبكي وقال: أنا عجزت عن نفسي وكلفت أهلي، فقال رسول الله ﷺ: حسبك أن تأمرهم بما تأمر به نفسك، وتنهاهم عما تنهى عنه نفسك.

ب. وفيه، بإسناده عن سماعة عن أبي بصير في قوله: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً﴾ قلت: كيف أقيهم؟ قال: تأمرهم بما أمر الله، وتنهاهم عما نهى الله فإن أطاعوك كنت قد وقيتهم، وإن عصوك كنت قد قضيت ما عليك.

• أقول: ورواه بطريق آخر عن ذرعة عن أبي بصير عنه عليه السلام.

ج. أخرج عبد الرزاق والفاريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في المدخل عن علي بن أبي طالب: في قوله: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً﴾ قال: علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم.

د. أخرج ابن مردويه عن زيد بن أسلم قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً﴾ فقالوا: يا رسول الله كيف نقي أهلنا نارا؟ قال: تأمرونهم بما يحبه الله وتنهونهم عما يكره الله.

٦. جزاء الكافرين بأعمالهم وعدم قبول الاعتذار:

المقطع [٦] من سورة التّحريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٣٥»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

أ. خطاب عام للكفار بعد ما جوزوا بالنار فإنهم يعتذرون عن كفرهم ومعاصيهم فيخاطبون أن لا تعتذروا اليوم، وهو يوم الجزاء إنما تجزون نفس ما كنتم تعملون أي إن العذاب الذي تعذبون بها هو عملكم السيئ الذي عملتموه وقد برز لكم اليوم حقيقته وإذ عملتموه فقد لزمكم أنكم عملتموه والواقع لا يتغير وما حق عليكم من كلمة العذاب لا يعود باطلا فهذا ظاهر الخطاب.

ب. وقيل: المعنى: لا تعتذروا، اليوم، بعد دخول النار فإن الاعتذار توبة والتوبة غير مقبولة بعد دخول النار إنما تجزون ما لزم في مقابل عملكم من الجزاء في الحكمة.

ج. وفي اتباع الآيات السابقة بما في هذه الآية من خطاب القهر تهديد ضمني وإشعار بأن معصية الله ورسوله ربما أدى إلى الكفر.

٧. التوبة النصوح سبب للتكفير ودخول جنات النعيم:

المقطع [٧] من سورة التّحريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٣٥»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾:

أ. النصح تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه، ويأتي بمعنى الإخلاص نحو نصحت له الود أي أخلصته، على ما ذكره الراغب، فالتوبة النصوح ما يصرف صاحبه عن العود إلى المعصية أو ما يخلص العبد للرجوع عن الذنب فلا يرجع إلى ما تاب منه.

ب. لما أمر المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار أمرهم جميعا ثانيا بالتوبة وفرع عليه رجاء أن يستر الله سيئاتهم ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

٢. ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾:

أ. قال الراغب: (يقال: خزي الرجل يخزي من باب علم يعلم إذا لحقه انكسار إما من نفسه وإما من غيره فالذي يلحقه من نفسه وهو الحياء المفرط مصدره الخزاية، والذي يلحقه من غيره ويعد ضربا من الاستخفاف مصدره الخزي والإخزاء من الخزاية والخزي جميعا قال: وعلى نحو ما قلنا في خزي ذل وهان فإن ذلك متى كان من الإنسان نفسه يقال له الهون، بفتح الهاء، والذل ويكون محمودا، ومتى كان من غيره يقال له: الهون، بضم الهاء، والهوان والذل ويكون مذموما)

ب. فقوله: ﴿يَوْمَ﴾ ظرف لما تقدمه، والمعنى: توبوا إلى الله عسى أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم الجنة في يوم لا يخزي ولا يكسر الله النبي ﷺ بجعلهم محرومين من الكرامة وخلفه ما وعدهم من الوعد الجميل.

ج. وفي قوله: ﴿النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ اعتبار المعية في الإيمان في الدنيا ولازمه ملازمتهم النبي ﷺ وطاعتهم له من غير مخالفة ومشاقة.

د. ومن المحتمل أن يكون قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مبتدأ خبره ﴿مَعَهُ﴾ وقوله: ﴿نُورُهُمْ يَسْعى﴾، خبرا ثانيا، وقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾، خبرا ثالثا فيفيد أنهم لا يفارقون النبي ولا يفارقهم يوم القيامة، وهذا وجه جيد لازمه كون عدم الخزي خاصا بالنبي ﷺ وسعي النور وسؤال إتمامه خاصا بالذين معه من المؤمنين وتؤيده آية الحديد الآتية، ومن الممكن أن يكون ﴿مَعَهُ﴾ متعلقا بقوله: ﴿آمَنُوا﴾ وقوله: ﴿نُورُهُمْ يَسْعى﴾، خبرا أولا وثانيا للموصول.

٣. ﴿يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ﴾ تقدم بعض الكلام في معناه في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢]، ولا يبعد أن يكون ما بين أيديهم من النور نور الإيمان وما بأيمانهم نور العمل.

٤. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يفيد السياق أن المغفرة المسئولة سبب لتمام النور أو هو ملازم لتمام النور فيفيد أن في نورهم نقصا والنور نور الإيمان والعمل فلهم نقائص بحسب درجات الإيمان أو آثار السيئات التي خلت محالها في صحائفهم من العبودية في العمل فيسألون ربهم أن يتم لهم نورهم ويغفر لهم، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ

الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩]

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن أبي الصباح الكناني قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ قال: يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود فيه، قال محمد بن الفضيل: سألت عنها أبا الحسن عليه السلام، فقال: يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه، الحديث.

ب. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال معاذ بن جبل: يا رسول الله ما التوبة النصوح؟ قال: أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب، فيعتذر إلى الله ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع.

• أقول: والروايات في هذا المعنى كثيرة من الفريقين.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن صالح بن سهل الهمداني قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: في قوله: ﴿يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ﴾ أئمة المؤمنين يوم القيامة يسعى بين أيدي المؤمنين وبأيمانهم حتى ينزلوهم منازل أهل الجنة.

د. وفي تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية: من كان له نور يومئذ نجا، وكل مؤمن له نور.

٨. جهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم:

المقطع [٨] من سورة التّحريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٣٦»:

١. ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾:

أ. المراد بالجهاد بذل الجهد في إصلاح الأمر من جهتهم ودفع شرهم ففي الكفار ببيان الحق وتبليغه فإن آمنوا وإلا فالحرب وفي المنافقين باستمالتهم وتأليف قلوبهم حتى تطمئن قلوبهم إلى الإيمان وإلا فلم يقاتل النبي ﷺ منافقا قط.

ب. وقيل: المراد اشدد عليهم في إقامة الحدود لأن أكثر من يصيب الحد في ذلك الزمان المنافقون، وهما كما ترى.

٩. مثل امرأة نوح ولوط اللتين خانتا زوجيهما:

المقطع [٩] من سورة التّحريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٤٣»:

١. ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما﴾:

أ. قال الراغب: (الخيانة والنفاق واحد إلا أن الخيانة تقال اعتبارا بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتبارا بالدين ثم يتداخلان فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر ونقيض الخيانة الأمانة، يقال: خنت فلانا وخنت أمانة فلان)

ب. ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إن كان متعلقا بالمثل كان المعنى: ضرب الله مثلا يمثل به حال الذين كفروا أنهم لا ينفعهم الاتصال بالعباد الصالحين، وإن كان متعلقا بضرب كان المعنى: ضرب الله الامرأتين وما انتهت إليه حالها مثلا للذين كفروا ليعتبروا به ويعلموا أنهم لا ينفعهم الاتصال بالصالحين من عباده وأنهم بخيانتهم النبي ﷺ من أهل النار لا محالة.

ج. ﴿امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ مفعول ﴿ضَرَبَ﴾ والمراد بكونها تحتها زوجيتها لهما.

٢. ﴿فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾ ضمير التثنية الأولى للعبدين، والثانية للامرأتين، والمراد أنه لم ينفع المرأتين زوجيتها للعبدين الصالحين.

٣. ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾:

أ. أي مع الداخلين فيها من قوميها كما يلوح من قوله في امرأة نوح: ﴿حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]، وقوله في امرأة لوط: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ﴾ [هود: ٨١]، أو المعنى مع الداخلين فيها من الكفار.

ب. وفي التعبير بقيل بالبناء للمفعول، وإطلاق الداخلين إشارة إلى هوان أمرهما وعدم كرامة لهما أصلا فلم يبال بهما أين هلكتا.

٤. أحاديث وآثار: في تفسير البرهان، عن شرف الدين النجفي رفعه عن أبي عبد الله عليه السلام

أنه قال قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا، امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ الآية، مثل ضربه الله لعائشة وحفصة، أن تظاهرتا على رسول الله ﷺ وأفشتا سره.

١٠. مثل امرأة فرعون التي سألت الجنة والنجاة:

المقطع [١٠] من سورة التّحريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٤٤»:

١. ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾، الكلام في قوله: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ كالكلام في قوله: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾

٢. ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾:

أ. لخص سبحانه جميع ما كانت تبتغيه في حياتها وترومه في مسير عبوديتها في مسألة سألت ربها وذلك أن الإيمان إذا كمل تواطأ الظاهر والباطن وتوافق القلب واللسان فلا يقول الإنسان إلا ما يفعل ولا يفعل إلا ما يقول فيكون ما يرجوه أو يتمناه أو يسأله بلسانه هو الذي يريده كذلك بعمله.

ب. وإذ حكى الله فيما يمثل به حالها ويشير إلى منزلتها الخاصة في العبودية دعاء دعت به دل ذلك على أنه عنوان جامع لعبوديتها وعلى ذلك كانت تسير مدى حياتها، والذي تتضمنه مسألتها أن يبني الله لها عنده بيتا في الجنة وينجيها من فرعون وعمله وينجيها من القوم الظالمين فقد اختارت جوار ربه والقرب منه على أن تكون أنيسة فرعون وعشيقته وهي ملكة مصر وآثرت بيتا يبنيه لها ربها على بيت فرعون الذي فيه مما تشتهيه الأنفس وتتمناه القلوب ما تقف دونه الآمال فقد كانت عزفت نفسها ما هي فيه من زينة الحياة الدنيا وهي لها خاضعة وتعلقت بما عند ربه من الكرامة والزلفى فآمنت بالغيب واستقامت على إيمانها حتى قضت.

ج. وهذه القدم هي التي قدمتها إلى أن جعلها الله مثلا للذين آمنوا ولخص حالها وما كانت تبتغيه وتعمل له مدى حياتها في مسير العبودية في مسألة حكى عنها وما معناها إلا أنها انتزعت من كل ما يلهوها عن ربها ولاذت بربها تريد القرب منه تعالى والإقامة في دار كرامته.

د. فقوله: ﴿امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ اسمها على ما في الرواية آسية، وقوله: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ

﴿بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾ الجمع بين كون البيت المبني لها عند الله وفي الجنة لكون الجنة دار القرب من الله وجوار رب العالمين كما قال تعالى: ﴿بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]

هـ. على أن الحضور عنده تعالى والقرب منه كرامة معنوية والاستقرار في الجنة كرامة صورية، وسؤال الجمع بينهما سؤال الجمع بين الكرامتين.

٣. ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ تبر منها وسؤال أن ينجيها الله من شخص فرعون ومن عمله الذي تدعو ضرورة المصاحبة والمعاشرة إلى الشركة فيه والتلبس به، وقيل: المراد بالعمل الجماع.

٤. ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وهم قوم فرعون وهو تبر آخر وسؤال أن ينجيها الله من المجتمع العام كما أن الجملة السابقة كانت سؤال أن ينجيها من المجتمع الخاص.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ.

ب. أخرج أحمد والطبراني والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: قال رسول الله: أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، مع ما قص الله علينا من خبرهما في القرآن، ﴿قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾

ج. أخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران، وامرأة فرعون وأخت موسى.

• أقول: وامرأة فرعون على ما وردت به الروايات مقتولة قتلها زوجها فرعون لما اطلع أنها آمنت بالله وحده، وقد اختلفت الروايات في كيفية قتلها.

• ففي بعضها أنه لما اطلع على إيمانها كلفها الرجوع إلى الكفر فأبت إلا الإيمان فأمر بها أن ترمى عليها بصخرة عظيمة حتى ترضح تحتها ففعل بها ذلك.

• وفي بعضها لما أحضرت للعذاب دعت بما حكى الله عنها في كلامه من قولها: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾، فاستجاب الله لها ورأت بيتها في الجنة وانتزعت منها الروح وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح.

• وفي بعضها أن فرعون وتد لها أربعة أوتاد وأضجعها على صدرها وجعل على صدرها رحى واستقبل بها عين الشمس، والله أعلم.

١١. مثل مريم التي عفّت وصدقت بالكلمات وكانت من القانتين:

المقطع [١١] من سورة التّحريم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٤٥»:

١. ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا﴾، عطف على امرأة فرعون والتقدير وضرب الله مثلا للذين آمنوا مريم.، ضربها الله مثلا باسمها وأثنى عليها ولم يذكر في كلامه تعالى امرأة باسمها غيرها ذكر اسمها في القرآن في بضع وثلاثين موضعا في نيف وعشرين سورة.

٢. ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا﴾ ثناء عليها على عفتها، وقد تكرر في القرآن ذكر ذلك ولعل ذلك بإزاء ما افتعله اليهود من البهتان عليها كما قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً﴾ [النساء: ١٥٦]، وفي سورة الأنبياء في مثل القصة: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها﴾ [الأنبياء: ٩١]

٣. ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها﴾ أي بما تكلم به الله سبحانه من الوحي إلى أنبيائه كما قيل، وقيل: المراد بها وعده تعالى ووعيده وأمره ونهيه، وفيه أنه يستلزم كون ذكر الكتب مستدركا.

٤. ﴿وَكُتُبِهِ﴾ وهي المشتملة على شرائع الله المنزلة من السماء كالتوراة والإنجيل كما هو مصطلح القرآن ولعل المراد من تصديقها كلمات ربها وكتبه كونها صديقة كما في قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]

٥. ﴿وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ﴾:

أ. أي من القوم المطيعين لله الخاضعين له الدائمين عليه غلب فيه المذكر على المؤنث.

ب. ويؤيد هذا المعنى كون القنوت بهذا المعنى واقعا فيما حكى الله من نداء الملائكة لها ﴿يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، وقيل: يجوز أن يراد بالقانتين رهطها وعشيرتها الذين كانت مريم منهم وكانوا أهل بيت صلاح وطاعة، وهو بعيد لما تقدم.

ج. على أن المناسب لكون المثل تعريضا لزوجي النبي ﷺ أن يراد بالقانتين مطلق أهل الطاعة

والخضوع لله تعالى.

سورة الملك

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٣] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة بيان عموم ربوبيته تعالى للعالمين، تجاه قول الوثنية إن لكل شطر من العالم رباً من الملائكة وغيرهم، وإنه تعالى رب الأرباب فقط.

ب. ولذا يعد سبحانه كثيراً من نعمه في الخلق والتدبير، وهو في معنى الاحتجاج على ربوبيته، ويفتتح الكلام بتباركه، وهو كثرة صدور البركات عنه، ويكرر توصيفه بالرحمن وهو مبالغة في الرحمة التي هي العطية قبال الاستدعاء فقراً، وفيها إنذار ينتهي إلى ذكر الحشر والبعث.

ج. وتتلخص مضامين آياتها في الدعوة إلى توحيد الربوبية والقول بالمعاد.

د. والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٤] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تمجد الله الذي بيده الملك، وتذكر خلق الموت والحياة، وخلق السماوات طباقاً، وتزيين السماء الدنيا بالمصابيح، وتعدد آيات الله في خلق الطير، وتذكر عذاب الكافرين، وأن الله يعلم السر وأخفى.

٢. الآيات [١٥ ـ ٢٢] في الآيات كرة بعد كرة بآيات التدبير الدالة على ربوبيته تعالى، مقرونة بالإنذار والتخويف، أعني قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً﴾ الآية، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾ الآية، بعد قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ الآية، وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماوَاتٍ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا﴾ الآية.

٣. الآيات [٢٤ ـ ٣٠]:

أ. آيات أخر يذكرهم الله تعالى بها دالة على وحدانيته تعالى في الخلق والتدبير، مقرونة بالإنذار والتخويف، جارية على غرض السورة وهو التذكرة بالوحدانية مع الإنذار.

ب. غير أنه تعالى لما أشار إلى لجاجهم وعنادهم للحق في قوله السابق: ﴿بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾،

غير السياق بالإعراض عن خطابهم والالتفات إلى خطاب النبي ﷺ بأمره أن يتصدى خطابهم ويقرع أسماعهم آياته في الخلق والتدبير الدالة على توحده في الربوبية، وإنذارهم بعذاب الله، وذلك قوله: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾، ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾، ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ﴾، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ﴾، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ﴾، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً﴾

١. تبارك الله ذو الملك والموت والحياة:

المقطع [١] من سورة الملك، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ١-٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٤٨»:

١. ﴿تَبارَكَ﴾ تبارك الشيء كثرة صدور الخيرات والبركات عنه.

٢. ﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾:

أ. يشمل بإطلاقه كل ملك، وجعل الملك في يده استعارة بالكناية عن كمال تسلطه عليه وكونه متصرفا فيه كيف يشاء كما يتصرف ذو اليد فيما بيده ويقلبه كيف يشاء فهو تعالى يملك بنفسه كل شيء من جميع جهاته، ويملك ما يملكه كل شيء.

ب. فتوصيفه تعالى بالذي بيده الملك أوسع من توصيفه بالمليك في قوله: ﴿عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥]، وأصرح وآكد من توصيفه في قوله: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ [التغابن: ١]

٣. ﴿وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

أ. إشارة إلى كون قدرته غير محدودة بحد ولا منتهية إلى نهاية وهو لازم إطلاق الملك بحسب السياق، وإن كان إطلاق الملك وهو من صفات الفعل من لوازم إطلاق القدرة وهي من صفات الذات.

ب. وفي الآية مع ذلك إيماء إلى الحجة على إمكان ما سيأتي من أمر المعاد.

٤. ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾:

أ. الحياة كون الشيء بحيث يشعر ويريد، والموت عدم ذلك لكن الموت على ما يظهر من تعليم القرآن انتقال من نشأة من نشآت الحياة إلى نشأة أخرى كما تقدم استفادة ذلك من قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾، إلى قوله: ﴿فِي ما لا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١]، فلا مانع من تعلق الخلق بالموت كالحياة.

ب. على أنه لو أخذ عدميا كما عند العرف فهو عدم ملكة الحياة وله حظ من الوجود يصحح تعلق الخلق به كالعمى من البصر والظلمة من النور.

٥. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾:

أ. غاية خلقه تعالى الموت والحياة، والبلاء الامتحان والمراد أن خلقكم هذا النوع من الخلق وهو أنكم تحيون ثم تموتون خلق مقدمي امتحاني يمتاز به منكم من هو أحسن عملا من غيره ومن المعلوم أن الامتحان والتمييز لا يكون إلا لأمر ما يستقبلكم بعد ذلك وهو جزاء كل بحسب عمله.

ب. وفي الكلام مع ذلك إشارة إلى أن المقصود بالذات من الخلقة هو إيصال الخير من الجزاء حيث ذكر حسن العمل وامتياز من جاء بأحسنه فالمحسنون عملا هم المقصودون بالخلقة وغيرهم مقصودون لأجلهم.

ج. وقد ذيل الكلام بقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ فهو العزيز لأن الملك والقدرة المطلقين له وحده فلا يغلبه غالب وما أقدر أحدا على مخالفته إلا بلاء وامتحانا وسينتقم منهم وهو الغفور لأنه يعفو عن كثير من سيئاتهم في الدنيا وسيغفر كثيرا منها في الآخرة كما وعد.

د. وفي التذييل بالاسمين مع ذلك تخويف وتطميع على ما يدعو إلى ذلك سياق الدعوة.

هـ. واعلم أن مضمون الآية ليس مجرد دعوى خالية عن الحجة يراد به التلقين كما ربما يتوهم بل هي مقدمة قريبة من الضرورة، أو هي ضرورية، تستدعي الحكم بضرورة البعث للجزاء فإن الإنسان المتلبس بهذه الحياة الدنيوية الملحوقة للموت لا يخلو من أن يحصل له وصف حسن العمل أو خلافه وهو مجهز بحسب الفطرة بما لولا عروض عارض السوء لساقه إلى حسن العمل، وقلما يخلو إنسان من حصول أحد الوصفين كالأطفال ومن في حكمهم.

و. والوصف الحاصل المترتب على وجود الشيء الساري في أغلب أفراده غاية في وجوده مقصودة في إيجاده فكما أن الحياة النباتية لشجرة كذا إذ كانت تؤدي في الغالب إلى أثمارها ثمرة كذا يعد ذلك غاية لوجودها مقصودة منها كذلك حسن العمل والصلاح غاية لخلق الإنسان، ومن المعلوم أيضا أن الصلاح وحسن العمل لو كان مطلوبا لكان مطلوبا لغيره لا لنفسه، والمطلوب بالذات الحياة الطيبة التي لا يشوبها نقص ولا يعرضها لغو ولا تأثيم فالآية في معنى قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾

[الأنبياء: ٣٥]

٦. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن سفيان بن عيينة عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ قال: ليس يعني أكثركم عملا ولكن أصوبكم عملا، وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة والخشية، ثم قال: الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل، ألا والعمل الخالص، الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلا الله، والنية أفضل من العمل ألا وإن النية هي العمل، ثم تلا قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ﴾ يعني على نيته.

ب. وفي المجمع: قال أبو قتادة: سألت النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ ما عنى به؟ فقال: يقول: أيكم أحسن عقلا، ثم قال: أتمكم عقلا وأشدكم لله خوفا، وأحسنكم فيما أمر الله به ونهى عنه نظرا، وإن كان أقلكم تطوعا.

ج. وفيه، عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه تلا قوله تعالى: ﴿تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾، إلى قوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ ثم قال: أيكم أحسن عقلا، وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله.

٢. خلق السماوات وإتقانها:

المقطع [٢] من سورة الملك، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣ـ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٥٠»:

١. ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً﴾، أي مطابقة بعضها فوق بعض أو بعضها يشبه البعض، على ما احتمل، وقد مر في تفسير حم السجدة بعض ما يمكننا من القول فيها.

٢. ﴿ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ﴾:

أ. قال الراغب: (الفوت بعد الشيء عن الإنسان بحيث يتعذر إدراكه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾.، والتفاوت الاختلاف في الأوصاف كأنه يفوت وصف أحدهما الآخر أو وصف كل واحد منهما الآخر، قال تعالى: ﴿ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ﴾ أي ليس فيها ما يخرج عن مقتضى الحكمة)

ب. فالمراد بنفي التفاوت اتصال التدبير وارتباط الأشياء بعضها ببعض من حيث الغايات والمنافع المترتبة على تفاعل بعضها في بعض، فاصطكاك الأسباب المختلفة في الخلقة وتنازعها كتشاجر كفتي الميزان وتصارعهما بالثقل والخفة والارتفاع والانخفاض فإنهما في عين أنهما تختلفان تنفقان في إعانة من بيده الميزان فيما يريده من تشخيص وزن السلعة الموزونة.

ج. فقد رتب الله أجزاء الخلقة بحيث تؤدي إلى مقاصدها من غير أن يفوت بعضها غرض بعض أو يفوت من بعضها الوصف اللازم فيه لحصول الغاية المطلوبة.

د. والخطاب في ﴿ما ترى﴾ خطاب عام لكل من يمكنه الرؤية وفي إضافة الخلق إلى الرحمن إشارة إلى أن الغاية منه هي الرحمة العامة، وتنكير ﴿تَفاوُتٍ﴾ وهو في سياق النفي وإدخال ﴿الرَّحْمنِ﴾ عليه لإفادة العموم.

٣. ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ﴾ الفطور الاختلال والوهي، والمراد بإرجاع البصر النظر ثانيا وهو كناية عن المداقة في النظر والإمعان فيه.

٤. ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ الخاسئ من خسأ البصر إذا انقبض عن مهانة كما قال الراغب، وقال أيضا: الحاسر المعيا لانكشاف قواه، ويقال للمعيا: حاسر ومحسور: أما الحاسر فتصور أنه بنفسه قد حسر قوته، وأما المحسور فتصور أن التعب قد حسرة، وقوله عز وجل: ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ يصح أن يكون بمعنى حاسر وأن يكون بمعنى محسور) انتهى

٥. ﴿كَرَّتَيْنِ﴾:

أ. الكرة الرجعة والمراد بالتثنية التكثير والتكرير، والمعنى: ثم ارجع البصر رجعة بعد رجعة أي رجعات كثيرة ينقلب إليك البصر منقبضة مهينة والحال أنه كليل معيا لم يجد فطورا.

ب. فقد أشير في الآيتين إلى أن النظام الجاري في الكون نظام واحد متصل الأجزاء مرتبط الأبعاض.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً﴾ قال: بعضها طبق لبعض.

ب. وفيه: في قوله تعالى: ﴿مِنْ تَفاوُتٍ﴾ قال: من فساد.

ج. وفيه: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ قال: انظر في ملكوت السماوات والأرض.

٣. المصابيح والرجوم والشياطين والسعير:

المقطع [٣] من سورة الملك، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥-١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٥١»:

١. ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ﴾، المصابيح جمع مصباح وهو السراج سمي الكواكب مصابيح لإنارتها وإضاءتها وقد تقدم كلام في ذلك في تفسير سورة حم السجدة.

٢. ﴿وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ﴾:

أ. أي وجعلنا الكواكب التي زينا بها السماء رجوما يرجم بها من استرق السمع من الشياطين كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨]، وقال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠]

ب. قيل: إن الجملة دليل أن المراد بالكواكب المزينة بها السماء مجموع الكواكب الأصلية والشهب السماوية فإن الكواكب الأصلية لا تزول عن مستقرها والكواكب والنجم يطلقان على الشهب كما يطلقان على الأجرام الأصلية.

ج. وقيل: تنفصل من الكواكب شهب تكون رجوما للشياطين أما الكواكب أنفسها فليست تزول إلا أن يريد الله إفناءها.

د. وهذا الوجه أوفق للأنظار العلمية الحاضرة، وقد تقدم بعض الكلام في معنى رمي الشياطين بالشهب.

٣. ﴿وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ﴾ أي وهيأنا للشياطين وهم أشرار الجن عذاب النار المسعرة

المشتعلة.

٤. ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾:

أ. لما أورد بعض آيات ربوبيته تعالى عقبها بالوعيد على من كفر بربوبيته على ما هو شأن هذه السورة من تداخل الحجج والوعيد والإنذار.

ب. والمراد بالذين كفروا بربوبيته أعم من الوثنيين النافين لربوبيته لغير أربابهم القائلين بأنه تعالى رب الأرباب فقط، والنافين لها مطلقا والمثبتين لربوبيته مع التفريق بينه وبين رسله كاليهود والنصارى حيث آمنوا ببعض رسله وكفروا ببعض.

ج. والآية مع ذلك متصلة بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ لما فيها من الإشارة إلى البعث والجزاء متصلة بما قبلها كالتعميم بعد التخصيص.

٥. ﴿إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾

أ. قال الراغب: (الشهيق طول الزفير وهو رد النفس والزفير مدة)، والفوران كما في المجمع: (ارتفاع الغليان، والتميز: التقطع والتفرق، والغيظ: شدة الغضب.

ب. والمعنى: إذا طرح الكفار في جهنم سمعوا لها شهيقا، أي تجذبهم إلى داخلها كما يجذب الهواء بالشهيق إلى داخل الصدر، وهي تغلي بهم فترفعهم وتخفضهم تكاد تتلاشى من شدة الغضب.

٦. ﴿كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾:

أ. الفوج، كما قاله الراغب، الجماعة المارة المسرعة، وفي قوله: ﴿كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ﴾ إشارة إلى أن الكفار يلقون في النار جماعة جماعة كما يشير إليه قوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً﴾ [الزمر: ٧١]، وإنما يلقون كذلك بلحوق التابعين لمتبوعيهم في الضلال كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وقد تقدم بعض توضيحه في ذيل الآية من سورة الأنفال.

ب. والخزنة جمع خازن وهو الحافظ على الشيء المدخر والمراد بهم الملائكة الموكلون على النار المدبرون لأنواع عذابها قال تعالى: ﴿عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ﴾ [التحريم: ٦]، وقال: ﴿وَما أَدْراكَ ما سَقَرُ﴾، إلى أن قال ـ﴿عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً﴾ [المدثر: ٣١]

ج. والمعنى: كلما طرح في جهنم جماعة من جماعات الكفار المسوقين إليها سألهم الملائكة الموكلون

على النار الحافظون لها، توبيخا، ألم يأتكم نذير؟ وهو النبي المنذر.

٧. ﴿قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا﴾ حكاية جوابهم لسؤال الخزنة، وفيه تصديق أنهم قد جاءهم نذير فنسبوه إلى الكذب واعتراف.

٨. ﴿ما نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ بيان لتكذيبهم، وكذا قوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾ وقيل: قوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾، كلام الملائكة يخاطبون به الكفار بعد جوابهم عن سؤالهم بما أجابوا، وهو بعيد من السياق، وكذا احتمال كونه من كلام الرسل الذين كذبوهم تحكيه الملائكة لأولئك الكفار.

٩. ﴿وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾:

أ. يطلق السمع ويراد به إدراك الصوت والقول بالجارحة وربما يراد به ما هو الغاية منه عند العقلاء وهو الالتزام بمقتضاه من الفعل والترك، ويطلق العقل على تمييز الخير من الشر والنافع من الضار، وربما يراد به ما هو الغاية منه وهو الالتزام بمقتضاه من طلب الخير والنفع واجتناب الشر والضر، قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]

ب. وأكثر ما ينتفع بالسمع عامة الناس لقصورهم عن تعقل دقائق الأمور وإدراك حقيقتها والاهتداء إلى مصالحها ومفاسدها وإنما ينتفع بالعقل الخاصة.

ج. فقوله: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ أريد بالسمع استجابة دعوة الرسل والالتزام بمقتضى قولهم وهم النصحاء الأمناء، وبالعقل الالتزام بمقتضى ما يدعون إليه من الحق بتعقله والاهتداء العقلي إلى أنه حق ومن الواجب أن يخضع الإنسان للحق.

د. وإنما قدم السمع على العقل لأن استعماله من شأن عامة الناس وهم الأكثرون والعقل شأن الخاصة وهم آحاد قليلون.

هـ. والمعنى: لو كنا في الدنيا نطيع الرسل في نصائحهم ومواعظهم أو عقلنا حجة الحق ما كنا اليوم في أصحاب السعير وهم مصاحبو النار المخلدون فيها.

و. وقيل: إنما جمع بين السمع والعقل لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل.

١٠. ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ﴾:

أ. كانوا إنما قالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ ندامة على ما فرطوا في جنب الله وفوتوا على أنفسهم من الخير فاعترفوا بأن ما أتوا به كان تبعته دخول النار وكان عليهم أن لا يأتوا به، وهذا هو الذنب فقد اعترفوا بذنبهم.

ب. وإنما أفرد الذنب بناء على إرادة معنى المصدر منه وهو في الأصل مصدر.

ج. ﴿فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ السحق تفتيت الشيء كما ذكره الراغب وهو دعاء عليهم.

١١. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿بِمَصابِيحَ﴾ قال: بالنجوم.

ب. وفيه: في قوله تعالى: ﴿سَمِعُوا لَها شَهِيقاً﴾ قال: وقعا.

ج. وفيه: في قوله تعالى: ﴿تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ قال: على أعداء الله.

د. وفيه: في قوله تعالى: ﴿وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ، ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ قال: قد سمعوا وعقلوا ولكنهم لم يطيعوا ولم يقبلوا، والدليل على أنهم قد سمعوا وعقلوا ولم يقبلوا، قوله: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ﴾

• أقول: يعني عليه السلام أنه يدل على أن المراد من عدم السمع والعقل عدم الإطاعة والقبول بعد السمع والعقل أنه تعالى سمى قولهم ذلك اعترافا بالذنب، ولا يعد فعل ذنبا من فاعله إلا بعد العلم بجهة مساءته بسمع أو عقل.

٤. المغفرة والأجر الكبير للذين يخشون ربهم بالغيب:

المقطع [٤] من سورة الملك، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٥٤»:

أ. لما ذكر حال الكفار وما يجازون به على كفرهم قابلة بحال المؤمنين بالغيب لتمام التقسيم وذكر من وصفهم الخشية لأن المقام مقام الإنذار والوعيد.

ب. وعد خشيتهم خشية بالغيب لكون ما آمنوا به محجوبا عنهم تحت حجب الغيب.

٥. علم الله بالسر والجهر:

المقطع [٥] من سورة الملك، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ

بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣ـ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٥٤»:

١. ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾:

أ. رفع شبهة يمكن أن تختلج في قلوبهم مبنية على الاستبعاد وذلك أنه تعالى ساق الكلام في بيان ربوبيته لكل شيء المستتبعة للبعث والجزاء وذكر ملكه وقدرته المطلقين وخلقه وتدبيره ولم يذكر علمه المحيط بهم وبأحوالهم وأعمالهم وهو مما لا يتم البعث والجزاء بدونه.

ب. وكان من الممكن أن يتوهموا أن الأعمال على كثرتها الخارجة عن الإحصاء لا يتأتى ضبطها وخاصة ما تكنه الصدور منها فإن الإنسان يقيس الأشياء بنفسه ويزنها بزنة نفسه وهو غير قادر على إحصاء جزئيات الأعمال التي هي حركات مختلفة متقضية وخاصة أعمال القلوب المستكنة في زواياها.

ج. فدفعه بأن إظهار القول وإخفاءه سواء بالنسبة إليه تعالى فإنه عليم بذات الصدور، والسياق يشهد أن المراد استواء خفايا الأعمال وجلاياها بالنسبة إليه، وإنما ذكر أسرار القول وجهره من حيث ظهور معنى الخفاء والظهور فيه بالجهر والإسرار.

٢. ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾:

أ. استفهام إنكاري مأخوذ حجة على علمه تعالى بأعمال الخلق ظاهرها وباطنها وسرها وجهرها وذلك أن أعمال الخلق، ومن جملتها أعمال الإنسان الاختيارية، وإن نسبت إلى فواعلها لكن الله سبحانه هو الذي يريدها ويوجدها من طريق اختيار الإنسان واقتضاء سائر الأسباب فهو الخالق لأعيان الأشياء والمقدر لها آثارها كيفما كانت والرابط بينها وبين آثارها الموصل لها إلى آثارها، قال تعالى: ﴿اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى﴾ [الأعلى: ٣]، فهو سبحانه محيط بعين من خلقه وأثره ومن أثره أعماله الظاهرة والباطنة وما أسره وما جهر به وكيف يحيط به ولا يعلمه.

ب. وفي الآية إشارة إلى أن أحوال الأشياء وأعمالها غير خارجة عن خلقها لأنه تعالى استدل بعلمه بمن خلق على علمه بخصوصيات أحواله وأعماله ولولا كون الأحوال والأعمال غير خارجة عن وجود موضوعاتها لم يتم الاستدلال، على أن الأحوال والأعمال من مقتضيات موضوعاتها والذي ينتسب إليه

وجود الشيء ينتسب إليه آثار وجوده.

٣. ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ أي النافذ في بواطن الأشياء المطلع على جزئيات وجودها وآثارها، والجملة حالية تعلل ما قبلها والاسمان الكريمان من الأسماء الحسنى ذيلت بهما الآية لتأكيد مضمونها.

٤. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن سعد عن أبي جعفر عليه السلام قال: القلب أربعة: قلب فيه نفاق وإيمان، وقلب منكوس، وقلب مطبوع، وقلب أزهر، فقلت: ما الأزهر، قال: فيه كهيئة السراج، فأما المطبوع فقلب المنافق، وأما الأزهر فقلب المؤمن، إن أعطاه شكر وإن ابتلاه صبر، وأما المنكوس فقلب المشرك ثم قرأ هذه الآية ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدى، أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، فأما القلب الذي فيه إيمان ونفاق فقوم كانوا بالطائف، فإن أدرك أحدهم أجله على نفاقه هلك، وإن أدركه على إيمانه نجى.

• أقول: ورواه في تفسير البرهان، عن ابن بابويه بإسناده عن الفضيل عن سعد الخفاف عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن القلوب أربعة، وساق الحديث إلى آخره إلا أن فيه: وقلب أزهر أنور.

• وقوله: (فهم قوم كانوا بالطائف) المراد به الطائف الشيطاني الذي ربما يمس الإنسان قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فالمعنى أنهم يعيشون مع طائف شيطاني يمسهم حينا بعد حين فإن أدركهم الأجل والطائف معهم هلكوا وإن أدركهم وهم في حال الإيمان نجوا.

٦. جعل الأرض ذلولاً:

المقطع [٦] من سورة الملك، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٥٧»:

١. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾:

أ. الذلول من المراكب ما يسهل ركوبه من غير أن يضطرب ويجمح والمناكب جمع منكب وهو مجتمع ما بين العضد والكتف وأستعير لسطح الأرض، قال الراغب: (واستعارته للأرض كاستعارة الظهر لها في قوله: ﴿ما تَرَكَ عَلَى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ﴾ وتسمية الأرض ذلولا وجعل ظهورها مناكب لها يستقر عليها ويمشي فيها باعتبار انقيادها لأنواع التصرفات الإنسانية من غير امتناع، وقد وجه كونها ذلولا ذا مناكب

بوجوه مختلفة تؤول جميعها إلى ما ذكرنا.

ب. والأمر في قوله: ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ للإباحة والنشور والنشر إحياء الميت بعد موته وأصله من نشر الصحيفة والثوب إذا بسطهما بعد طيهما.

ج. والمعنى: هو الذي جعل الأرض مطاوعة منقادة لكم يمكنكم أن تستقروا على ظهورها وتمشوا فيها تأكلون من رزقه الذي قدره لكم بأنواع الطلب والتصرف فيها.

٢. ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾:

أ. أي ويرجع إليه نشر الأموات بإخراجهم من الأرض وإحيائهم للحساب والجزاء، واختصاص رجوع النشر به كناية عن اختصاص الحكم بالنشور به والإحياء يوم القيامة فهو ربكم المدبر لأمر حياتكم الدنيا بالإقرار على الأرض والهداية إلى مآرب الحياة، وله الحكم بالنشور للحساب والجزاء.

ب. وفي عد الأرض ذلولا والبشر على مناكبها تلويح ظاهر إلى ما أدت إليه الأبحاث العلمية أخيرا من كون الأرض كرة سيارة.

٧. التحذير من خسف الأرض أو إرسال الحاصب:

المقطع [٧] من سورة الملك، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٦-١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٥٨»:

١. ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾:

أ. إنذار وتخويف بعد إقامة الحجة وتوبيخ على مساهلتهم في أمر الربوبية وإهمالهم أمر الشكر على نعم ربهم بالخضوع لربوبيته ورفض ما اختلقوه من الأنداد.

ب. والمراد بمن في السماء الملائكة المقيمون فيها الموكلون على حوادث الكون وإرجاع ضمير الإفراد إلى ﴿مَنْ﴾ باعتبار لفظه وخسف الأرض بقوم كذا شقها وتغييبهم في بطنها والمور على ما في المجمع التردد في الذهاب والمجيء مثل الموج.

ج. والمعنى: ء أمنتم في كفركم بربوبيته تعالى الملائكة المقيمين في السماء الموكلين بأمور العالم أن يشقوا الأرض ويغيبوكم فيها بأمر الله فإذا الأرض تضطرب ذهابا ومجيئا بزلزالها.

د. وقيل: المراد بمن في السماء هو الله سبحانه والمراد بكونه في السماء كون سلطانه وتدبيره وأمره فيها لاستحالة أن يكون تعالى في مكان أو جهة أو محاطا بعالم من العوالم، وهذا المعنى وإن كان لا بأس به لكنه خلاف الظاهر.

٢. ﴿أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ الحاصب الريح التي تأتي بالحصاة والحجارة، والمعنى: أأمنتم من في السماء أن يرسل عليكم ريحا ذات حصاة وحجارة كما أرسلها على قوم لوط قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ [القمر: ٣٤]

٣. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾:

أ. النذير مصدر بمعنى الإنذار والجملة متفرعة على ما يفهم من سابق الكلام من كفرهم بربوبيته تعالى وأمنهم من عذابه والمعنى ظاهر.

ب. وقيل: النذير صفة بمعنى المنذر والمراد به النبي ﷺ وهو سخيف.

٤. ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾:

أ. المراد بالنكير العقوبة وتغيير النعمة أو الإنكار، والآية كالشاهد يستشهد به على صدق ما في قوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ من الوعيد والتهديد.

ب. والمعنى: ولقد كذب الذين من قبلهم من الأمم الهالكة رسلي وجحدوا بربوبيتي فكيف كان عقوبتي وتغييري النعمة عليهم أو كيف كان إنكاري ذلك عليهم حيث أهلكتهم واستأصلتهم.

ج. وفي الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ إشعارا بسقوطهم لجهالتهم وإهمالهم في التدبر في آيات الربوبية وعدم مخافتهم من سخط ربهم، عن تشريف الخطاب فأعرض عن مخاطبتهم فيما يلقى إليهم من المعارف إلى خطاب النبي ﷺ.

٨. الطير والصف والقبض وإمساك الرحمن:

المقطع [٨] من سورة الملك، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٥٩»:

١. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾

المراد بكون الطير فوقهم طيرانه في الهواء، وصفيف الطير بسطه جناحه حال الطيران وقبضه قبض جناحه حاله، والجمع في ﴿صافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ لكون المراد بالطير استغراق الجنس.

٢. ﴿ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ﴾:

أ. كالجواب لسؤال مقدر كان سائلا يسأل فيقول: ما هو المراد بإلفات نظرهم إلى صفيف الطير وقبضه فوقهم؟ فأجيب بقوله: ﴿ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ﴾

ب. وقرار الطير حال الطيران في الهواء من غير سقوط وإن كان مستندا إلى أسباب طبيعية كقرار الإنسان على بسيط الأرض والسمك في الماء وسائر الأمور الطبيعية المستندة إلى علل طبيعية تنتهي إليه تعالى لكن لما كان بعض الحوادث غير ظاهر السبب للإنسان في بادي النظر سهل له إذا نظر إليه أن ينتقل إلى أن الله سبحانه هو السبب الأعلى الذي ينتهي إليه حدوثه ووجوده، ولذا نبههم الله سبحانه في كلامه بإرجاع نظرهم إليها ودلالتهم على وحدانيته في الربوبية.

ج. وقد ورد في كلامه تعالى شيء كثير من هذا القبيل كإمساك السماوات بغير عمد وإمساك الأرض وحفظ السفن على الماء واختلاف الأثمار والألوان والألسنة وغيرها مما كان سببه الطبيعي القريب خفيا في الجملة يسهل للذهن الساذج الانتقال إلى استناده إليه تعالى ثم إذا تنبه لوجود أسبابه القريبة بنوع من المجاهدة الفكرية وجد الحاجة بعينها في أسبابه حتى تنتهي إليه تعالى وأن إلى ربك المنتهى.

د. قال في الكشاف: (فإن قلت: لم قيل: ويقبضن ولم يقل: وقابضات؟ قلت: لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء والأصل في السباحة هو مد الأطراف وبسطها وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك فجيء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح)

هـ. وهو مبني على أن تكون الآية هي مجموع قوله: ﴿صافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ وهو الطيران، ويمكن أن يستفاد أن الآية عدم سقوطهن وهن صافات، وآية أخرى أنهن ربما يقبضن ولا يسقطن حينما يقبضن.

و. ولا يخفى ما في ذكر طيران الطير في الهواء بعد ذكر جعل الأرض ذلولا والإنسان على مناكبها من اللطف.

٩. الغرور والرزق والعتو والنفور:

المقطع [٩] من سورة الملك، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٠-٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٦٠»:

١. ﴿أَمَّنْ هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ توبيخ وتقريع لهم في اتخاذهم آلهة من دون الله لينصروهم ولذا التفت عن الغيبة إلى الخطاب فخاطبهم ليشتد عليهم التقريع.

٢. ﴿أَمَّنْ هذَا الَّذِي﴾:

أ. معناه بل من الذي يشار إليه فيقال: هذا جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن أرادكم بسوء أو عذاب؟ فليس دون الله من ينصركم عليه، وفيه إشارة إلى خطئهم في اتخاذ بعض خلق الله آلهة لينصروهم في النوائب وهم مملوكون لله لا يملكون لأنفسهم نفعا وضرا ولا لغيرهم.

ب. وإذ لم يكن لهم جواب أجاب تعالى بقوله: ﴿إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ أي أحاط بهم الغرور وغشيهم فخيل إليهم ما يدعون من ألوهية آلهتهم.

٣. ﴿أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي بل من الذي يشار إليه بأن هذا هو الذي يرزقكم إن أمسك الله رزقه فينوب مقامه فيرزقكم؟ ثم أجاب سبحانه بقوله: ﴿بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي إن الحق قد تبين لهم لكنهم لا يخضعون للحق بتصديقه ثم اتباعه بل تمادوا في ابتعادهم من الحق ونفورهم منه، ولجوا في ذلك.

٤. ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾:

أ. إكباب الشيء على وجهه إسقاطه عليه، وقال في الكشاف: (معنى أكب دخل في الكب وصار ذا كب.

ب. استفهام إنكاري عن استواء الحالين تعريضا لهم بعد ضرب حجاب الغيبة عليهم وتحريمهم من تشريف الحضور والخطاب بعد استقرار اللجاج فيهم، والمراد أنهم بلجاجهم في عتو عجيب ونفور من الحق كمن يسلك سبيلا وهو مكب على وجه لا يرى ما في الطريق من ارتفاع وانخفاض ومزالق ومعاثر

فليس هذا السائر كمن يمشي سويا على صراط مستقيم فيرى موضع قدمه وما يواجهه من الطريق على استقامة، وما يقصده من الغاية وهؤلاء الكفار سائرون سبيل الحياة وهم يعاندون الحق على علم به فيغمضون عن معرفة ما عليهم أن يعرفوه والعمل بما عليهم أن يعملوا به ولا يخضعون للحق حتى يكونوا على بصيرة من الأمر ويسلكوا سبيل الحياة وهم مستوون على صراط مستقيم فيأمنوا الهلاك.

ج. وقد ظهر أن ما في الآية مثل عام يمثل حال الكافر الجاهل اللجوج المتمادي على جهله والمؤمن المستبصر الباحث عن الحق.

٥. أحاديث وآثار: اعلم أن هناك روايات تطبق قوله: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ﴾ الآية على من حاد عن ولاية علي عليه السلام ومن يتبعه ويواليه، وهي من الجري والله أعلم.

١٠. إنشاء الله للسمع والأبصار والأفئدة والحشر إليه:

المقطع [١٠] من سورة الملك، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك: ٢٣-٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٦٣»:

١. ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾:

أ. الإنشاء إحداث الشيء ابتداء وتربيته.

ب. ما في ذيل الآية من لحن العتاب في قوله: ﴿قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾ وقد تكرر نظيره في غير موضع من كلامه كما في سورة المؤمنون، والم السجدة، يدل على أن إنشاءه تعالى الإنسان وتجهيزه بجهاز الحس والفكر من أعظم نعمه تعالى التي لا يقدر قدرها.

ج. وليس المراد بإنشائه مجرد خلقه كيفما كان بل خلقه وإحداثه من دون سابقه في مادته كما أشار إليه في قوله يصف خلقه طورا بعد طور: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، فصيرورة المضغة إنسانا سميعا بصيرا متفكرا بتركيب النفس الإنسانية عليها خلق آخر لا يسانخ أنواع الخلقة المادية الواردة على مادة الإنسان من أخذها من الأرض ثم جعلها نطفة ثم علقة ثم مضغة فإنما هي أطوار مادية متعاقبة بخلاف صيرورتها إنسانا ذا شعور فلا سابقة لها تماثلها أو تشابهها فهو الإنشاء.

د. ومثله قوله: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠] (انظر إلى موضع إذا الفجائية)

هـ. فقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ إشارة إلى خلق الإنسان.

٢. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾:

أ. إشارة إلى تجهيزه بجهاز الحس والفكر، والجعل إنشائي كجعل نفس الإنسان كما يشير إليه قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨]

ب. فالإنسان بخصوصية إنشائه وكونه بحيث يسمع ويبصر يمتاز من الجماد والنبات، والاقتصار بالسمع والبصر من سائر الحواس كاللمس والذوق والشم لكونهما العمدة ولا يبعد أن يكون المراد بالسمع والبصر مطلق الحواس الظاهرة من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل، وبالفؤاد وهو النفس المتفكرة يمتاز من سائر الحيوان.

٣. ﴿قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون قليلا على هذه النعمة، أو النعم، العظمى فما زائدة وقليلا مفعول مطلق تقديره تشكرون شكرا قليلا، وقيل: ما مصدرية والمعنى: قليلا شكركم.

٤. ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ الذرء الخلق والمراد بذرئهم في الأرض خلقهم متعلقين بالأرض فلا يتم لهم كمالهم إلا بأعمال متعلقة بالمادة الأرضية بما زينها الله تعالى بها تنجذب إليه النفس الإنسانية في حياتها المعجلة ليمتاز به الصالح من الطالح قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً﴾ [الكهف: ٨]

٥. ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ إشارة إلى البعث والجزاء ووعد جازم.

١١. سؤال المعاندين عن وقت الوعيد:

المقطع [١١] من سورة الملك، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾ [الملك: ٢٥-٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٦٤»:

١. ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ المراد بهذا الوعد الحشر الموعود، وهو استعجال منهم استهزاء.

٢. ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾:

أ. جواب عن قولهم: ﴿مَتى هذَا الْوَعْدُ﴾، ومحصله أن العلم به عند الله لا يعلم به إلا هو كما قال: ﴿لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وليس لي إلا أني نذير مبين أمرت أن أخبركم أنكم إليه تحشرون وأما أنه متى هو فليس لي بذلك علم.

ب. هذا على ما يفيده وقوع الآية في سياق الجواب عن السؤال عن وقت الحشر، وعلى هذا تكون اللام في العلم للعهد، والمراد العلم بوقت الحشر، وأما لو كانت للجنس على ما تفيده جملة ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ﴾ في نفسها فالمعنى: إنما حقيقة العلم عند الله ولا يحاط بشيء منه إلا بإذنه كما قال: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ولم يشأ أن أعلم من ذلك إلا أنه سيقع وأنذركم به وأما أنه متى يقع فلا علم لي به.

٣. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾:

أ. الزلفة القرب والمراد به القريب أو هو من باب زيد عدل، وضمير ﴿رَأَوْهُ﴾ للوعد وقيل للعذاب والمعنى:

ب. فلما رأوا الوعد المذكور قريبا قد أشرف عليهم ساء ذلك وجوه الذين كفروا به فظهر في سيماهم أثر الخيبة والخسران.

٤. ﴿وَقِيلَ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾ قيل تدعون وتدعون بمعنى واحد كتدخرون وتدخرون والمعنى: وقيل لهم: هذا هو الوعد الذي كنتم تسألونه وتستعجلون به بقولكم: متى هذا الوعد، وظاهر السياق أن القائل هم الملائكة بأمر من الله، وقيل القائل من الكفار يقوله بعضهم لبعض.

١٢. الإهلاك الرحمة وتوكل المؤمنين على الله:

المقطع [١٢] من سورة الملك، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الملك: ٢٨-٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٦٥»:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾:

أ. ﴿إِنْ﴾ شرطية شرطها قوله: ﴿أَهْلَكَنِيَ اللهُ﴾ وجزاؤها قوله: ﴿فَمَنْ يُجِيرُ﴾، والمعنى: قل لهم

أخبروني إن أهلكني الله ومن معي من المؤمنين أو رحمنا فلم يهلكنا فمن الذي يجير ويعيد الكافرين، وهم أنتم كفرتم بالله فاستحققتم أليم العذاب، من عذاب أليم يهددهم تهديدا قاطعا أي إن هلاكي ومن معي وبقاؤنا برحمة ربي لا ينفعكم شيئا في العذاب الذي سيصيبكم قطعا بكفركم بالله.

ب. قيل: إن كفار مكة كانوا يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك فأمر ﷺ أن يقول لهم إن أهلكنا الله تعالى أو أبقانا فأمرنا إلى الله ونرجو الخير من رحمته وأما أنتم فما تصنعون؟ من يجيركم من أليم العذاب على كفركم بالله،؟

٢. ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾:

أ. الضمير للذي يدعو إلى توحيده وهم يدعونه عليه، والمعنى: قل الذي أدعوكم إلى توحيده وتدعونه علي وعلى من معي هو الرحمن الذي عمت نعمته كل شيء آمنا به وعليه توكلنا من غير أن نميل ونعتمد على شيء دونه فستعلمون أيها الكفار من هو في ضلال مبين؟ نحن أم أنتم،؟

ب. قال في الكشاف: (فإن قيل: لم أخر مفعول ﴿آمَنَّا﴾ وقدم مفعول ﴿تَوَكَّلْنا﴾؟ قلت: لوقوع آمنا تعريضا بالكافرين حين ورد عقيب ذكرهم كأنه قيل: آمنا ولم نكفر كما كفرتم، ثم قال: وعليه توكلنا خصوصا لم نتكل على ما أنتم متكلون عليه من رجالكم وأموالكم)

١٣. فضل الله بإمساك الماء:

المقطع [١٣] من سورة الملك، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٦٥»:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ﴾:

أ. الغور ذهاب الماء ونضوبه في الأرض والمراد به الغائر، والمعين الظاهر الجاري من الماء، والمعنى: أخبروني إن صار ماؤكم غائرا ناضبا في الأرض فمن يأتيكم بماء ظاهر جار.

ب. وهناك روايات تطبق الآيات على ولاية علي عليه السلام ومحادته، وهي من الجري وليست بمفسرة.

سورة القلم

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٤] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. السورة تعزي النبي ﷺ إثر ما رماه المشركون بالجنون، وتطيب نفسه بالوعد الجميل والشكر على خلقه العظيم، وتنهاه نهياً بالغاً عن طاعتهم ومداهنتهم، وتأمره أمراً أكيداً بالصبر لحكم ربه.

ب. وسياق آياتها على الجملة سياق مكي، ونقل عن ابن عباس وقتادة أن صدرها إلى قوله: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾، ست عشرة آية، مكي، وما بعده إلى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، سبع عشرة آية، مدني، وما بعده إلى قوله: ﴿يَكْتُبُونَ﴾، خمس عشرة آية، مكي، وما بعده إلى آخر السورة، أربع آيات مدني.

ج. ولا يخلو من وجه بالنسبة إلى الآيات السبع عشرة ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، فإنها أشبه بالمدنية منها بالمكية.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٣٣] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تقسم بالقلم، وتمدح النبي ﷺ وترد على وصف المشركين له بالجنون، وتذكر أن له أجراً غير ممنون، وتأمره بالصبر، وتضرب مثل أصحاب الجنة الذين حلفوا ليصرمنها مصبحين، فطاف عليها طائف من الله فأصبحت كالصريم، وتذكر أن عذاب الآخرة أعظم.

٢. الآيات [٣٤ ـ ٥٢]:

أ. فيها تذييل لما تقدم من الوعيد لمكذبي النبي ﷺ، وتسجيل العذاب عليهم في الآخرة، إذ المتقون في جنات النعيم، وتثبيت أنهم والمتقون لا يستوون بحجة قاطعة، فليس لهم أن يرجوا كرامة من الله وهم مجرمون، فما يجدونه من نعم الدنيا استدراج وإملاء.

ب. وفيها تأكيد أمر النبي ﷺ بالصبر لحكم ربه.

١. القسم بالقلم وبما يسطرون:

المقطع [١] من سورة القلم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:

١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٦٧»:

١. ﴿ن﴾ تقدم الكلام في الحروف المقطعة التي في أوائل السور.

٢. ﴿وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ﴾:

أ. القلم معروف، والسطر بالفتح فالسكون وربما يستعمل بفتحتين، كما في المفردات، الصف من الكتابة، ومن الشجر المغروس ومن القوم الوقوف وسطر فلان كذا كتب سطرا سطرا.

ب. أقسم سبحانه بالقلم وما يسطرون به وظاهر السياق أن المراد بذلك مطلق القلم ومطلق ما يسطرون به وهو المكتوب فإن القلم وما يسطر به من الكتابة من أعظم النعم الإلهية التي اهتدى إليها الإنسان يتلو الكلام في ضبط الحوادث الغائبة عن الأنظار والمعاني المستكنة في الضمائر، وبه يتيسر للإنسان أن يستحضر كل ما ضرب مرور الزمان أو بعد المكان دونه حجابا.

ج. وقد امتن الله سبحانه على الإنسان بهدايته إليهما وتعليمهما له فقال في الكلام ﴿خَلَقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ﴾ [الرحمن: ٤] وقال في القلم: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]

د. فإقسامه تعالى بالقلم وما يسطرون إقسام بالنعمة، وقد أقسم تعالى في كلامه بكثير من خلقه بما أنه رحمة ونعمة كالسماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار إلى غير ذلك حتى التين والزيتون.

هـ. وقيل: ﴿ما﴾ في قوله: ﴿وَما يَسْطُرُونَ﴾ مصدرية والمراد به الكتابة.

و. وقيل: المراد بالقلم القلم الأعلى الذي في الحديث أنه أول ما خلق الله وبما يسطرون ما يسطره الحفظة والكرام الكاتبون واحتمل أيضا أن يكون الجمع في ﴿يَسْطُرُونَ﴾ للتعظيم لا للتكثير وهو كما ترى، واحتمل أن يكون المراد ما يسطرون فيه وهو اللوح المحفوظ واحتمل أن يكون المراد بالقلم وما يسطرون أصحاب القلم ومسطوراتهم وهي احتمالات واهية.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في المعاني، بإسناده عن سفيان بن سعيد الثوري عن الصادق عليه السلام في تفسير الحروف المقطعة في القرآن قال: وأما ن فهو نهر في الجنة، قال الله عز وجل: اجمد فجمد فصار مدادا، ثم قال للقلم: اكتب فسطر القلم في اللوح المحفوظ، ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فالمداد مداد من نور، والقلم قلم من نور واللوح لوح من نور، قال سفيان: فقلت له: يا ابن رسول الله، بين أمر اللوح والقلم والمداد

فضل بيان، وعلمني مما علمك الله، فقال: يا ابن سعيد لولا أنك أهل للجواب ما أجبتك، فنون ملك يؤدي إلى القلم وهو ملك، والقلم يؤدي إلى اللوح وهو ملك، واللوح يؤدي إلى إسرافيل، وإسرافيل يؤدي إلى ميكائيل، وميكائيل يؤدي إلى جبرائيل، وجبرائيل يؤدي إلى الأنبياء والرسل، قال: ثم قال: قم يا سفيان فلا آمن عليك.

ب. وفيه، بإسناده عن إبراهيم الكرخي قال: سألت جعفر بن محمد عليه السلام عن اللوح والقلم قال: هما ملكان.

ج. وفيه، بإسناده عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ﴾ القلم قلم من نور، وكتاب من نور في لوح محفوظ، يشهده المقربون وكفى بالله شهيدا.

• أقول: وفي المعاني المتقدمة روايات أخرى عن أئمة أهل البيت عليه السلام، وقد تقدم في ذيل قوله تعالى: ﴿هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩]، حديث القمي عن عبد الرحيم القصير عن الصادق عليه السلام في اللوح والقلم وفيه: ثم ختم على فم القلم، فلم ينطق بعد ذلك ولا ينطق أبدا، وهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها.

د. أخرج ابن جرير عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ﴾ قال: لوح من نور وقلم من نور، يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة.

• أقول: وفي معناه روايات أخر، وقوله: يجري بما هو كائن، أي منطبق على متن الكائنات من دون أن يتخلف شيء منها عما كتب هناك ونظيره ما في رواية أبي هريرة: ثم ختم علي في القلم فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة.

٢. نعمة الله على النبي وأجره وخلقه العظيم:

المقطع [٢] من سورة القلم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٢-٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٦٩»:

١. ﴿ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾:

أ. مقسم عليه والخطاب للنبي ﷺ، والباء في ﴿بِنِعْمَةِ﴾ للسببية أو المصاحبة أي ما أنت بمجنون

بسبب النعمة، أو مع النعمة، التي أنعمها عليك ربك.

ب. والسياق يؤيد أن المراد بهذه النعمة النبوة فإن دليل النبوة يدفع عن النبي كل اختلال عقلي حتى تستقيم الهداية الإلهية اللازمة في نظام الحياة الإنسانية، والآية ترد ما رموه به من الجنون كما يحكي عنهم في آخر السورة ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾

ج. وقيل: المراد بالنعمة فصاحته ﷺ وعقله الكامل وسيرته المرضية وبراءته من كل عيب واتصافه بكل مكرمة فظهور هذه الصفات فيه ﷺ ينافي حصول الجنون فيه وما قدمناه أقطع حجة والآية وما يتلوها كما ترى تعزية للنبي ﷺ وتطييب لنفسه الشريفة وتأييد له كما أن فيها تكذيبا لقولهم.

٢. ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾:

أ. الممنون من المن بمعنى القطع يقال: منه لسير منا إذا قطعه وأضعفه لا من المنة بمعنى تثقيل النعمة قولا.

ب. والمراد بالأجر أجر الرسالة عند الله سبحانه، وفيه تطييب لنفس النبي ﷺ وأن له على تحمل رسالة الله أجرا غير مقطوع وليس يذهب سدى.

ج. وربما أخذ المن بمعنى ذكر المنعم إنعامه على المنعم عليه بحيث يثقل عليه ويكدر عيشه بتقريب أن ما يعطيه الله أجر في مقابل عمله فهو يستحقه عليه تعالى فلا منه عليه وهو غير سديد فإن كل عامل مملوك لله سبحانه بحقيقة معنى الملك بذاته وصفاته وأعماله فما يعطيه العبد من ذلك فهو موهبة وعطية وما يملكه العبد من ذلك فإنما يملكه بتمليك الله وهو المالك لما ملكه من قبل ومن بعد فهو تفضل منه تعالى ولئن سمى ما يعطيه بإزاء العمل أجرا وسمى ما بينه وبين عبده من مبادلة العمل والأجر معاملة فذلك تفضل آخر فلله سبحانه المنة على جميع خلقه والرسول ومن دونه فيه سواء.

٣. ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾:

أ. الخلق هو الملكة النفسانية التي تصدر عنها الأفعال بسهولة وينقسم إلى الفضيلة وهي الممدوحة كالعفة والشجاعة، والرذيلة وهي المذمومة كالشره والجبن لكنه إذا أطلق فهم منه الخلق الحسن.

ب. قال الراغب: (والخلق، بفتح الخاء، والخلق، بضم الخاء، في الأصل واحد كالشرب والشرب والصرم والصرم لكن خص الخلق، بالفتح، بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخلق،

بالضم، بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

ج. والآية وإن كانت في نفسها تمدح حسن خلقه ﷺ وتعظمه غير أنها بالنظر إلى خصوص السياق ناظرة إلى أخلاقه الجميلة الاجتماعية المتعلقة بالمعاشرة كالثبات على الحق والصبر على أذى الناس وجفاء أجلافهم والعفو والإغماض وسعة البذل والرفق والمداراة والتواضع وغير ذلك، وقد أوردنا في آخر الجزء السادس من الكتاب ما روي في جوامع أخلاقه ﷺ.

د. ومما تقدم يظهر أن ما قيل: إن المراد بالخلق الدين وهو الإسلام غير مستقيم إلا بالرجوع إلى ما تقدم.

٤. ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾:

أ. تفريع على محصل ما تقدم أي فإذا لم تكن مجنونا بل متلبسا بالنبوة ومتخلقا بالخلق ولك عظيم الأجر من ربك فسيظهر أمر دعوتك وينكشف على الأبصار والبصائر من المفتون بالجنون أنت أو المكذبون الرامون لك بالجنون.

ب. وقيل: المراد ظهور عاقبة أمر الدعوة له ولهم في الدنيا أو في الآخرة؟ الآية تقبل الحمل على كل منها، ولكل قائل، ولا مانع من الجمع فإن الله تعالى أظهر نبيه عليهم ودينه على دينهم، ورفع ذكره ﷺ ومحا أثرهم في الدنيا وسيذوقون وبال أمرهم غدا ويعلمون أن الله هو الحق المبين يوم هم على النار يفتنون ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون.

٥. ﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾:

أ. الباء زائدة للصلة، والمفتون اسم مفعول من الفتنة بمعنى الابتلاء يريد به المبتلى بالجنون وفقدان العقل، والمعنى: فستبصر ويبصرون أيكم المفتون المبتلى بالجنون؟ أنت أم هم،؟

ب. وقيل: المفتون مصدر على زنة مفعول كمعقول وميسور ومعسور في قولهم: ليس له معقول، وخذ ميسوره، ودع معسوره، والباء في ﴿بِأَيِّكُمُ﴾ بمعنى في والمعنى: فستبصر ويبصرون في أي الفريقين الفتنة.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في المعاني، بإسناده عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ

لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قال: هو الإسلام.

ب. وفي تفسير القمي، عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قال: على دين عظيم.

• أقول: يريد اشتمال الدين والإسلام على كمال الخلق واستنانه ﷺ به، وفي الرواية المعروفة عنه ﷺ: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

٣. علم الله بالضال والمهتدي والنهي عن طاعة المكذبين:

المقطع [٣] من سورة القلم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٧ـ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٧٠»:

١. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ لما أفيد بما تقدم من القول إن هناك ضلالا واهتداء، وأشير إلى أن الرامين للنبي ﷺ بالجنون هم المفتونون الضالون وسيظهر أمرهم وأن النبي ﷺ مهتد وكان ذلك ببيان من الله سبحانه أكد ذلك بأن الله أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين لأن السبيل سبيله وهو أعلم بمن هو في سبيله ومن ليس فيه وإليه أمر الهداية.

٢. ﴿فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ تفريع على المحصل من معنى الآيات السابقة وفي المكذبين معنى العهد والمراد بالطاعة مطلق الموافقة عملا أو قولا، والمعنى: فإذا كان هؤلاء المكذبون لك مفتونين ضالين فلا تطعهم.

٣. ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾:

أ. الإدهان من الدهن يراد به التليين أي ود وأحب هؤلاء المكذبون أن تلينهم بالاقتراب منهم في دينك فيلينوك بالاقتراب منك في دينهم، ومحصله أنهم ودوا أن تصالحهم ويصالحوك على أن يتسامح كل منكم ببعض المسامحة في دين الآخر كما قيل: إنهم عرضوا عليه أن يكف عن ذكر آلهتهم فيكفوا عنه وعن ربه.

ب. وبما تقدم ظهر أن متعلق مودتهم مجموع ﴿لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ وأن الفاء في ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ للتفريع لا للسببية.

٤. أحاديث وآثار: في المجمع: (بإسناده عن الحاكم بإسناده عن الضحاك قال: لما رأت قريش تقديم النبي ﷺ عليا وإعظامه له، نالوا من علي وقالوا: قد افتتن به محمد، فأنزل الله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ﴾ قسم أقسم الله به ﴿ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ، وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ، وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، يعني القرآن، إلى قوله: ﴿بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وهم النفر الذين قالوا ما قالوا ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ يعني علي بن أبي طالب.

- أقول: ورواه في تفسير البرهان، عن محمد بن العباس بإسناده إلى الضحاك وساق نحوا مما مر وفي آخره: وسبيله علي بن أبي طالب.

٤. من صفات المعاندين:

المقطع [٤] من سورة القلم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٠-١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٧١»:

١. ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾:

أ. الحلاف كثير الحلف، ولازم كثرة الحلف والإقسام في كل يسير وخطير وحق وباطل أن لا يحترم الحالف شيئا مما يقسم به، وإذا كان حلفه بالله فهو لا يستشعر عظمة الله عز اسمه وكفى به رذيلة.

ب. والمهين من المهانة بمعنى الحقارة والمراد به حقارة الرأي، وقيل: هو المكثار في الشر، وقيل: هو الكذاب.

ج. والهماز مبالغة من الهمز والمراد به العياب والطعان، وقيل: الطعان بالعين والإشارة وقيل: كثير الاغتياب.

د. والمشاء بنميم النميم: السعاية والإفساد، والمشاء به هو نقال الحديث من قوم إلى قوم على وجه الإفساد بينهم.

هـ. والمناع للخير كثير المنع لفعل الخير أو للخير الذي ينال أهله.

و. والمعتدي من الاعتداء وهو المجاوزة للحد ظلما.

ز. والأثيم هو الذي كثر إثمه حتى استقر فيه من غير زوال والإثم هو العمل السيئ الذي يبطئ

الخير.

ح. والعتل بضمتين هو الفظ الغليظ الطبع، وفسر بالفاحش السيئ الخلق، وبالجافي الشديد الخصومة بالباطل، وبالأكول المنوع للغير، وبالذي يعتل الناس ويجرهم إلى حبس أو عذاب.

ط. والزنيم هو الذي لا أصل له، وقيل: هو الدعي الملحق بقوم وليس منهم، وقيل: هو المعروف باللؤم، وقيل: هو الذي له علامة في الشر يعرف بها وإذا ذكر الشر سبق هو إلى الذهن، والمعاني متقاربة.

ي. فهذه صفات تسع رذيلة وصف الله بها بعض أعداء الدين ممن كان يدعو النبي ﷺ إلى الطاعة والمداهنة، وهي جماع الرذائل.

٢. ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ﴾:

أ. معناه أنه بعد ما ذكر من مثالبه ورذائله عتل زنيم قيل: وفيه دلالة على أن هاتين الرذيلتين أشد معايبه.

ب. والظاهر أن فيه إشارة إلى أن له خبائث من الصفات لا ينبغي معها أن يطاع في أمر الحق ولو أغمض عن تلك الصفات فإنه فظ خشن الطبع لا أصل له لا ينبغي أن يعبأ بمثله في مجتمع بشري فليطرد ولا يطع في قول ولا يتبع في فعل.

٣. ﴿أَنْ كانَ ذا مالٍ وَبَنِينَ﴾:

أ. الظاهر أنه بتقدير لام التعليل وهو متعلق بفعل محصل من مجموع الصفات الرذيلة المذكورة أي هو يفعل كذا وكذا لأن كان ذا مال وبنين فبطر بذلك وكفر بنعمة الله وتلبس بكل رذيلة خبيثة بدل أن يشكر الله على نعمته ويصلح نفسه، فالآية في إفادة الذم والتهكم تجري مجرى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾

ب. وقيل: إنه متعلق بقوله السابق ﴿لا تُطِعْ﴾، والمعنى: لا تطعه لكونه ذا مال وبنين أي لا يحملك كونه ذا مال وبنين على طاعته، والمعنى المتقدم أقرب وأوسع.

ج. قيل: ولا يجوز تعلقه بقوله: ﴿قالَ﴾ في الشرطية التالية لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله عند النحاة.

٤. ﴿إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ الأساطير جمع أسطورة وهي القصة الخرافية، والآية

تجري مجرى التعليل لقوله السابق: ﴿لا تُطِعْ﴾

٥. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: (في قوله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾، قيل: يعني الوليد بن المغيرة، عرض على النبي ﷺ المال ليرجع عن دينه، وقيل: يعني الأخنس بن شريق عن عطاء، وقيل: يعني الأسود بن عبد يغوث: عن مجاهد.

• أقول: وفي ذلك روايات في الدر المنثور وغيره تركنا إيرادها من أرادها فليراجع جوامع الروايات.

ب. وفيه، عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: لا يدخل الجنة جواظ ولا جعظري ولا عتل زنيم، قلت: فما الجواظ؟ قال: كل جماع مناع، قلت: فما الجعظري؟ قال: الفظ الغليظ، قلت: فما العتل الزنيم؟ قال: كل رحيب الجوف، سيء الخلق أكول شروب غشوم ظلوم زنيم.

ج. وفيه، في معنى الزنيم: قيل: هو الذي لا أصل له.

د. وفيه، في تفسير القمي: في قوله: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ﴾ قال: العتل العظيم الكفر الزنيم الدعي.

٥. بلاء أصحاب الجنة وقسمهم على صرمها:

المقطع [٥] من سورة القلم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [القلم: ١٧-٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٧٣»:

١. ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾:

أ. الوسم والسمة وضع العلامة، والخرطوم الأنف، وقيل: إن في إطلاق الخرطوم على أنفه وإنما يطلق في الفيل والخنزير تهكما، وفي الآية وعيد على عداوته الشديدة لله ورسوله وما نزله على رسوله.

ب. والظاهر أن الوسم على الأنف أريد به نهاية إذلاله بذلة ظاهرة يعرفه بها كل من رآه فإن الأنف

مما يظهر فيه العزة والذلة كما يقال: شمخ فلان بأنفه وحمي فلان أنفه وأرغمت أنفه وجدع أنفه.

ج. والظاهر أن الوسم على الخرطوم مما سيقع يوم القيامة لا في الدنيا وإن تكلف بعضهم في توجيه حمله على فضاحته في الدنيا.

٢. ﴿إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ﴾ البلاء الاختبار وإصابة المصيبة، والصرم قطع الثمار من الأشجار، والاستثناء عزل البعض من حكم الكل وأيضا الاستثناء قول إن شاء الله عند القطع بقول وذلك أن الأصل فيه الاستثناء فالأصل في قولك: أخرج غدا إن شاء الله هو أخرج غدا إلا أن يشاء الله أن لا أخرج، والطائف العذاب الذي يأتي بالليل، والصريم الشجر المقطوع ثمره، وقيل: الليل الأسود، وقيل: الرمل المقطوع من سائر الرمل وهو لا ينبت شيئا ولا يفيد فائدة.

٣. الآيات أعني قوله: ﴿إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ﴾ إلى تمام سبع عشرة آية:

أ. وعيد لمكذبي النبي ﷺ الرامين له بالجنون، وفي التشبيه والتنظير دلالة على أن هؤلاء المكذبين معذبون لا محالة والعذاب الواقع عليهم قائم على ساقه، غير أنهم غافلون وسيعلمون، فهم مولعون اليوم بجمع المال وتكثير البنين مستكبرون بها معتمدون عليها وعلى سائر الأسباب الظاهرية التي توافقهم وتشايع أهواءهم من غير أن يشكروا ربهم على هذه النعم ويسلكوا سبيل الحق ويعبدوا ربهم حتى يأتيهم الأجل ويفاجئهم عذاب الآخرة أو عذاب دنيوي من عنده كما فاجأهم يوم بدر فيروا انقطاع الأسباب عنهم وأن المال والبنين سدى لا ينفعهم شيئا كما شاهد نظير ذلك أصحاب الجنة من جنتهم وسيندمون على صنيعهم ويرغبون إلى ربهم ولا يرد ذلك عذاب الله كما ندم أصحاب الجنة وتلاوموا ورغبوا إلى ربهم فلم ينفعهم ذلك شيئا كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون، هذا على تقدير اتصال الآيات بما قبلها ونزولها معها.

ب. وأما على ما رووا أن الآيات نزلت في القحط والسنة الذي أصاب أهل مكة وقريشا إثر دعاء النبي ﷺ عليهم بقوله: اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف، فالمراد بالبلاء إصابتهم بالقحط وتناظر قصتهم قصة أصحاب الجنة غير أن في انطباق ما في آخر قصتهم من قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ﴾، على قصة أهل مكة خفاء.

ج. وكيف كان فالمعنى: ﴿إِنَّا بَلَوْناهُمْ﴾ أصبناهم بالبلية ﴿كَما بَلَوْنا﴾ وأصبنا بالبلية ﴿أَصْحابَ

﴿الْجَنَّةِ﴾ وكانوا قوما من اليمن وجنتهم فيها وسيأتي إن شاء الله قصتهم في البحث الروائي الآتي ﴿إِذْ﴾ ظرف لبلونا ﴿أَقْسَمُوا﴾ وحلفوا ﴿لَيَصْرِمُنَّها﴾ أي ليقطعن ويقطفن ثمار جنتهم ﴿مُصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح وكأنهم ائتمروا وتشاوروا ليلا فعزموا على الصرم صبيحة ليلتهم ﴿وَلا يَسْتَثْنُونَ﴾ لم يقولوا إلا أن يشاء الله اعتمادا على أنفسهم واتكاء على ظاهر الأسباب، أو المعنى: قالوا وهم لا يعزلون نصيبا من ثمارهم للفقراء والمساكين.

٤. ﴿فَطافَ عَلَيْها﴾ على الجنة ﴿طائِفٌ﴾ أي بلاء يطوف عليها ويحيط بها ليلا ﴿مِنْ﴾ ناحية ﴿رَبِّكَ﴾،﴿فَأَصْبَحَتْ﴾ وصارت الجنة ﴿كَالصَّرِيمِ﴾ وهو الشجر المقطوع ثمره أو المعنى: فصارت الجنة كالليل الأسود لما اسودت بإحراق النار التي أرسلها الله إليها أو المعنى: فصارت الجنة كالقطعة من الرمل لا نبات بها ولا فائدة.

٥. ﴿فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ﴾:

أ. التنادي نداء بعض القوم بعضا، والإصباح الدخول في الصباح، وصارمين من الصرم بمعنى قطع الثمار من الشجرة، والمراد به في الآية القاصدون لقطع الثمار، والحرث الزرع والشجر، والخفت الإخفاء والكتمان، والحرد المنع وقادرين من القدر بمعنى التقدير.

ب. والمعنى: ﴿فَتَنادَوْا﴾ أي فنادى بعض القوم بعضا ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي والحال أنهم داخلون في الصباح ﴿أَنِ اغْدُوا عَلى حَرْثِكُمْ﴾ تفسير للتنادي أي بكروا مقبلين على جنتكم، فاغدوا أمر بمعنى بكروا مضمن معنى أقبلوا ولذا عدي بعلى ولو كان غير مضمن عدي بإلى كما في الكشاف، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ﴾ أي قاصدين عازمين على الصرم والقطع.

ج. (فانطلقوا) وذهبوا إلى جنتهم ﴿وَهُمْ يَتَخافَتُونَ﴾ أي والحال أنهم يأتمرون فيما بينهم بطريق المخافتة والمكاتمة ﴿أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا﴾ أي الجنة ﴿الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ﴾ أي أخفوا ورودكم الجنة للصرم من المساكين حتى لا يدخلوا عليكم فيحملكم ذلك على عزل نصيب من الثمر المصروم لهم ﴿وَغَدَوْا﴾ وبكروا إلى الجنة ﴿عَلى حَرْدٍ﴾ أي على منع للمساكين ﴿قادِرِينَ﴾ مقدرين في أنفسهم أنهم سيصرمونها ولا يساهمون المساكين بشيء منها.

٦. ﴿فَلَمَّا رَأَوْها قالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾:

أ. أي فلما رأوا الجنة وشاهدوها وقد أصبحت كالصريم بطواف طائف من عند الله قالوا: إنا لضالون عن الصواب في غدونا إليها بقصد الصرم ومنع المساكين.

ب. وقيل: المراد إنا لضالون طريق جنتنا وما هي بها.

٧. ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ إضراب عن سابقه أي ليس مجرد الضلال عن الصواب بل حرمنا الزرع.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: (في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ﴾ إن أهل مكة ابتلوا بالجوع كما ابتلي أصحاب الجنة، وهي كانت في الدنيا وكانت باليمن، يقال له الرضوان على تسعة أميال من صنعاء.

ب. وفيه، بإسناده إلى ابن عباس: أنه قيل له إن قوما من هذه الأمة، يزعمون أن العبد يذنب فيحرم به الرزق، فقال ابن عباس: فو الله الذي لا إله إلا هو، هذا أنور في كتاب الله من الشمس الضاحية، ذكره الله في سورة ن والقلم، إنه كان شيخ وكان له جنة، وكان لا يدخل إلى بيته ثمرة منها، ولا إلى منزله حتى يعطي كل ذي حق حقه، فلما قبض الشيخ ورثه بنوه، وكان له خمس من البنين، فحملت جنتهم في تلك السنة التي هلك فيها أبوهم حملا، لم يكن حملته قبل ذلك، فراحوا الفتية إلى جنتهم بعد صلاة العصر، فأشرفوا على ثمرة ورزق فاضل، لم يعاينوا مثله في حياة أبيهم، فلما نظروا إلى الفضل طغوا وبغوا، وقال بعضهم لبعض: إن أبانا كان شيخا كبيرا، قد ذهب عقله وخرف، فهلموا نتعاقد فيما بيننا أن لا نعطي أحدا، من فقراء المسلمين في عامنا شيئا، حتى نستغني ويكثر أموالنا، ثم نستأنف الصنيعة فيما استقبل من السنين المقبلة، فرضي بذلك منهم أربعة وسخط الخامس، وهو الذي قال الله: ﴿قالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾، فقال الرجل: يا ابن عباس كان أوسطهم في السن؟ فقال: لا بل كان أصغرهم سنا وأكبرهم عقلا، وأوسط القوم خير القوم، والدليل عليه في القرآن قوله: إنكم يا أمة محمد أصغر الأمم وخير الأمم، قوله عز وجل: ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾، قال لهم أوسطهم: اتقوا وكونوا على منهاج أبيكم، تسلموا وتغنموا فبطشوا به وضربوه ضربا مبرحا، فلما أيقن الأخ منهم أنهم يريدون قتله، دخل معهم في مشورتهم كارها لأمرهم غير طائع، فراحوا إلى منازلهم ثم حلفوا بالله، ليصرمن إذا أصبحوا ولم يقولوا إن

شاء الله، فابتلاهم الله بذلك الذنب وحال بينهم، وبين ذلك الرزق الذي كانوا أشرفوا عليه، فأخبر عنهم في الكتاب فقال: ﴿إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ وَلا يَسْتَثْنُونَ فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ قال: كالمحترق، فقال الرجل: يا ابن عباس ما الصريم؟ قال: الليل المظلم، ثم قال: لا ضوء له ولا نور، فلما أصبح القوم ﴿فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ، أَنِ اغْدُوا عَلى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ﴾ قال: ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخافَتُونَ﴾ قال الرجل: وما التخافت يا ابن عباس؟ قال: يتشاورون فيشاور بعضهم بعضا لكيلا يسمع أحد غيرهم فقالوا: ﴿لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ﴾ في أنفسهم أن يصرموها ولا يعلمون ما قد حل بهم من سطوات الله ونقمته، ﴿فَلَمَّا رَأَوْها﴾ وما قد حل بهم ﴿قالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ فحرمهم الله ذلك الرزق بذنب كان منهم، ولم يظلمهم شيئا، ﴿قالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ، قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ﴾ قال: يلومون أنفسهم فيما عزموا عليه ﴿قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ﴾ فقال الله: ﴿كَذلِكَ الْعَذابُ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾

• أقول: وقد ورد ما يقرب من مضمون هذا الحديث والذي قبله في روايات أخر وفي بعض الروايات أن الجنة كانت لرجل من بني إسرائيل ثم مات وورثه بنوه فكان من أمرهم ما كان.

٦. اعترافهم بالظلم وتوبتهم ورجاء الإبدال:

المقطع [٦] من سورة القلم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ [القلم: ٢٨-٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٧٤»:

١. ﴿قالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾، إلى قوله: ﴿راغِبُونَ﴾ أي ﴿قالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي أعدلهم طريقا وذلك أنه ذكرهم بالحق وإن تبعهم في العمل وقيل: المراد أوسطهم سنا وليس بشيء ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾ وقد كان قال لهم ذلك وإنما لم يذكر قبل في القصة إيجازا بالتعويل على ذكره هاهنا.

٢. ﴿لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾:

أ. المراد بتسبيحهم له تعالى تنزيههم له من الشركاء حيث اعتمدوا على أنفسهم وعلى سائر الأسباب الظاهرية فأقسموا ليصرمنها مصبحين ولم يستثنوا لله مشية فعزلوه تعالى عن السببية والتأثير ونسبوا التأثير إلى أنفسهم وسائر الأسباب الظاهرية، وهو إثبات للشريك، ولو قالوا: لنصرمنها مصبحين إلا أن يشاء الله كان معنى ذلك نفي الشركاء وأنهم إن لم يصرموا كان لمشية من الله وإن صرموا كان ذلك بإذن من الله فلله الأمر وحده لا شريك له.

ب. وقيل: المراد بتسبيحهم لله ذكر الله تعالى وتوبتهم إليه حيث نووا أن يصرموها ويحرموا المساكين منها، وله وجه على تقدير أن يراد بالاستثناء عزل نصيب من الثمار للمساكين.

٣. ﴿قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ﴾:

أ. تسبيح منهم لله سبحانه إثر توبيخ أوسطهم لهم، أي ننزه الله تنزيها من الشركاء الذين أثبتناهم فيما حلفنا عليه فهو ربنا الذي يدبر بمشيته أمورنا لأنا كنا ظالمين في إثباتنا الشركاء فهو تسبيح واعتراف بظلمهم على أنفسهم في إثبات الشركاء.

ب. وعلى القول الآخر توبة واعتراف بظلمهم على أنفسهم وعلى المساكين.

٤. ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ﴾ أي يلوم بعضهم بعضا على ما ارتكبوه من الظلم.

٥. ﴿قالُوا يا وَيْلَنا﴾، إلى قوله: ﴿راغِبُونَ﴾ الطغيان تجاوز الحد وضمير ﴿مِنْها﴾ للجنة باعتبار ثمارها والمعنى: قالوا يا ويلنا إنا كنا متجاوزين حد العبودية إذ أثبتنا شركاء لربنا ولم نوحده، ونرجو من ربنا أن يبدلنا خيرا من هذه الجنة التي طاف عليها طائف منه لأنا راغبون إليه معرضون عن غيره.

٧. عذاب الآخرة أكبر مما في الدنيا:

المقطع [٧] من سورة القلم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٧٥»:

١. ﴿كَذلِكَ الْعَذابُ وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ العذاب مبتدأ مؤخر، وكذلك خبر مقدم أي إنما يكون العذاب على ما وصفناه في قصة أصحاب الجنة وهو أن الإنسان يمتحن بالمال والبنين فيطغى مغترا بذلك فيستغني بنفسه وينسى ربه ويشرك بالأسباب الظاهرية وبنفسه ويجترئ على المعصية وهو غافل عما يحيط به من وبال عمله ويهيئ له من العذاب كذلك حتى إذا فاجأه العذاب وبرز له بأهول

وجوهه وأمرها انتبه من نومة الغفلة وتذكر ما جاءه من النصح قبلا وندم على ما فرط بالطغيان والظلم وسأل الله أن يعيد عليه النعمة فيشكر كما انتهى إليه أمر أصحاب الجنة، ففي ذلك إعطاء الضابط بالمثال.

٢. ﴿وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لأنه ناش عن قهر إلهي لا يقوم له شيء لا رجاء للتخلص منه ولو بالموت والفناء كما في شدائد الدنيا، محيط بالإنسان من جميع أقطار وجوده لا كعذاب الدنيا دائم لا انتهاء لأمده كما في الابتلاءات الدنيوية.

٨. جنات النعيم للمتقين وعدم تساوي المسلمين والمجرمين:

المقطع [٨] من سورة القلم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٤-٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٨١»:

١. ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾:

أ. بشرى وبيان لحال المتقين في الآخرة قبال ما بين من حال المكذبين فيها.

ب. وفي قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ دون أن يقال: عند الله إشارة إلى رابطة التدبير والرحمة بينهم وبينه سبحانه وأن لهم ذلك قبال قصرهم الربوبية فيه تعالى وإخلاصهم العبودية له.

ج. وإضافة الجنات إلى النعيم وهو النعمة للإشارة إلى أن ما فيها من شيء نعمة لا تشوبها نقمة ولذة لا يخالطها ألم، وسيجيء إن شاء الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، أن المراد بالنعيم الولاية.

٢. ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾:

أ. تحتمل الآية في بادئ النظر أن تكون مسوقة حجة على المعاد كقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾، [ص: ٢٨]، وقد تقدم تفسيره.

ب. وأن تكون ردا على قول من قال منهم للمؤمنين: لو كان هناك بعث وإعادة لكنا منعمين كما في الدنيا وقد حكى سبحانه ذلك عن قائلهم: ﴿وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى﴾ [فصلت: ٥٠]

ج. ظاهر سياق الآيات التالية التي ترد عليهم الحكم بالتساوي هو الاحتمال الثاني، وهو الذي

رووه أن المشركين لما سمعوا حديث البعث والمعاد قالوا: إن صح ما يقوله محمد والذين آمنوا معه لم تكن حالنا إلا أفضل من حالهم كما في الدنيا ولا أقل من أن تتساوى حالنا وحالهم.

د. غير أنه يرد عليه أن الآية لو سيقت لرد قولهم، سنساويهم في الآخرة أو نزيد عليهم كما في الدنيا، كان مقتضى التطابق بين الرد والمردود أن يقال: أفنجعل المجرمين كالمسلمين وقد عكس.

هـ. والتدبر في السياق يعطي أن الآية مسوقة لرد دعواهم التساوي لكن لا من جهة نفي مساواتهم على إجرامهم للمسلمين بل تزيد على ذلك بالإشارة إلى أن كرامة المسلمين تأبى أن يساويهم المجرمون كأنه قيل: إن قولكم: سنتساوى نحن والمسلمون باطل فإن الله لا يرضى أن يجعل المسلمين بما لهم من الكرامة عنده كالمجرمين وأنتم مجرمون.

و. فالآية تقيم الحجة على عدم تساوي الفريقين من جهة منافاته لكرامة المسلمين عليه تعالى لا من جهة منافاة مساواة المجرمين للمسلمين عدله تعالى.

ز. والمراد بالإسلام تسليم الأمر لله فلا يتبع إلا ما أراده سبحانه من فعل أو ترك يقابله الاجرام وهو اكتساب السيئة وعدم التسليم.

٣. والآية وما بعدها إلى قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾:

أ. في مقام الرد لحكمهم بتساوي المجرمين والمسلمين حالا يوم القيامة تورد محتملات هذا الحكم من حيث منشئه في صور استفهامات إنكارية وتردها.

ب. وتقرير الحجة: أن كون المجرمين كالمسلمين يوم القيامة على ما حكموا به إما أن يكون من الله تعالى موهبة ورحمة وإما أن لا يكون منه.

ج. والأول إما أن يدل عليه دليل العقل ولا دليل عليه كذلك وذلك قوله: ﴿ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾

د. وإما أن يدل عليه النقل وليس كذلك وهو قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتابٌ﴾، وإما أن يكون لا لدلالة عقل أو نقل بل عن مشافهة بينهم وبين الله سبحانه عاهدوه وواثقوه على أن يسوي بينهما وليس كذلك فهذه ثلاثة احتمالات.

هـ. وإما أن لا يكون من الله فإما أن يكون حكمهم بالتساوي حكما جديا أو لا يكون فإن كان

جديا فإما أن يكون التساوي الذي يحكمون به مستندا إلى أنفسهم بأن يكون لهم قدرة على أن يصيروا يوم القيامة كالمسلمين حالا وإن لم يشأ الله ذلك وليس كذلك وهو قوله: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ﴾ أو يكون القائم بهذا الأمر المتصدي له شركاؤهم ولا شركاء وهو قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ﴾

و. وإما أن يكون ذلك لأن الغيب عندهم والأمور التي ستستقبل الناس قدرها وقضاؤها منوطان بمشيتهم تكون وتقع كيف يكتبون فكتبوا لأنفسهم المساواة مع المسلمين، وليس كذلك ولا سبيل لهم إلى الغيب وذلك قوله: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ وهذه ثلاثة احتمالات.

ز. وإن لم يكن حكمهم بالمساواة حكما جديا بل إنما تفوهوا بهذا القول تخلصا وفرارا من اتباعك على دعوتك لأنك تسألهم أجرا على رسالتك وهدايتك لهم إلى الحق فهم مثقلون من غرامته، وليس كذلك، وهو قوله: ﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ وهذا سابع الاحتمالات.

٤. هذا ما يعطيه التدبر في الآيات في وجه ضبط ما فيها من الترديد وقد ذكروا في وجه الضبط غير ذلك من أراد الوقوف عليه فليراجع المطولات.

٥. فقوله: ﴿ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ مسوق للتعجب من حكمهم بكون المجرمين يوم القيامة كالمسلمين، وهو إشارة إلى تأبي العقل عن تجويز التساوي، ومحصله نفي حكم العقل بذلك إذ معناه: أي شيء حصل لكم من اختلال الفكر وفساد الرأي حتى حكمتم بذلك،؟

٩. تحديهم بأن لهم كتاباً أو أيماناً أو شركاء:

المقطع [٩] من سورة القلم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [القلم: ٣٧ـ٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٨٣»:

١. ﴿أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ﴾:

أ. إشارة إلى انتفاء الحجة على حكمهم بالتساوي من جهة السمع كما أن الآية السابقة كانت إشارة إلى انتفائها من جهة العقل.

ب. والمراد بالكتاب الكتاب السماوي النازل من عند الله وهو حجة، ودرس الكتاب قراءته، والتخير الاختيار، وقوله: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ﴾ في مقام المفعول لتدرسون والاستفهام إنكاري.

ج. والمعنى: بل ألكم كتاب سماوي تقرءون فيه أن لكم في الآخرة، أو مطلقا، لما تختارونه فاخترتم السعادة والجنة.

٢. ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ﴾:

أ. إشارة إلى انتفاء أن يملكوا الحكم بعهد ويمين شفاهي لهم على الله سبحانه.

ب. والأيمان جمع يمين وهو القسم، والبلوغ هو الانتهاء في الكمال فالأيمان البالغة هي المؤكدة نهاية التوكيد، وقوله: ﴿إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ على هذا ظرف مستقر متعلق بمقدر والتقدير: أم لكم علينا أيمان كائنة إلى يوم القيامة مؤكدة نهاية التوكيد.

ج. ويمكن أن يكون ﴿إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ متعلقا ببالغة والمراد ببلوغ الأيمان انطباقها على امتداد الزمان حتى ينتهي إلى يوم القيامة.

د. وقد فسروا الإيمان بالعهود والمواثيق فيكون من باب إطلاق اللازم وإرادة الملزوم كناية، واحتمل أن يكون من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل.

٣. ﴿إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ﴾:

أ. جواب القسم وهو المعاهد عليه، والاستفهام للإنكار.

ب. والمعنى: بل ألكم علينا عهود أقسمنا فيها أقساما مؤكدا إلى يوم القيامة إنا سلمنا لكم أن لكم لما تحكمون به.

٤. ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ﴾:

أ. إعراض عن خطابهم والتفات إلى النبي ﷺ بتوجيه الخطاب لسقوطهم عن درجة استحقاق الخطاب ولذلك أورد بقية السؤالات وهي مسائل أربع في سياق الغيبة أولها قوله: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ﴾ والزعيم القائم بالأمر المتصدي له، والاستفهام إنكاري.

ب. والمعنى: سل المشركين أيهم قائم بأمر التسوية الذي يدعونه أي إذا ثبت أن الله لا يسوي بين الفريقين لعدم دليل يدل عليه فهل الذي يقوم بهذا الأمر ويتصداه هو منهم؟ فأيهم هو؟ ومن الواضح بطلانه لا يتفوه به إلا مصاب في عقله.

٥. ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ﴾ رد لهم على تقدير أن يكون حكمهم

بالتساوي مبنيا على دعواهم أن لهم آلهة يشاركون الله سبحانه في الربوبية سيشفعون لهم عند الله فيجعلهم كالمسلمين والاستفهام إنكاري يفيد نفي الشركاء.

٦. ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ﴾:

أ. كناية عن انتفاء الشركاء يفيد تأكيد ما في قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ﴾ من النفي.

ب. وقيل: المراد بالشركاء شركاؤهم في هذا القول، والمعنى: أم لهم شركاء يشاركونهم في هذا القول ويذهبون مذهبهم فليأتوا بهم إن كانوا صادقين.

• وأنت خبير بأن هذا المعنى لا يقطع الخصام.

ج. وقيل: المراد بالشركاء الشهداء والمعنى: أم لهم شهداء على هذا القول فليأتوا بهم إن كانوا صادقين.

• وهو تفسير بما لا دليل عليه من جهة اللفظ، على أنه مستدرك لأن هؤلاء الشهداء شهداء على كتاب من عند الله أو وعد بعهد ويمين وقد رد كلا الاحتمالين فيما تقدم.

د. وقيل: المراد بالشركاء شركاء الألوهية على ما يزعمون لكن المعنى من إتيانهم بهم إتيانهم بهم يوم القيامة ليشهدوا لهم أو ليشفعوا لهم عند الله سبحانه.

• وأنت خبير بأن هذا المعنى أيضا لا يقطع الخصام.

١٠. يوم القيامة وذلة المعاندين وعجزهم عن السجود:

المقطع [١٠] من سورة القلم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢-٤٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٨٤»:

١. ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾:

أ. يوم ظرف متعلق بمحذوف كاذكر ونحوه، والكشف عن الساق تمثيل في اشتداد الأمر اشتدادا بالغا لما أنهم كانوا يشمرون عن سوقهم إذا اشتد الأمر للعمل أو للفرار قال في الكشاف: (فمعنى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ﴾ في معنى يوم يشتد الأمر ويتفاقم، ولا كشف ثم ولا ساق كما تقول للأقطع الشحيح: يده مغلولة ولا يد ثم ولا غل وإنما هو مثل في البخل)

ب. والآية وما بعدها إلى تمام خمس آيات اعتراض وقع في البين بمناسبة ذكر شركائهم الذين يزعمون أنهم سيسعدونهم لو كان هناك بعث وحساب فذكر سبحانه أن لا شركاء لله ولا شفاعة وإنما يحرز الإنسان سعادة الآخرة بالسجود أي الخضوع لله سبحانه بتوحيد الربوبية في الدنيا حتى يحمل معه صفة الخضوع فيسعد بها يوم القيامة.

ج. وهؤلاء المكذبون المجرمون لم يسجدوا لله في الدنيا فلا يستطيعون السجود في الآخرة فلا يسعدون ولا تتساوى حالهم وحال المسلمين فيها البتة بل الله سبحانه يعاملهم في الدنيا لاستكبارهم عن سجوده معاملة الاستدراج والإملاء حتى يتم لهم شقاؤهم فيردوا العذاب الأليم في الآخرة.

د. فقوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ معناه اذكر يوم يشتد عليهم الأمر ويدعون إلى السجود لله خضوعا فلا يستطيعون لاستقرار ملكة الاستكبار في سرائرهم واليوم تبلى السرائر.

٢. ﴿خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ حالان من نائب فاعل يدعون أي حال كون أبصارهم خاشعة وحال كونهم يغشاهم الذلة بقهر، ونسبة الخشوع إلى الأبصار لظهور أثره فيها.

٣. ﴿وَقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سالِمُونَ﴾:

أ. المراد بالسلامة سلامتهم من الآفات والعاهات التي لحقت نفوسهم بسبب الاستكبار عن الحق فسلبتها التمكن من إجابة الحق أو المراد مطلق استطاعتهم منه في الدنيا.

ب. والمعنى: وقد كانوا في الدنيا يدعون إلى السجود لله وهم سالمون متمكنون منه أقوى تمكن فلا يجيبون إليه.

ج. وقيل: المراد بالسجود الصلاة وهو كما ترى.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في المعاني، بإسناده عن الحسين بن سعيد عن أبي الحسن عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ قال: حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنون سجدا، وتدمج أصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود.

ب. وفيه، بإسناده عن عبيد بن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز

وجل: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ﴾ قال: كشف إزاره عن ساقه فقال: سبحان ربي الأعلى.

• أقول: قال الصدوق بعد نقل الحديث: قوله: (سبحان ربي الأعلى تنزيه الله سبحانه أن يكون له ساق)، وفي هذا المعنى رواية أخرى عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام.

ج. وفيه، بإسناده عن معلى بن خنيس قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما يعني بقوله: ﴿وَقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سالِمُونَ﴾ قال: وهم مستطيعون.

د. أخرج البخاري وابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد: سمعت النبي ﷺ يقول: يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا.

هـ. أخرج ابن مندة في الرد على الجهمية عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ﴾ قال: يكشف الله عن ساقه.

و. أخرج إسحاق بن راهويه في مسنده وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا والطبراني والآجري في الشريعة والدارقطني في الرؤية والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: يجمع الله الناس يوم القيامة، وينزل الله في ظلل من الغمام فينادي مناديا، أيها الناس ألم ترضوا من ربكم [الذي] خلقكم وصوركم ورزقكم، أن يولي كل إنسان منكم ما كان يعبد في الدنيا ويتولى؟ أليس ذلك من ربكم عدلا؟ قالوا: بلى، قال: فينطلق كل إنسان منكم، إلى ما كان يعبد في الدنيا، ويتمثل لهم ما كانوا يعبدون في الدنيا، فيتمثل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى، ويتمثل لمن كان يعبد عزيزا شيطان عزيز، حتى يمثل لهم الشجرة والعود والحجر، ويبقى أهل الإسلام جثوما، فيتمثل لهم الرب عز وجل فيقول لهم: ما لكم لم تنطلقوا كما انطلق الناس؟ فيقولون: إن لنا ربا ما رأيناه بعد فيقول: فبم تعرفون ربكم إن رأيتموه؟ قالوا: بيننا وبينه علامة إن رأيناه عرفناه؟ قال: وما هي؟ قالوا: يكشف عن ساق، فيكشف عند ذلك عن ساق، فيخر كل من كان يسجد طائعا ساجدا، ويبقى قوم ظهورهم كصياصي البقر، يريدون السجود فلا يستطيعون، الحديث.

• أقول: والروايات الثلاث مبنية على التشبيه المخالف للبراهين العقلية ونص الكتاب العزيز فهي مطروحة أو مؤولة.

١١. استدراج المكذبين وإمهالهم حتى يلقوا كيد الله:

المقطع [١١] من سورة القلم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤ـ٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٨٦»:

١. ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ﴾ المراد بهذا الحديث القرآن الكريم وقوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ﴾، كناية عن أنه يكفيهم وحده وهو غير تاركهم وفيه نوع تسلية للنبي ﷺ وتهديد للمشركين.

٢. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾:

أ. استئناف فيه بيان كيفية أخذه تعالى لهم وتعذيبه إياهم المفهوم من قوله: ﴿فَذَرْنِي﴾

ب. والاستدراج هو استنزالهم درجة فدرجة حتى يتم لهم الشقاء فيقعوا في ورطة الهلاك وذلك بأن يؤتيهم الله نعمة بعد نعمة وكلما أوتوا نعمة اشتغلوا بها وفرطوا في شكرها وزادوا نسيانا له وابتعدوا عن ذكره.

ج. فالاستدراج إيتاؤهم النعمة بعد النعمة الموجب لنزولهم درجة بعد درجة واقترابهم من ورطة الهلاك، وكونه من حيث لا يعلمون إنما هو لكونه من طريق النعمة التي يحسبونها خيرا وسعادة لا شر فيها ولا شقاء.

٣. ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾:

أ. الإملاء الإمهال، والكيد ضرب من الاحتيال، والمتين القوي.

ب. والمعنى: وأمهلهم حتى يتوسعوا في نعمنا بالمعاصي كما يشاءون إن كيدي قوي.

ج. والنكتة في الالتفات الذي في ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ عن التكلم وحده إلى التكلم مع الغير الدالة على العظمة وأن هناك موكلين على هذه النعم التي تصب عليهم صبا، والالتفات في قوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ عن التكلم مع الغير إلى التكلم وحده لأن الإملاء تأخير في الأجل ولم ينسب أمر الأجل في القرآن إلى غير الله سبحانه قال تعالى: ﴿ثُمَّ قضى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الأنعام: ٢]

٤. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن سفيان بن السمط قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إن الله إذا أراد بعبد خيرا فأذنب ذنبا أتبعه بنقمة، وذكره الاستغفار، فإذا أراد بعبد شرا فأذنب ذنبا أتبعه

بنعمة، لينسيه الاستغفار ويتمادى بها، وهو قول الله عز وجل: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ بالنعم والمعاصي.

• أقول: وقد تقدم بعض روايات الاستدراج في ذيل قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾

١٢. دعوة المعاندين للتفكر فيما جاء به النبي وهل يسأل عنه أجراً:

المقطع [١٢] من سورة القلم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [القلم: ٤٦ـ٤٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٨٦»:

١. ﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾:

أ. المغرم الغرامة، والإثقال تحميل الثقل، والجملة معطوفة على قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ﴾

ب. والمعنى: أم تسأل هؤلاء المجرمين، الذين يحكمون بتساوي المجرمين والمسلمين يوم القيامة، أجرا على دعوتك فهم من غرامة تحملها عليهم مثقلون فيواجهونك بمثل هذا القول تخلصا من الغرامة دون أن يكون ذلك منهم قولا جديا.

٢. ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾:

أ. ظاهر السياق أن يكون المراد بالغيب غيب الأشياء الذي منه تنزل الأمور بقدر محدود فتستقر في منصة الظهور، والمراد بالكتابة على هذا هو التقدير والقضاء، والمراد بكون الغيب عندهم تسلطهم عليه وملكهم له.

ب. فالمعنى: أم بيدهم أمر القدر والقضاء فهم يقضون كما شاءوا فيقضون لأنفسهم أن يساووا المسلمين يوم القيامة.

ج. وقيل: المراد بكون الغيب عندهم علمهم بصحة ما حكموا به والكتابة على ظاهر معناه والمعنى: أم عندهم علم بصحة ما يدعونه اختصوا به ولا يعلمه غيرهم فهم يكتبونه ويتوارثونه وينبغي أن يبرزوه.

• وهو بعيد بل مستدرك والاحتمالات الأخر المذكورة مغنية عنه.

د. وإنما أخر ذكر هذا الاحتمال عن غيره حتى عن قوله: ﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً﴾ مع أن مقتضى الظاهر

أن يتقدم عليه، لكونه أضعف الاحتمالات وأبعدها.

١٣. الصبر لأمر الله وعدم التشبه بصاحب الحوت:

المقطع [١٣] من سورة القلم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: ٤٨ـ٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٨٧»:

١. ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾:

أ. صاحب الحوت يونس النبي عليه السلام والمكظوم من كظم الغيظ إذا تجرعه ولذا فسر بالمختنق بالغم حيث لا يجد لغيظه شفاء، ونهيه ﷺ عن أن يكون كيونس عليه السلام وهو في زمن النداء مملوء بالغم نهي عن السبب المؤدي إلى نظير هذا الابتلاء وهو ضيق الصدر والاستعجال بالعذاب.

ب. والمعنى: فاصبر لقاء ربك أن يستدرجهم ويملئ لهم ولا تستعجل لهم العذاب لكفرهم ولا تكن كيونس فتكون مثله وهو مملوء غما أو غيظا ينادي بالتسبيح والاعتراف بالظلم أي فاصبر واحذر أن تبتلي بما يشبه ابتلاءه، ونداؤه قوله في بطن الحوت: ﴿لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ كما في سورة الأنبياء.

ج. وقيل: اللام في ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بمعنى إلى وفيه تهديد لقومه ووعيد لهم أن سيحكم الله بينه وبينهم، والوجه المتقدم أنسب لسياق الآيات السابقة.

٢. ﴿لَوْلا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾:

أ. في مقام التعليل للنهي السابق: ﴿لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ﴾ والتدارك الإدراك واللحوق، وفسرت النعمة بقبول التوبة، والنبذ الطرح، والعراء الأرض غير المستورة بسقف أو نبات، والذم مقابل المدح.

ب. والمعنى: لولا أن أدركته ولحقت به نعمة من ربه وهو أن الله قبل توبته لطرح بالأرض العراء وهو مذموم بما فعل.

ج. سؤال وإشكال: لا يقال: إن الآية تنافي قوله تعالى: ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٤]، فإن مدلوله أن مقتضى عمله أن يلبث في بطنه إلى يوم القيامة ومقتضى

هذه الآية أن مقتضاه أن يطرح في الأرض العراء مذموما وهما تبعتان متنافيتان لا تجتمعان، والجواب:

• فإنه يقال: الآيتان تحكيان عن مقتضيين مختلفين لكل منهما أثر على حدة فآية الصافات تذكر أنه عليه السلام كان مداوما للتسبيح مستمرا عليه طول حياته قبل ابتلائه، وهو قوله: كان من المسبحين، ولولا ذلك للبث في بطنه إلى يوم القيامة، والآية التي نحن فيها تدل على أن النعمة وهو قبول توبته في بطن الحوت شملته فلم ينبذ بالعراء مذموما.

• فمجموع الآيتين يدل على أن ذهابه مغاضبا كان يقتضي أن يلبث في بطنه إلى يوم القيامة فمنع عنه دوام تسبيحه قبل التقامه وبعده، وقدر أن ينبذ بالعراء وكان مقتضى عمله أن ينبذ مذموما فمنع من ذلك تدارك نعمة ربه له فنبذ غير مذموم بل اجتباه الله وجعله من الصالحين فلا منافاة بين الآيتين.

د. وقد تكرر في مباحثنا السابقة أن حقيقة النعمة الولاية وعلى ذلك يتعين لقوله: ﴿لَوْلا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ معنى آخر.

٣. ﴿فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ تقدم توضيح معنى الاجتباء والصلاح في مباحثنا المتقدمة.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: يقول: مغموم.

ب. وفيه: في قوله تعالى: ﴿لَوْلا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قال: النعمة الرحمة.

ج. وفيه: في قوله تعالى: ﴿لَنُبِذَ بِالْعَراءِ﴾ قال: الموضع الذي لا سقف له.

١٤. إزلاق الكفار بأبصارهم واتهامهم النبي بالجنون:

المقطع [١٤] من سورة القلم، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥١-٥٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٨٨»:

١. ﴿وَإِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾:

أ. إن مخففة من الثقيلة، والزلق هو الزلل، والإزلاق الإزلال وهو الصرع كناية عن القتل

والإهلاك.

ب. والمعنى: أنه قارب الذين كفروا أن يصرعوك بأبصارهم لما سمعوا الذكر.

ج. والمراد بإزلاقه بالأبصار وصرعة بها، على ما عليه عامة المفسرين، الإصابة بالأعين، وهو نوع من التأثير النفساني لا دليل على نفيه عقلا وربما شوهد من الموارد ما يقبل الانطباق عليه، وقد وردت في الروايات فلا موجب لإنكاره.

د. وقيل: المعنى أنهم ينظرون إليك إذا سمعوا منك الذكر الذي هو القرآن نظرا مليئا بالعداوة والبغضاء يكادون يقتلونك بحديد نظرهم.

٢. ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾:

أ. رميهم له بالجنون عند ما سمعوا الذكر دليل على أن مرادهم به رمي القرآن بأنه من إلقاء الشياطين، ولذا رد قولهم بأن القرآن ليس إلا ذكرا للعالمين.

ب. وقد رد قولهم: ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ في أول السورة بقوله: ﴿ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ وبه ينطبق خاتمة السورة على فاتحتها.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج البخاري عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: العين حق.

ب. أخرج أبو نعيم في الحلية عن جابر أن النبي ﷺ قال: العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر.

• أقول: وهناك روايات تطبق الآيات السابقة على الولاية وهي من الجري دون التفسير ولذلك لم نوردها.

سورة الحاقة

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٢] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. السورة تذكر الحاقة وهي القيامة، وقد سمتها أيضاً بالقارعة والواقعة.

ب. وقد ساقت الكلام فيها في فصول ثلاثة:

- فصل تذكر فيه إجمالاً الأمم الذين كذبوا بها فأخذهم الله أخذة رابية.
- وفصل تصف فيه الحاقة وانقسام الناس فيها إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، واختلاف حالهم بالسعادة والشقاء.
- وفصل تؤكد فيه صدق القرآن في إنبائه بها، وأنه حق اليقين.

ج. والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٢] تذكر فيه إجمالاً الأمم الذين كذبوا بها فأخذهم الله أخذة رابية.

٢. الآيات [١٣ ـ ٣٧] هذا هو الفصل الثاني من الآيات، يعرف الحاقة ببعض أشراطها ونبذة مما يقع فيها.

٣. الآيات [٣٨ـ ٥٢] هذا هو الفصل الثالث من آيات السورة، يؤكد ما تقدم من أمر الحاقة بلسان تصديق القرآن الكريم، ليثبت بذلك حقية ما أنبأ به من أمر القيامة.

١. التساؤل عن الحاقة وعظمتها وخطرها:

المقطع [١] من سورة الحاقّة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ـ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٩٢»:

١. ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾:

أ. المراد بالحاقة القيامة الكبرى سميت بها لثبوتها ثبوتا لا مرد له ولا ريب فيه، من حق الشيء بمعنى ثبت وتقرر تقررا واقعيا.

ب. ﴿مَا﴾ في ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ استفهامية تفيد تفخيم أمرها، ولذلك بعينه وضع الظاهر موضع الضمير ولم يقل: ما هي، والجملة الاستفهامية خبر الحاقة.

ج. فقوله: ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ﴾ مسوق لتفخيم أمر القيامة يفيد تفخيم أمرها وإعظام حقيقتها إفادة بعد إفادة.

٢. ﴿وما أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ خطاب بنفي العلم بحقيقة اليوم وهذا التعبير كناية عن كمال أهمية الشيء وبلوغه الغاية في الفخامة ولعل هذا هو المراد مما نقل عن ابن عباس: أن ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿ما أَدْرَاكَ﴾ فقد أدراه وما فيه من قوله: ﴿ما يُدْرِيكَ﴾ فقد طوى عنه، يعني أن ﴿ما أَدْرَاكَ﴾ كناية و﴿ما يُدْرِيكَ﴾ تصريح.

٢. تكذيب ثمود وعاد بالقارعة وإهلاكهم:

المقطع [٢] من سورة الحاقّة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٤ـ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٩٢»:

١. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾:

أ. المراد بالقارعة القيامة وسميت بها لأنها تقرع وتدك السماوات والأرض بتبديلها والجبال بتسييرها والشمس بتكويرها والقمر بخسفها والكواكب بنثرها والأشياء كلها بقهرها على ما نطقت به الآيات، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: كذبت ثمود وعاد بها فوضع القارعة موضع الضمير لتأكيد تفخيم أمرها.

ب. وهذه الآية وما يتلوها إلى تمام تسع آيات وإن كانت مسوقة للإشارة إلى إجمال قصص قوم نوح وعاد وثمود وفرعون ومن قبله والمؤتفكات وإهلاكهم لكنها في الحقيقة بيان للحاقه ببعض أوصافها وهو أن الله أهلك أمما كثيرة بالتكذيب بها فهي في الحقيقة جواب للسؤال بما الاستفهامية كما أن قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾، جواب آخر.

ج. ومحصل المعنى: هي القارعة التي كذبت بها ثمود وعاد وفرعون ومن قبله والمؤتفكات وقوم

نوح فأخذهم الله أخذة رابية وأهلكهم بعذاب الاستئصال.

٢. ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾:

أ. بيان تفصيلي لأثر تكذيبهم بالقارعة، والمراد بالطاغية الصيحة أو الرجفة أو الصاعقة على اختلاف ظاهر تعبير القرآن في سبب هلاكهم في قصتهم قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧]، وقال أيضا: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٨٧]، وقال أيضا: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧]

ب. وقيل: الطاغية مصدر كالطغيان والطغوى والمعنى: فأما ثمود فأهلكوا بسبب طغيانهم، ويؤيده قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها﴾ [الشمس: ١١]

ج. وأول الوجهين أنسب لسياق الآيات التالية حيث سيقت لبيان كيفية إهلاكهم من الإهلاك بالريح أو الأخذ الرابي أو طغيان الماء فليكن هلاك ثمود بالطاغية ناظرا إلى كيفية إهلاكهم.

٣. ﴿وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ﴾ الصرصر الريح الباردة الشديدة الهبوب، وعاتية من العتو بمعنى الطغيان والابتعاد من الطاعة والملاءمة.

٤. ﴿سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ﴾ تسخيرها عليهم تسليطها عليهم، والحسوم جمع حاسم كشهود جمع شاهد من الحسم بمعنى تكرار الكي مرات متتالية، وهي صفة لسبع أي سبع ليال وثمانية أيام متتالية متتابعة وصرعى جمع صريع وأعجاز جمع عجز بالفتح فالضم آخر الشيء، وخاوية الخالية الجوف الملقاة والمعنى ظاهر.

٥. ﴿فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ﴾ أي من نفس باقية، والجملة كناية عن استيعاب الهلاك لهم جميعا، وقيل: الباقية مصدر بمعنى البقاء وقد أريد به البقية وما قدمناه من المعنى أقرب.

٣. مجيء فرعون والمؤتفكات بالخاطئة:

المقطع [٣] من سورة الحاقّة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ [الحاقة: ٩ـ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٩٣»:

١. ﴿وَجاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ﴾ المراد بفرعون فرعون موسى، وبمن قبله

الأمم المتقدمة عليه زمانا من المكذبين، وبالمؤتفكات قرى قوم لوط والجماعة القاطنة بها، و(خاطئة) مصدر بمعنى الخطاء والمراد بالمجيء بالخاطئة إخطاء طريق العبودية، والباقي ظاهر.

٢. ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً﴾ ضمير ﴿فَعَصَوْا﴾ لفرعون ومن قبله والمؤتفكات، والمراد بالرسول جنسه، والرابية الزائدة من ربا يربو ربوة إذا زاد، والمراد بالأخذة الرابية العقوبة الشديدة وقيل: العقوبة الزائدة على سائر العقوبات وقيل: الخارقة للعادة.

٤. حمل البشر في الجارية عند طغيان الماء وجعلها تذكرة:

المقطع [٤] من سورة الحاقّة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١ـ١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٩٤»:

١. ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ﴾ إشارة إلى طوفان نوح والجارية السفينة، وعد المخاطبين محمولين في سفينة نوح والمحمول في الحقيقة أسلافهم لكون الجميع نوعا واحدا ينسب حال البعض منه إلى الكل والباقي ظاهر.

٢. ﴿لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ﴾ تعليل لحملهم في السفينة فضمير ﴿لِنَجْعَلَها﴾ للحمل باعتبار أنه فعله أي فعلنا بكم تلك الفعلة لنجعلها لكم أمرا تتذكرون به وعبرة تعتبرون بها وموعظة تتعظون بها.

٣. ﴿وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ﴾:

أ. الوعي جعل الشيء في الوعاء، والمراد بوعي الأذن لها تقريرها في النفس وحفظها فيها لترتب عليها فائدتها وهي التذكر والاتعاظ.

ب. وفي الآية بجملتيها إشارة إلى الهداية الربوبية بكلا قسميها أعني الهداية بمعنى إراءة الطريق والهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب.

ج. توضيح ذلك أن من السنة الربوبية العامة الجارية في الكون هداية كل نوع من أنواع الخليقة إلى كماله اللائق به بحسب وجوده الخاص بتجهيزه بما يسوقه نحو غايته كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾ [طه: ٥٠]، وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى﴾ [الأعلى: ٣]، وقد تقدم توضيح ذلك في تفسير سورتي طه والأعلى وغيرهما.

د. والإنسان يشارك سائر الأنواع المادية في أن له استكمالا تكوينيا وسلوكا وجوديا نحو كماله الوجودي بالهداية الربوبية التي تسوقه نحو غايته المطلوبة ويختص من بينها بالاستكمال التشريعي فإن للنفس الإنسانية استكمالا من طريق أفعالها الاختيارية بما يلحقها من الأوصاف والنعوت وتتلبس به من الملكات والأحوال في الحياة الدنيا وهي غاية وجود الإنسان التي تعيش بها عيشة سعيدة مؤبدة.

هـ. وهذا هو السبب الداعي إلى تشريع السنة الدينية بإرسال الرسل وإنزال الكتب والهداية إليها ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقد تقدم تفصيله في أبحاث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب وغيره، وهذه هداية بمعنى إراءة الطريق وإعلام الصراط المستقيم الذي لا يسع الإنسان إلا أن يسلكه، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [الدهر: ٣]، فإن لزم الصراط وسلكه حي بحياة طيبة سعيدة وإن تركه وأعرض عنه هلك بشقاء دائم وتمت عليه الحجة على أي حال، قال تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]

و. إذا تقرر هذا تبين أن من سنة الربوبية هداية الناس إلى سعادة حياتهم بإراءة الطريق الموصل إليها، وإليها الإشارة بقوله: ﴿لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ فإن التذكرة لا تستوجب التذكر ممن ذكر بها بل ربما أثرت وربما تخلفت.

ز. ومن سنة الربوبية هداية الأشياء إلى كمالاتها بمعنى إنهائها وإيصالها إليها بتحريكها وسوقها نحوه، وإليها الإشارة بقوله: ﴿وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ﴾ فإن الوعي المذكور من مصاديق الاهتداء بالهداية الربوبية وإنما لم ينسب تعالى الوعي إلى نفسه كما نسب التذكرة إلى نفسه لأن المطلوب بالتذكرة إتمام الحجة وهو من الله وأما الوعي فإنه وإن كان منسوبا إليه كما أنه منسوب إلى الإنسان لكن السياق سياق الدعوة وبيان الأجر والمثوبة على إجابة الدعوة والأجر والمثوبة من آثار الوعي بما أنه فعل للإنسان منسوب إليه لا بما أنه منسوب إلى الله تعالى.

ح. ويظهر من الآية الكريمة أن للحوادث الخارجية تأثيرا في أعمال الإنسان كما يظهر من مثل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] أن لأعمال الإنسان تأثيرا في الحوادث الخارجية وقد تقدم بعض الكلام فيه.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن المنذر عن ابن جريح في قوله: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ قال: لأمة محمد ﷺ، وكم من سفينة قد هلكت وأثر قد ذهب، يعني ما بقي من السفينة حتى أدركته أمة محمد ﷺ، فرأوه كانت ألواحها ترى على الجودي.

• أقول: وتقدم ما يؤيد ذلك في قصة نوح في تفسير سورة هود.

ب. أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن مكحول قال: لما نزلت ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ واعِيَةٌ﴾ قال رسول الله ﷺ: سألت ربي أن يجعلها أذن علي، قال مكحول: فكان علي يقول: ما سمعت عن رسول الله شيئا فنسيته.

ج. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والواحدي وابن مردويه وابن عساكر وابن النجاري عن بردة قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: إن الله أمرني أن أدنيك، ولا أقصيك وأن أعلمك وأن تعي وحق لك أن تعي، فنزلت هذه الآية ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ واعِيَةٌ﴾

د. أخرج أبو نعيم في الحلية عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: يا علي إن الله أمرني أن أدنيك وأعلمك لتعي، فأنزلت هذه الآية ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ واعِيَةٌ﴾ فأنت أذن واعية لعلمي.

• أقول: وروي هذا المعنى في تفسير البرهان، عن سعد بن عبد الله بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام، وعن الكليني بإسناده عنه عليه السلام، وعن ابن بابويه بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام.

• ورواه أيضا عن ابن شهرآشوب عن حلية الأولياء عن عمر بن علي، وعن الواحدي في أسباب النزول عن بريدة، وعن أبي القاسم بن حبيب في تفسيره عن زر بن حبيش عن علي عليه السلام.

• وقد روي في غاية المرام، من طرق الفريقين ستة عشر حديثا في ذلك وقال في البرهان إن محمد بن العباس روى فيه ثلاثين حديثا من طرق العامة والخاصة.

٥. نفخة الصور ودك الأرض والجبال ووقوع الواقعة:

المقطع [٥] من سورة الحاقّة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:

١٣-١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٩٧»:

١. ﴿فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ﴾ قد تقدم أن النفخ في الصور كناية عن البعث والإحضار لفصل القضاء، وفي توصيف النفخة بالواحدة إشارة إلى مضي الأمر ونفوذ القدرة فلا وهن فيه حتى يحتاج إلى تكرار النفخة، والذي يسبق إلى الفهم من سياق الآيات أنها النفخة الثانية التي تحيي الموتى.

٢. ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً﴾ الدك أشد الدق وهو كسر الشيء وتبديله إلى أجزاء صغار، وحمل الأرض والجبال إحاطة القدرة بها، وتوصيف الدكة بالواحدة للإشارة إلى سرعة تفتتهما بحيث لا يفتقر إلى دكة ثانية.

٣. ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ﴾ أي قامت القيامة.

٤. ﴿وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ﴾:

أ. انشقاق الشيء انفصال شطر منه من شطر آخر، وواهية من الوهي بمعنى الضعف، وقيل: من الوهي بمعنى شق الأديم والثوب ونحوهما.

ب. ويمكن أن تكون الآية أعني قوله: ﴿وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ وَالْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها﴾ في معنى قوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٥]

٥. ﴿وَالْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ﴾:

أ. قال الراغب: (رجا البئر والسماء وغيرهما جانبها والجمع أرجاء قال تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها﴾)

ب. والملك، كما قيل، يطلق على الواحد والجمع والمراد به في الآية الجمع.

٦. ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ﴾:

أ. ضمير ﴿فَوْقَهُمْ﴾ على ظاهر ما يقتضيه السياق للملائكة، وقيل: الضمير للخلائق.

ب. وظاهر كلامه أن للعرش اليوم حملة من الملائكة قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [٧] وقد وردت الروايات أنهم أربعة، وظاهر الآية أعني قوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ﴾ أن الحملة يوم القيامة ثمانية وهل هم من الملائكة أو من غيرهم؟ الآية ساكتة عن ذلك وإن كان لا يخلو السياق من إشعار ما بأنهم من الملائكة.

ج. ومن الممكن، كما تقدمت الإشارة إليه، أن يكون الغرض من ذكر انشقاق السماء وكون الملائكة على أرجائها وكون حملة العرش يومئذ ثمانية بيان ظهور الملائكة والسماء والعرش للإنسان يومئذ، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥]

٧. ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ﴾:

أ. الظاهر أن المراد به العرض على الله كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨]، والعرض إراءة البائع سلعته للمشتري ببسطها بين يديه، فالعرض يومئذ على الله وهو يوم القضاء إبراز ما عند الإنسان من اعتقاد وعمل إبرازا لا يخفى معه عقيدة خافية ولا فعلة خافية وذلك بتبدل الغيب شهادة والسر علنا قال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، وقال: ﴿يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [١٦]

ب. وقد تقدم في أبحاثنا السابقة أن ما عد في كلامه تعالى من خصائص يوم القيامة كاختصاص الملك بالله، وكون الأمر له، وأن لا عاصم منه، وبروز الخلق له وعدم خفاء شيء منهم عليه وغير ذلك، كل ذلك دائمية الثبوت له تعالى، وإنما المراد ظهور هذه الحقائق يومئذ ظهورا لا ستر عليه ولا مرية فيه.

ج. فالمعنى: يومئذ يظهر أنكم في معرض على علم الله ويظهر كل فعلة خافية من أفعالكم.

٨. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: يحمله اليوم أربعة ويوم القيامة ثمانية.

• أقول: وفي تقييد الحاملين في الآية بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إشعار بل ظهور في اختصاص العدد بالقيامة.

ب. وفي تفسير القمي، وفي حديث آخر قال: حمله ثمانية أربعة من الأولين وأربعة من الآخرين، فأما الأربعة من الأولين فنوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وأما الأربعة من الآخرين فمحمد وعلي، والحسن والحسين عليه السلام.

• أقول: وفي غير واحد من الروايات أن الثمانية مخصوصة بيوم القيامة، وفي بعضها أن حملة العرش، والعرش العلم، أربعة منا وأربعة ممن شاء الله.

٦. فرحة من أوتي كتابه بيمينه على نجاته وفوزه:

المقطع [٦] من سورة الحاقّة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ

اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ١٩ـ٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٣٩٩»:

١. ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ﴾:

أ. قال في المجمع: (هاؤم أمر للجماعة بمنزلة هاكم، تقول للواحد: هاء يا رجل، وللاثنين: هاؤما يا رجلان، وللجماعة: هاؤم يا رجال، وللمرأة: هاء يا امرأة بكسر الهمزة وليس بعدها ياء، وللمرأتين: هاؤما، وللنساء: هاؤن، هذه لغة أهل الحجاز، وتميم وقيس يقولون: هاء يا رجل مثل قول أهل الحجاز، وللاثنين: هاءا، وللجماعة: هاؤا، وللمرأة: هائي، وللنساء هاؤن، وبعض العرب يجعل مكان الهمزة كافا فيقول: هاك هاكما هاكم هاك هاكما هاكن، ومعناه: خذ وتناول، ويؤمر بها ولا ينهى)

ب. والآية وما بعدها إلى قوله: ﴿الْخاطِؤُنَ﴾ بيان تفصيلي لاختلاف حال الناس يومئذ من حيث السعادة والشقاء، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [إسراء: ٧١] كلام في معنى إعطاء الكتاب باليمين، والظاهر أن قوله: ﴿هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ﴾ خطاب للملائكة، والهاء في ﴿كِتابِيَهْ﴾ وكذا في أواخر الآيات التالية للوقف وتسمى هاء الاستراحة.

ج. والمعنى: فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول للملائكة: خذوا واقرءوا كتابيه أي إنها كتاب يقضي بسعادتي.

٢. ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ﴾ الظن بمعنى اليقين، والآية تعليل لما يتحصل من الآية السابقة ومحصل التعليل إنما كان كتابي كتاب اليمين وقاضيا بسعادتي لأني أيقنت في الدنيا أني سألاقي حسابي فآمنت بربي وأصلحت عملي.

٣. ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ﴾ أي يعيش عيشة يرضاها فنسبة الرضا إلى العيشة من المجاز العقلي.

٤. ﴿فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ﴾ أي هو في جنة عالية قدرا فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

٥. ﴿قُطُوفُها دانِيَةٌ﴾ القطوف جمع قطف بالكسر فالسكون وهو ما يجتنى من الثمر والمعنى: أثمارها قريبة منه يتناوله كيف يشاء.

٦. ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ﴾ أي يقال لهم: كلوا واشربوا من جميع ما

يؤكل فيها وما يشرب حال كونه هنيئا لكم بما قدمتم من الإيمان والعمل الصالح في الدنيا التي تقضت أيامها.

٧. أحاديث وآثار: في تفسير العياشي، عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنه إذا كان يوم القيامة يدعى كل أناس بإمامه، الذي مات في عصره، فإن أثبته أعطي كتابه بيمينه لقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ﴾ فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم، واليمين إثبات الإمام لأنه كتابه يقرؤه، إلى أن قال، ومن أنكر كان من أصحاب الشمال، الذين قال الله: ﴿وَأَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ، فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾

• أقول: وفي عدة من الروايات تطبيق قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ﴾، على علي عليه السلام، وفي بعضها عليه وعلى شيعته، وكذا تطبيق قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ﴾، على أعدائه، وهي من الجري دون التفسير.

٧. حسرة من أوتي كتابه بشماله على هلاكه:

المقطع [٧] من سورة الحاقّة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٤٠٠»:

١. ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ﴾ وهؤلاء هم الطائفة الثانية وهم الأشقياء المجرمون يؤتون صحيفة أعمالهم بشمالهم وقد مر الكلام في معناه في سورة الإسراء، وهؤلاء يتمنون أن لو لم يكونوا يؤتون كتابهم ويدرون ما حسابهم يتمنون ذلك لما يشاهدون من أليم العذاب المعد لهم.

٢. ﴿يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ﴾ ذكروا أن ضمير ﴿لَيْتَها﴾ للموتة الأولى التي ذاقها الإنسان في الدنيا، والمعنى: يا ليت الموتة الأولى التي ذقتها كانت قاضية علي تقضي بعدمي فكنت انعدمت ولم أبعث حيا فأقع في ورطة العذاب الخالد وأشاهد ما أشاهد.

٣. ﴿ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ﴾ كلمتا تحسر يقولها حيث يرى خيبة سعيه في الدنيا فإنه كان يحسب أن مفتاح سعادته في الحياة هو المال والسلطان يدفعان عنه كل مكروه ويسلطانه على كل

ما يحب ويرضى فبذل كل جهده في تحصيلها وأعرض عن ربه وعن كل حق يدعى إليه وكذب داعيه فلما شاهد تقطع الأسباب وأنه في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ذكر عدم نفع ماله وبطلان سلطانه تحسرا وتوجعا وما ذا ينفع التحسر،؟

٨. أمر الملائكة بتقييد من أوتي كتابه بشماله:

المقطع [٨] من سورة الحاقّة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٠ـ٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٤٠٠»:

١. ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾، إلى قوله: ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ حكاية أمره تعالى الملائكة بأخذه وإدخاله النار، والتقدير يقال للملائكة خذوه.، و﴿فَغُلُّوهُ﴾ أمر من الغل بالفتح وهو الشد بالغل الذي يجمع بين اليد والرجل والعنق.

٢. ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي أدخلوه النار العظيمة وألزموه إياها.

٣. ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ﴾ السلسلة القيد، والذرع الطول، والذراع بعد ما بين المرفق ورأس الأصابع وهو واحد الطول وسلوكه فيه جعله فيه، والمحصل ثم اجعلوه في قيد طوله سبعون ذراعا.

٤. ﴿إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ﴾ الحض التحريض والترغيب، والآيتان في مقام التعليل للأمر بالأخذ والإدخال في النار أي إن الأخذ ثم التصلية في الجحيم والسلوك في السلسلة لأجل أنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين أي يساهل في أمر المساكين ولا يبالي بما يقاسونه.

٥. أحاديث وآثار: في تفسير البرهان، عن ابن بابويه في الدروع الواقية في حديث عن النبي ﷺ: ولو أن ذراعا من السلسلة التي ذكرها الله في كتابه، وضع على جميع جبال الدنيا لذابت عن حرها.

٩. لا حميم لمن أوتي كتابه بشماله ولا طعام إلا من غسلين:

المقطع [٩] من سورة الحاقّة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: ٣٥ـ٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٤٠١»:

١. ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ﴾، إلى قوله: ﴿الْخاطِؤُنَ﴾ الحميم الصديق والآية تفريع على قوله: ﴿إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ﴾، والمحصل: أنه لما كان لا يؤمن بالله العظيم فليس له اليوم هاهنا صديق ينفعه أي شفيع يشفع له إذ لا مغفرة لكافر فلا شفاعة.

٢. ﴿وَلا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ الغسلين الغسالة وكان المراد به ما يسيل من أبدان أهل النار من قيح ونحوه والآية عطف على قوله في الآية السابقة: ﴿حَمِيمٌ﴾ ومتفرع على قوله: ﴿وَلا يَحُضُ﴾، والمحصل: أنه لما كان لا يحرض على طعام المسكين فليس له اليوم هاهنا طعام إلا من غسلين أهل النار.

٣. ﴿لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخاطِؤُنَ﴾ وصف لغسلين والخاطئون المتلبسون بالخطيئة والإثم.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج الحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: لو أن دلوا من غسلين يهراق في الدنيا لأنتن بأهل الدنيا.

ب. أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن صعصعة بن صوحان قال: جاء أعرابي إلى علي بن أبي طالب فقال: كيف هذا الحرف: لا يأكله إلا الخاطون كل والله يخطو، فتبسم علي وقال: يا أعرابي ﴿لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخاطِؤُنَ﴾ قال: صدقت والله يا أمير المؤمنين، ما كان الله ليسلم عبده، ثم التفت علي إلى أبي الأسود فقال: إن الأعاجم قد دخلت في الدين كافة، فضع للناس شيئا يستدلون به على صلاح ألسنتهم، فرسم لهم الرفع والنصب والخفض.

١٠. القسم على أن القرآن قول رسول كريم:

المقطع [١٠] من سورة الحاقّة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٣٨-٤٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٤٠٣»:

١. ﴿فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ وَما لا تُبْصِرُونَ﴾:

أ. ظاهر الآية أنه إقسام بما هو مشهود لهم وما لا يشاهدون أي الغيب والشهادة فهو إقسام بمجموع الخليقة ولا يشمل ذاته المتعالية فإن من البعيد من أدب القرآن أن يجمع الخالق والخلق في صف واحد ويعظمه تعالى وما صنع تعظيما مشتركا في عرض واحد.

ب. وفي الإقسام نوع تعظيم وتجليل للمقسم به وخلقه تعالى بما أنه خلقه جليل جميل لأنه تعالى جميل لا يصدر منه إلا الجميل وقد استحسن تعالى فعل نفسه وأثنى على نفسه بخلقه في قوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ الم [السجدة: ٧]، وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فليس للموجودات منه تعالى إلا الحسن وما دون ذلك من مساءة فمن أنفسها وبقياس بعضها إلى بعض.

ج. وفي اختيار ما يبصرون وما لا يبصرون للأقسام به على حقية القرآن ما لا يخفى من المناسبة فإن النظام الواحد المتشابك أجزاؤه الجاري في مجموع العالم يقضي بتوحده تعالى ومصير الكل إليه وما يترتب عليه من بعث الرسل وإنزال الكتب والقرآن خير كتاب سماوي يهدي إلى الحق في جميع ذلك وإلى طريق مستقيم.

د. ومما تقدم يظهر عدم استقامة ما قيل: إن المراد بما تبصرون وما لا تبصرون الخلق والخالق فإن السياق لا يساعد عليه، وكذا ما قيل: إن المراد النعم الظاهرة والباطنة، وما قيل: إن المراد الجن والإنس والملائكة أو الأجسام والأرواح أو الدنيا والآخرة أو ما يشاهد من آثار القدرة وما لا يشاهد من أسرارها فاللفظ أعم مدلولا من جميع ذلك.

٢. ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾:

أ. الضمير للقرآن، والمستفاد من السياق أن المراد برسول كريم النبي ﷺ وهو تصديق لرسالته قبال ما كانوا يقولون إنه شاعر أو كاهن.

ب. ولا ضير في نسبة القرآن إلى قوله فإنه إنما ينسب إليه بما أنه رسول والرسول بما أنه رسول لا يأتي إلا بقول مرسلة، وقد بين ذلك فضل بيان بقوله بعد: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾

ج. وقيل: المراد برسول كريم جبريل، والسياق لا يؤيده إذ لو كان هو المراد لكان الأنسب نفي كونه مما نزلت به الشياطين كما فعل في سورة الشعراء.

• على أن قوله بعد: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ﴾ وما يتلوه إنما يناسب كونه ﷺ هو المراد برسول كريم.

٣. ﴿وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ﴾ نفي أن يكون القرآن نظما ألفه شاعر ولم يقل النبي ﷺ شعرا ولم يكن شاعرا.

٤. ﴿قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ﴾ توبيخ لمجتمعهم حيث إن الأكثرين منهم لم يؤمنوا وما آمن به إلا قليل منهم.

٥. ﴿وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ﴾ نفي أن يكون القرآن كهانة والنبي ﷺ كاهنا يأخذ القرآن من الجن وهم يلقونه إليه.

٦. ﴿قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ﴾ توبيخ أيضا لمجتمعهم.

٧. ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ أي منزل من رب العالمين وليس من صنع الرسول نسبه إلى الله كما تقدمت الإشارة إليه.

١١. لو تقوّل النبي على الله لعذّبه:

المقطع [١١] من سورة الحاقّة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ـ٤٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٩/ ٤٠٤»:

١. ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ﴾:

أ. يقال: تقول على فلان أي اختلق قولا من نفسه ونسبه إليه، والوتين، على ما ذكره الراغب، عرق يسقي الكبد وإذا انقطع مات صاحبه، وقيل: هو رباط القلب.

ب. والمعنى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا﴾ هذا الرسول الكريم الذي حملناه رسالتنا وأرسلناه إليكم بقرآن نزلناه عليه واختلق ﴿بَعْضَ الْأَقاوِيلِ﴾ ونسبه إلينا ﴿لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ كما يقبض على المجرم فيؤخذ بيده أو المراد قطعنا منه يده اليمنى أو المراد لانتقمنا منه بالقوة كما في رواية القمي ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ وقتلناه لتقوله علينا ﴿فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ﴾ تحجبونه عنا وتنجونه من عقوبتنا وإهلاكنا.

ج. وهذا تهديد للنبي ﷺ على تقدير أن يفتري على الله كذبا وينسب إليه شيئا لم يقله وهو رسول من عنده أكرمه بنبوته واختاره لرسالته.

د. فالآيات في معنى قوله: ﴿وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً﴾ [الإسراء: ٧٥]، وكذا قوله في الأنبياء بعد ذكر نعمه العظمى عليهم: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]

هـ. فلا يرد أن مقتضى الآيات أن كل من ادعى النبوة وافترى على الله الكذب أهلكه الله وعاقبه في الدنيا أشد العقاب وهو منقوض ببعض مدعي النبوة من الكذابين.

و. وذلك أن التهديد في الآية متوجهة إلى الرسول الصادق في رسالته لو تقول على الله ونسب إليه بعض ما ليس منه لا مطلق مدعي النبوة المفتري على الله في دعواه النبوة وإخباره عن الله تعالى.

١٢. القرآن تذكرة وحسرة على الكافرين:

المقطع [١٢] من سورة الحاقّة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٤٨-٥٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١»:

١. ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يذكرهم كرامة تقواهم ومعارف المبدأ والمعاد بحقائقها، ويعرفهم درجاتهم عند الله ومقاماتهم في الآخرة والجنة وما هذا شأنه لا يكون تقولا وافتراء فالآية مسوقة حجة على كون القرآن منزها عن التقول والفرية.

٢. ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ستظهر لهم يوم الحسرة.

٣. ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قد تقدم كلام في نظيرتي الآيتين في آخر سورة الواقعة، والسورتان متحدتان في الغرض وهو وصف يوم القيامة ومتحدتان في سياق خاتمتها وهي الإقسام على حقيقة القرآن المنبئ عن يوم القيامة، وقد ختمت السورتان بكون القرآن وما أنبأ به عن وقوع الواقعة حق اليقين ثم الأمر بتسبيح اسم الرب العظيم المنزه عن خلق العالم باطلا لا معاد فيه وعن أن يبطل المعارف الحقة التي يعطيها القرآن في أمر المبدأ والمعاد.

سورة المعارج

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٤] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. الذي يعطيه سياق السورة أنها تصف يوم القيامة بما أعد فيه من أليم العذاب للكافرين، تبتدئ السورة فتذكر سؤال سائل سأل عذاباً من الله للكافرين، فتشير إلى أنه واقع ليس له دافع، قريب غير بعيد كما يحسبونه، ثم تصف اليوم الذي يقع فيه والعذاب الذي أعد لهم فيه، وتستثني المؤمنين الذين قاموا بوظائف الاعتقاد الحق والعمل الصالح.

ب. وهذا السياق يشبه سياق السور المكية، غير أن المنقول عن بعضهم أن قوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ مدني، والاعتبار يؤيده، لأن ظاهره الزكاة، وقد شرعت بالمدينة بعد الهجرة.

ج. وكون هذه الآية مدنية يستتبع كون الآيات الحافة بها الواقعة تحت الاستثناء وهي أربع عشرة آية (قوله: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾) مدنية، لما في سياقها من الاتحاد واستلزام البعض للبعض.

د. ومدنية هذه الآيات الواقعة تحت الاستثناء تستدعي ما استثنيت منه وهو على الأقل ثلاث آيات: قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾ إلى قوله: ﴿مَنُوعاً﴾

هـ. على أن قوله: ﴿فَما لِلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ متفرع على ما قبله تفرعاً ظاهراً، وهو ما بعده إلى آخر السورة ذو سياق واحد، فتكون هذه الآيات أيضاً مدنية.

و. ومن جهة أخرى مضامين هذا الفصل من الآيات تناسب حال المنافقين الحافين حول النبي ﷺ عن اليمين وعن الشمال عزين، وهم الرادون لبعض ما أنزل الله من الحكم، وخاصة قوله: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ﴾ على ما سيجيء، وموطن ظهور هذا النفاق المدينة لا مكة، ولا ضير في التعبير عن هؤلاء بالذين كفروا، فنظير ذلك موجود في سورة التوبة وغيرها.

ز. على أنهم رووا أن السورة نزلت في قول القائل: ﴿اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقد تقدم في تفسير الآية أن سياقها والتي

بعدها سياق مدني لا مكي.

ح. لكن المروي عن الصادق عليه السلام أن المراد بالحق المعلوم في الآية حق يسميه صاحب المال في ماله غير الزكاة المفروضة.

ط. ولا عبرة بما نسب إلى اتفاق المفسرين أن السورة مكية، على أن الخلاف ظاهر، وكذا ما نسب إلى ابن عباس أنها نزلت بعد سورة الحاقة.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٨] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر سؤال الكافرين عن العذاب الواقع، وتصف يوم القيامة بطوله وشدة أهواله، وتبين أن الإنسان خلق هلوعاً، وتذكر أن أصحاب اليمين في جنات، والكافرين في عذاب.

٢. الآيات [١٩ ـ ٣٥]:

أ. تشير الآيات إلى السبب الأولي الذي يدعو الإنسان إلى رذيلة الإدبار والتولي والجمع والإيعاء التي تؤديه إلى دخول النار الخالدة التي هي لظى نزاعة للشوى، على ما تذكره الآيات.

ب. وذلك السبب صفة الهلع التي اقتضت الحكمة الإلهية أن يخلق الإنسان عليها، ليهتدي بها إلى ما فيه خيره وسعادته، غير أن الإنسان يفسدها على نفسه ويسيء استعمالها في سبيل سعادته، فتسلك به إلى هلكة دائمة، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فهم في جنات مكرمون.

٣. الآيات [٣٦ ـ ٤٢]:

أ. لما ذكر سبحانه في الفصل الأول من آيات السورة في ذيل ما حكى من سؤالهم العذاب، أن لهم عذاباً واقعاً ليس له دافع، وهو النار المتلظية النزاعة للشوى، التي تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى.

ب. ثم بين في الفصل الثاني منها الملاك في ابتلائهم بهذه الشقوة، وهو أن الإنسان مجهز بغريزة الهلع وحب خير نفسه، ويؤديه اتباع الهوى في استعمالها إلى الاستكبار على كل حق يواجهه، فيورده تلك النار الخالدة، ولا ينجو من ذلك إلا الصالحون عملاً المصدقون ليوم الدين، المشفقون من عذاب ربهم.

ج. انعطف في هذا الفصل من الآيات، وهو الفصل الثالث، على أولئك الكفار كالمتعجب من أمرهم، حيث يجتمعون على النبي ﷺ مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين، مقبلين عليه بأبصارهم لا

يفارقونه، فخاطبه ﷺ: ما بالهم يحيطون بك مهطعين عليك يلازمونك؟ هل يريد كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم وهو كافر، وقد قدر الله سبحانه أن لا يكرم بجنته إلا من استثناه من المؤمنين، فهل يريدون أن يسبقوا الله ويعجزوه بنقض ما حكم به وإبطال ما قدره؟ كلا، إن الله الذي خلقهم من نطفة مهينة قادر أن يبدلهم خيراً منهم، ويخلق مما خلقهم منه غيرهم ممن يعبده ويدخل جنته.

د. ثم أمر النبي ﷺ أن يقطع خصامهم ويذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون.

١. سؤال سائل بعذاب واقع:

المقطع [١] من سورة المعارج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ١-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٦»:

١. ﴿سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ﴾:

أ. السؤال بمعنى الطلب والدعاء، ولذا عدي بالباء كما في قوله: ﴿يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥]

ب. وقيل: الفعل مضمن معنى الاهتمام والاعتناء ولذا عدي بالباء.

ج. وقيل: الباء زائدة للتأكيد، ومآل الوجوه واحد وهو طلب العذاب من الله كفرا وعتوا.

د. وقيل: الباء بمعنى عن كما في قوله: ﴿فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ [الفرقان: ٥٩]، وفيه أن كونها في الآية المستشهد بها بمعنى عن ممنوع، على أن سياق الآيات التالية وخاصة قوله: ﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً﴾ لا يلائم كون السؤال بمعنى الاستفسار والاستخبار.

هـ. فالآية تحكي سؤال العذاب وطلبه عن بعض من كفر طغيانا وكفرا، وقد وصف العذاب المسئول من الأوصاف بما يدل على إجابة الدعاء بنوع من التهكم والتحقير وهو قوله: ﴿واقِعٍ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ﴾، والمعنى سأل سائل من الكفار عذابا للكافرين من الله سيصيبهم ويقع عليهم لا محالة ولا دافع له أي أنه واقع عليهم سأل أو لم يسأل ففيه جواب تحقيري وإجابة لمسئوله تهكما.

٢. ﴿لِلْكافِرينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ﴾ للكافرين متعلق بعذاب وصفة له، وكذا قوله: ﴿لَيْسَ لَهُ دافِعٌ﴾

وقد مرت الإشارة إلى معنى الآية.

٣. ﴿مِنَ اللهِ ذِي الْمَعارِجِ﴾:

أ. الجار والمجرور متعلق بقوله: ﴿دافِعٌ﴾ أي ليس له دافع من جانب الله ومن المعلوم أنه لو اندفع لم يندفع إلا من جانب الله سبحانه، ومن المحتمل أن يتعلق بقوله: ﴿بِعَذابٍ﴾

ب. والمعارج جمع معرج وفسروه بالمصاعد وهي الدرجات وهي مقامات الملكوت التي يعرج إليها الملائكة عند رجوعهم إلى الله سبحانه على ما يفسره قوله بعد: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ﴾ فله سبحانه معارج الملكوت ومقاماتها المترتبة علوا وشرفا التي تعرج فيها الملائكة والروح بحسب قربهم من الله وليست بمقامات وهمية اعتبارية.

ج. وقيل: المراد بالمعارج الدرجات التي يصعد فيها الاعتقاد الحق والعمل الصالح قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [الفاطر: ١٠]، وقال: ﴿وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]

د. وقيل: المراد به مقامات القرب التي يعرج إليها المؤمنون بالإيمان والعمل الصالح قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣] وقال: ﴿لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤] وقال: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]

هـ. والحق أن مآل الوجهين إلى الوجه الأول، والدرجات المذكورة حقيقية ليست بالوهمية الاعتبارية.

٤. ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾:

أ. المراد بهذا اليوم يوم القيامة على ما يفيده سياق الآيات التالية.

ب. والمراد بكون مقدار هذا اليوم خمسين ألف سنة على ما ذكروا أنه بحيث لو وقع في الدنيا وانطبق على الزمان الجاري فيها كان مقداره من الزمان خمسين ألف سنة من سني الدنيا.

ج. والمراد بعروج الملائكة والروح إليه يومئذ رجوعهم إليه تعالى عند رجوع الكل إليه فإن يوم القيامة يوم بروز سقوط الوسائط وتقطع الأسباب وارتفاع الروابط بينها وبين مسبباتها والملائكة وسائط موكلة على أمور العالم وحوادث الكون فإذا تقطعت الأسباب عن مسبباتها وزيل الله بينهم ورجع الكل

إلى الله عز اسمه رجعوا إليه وعرجوا معارجهم فحفوا من حول عرش ربهم وصفوا قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥]، وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨]

د. والظاهر أن المراد بالروح الروح الذي هو من أمره تعالى كما قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] وهو غير الملائكة كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل: ٢]

هـ. فلا يعبأ بما قيل: إن المراد بالروح جبرئيل وإن أطلق عليه الروح الأمين وروح القدس في قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٤] وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٣] فإن المقيد غير المطلق.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: (حدثنا السيد أبو الحمد قال: حدثنا الحاكم أبو القاسم الحسكاني وساق السند عن جعفر بن محمد الصادق عن آبائه عليهمالسلام قال: لما نصب رسول الله ﷺ عليا وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، طار ذلك في البلاد، فقدم على النبي ﷺ النعمان بن الحارث الفهري، فقال: أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله وأمرتنا بالجهاد، والحج والصوم والصلاة والزكاة فقبلناها، ثم لم ترض حتى نصبت هذا الغلام، فقلت: من كنت مولاه فعلي مولاه، فهذا شيء منك أو أمر من عند الله؟ فقال: والله الذي لا إله إلا هو أن هذا من الله، فولى النعمان بن الحارث وهو يقول: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء، فرماه الله بحجر على رأسه فقتله، وأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ﴾

• أقول: وهذا المعنى مروي بغير طريق من طرق الشيعة، وقد رد الحديث بعضهم بأنه موضوع لكون سورة المعارج مكية، وقد عرفت الكلام في مكية السورة.

ب. أخرج الفاريابي وعبد بن حميد والنسائي وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿سَأَلَ سائِلٌ﴾ قال هو النضر بن الحارث، قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء.

ج. أخرج ابن أبي حاتم عن السدي: في قوله: ﴿سَأَلَ سائِلٌ﴾ قال، نزلت بمكة في النضر بن الحارث، وقد قال: ﴿اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية، وكان عذابه يوم بدر.

• أقول: وهذا المعنى مروي أيضا عن غير السدي، وفي بعض رواياتهم أن القائل: ﴿اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية هو الحارث بن علقمة رجل من عبد الدار، وفي بعضها أن سائل العذاب هو أبو جهل بن هشام سأله يوم بدر ولازمه مدنية السورة والمعتمد على أي حال نزول السورة بعد قول القائل: ﴿اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية وقد تقدم كلام في سياق الآية.

د. وفي أمالي الشيخ، بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام في حديث: ألا فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، فإن في القيامة خمسين موقفا، كل موقف مثل ألف سنة مما تعدون، ثم تلا هذه الآية ﴿فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾

• أقول: وروي هذا المعنى في روضة الكافي، عن حفص بن غياث عنه عليه السلام.

هـ. وفي المجمع: (روى أبو سعيد الخدري قال: قيل لرسول الله ﷺ: ما أطول هذا اليوم، فقال: والذي نفس محمد بيده، إنه ليخف على المؤمن، حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا.

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن عدة من الجوامع عن أبي سعيد عنه ﷺ.

٢. الأمر بالصبر الجميل:

المقطع [٢] من سورة المعارج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ٥-١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٨»:

١. ﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً﴾ لما كان سؤال السائل للعذاب عن تعنت واستكبار وهو مما يشق تحمله أمر نبيه ﷺ بالصبر ووصفه بالجميل، والجميل من الصبر ما ليس فيه شائبة الجزع والشكوى، وعلله بأن اليوم بما فيه من العذاب قريب.

٢. ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَراهُ قَرِيباً﴾:

أ. ضميرا ﴿يَرَوْنَهُ﴾ و﴿نَراهُ﴾ للعذاب أو ليوم القيامة بما فيه من العذاب الواقع ويؤيد الأول قوله فيما بعد: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ﴾

ب. والمراد بالرؤية الاعتقاد بنوع من العناية المجازية ورؤيتهم ذلك بعيدا ظنهم أنه بعيد من الإمكان فإن سؤال العذاب من الله سبحانه استكبارا عن دينه وردا لحكمه لا يجامع الإيمان بالمعاد وإن تفوه

به السائل، ورؤيته تعالى ذلك قريبا علمه بتحققه وكل ما هو آت قريب.

ج. وفي الآيتين تعليل أمره ﷺ بالصبر الجميل فإن تحمل الأذى والصبر على المكاره يهون على الإنسان إذا استيقن أن الفرج قريب وتذكر ذلك فالكلام في معنى قولنا فاصبر على تعنتهم واستكبارهم في سؤالهم العذاب صبرا جميلا لا يشوبه جزع وشكوى فأنا نعلم أن العذاب قريب على خلاف ما يستبعدونه، وعلمنا لا يتخلف عن الواقع بل هو نفس الواقع.

٣. ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ المهل المذاب من المعدنيات كالنحاس والذهب وغيرهما، دردي الزيت، وقيل: عكر القطران، والظرف متعلق بقوله: ﴿واقِعٍ﴾ على ما يفيده السياق.

٤. ﴿وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ﴾:

أ. العهن مطلق الصوف، ولعل المراد المنفوش منه كما في قوله تعالى: (وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ) [القارعة: ٥]

ب. وقيل: هو الصوف الأحمر.

ج. وقيل: المصبوغ ألوانا لأن الجبال ذات ألوان مختلفة فمنها جدد بيض وحمر وغرابيب سود.

٥. ﴿وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾:

أ. الحميم القريب الذي تهتم بأمره وتشفق عليه.

ب. إشارة إلى شدة اليوم فالإنسان يومئذ تشغله نفسه عن غيره حتى أن الحميم لا يسأل حميمه عن حاله لاشتغاله بنفسه.

٦. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ﴾ قال: الرصاص الذائب والنحاس كذلك تذوب السماء.

٣. تمني المجرم أن يفتدي من العذاب بجميع من في الأرض:

المقطع [٣] من سورة المعارج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ [المعارج: ١١ـ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٩»:

١. ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾:

أ. الضميران للأحماء المعلوم من السياق والتبصير الإراءة والإيضاح أي يرى ويوضح الأحماء للأحماء فلا يسألونهم عن حالهم اشتغالا بأنفسهم.

ب. والجملة مستأنفة في معنى الجواب عن سؤال مقدر كأنه لما قيل: لا يسأل حميم حميما سئل فقيل: هل يرى الأحماء يومئذ أحماءهم؟ فأجيب: يبصرونهم ويمكن أن يكون ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ صفة ﴿حَمِيماً﴾

ج. ومن رديء التفسير قول بعضهم: إن معنى قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يبصر الملائكة الكفار، وما قيل: إن المعنى يبصر المؤمنون أعداءهم من الكفار وما هم فيه من العذاب فيشمتون بهم، وما قيل: إن المعنى يبصر اتباع الضلالة رؤساءهم، وهي جميعا وجوه لا دليل عليها.

٢. ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾:

أ. قال في المجمع: (المودة مشتركة بين التمني وبين المحبة يقال: وددت الشيء أي تمنيته ووددته أي أحببته أود فيهما جميعا)، ويمكن أن يكون استعماله بمعنى التمني من باب التضمين، وقال: والافتداء الضرر عن الشيء ببدل منه)، وقال: (الفصيلة الجماعة المنقطعة عن جملة القبيلة برجوعها إلى أبوة خاصة عن أبوة عامة)، وذكر بعضهم أن الفصيلة عشيرته الأقربين الذين فصل عنهم كالآباء الأدنين.

ب. وسياق هذه الآيات سياق الإضراب والترقي بالنسبة إلى قوله: ﴿وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾ فيفيد أن المجرم يبلغ به شدة العذاب إلى أن يتمنى أن يفتدي من العذاب بأحب أقاربه وأكرمهم عليه بنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته وجميع من في الأرض ثم ينجيه الافتداء فيود ذلك فضلا عن عدم سؤاله عن حال حميمه.

ج. والمعنى ﴿يَوَدُّ﴾ ويتمنى ﴿الْمُجْرِمُ﴾ وهو المتلبس بالأجرام أعم من الكافر ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ﴾ وهذا هو الذي يتمناه، والجملة قائمة مقام مفعول يود، ﴿بِبَنِيهِ﴾ الذين هم أحب الناس عنده ﴿وَصاحِبَتِهِ﴾ التي كانت سكنا له وكان يحبها وربما قدمها على أبويه ﴿وَأَخِيهِ﴾ الذي كان شقيقه وناصره ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ من عشيرته الأقربين ﴿الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ وتضمه إليها ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ من أولي العقل ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ هذا الافتداء.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله

تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يقول: يعرفونهم ثم لا يتساءلون.

٤. نار لظى نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى:

المقطع [٤] من سورة المعارج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى نَزَّاعَةً لِلشَّوَى تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ [المعارج: ١٥ـ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٠»:

١. ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى نَزَّاعَةً لِلشَّوَى تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾:

أ. كلا للردع، وضمير ﴿إِنَّهَا﴾ لجهنم أو للنار وسميت لظى لكونها تتلظى وتشتعل، والنزاعة اسم مبالغة من النزع بمعنى الاقتلاع، والشوى الأطراف كاليد والرجل يقال: رماه فأشواه أي أصاب شواه كذا قال الراغب، وإيعاء المال إمساكه في وعاء.

ب. فقوله: ﴿كَلَّا﴾ ردع لتمنيه النجاة من العذاب بالافتداء وقد علل الردع بقوله: ﴿إِنَّهَا لَظَى﴾ ومحصله أن جهنم نار مشتعلة محرقة للأطراف شأنها أنها تطلب المجرمين لتعذبهم فلا تصرف عنهم بافتداء كائنا ما كان.

ج. فقوله: ﴿إِنَّهَا لَظَى﴾ أي نار صفتها الاشتعال لا تنعزل عن شأنها ولا تخمد، وقوله: ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوَى﴾ أي صفتها إحراق الأطراف واقتلاعها لا يبطل ما لها من الأثر فيمن تعذبه.

٢. ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾:

أ. أي تطلب من أدبر عن الدعوة الإلهية إلى الإيمان بالله وأعرض عن عبادته تعالى وجمع المال فأمسكه في وعائه ولم ينفق منه للسائل والمحروم.

ب. وهذا المعنى هو المناسب لسياق الاستثناء الآتي وذكر الصلاة والإنفاق فيه.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوَى﴾ قال: تنزع عينه وتسود وجهه.

ب. وفيه في قوله تعالى: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ قال: تجره إليها.

٥. خلق الإنسان هلوعاً جزوعاً منوعاً:

المقطع [٥] من سورة المعارج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ـ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٣»:

لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ وبيان حقيقة الهلع والجزع والمنع]، خلاصته:

أ. بيان أن الهلع هو شدة الحرص، وأن الجزع عند الشر والمنع عند الخير من لوازمه، وأن هذه الصفة ليست رذيلة في حد ذاتها، بل هي وسيلة فطرية للسعادة.

ب. إثبات أن الهلع يصبح رذيلة إذا انحرف عن حد الاعتدال، وأساء الإنسان في تدبيره، فجعله حرصاً على الباطل ومنعاً للحق.

ج. توضيح أن الإنسان مفطور على حب الخير، وأن العقل يوجه هذا الحرص إلى الخير الحقيقي، وإلا يتحول إلى نقمة.

د. الرد على من زعم أن الآية تدل على أن الهلع مخلوق للذم، وبيان أن الذم يعود إلى سوء تدبير الإنسان، لا إلى الخلقة نفسها.

هـ. بيان أن استثناء المؤمنين في الآيات لا يدل على أن الصفة غير مخلوقة فيهم، بل لأنهم أبقوها على كمالها ولم يبدلوها رذيلة.

و. عرض الروايات الواردة في تفسير الآية، وبيان أن الشر هو الفقر والفاقة، والخير هو الغنى والسعة.

٦. استثناء المصلين الدائمين على صلاتهم من العذاب:

المقطع [٦] من سورة المعارج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٢-٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٥»:

١. ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾:

أ. استثناء من الإنسان الموصوف بالهلع، وفي تقديم الصلاة على سائر الأعمال الصالحة المعدودة في الآيات التالية دلالة على شرفها وأنها خير الأعمال.

ب. على أن لها الأثر البارز في دفع رذيلة الهلع المذموم وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]

٢. ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ﴾ في إضافة الصلاة إلى الضمير دلالة على أنهم مداومون على ما يأتون به من الصلاة كائنة ما كانت لا أنهم دائما في الصلاة، وفيه إشارة إلى أن العمل إنما يكمل أثره بالمداومة.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: ثم استثنى فقال ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ فوصفهم بأحسن أعمالهم ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ﴾ يقول: إذا فرض على نفسه شيئا من النوافل دام عليه.

• أقول: قوله: إذا فرض على نفسه.، استفاد عليه السلام هذا المعنى من إضافة الصلاة إلى ضمير ﴿هُمْ﴾ وقد أشرنا إليه فيما مر.

ب. وفي الكافي، بإسناده إلى الفضيل بن يسار قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ﴾ قال: هي الفريضة، قلت: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ﴾ قال: هي النافلة.

٧. استثناء الذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم:

المقطع [٧] من سورة المعارج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤ـ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٦»:

١. ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ فسره بعضهم بالزكاة المفروضة، وفي الحديث عن الصادق عليه السلام: أن الحق المعلوم ليس من الزكاة، وإنما هو مقدار معلوم ينفقونه للفقراء، والسائل هو الفقير الذي يسأل، والمحروم الفقير الذي يتعفف ولا يسأل والسياق لا يخلو من تأييده فإن للزكاة موارد مساة في قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَالْمَساكِينِ وَالْعامِلِينَ عَلَيْها وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقابِ وَالْغارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ﴾ [التوبة: ٦٠] وليست مختصة بالسائل والمحروم على ما هو ظاهر الآية.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: الحق المعلوم ليس من الزكاة، وهو الشيء الذي تخرجه من مالك، إن شئت كل جمعة وإن شئت

كل يوم، ولكل ذي فضل فضله.

ب. قال: وروي عنه أيضا أنه قال: هو أن تصل القرابة وتعطي من حرمك وتصدق على من عاداك.

• أقول: وروي هذا المعنى في الكافي، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام بعدة طرق ورواه في المحاسن عن أبي جعفر عليه السلام.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن صفوان الجمال عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ قال: المحروم المحارف، الذي قد حرم كد يمينه في الشراء والبيع.

د. قال: وفي رواية أخرى عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام أنهما قالا: المحروم الرجل الذي ليس بعقله بأس، ولم يبسط له في الرزق وهو محارف.

٨. استثناء الذين يصدقون بيوم الدين ويخافون عذاب ربهم:

المقطع [٨] من سورة المعارج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: ٢٦ـ٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٦»:

١. ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾:

أ. الذي يفيده سياق عد الأعمال الصالحة أن المراد بتصديقهم يوم الدين التصديق العملي دون التصديق الاعتقادي وذلك بأن تكون سيرتهم في الحياة سيرة من يرى أن ما يأتي به من عمل سيحاسب عليه فيجازي به إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا.

ب. وفي التعبير بقوله: ﴿يُصَدِّقُونَ﴾ دلالة على الاستمرار فهو المراقبة الدائمة بذكره تعالى عند كل عمل يواجهونه فيأتون بما يريده ويتركون ما يكرهه.

٢. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾:

أ. أي خائفون، والكلام في إشفاقهم من عذاب ربهم نظير الكلام في تصديقهم بيوم الدين فهو الإشفاق العملي الظاهر من حالهم.

ب. ولازم إشفاقهم من عذاب ربهم مع لزومهم الأعمال الصالحة ومجاهدتهم في الله أن لا يثقوا بما

يأتون به من الأعمال الصالحة ولا يأمنوا عذاب الله فإن الأمن لا يجامع الخوف.

ج. والملاك في الإشفاق من العذاب أن العذاب على المخالفة فلا منجى منه إلا بالطاعة من النفس ولا ثقة بالنفس إذ لا قدرة لها في ذاتها إلا ما أقدرها الله عليه والله سبحانه مالك غير مملوك، قال تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: ١٧]

د. على أن الله سبحانه وإن وعد أهل الطاعة النجاة وذكر أنه لا يخلف الميعاد لكن الوعد لا يقيد إطلاق قدرته فهو مع ذلك قادر على ما يريد ومشيته نافذة فلا أمن بمعنى انتفاء القدرة على ما يخالف الوعد فالخوف على حاله ولذلك نرى أنه تعالى يقول في ملائكته: ﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ فيصفهم بالخوف وهو يصرح بعصمتهم، ويقول في أنبيائه: ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، ويصف المؤمنين في هذه الآية بالإشفاق وهو يعدهم في آخر الآيات بقول جازم فيقول: ﴿أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾

٣. ﴿إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ تعليل لإشفاقهم من عذاب ربهم فيتبين به أنهم مصيبون في إشفاقهم من العذاب وقد تقدم وجهه.

٩. استثناء الذين يحفظون فروجهم:

المقطع [٩] من سورة المعارج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المعارج: ٢٩ـ٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٧»:

١. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ﴾، إلى قوله: ﴿هُمُ العادُونَ﴾ تقدم تفسير الآيات الثلاث في أول سورة المؤمنون.

٢. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ﴾ روى محمد بن الفضيل عن أبي الحسن عليه السلام أنه قال: أولئك أصحاب الخمسين صلاة من شيعتنا.

• أقول: ولعله مبني على ما ورد عنهم (عليه السلام) أن تشريع النوافل اليومية لتتميم الفرائض.

١٠. استثناء الذين يرعون أماناتهم وعهدهم ويقيمون شهاداتهم:

المقطع [١٠] من سورة المعارج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ

رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٢-٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٧»:

١. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ﴾:

أ. المتبادر من الأمانات أنواع الأمانة التي يؤتمنون عليها من المال وسائر ما يوصى به من نفس أو عرض ورعايتهم لها أن يحفظوها ولا يخونوها قيل: ولكثرة أنواعها جيء بلفظ الجمع بخلاف العهد.

ب. وقيل: المراد بها جميع ما كلفهم الله من اعتقاد وعمل فتعم حقوق الله وحقوق الناس فلو ضيعوا شيئا منها فقد خانوه.

ج. وقيل: كل نعمة أعطاها الله عبده من الأعضاء وغيرها أمانة فمن استعمل شيئا منها في غير ما أعطاه الله لأجله وأذن له في استعماله فقد خانه، وظاهر العهد عقد الإنسان مع غيره قولا أو فعلا على أمر ورعايته أن يحفظه ولا ينقضه من غير مجوز.

د. وقيل: العهد كل ما التزم به الإنسان لغيره فإيمان العبد لربه عهد منه عاهد به ربه أن يطيعه في كل ما كلفه به فلو عصاه في شيء مما أمره به أو نهاه عنه فقد نقض عهده.

٢. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ﴾ الشهادة معروفة، والقيام بالشهادة عدم الاستنكاف عن تحملها وأداء ما تحمل منها كما تحمل من غير كتمان ولا تغيير، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

١١. استثناء الذين يحافظون على صلاتهم وهم في جنات مكرمون:

المقطع [١١] من سورة المعارج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٤-٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٧»:

١. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ﴾:

أ. المراد بالمحافظة على الصلاة رعاية صفات كمالها على ما ندب إليه الشرع.

ب. قيل: والمحافظة على الصلاة غير الدوام عليها فإن الدوام متعلق بنفس الصلاة والمحافظة بكيفيتها فلا تكرار في ذكر المحافظة عليها بعد ذكر الدوام عليها.

٢. ﴿أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ الإشارة إلى المصلين في قوله: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ وتنكير جنات للتفخيم، و﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ خبر و﴿مُكْرَمُونَ﴾ خبر بعد خبر أو ظرف لقوله: ﴿مُكْرَمُونَ﴾

١٢. التعجب من الكفار الذين يطمعون في الجنة:

المقطع [١٢] من سورة المعارج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٦ـ٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٠»:

١. ﴿فَمَا لِالَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾:

أ. قال في المجمع: (قال الزجاج: المهطع المقبل ببصره على الشيء لا يزايله وذلك من نظر العدو، وقال أبو عبيدة الإهطاع الإسراع، وعزين جماعات في تفرقة، واحدتهم عزة)، وقبل الشيء بالكسر فالفتح الجهة التي تليه والفاء في ﴿فما﴾ فصيحة.

ب. والمعنى: إذا كان الإنسان بكفره واستكباره على الحق مصيره إلى النار إلا من استثني من المؤمنين فما للذين كفروا عندك مقبلين عليك لا يرفعون عنك أبصارهم وهم جماعات متفرقة عن يمينك وشمالك أيطمعون أن يدخلوا الجنة فيعجزوا الله ويسبقوه فيما قضى به أن لا يدخل الجنة إلا الصلحاء من المؤمنين.

٢. ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾:

أ. الاستفهام للإنكار أي، ما هو الذي يحملهم على أن يحتفوا بك ويهطعوا عليك؟، هل يحملهم على ذلك طمع كل منهم أن يدخل جنة نعيم وهو كافر فلا مطمع للكافر في دخول الجنة.

ب. ونسب الطمع إلى كل امرئ منهم ولم ينسب إلى جماعتهم بأن يقال: أيطمعون أن يدخلوا كما نسب الإهطاع إلى جماعتهم فقيل: مهطعين لأن النافع من الطمع في السعادة والفلاح هو الطمع القائم بنفس الفرد الباعث له إلى الإيمان والعمل الصالح دون القائم بالجماعة بما أنها جماعة فطمع المجموع من حيث إنه مجموع لا يكفي في سعادة كل واحد واحد.

ج. وفي قوله: ﴿أَنْ يُدْخَلَ﴾ مجهولا من باب الإفعال إشارة إلى أن دخولهم في الجنة ليس منوطا باختيارهم ومشيتهم بل لو كان فإنما هو إلى الله سبحانه فهو الذي يدخلهم الجنة إن شاء ولن يدخل بما قدر أن لا يدخلها كافر.

د. قيل: إن النبي ﷺ كان يصلي عند الكعبة ويقرأ القرآن فكان المشركون يجتمعون حوله حلقا حلقا وفرقا يستمعون ويستهزءون بكلامه، ويقولون إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد ﷺ فلندخلها قبلهم

فنزلت الآيات.

هـ. وهذا القول لا يلائمه سياق الآيات الظاهر في تفرع صنعهم ذلك على ما مر من حرمان الناس من دخول الجنة إلا من استثني من المؤمنين إذ من الضروري على هذا أن اجتماعهم حوله ﷺ وإهطاعهم عليه إنما حملهم عليه إفراطهم في عداوته ومبالغتهم في إيذائه وإهانته، وأن قولهم: سندخل الجنة قبل المؤمنين، وهم مشركون مصرون على إنكار المعاد غير معترفين بنار ولا جنة، إنما كان استهزاء وتهكما.

و. فلا مساغ لتفريع عملهم ذاك على ما تقدم من حديث النار والجنة والسؤال، في سياق التعجيب، عن السبب الحامل لهم عليه ثم استفهام طمعهم في دخول الجنة وإنكاره عليهم.

ز. فبما تقدم يتأيد أن يكون المراد بالذين كفروا في قوله: ﴿فَمَا لِالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قوما من المنافقين آمنوا به ﷺ ظاهرا ولازموه ثم كفروا برد بعض ما نزل عليه كما يشير إليه أمثال قوله تعالى: ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣]، وقوله: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]، وقوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٧]

ح. فهؤلاء قوم كانوا قد آمنوا ودخلوا في جماعة المؤمنين ولازموا النبي ﷺ مهطعين عليه عن اليمين وعن الشمال عزين ثم كفروا ببعض ما نزل إليه لا يبالون به فقرعهم الله سبحانه في هذه الآيات أنهم لا ينتفعون بملازمته ولا لهم أن يطمعوا في دخول الجنة فليسوا ممن يدخلها وليسوا بسابقين ولا معجزين، ويؤيده قوله الآتي: ﴿إِنَّا لَقادِرُونَ عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ﴾ على ما سنشير إليه.

٣. ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾:

أ. ردع لهم عن الطمع في دخول الجنة مع كفرهم.

ب. ﴿إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ المراد بما يعلمون النطفة فإن الإنسان مخلوق منها.

ج. والكلام مرتبط بما بعده والمجموع تعليل للردع، ومحصل التعليل أنا خلقناهم من النطفة، وهم يعلمون به، فلنا أن نذهب بهم ونخلق مكانهم قوما آخرين يكونون خيرا منهم مؤمنين غير رادين لشيء من دين الله، ولسنا بمسبوقين حتى يعجزنا هؤلاء الكفار ويسبقونا فندخلهم الجنة وينتقض به ما قدرنا أن لا يدخل الجنة كافر.

د. وقيل: (من) في قوله: ﴿مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ تفيد معنى لام التعليل، والمعنى أنا خلقناهم لأجل ما

يعلمون وهو الاستكمال بالإيمان والطاعة فمن الواجب أن يتلبسوا بذلك حتى ندخلهم الجنة فكيف يطمعون في دخولها وهم كفار؟ وإنما علموا بذلك من طريق إخبار النبي ﷺ.

هـ. وقيل: (من) لابتداء الغاية، والمعنى: أنا خلقناهم من نطفة قذرة لا تناسب عالم القدس والطهارة حتى تتطهر بالإيمان والطاعة وتتخلق بأخلاق الملائكة فتدخل وأنى لهم ذلك وهم كفار.

و. وقيل: المراد بها في ﴿مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ الجنس، والمعنى أنا خلقناهم من جنس الآدميين الذين يعلمون أو من الخلق الذين يعلمون لا من جنس الحيوانات التي لا تعقل ولا تفقه فالحجة لازمة لهم تامة عليهم، والوجوه الثلاثة سخيفة.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج عبد بن حميد عن عبادة بن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد فقال: ما لي أراكم عزين حلقا حلق الجاهلية قعد رجل خلف أخيه.

• أقول: ورواه عن ابن مردويه عن أبي هريرة ولفظه خرج رسول الله ﷺ وأصحابه جلوس حلقا حلقا فقال: ما لي أراكم عزين، وروي هذا المعنى أيضا عن جابر بن سمرة.

ب. وفي تفسير القمي: وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ قال: من نطفة ثم علقة.

١٣. القسم بقدرة الله على تبديلهم وأنه غير مسبوق:

المقطع [١٣] من سورة المعارج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠-٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٢»:

١. ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾:

أ. المراد بالمشارق والمغارب مشارق الشمس ومغاربها فإن لها في كل يوم من أيام السنة الشمسية مشرقا ومغربا لا يعود إليهما إلى مثل اليوم من السنة القابلة، ومن المحتمل أن يكون المراد بها مشارق جميع النجوم ومغاربها.

ب. وفي الآية على قصرها وجوه من الالتفات ففي قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ التفات من التكلم مع الغير في ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ﴾ إلى التكلم وحده، والوجه فيه تأكيد القسم بإسناده إلى الله تعالى نفسه.

ج. وفي قوله: ﴿بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ﴾ التفات من التكلم وحده إلى الغيبة، والوجه فيه الإشارة إلى صفة من صفاته تعالى هي المبدأ في خلق الناس جيلا بعد جيل وهي ربوبيته للمشارق والمغارب فإن الشروق بعد الشروق والغروب بعد الغروب الملازم لمرور الزمان دخلا تاما في تكون الإنسان جيلا بعد جيل وسائر الحوادث الأرضية المقارنة له.

د. وفي قوله: ﴿إِنَّا لَقادِرُونَ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير، والوجه فيه الإشارة إلى العظمة المناسبة لذكر القدرة، وفي ذكر ربوبيته للمشارق والمغارب إشارة إلى تعليل القدرة فإن الذي ينتهي إليه تدبير الحوادث في تكونها لا يعجزه شيء من الحوادث التي هي أفعاله عن شيء منها ولا يمنعه شيء من خلقه من أن يبدله خيرا منه وإلا شاركه المانع في أمر التدبير والله سبحانه واحد لا شريك له في ربوبيته فافهم ذلك.

٢. ﴿إِنَّا لَقادِرُونَ عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ﴾ ﴿عَلى﴾ متعلق بقوله: ﴿لَقادِرُونَ﴾ والمفعول الأول لنبدل ضمير محذوف راجع إليهم وإنما حذف للإشارة إلى هوان أمرهم وعدم الاهتمام بهم، و﴿خَيْراً﴾ مفعوله الثاني وهو صفة أقيمت مقام موصوفها، والتقدير إنا لقادرون على أن نبدلهم قوما خيرا منهم، وخيريتهم منهم أن يؤمنوا بالله ولا يكفروا به ويتبعوا الحق ولا يردوه.

٣. ﴿وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ المراد بالسبق الغلبة على سبيل الاستعارة، وكونه تعالى مسبوقا هو أن يمنعه خلقهم أن يذهب بهم ويأتي بدلهم بقوم خير منهم.

٤. وسياق الآية لا يخلو من تأييد ما لما تقدم من كون المراد بالذين كفروا قوما من المنافقين دون المشركين المعاندين للدين النافين لأصل المعاد فإن ظاهر قوله: ﴿خَيْراً مِنْهُمْ﴾ لا يخلو من دلالة أو إشعار بأن فيهم شائبة خيرية ولله أن يبدل خيرا منهم، والمشركون لا خير فيهم لكن هذه الطائفة من المنافقين لا يخلو تحفظهم على ظواهر الدين مما آمنوا به ولم يردوه من خير للإسلام.

٥. فقد بان بما تقدم أن قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث تعليل للردع بقوله: ﴿كَلَّا﴾، وأن محصل مضمون الآيات الثلاث أنهم مخلوقون من نطفة، وهم يعلمون ذلك، وهي خلقة جارية والله الذي هو رب الحوادث الجارية التي منها خلق الإنسان جيلا بعد جيل والمدبر لها قادر أن يذهب بهم ويبدلهم خيرا منهم يعتنون بأمر الدين ويستأهلون لدخول الجنة، ولا يمنعه خلق هؤلاء أن

يبدلهم خيرا منهم ويدخلهم الجنة بكمال إيمانهم من غير أن يضطر إلى إدخال هؤلاء الجنة فلا ينتقض تقديره أن الجنة للصالحين من أهل الإيمان.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، وقوله: ﴿فَلا أُقْسِمُ﴾ أي أقسم ﴿بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ﴾ قال: مشارق الشتاء ومشارق الصيف، ومغارب الشتاء ومغارب الصيف.

ب. وفي المعاني، بإسناده إلى عبد الله بن أبي حماد رفعه إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال: لها ثلاثمائة وستون مشرقا وثلاثمائة وستون مغربا فيومها الذي تشرق فيه لا تعود فيه إلا من قابل.

١٤. تركهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلقوا يومهم الموعود:

المقطع [١٤] من سورة المعارج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٢-٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٣»:

١. ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾:

أ. أمر للنبي ﷺ أن يتركهم وما هم فيه، ولا يلح عليهم بحجاج ولا يتعب نفسه فيهم بعظة، وقد سمي ما هم عليه بالخوض واللعب دلالة على أنهم لا ينتفعون به انتفاعا حقيقيا على ما لهم فيه من الإمعان والإصرار كاللعب الذي لا نفع فيه وراء الخيال فليتركوا حتى يلاقوا اليوم الذي يوعدون وهو يوم القيامة.

ب. وفي إضافة اليوم إليهم إشارة إلى نوع اختصاص له بهم وهو الاختصاص بعذابهم.

٢. ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾:

أ. بيان ليومهم الذي يوعدون وهو يوم القيامة.

ب. والأجداث جمع جدث وهو القبر، وسراعا جمع سريع، والنصب ما ينصب علامة في الطريق يقصده السائرون للاهتداء به، وقيل: هو الصنم المنصوب للعبادة وهو بعيد من كلامه تعالى، والإيفاض الإسراع والمعنى ظاهر.

٣. ﴿خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ﴾ الخشوع تأثر خاص في القلب عن مشاهدة العظمة والكبرياء، ويناظره الخضوع في الجوارح، ونسبة الخشوع إلى الأبصار لظهور

آثاره فيها، والرهق غشيان الشيء بقهر.

٤. ﴿ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ﴾ الإشارة إلى ما مر من أوصافه من الخروج من الأجداث سراعا وخشوع الأبصار ورهق الذلة.

٥. أحاديث وآثار: في تفسير القمي: وقوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً﴾ قال: من القبر ﴿كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ قال: إلى الداعي ينادون، وقوله: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ قال: تصيبهم ذلة.

سورة نوح

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١١] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تشير السورة إلى رسالة نوح عليه السلام إلى قومه، وإجمال دعوته وعدم استجابتهم له، ثم شكواه إلى ربه منهم ودعائه عليهم، واستغفاره لنفسه ولوالديه ولمن دخل بيته مؤمناً، وللمؤمنين والمؤمنات.

ب. ثم حلول العذاب بهم وإهلاكهم بالإغراق.

ج. والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٢٤] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر قصة نوح عليه السلام ودعوته لقومه ليلاً ونهاراً، وإعراضهم ووضعهم أصابعهم في آذانهم، واستغفارهم وتكاثرهم، ودعوته عليهم بأن لا يذر على الأرض منهم دياراً، وإغراقهم جميعاً.

٢. الآيات [٢٥ ـ ٢٨] تتضمن الآيات هلاك القوم وتتمة دعاء نوح عليه السلام عليهم.

١. إنذار نوح لقومه ودعوتهم للعبادة والتقوى:

المقطع [١] من سورة نوح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللهَّ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهَّ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ١ـ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٦»:

١. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾:

أ. ﴿أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾، تفسير لرسالته أي أوحينا إليه أن أنذر.

ب. وفي الكلام دلالة على أن قومه كانوا عرضة للعذاب بشركهم ومعاصيهم كما يدل عليه ما حكي من قوله عليه السلام في الآية التالية: ﴿اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ﴾ وذلك أن الإنذار تخويف والتخويف إنما

يكون من خطر محتمل لا دافع له لولا التحذر، وقد أفاد قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ إنه متوجه إليهم غير تاركهم لولا تحذرهم منه.

٢. ﴿قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾:

أ. بيان لتبليغه رسالته إجمالا بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وتفصيلا بقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾

ب. وفي إضافته اليوم إلى نفسه إظهار إشفاق ورحمة أي أنكم قومي يجمعكم وإياي مجتمعنا القومي تسوؤني ما أساءكم فلست أريد إلا ما فيه خيركم وسعادتكم إني لكم نذير إلخ.

ج. وفي قوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ دعوتهم إلى توحيده تعالى في عبادته فإن القوم كانوا وثنيين يعبدون الأصنام، والوثنية لا تجوز عبادة الله سبحانه لا وحده ولا مع غيره، وإنما يعبدون أرباب الأصنام بعبادة الأصنام ليكونوا شفعاء لهم عند الله، ولو جوزوا عبادته تعالى لعبدوه وحده فدعوتهم إلى عبادة الله دعوة لهم إلى توحيده في العبادة.

د. وفي قوله: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ دعوتهم إلى اجتناب معاصيه من كبائر الإثم وصغائره وهي الشرك فما دونه، وفعل الأعمال الصالحة التي في تركها معصية.

هـ. وفي قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ دعوة لهم إلى طاعة نفسه المستلزم لتصديق رسالته وأخذ معالم دينهم مما يعبد به الله سبحانه ويستن به في الحياة منه عليه السلام ففي قوله: ﴿اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ ندب إلى أصول الدين الثلاثة: التوحيد المشار إليه بقوله: ﴿اعْبُدُوا اللهَ﴾ والمعاد الذي هو أساس التقوى والتصديق بالنبوة المشار إليه بالدعوة إلى الطاعة المطلقة.

٣. ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾:

أ. مجزوم في جواب الأمر وكلمة ﴿مِنْ﴾ للتبعيض على ما هو المتبادر من السياق، والمعنى أن تعبدوه وتتقوه وتطيعوني يغفر لكم بعض ذنوبكم وهي الذنوب التي قبل الإيمان: الشرك فما دونه، وأما الذنوب التي لم تقترف بعد مما سيستقبل فلا معنى لمغفرتها قبل تحققها، ولا معنى أيضا للوعد بمغفرتها إن تحققت في المستقبل أو كلما تحققت لاستلزام ذلك إلغاء التكاليف الدينية بإلغاء المجازاة على مخالفتها.

ب. ويؤيد ذلك ظاهر قوله تعالى: ﴿يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وقوله: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠] وقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا

إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]

ج. وأما قوله تعالى يخاطب المؤمنين من هذه الأمة: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ﴾ [الصف: ١٢] فهو وإن كان ظاهرا في مغفرة جميع الذنوب لكن رتبت المغفرة فيه على استمرار الإيمان والعمل الصالح وإدامتها ما دامت الحياة فلا مغفرة فيه متعلقة بما لم يتحقق بعد من المعاصي والذنوب المستقبلة ولا وعد بمغفرتها كلما تحققت.

د. وقد مال بعضهم اعتمادا على عموم المغفرة في آية الصف إلى القول بأن المغفور بسبب الإيمان في هذه الأمة جميع الذنوب وفي سائر الأمم بعضها كما هو ظاهر قول نوح لأمته: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ وقول الرسل: كما في سورة إبراهيم ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ وقول الجن كما في سورة الأحقاف لقومهم: ﴿يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾

• وفيه أن آية الصف موردها غير مورد المغفرة بسبب الإيمان فقط كما أشرنا إليه، على أن آية الأنفال صريحة في مغفرة ما قد سلف، والمخاطب به كفار هذه الأمة.

هـ. وذهب بعضهم إلى كون ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ زائدة، ولم تثبت زيادة (من) في الإثبات فهو ضعيف ومثله في الضعف قول من ذهب إلى أن ﴿مِنْ﴾ بيانية، وقول من ذهب إلى أنها لابتداء الغاية.

٤. ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

أ. تعليق تأخيرهم إلى أجل مسمى على عبادة الله والتقوى وطاعة الرسول يدل على أن هناك أجلين أجل مسمى يؤخرهم الله إليه إن أجابوا الدعوة، وأجل غيره يعجل إليهم لو بقوا على الكفر، وإن الأجل المسمى أقصى الأجلين وأبعدهما.

ب. ففي الآية وعدهم بالتأخير إلى الأجل المسمى إن آمنوا وفي قوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ﴾ تعليل للتأخير إلى الأجل المسمى إن آمنوا فالمراد بأجل الله إذا جاء مطلق الأجل المقضي المتحتم أعم من الأجل المسمى وغير المسمى فلا راد لقضائه تعالى ولا معقب لحكمه.

ج. والمعنى: أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعوني يؤخركم الله إلى أجل مسمى هو أقصى الأجلين فإنكم

إن لم تفعلوا ذلك جاءكم الأجل غير المسمى بكفركم ولم تؤخروا فإن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، ففي الكلام مضافا إلى وعد التأخير إلى الأجل المسمى إن آمنوا، تهديد بعذاب معجل إن لم يؤمنوا.

د. وقد ظهر بما تقدم عدم استقامة تفسير بعضهم لأجل الله بالأجل غير المسمى وأضعف منه تفسيره بالأجل المسمى.

هـ. وذكر بعضهم: أن المراد بأجل الله يوم القيامة والظاهر أنه يفسر الأجل المسمى أيضا بيوم القيامة فيرجع معنى الآية حينئذ إلى مثل قولنا: إن لم تؤمنوا عجل الله إليكم بعذاب الدنيا وإن آمنتم أخركم إلى يوم القيامة أنه إذا جاء لا يؤخر.

• وأنت خبير بأنه لا يلائم التبشير الذي في قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾

٥. ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

أ. متعلق بأول الكلام أي لو كنتم تعلمون أن لله أجلين وأن أجله إذا جاء لا يؤخر استجبتم دعوتي وعبدتم الله واتقيتموه وأطعتموني هذا فمفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾ محذوف يدل عليه سابق الكلام.

ب. وقيل: إن ﴿تَعْلَمُونَ﴾ منزل منزلة الفعل اللازم، وجواب لو متعلق بأول الكلام، والمعنى: لو كنتم من أهل العلم لاستجبتم دعوتي وآمنتم، أو متعلق بآخر الكلام، والمعنى: لو كنتم من أهل العلم لعلمتم أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر.

٢. دعوة نوح الدائمة لقومه المستكبرين:

المقطع [٢] من سورة نوح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٥-٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٩»:

١. ﴿قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً﴾ القائل هو نوح عليه السلام والذي دعا إليه هو عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله، والدعاء ليلا ونهارا كناية عن دوامه من غير فتور ولا توان.

٢. ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً﴾ أي من إجابة دعوتي فالمراد بالفرار التمرد والتأبي عن القبول استعارة، وإسناد زيادة الفرار إلى دعائه لما فيه من شائبة السببية لأن الخير إذا وقع في محل غير صالح قاومه

المحل بما فيه من الفساد فأفسده فانقلب شرا، وقد قال تعالى في صفة القرآن: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً﴾ [الإسراء: ٨٢]

٣. ﴿وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ﴾ ذكر مغفرته تعالى غاية لدعوته والأصل (دعوتهم ليؤمنوا فتغفر لهم) لأن الغرض الإشارة إلى أنه كان ناصحا لهم في دعوته ولم يرد إلا ما فيه خير دنياهم وعقباهم.

٤. ﴿جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ﴾ كناية عن استنكافهم عن الاستماع إلى دعوته، وقوله: ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ﴾ أي غطوا بها رءوسهم ووجوههم لئلا يروني ولا يسمعوا كلامي وهو كناية عن التنفر وعدم الاستماع إلى قوله.

٥. ﴿وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً﴾ أي وألحوا على الامتناع من الاستماع واستكبروا عن قبول دعوتي استكبارا عجيبا.

٣. دعوة نوح جهراً وإسراراً وأمرهم بالاستغفار:

المقطع [٣] من سورة نوح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ٨-١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٩»:

١. ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً﴾ ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي بحسب رتبة الكلام والجهار النداء بأعلى الصوت.

٢. ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً﴾ الإعلان والإسرار متقابلان وهما الإظهار والإخفاء، وظاهر السياق أن مرجع ضمير لهم في الموضعين واحد فالمعنى دعوتهم سرا وعلانية فتارة علانية وتارة سرا سالكا في دعوتي كل مذهب ممكن وسائرا في كل مسير مرجو.

٣. ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً﴾، إلى قوله: ﴿أَنْهاراً﴾ علل أمرهم بالاستغفار بقوله: ﴿إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً﴾ دلالة على أنه تعالى كثير المغفرة وهي مضافا إلى كثرتها منه سنة مستمرة له تعالى.

٤. ﴿يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً﴾ مجزوم في جواب الأمر، والمراد بالسماء السحاب، والمدرار كثير الدرور بالأمطار.

٥. ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ﴾ الأمداد إلحاق المدد وهو ما يتقوى به الممد على حاجته، والأموال

والبنون أقرب الأعضاد الابتدائية التي يستعين بها المجتمع الإنساني على حوائجه الحيوية.

٦. ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً﴾ هما من قسم الأموال غير أنهما لكونهما من أبسط ضروريات المعاش خصا بالذكر.

٧. والآيات، كما ترى، تعد النعم الدنيوية وتحكي عنه عليه السلام أنه يعد قومه توافر النعم وتواترها عليهم أن استغفروا ربهم فلمغفرة الذنوب أثر بالغ في رفع المصائب والنقمات العامة وانفتاح أبواب النعم من السماء والأرض أي إن هناك ارتباطا خاصا بين صلاح المجتمع الإنساني وفساده وبين الأوضاع العامة الكونية المربوطة بالحياة الإنسانية وطيب عيشه ونكده، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقوله: ﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٤]، وقد تقدم في تفسير الآيات ما لا يخلو من نفع في هذا المقام.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في نهج البلاغة: وقد جعل الله سبحانه الاستغفار سببا لدرور الرزق، ورحمة الخلق فقال سبحانه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً، يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ﴾ فرحم الله امرأ استقبل توبته، واستقال خطيئته، وبادر منيته

- أقول: والروايات في استفادة سببية الاستغفار لسعة الرزق والأمداد بالأولاد من هذه الآيات كثيرة.

ب. وفي الخصال، عن علي عليه السلام في حديث الأربعمائة: أكثر الاستغفار تجلب الرزق.

٤. عدم تعظيم قوم نوح لله:

المقطع [٤] من سورة نوح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣-١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٠»:

١. ﴿ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً﴾:

أ. استفهام إنكاري والوقار، كما في المجمع: (بمعنى العظمة اسم من التوقير بمعنى التعظيم، والرجاء مقابل الخوف وهو الظن بما فيه مسرة، والمراد به في الآية مطلق الاعتقاد على ما قيل، وقيل: المراد

به الخوف للملازمة بينهما.

ب. والمعنى: أي سبب حصل لكم حال كونكم لا تعتقدون أو لا تخافون لله عظمة توجب أن تعبدوه.

ج. والحق أن المراد بالرجاء معناه المعروف وهو ما يقابل الخوف ونفيه كناية عن اليأس فكثيرا ما يكنى به عنه يقال: لا أرجو فيه خيرا أي أنا آيس من أن يكون فيه خير، والوقار الثبوت والاستقرار والتمكن وهو الأصل في معناه كما صرح به في المجمع: (ووقاره تعالى ثبوته واستقراره في الربوبية المستتبع لألوهيته ومعبوديته.

د. كان الوثنيين طلبوا ربا له وقار في الربوبية لعبدوه فيئسوا منه تعالى فعبدوا غيره وهو كذلك فإنهم يرون أنه تعالى لا يحيط به أفهامنا فلا سبيل للتوجه العبادي إليه، والعبادة أداء لحق الربوبية التي يتفرع عليها تدبير الأمر وتدبير أمور العالم مفوض إلى أصناف الملائكة والجن فهم أربابنا الذين يجب علينا عبادتهم ليكونوا شفعاء لنا عند الله، وأما هو تعالى فليس له إلا الإيجاد إيجاد الأرباب ومربوبيهم جميعا دون التدبير.

هـ. والآية أعني قوله: ﴿ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلّهِ وَقاراً﴾ وما يتلوها إلى تمام سبع آيات مسوقة لإثبات وقاره تعالى في الربوبية وحجة قاطعة في نفي ما لفقوه لوجوب عبادة غيره من الملائكة وغيرهم لاستناد تدبير العالم إليهم، ويتبين به إمكان التوجه العبادي إليه تعالى.

و. ومحصل الحجة: ما الذي دعاكم إلى نفي ربوبيته تعالى المستتبع للألوهية والمعبودية واليأس عن وقاره؟ وأنتم تعلمون أنه تعالى خلقكم وخلق العالم الذي تعيشون فيه طورا من الخلق لا ينفك عن هذا النظام الجاري فيه، وليس تدبير الكون ومن فيه من الإنسان إلا التطورات المخلوقة في أجزائه والنظام الجاري فيه فكونه تعالى خالقا هو كونه مالكا مدبرا فهو الرب لا رب سواه فيجب أن يتخذ إلها معبودا.

ز. ويتبين به صحة التوجه إليه تعالى بالعبادة فإنا نعرفه بصفاته الكريمة من الخلق والرزق والرحمة وسائر صفاته الفعلية فلنا أن نتوجه إليه بما نعرفه من صفاته.

٢. ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً﴾:

أ. حال من فاعل ﴿لا تَرْجُونَ﴾ والأطوار جمع طور وهو حد الشيء وحاله التي هو عليها.

ب. ومحصل المعنى، لا ترجون لله وقارا في ربوبية، والحال أنه أنشأكم طورا بعد طور يستعقب طورا آخر فأنشأ الواحد منكم ترابا ثم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم جنينا ثم طفلا ثم شابا ثم شيخا وأنشأ جمعكم مختلفة الأفراد في الذكورة والأنوثة والألوان والهيئات والقوة والضعف إلى غير ذلك، وهل هذا إلا التدبير فهو مدبر أمركم فهو ربكم.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً﴾ قال؟ لا تخافون لله عظمة.

• أقول: وقد روي هذا المعنى من طرق أهل السنة عن ابن عباس.

٥. خلق السماوات طباقاً وجعل القمر نوراً والشمس سراجاً:

المقطع [٥] من سورة نوح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥-١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٢»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً﴾:

أ. مطابقة السماوات السبع بعضها لبعض كون بعضها فوق بعض أو تطابقهن وتماثلهن على الاحتمالين المتقدمين في تفسير أوائل سورة الملك.

ب. والمراد بالرؤية العلم، وتوصيف السماوات السبع، والكلام مسوق سوق الحجة، يدل على أنهم كانوا يرون كونها سبعا ويسلمون ذلك فاحتج عليهم بالمسلم عندهم.

ج. وكيف كان فوقوع حديث السماوات السبع في كلام نوح دليل على كونه مأثورا من الأنبياء (عليه السلام) من أقدم العهود.

٢. ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً﴾:

أ. الآيات، كما يشهد به سياقها، مسوقة لبيان وقوع التدبير الإلهي على الإنسان بما يفيض عليه من النعم حتى تثبت ربوبيته فتجب عبادته.

ب. وعلى هذا فكون الشمس سراجا هو كونها مضيئة لعالمنا ولولاها لانغمرنا في ظلمة ظلماء، وكون القمر نورا هو كونه منورا لأرضنا بنور مكتسب من الشمس فليس منورا بنفسه حتى يعد سراجا.

ج. وأما أخذ السماوات ظرفا للقمر في قوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً﴾ فالمراد به كما قيل كونه في حيزهن وإن كان في واحدة منها كما تقول: إن في هذه الدور لبئرا وإن كانت في واحدة منها لأن ما كان في إحداهن كان فيهن وكما تقول: أتيت بني تميم وإنما أتيت بعضهم.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً﴾ يقول بعضها فوق بعض.

٦. إنبات الله البشر من الأرض وإعادتهم إليها وإخراجهم منها:

المقطع [٦] من سورة نوح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٧ـ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٢»:

١. ﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً﴾ أي أنبتكم إنبات النبات وذلك أن الإنسان تنتهي خلقته إلى عناصر أرضية تركبت تركبا خاصا به يغتذي وينمو ويولد المثل، وهذه حقيقة النبات، فالكلام مسوق سوق الحقيقة من غير تشبيه واستعارة.

٢. ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَيُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً﴾:

أ. الإعادة فيها بالإماتة والإقبار، والإخراج للجزاء يوم القيامة فالآية والتي قبلها قريبتا المعنى من قوله تعالى: ﴿فِيها تَحْيَوْنَ وَفِيها تَمُوتُونَ وَمِنْها تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]

ب. وفي قوله: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ دون أن يقول: ثم يخرجكم إيماء إلى أن الإعادة والإخراج كالصنع الواحد والإعادة مقدمة للإخراج، والإنسان في حالتي الإعادة والإخراج في دار الحق كما أنه في الدنيا في دار الغرور.

٣. ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً﴾ أي كالبساط يسهل لكم التقلب من جانب إلى جانب، والانتقال من قطر إلى قطر.

٤. ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً﴾ السبل جمع سبيل بمعنى الطريق والفجاج جمع فج بمعنى الطريق الواسعة، وقيل: الطريق الواقعة بين الجبلين.

٧. شكوى نوح من عصيان قومه واتباعهم للطغاة:

المقطع [٧] من سورة نوح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٣»:

١. ﴿قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خساراً﴾:

أ. رجوع منه عليه السلام إلى شكواه من قومه إلى ربه بعد ما ذكر تفصيل دعوته لهم وما ألقاه من القول إليهم من قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً﴾ إلى آخر الآيات.

ب. وشكواه السابق له قوله: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً﴾ بعد ما أخبر بإجمال دعوته بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً﴾

ج. وفي الآية دلالة على أن العظماء المترفين من قومه عليه السلام كانوا يصدون الناس عنه ويحرضونهم على مخالفته وإيذائه.

د. ومعنى قوله: ﴿لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خساراً﴾، وقد عد المال والولد في سابق كلامه من النعم، أن المال والولد اللذين هما من نعمك وكان يجب عليهم شكرهما لم يزيداهم إلا كفرا وأورثهم ذلك خسرانا من رحمتك.

٢. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي، وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خساراً﴾ قال: اتبعوا الأغنياء.

٨. مكر قوم نوح الأكبر وتمسكهم بآلهتهم:

المقطع [٨] من سورة نوح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ [نوح: ٢٢-٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٣»:

١. ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً﴾ الكبار اسم مبالغة من الكبر.

٢. ﴿وَقالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾:

أ. توصية منهم بالتمسك بآلهتهم وعدم ترك عبادتها.

ب. وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر خمس من آلهتهم لهم اهتمام تام بعبادتهن ولذا خصوها بالذكر مع الوصية بمطلق الآلهة، ولعل تصدير ود وذكر سواع ويغوث بلا المؤكدة للنفي لكونها أعظم

أمرا عندهم من يعوق ونسر والله أعلم.

٣. ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالاً﴾ ضمير ﴿أَضَلُّوا﴾ للرؤساء المتبوعين ويتأيد به أنهم هم المحدث عنهم في قوله: ﴿وَمَكَرُوا﴾ ﴿وَقالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ وقيل: الضمير للأصنام فهم المضلون، ولا يخلو من بعد.

٤. ﴿وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالاً﴾ دعاء من نوح على الظالمين بالضلال والمراد به الضلال مجازاة دون الضلال الابتدائي فهو دعاء منه أن يجازيهم الله بكفرهم وفسقهم مضافا إلى ما سيحكي عنه من دعائه عليهم بالهلاك.

٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج البخاري وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال: صارت الأصنام والأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود فكانت لكلب في دومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف عند سبإ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، وكانوا أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم، أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا، وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت.

• أقول: لعل المراد بصيرورة تلك الأصنام التي كانت لقوم نوح إلى العرب مطابقة ما عند العرب لما كان عندهم في الأسماء أو في الأوصاف والأسماء، وأما انتقال تلك الأصنام بأشخاصهن إلى العرب فبعيد غايته.

• وروي القصة أيضا في علل الشرائع، بإسناده عن جعفر بن محمد عليه السلام كما في الرواية.

ب. وفي روضة الكافي، بإسناده عن المفضل عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث: فعمل نوح سفينته في مسجد الكوفة بيده، فأتي بالخشب من بعد حتى فرغ منها، قال: فالتفت عن يساره، وأشار بيده إلى موضع دار الداريين، وهو موضع دار ابن حكيم، وذاك فرات اليوم، فقال لي يا مفضل وهنا نصبت أصنام قوم نوح: يغوث ويعوق ونسر.

٩. إغراقهم بذنوبهم وإدخالهم ناراً بلا أنصار:

المقطع [٩] من سورة نوح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٦»:

١. ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً﴾:

أ. ﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية تفيد بحسب المورد التعليل و﴿مِمَّا﴾ زائدة لتأكيد أمر الخطايا وتفخيمه، والخطيئات المعاصي والذنوب، وتنكير النار للتفخيم.

ب. والمعنى: من أجل معاصيهم وذنوبهم أغرقوا بالطوفان فأدخلوا، أدخلهم الله، نارا لا يقدر عذابها بقدر، ومن لطيف نظم الآية الجمع بين الإغراق بالماء وإدخال النار.

ج. والمراد بالنار نار البرزخ التي يعذب بها المجرمون بين الموت والبعث دون نار الآخرة، والآية من أدلة البرزخ إذ ليس المراد أنهم أغرقوا وسيدخلون النار يوم القيامة، ولا يعبأ بما قيل: إن من الجائز أن يراد بها نار الآخرة.

٢. ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصاراً﴾ أي ينصرونهم في صرف الهلاك والعذاب عنهم، تعريض لأصنامهم وآلهتهم.

١٠. دعاء نوح بعدم ترك كافر على الأرض:

المقطع [١٠] من سورة نوح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦-٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٦»:

١. ﴿وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً﴾ الديار نازل الدار، والآية تتمة دعائه عليه السلام عليهم، وكان قوله: ﴿مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ معترضا واقعا بين فقرتي الدعاء للإشارة إلى أنهم أهلكوا لما عد نوح من خطيئاتهم ولتكون كالتمهيد لسؤاله الهلاك فيتبين أن إغراقهم كان استجابة لدعائه، وأن العذاب استوعبهم عن آخرهم.

٢. ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً﴾:

أ. تعليل لسؤال إهلاكهم عن آخرهم مفاده أن لا فائدة في بقائهم لا لمن دونهم من المؤمنين فإنهم يضلونهم، ولا فيمن يلدونه من الأولاد فإنهم لا يلدون إلا فاجرا كفارا، والفجور الفسق الشنيع والكفار

المبالغ في الكفر.

ب. وقد استفاد عليه السلام ما ذكره من صفتهم من الوحي الإلهي على ما تقدم في تفسير قصة نوح من سورة هود.

١١. دعاء نوح بالمغفرة له ولوالديه والمؤمنين:

المقطع [١١] من سورة نوح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/٣٦»:

١. ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ﴾ المراد بمن دخل بيته مؤمنا المؤمنون به من قومه، وبالمؤمنين والمؤمنات عامتهم إلى يوم القيامة.

٢. ﴿وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَباراً﴾ التبار الهلاك، والظاهر أن المراد بالتبار ما يوجب عذاب الآخرة وهو الضلال وهلاك الدنيا بالغرق، وقد تقدما جميعا في دعائه، وهذا الدعاء آخر ما نقل من كلامه عليه السلام في القرآن الكريم.

سورة الجن

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٦] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تشير السورة إلى قصة نفر من الجن استمعوا القرآن فآمنوا به، وأقروا بأصول معارفه.

ب. وتتخلص منها إلى تسجيل نبوة النبي ﷺ، والإشارة إلى وحدانيته تعالى في ربوبيته وإلى المعاد.

ج. والسورة مكية بشهادة سياقها.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٧] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن نفراً من الجن استمعوا القرآن، وذكروا أنه عجب يهدي إلى الرشد، وأنهم آمنوا به، وتذكر أن الله لا يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنهم كانوا يظنون أن الإنس والجن لن يقولوا على الله كذباً، وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً.

٢. الآيات [١٨ ـ ٢٨] في الآيات تسجيل للنبوة وذكر وحدانيته تعالى والمعاد كالاستنتاج من القصة، وتختتم بالإشارة إلى عصمة الرسالة.

١. استماع نفر من الجن للقرآن وإيمانهم به:

المقطع [١] من سورة الجنّ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١ـ٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٨»:

١. ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾:

أ. أمر للنبي ﷺ أن يقص القصة لقومه، والموحي هو الله سبحانه، ومفعول ﴿اسْتَمَعَ﴾ القرآن حذف لدلالة الكلام عليه، والنفر الجماعة من ثلاثة إلى تسعة على المشهور، وقيل: بل إلى أربعين.

ب. والعجب بفتحتين ما يدعو إلى التعجب منه لخروجه عن العادة الجارية في مثله، وإنما وصفوا القرآن بالعجب لأنه كلام خارق للعادة في لفظه ومعناه أتى به رجل أمي ما كان يقرأ ولا يكتب.

ج. والرشد إصابة الواقع وهو خلاف الغي، وهداية القرآن إلى الرشد دعوته إلى عقائد وأعمال

تتضمن للمتلبس بها سعادته الواقعية.

د. والمعنى: يا أيها الرسول قل للناس: ﴿أُوحِيَ﴾، أي أوحى الله، إلي أنه استمع القرآن جماعة من الجن فقالوا، لقومهم لما رجعوا إليهم، إنا سمعنا كلاما مقروا خارقا للعادة يهدي إلى معارف من عقائد وأعمال في التلبس بها إصابة الواقع والظفر بحقيقة السعادة.

٢. ﴿فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾ إخبار عن إيمانهم بالقرآن وتصديقهم بأنه حق، وقوله: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾ تأكيد لمعنى إيمانهم به أن إيمانهم بالقرآن إيمان بالله الذي أنزله فهو ربهم، وأن إيمانهم به تعالى إيمان توحيد لا يشركون به أحدا أبدا.

٣. وضع هنا مبحثا حول [الجن في القرآن (دراسة في الخلق والتكليف والصفات)]، خلاصته:«الميزان: ٢٠/ ٣٩»:

أ. الجن نوع من الخلق مستورون عن حواسنا، يصدق القرآن بوجودهم، ويذكر أنهم مخلوقون قبل الإنسان، وأنهم من النار (كما أن الإنسان من التراب)

ب. يعيشون ويموتون ويبعثون كالإنسان، وفيهم ذكور وإناث يتكاثرون بالتوالد والتناسل، ولهم شعور وإرادة، ويقدرون على حركات سريعة وأعمال شاقة (كما في قصص سليمان)

ج. الجن مكلفون كالإنسان، منهم مؤمنون وكفار، ومنهم صالحون وآخرون طالحون، وقد استمعوا للقرآن وآمنوا به، ودعوا قومهم إلى الإجابة.

د. إبليس من الجن، وله ذرية وقبيل، يروننا من حيث لا نراهم، وقد ورد ذلك في آيات متعددة.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: روى الواحدي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن وما رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه، عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم: قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبي ﷺ، عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم وقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا

قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً﴾ فأوحى الله إلى نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِ﴾، ورواه البخاري ومسلم أيضا في الصحيح.

• أقول: وروى القمي في تفسيره ما يقرب منه وقد أوردنا الرواية في تفسير سورة الأحقاف في ذيل قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِ﴾

• لكن ظاهر روايته أن النفر الذين نزلت فيهم آيات سورة الأحقاف هم النفر الذين نزلت فيهم هذه السورة وظاهر آيات السورتين لا يلائم ذلك فإن ظاهر قولهم المنقول في سورة الأحقاف: ﴿إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى (مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ) يَهْدِي إِلَى الْحَقِ﴾ الآية أنهم كانوا مؤمنين بموسى ومصدقين للتوراة وظاهر آيات هذه السورة أنهم كانوا مشركين لا يرون النبوة ولازم ذلك تغاير الطائفتين اللهم إلا أن يمنع الظهور.

ب. وفيه، عن علقمة بن قيس قال: قلت لعبد الله بن مسعود: من كان منكم مع النبي ﷺ ليلة الجن؟ فقال: ما كان منا معه أحد فقدناه ذات ليلة ونحن بمكة، فقلنا: اغتيل رسول الله ﷺ أو استطير، فانطلقنا نطلبه من الشعاب فلقيناه مقبلا من نحو حراء، فقلنا: يا رسول الله أين كنت؟ لقد أشفقنا عليك، وقلنا له: بتنا الليلة بشر ليلة بات بها قوم حين فقدناك، فقال لنا: إنه أتاني داعي الجن فذهبت أقرئهم القرآن، فذهب بنا وأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، فأما أن يكون صحبة منا أحد فلا.

٢. تعالي الله عن الصاحبة والولد:

المقطع [٢] من سورة الجنّ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٤١»:

١. ﴿وَأَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً﴾:

أ. فسر الجد بالعظمة وفسر بالحظ، والآية في معنى التأكيد لقولهم: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً﴾

ب. والقراءة المشهورة ﴿أَنَّهُ﴾ بالفتح، وقرئ بالكسر في هذه الآية وفيما بعدها من الآيات ـ اثنا عشر موردا ـ إلى قوله: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا﴾ فبالفتح وهو الأرجح لظهور سياق الآيات في أنها مقولة قول الجن.

ج. وأما قراءة الفتح فوجهها لا يخلو من خفاء، وقد وجهها بعضهم بأن الجملة ﴿وَأَنَّهُ﴾ معطوفة

على الضمير المجرور في قوله: ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ والتقدير وآمنا بأنه تعالى جد ربنا إلخ فهو إخبار منهم بالإيمان بنفي الصاحبة والولد منه تعالى على ما يقول به الوثنيون.

د. وهذا إنما يستقيم على قول الكوفيين من النحاة بجواز العطف على الضمير المتصل المجرور، وأما على قول البصريين منهم من عدم جوازه فقد وجهه بعضهم كما عن الفراء والزجاج والزمخشري بأنها معطوفة على محل الجار والمجرور وهو النصب فإن قوله: ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ في معنى صدقناه، والتقدير وصدقنا أنه تعالى جد ربنا إلخ، ولا يخفى ما فيه من التكلف.

هـ. ووجهه بعضهم بتقدير حرف الجر في الجملة المعطوفة وذلك مطرد في أن وأن، والتقدير آمنا به وبأنه تعالى جد ربنا (إلخ)

و. ويرد على الجميع أعم من العطف على الضمير المجرور أو على محله أو بتقدير حرف الجر أن المعنى إنما يستقيم حينئذ في قوله: ﴿وَأَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا﴾ إلخ، وقوله: ﴿وَأَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا﴾ إلخ، وأما بقية الآيات المصدرة بأن كقوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ﴾ إلخ، وقوله: ﴿وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ﴾ إلخ، وقوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ﴾ فلا يصح قطعا فلا معنى لأن يقال: آمنا أو صدقنا أنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله شططا، أو يقال: آمنا أو صدقنا أنه كان رجال من الإنس يعوذون إلخ، أو يقال: آمنا أو صدقنا أنا لمسنا السماء.

ز. ولا يندفع الإشكال إلا بالمصير إلى ما ذكره بعضهم أنه إذا وجه الفتح في الآيتين الأولين بتقدير الإيمان أو التصديق فليوجه في كل من الآيات الباقية بما يناسبها من التقدير.

ح. ووجه بعضهم الفتح بأن قوله: ﴿وَأَنَّهُ تَعالى﴾ إلخ وسائر الآيات المصدرة بأن معطوفة على قوله: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾، ولا يخفى فساده فإن محصله أن الآيات في مقام الإخبار عما أوحي إلى النبي ﷺ من أقوالهم وقد أخبر عن قولهم: إنا سمعنا قرآنا عجبا فآمنا به بعنوان أنه إخبار عن قولهم ثم حكى سائر أقوالهم بألفاظها فالمعنى أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا كذا وكذا وأوحي إلي أنه تعالى جد ربنا (إلخ) وأوحي إلي أنه كان يقول سفيهنا إلى آخر الآيات.

ط. فيرد عليه أن ما وقع في صدر الآيات من لفظة ﴿أَنَّهُ﴾ و﴿أَنَّهُمْ﴾ و﴿أَنَّا﴾ إن لم يكن جزء من لفظهم المحكي كان زائدا مخلا بالكلام، وإن كان جزء من كلامهم المحكي بلفظه لم يكن المحكي من مجموع

أن وما بعدها كلاما تاما واحتاج إلى تقدير ما يتم به كلاما حتى تصح الحكاية، ولم ينفع في ذلك عطفه على قوله: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ شيئا فلا تغفل.

٢. أحاديث وآثار: في القمي عن الربيع بن أنس قال: ليس لله تعالى جد وإنما قالته الجن بجهالة ـ فحكاه الله سبحانه كما قالت، وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام.

• أقول: المراد بالجد المنفي عنه تعالى الحظ والبخت.

٣. قول سفيه الجن على الله شططاً:

المقطع [٣] من سورة الجنّ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ [الجن: ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٤١»:

أ. السفه، على ما ذكره الراغب، خفة النفس لنقصان العقل، والشطط القول البعيد من الحق.

ب. والآية أيضا في معنى التأكيد لقولهم: ﴿لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾ ومرادهم بسفيههم من سبقهم من مشركي الجن، وقيل: المراد إبليس وهو من الجن، وهو بعيد من سياق قوله: ﴿كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا﴾

٤. ظن الجن أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً:

المقطع [٤] من سورة الجنّ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الجن: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٤١»:

١. اعتراف منهم بأنهم ظنوا أن الإنس والجن صادقون فيما يقولون ولا يكذبون على الله فلما وجدوهم مشركين وسمعوهم ينسبون إليه تعالى الصاحبة والولد أذعنوا به وقلدوهم فيما يقولون فأشركوا مثلهم حتى سمعوا القرآن فانكشف لهم الحق، وفيه تكذيب منهم للمشركين من الإنس والجن.

٥. استعاذة الإنس بالجن وزيادتهم رهقاً:

المقطع [٥] من سورة الجنّ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ [الجن: ٦ـ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٤١»:

١. ﴿وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً﴾:

أ. قال الراغب: (العوذ الالتجاء إلى الغير، وقال: رهقه الأمر غشيه بقهر)، وفسر الرهق بالإثم،

وبالطغيان، وبالخوف، وبالشر، وبالذلة والضعف، وهي تفاسير بلازم المعنى.

ب. والمراد بعوذ الإنس بالجن، على ما قيل: إن الرجل من العرب كان إذا نزل الوادي في سفره ليلا قال: أعوذ بعزيز هذا الوادي من شر سفهاء قومه، ونقل عن مقاتل أن أول من تعوذ بالجن قوم من اليمن ثم بنو حنيفة ثم فشا في العرب.

ج. ولا يبعد أن يكون المراد بالعوذ بالجن الاستعانة بهم في المقاصد من طريق الكهانة، وإليه يرجع ما نقل عن بعضهم أن المعنى كان رجال من الإنس يعوذون برجال من أجل الجن ومن معرتهم وأذاهم.

د. والضميران في قوله: ﴿فَزادُوهُمْ﴾ أولهما لرجال من الإنس وثانيهما لرجال من الجن والمعنى فزاد رجال الإنس رجال الجن رهقا بالتجائهم إليهم فاستكبر رجال الجن وطغوا وأثموا، ويجوز العكس بأن يكون الضمير الأول لرجال الجن والثاني لرجال الإنس، والمعنى فزاد رجال الجن رجال الإنس رهقا أي إثما وطغيانا أو ذلة وخوفا.

٢. ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَداً﴾:

أ. ضمير (أنهم) لرجال من الإنس، والخطاب في ﴿ظَنَنْتُمْ﴾ لقومهم من الجن، والمراد بالبعث بعث الرسول بالرسالة فالمشركون ينكرون ذلك، وقيل: المراد به الإحياء بعد الموت، وسياق الآيات التالية يؤيد الأول.

ب. وعن بعضهم أن هذه الآية والتي قبلها ليستا من كلام الجن بل كلامه تعالى معترضا بين الآيات المتضمنة لكلام الجن، وعليه فضمير ﴿أَنَّهُمْ﴾ للجن وخطاب ﴿ظَنَنْتُمْ﴾ للناس، وفيه أنه بعيد من السياق.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، بإسناده إلى زرارة قال: سألت أبا جعفر عن قول الله: ﴿وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً﴾ قال: كان الرجل ينطلق إلى الكاهن، الذي يوحي إليه الشيطان، فيقول: قل للشيطان: فلان قد عاذ بك.

٦. لمس الجن للسماء وكونها ملئت حرساً وشهباً:

المقطع [٦] من سورة الجنّ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا وَأَنَّا لَا نَدْرِي

أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨-١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٤٢»:

١. ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً﴾ لمس السماء الاقتراب منها بالصعود إليها، والحرس، على ما قيل، اسم جمع لحارس ولذا وصف بالمفرد والمراد بالحرس الشديد الحفاظ الأقوياء في دفع من يريد الاستراق منها ولذا شفع بالشهب وهي سلاحهم.

٢. ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً﴾:

أ. يفيد انضمام صدر الآية إلى الآية السابقة أن ملء السماء بالحرس الشديد والشهب مما حدث أخيرا وأنهم كانوا من قبل يقعدون من السماء مقاعد لاستماع كلام الملائكة ويفيد ذيل الآية بالتفريع على جميع ما تقدم أن من يستمع الآن منا بالقعود منها مقعدا للسمع يجد له شهابا من صفته أنه راصد له يرميه به الحرس.

ب. فيتحصل من مجموع الآيتين الإخبار بأنهم عثروا على حادثة سماوية جديدة مقارنة لنزول القرآن وبعثة النبي ﷺ وهي منع الجن من تلقي أخبار السماء باستراق السمع.

ج. ومن عجيب الاستدلال ما عن بعضهم أن في الآيتين ردا على من زعم أن الرجم حدث بعد مبعث رسول الله ﷺ لظهور قوله: ﴿مُلِئَتْ حَرَساً﴾ في أن الحادث هو الملء وكثرة الحرس لا أصل الحرس، وظهور قوله: ﴿نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ في أنا كنا نجد فيها بعض المقاعد خاليا من الحرس والشهب، والآن ملئت المقاعد كلها فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا.

د. ويدفعه أنه لو كان المراد بالآيتين هو الإخبار عن ملء السماء بالحرس وتكثير عددهم بحيث لا يوجد فيها مقاعد خالية منهم وقد كانت توجد قبل ذلك كان الواجب أن يتوجه النفي في قوله: ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً﴾ إلى السمع عن جميع المقاعد قبال إثبات السمع من بعض تلك المقاعد لا نفي مجرد السمع.

هـ. سلمنا أن المراد نفي السمع على الإطلاق وهو يكفي في ذلك لكن تعلق الغرض في الكلام بالإخبار عن الامتلاء بالحرس مع كون بعض المقاعد خالية عنهم قبل ذلك، وكذا تقييد قوله: ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ﴾، بقوله: ﴿الْآنَ﴾ يدل على حدوث أمر جديد في رجم الجن وهو استيعاب الرجم لهم في أي مقعد قعدوا والمنع من السمع مطلقا بعد ما كانوا يستمعون من بعض المقاعد من غير منع، وهذا المقدار كاف

للمدعي فيما يدعيه.

و. وليتنبه أن مدلول الآية حدوث رجم الجن بشهاب رصد وهو غير حدوث الشهاب السماوي وهو ظاهر فلا ورود لما قيل: إن الشهب السماوية كانت من الحوادث الجوية الموجودة قبل زمن النبي ﷺ ونزول القرآن.

ز. وجه عدم الورود أن الذي يظهر من القرآن حدوث رجم الشياطين من الجن بالشهب من غير تعرض لحدوث أصل الشهب، وقد تقدم في تفسير أول سورة الصافات بعض ما يتعلق بهذا المقام.

٣. ﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾:

أ. الرشد بفتحتين والرشد بالضم فالسكون خلاف الغي وتنكير (رَشَداً) لإفادة النوع أي نوعا من الرشد.

ب. هذا منهم إظهار للجهل والتحير فيما شاهدوه من أمر الرجم ومنع شياطين الجن من الاطلاع على أخبار السماء غير أنهم تنبهوا على أن ذلك لأمر ما يرجع إلى أهل الأرض إما خير أو شر وإذا كان خيرا فهو نوع هدى لهم وسعادة ولذا بدلوا الخير وهو المقابل للشر من الرشد، ويؤيده قولهم: ﴿أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ﴾ المشعر بالرحمة والعناية.

ج. وقد صرحوا بالفاعل لإرادة الرشد وحذفوه في جانب الشر أدبا ولا يراد شر من جانبه تعالى إلا لمن استحقه.

٧. من الجن الصالحون ومنهم دون ذلك:

المقطع [٧] من سورة الجنّ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٤٤»:

١. ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذلِكَ كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً﴾:

أ. الصلاح مقابل الطلاح، والمراد بدون ذلك ما يقرب منه رتبة، على ما قيل ـ، والظاهر أن دون بمعنى غير، ويؤيده قوله: ﴿كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً﴾ الدال على التفرق والتشتت والطرائق جمع طريقة وهي الطريق المطروقة المسلوكة، والقدد القطع جمع قدة بمعنى قطعة من القد بمعنى القطع وصفت الطرائق بالقدد لأن كل واحدة منها مقطوعة عن غيرها تنتهي بسالكها إلى غاية غير ما ينتهي به إليه غيرها، وإلى

هذا المعنى يرجع تفسير القدد بالطرائق المتفرقة المتشتتة.

ب. والظاهر أن المراد بقوله: ﴿الصَّالِحُونَ﴾ الصالحون بحسب الطبع الأولي في المعاشرة والمعاملة دون الصالحين بحسب الإيمان، ولو كان المراد صلاح الإيمان لكان الأنسب أن يذكر بعد ما سيجيء من حديث إيمانهم لما سمعوا الهدى.

ج. وذكر بعضهم أن قوله: ﴿طَرَائِقَ قِدَداً﴾ منصوب على الظرفية أي في طرائق قدد وهي المذاهب المتفرقة المتشتتة، وقال آخرون إنه على تقدير مضاف أي ذوي طرائق، ولا يبعد أن يكون من الاستعارة بتشبيههم أنفسهم في الاختلاف والتباين بالطرق المقطوع بعضها من بعض الموصلة إلى غايات متشتتة.

د. والمعنى: وأنا منا الصالحون طبعا ومنا غير ذلك كنا في مذاهب مختلفة أو ذوي مذاهب مختلفة أو كالطرق المقطوعة بعضها عن بعض.

٨. ظن الجن أن لن يعجزوا الله في الأرض:

المقطع [٨] من سورة الجنّ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللهَّ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٤٥»:

١. ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً﴾:

أ. الظن هو العلم اليقيني، والأنسب أن يكون المراد بقوله: ﴿لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الْأَرْضِ﴾ إعجازه تعالى بالغلبة عليه فيما يشاء فيها وذلك بالإفساد في الأرض وإخلال النظام الذي يجري فيها فإن إفسادهم لو أفسدوا من القدر، والمراد بقوله: ﴿وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً﴾ إعجازه تعالى بالهرب منه إذا طلبهم حتى يفوتوه فلا يقدر على الظفر بهم

ب. وقيل: المعنى لن نعجزه تعالى كائنين في الأرض ولن نعجزه هربا إلى السماء أي لن نعجزه لا في الأرض ولا في السماء هذا وهو كما ترى.

٩. إيمان الجن بالهدى وعدم خوفهم من نقصان أو رهق:

المقطع [٩] من سورة الجنّ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٤٥»:

١. ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً﴾:

أ. المراد بالهدى القرآن باعتبار ما يتضمنه من الهدى، والبخس النقص على سبيل الظلم، والرهق غشيان المكروه.

ب. والفاء في قوله: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنْ﴾ للتفريع وهو من تفريع العلة على المعلول لإفادة الحجة في إيمانهم بالقرآن من دون ريث ولا مهل.

ج. ومحصل المعنى: أنا لما سمعنا القرآن الذي هو الهدى بادرنا إلى الإيمان به من دون مكث لأن من آمن به فقد آمن بربه ومن يؤمن بربه فلا يخاف نقصانا في خير أو غشيانا من مكروه حتى يكف عن المبادرة والاستعجال ويتروى في الإقدام عليه لئلا يقع في بخس أو رهق.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في الاحتجاج، عن علي عليه السلام في حديث: فأقبل إليه الجن والنبي ﷺ ببطن النخل، فاعتذروا بأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا، ولقد أقبل إليه أحد وسبعون ألفا منهم، فبايعوه على الصوم والصلاة والزكاة، والحج والجهاد ونصح المسلمين، فاعتذروا بأنهم قالوا على الله شططا.

• أقول: بيعتهم للنبي ﷺ على الصوم والصلاة، يصدقها قولهم المحكي في أول السورة: ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ وقولهم: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ﴾، وأما كيفية عملهم بها وخاصة بالزكاة والجهاد فمجهولة لنا، واعتذارهم الأول المذكور لا يخلو من خفاء.

ب. في تفسير القمي، في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً﴾ قال: البخس النقصان، والرهق العذاب، وسئل العالم عن مؤمني الجن أيدخلون الجنة؟ فقال: لا ولكن لله حظائر بين الجنة والنار، يكون فيها مؤمنوا الجن وفساق الشيعة.

• أقول: لعل المراد بهذه الحظائر هي بعض درجات الجنة التي هي دون جنة الصالحين.

• واعلم أنه ورد في بعض الروايات من طرق أئمة أهل البيت عليه السلام تطبيق ما في الآيات من الهدى والطريقة على ولاية علي عليه السلام وهي من الجري وليست من التفسير في شيء.

١٠. من الجن المسلمون ومنهم القاسطون وحطب جهنم:

المقطع [١٠] من سورة الجنّ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤ـ١٥]، وفيه المسائل التالية

«الميزان: ٢٠/ ٤٥»:

١. ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً﴾:

أ. المراد بالإسلام تسليم الأمر لله تعالى فالمسلمون المسلمون له الأمر المطيعون له فيما يريده ويأمر به، والقاسطون هم المائلون إلى الباطل قال في المجمع: (القاسط هو العادل عن الحق والمقسط العادل إلى الحق)

ب. والمعنى: أنا معشر الجن منقسمون إلى من يسلم لأمر الله مطيعين له، وإلى من يعدل عن التسليم لأمر الله وهو الحق.

٢. ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً﴾ تحري الشيء توخيه وقصده، والمعنى فالذين أسلموا فأولئك قصدوا إصابة الواقع والظفر بالحق.

٣. ﴿وَأَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾:

أ. فيعذبون بتسعرهم واشتعالهم بأنفسهم كالقاسطين من الإنس قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ﴾ [البقرة: ٢٦]

ب. وقد عد كثير منهم قوله: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ﴾، إلى قوله: ﴿لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ تتمة لكلام الجن يخاطبون به قومهم وقيل: إنه من كلامه تعالى يخاطب به النبي ﷺ.

١١. لو استقام الجن على الطريق لسقاهم ماءً غدقاً:

المقطع [١١] من سورة الجنّ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٦-١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٤٦»:

١. ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾:

أ. ﴿أَنْ﴾ مخففة من الثقيلة، والمراد بالطريقة طريقة الإسلام، والاستقامة عليها لزومها والثبات على ما تقتضيه من الإيمان بالله وآياته.

ب. والماء الغدق الكثير منه، ولا يبعد أن يستفاد من السياق أن قوله: ﴿لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً﴾ مثل أريد به التوسعة في الرزق، ويؤيده قوله بعده: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾

ج. والمعنى: وأنه لو استقاموا أي الجن والإنس على طريقة الإسلام لله لرزقناهم رزقا كثيرا لنمتحنهم في رزقهم فالآية في معنى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]

د. والآية من كلامه تعالى معطوف على قوله في أول السورة: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾

٢. ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً﴾:

أ. العذاب الصعد هو الذي يتصعد على المعذب ويغلبه، وقيل: هو العذاب الشاق.

ب. والإعراض عن ذكر الله لازم عدم الاستقامة على الطريقة وهو الأصل في سلوك العذاب، ولذا وضع موضعه ليدل على السبب الأصلي في دخول النار.

ج. وهو الوجه أيضا في الالتفات عن التكلم مع الغير إلى الغيبة في قوله: ﴿ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ وكان مقتضى الظاهر أن يقال: ذكرنا وذلك أن صفة الربوبية هي المبدأ الأصلي لتعذيب المعرضين عن ذكره تعالى فوضعت موضع ضمير المتكلم مع الغير ليدل على المبدإ الأصلي كما وضع الإعراض عن الذكر موضع عدم الاستقامة ليدل على السبب.

د. قيل: وقوله: ﴿يَسْلُكْهُ﴾ مضمن معنى يدخله ولذا عدي إلى المفعول الثاني، والمعنى ظاهر.

١٢. المساجد لله فلا يجوز أن يُدعى مع الله أي أحد:

المقطع [١٢] من سورة الجنّ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٤٩»:

١. ﴿وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾:

أ. معطوف على قوله: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾، وجملة ﴿أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ﴾ في موضع التعليل لقوله: ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ والتقدير لا تدعوا مع الله أحدا غيره لأن المساجد له.

ب. والمراد بالدعاء العبادة وقد سماها الله دعاء كما في قوله: ﴿وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]

ج. وقد اختلف في المراد من المساجد فقيل: المراد به الكعبة، وقيل المسجد الحرام، وقيل: المسجد الحرام وبيت المقدس، ويدفعها كون المساجد جمعا لا ينطبق على الواحد والاثنين.

د. وقيل: الحرم، وهو تهكم لا دليل عليه، وقيل: الأرض كلها لقوله ﷺ: جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وفيه أنه لا يدل على أزيد من جواز العبادة في أي بقعة من بقاع الأرض خلافا لما هو المعروف عن اليهود والنصارى من عدم جواز عبادته تعالى في غير البيع والكنائس، وأما تسمية بقاعها مساجد حتى يحمل عليها عند الإطلاق فلا.

هـ. وقيل: المراد به الصلوات فلا يصلى إلا لله، وهو تهكم لا دليل عليه.

و. وعن الإمام الجواد عليه السلام: أن المراد بالمساجد الأعضاء السبعة، التي يسجد عليها في الصلاة، وهي الجبهة والكفان والركبتان وأصابع الرجلين، وستوافيك روايته في البحث الروائي التالي إن شاء الله، ونقل ذلك أيضا عن سعيد بن جبير والفراء والزجاج.

ز. والأنسب على هذا أن يكون المراد بكون مواضع السجود من الإنسان لله اختصاصها به اختصاصا تشريعيا، والمراد بالدعاء السجدة لكونها أظهر مصاديق العبادة أو الصلاة بما أنها تتضمن السجود لله سبحانه.

ح. والمعنى: وأوحي إلي أن أعضاء السجود يختص بالله تعالى فاسجدوا له بها، أو اعبدوه بها، ولا تسجدوا، أو لا تعبدوا، أحدا غيره.

٢. أحاديث وآثار:

أ. عن تفسير العياشي، عن أبي جعفر عليه السلام: أنه سأله المعتصم عن السارق من أي موضع يجب أن يقطع؟ فقال: إن القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع، فتترك الكف، فقال: وما الحجة في ذلك؟ قال: قول رسول الله ﷺ: السجود على سبعة أجزاء: الوجه واليدين والركبتين والرجلين، فإذا قطع من الكرسوع أو المرفق، لم يدع له يدا يسجد عليها وقال الله: ﴿وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ﴾ يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها، ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾ وما كان لله فلا يقطع، الحديث.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن حماد بن عيسى عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث: وسجد يعني أبا عبد الله عليه السلام على ثمانية أعظم: الكفين والركبتين وإبهامي الرجلين والجبهة والأنف، وقال: سبعة منها فرض يسجد عليها، وهي التي ذكرها الله في كتابه فقال: ﴿وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾ وهي الجبهة والكفان والركبتان والإبهامان، ووضع الأنف على الأرض سنة.

١٣. قيام النبي للدعاء وتكالب الأعداء عليه:

المقطع [١٣] من سورة الجنّ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٥٠»:

١. ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾:

أ. اللبد بالكسر فالفتح جمع لبدة بالضم فالسكون المجتمعة المتراكمة، والمراد بعبد الله النبي ﷺ كما تدل عليه الآية التالية، والتعبير بعبد الله كالتمهيد لقوله في الآية التالية: ﴿قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي﴾، والأنسب لسياق الآيات التالية أن يكون مرجع ضميري الجمع في قوله: ﴿كادُوا يَكُونُونَ﴾ المشركين وقد كانوا يزدحمون عليه ﷺ إذا صلى وقرأ القرآن يستهزءون ويرفعون أصواتهم فوق صوته على ما نقل.

ب. والمعنى: وأنه لما قام النبي ﷺ يعبد الله بالصلاة كاد المشركون يكونون بازدحامهم لبدا مجتمعين متراكمين.

ج. وقيل: الضميران للجن وأنهم اجتمعوا عليه وتراكموا ينظرون إليه متعجبين مما يشاهدون من عبادته وقراءته قرآنا لم يسمعوا كلاما يماثله.

د. وقيل: الضميران للمؤمنين بالنبي ﷺ المجتمعين عليه اقتداء به في صلاته إذا صلى وإنصاتا لما يتلوه من كلام الله.

- والوجهان لا يلائمان سياق الآيات التالية تلك الملاءمة كما تقدمت الإشارة إليه.

١٤. دعوة النبي لربه وعدم ملكه ضراً أو رشداً:

المقطع [١٤] من سورة الجنّ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢٠-٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٥٠»:

١. ﴿قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً﴾:

أ. أمر منه تعالى للنبي ﷺ أن يبين لهم وجه عبادته بيانا يزيل عنهم الحيرة حيث رأوا منه ما لم يكونوا رأوه من أحد غيره، ويتعجبون حاملين له على نوع من المكيدة والمكر بأصنامهم أو خدعة بهم لأغراض أخر دنيوية.

ب. ومحصل البيان: أني لست أريد بما آتي به من العمل شيئا من المقاصد التي تحسبونها وترمونني

بها وإنما أدعو ربي وحدة غير مشرك به أحدا وعبادة الإنسان لمن عرفه ربا لنفسه مما لا ينبغي أن يلام عليه أو يتعجب منه.

٢. ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَداً﴾:

أ. الذي يفيده سياق الآيات الكريمة أنه ﷺ يبين فيها بأمر من ربه موقع نفسه وبالنسبة إلى ربه وبالنسبة إلى الناس.

ب. أما موقعه بالنسبة إلى ربه فهو أنه يدعوه ولا يشرك به أحدا وهو قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً﴾

ج. وأما موقعه بالنسبة إليهم فهو أنه بشر مثلهم لا يملك لهم ضرا ولا رشدا حتى يضرهم بما يريد أن يرشدهم من الخير إلى ما يريد بها عنده من القدرة، وأنه مأمور من الله بدعوتهم أمرا ليس له إلا أن يمتثله فلا مجير يجيره منه ولا ملجأ يلتجئ إليه لو خالف وعصى كما ليس لهم إلا أن يطيعوا الله ورسوله ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا، وسيعلمون إذا رأوا ما يوعدون.

د. ولازم هذا السياق أن يكون المراد بملك الضر القدرة على إيقاع الضر بهم فيوقعه بهم إذا أراد، والمراد بملك الرشد القدرة على إيصال النفع إليهم بإصابة الواقع أي إني لا أدعي أني أقدر أن أضركم أو أنفعكم، وقيل: المراد بالضر الغي المقابل للرشد تعبيرا باسم المسبب عن السبب.

١٥. لا مجير من الله ومن يعص الله فله نار جهنم:

المقطع [١٥] من سورة الجنّ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٢ـ٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٥١»:

١. ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللهِ وَرِسالاتِهِ﴾:

أ. الإجارة إعطاء الجوار وحكمه حماية المجير للجار ومنعه ممن يقصده بسوء، والظاهر أن الملتحد اسم مكان وهو المكان الذي يعدل وينحرف إليه للتحرز من الشر، وقيل: المدخل ويتعلق به قوله: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ وهو كالقيد التوضيحي والضمير لله والبلاغ التبليغ.

ب. ﴿إِلَّا بَلاغاً﴾ استثناء من قوله: ﴿مُلْتَحَداً﴾ وقوله: ﴿مِنَ اللهِ﴾ متعلق بمقدر أي كائنا من الله وليس متعلقا بقوله: ﴿بَلاغاً﴾ لأنه يتعدى بعن لا بمن ولذا قال بعض من جعله متعلقا ببلاغا: إن (من) بمعنى عن، والمعنى على أي حال إلا تبليغ ما هو تعالى عليه من الأسماء والصفات.

ج. ﴿وَرِسالاتِهِ﴾ قيل: معطوف على ﴿بَلاغاً﴾ والتقدير إلا بلاغا من الله وإلا رسالاته وقيل: معطوف على لفظ الجلالة ومن بمعنى عن، والمعنى إلا بلاغا عن الله وعن رسالاته.

د. وفيما استثني منه بلاغا قول آخر وهو أنه مفعول ﴿لا أَمْلِكُ﴾ والمعنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا إلا تبليغا من الله ورسالاته، ويبعده الفصل بين المستثنى والمستثنى منه بقوله: ﴿لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ﴾ وهو كلام مستأنف.

هـ. ومعنى الآيتين على ما قدمنا: قل لن يجيرني من الله أحد فيمنعني منه ولن أجد من دونه مكانا التجئ إليه إلا تبليغا كائنا منه ورسالاته أي إلا أن أمتثل ما أمرني به من التبليغ منه تعالى ببيان أسمائه وصفاته وإلا رسالاته في شرائع الدين.

٢. ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً﴾:

أ. إفراد ضمير ﴿الله﴾ باعتبار لفظ ﴿مَنَ﴾ كما أن جمع ﴿خالِدِينَ﴾ باعتبار معناها.

ب. وعطف الرسول على الله في قوله: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ لكون معصيته معصية لله تعالى إذ ليس له إلا رسالة ربه فالرد عليه فيما أتي به رد على الله سبحانه وطاعته فيما يأمر به طاعة لله قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠]

ج. والمراد بالمعصية، كما يشهد به سياق الآيات السابقة، معصية ما أمر به من التوحيد أو التوحيد وما يتفرع عليه من أصول الدين وفروعه فلا يشمل التهديد والوعيد بخلود النار إلا الكافرين بأصل الدعوة دون مطلق أهل المعصية المتخلفين عن فروع الدين فالاحتجاج بالآية على تخليد مطلق العصاة في النار في غير محله.

د. والظاهر أن قوله: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ﴾ من كلام الله سبحانه لا من تتمة كلام النبي ﷺ.

٣. ﴿حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً﴾:

أ. لقوله: ﴿حَتَّى﴾ دلالة على معنى مدخولها غاية له ومدخولها يدل على أنهم كانوا يستضعفون

النبي ﷺ بعد ناصريه، وهم المؤمنون، ضعفاء واستقلال عدده بعد عددهم قليلا فالكلام يدل على معنى محذوف هو غايته كقولنا: لا يزالون يستضعفون ناصريك ويستقلون عددهم حتى إذا رأوا ما يوعدون.

ب. والمراد بها يوعدون نار جهنم لأنها هي الموعودة في الآية، والآية من كلامه تعالى يخاطب النبي ﷺ ولو كانت من كلامه وهي مصدرة بقوله تعالى ﴿قُلْ﴾ لكان من حق الكلام أن يقال: حتى إذا رأيتم ما توعدون فستعلمون.

١٦. الله عالم الغيب لا يظهره إلا لمن ارتضى من رسول:

المقطع [١٦] من سورة الجنّ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٥ـ٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٥٣»:

١. ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً﴾ الأمد الغاية التي ينتهي إليها، والآية بمنزلة دفع دخل تقتضيه حالهم كأنهم لما سمعوا الوعيد قالوا: متى يكون ذلك فقيل له: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ﴾

٢. ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ وبيان دلالته على عصمة الأنبياء وإطلاعهم على الغيب بإذن الله]، خلاصته:

أ. بيان أن الآية تثبت اختصاص علم الغيب بالله على نحو الأصالة، وتستثني من ارتضى من رسول، فيكون علمهم بالغيب تبعياً بتعليم من الله.

ب. إثبات أن الآية تدل على عصمة الرسول في أخذ الوحي وحفظه وتبليغه، لأن الله يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً من الملائكة لحفظ الوحي.

ج. توضيح أن قوله: ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يدل على أن الغرض الإلهي من الرصد

هو تحقق إبلاغ الرسالات إلى الناس، مما يستلزم عصمة الرسول في التبليغ قولاً وفعلاً.

د. بيان أن الاستثناء يشمل الرسل والأنبياء، وكذلك الأئمة الذين أطلعه الله على ما يشاء من غيبه، كما ورد في الروايات عن أهل البيت عليهم السلام.

هـ. توضيح أن إظهار الله للرسل على الغيب يشمل متن الرسالة (المعارف والشرائع) وآيات الرسالة (المعجزات والإخبار بالمغيبات)

و. عرض الروايات الواردة في تفسير الآية، وبيان أنها تدل على أن النبي والأئمة ورثوا علم الغيب من الله بإذنه.

سورة المزمل

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٤] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. السورة تأمر النبي ﷺ بقيام الليل والصلاة فيه، ليستعد بذلك لتلقي ثقل ما سيلقى عليه من القول الثقيل والقرآن الموحي إليه.

ب. وتأمره أن يصبر على ما يقولون فيه أنه شاعر أو كاهن أو مجنون إلى غير ذلك، ويهجرهم هجراً جميلاً.

ج. وفيها وعيد وإنذار للكفار، وتعميم الحكم لسائر المؤمنين.

د. وفي آخرها تخفيف ما للنبي ﷺ والمؤمنين.

هـ. والسورة مكية من عتائق السور النازلة في أول البعثة، حتى قيل: إنها ثانية السور النازلة على النبي ﷺ أو ثالثتها.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٢٩] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تأمر النبي ﷺ بقيام الليل وتلاوة القرآن، وتأمره بالصبر على أذى المشركين، وتذكر أن الله سيخلفه في الأرض، وتذكر عذاب الكافرين وتهديدهم بالسلاسل والأغلال، وتذكر أن النبي ﷺ لا يستطيع إكراه الناس على الإيمان، وأن الله هو الحسيب.

٢. الآيات [٢٠]:

أ. آية مبنية على التخفيف فيما أمر به النبي ﷺ في صدر السورة من قيام الليل والصلاة فيه، ثم عمم الحكم لسائر المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ الآية.

ب. ولسان الآية هو التخفيف بما تيسر من القرآن، من غير نسخ لأصل الحكم السابق بالمنع عن قيام ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه.

ج. وقد ورد في غير واحد من الأخبار أن الآية مكية نزلت بعد ثمانية أشهر أو سنة أو عشر سنين من نزول آيات صدر السورة، لكن يوهنه اشتمال الآية على قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ

وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾، فإن ظاهره أن المراد بالزكاة ـ وقد ذكرت قبلها الصلاة وبعدها الإنفاق المستحب ـ هو الزكاة المفروضة، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة بعد الهجرة.

د. وقول بعضهم: إن الزكاة فرضت بمكة من غير تعيين الأنصباء، والذي فرض بالمدينة تعيين الأنصباء، تحكم من غير دليل، وكذا قول بعضهم: إنه من الممكن أن تكون الآية مما تأخر حكمه عن نزوله.

هـ. على أن في الآية ذكراً من القتال إذ يقول: ﴿وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، ولم يكن من مصلحة الدعوة الحقة يومئذ ذاك، والظرف ذلك الظرف، أن يقع في متنها ذكر من القتال بأي وجه كان، فالظاهر أن الآية مدنية وليست بمكية، وقد مال إليه بعضهم.

١. أمر النبي بقيام الليل:

المقطع [١] من سورة المزّمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ [المزمل: ١-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٦٠»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾:

أ. بتشديد الزاي والميم وأصله المتزمل اسم فاعل من التزمل بمعنى التلفف بالثوب لنوم ونحوه، وظاهره أنه ﷺ كان قد تزمل بثوب للنوم فنزل عليه الوحي وخوطب بالمزمل.

ب. وليس في الخطاب به تهجين ولا تحسين كما توهمه بعضهم، نعم يمكن أن يستفاد من سياق الآيات أنه ﷺ كان قد قوبل في دعوته بالهزء والسخرية والإيذاء فاغتم في الله فتزمل بثوب لينام دفعا للهم فخوطب بالمزمل وأمر بقيام الليل والصلاة فيه والصبر على ما يقولون على حد قوله تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣] فأفيد بذلك أن عليه أن يقاوم الكرب العظام والنوائب المرة بالصلاة والصبر لا بالتزمل والنوم.

ج. وقيل: المراد يا أيها المتزمل بعباءة النبوة أي المتحمل لأثقالها، ولا شاهد عليه من جهة اللفظ.

٢. ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ المراد بقيام الليل القيام فيه إلى الصلاة فالليل مفعول به توسعا كما في قولهم: دخلت الدار، وقيل: معمول ﴿قُمِ﴾ مقدر و﴿اللَّيْلَ﴾ منصوب على الظرفية والتقدير قم إلى الصلاة في الليل، وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ استثناء من الليل.

٣. ﴿نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾:

أ. ظاهر السياق أنه بدل من ﴿اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ المتعلق به تكليف القيام، وضميرا ﴿مِنْهُ﴾ و﴿عَلَيْهِ﴾ للنصف، وضمير ﴿نِصْفَهُ﴾ لليل، والمعنى قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلا أو زد على النصف قليلا، والترديد بين الثلاثة للتخيير فقد خير بين قيام النصف وقيام أقل من النصف بقليل وقيام أكثر منه بقليل.

ب. وقيل: ﴿نِصْفَهُ﴾ بدل من المستثنى أعني ﴿قَلِيلاً﴾ فيكون المعنى قم الليل إلا نصفه أو انقص من النصف قليلا فقم أكثر من النصف بقليل أو زد على النصف فقم أقل من النصف، وتكون جملة البدل رافعا لإبهام المستثنى بالمطابقة ولإبهام المستثنى منه بالالتزام عكس الوجه السابق.

ج. والوجهان وإن اتحدا في النتيجة غير أن الوجه السابق أسبق إلى الذهن لأن الحاجة إلى رفع الإبهام عن متعلق الحكم أقدم من الحاجة إلى رفع الإبهام عن توابعه وملحقاته فكون قوله: (نصفه) إلخ بدلا من الليل ولازمه رفع إبهام متعلق التكليف بالمطابقة أسبق إلى الذهن من كونه بدلا من ﴿قَلِيلاً﴾

د. وقيل: إن نصفه بدل من الليل لكن المراد بالقليل القليل من الليالي دون القليل من أجزاء الليل، والمعنى قم نصف الليل أو انقص منه قليلا أو زد عليه إلا قليلا من الليالي وهي ليالي العذر من مرض أو غلبة نوم أو نحو ذلك، ولا بأس بهذا الوجه لكن الوجه الأول أسبق منه إلى الذهن.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج البزار والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل عن جابر قال: اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا: سموا هذا الرجل اسما يصدر الناس عنه فقالوا: كاهن، قالوا ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون، قالوا ساحر، قالوا: ليس بساحر، قالوا: يفرق بين الحبيب وحبيبه، فتفرق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبي ﷺ فتزمل في ثيابه وتدثر فيها، فأتاه جبريل فقال: يا أيها المزمل يا أيها المدثر.

• أقول: آخر الرواية لا يخلو من شيء حيث إن ظاهرها نزول السورتين معا، على أن القرآن حتى في سورة المدثر يحكي تسميتهم له ﷺ بألقاب السوء كالكاهن والساحر والمجنون والشاعر ولم يذكر فيها قولهم: يفرق بين الحبيب وحبيبه.

ب. أخرج عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ قلما ينام من الليل لما قال الله له: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾

ج. وفي الكشاف، عن عائشة: أنها سألت: ما كان تزميله؟ قالت: كان مرطا طوله أربع عشرة ذراعا، نصفه علي وأنا نائمة ونصفه عليه وهو يصلي، فسئلت: ما كان؟ قالت: والله ما كان خزا ولا قزا، ولا مرعزيا ولا إبريسما ولا صوفا، كان سداه شعرا ولحمته وبرا.

• أقول: الرواية مرمية بالوضع فإن السورة من العتائق النازلة بمكة، وعائشة إنما بنى عليها النبي ﷺ بالمدينة بعد الهجرة.

د. وعن جوامع الجامع، روي: أنه قد دخل على خديجة وقد جئث فرقا فقال: زملوني فبينا هو على ذلك إذ ناداه جبريل: ﴿يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾

هـ. أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت ﴿يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ مكث النبي ﷺ على هذه الحال عشر سنين، يقوم الليل كما أمره الله، وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه، فأنزل الله بعد عشر سنين ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾، إلى قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ فخفف الله عنهم بعد عشر سنين.

• أقول: وروي نزول آية التخفيف بعد سنة وروي أيضا نزولها بعد ثمانية أشهر، ولم يكن قيام الليل واجبا على غير النبي ﷺ كما أشير إليه بقوله تعالى ﴿إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ الآية كما تقدم، ويؤيده ما في الرواية من قوله: (وطائفة من أصحابه)

و. وفي التهذيب، بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ قال: أمره الله أن يصلي كل ليلة، إلا أن تأتي عليه ليلة من الليالي لا يصلي فيها شيئا.

• أقول: الرواية تشير إلى أحد الوجوه في الآية

ز. وفي المجمع: وقيل: إن نصفه بدل من القليل فيكون بيانا للمستثنى، ويؤيد هذا القول ما روي عن الصادق عليه السلام قال: القليل النصف أو انقص من القليل قليلا، أو زد على القليل قليلا.

٢. الأمر بترتيل القرآن:

المقطع [٢] من سورة المزّمّل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٦١»:

١. ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾:

أ. ترتيل القرآن تلاوته بتبيين حروفه على تواليها، والجملة معطوفة على قوله: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ أي قم الليل واقرأ القرآن بترتيل.

ب. والظاهر أن المراد بترتيل القرآن ترتيله في الصلاة أو المراد به الصلاة نفسها وقد عبر سبحانه عن الصلاة بنظير هذا التعبير في قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ [الإسراء: ٧٨]، وقيل: المراد إيجاب قراءة القرآن دون الصلاة.

٢. أحاديث وآثار:

أ. أخرج العسكري في المواعظ عن علي عليه السلام أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ قال: بينه تبيينا، ولا تنثره نثر الدقل، ولا تهذه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة.

• أقول: وروي هذا المعنى في أصول الكافي، بإسناده عن عبد الله بن سليمان عن الصادق عن علي عليه السلام ولفظ بينه تبيينا ولا تهذه هذ الشعر، ولا تنثره نثر الرمل، ولكن أفرغوا قلوبكم القاسية، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة.

ب. أخرج ابن أبي شيبة عن طاووس قال: سئل رسول الله ﷺ أي الناس أحسن قراءة، قال الذي إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله.

ج. وفي أصول الكافي، بإسناده عن علي بن أبي حمزة قال قال أبو عبد الله عليه السلام: إن القرآن لا يقرأ هذرمة ولكن يرتل ترتيلا، فإذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها، واسأل الله عز وجل الجنة، وإذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها، وتعوذ بالله من النار.

د. وفي المجمع: (في معنى الترتيل عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: هو أن تتمكث فيه وتحسن به صوتك.

هـ. وفيه، روي عن أم سلمة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته آية آية.

و. وفيه، عن أنس قال: كان ﷺ يمد صوته مدا.

٣. إلقاء القول الثقيل على النبي:

المقطع [٣] من سورة المزّمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٦١»:

١. ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾:

أ. الثقل كيفية جسمانية من خاصته أنه يشق حمل الجسم الثقيل ونقله من مكان إلى مكان وربما يستعار للمعاني إذا شق على النفس تحملها أو لم تطقها فربما أضيف إلى القول من جهة معناه فعد ثقيلا لتضمنه معنى يشق على النفس إدراكه أو لا تطيق فهمه أو تتحرج من تلقيه كدقائق الأنظار العلمية إذا ألقيت على الأفهام العامة، أو لتضمنه حقائق يصعب التحقق بها أو تكاليف يشق الإتيان بها والمداومة عليها.

ب. والقرآن قول إلهي ثقيل بكلا المعنيين:

• أما من حيث تلقي معناه فإنه كلام إلهي مأخوذ من ساحة العظمة والكبرياء لا تتلقاه إلا نفس طاهرة من كل دنس منقطع عن كل سبب إلا الله سبحانه، وكتاب عزيز له ظهر وبطن وتنزيل وتأويل تبيانا لكل شيء، وقد كان ثقله مشهودا من حال النبي ﷺ بما كان يأخذه من البرحاء وشبه الإغماء على ما وردت به الأخبار المستفيضة.

• وأما من حيث التحقق بحقيقة التوحيد وما يتبعها من الحقائق الاعتقادية فكفى في الإشارة إلى ثقله قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى﴾ [الرعد: ٣١]

• وأما من حيث القيام بما يشتمل عليه من أمر الدعوة وإقامة مراسم الدين الحنيف، وإظهاره على الدين كله فيشهد به ما لقي ﷺ من المصائب والمحن في سبيل الله والأذى في جنب الله على ما يشهد به الآيات القرآنية الحاكية لما لقيه النبي ﷺ من المشركين والكفار والمنافقين والذين في قلوبهم مرض من أنواع الإيذاء والهزء والجفاء.

ج. فقوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ المراد بالقول الثقيل القرآن العظيم على ما يسبق إلى الذهن من سياق هذه الآيات النازلة في أول البعثة، وبه فسره المفسرون.

د. والآية في مقام التعليل للحكم المدلول عليه بقوله: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ فتفيد بمقتضى السياق، والخطاب خاص بالنبي ﷺ، أن أمره بقيام الليل والتوجه فيه إليه تعالى بصلاة الليل تهيئة له وإعداد لكرامة القرب وشرف الحضور وإلقاء قول ثقيل فقيام الليل هي السبيل المؤدية إلى هذا الموقف الكريم وقد عد سبحانه صلاة الليل سبيلا إليه في قوله الآتي: ﴿إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾

هـ. وقد زاد سبحانه وعدا على ما في هذه الآية في قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾ [الإسراء: ٧٩] وقد تقدم معنى المقام المحمود في تفسير الآية.

و. وإذ كان من ثقل القرآن ثقله من حيث التحقق بحقائقه ومن حيث استجابته فيما يندب إليه من الشرائع والأحكام فهو ثقيل على الأمة كما هو ثقيل عليه ﷺ ومعنى الآية إنا سنوحي إليك قولا يثقل عليك وعلى أمتك أما ثقله عليه ﷺ فلما في التحقق بحقائقه من الصعوبة ولما فيه من محنة الرسالة وما يتبعها من الأذى في جنب الله وترك الراحة والدعة ومجاهدة النفس والانقطاع إلى الله مضافا إلى ما في تلقيه من مصدر الوحي من الجهد، وأما ثقله على أمته فلأنهم يشاركونه ﷺ في لزوم التحقق بحقائقه واتباع أوامره ونواهيه ورعاية حدوده كل طائفة منهم على قدر طاقته.

ز. وللقوم في معنى ثقل القرآن أقوال أخر:

- منها: أنه ثقيل بمعنى أنه عظيم الشأن متين رصين كما يقال: هذا كلام له وزن إذا كان واقعا موقعه.
- ومنها: أنه ثقيل في الميزان يوم القيامة حقيقة أو مجازا بمعنى كثرة الثواب عليه.
- ومنها: أنه ثقيل على الكفار والمنافقين بما له من الإعجاز وبما فيه من الوعيد.
- ومنها: أن ثقله كناية عن بقائه على وجه الدهر لأن الثقيل من شأنه أن يبقى ويثبت في مكانه.
- ومنها: غير ذلك والوجوه المذكورة وإن كانت لا بأس بها في نفسها لكن ما تقدم من الوجه هو الظاهر السابق إلى الذهن.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: (سأل الحارث بن هشام رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ: أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشد علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحيانا يتمثل الملك

رجلا فأعي ما يقول، قالت عائشة: إنه كان ليوحي إلى رسول الله ﷺ، وهو على راحلته فتضرب بجرانها، قالت: ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليرفض عرقا.

ب. وعن تفسير العياشي، بإسناده عن عيسى بن عبيد عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام قال: كان القرآن ينسخ بعضه بعضا، وإنما يؤخذ من أمر رسول الله ﷺ بآخره، وكان من آخر ما نزل عليه سورة المائدة، نسخت ما قبلها ولم ينسخها شيء، لقد نزلت عليه وهو على بغلة شهباء، وثقل عليها الوحي حتى وقفت، وتدلى بطنها حتى رأيت سرتها تكاد تمس الأرض.

• أقول: إن صحت الرواية كان ظهور أثر ثقل الوحي على الناقة أو البغلة من قبيل تجسم المعاني وكثيرا ما يوجد مثله فيما نقل من المعجزات وكرامات الأولياء، وأما اتصاف الوحي وهو كلام بالثقل المادي فغير معقول.

٤. ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً:

المقطع [٤] من سورة المزّمّل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٦٣»:

١. ﴿إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾:

أ. الآية الأولى في مقام التعليل لاختيار الليل وقتا لهذه الصلاة، والآية الثانية في مقام التعليل لترك النهار والإعراض عنه كما أن الآية السابقة أعني قوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ في مقام التعليل لتشريع أصل هذه الصلاة.

ب. فقوله: ﴿إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ الناشئة إما مصدر كالعاقبة والعافية بمعنى النشأة وهي الحدوث والتكون، وإما اسم فاعل من النشأة مضاف إلى موصوفه وكيف كان فالمراد بها الليل وإطلاق الحادثة على الليل كإطلاقها على سائر أجزاء الخلقة وربما قيل: إنها الصلاة في الليل ووطء الأرض وضع القدم عليها، وكونها أشد وطأ كناية عن كونها أثبت قدما لصفاء النفس وعدم تكدرها بالشواغل النهارية وقيل: الوطء مواطاة القلب اللسان وأيد بقراءة ﴿أَشَدُّ وَطْئاً﴾ والمراد بكونها أقوم قيلا كونها أثبت قولا وأصوب لحضور القلب وهدوء الأصوات.

ج. والمعنى أن حادثة الليل أو الصلاة في الليل هي أثبت قدما، أو أشد في مواطاة القلب اللسان

وأثبت قولا وأصوب لما أن الله جعل الليل سكنا يستتبع انقطاع الإنسان عن شواغل المعيشة إلى نفسه وفراغ باله.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في التهذيب، بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ قال: يعني بقوله: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ قيام الرجل عن فراشه يريد به الله عز وجل لا يريد به غيره.

• أقول: ورواه أيضا بسندين آخرين في التهذيب والعلل عن هشام عنه عليه السلام.

ب. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ الآية: والمروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام أنهما قالا: هي القيام في آخر الليل.

ج. أخرج ابن المنذر عن حسين بن علي أنه رئي يصلي بين المغرب والعشاء، فقيل له في ذلك؟ فقال: إنها من الناشئة.

٥. للنبي في النهار سبحاً طويلاً:

المقطع [٥] من سورة المزّمّل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٦٤»:

أ. السبح المشي السريع في الماء والسبح الطويل في النهار كناية عن الغور في مهمات المعاش وأنواع التقلب في قضاء حوائج الحياة.

ب. والمعنى أن لك في النهار مشاغل كثيرة تشتغل بها مستوعبة لا تدع لك فراغا تشتغل فيه بالتوجه التام إلى ربك والانقطاع إليه بذكره فعليك بالليل والصلاة فيه.

ج. وقيل: المعنى أن لك في النهار فراغا لنومك وتدبير أمر معاشك والتصرف في حوائجك فتهجد في الليل.

د. وقيل: المعنى أن لك في النهار فراغا فإن فاتك من الليل شيء أمكنك أن تتداركه في النهار وتقضيه فيه فالآية في معنى قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً﴾ [الفرقان: ٦٢]

هـ. والذي قدمناه من المعنى أنسب للمقام.

٦. ذكر اسم الله والتبتل إليه واتخاذه وكيلاً:

المقطع [٦] من سورة المزّمّل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨-٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٦٤»:

١. ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾:

أ. الظاهر أنه يصف صلاة الليل فهو كالعطف التفسيري على قوله: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ وعلى هذا فالمراد بذكر اسم الرب تعالى الذكر اللفظي بمواطاة من القلب وكذا المراد بالتبتل التبتل مع اللفظ.

ب. وقيل: الآية تعميم بعد التخصيص والمراد بالذكر دوام ذكره تعالى ليلا ونهارا على أي وجه كان من تسبيح وتحميد وصلاة وقراءة قرآن وغير ذلك، وإنما فسر الذكر بالدوام لأنه ﷺ لم ينسه تعالى حتى يؤمر بذكره، والمراد الدوام العرفي دون الحقيقي لعدم إمكانه)

ج. وفيه أنه إن أراد بالذكر الذكر اللفظي فعدم نسيانه ﷺ ربه تعالى لا ينافي أمره بالذكر اللفظي، وإن أراد ما يعم الذكر القلبي فهو ممنوع ولو سلم ففيه أولا أن عدم نسيانه ﷺ ربه إلى حين الخطاب لا ينافي أمره بذكره بعده وثانيا أن عده الدوام الحقيقي غير ممكن وحمل الدوام على العرفي وهم ناش عن عدم تحصيل المعنى على ما هو عليه فالله جل ذكره مذكور للإنسان لا يغيب عنه ولا لحظة سواء تنبه عليه الإنسان أو غفل عنه، ومن الممكن أن يعرفه الله نفسه بحيث لا يغفل عنه ولا في حال قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨] وقال: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] وقد تقدم في تفسير الآيتين وآخر سورة الأعراف أن ذلك لا يختص بالملائكة.

د. وبالجملة قوله: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ أمر بذكر اسم من أسمائه أو لفظ الجلالة خاصة وقيل: المراد به البسملة.

هـ. وفي قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ التفات عن التكلم مع الغير في قوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي﴾ إلى الغيبة ولعل الوجه فيه إيقاظ ذلة العبودية التي هي الرابطة بين العبد وربه، بذكر صفة الربوبية.

٢. ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾:

أ. فسر التبتل بالانقطاع أي وانقطع إلى الله، ومن المروي عن أئمة أهل البيت عليه السلام أن التبتل

رفع اليد إلى الله والتضرع إليه، وهذا المعنى أنسب بناء على حمل الذكر على الذكر اللفظي كما تقدم.

ب. ﴿تَبْتِيلاً﴾ مفعول مطلق ظاهرا وكان مقتضى الظاهر أن يقال: وتبتل إليه تبتلا فالعدول إلى التبتيل قيل: لتضمين تبتل معنى بتل، والمعنى وقطع نفسك من غيره إليه تقطيعا أو احمل نفسك على رفع اليد إليه والتضرع حملا، وقيل: لمراعاة الفواصل.

٣. ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾:

أ. وصف مقطوع عن الوصفية والتقدير هو رب المشرق والمغرب، ورب المشرق والمغرب في معنى رب العالم كله فإن المشرق والمغرب جهتان نسبيتان تشملان جهات العالم المشهود كلها، وإنما اختصا بالذكر لمناسبة ما تقدم من ذكر الليل والنهار المرتبطين بالشروق والغروب.

ب. وإنما لم يقتصر في الإشارة إلى ربوبيته تعالى بقوله السابق: ﴿رَبِّكَ﴾ للإيذان بأنه ﷺ مأمور باتخاذه ربا لأنه ربه ورب العالم كله لا لأنه ربه وحده كما ربما كان الرجل من الوثنيين يتخذ صنما لنفسه فحسب غير ما اتخذه غيره من الأصنام ولو كان اتخاذه ﷺ له تعالى ربا من هذا القبيل أو احتمل ذلك لم تصح دعوته إلى التوحيد.

ج. وليكون قوله: ﴿رَبِّكَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾، وهو في معنى رب العالم كله، توطئة وتمهيدا لقوله بعده: ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعلل به توحيد الألوهية فإن الألوهية وهي المعبودية من فروع الربوبية التي هي الملك والتدبير كما تقدم مرارا فهو تعالى الإله وحده لا إله إلا هو لأنه الرب وحده لا رب إلا هو.

٤. ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾:

أ. أي في جميع أمورك، وتوكيل الوكيل هو إقامة الإنسان غيره مقام نفسه بحيث تقوم إرادته مقام إرادته وعمله مقام عمله فاتخاذه تعالى وكيلا أن يرى الإنسان الأمر كله له وإليه تعالى أما في الأمور الخارجية والحوادث الكونية فأن لا يرى لنفسه ولا لشيء من الأسباب الظاهرية استقلالا في التأثير فلا مؤثر في الوجود بحقيقة معنى التأثير إلا الله فلا يتعلق بتأثير سبب من الأسباب برضى أو سخط أو سرور أو أسف وغير ذلك بل يتوسل إلى مقاصده ومآربه بما عرفه الله من الأسباب من غير أن يطمئن إلى استقلالها في التأثير ويرجع الظفر بالمطلوب إلى الله ليختار له ما يرتضيه.

ب. وأما الأمور التي لها تعلق بالعمل من العبادات والمعاملات فأن يجعل إرادته تابعة لإرادة ربه

التشريعية فيعمل على حسب ما يريده الله تعالى منه فيما شرع من الشريعة.

ج. ومن هنا يظهر أن لقوله: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ ارتباطا بقوله: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ وما تقدم عليه من الأوامر التشريعية كما أن له ارتباطا بما تأخر عنه من قوله: ﴿وَاصْبِرْ﴾ وقوله: ﴿اهْجُرْهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَذَرْنِي﴾

٥. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ وروى محمد بن مسلم وزرارة وحمران عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام أن التبتل هذا رفع اليدين في الصلاة وفي رواية أبي بصير قال: هو رفع يدك إلى الله وتضرعك.

• أقول: وينطبق على قنوت الصلاة، وفي رواية هو رفع اليدين وتحريك السبابتين، وفي رواية الإيماء بالإصبع وفي رواية الدعاء بإصبع واحدة يشير بها.

٧. الصبر على أذى المعاندين والهجر الجميل:

المقطع [٧] من سورة المزّمّل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٦٦»:

١. ﴿وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾:

أ. معطوف هو وما بعده على مدخول الفاء في قوله: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ فالمعنى اتخذه وكيلا ولازم اتخاذه وكيلا أن تصبر على ما يقولون مما فيه إيذاؤك والاستهزاء بك ورميك بما ليس فيك كقولهم: افترى على الله، كاهن شاعر، مجنون، أساطير الأولين وغير ذلك مما يقصه القرآن.

ب. وأن تهجرهم هجرا جميلا، والمراد بالهجر الجميل على ما يعطيه السياق أن يعاملهم بحسن الخلق والدعوة إلى الحق بالمناصحة، ولا يواجه قولهم بما في وسعه من المقابلة بالمثل، والآية لا تدافع آية القتال فلا وجه لقول من قال: إنها منسوخة بآية القتال.

٨. تهديد المكذبين أولي النعمة:

المقطع [٨] من سورة المزّمّل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ [المزمل: ١١ـ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٦٦»:

١. ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾:

أ. تهديد للكفار يقال: دعني وفلانا وذرني وفلانا أي لا تحل بيني وبينه حتى أنتقم منه.

ب. والمراد بالمكذبين أولي النعمة الكفار المذكورون في الآية السابقة أو رؤساؤهم المتبوعون، والجمع بين توصيفهم بالمكذبين وتوصيفهم بأولي النعمة للإشارة إلى علة ما يهددهم به من العذاب فإن تكذيبهم بالدعوة الإلهية وهم متنعمون بنعمة ربهم كفران منهم بالنعمة وجزاء الكفران سلب النعمة وتبديلها من النقمة.

ج. والمراد بالقليل الذي يمهلونه الزمان القليل الذي يمكثون في الأرض حتى يرجعوا إلى ربهم فيحاسبهم ويجازيهم قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَراهُ قَرِيباً﴾ [المعارج: ٧]، وقال: ﴿مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ﴾ [آل عمران: ١٩٧]

د. والآية بظاهرها عامة، وقيل: وعيد لهم بوقعة بدر وليس بظاهر، وفي الآية التفات عن الغيبة في ﴿رَبِّكَ﴾ إلى التكلم وحده في ﴿ذَرْنِي﴾ ولعل الوجه فيه تشديد التهديد بنسبة الأمر إليه سبحانه نفسه ثم التفت في قوله: ﴿إِنَّ لَدَيْنا﴾ إلى التكلم مع الغير للدلالة على العظمة.

٢. ﴿إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالاً وَجَحِيماً﴾ تعليل لقوله: ﴿ذَرْنِي﴾ والأنكال القيود، قال الراغب: (يقال: نكل عن الشيء ضعف وعجز، ونكلته قيدته والنكل، بالكسر فالسكون، قيد الدابة وحديدة اللجام لكونهما مانعين، والجمع الأنكال.، والجحمة شدة تأجج النار ومنه الجحيم)

٣. ﴿وَطَعاماً ذا غُصَّةٍ وَعَذاباً أَلِيماً﴾ قال في المجمع: (الغصة تردد اللقمة في الحلق ولا يسيغها آكلها يقال: غص بريقه يغص غصصا، وفي قلبه غصة من كذا وهي كاللدغة التي لا يسوغ معها الطعام والشراب) انتهى

٤. والآيتان تذكران نقم الآخرة التي بدلت منها نعم الدنيا جزاء لكفرانهم بنعم الله.

٥. ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾ ظرف للعذاب الموعود في الآيتين السابقتين، قال الراغب: (الرجف الاضطراب الشديد يقال: رجفت الأرض والبحر)، وفي المجمع: (الكثيب الرمل المجتمع الكثير، وهلت أهيله هيلا فهو مهيل إذا حرك أسفله فسال أعلاه)، والمعنى ظاهر.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَطَعاماً ذا غُصَّةٍ﴾ الآية: عن عبد الله بن عمر: أن النبي ﷺ سمع قارئا يقرأ هذا فصعق.

ب. وفي تفسير القمي في قوله: ﴿وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾ قال: مثل الرمل ينحدر.

٩. إرسال النبي إلى قومه كإرسال موسى إلى فرعون:

المقطع [٩] من سورة المزّمل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥-١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٦٨»:

١. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾:

أ. إنذار للمكذبين أولي النعمة من قومه ﷺ بعد ما أوعد مطلق المكذبين أولي النعمة بما أعد لهم من العذاب يوم القيامة بقياس حالهم إلى حال فرعون المستكبر على الله ورسوله المستذل لرسول الله ومن آمن معه من قومه ثم قرع أسماعهم بما انتهى إليه أمر فرعون من أخذ الله له أخذا وبيلا فليتعظوا وليأخذوا حذرهم.

ب. وفي الآية التفات عن الغيبة إلى الخطاب كان المتكلم لما أوعدهم بالعذاب على الغيبة هاج به الوجد على أولئك المكذبين بما يلقون أنفسهم بأيديهم إلى الهلاك الأبدي لسفاهة رأيهم فشافههم بالإنذار ليرتفع عن أنفسهم أي شك وترديد وتتم عليهم الحجة ولعلهم يتقون، ولذا عقب قياسهم إلى فرعون وقياس النبي ﷺ إلى موسى عليه السلام والإشارة إلى عقابه أمر فرعون بقوله: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً﴾

ج. فقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شاهِداً عَلَيْكُمْ﴾ إشارة إلى تصديق رسالة النبي ﷺ من قبله تعالى وشهادته على أعمالهم بتحملها في الدنيا وتأديتها يوم القيامة، وقد تقدم البحث عن معنى شهادة الأعمال في الآيات المشتملة عليها مرارا، وفي الإشارة إلى شهادته ﷺ نوع زجر لهم عن عصيانه ومخالفته وتكذيبه.

٢. ﴿كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾ هو موسى بن عمران عليه السلام.

٣. ﴿فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾:

أ. أي شديدا ثقيلا.

ب. إشارة إلى عاقبة أمر فرعون في عصيانه موسى عليه السلام، وفي التعبير عن موسى بالرسول إشارة إلى أن السبب الموجب لأخذ فرعون مخالفته أمر رسالته لا نفس موسى بما أنه موسى، وإذا كان السبب هو مخالفة الرسالة فليحذروا مخالفة رسالة محمد ﷺ.

ج. كما أن وضع الظاهر موضع الضمير في قوله: ﴿فَعَصى فِرْعَوْنُ﴾ للإيماء إلى أن ما كان له من العزة والعلو في الأرض والتبجح بكثرة العدة وسعة المملكة ونفوذ المشية لم يغن عنه شيئا ولم يدفع عنه عذاب الله فما الظن بهؤلاء المكذبين؟ وهم كما قال الله: ﴿جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ﴾ [ص: ١١]

١٠. هول يوم القيامة الذي يشيب فيه الولدان:

المقطع [١٠] من سورة المزّمّل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٧ـ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٦٩»:

١. ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً﴾ نسبة الاتقاء إلى اليوم من المجاز العقلي والمراد اتقاء العذاب الموعود فيه، وعليه فيوما مفعول به لتتقون، وقيل: مفعول ﴿تَتَّقُونَ﴾ محذوف و﴿يَوْماً﴾ ظرف له والتقدير فكيف تتقون العذاب الكائن في يوم، وقيل: المفعول محذوف و﴿يَوْماً﴾ ظرف للاتقاء وقيل غير ذلك.

٢. ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً﴾ الشيب جمع أشيب مقابل الشاب، وجعل الولدان شيبا كناية عن شدة اليوم لا عن طوله.

٣. ﴿السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ إشارة بعد إشارة إلى شدة اليوم، والانفطار الانشقاق وتذكير الصفة لكون السماء جائز الوجهين يذكر ويؤنث، وضمير (بِهِ) لليوم، والباء بمعنى في أو للسببية، والمعنى السماء منشقة في ذلك اليوم أو بسبب ذلك اليوم أي بسبب شدته.

٤. ﴿كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ استئناف لتسجيل ما تقدم من الوعيد وأنه حتم مقضي ونسبة الوعد إلى ضميره تعالى لعله للإشعار بأن لا يصلح لهذا الوعد إلا الله تعالى فيكفي فيه الضمير من غير حاجة إلى ذكره باسمه.

١١. القرآن تذكرة لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً:

المقطع [١١] من سورة المزّمّل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٦٩»:

١. ﴿إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾:

أ. الإشارة بهذه إلى الآيات السابقة بما تشتمل عليه من القوارع والزواجر، والتذكرة الموعظة التي يذكر بها ما يعمل عليه.

ب. ﴿فَمَنْ شاءَ﴾ مفعول ﴿شاءَ﴾ محذوف والمعروف في مثل هذا المورد أن يقدر المفعول من جنس الجواب والسياق يلائمه، والتقدير فمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا اتخذ، وقيل: المقدر الاتعاظ، والمراد باتخاذ السبيل إليه اتخاذ السبيل إلى التقرب منه، والسبيل هو الإيمان والطاعة هذا ما ذكره المفسرون.

ج. ومن الممكن أن تكون هذه إشارة إلى ما تقدم في صدر السورة من الآيات النادبة إلى قيام الليل والتهجد فيه، والآية مسوقة لتوسعة الخطاب وتعميمه لغير النبي ﷺ من المؤمنين بعد ما كان خطاب صدر الصورة مختصا به ﷺ، والدليل على هذا التعميم قوله: ﴿فَمَنْ شاءَ﴾

د. ويؤيد ما ذكرنا وقوع هذه الآية ﴿إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ بعينها في سورة الدهر بعد ما أشير إلى صلاة الليل بقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ ويستنتج من ذلك أن صلاة الليل سبيل خاصة تهدي العبد إلى ربه.

١٢. علم الله بقيام النبي ومن معه الليل وقدره وتخفيفه على المؤمنين:

المقطع [١٢] من سورة المزّمّل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٧٤»:

١. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾، الخطاب للنبي ﷺ وفي التعبير بقوله: ﴿رَبَّكَ﴾ تلويح إلى شمول الرحمة والعناية الإلهية، وكذا في قوله: ﴿يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ مضافا إلى ما فيه من لائحة الشكر قال تعالى: ﴿وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾ [الدهر: ٢٢]

٢. ﴿تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾:

أ. أدنى اسم تفضيل من الدنو بمعنى القرب، وقد جرى العرف على استعمال أدنى فيما يقرب من الشيء وهو أقل فيقال: إن عدتهم أدنى من عشرة إذا كانوا تسعة مثلا دون ما لو كانوا أحد عشر فمعنى قوله: ﴿أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ﴾ أقرب من ثلثيه وأقل بقليل.

ب. والواو العاطفة في قوله: ﴿وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ لمطلق الجمع والمراد أنه يعلم أنك تقوم في بعض الليالي أدنى من ثلثي الليل وفي بعضها نصفه وفي بعضها ثلثه.

٣. ﴿وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ المراد المعية في الإيمان و﴿مِنْ﴾ للتبعيض فالآية تدل على أن بعضهم كان يقوم الليل كما كان يقومه النبي ﷺ، وقيل (من) بيانية، وهو كما ترى.

٤. ﴿وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ﴾ في مقام التعليل لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾ والمعنى وكيف لا يعلم وهو الله الذي إليه الخلق والتقدير ففي تعيين قدر الليل والنهار تعيين ثلثهما ونصفهما وثلثيهما، ونسبة تقدير الليل والنهار إلى اسم الجلالة دون اسم الرب وغيره لأن التقدير من شئون الخلق والخلق إلى الله الذي إليه ينتهي كل شيء.

٥. ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾:

أ. الإحصاء تحصيل مقدار الشيء وعدده والإحاطة به، وضمير ﴿لَنْ تُحْصُوهُ﴾ للتقدير أو للقيام مقدار ثلث الليل أو نصفه أو أدنى من ثلثيه، وإحصاء ذلك مع اختلاف الليالي طولا وقصرا في أيام السنة مما لا يتيسر لعامة المكلفين ويشتد عسرا لمن نام أول الليل وأراد القيام بأحد المقادير الثلاثة دون أن يحتاط بقيام جميع الليل أو ما في حكمه.

ب. فالمراد بقوله: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ﴾ علمه تعالى بعدم تيسر إحصاء المقدار الذي أمروا بقيامه من الليل لعامة المكلفين.

ج. والمراد بقوله: ﴿فَتابَ عَلَيْكُمْ﴾ توبته تعالى ورجوعه إليهم بمعنى انعطاف الرحمة الإلهية عليهم بالتخفيف فلله سبحانه توبة على عباده ببسط رحمته عليهم وأثرها توفيقهم للتوبة أو لمطلق الطاعة أو رفع بعض التكاليف أو التخفيف قال تعالى: ﴿ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨]، كما أن له توبة عليهم بمعنى الرجوع إليهم بعد توبتهم وأثرها مغفرة ذنوبهم، وقد تقدمت الإشارة إليه.

د. والمراد بقوله: ﴿فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ التخفيف في قيام الليل من حيث المقدار لعامة

المكلفين تفريعا على علمه تعالى أنهم لن يحصوه.

هـ. ولازم ذلك التوسعة في التكليف بقيام الليل من حيث المقدار حتى يسع لعامة المكلفين الشاق عليهم إحصاؤه دون النسخ بمعنى كون قيام الثلث أو النصف أو الأدنى من الثلثين لمن استطاع ذلك بدعة محرمة وذلك أن الإحصاء المذكور إنما لا يتيسر لمجموع المكلفين لا لجميعهم ولو امتنع لجميعهم ولم يتيسر لأحدهم لم يشرع من أصله ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

و. على أنه تعالى يصدق لنبيه ﷺ وطائفة من الذين معه قيام الثلث والنصف والأدنى من الثلثين وينسب عدم التمكن من الإحصاء إلى الجميع وهم لا محالة هم القائمون وغيرهم فالحكم إنما كان شاقا على المجموع من حيث المجموع دون كل واحد فوسع في التكليف بقوله: ﴿فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ وسهل الأمر بالتخفيف ليكون لعامة المكلفين فيه نصيب مع بقاء الأصل المشتمل عليه صدر السورة على حاله لمن تمكن من الإحصاء وإرادة، والحكم استحبابي لسائر المؤمنين وإن كان ظاهر ما للنبي ﷺ من الخطاب الوجوب كما تقدمت الإشارة إليه.

ز. وللقوم في كون المراد بقيام الليل الصلاة فيه أو قراءة القرآن خارج الصلاة، وعلى الأول في كونه واجبا على النبي ﷺ والمؤمنين أو مستحبا للجميع أو واجبا على النبي ﷺ مستحبا لغيره ثم في نسخ الحكم بالتخفيف بما تيسر بهذه الآية أو تبديل الصلاة من قراءة ما تيسر من القرآن أقوال لا كثير جدوى في التعرض لها والبحث عنها.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ، أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ ففعل النبي ﷺ ذلك وبشر الناس به، فاشتد ذلك عليهم، و﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ﴾ وكان الرجل يقوم ولا يدري متى ينتصف الليل، ومتى يكون الثلثان، وكان الرجل يقوم حتى يصبح مخافة أن لا يحفظه، فأنزل الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾، إلى قوله: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ﴾ يقول: متى يكون النصف والثلث نسخت هذه الآية ﴿فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾، واعلموا أنه لم يأت نبي قط إلا خلا بصلاة الليل، ولا جاء نبي قط بصلاة الليل في أول الليل.

• أقول: محصل الرواية أن صدر السورة توجب صلاة الليل وذيلها تنسخها، وروي ما يقرب منه

من طرق أهل السنة عن ابن عباس وغيره، وقد تقدم ما يتعلق به في البيان السابق.

ب. وفي المجمع: (روى الحاكم أبو القاسم إبراهيم الحسكاني بإسناده عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ قال: علي وأبو ذر.

١٣. التيسير على المرضى والمسافرين والمجاهدين:

المقطع [١٣] من سورة المزّمّل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٧٦»:

١. ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ الله وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله﴾:

أ. إشارة إلى مصلحة أخرى مقتضية للتخفيف في أمر القيام ثلث الليل أو نصفه أو أدنى من ثلثيه، وراء كونه شاقا على عامة المكلفين بالصفة المذكورة أولا فإن الإحصاء المذكور للمريض والمسافر والمقاتل مع ما هم عليه من الحال شاق عسير جدا.

ب. والمراد بالضرب في الأرض للابتغاء من فضل الله طلب الرزق بالمسافرة من أرض إلى أرض للتجارة.

٢. ﴿فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَقْرِضُوا الله قَرْضاً حَسَناً﴾:

أ. تكرار للتخفيف تأكيدا، وضمير ﴿مِنْهُ﴾ للقرآن، والمراد الإتيان بالصلاة على ما يناسب سعة الوقت الذي قاموا فيه.

ب. والمراد بالصلاة المأمور بإقامتها الفريضة فإن كانت الآية مدنية فالفرائض الخمس اليومية وإن كانت مكية فبحسب ما كانت مفروضة من الصلاة، والمراد بالزكاة الزكاة المفروضة، والمراد بإقراضه تعالى غير الزكاة من الإنفاقات المالية في سبيل الله.

ج. وعطف الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقراض للتلويح إلى أن التكاليف الدينية على حالها في وجوب الاهتمام بها والاعتناء بأمرها، فلا يتوهمن متوهم سريان التخفيف والمسامحة في جميع

التكاليف فالآية نظيرة قوله في آية النجوى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ١٣]

٣. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: في قوله تعالى: ﴿فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ روي عن الرضا عن أبيه عن جده عليه السلام قال: ما تيسر منه لكم فيه خشوع القلب وصفاء السر.

ب. أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس عن النبي ﷺ ﴿فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ قال: مائة آية.

ج. أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ما من جالب يجلب طعاما إلى بلد من بلاد المسلمين، فيبيعه بسعر يومه، إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهيد، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ، وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾

د. وفي تفسير القمي، بإسناده عن زرعة عن سماعة قال: سألته عن قول الله: ﴿وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ قال: هو غير الزكاة.

١٤. تقديم الخير والاستغفار ووجدانه عند الله:

المقطع [١٤] من سورة المزّمّل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٧٧»:

١. ﴿وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾:

أ. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ بيان للموصول، والمراد بالخير مطلق الطاعة أعم من الواجبة والمندوبة، و﴿هُوَ﴾ ضمير فصل أو تأكيد للضمير في (تجدوه)

ب. والمعنى: والطاعة التي تقدمونها لأنفسكم، أي لتعيشوا بها في الآخرة، تجدونها عند الله، أي في يوم اللقاء، خيرا من كل ما تعملون أو تتركون وأعظم أجرا.

٢. ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ختم الكلام بالأمر بالاستغفار، وفي قوله: ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إشعار بوعد المغفرة والرحمة، ولا يبعد أن يكون المراد بالاستغفار الإتيان بمطلق الطاعات لأنها

وسائل يتوسل بها إلى مغفرة الله فالإتيان بها استغفار.

٣. أحاديث وآثار: في الخصال، عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الأربعمائة: أكثروا الاستغفار تجلبوا الرزق، وقدموا ما استطعتم من عمل الخير تجدوه غدا.

• أقول: ذيله مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾

سورة المدثر

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٢] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تتضمن السورة أمر النبي ﷺ بالإنذار في سياق يلوح منه كونه من أوامر أوائل البعثة، ثم الإشارة إلى عظم شأن القرآن الكريم وجلالة قدره، والوعيد الشديد على من يواجهه بالإنكار والرمي بالسحر، وذم المعرضين عن دعوته.

ب. والسورة مكية من العتائق النازلة في أوائل البعثة وظهور الدعوة، حتى قيل: إنها أول سورة نزلت من القرآن، وإن كان يكذبه نفس آيات السورة الصريحة في سبق قراءته ﷺ القرآن على القوم وتكذيبهم به وإعراضهم عنهم ورميهم له بأنه سحر يؤثر.

ج. ولذا مال بعضهم إلى أن النازل أولاً هي الآيات السبع الواقعة في أول السورة، ولازمه كون السورة غير نازلة دفعة، وهو وإن كان غير بعيد بالنظر إلى متن الآيات السبع، لكن يدفعه سياق أول سورة العلق الظاهر في كونه أول ما نزل من القرآن.

د. واحتمل بعضهم أن تكون السورة أول ما نزل على النبي ﷺ عند الأمر بإعلان الدعوة بعد إخفائها مدة في أول البعثة، فهي في معنى قوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، وبذلك جمع بين ما ورد من أنها أول ما نزل، وما ورد أنها نزلت بعد سورة العلق، وما ورد أن سورتي المزمل والمدثر نزلتا معاً، وهذا القول لا يتعدى طور الاحتمال.

هـ. وكيف كان فالمتيقن أن السورة من أوائل ما نزل على النبي ﷺ من السور القرآنية، والآيات السبع التي نقلناها تتضمن الأمر بالإنذار وسائر الخصال التي تلزمه مما وصاه الله به.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٧] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تأمر النبي ﷺ بالقيام والإنذار، وتأمره بتعظيم ربه وتطهير ثيابه وهجر الأوثان، وألا يمنّ مستكثراً.

٢. الآيات [٨ ـ ٣١] في الآيات وعيد شديد للطاعنين في القرآن الرامين له بأنه سحر، والمستهزئين

لبعض ما فيه من الحقائق.

٣. الآيات [٨ ـ ٤٨] في الآيات تنزيه للقرآن الكريم عما رموه به، وتسجيل أنه إحدى الآيات الإلهية الكبرى، فيه إنذار البشر كافة، وفي اتباعه فك نفوسهم عن رهانة أعمالهم التي تسوقهم إلى سقر.

٤. الآيات [٤٩ ـ ٥٦]:

أ. في معنى الاستنتاج مما تقدم من الوعيد والوعد، أورد في صورة التعجب من إعراضهم عن تذكرة القرآن وتنفرهم عن الحق الصريح، كأنه قيل: فإذا كان كذلك فعليهم أن يجيبوا دعوة الحق ويتذكروا بالتذكرة، فمن العجب أنهم معرضون عن ذلك.

ب. كلا، بل لا يؤمنون بالرسالة، ويريد كل امرئ منهم أن ينزل عليه كتاب من الله، كلا بل لا يخافون الآخرة فلا يرتدعون عن وعيد.

ج. ثم يعرض عليهم التذكرة عرضاً، فهم على خيرة من القبول والرد، فإن شاءوا قبلوا وإن شاءوا ردوا، لكن عليهم أن يعلموا أنهم غير مستقلين في مشيتهم وليسوا بمعجزين لله سبحانه، فليس لهم أن يذكروا إلا أن يشاء الله، وحكم القدر جار فيهم البتة.

١. الأمر بالإنذار والتكبير وتطهير الثياب وهجر الرجز:

المقطع [١] من سورة المدّثّر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ١ـ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٧٩»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾:

أ. المدثر بتشديد الدال والثاء أصله المتدثر اسم فاعل من التدثر بمعنى التغطي بالثياب عند النوم.

ب. والمعنى: يا أيها المتغطي بالثياب للنوم خطاب للنبي ﷺ وقد كان على هذه الحال فخوطب بوصف مأخوذ من حاله تأنيسا وملاطفة نظير قوله: ﴿يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾

ج. وقيل: المراد بالتدثر تلبسه ﷺ بالنبوة بتشبيهها بلباس يتحلى به ويتزين.

د. وقيل: المراد به اعتزاله ﷺ وغيبته عن النظر فهو خطاب له بما كان عليه في غار حراء.

هـ. وقيل: المراد به الاستراحة والفراغ فكأنه قيل له ﷺ: يا أيها المستريح الفارغ قد انقضى زمن

الراحة وأقبل زمن متاعب التكاليف وهداية الناس.

• وهذه الوجوه وإن كانت في نفسها لا بأس بها لكن الذي يسبق إلى الذهن هو المعنى الأول.

٢. ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾:

أ. الظاهر أن المراد به الأمر بالإنذار من غير نظر إلى من ينذر فالمعنى افعل الإنذار، وذكر بعضهم أن مفعول الفعل محذوف، والتقدير أنذر عشيرتك الأقربين لمناسبته لابتداء الدعوة كما ورد في سورة الشعراء.

ب. وذكر آخرون أن المفعول المحذوف عام وهو جميع الناس لقوله: ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]

ج. ولم يذكر التبشير مع الإنذار مع أنهما كالمتلازمين في تمام الدعوة لأن السورة مما نزل في ابتداء الدعوة والإنذار هو الغالب إذ ذاك.

٣. ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾:

أ. أي أنسب ربك إلى الكبرياء والعظمة اعتقادا وعملا قولا وفعلا وهو تنزيهه تعالى من أن يعادله أو يفوقه شيء فلا شيء يشاركه أو يغلبه أو يمانعه، ولا نقص يعرضه، ولا وصف يحده.

ب. ولذا ورد عن أئمة أهل البيت عليه السلام أن معنى التكبير: الله أكبر من أن يوصف، فهو تعالى أكبر من كل وصف نصفه به حتى من هذا الوصف، وهذا هو المناسب للتوحيد الإسلامي الذي يفوق ما نجده من معنى التوحيد في سائر الشرائع السماوية.

ج. وهذا الذي ذكرناه هو الفرق بين كلمتي التكبير والتسبيح، الله أكبر وسبحان الله، فسبحان الله تنزيه له تعالى عن كل وصف عدمي مبني على النقص كالموت والعجز والجهل وغير ذلك، والله أكبر تنزيه مطلق له تعالى عن كل وصف نصفه به أعم من أن يكون عدميا أو وجوديا حتى من نفس هذا الوصف لما أن كل مفهوم محدود في نفسه لا يتعدى إلى غيره من المفاهيم وهو تعالى لا يحيط به حد، فافهم ذلك.

د. وقيل: المراد الأمر بالتكبير في الصلاة.

هـ. والتعبير عنه تعالى بربك لا يخلو من إشعار بأن توحيده تعالى يومئذ كان يختص به.

و. قال في الكشاف، في قوله: ﴿فَكَبِّرْ﴾: ودخلت الفاء لمعنى الشرط كأنه قيل: وما كان فلا تدع

تكبيره.

٤. ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾:

أ. قيل: كناية عن إصلاح العمل، ولا يخلو من وجه فإن العمل بمنزلة الثياب للنفس بما لها من الاعتقاد فالظاهر عنوان الباطن، وكثيرا ما يكنى في كلامهم عن صلاح العمل بطهارة الثياب.

ب. وقيل: كناية عن تزكية النفس وتنزيهها عن الذنوب والمعاصي.

ج. وقيل: المراد تقصير الثياب لأنه أبعد من النجاسة ولو طالت وانجرت على الأرض لم يؤمن أن تتنجس.

د. وقيل: المراد تطهير الأزواج من الكفر والمعاصي لقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]

هـ. وقيل: الكلام على ظاهره والمراد تطهير الثياب من النجاسات للصلاة والأقرب على هذا أن يجعل قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ إشارة إلى تكبير الصلاة وتكون الآيتان مسوقتين لتشريع أصل الصلاة مقارنا للأمر بالدعوة، ولا يرد عليه ما قيل: إن نزول هذه الآيات كان حيث لا صلاة أصلا وذلك أن تشريع الفرائض الخمس اليومية على ما هي عليها اليوم وإن كان في ليلة المعراج وهي جميعا عشر ركعات ثم زيد عليها سبع ركعات إلا أن أصل الصلاة كان منذ أوائل البعثة كما يشهد به ذكرها في هذه السورة وسورتي العلق والمزمل، ويدل عليه الروايات.

و. وقيل: المراد بتطهير الثياب التخلق بالأخلاق الحميدة والملكات الفاضلة.

ز. وفي معنى تطهير الثياب أقوال أخر أغمضنا عن نقلها لإمكان إرجاعها إلى بعض ما تقدم من الوجوه، وأرجح الوجوه المتقدمة أولها وخامسها.

٥. ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾:

أ. قيل: الرجز بضم الراء وكسرها العذاب، والمراد بهجره هجر سببه وهو الإثم والمعصية، والمعنى اهجر الإثم والمعصية.

ب. وقيل: الرجز اسم لكل قبيح مستقذر من الأفعال والأخلاق فالأمر بهجره أمر بترك كل ما يكرهه الله ولا يرتضيه مطلقا، أو أمر بترك خصوص الأخلاق الرذيلة الذميمة على تقدير أن يكون المراد بتطهير الثياب ترك الذنوب والمعاصي.

ج. وقيل: الرجز هو الصنم فهو أمر بترك عبادة الأصنام.

٦. ﴿وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾:

أ. الذي يعطيه سياق الآيات ويناسب المقام أن يكون المراد بالمن تكدير الصنيعة بذكرها للمنعم عليه كما في قوله تعالى: ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذى﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [الحجرات: ١٧] والمراد بالاستكثار رؤية الشيء وحسبانه كثيرا لا طلب الكثرة.

ب. والمعنى: لا تمنن امتثالك لهذه الأوامر وقيامك بالإنذار وتكبيرك ربك وتطهيرك ثيابك وهجرك الرجز حال كونك ترى ذلك كثيرا وتعجبه، فإنما أنت عبد لا تملك من نفسك شيئا إلا ما ملكك الله وأقدرك عليه وهو المالك لما ملكك والقادر على ما عليه أقدرك فله الأمر وعليك الامتثال،

ج. وللقوم في الآية وجوه أخر من التفسير لا تلائم السياق تلك الملاءمة:

- فقيل: المعنى لا تعط عطية لتعطى أكثر منها.
- وقيل: المعنى لا تمنن ما أعطاك الله من النبوة والقرآن على الناس مستكثرا به الأجر.
- وقيل: أي لا تمنن إبلاغ الرسالة على أمتك.
- وقيل: المعنى لا تضعف في عملك مستكثرا لطاعاتك.
- وقيل: المعنى لا تمنن بعطائك على الناس مستكثرا له.
- وقيل: أي إذا أعطيت عطية فأعطها لربك واصبر حتى يكون هو الذي يثيبك.
- وقيل: هو نهي عن الربا المحرم أي لا تعط شيئا طالبا أن تعطي أكثر مما أعطيت.

٧. ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي لوجه ربك، والصبر مطلق يشمل الصبر عند المصيبة والصبر على الطاعة والصبر عن المعصية، والمعنى ولوجه ربك فاصبر عند ما يصيبك من المصيبة والأذى في قيامك بالإنذار وامتثالك هذه الأوامر واصبر على طاعة الله واصبر عن معصيته، وهذا معنى جامع لمتفرقات ما ذكروه في تفسير الآية كقول بعضهم: إنه أمر بنفس الفعل من غير نظر إلى متعلقه، وقول بعضهم: إنه الصبر على أذى المشركين، وقول بعضهم: إنه الصبر على أداء الفرائض، إلى غير ذلك.

٨. أحاديث وآثار:

أ. أخرج الطيالسي وعبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن الضريس

وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن الأنباري في المصاحف عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن، فقال: يا أيها المدثر قلت: يقولون: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾؟ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك، قلت له مثل ما قلت، قال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ، قال: جاورت بحراء فلما قضيت جواري نوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا، ونظرت خلفي فلم أر شيئا، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء، جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجثت منه رعبا فرجعت فقلت: دثروني دثروني، فنزلت: ﴿يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾، إلى قوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾

• أقول: الحديث معارض بالأحاديث الآخر الدالة على كون سورة اقرأ أول ما نزل من القرآن ويؤيدها سياق سورة اقرأ، على أن قوله: (فإذا الملك الذي جاءني بحراء) يشعر بنزول الوحي عليه قبلا.

ب. أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة: قلنا: يا رسول الله كيف نقول إذا دخلنا في الصلاة؟ فأنزل الله ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ فأمرنا رسول الله ﷺ أن نفتتح الصلاة بالتكبير.

• أقول: وفي الرواية شيء فأبو هريرة ممن آمن بعد الهجرة بكثير والسورة مما نزل في أول البعثة فأين كان أبو هريرة أو الصحابة يومئذ؟

ج. وفي الخصال، عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الأربعمائة: تشمير الثياب طهور لها قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ﴾ يعني فشمر.

• أقول: وفي المعنى عدة أخبار مروية في الكافي، والمجمع، عن أبي جعفر وأبي عبد الله وأبي الحسن عليه السلام.

د. أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ برفع الراء، وقال: هي الأوثان.

• أقول: وقوله: (هي الأوثان) من كلام جابر أو غيره من رجال السند.

هـ. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ وفي رواية أبي الجارود يقول: لا تعط تلتمس أكثر منها.

٢. النفخ في الصور وعسر ذلك اليوم على الكافرين:

المقطع [٢] من سورة المدّثّر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨-١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٨٥»:

١. ﴿فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ النقر القرع والناقور ما ينقر فيه للتصويت، والنقر في الناقور كالنفخ في الصور كناية عن بعث الموتى وإحضارهم لفصل القضاء يوم القيامة والجملة شرطية جزاؤها قوله (فذلك)

٢. ﴿فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾:

أ. الإشارة بقوله: ﴿فَذلِكَ﴾ إلى زمان نقر الناقور ولا يبعد أن يكون المراد بيومئذ يوم إذ يرجعون إلى الله للحساب والجزاء أو يوم إذ يرجع الخلائق إلى الله فيكون ظرفا ليوم نقر الناقور فمن الجائز أن تعتبر قطعة من الزمان ظرفا لبعض أجزائه كالسنة تجعل ظرفا للشهر والشهر يجعل ظرفا لليوم لنوع من العناية أو يعتبر زمان متعددا مختلفا باختلاف صفاته أو الحوادث الواقعة فيه ثم يجعل باعتبار بعض صفاته ظرفا لنفسه باعتبار صفة أخرى.

ب. والمعنى فزمان نقر الناقور الواقع في يوم رجوع الخلائق إلى الله زمان عسير على الكافرين أو زمان نقر الناقور زمان عسير على الكافرين في يوم الرجوع، بناء على كون قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ قيدا لقوله: ﴿فَذلِكَ﴾ أو لقوله: ﴿يَوْمٌ﴾

ج. وقال في الكشاف: (فإن قلت: بم انتصب إذا وكيف صح أن يقع يومئذ ظرفا ليوم عسير؟ قلت: انتصب إذا بما دل عليه الجزاء لأن المعنى إذا نقر في الناقور عسر الأمر على الكافرين، والذي أجاز وقوع يومئذ ظرفا ليوم عسير أن المعنى فذلك وقت النقر وقوع يوم عسير لأن يوم القيامة يأتي ويقع حين ينقر في الناقور) وقال: (ويجوز أن يكون يومئذ مبنيا مرفوع المحل بدلا من ذلك، ويوم عسير خبر كأنه قيل: فيوم النقر يوم عسير)

٣. ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ وصف آخر ليوم مؤكد لعسره ويفيد أنه عسير من كل وجه من وجه دون وجه.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾، إلى قوله: ﴿وَحِيداً﴾ فإنها نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان شيخا كبيرا مجربا من دهاة العرب، وكان من المستهزئين برسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يقعد في الحجر ويقرأ القرآن، فاجتمعت قريش إلى الوليد بن المغيرة، فقالوا: يا أبا عبد شمس ما هذا

الذي يقول محمد؟ أشعر هو أم كهانة أم خطب؟ فقال دعوني أسمع كلامه، فدنا من رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أنشدني من شعرك، قال: ما هو شعر ولكنه كلام الله، الذي ارتضاه لملائكته وأنبيائه ورسله، فقال: اتل علي منه شيئا! فقرأ عليه رسول الله ﷺ حم السجدة، فلما بلغ قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً، مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾ قال: فاقشعر الوليد وقامت كل شعرة في رأسه ولحيته، ومر إلى بيته ولم يرجع إلى قريش من ذلك، فمشوا إلى أبي جهل فقالوا: يا أبا الحكم، إن أبا عبد شمس صبا إلى دين محمد أما تراه لم يرجع إلينا، فغدا أبو جهل إلى الوليد فقال: يا عم، نكست رءوسنا وفضحتنا وأشمت بنا عدونا، وصبوت إلى دين محمد، فقال: ما صبوت إلى دينه، ولكني سمعت كلاما صعبا تقشعر منه الجلود، فقال له أبو جهل: أخطب هو؟ قال: لا إن الخطب كلام متصل وهذا كلام منثور، ولا يشبه بعضه بعضا، قال: أفشعر هو؟ قال: لا، أما إني لقد سمعت أشعار العرب بسيطها ومديدها، ورملها ورجزها وما هو بشعر، قال: فما هو؟ قال: دعني أفكر فيه، فلما كان من الغد قالوا له: يا أبا عبد شمس ما تقول فيما قلناه؟ قال: قولوا: هو سحر فإنه آخذ بقلوب الناس، فأنزل على رسوله ﷺ في ذلك: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾، وإنما سمي وحيدا لأنه قال لقريش: أنا أتوحد لكسوة البيت سنة وعليكم في جماعتكم سنة، وكان له مال كثير وحدائق، وكان له عشر بنين بمكة، وكان له عشرة عبيد عند كل عبد ألف دينار يتجر بها، وتلك القنطار في ذلك الزمان، ويقال: إن القنطار جلد ثور مملوء ذهبا.

ب. أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل من طريق عكرمة عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجعلوا لك مالا ليعطوه لك، فإنك أتيت محمدا لتصيب مما عنده، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك، إنك منكر أو إنك كاره له، قال: وما ذا أقول، فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني لا برجزه، ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، وو الله إن لقوله الذي يقوله حلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، ومغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: دعني حتى أفكر فلما فكر قال، ما هو إلا سحر يؤثر يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾

ج. وفي المجمع روى العياشي بإسناده عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي عبد الله وأبي

جعفر عليه السلام أن الوحيد ولد الزنا، قال زرارة: ذكر لأبي جعفر عليه السلام عن أحد بني هشام أنه قال في خطبته: أنا ابن الوحيد، فقال: ويله لو علم ما الوحيد ما فخر بها فقلنا له، وما هو؟ قال، من لا يعرف له أب.

٣. تهديد المستكبر على النبي والقرآن:

المقطع [٣] من سورة المدّثر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ [المدثر: ١١-١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٨٦»:

١. ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ كلمة تهديد وقد استفاض النقل أن الآية وما يتلوها إلى تمام عشرين آية نزلت في الوليد بن المغيرة، وستأتي قصته في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.

٢. ﴿وَحِيداً﴾:

أ. حال من فاعل ﴿خَلَقْتُ﴾ ومحصل المعنى: دعني ومن خلقته حال كوني وحيدا لا يشاركني في خلقه أحد ثم دبرت أمره أحسن التدبير، ولا تحل بيني وبينه فأنا أكفيه.

ب. ومن المحتمل أن يكون حالا من مفعول ﴿ذَرْنِي﴾، وقيل: حال من مفعول خلقت المحذوف وهو ضمير عائد إلى الموصول، ومحصل المعنى دعني ومن خلقته حال كونه وحيدا لا مال له ولا بنون، واحتمل أيضا أن يكون ﴿وَحِيداً﴾ منصوبا بتقدير (أذم) وأحسن الوجوه أولها.

٣. ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً﴾ أي مبسوطا كثيرا أو ممدودا بمدد النماء.

٤. ﴿وَبَنِينَ شُهُوداً﴾ أي حضورا يشاهدهم ويتأيد بهم، وهو عطف على قوله: ﴿مالاً﴾

٥. ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً﴾ التمهيد التهيئة ويتجوز به عن بسطة المال والجاه وانتظام الأمور.

٦. ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ أي ثم يطمع أن أزيد فيما جعلت له من المال والبنين ومهدت له من التمهيد.

٤. عناد المكذّب وتفكيره وتقديره واستكباره:

المقطع [٤] من سورة المدّثر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ

هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٦-٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٨٦»:

١. ﴿كَلَّا﴾ ردع له، وقوله: ﴿إِنَّهُ كانَ﴾ تعليل المردع، والعنيد المعاند المباهي بما عنده، قيل، ما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك.

٢. ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾ الإرهاق الغشيان بالعنف، والصعود عقبة الجبل التي يشق مصعدها شبه ما سيناله من سوء الجزاء ومر العذاب بغشيانه عقبة وعر صعبة الصعود.

٣. ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ التفكير معروف، والتقدير عن تفكير نظم معان وأوصاف في الذهن بالتقديم والتأخير والوضع والرفع لاستنتاج غرض مطلوب، وقد كان الرجل يهوى أن يقول في أمر القرآن شيئا يبطل به دعوته ويرضي به قومه المعاندين ففكر فيه أيقول: شعر أو كهانة أو هذرة جنون أو أسطورة فقدر أن يقول: سحر من كلام البشر لأنه يفرق بين المرء وأهله وولده ومواليه.

٤. ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ دعا عليه على ما يعطيه السياق نظير قوله: ﴿قاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]

٥. ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تكرار للدعاء تأكيدا.

٦. ﴿ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾:

أ. تمثيل لحاله بعد التكفير والتقدير وهو من ألطف التمثيل وأبلغه.

ب. فقوله: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي ثم نظر بعد التفكير والتقدير نظرة من يريد أن يقضي في أمر سئل أن ينظر فيه، على ما يعطيه سياق التمثيل،

٧. ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ العبوس تقطيب الوجه، قال في المجمع: (وعبس يعبس عبوسا إذا قبض وجهه والعبوس والتكليح والتقطيب نظائر وضدها الطلاقة والبشاشة، وقال: والبسور بدء التكره في الوجه) انتهى، فالمعنى ثم قبض وجهه وأبدا التكره في وجهه بعد ما نظر.

٨. ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ الإدبار عن شيء الإعراض عنه، والاستكبار الامتناع كبرا وعتوا، والأمران أعني الإدبار والاستكبار من الأحوال الروحية، وإنما رتبا في التمثيل على النظر والعبوس والبسور وهي أحوال صورية محسوسة لظهورهما بقوله: ﴿إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ﴾، ولذا عطف قوله: ﴿فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ بالفاء دون ﴿ثُمَّ﴾

٩. ﴿فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي أظهر إدباره واستكباره بقوله مفرعا عليه: ﴿إِنْ هذا﴾، أي القرآن، ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي يروي ويتعلم من السحرة.

١٠. ﴿إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾:

أ. أي ليس بكلام الله كما يدعيه محمد ﷺ.

ب. قيل: إن هذه الآية كالتأكيد للآية السابقة وإن اختلفتا معنى لأن المقصود منهما نفي كونه قرآنا من كلام الله، وباعتبار الاتحاد في المقصود لم تعطف الجملة على الجملة.

١١. أحاديث وآثار:

أ. أخرج أحمد وابن المنذر والترمذي وابن أبي الدنيا في صفة النار وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حيان والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال، الصعود جبل في النار يصعد فيه الكافر سبعين خريفا، ثم يهوي وهو كذلك فيه أبدا.

ب. وفي تفسير القمي في قوله تعالى، ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قال، عبس وجهه ﴿وَبَسَرَ﴾ قال، ألقى شدقه.

٥. المعاند وسقر:

المقطع [٥] من سورة المدّثر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٢٦ـ٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٨٧»:

١. ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَما أَدْراكَ ما سَقَرُ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي سأدخله سقر وسقر من أسماء جهنم في القرآن أو دركة من دركاتها، وجملة ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ بيان أو بدل من قوله: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾

٢. ﴿وَما أَدْراكَ ما سَقَرُ﴾ تفخيم لأمرها وتهويل.

٣. ﴿لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ﴾:

أ. قضية إطلاق النفي أن يكون المراد أنها لا تبقي شيئا ممن نالته إلا أحرقته، ولا تدع أحدا ممن ألقي فيها إلا نالته بخلاف نار الدنيا التي ربما تركت بعض ما ألقي فيها ولم تحرقه، وإذا نالت إنسانا مثلا نالت جسمه وصفاته الجسمية ولم تنل شيئا من روحه وصفاته الروحية، وأما سقر فلا تدع أحدا ممن ألقي فيها إلا نالته قال تعالى: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ [المعارج: ١٧]، وإذا نالته لم تبق منه شيئا من روح أو جسم

إلا أحرقته قال تعالى: ﴿نارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: ٧]

ب. ويمكن أن يراد أنها لا تبقيهم أحياء ولا تتركهم يموتون فيكون في معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى﴾ [الأعلى: ١٣]

ج. وقيل: المعنى لا تبقي شيئا يلقى فيها إلا أهلكته، وإذا هلك لم تذره هالكا حتى يعاد فيعذب ثانيا.

د. وقيل: المراد أنها لا تبقي لهم لحما ولا تذر عظما، وقيل غير ذلك.

٤. ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ اللواحة من التلويح بمعنى تغيير اللون إلى السواد وقيل: إلى الحمرة، والبشر جمع بشرة بمعنى ظاهر الجلد.

٥. ﴿عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ﴾:

أ. يتولون أمر عذاب المجرمين وقد أبهم ولم يصرح أنهم من الملائكة أو غيرهم غير أن المستفاد من آيات القيامة، وتصرح به الآية التالية، أنهم من الملائكة.

ب. وقد استظهر بعضهم أن مميز قوله: ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ملكا ثم قال: ألا ترى العرب وهم الفصحاء كيف فهموا منه ذلك فقد روي عن ابن عباس: أنها لما نزلت ﴿عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة يخبركم، أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأسد بن أسيد بن كلدة الجمحي، وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين) انتهى، وأنت ترى أن لا دليل في كلامه على ما يدعيه، على أنه سمي الواحد من الخزنة رجلا ولا يطلق الرجل على الملك البتة ولا سيما عند المشركين الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً﴾ [الزخرف: ١٩]

٦. جعل خزنة النار ملائكة وعددهم فتنة للكفار:

المقطع [٦] من سورة المدّثّر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ [المدثر: ٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٨٩»:

١. ﴿وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً﴾:

أ. سياق الآية يشهد على أنهم تكلموا فيما ذكر في الآية من عدد خزان النار فنزلت هذه الآية، ويتأيد بذلك ما ورد من سبب النزول وسيوافيك في البحث الروائي التالي.

ب. فقوله: ﴿وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً﴾ المراد بأصحاب النار خزنتها الموكلون عليها المتولون لتعذيب المجرمين فيها كما يفيده قوله: ﴿عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ويشهد بذلك قوله بعد: ﴿وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾

ج. ومحصل المعنى: أنا جعلناهم ملائكة يقدرون على ما أمروا به كما قال: ﴿عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، فليسوا من البشر حتى يرجوا المجرمون أن يقاوموهم ويطيقوهم.

٢. ﴿وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الفتنة المحنة والاختبار، ذكروا أن المراد بالجعل الجعل بحسب الإخبار دون الجعل بحسب التكوين فالمعنى وما أخبرنا عن عدتهم أنها تسعة عشر إلا ليكون فتنة للذين كفروا، ويؤيده ذيل الكلام: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ﴾

٣. ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ﴾ الاستيقان وجدان اليقين في النفس أي ليوقن أهل الكتاب بأن القرآن النازل عليك حق حيث يجدون ما أخبرنا به من عدة أصحاب النار موافقا لما ذكر فيما عندهم من الكتاب.

٤. ﴿وَيَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً﴾ أي بسبب ما يجدون من تصديق أهل الكتاب ذلك.

٥. ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللهُ بِهذا مَثَلاً﴾:

أ. اللام في ﴿لِيَقُولَ﴾ للعاقبة بخلاف اللام في ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾ فللتعليل بالغاية، والفرق أن قولهم: ﴿ما ذا أَرادَ اللهُ بِهذا مَثَلاً﴾ تحقير وتهكم وهو كفر لا يعد غاية لفعله سبحانه إلا بالعرض بخلاف الاستيقان الذي هو من الإيمان، ولعل اختلاف المعنيين هو الموجب لإعادة اللام في قوله: ﴿وَلِيَقُولَ﴾

ب. وقد فسروا ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ بالشك والجحود بالمنافقين وفسروا الكافرين بالمتظاهرين بالكفر من المشركين وغيرهم.

ج. وقولهم: ﴿ما ذا أَرادَ اللهُ بِهذا مَثَلاً﴾ أرادوا به التحقير والتهكم يشيرون بهذا إلى قوله تعالى:

﴿عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ والمثل الوصف، والمعنى ما الذي يعنيه من وصف الخزنة بأنهم تسعة عشر؟ فهذه العدة القليلة كيف تقوى على تعذيب أكثر الثقلين من الجن والإنس.

٦. وضع هنا مبحثا حول [النفاق في مكة]، خلاصته:

أ. قيل إن سورة المدثر مكية بتمامها، وقوله: ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ إخبار عن النفاق الذي سيحدث بعد الهجرة، لأن النفاق إنما حدث بالمدينة، لكن هذا مبني على أن النفاق لم يكن موجوداً بمكة، وهو غير مسلم.

ب. الحجة القائلة بأن النفاق لم يكن بمكة لأن المسلمين لم يكونوا قبل الهجرة من القوة بحيث يهابهم الناس، غير تامة، لأن علل النفاق ليست محصورة في المخافة والاتقاء، بل منها الطمع، والعصبية، والحمية، واستقرار العادة، وغير ذلك.

ج. الآيات التي تثبت وجود النفاق بمكة: قوله في سورة العنكبوت (المكية): ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللهِ... وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ﴾، وهذه الآيات ناطقة بوجود النفاق بمكة، لأن الإيذاء في الله والفتنة كان بمكة لا بالمدينة.

د. قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١]، إن كان المراد بالفتنة العذاب، وهو مكي أو مدني على اختلاف، فإنه يدل على وجود المنافقين من يعبد الله على حرف.

٧. إضلال الله وهدايته لمن يشاء وعدة جنوده:

المقطع [٧] من سورة المدّثر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٩١»:

١. ﴿كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ الإشارة بذلك إلى مضمون قوله: ﴿وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾

٢. ﴿وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ علق تعالى العلم المنفي بالجنود، وهي الجموع الغليظة التي خلقهم وسائط لإجراء أوامره، لا بخصوص عدتهم فأفاد بإطلاقه أن العلم بحقيقتهم وخصوصيات خلقتهم وعدتهم وما يعملونه من عمل ودقائق الحكمة في جميع ذلك يختص به تعالى لا يشاركه فيه أحد،

فليس لأحد أن يستقل عدتهم أو يستكثر أو يطعن في شيء مما يرجع إلى صفاتهم وهو جاهل بها.

٣. ﴿وَما هِيَ إِلَّا ذِكْرى لِلْبَشَرِ﴾:

أ. الضمير راجع إلى ما تقدم من قوله: ﴿عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ وتأنيثه لتأنيث الخبر، والمعنى أن البشر لا سبيل لهم إلى العلم بجنود ربك وإنما أخبرنا عن خزنة النار أن عدتهم تسعة عشر ليكون ذكرى لهم يتعظون بها.

ب. وقيل: الضمير للجنود، وقيل: لسقر، وقيل للسورة، وقيل: لنار الدنيا وهو أسخف الأقوال.

ج. وفي الآية دلالة على أن الخطابات القرآنية لعامة البشر.

٨. القسم على صدق النبي وما جاء به من إنذارات:

المقطع [٨] من سورة المدّثر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٢-٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٩٤»:

١. ﴿كَلَّا﴾ ردع وإنكار لما تقدم قال في الكشاف: (إنكار بعد أن جعلها ذكرى أن يكون لهم ذكرى لأنهم لا يتذكرون، أو ردع لمن ينكر أن يكون إحدى الكبر نذيرا)، فعلى الأول إنكار لما تقدم وعلى الثاني ردع لما سيأتي، وهناك وجه آخر سيوافيك.

٢. ﴿وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ﴾ قسم بعد قسم، وإدبار الليل مقابل إقباله، وإسفار الصبح انجلاؤه وانكشافه.

٣. ﴿إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾:

أ. ذكروا أن الضمير لسقر، والكبر جمع كبري، والمراد بكون سقر إحدى الكبر أنها إحدى الدواهي الكبر لا يعادلها غيرها من الدواهي كما يقال: هو أحد الرجال أي لا نظير له بينهم، والجملة جواب للقسم، والمعنى أقسم بكذا وكذا أن سقر لإحدى الدواهي الكبر، أكبرها، إنذارا للبشر.

ب. ولا يبعد أن يكون ﴿كَلَّا﴾ ردعا لقوله في القرآن: ﴿إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ ويكون ضمير ﴿إِنَّها﴾ للقرآن بما أنه آيات أو من باب مطابقة اسم إن لخبرها، والمعنى: ليس كما قال أقسم بكذا وكذا أن القرآن، آياته، لإحدى الآيات الإلهية الكبرى إنذارا للبشر.

ج. وقيل: الجملة ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ تعليل للردع، والقسم معترض للتأكيد لا جواب له أو جوابه مقدر يدل عليه كلا.

٤. ﴿نَذِيراً لِلْبَشَرِ﴾:

أ. مصدر بمعنى الإنذار منصوب للتمييز.

ب. وقيل: حال مما يفهم من سياق قوله: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ أي كبرت وعظمت حال كونها إنذارا أي منذرة.

ج. وقيل فيه وجوه أخر لا يعبأ بها كقول بعضهم: أنه صفة للنبي ﷺ والآية متصلة بأول السورة والتقدير قم نذيرا للبشر فأنذر، وقول بعضهم: صفة له تعالى.

٥. ﴿لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾:

أ. تعميم للإنذار و﴿لِمَنْ شاءَ﴾ بدل من البشر، و﴿أَنْ يَتَقَدَّمَ﴾ مفعول ﴿شاءَ﴾ والمراد بالتقدم والتأخر: الاتباع للحق ومصداقه الإيمان والطاعة، وعدم الاتباع ومصداقه الكفر والمعصية.

ب. والمعنى: نذيرا لمن اتبع منكم الحق ولمن لم يتبع أي لجميعكم من غير استثناء.

ج. وقيل: ﴿أَنْ يَتَقَدَّمَ﴾ في موضع الرفع على الابتداء و﴿لِمَنْ شاءَ﴾ خبره كقولك لمن توضأ أن يصلي، والمعنى مطلق لمن شاء التقدم أو التأخر أن يتقدم أو يتأخر، وهو كقوله: ﴿فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ والمراد بالتقدم والتأخر السبق إلى الخير والتخلف عنه.

٩. كل نفس رهينة بما كسبت إلا أصحاب اليمين:

المقطع [٩] من سورة المدّثر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٣٨-٤٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٩٥»:

١. ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾:

أ. الباء بمعنى مع أو للسببية أو للمقابلة و﴿رَهِينَةٌ﴾ بمعنى الرهن على ما ذكره الزمخشري قال في الكشاف: (رهينة ليست بتأنيث رهين في قوله: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ لتأنيث النفس لأنه لو قصدت

لقيل: رهين لأن فعيلا بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث، وإنما هي اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم كأنه قيل: كل نفس بما كسبت رهن)

ب. وكان العناية في عد كل نفس رهينة أن لله عليها حق العبودية بالإيمان والعمل الصالح فهي رهينة محفوظة محبوسة عند الله حتى توفي دينه وتؤدي حقه تعالى فإن آمنت وصلحت فكت وأطلقت، وإن كفرت وأجرمت وماتت على ذلك كانت رهينة محبوسة دائما، وهذا غير كونها رهين عملها ملازمة لما اكتسبت من خير وشر كما تقدم في قوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]

ج. والآية في مقام بيان وجه التعميم المستفاد من قوله: ﴿نَذِيراً لِلْبَشَرِ لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ فإن كون النفس الإنسانية رهينة بما كسبت يوجب على كل نفس أن تتقي النار التي ستحبس فيها إن أجرمت ولم تتبع الحق.

٢. ﴿إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ﴾:

أ. هم الذين يؤتون كتابهم بأيمانهم يوم الحساب وهم أصحاب العقائد الحقة والأعمال الصالحة من متوسطي المؤمنين، وقد تكرر ذكرهم وتسميتهم بأصحاب اليمين في مواضع من كلامه تعالى، وعلى هذا فالاستثناء متصل.

ب. والمتحصل من مجموع المستثنى منه والمستثنى انقسام النفوس ذوات الكسب إلى نفوس رهينة بما كسبت وهي نفوس المجرمين، ونفوس مفكوكة من الرهن مطلقة وهي نفوس أصحاب اليمين، وأما السابقون المقربون وهم الذين ذكرهم الله في مواضع من كلامه وعدهم ثالثة الطائفتين وغيرهما كما في قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً﴾، إلى أن قال، ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١١]، فهؤلاء قد استقروا في مستقر العبودية لا يملكون نفسا ولا عمل نفس فنفوسهم لله وكذلك أعمالهم فلا يحضرون ولا يحاسبون قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٢٨]، فهم خارجون عن المقسم رأسا.

ج. وعن بعضهم تفسير أصحاب اليمين بالملائكة، وعن بعضهم التفسير بأطفال المسلمين وعن بعضهم أنهم الذين كانوا عن يمين آدم يوم الميثاق، وعن بعضهم أنهم الذين سبقت لهم من الله الحسنى، وهي وجوه ضعيفة غير خفية الضعف.

٣. ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ خبر لمبتدإ محذوف وتنوين جنات للتعظيم، والتقدير هم في جنات لا يدرك وصفها، ويمكن أن يكون حالا من أصحاب اليمين.

٤. ﴿يَتَساءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي يتساءل جمعهم عن جمع المجرمين.

٥. ﴿ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ أي ما أدخلكم في سقر بيان لتساؤلهم من بيان الجملة بالجملة، أو بتقدير القول أي قائلين ما سلككم في سقر.

٦. ﴿قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ ضمير الجمع للمجرمين، والمراد بالصلاة التوجه العبادي الخاص إلى الله سبحانه فلا يضره اختلاف الصلاة كما وكيفا باختلاف الشرائع السماوية الحقة.

٧. ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ المراد بإطعام المسكين الإنفاق على فقراء المجتمع بما يقوم به صلبهم ويرتفع به حاجتهم، وإطعام المسكين إشارة إلى حق الناس عملا كما أن الصلاة إشارة إلى حق الله كذلك.

٨. ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ﴾ المراد بالخوض الاشتغال بالباطل قولا أو فعلا والغور فيه.

٩. ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ وهو يوم الجزاء فهذه خصال أربع من طبع المجرم أن يبتلي بها كلا أو بعضا، ولما كان المجيب عن التساؤل جمع المجرمين صحت نسبة الجميع إلى الجميع وإن كان بعضهم مبتلى ببعضها دون بعض.

١٠. ﴿حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ﴾:

أ. قيد للتكذيب، وفسروا اليقين بالموت لكونه مما لا شك فيه فالمعنى وكنا في الدنيا نكذب بيوم الجزاء حتى أتانا الموت فانقطعت به الحياة الدنيا أي كنا نكذب به ما دامت الحياة.

ب. وقيل: المراد به اليقين الحاصل بحقية يوم الجزاء بمشاهدة آيات الآخرة ومعاينة الحياة البرزخية حين الموت وبعده، وهو معنى حسن.

١١. ﴿فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ تقدم في بحث الشفاعة أن في الآية دلالة على أن هناك شافعين يشفعون فيشفعون لكن لا تنفع هؤلاء شفاعتهم لأنهم محرومون من نيلها، وقد أوردنا جملة من أخبار الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب.

١٠. إعراض الكفار عن التذكرة وتشبيههم بالحمر المستنفرة:

المقطع [١٠] من سورة المدّثّر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٩٨»:

١. ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾:

أ. تفريع على ما تقدم من التذكرة والموعظة، والاستفهام للتعجيب، و﴿لَهُمْ﴾ متعلق بمحذوف والتقدير فما كان لهم: و﴿مُعْرِضِينَ﴾ حال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾ و﴿عَنِ التَّذْكِرَةِ﴾ متعلق بمعرضين.

ب. والمعنى: فإذا كان كذلك فأي شيء كان، عرض، للمشركين الذين يكذبون بتذكرة القرآن حال كونهم معرضين عنها أي كان من الواجب عليهم أن يصدقوا ويؤمنوا لكنهم أعرضوا عنها وهو من العجب.

٢. ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾:

أ. تشبيه لهم من حيث حالهم في الإعراض عن التذكرة، والحمر جمع حمار، والمراد الحمر الوحشية والاستنفار بمعنى النفرة والقسورة الأسد والصائد، وقد فسر بكل من المعنيين.

ب. والمعنى: معرضين عن التذكرة كأنهم حمر وحشية نفرت من أسد أو من الصائد.

١١. عدم خوف الكفار من الآخرة:

المقطع [١١] من سورة المدّثّر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ [المدثر: ٥٢-٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٠٠»:

١. ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً﴾:

أ. المراد بالصحف المنشرة الكتاب السماوي المشتمل على الدعوة الحقة.

ب. وفي الكلام إضراب عما ذكر من إعراضهم، والمعنى ليس إعراضهم عن التذكرة لمجرد النفرة بل يريد كل امرئ منهم أن ينزل عليه كتاب من عند الله مشتمل على ما تشتمل عليه دعوة القرآن.

ج. وهذه النسبة إليهم كناية عن استكبارهم على الله سبحانه أنهم إنما يقبلون دعوته ولا يردونها لو دعا كل واحد منهم بإنزال كتاب سماوي إليه مستقلا وأما الدعوة من طريق الرسالة فليسوا يستجيبونها وإن كانت حقة مؤيدة بالآيات البينة.

د. فالآية في معنى ما حكاه الله سبحانه من قولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ﴾

[الأنعام: ١٢٤]، وفي معنى قول الأمم لرسلهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾ على ما قررنا من حجتهم على نفي رسالة الرسل.

هـ. وقيل: إن الآية في معنى قولهم للنبي ﷺ الذي حكاه الله في قوله: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣]

• ويدفعه أن مدلول الآية أن ينزل على كل واحد منهم صحف منشرة غير ما ينزل على غيره لا نزول كتاب واحد من السماء على النبي ﷺ يقرؤه الجميع كما هو مدلول آية الإسراء.

و. وقيل: المراد نزول كتب من السماء عليهم بأسمائهم أن آمنوا بمحمد ﷺ.

ز. وقيل: المراد أن ينزل عليهم كتب من السماء بالبراءة من العذاب وإسباغ النعمة حتى يؤمنوا وإلا بقوا على كفرهم وقيل غير ذلك.

• وهي جميعا معان بعيدة من السياق والتعويل على ما تقدم.

٢. ﴿كَلَّا بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ﴾:

أ. ردع لهم بما يريدونه من نزول كتاب سماوي على كل واحد منهم فإن دعوة الرسالة مؤيدة بآيات بينة وحجج قاطعة لا تدع ريبا لمرتاب فالحجة تامة قائمة على الرسول وغيره على حد سواء من غير حاجة إلى أن يؤتى كل واحد من الناس المدعوين صحفا منشرة.

ب. على أن الرسالة تحتاج من طهارة الذات وصلاحية النفس إلى ما يفقده نفوس سائر الناس كما هو مدلول جوابه تعالى في سورة الأنعام عن قولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ﴾ بقوله: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾

٣. ﴿بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ﴾ إضراب عن قوله: ﴿يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ﴾، والمراد أن اقتراحهم نزول كتاب على كل امرئ منهم قول ظاهري منهم يريدون به صرف الدعوة عن أنفسهم، والسبب الحقيقي لكفرهم وتكذيبهم بالدعوة أنهم لا يخافون الآخرة، ولو خافوها لآمنوا ولم يقترحوا آية بعد قيام الحجة بظهور الآيات البينات.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ

امْرِئٍ مِنْهُمْ، أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً﴾ وذلك أنهم قالوا: يا محمد، قد بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يذنب الذنب، فيصبح وذنبه مكتوب عند رأسه وكفارته، فنزل جبرئيل على رسول الله ﷺ وقال: يسألك قومك سنة بني إسرائيل في الذنوب، فإن شاءوا فعلنا ذلك بهم، وأخذناهم بها كنا نأخذ بني إسرائيل، فزعموا أن رسول الله ﷺ كره ذلك لقومه.

• أقول: والقصة لا تلائم لحن الآية والرواية لا تخلو من إيماء إلى ضعف القصة.

ب. أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن السدي عن أبي صالح قال: قالوا: إن كان محمد صادقا، فليصبح تحت رأس كل رجل منا صحيفة، فيها براءته وأمنته من النار، فنزلت: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً﴾

• أقول: سياق الآيات وما فيها من الردع لا يلائم القصة.

ج. أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً﴾ قال: إلى فلان بن فلان من رب العالمين، يصبح عند رأس كل رجل صحيفة موضوعة يقرؤها.

• أقول: ما في الرواية يقبل الانطباق على الرواية السابقة وعلى ما قدمناه من معنى الآية.

د. أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ، أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً﴾ قال: قد قال قائلون من الناس لمحمد ﷺ، إن سرك أن نتابعك فأتنا بكتاب خاصة يأمرنا باتباعك.

• أقول: الرواية قابلة التطبيق لما في تفسير الآية من القول بأن الآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ الآية وقد تقدم ما فيه.

١٢. القرآن تذكرة لمن شاء أن يتذكر:

المقطع [١٢] من سورة المدّثر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٤-٥٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٠٠»:

١. ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ ردع ثان لاقتراحهم نزول كتاب سماوي لكل امرئ منهم، والمعنى لا ننزل كتابا كذلك أن القرآن تذكرة وموعظة نعظهم به لا نريد به أزيد من ذلك، وأثر ذلك ما أعد للمطيع

والعاصي عندنا من الجزاء.

٢. ﴿فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ﴾ أي فمن شاء اتعظ به فإنها هي دعوة في ظرف الاختيار من غير إكراه.

٣. ﴿وَما يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾:

أ. دفع لما يمكن أن يتوهموه من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ﴾ أن الأمر إليهم وأنهم مستقلون في إرادتهم وما يترتب عليها من أفعالهم فإن لم يشاءوا الذكر ولم يذكروا غلبوه تعالى فيما أراد وأعجزوه فيما شاء من ذكرهم.

ب. والمحصل من الدفع أن حكم القدر جاء في أفعالهم كغيرها من الحوادث، وتذكرهم إن تذكروا وإن كان فعلا اختياريا صادرا عنهم باختيارهم من غير إكراه فالمشية الإلهية متعلقة به بما هو اختياري بمعنى أن الله تعالى يريد بإرادة تكوينية أن يفعل الإنسان الفعل الفلاني بإرادته واختياره فالفعل اختياري ممكن بالنسبة إلى الإنسان وهو بعينه متعلق الإرادة الإلهية ضروري التحقق بالنسبة إليها ولولاها لم يتحقق.

٤. ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾:

أ. أي أهل لأن يتقى منه لأن له الولاية المطلقة على كل شيء، وبيده سعادة الإنسان وشقاوته، وأهل لأن يغفر لمن اتقاه لأنه غفور رحيم.

ب. والجملة أعني قوله: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ صالحة لتعليل ما تقدم من الدعوة في قوله: ﴿إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ﴾ وهو ظاهر، ولتعليل قوله: ﴿وَما يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ فإن كونه تعالى أهل التقوى وأهل المغفرة لا يتم إلا بكونه ذا إرادة نافذة فيهم سارية في أعمالهم فليسوا بمخلين وما يهوونه وهم معجزون لله بتمردهم واستكبارهم.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾، قال: هو أهل أن يتقى وأهل أن يغفر.

ب. وفي التوحيد، بإسناده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ قال: قال الله عز وجل: أنا أهل أن أتقى، ولا يشرك بي عبدي شيئا، وأنا أهل إن لم يشرك بي عبدي شيئا أن أدخله الجنة، وقال: إن الله تبارك وتعالى أقسم بعزته وجلاله، أن لا يعذب

أهل توحيده بالنار.

ج. أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن دينار قال: سمعت أبا هريرة وابن عمر وابن عباس يقولون: سئل رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ قال: يقول الله: أنا أهل أن أتقى، فلا يجعل معي شريك، فإذا اتقيت ولم يجعل معي شريك، فأنا أهل أن أغفر ما سوى ذلك.

• أقول: وفي معناه غير واحد من الروايات عنه ﷺ.

سورة القيامة

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٢] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. يطوف بيان السورة حول القيامة الكبرى، فتنبئ بوقوع يوم القيامة أولاً، ثم تصفه ببعض أشراطه تارة، وبإجمال ما يجري على الإنسان أخرى، وينبئ أن المساق إليه يبدأ من يوم الموت، وتختتم بالاحتجاج على القدرة على الإعادة بالقدرة على الابتداء.

ب. والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٥] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تقسم بيوم القيامة، وبالنفس اللوامة، وتذكر قدرة الله على بعث الإنسان حتى عظامه، وتذكر أن الإنسان يريد أن يفجر أمامه ويسأل عن يوم القيامة، وتصف يوم القيامة وما فيه من البعث والحساب.

٢. الآيات [١٦ ـ ٤٠] تتمة صفة يوم القيامة باعتبار حال الناس فيه وانقسامهم إلى طائفة ناضرة الوجوه مبتهجين، وأخرى باسرة الوجوه عابسين آيسين من النجاة، والإشارة إلى أن هذا المساق تبتدئ من حين نزول الموت، ثم الإشارة إلى أن الإنسان لا يترك سدى، فالذي خلقه أولاً قادر على أن يحييه ثانياً، وبه تختتم السورة.

١. القسم بيوم القيامة والنفس اللوامة:

المقطع [١] من سورة القيامة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١ـ٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٠٣»:

١. ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ إقسام بيوم القيامة سواء قيل بكون ﴿لا أُقْسِمُ﴾ كلمة قسم أو بكون لا زائدة أو نافية على اختلاف الأقوال.

٢. ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾:

أ. إقسام ثان على ما يقتضيه السياق ومشاكلة اللفظ فلا يعبأ بما قيل: إنه نفي الأقسام وليس بقسم،

والمراد أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة.

ب. والمراد بالنفس اللوامة نفس المؤمن التي تلومه في الدنيا على المعصية والتثاقل في الطاعة وتنفعه يوم القيامة.

ج. وقيل: المراد به النفس الإنسانية أعم من المؤمنة الصالحة والكافرة الفاجرة فإنها تلوم الإنسان يوم القيامة أما الكافرة فإنها تلومه على كفره وفجوره، وأما المؤمنة فإنها تلومه على قلة الطاعة وعدم الاستكثار من الخير.

د. وقيل: المراد نفس الكافر الذي تلومه يوم القيامة على ما قدمت من كفر ومعصية قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [يونس: ٥٤]

• ولكل من الأقوال وجه.

هـ. وجواب القسم محذوف يدل عليه الآيات التالية، والتقدير ليبعثن، وإنما حذف للدلالة على تفخيم اليوم وعظمة أمره قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى﴾ [طه: ١٥] وقال: ﴿عَمَّ يَتَساءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١]

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ قال: نفس آدم التي عصت فلامها الله عز وجل.

• أقول: وفي انطباقها على الآية خفاء.

٢. إثبات قدرة الله على بعث العظام:

المقطع [٢] من سورة القيامة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ﴾ [القيامة: ٣-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٠٤»:

١. ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ﴾ الحسبان الظن، وجمع العظام كناية عن الإحياء بعد الموت، والاستفهام للتوبيخ، والمعنى ظاهر.

٢. ﴿بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ﴾:

أ. أي بلى نجمعها و﴿قادِرِينَ﴾ حال من فاعل مدخول بلى المقدر، والبنان أطراف الأصابع.

ب. وقيل: الأصابع وتسوية البنان تصويرها على ما هي عليها من الصور، والمعنى بلى نجمعها والحال أنا قادرون على أن نصور بنانه على صورها التي هي عليها بحسب خلقنا الأول.

ج. وتخصيص البنان بالذكر، لعله، للإشارة إلى عجيب خلقها بما لها من الصور وخصوصيات التركيب والعدد تترتب عليها فوائد جمة لا تكاد تحصى من أنواع القبض والبسط والأخذ والرد وسائر الحركات اللطيفة والأعمال الدقيقة والصنائع الظريفة التي يمتاز بها الإنسان من سائر الحيوان مضافا إلى ما عليها من الهيئات والخطوط التي لا يزال ينكشف للإنسان منها سر بعد سر.

د. وقيل: المراد بتسوية البنان جعل أصابع اليدين والرجلين مستوية شيئا واحدا من غير تفريق كخف البعير وحافر الحمار، والمعنى قادرين على أن نجعلها شيئا واحدا فلا يقدر الإنسان حينئذ على ما يقدر عليه مع تعدد الأصابع من فنون الأعمال، والوجه المتقدم أرجح.

٣. إنكار الإنسان ليوم القيامة واستعجاله:

المقطع [٣] من سورة القيامة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ٥ـ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٠٥»:

١. ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ﴾:

أ. قال الراغب: (الفجر شق الشيء شقا واسعا، قال: والفجور شق ستر الديانة يقال: فجر فجورا فهو فاجر وجمعه فجار وفجرة)

ب. وأمام ظرف مكان أستعير لمستقبل الزمان، والمراد من فجوره أمامه فجوره مدى عمره وما دام حيا، وضمير ﴿أَمامَهُ﴾ للإنسان.

٢. ﴿لِيَفْجُرَ أَمامَهُ﴾:

أ. تعليل ساد مسد معلله وهو التكذيب بالبعث والإحياء بعد الموت، و﴿بَلْ﴾ إضراب عن حسبانه عدم البعث والإحياء بعد الموت.

ب. والمعنى: أنه لا يحسب أن لن نجمع عظامه بل يريد أن يكذب بالبعث ليفجر مدى عمره إذ لا موجب للإيمان والتقوى لو لم يكن هناك بعث للحساب والجزاء.

ج. هذا ما يعطيه السياق في معنى الآية، ولهم وجوه أخر ذكروها في معنى الآية بعيدة لا تلائم

السياق أغمضنا عن ذكرها.

د. وذكر الإنسان في الآية من وضع الظاهر موضع الضمير والنكتة فيه زيادة التوبيخ والمبالغة في التقريع، وقد كرر ذلك في الآية وما يتلوها من الآيات أربع مرات.

٣. ﴿يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ﴾ الظاهر أنه بيان لقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ﴾ فيفيد التعليل وأن السائل في مقام التكذيب والسؤال سؤال تكذيب إذ من الواجب على من دعي إلى الإيمان والتقوى، وأنذر بهذا النبإ العظيم مع دلالة الآيات البينة وقيام الحجج القاطعة أن يتخذ حذره ويتجهز بالإيمان والتقوى ويتهيأ للقاء اليوم قريبا كان أو بعيدا فكل ما هو آت قريب لا أن يسأل متى تقوم الساعة؟ وأيان يوم القيامة؟ فليس إلا سؤال مكذب مستهزئ.

٤. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ﴾ قال: يقدم الذنب ويؤخر التوبة ويقول: سوف أتوب.

٤. أهوال يوم القيامة وانكشاف الحقائق:

المقطع [٤] من سورة القيامة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ٧-١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٠٥»:

١. ﴿فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ ذكر جملة من أشراط الساعة، وبريق البصر تحيره في إبصاره ودهشته، وخسوف القمر زوال نوره.

٢. ﴿يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ أي أين موضع الفرار، وقوله: ﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ مع ظهور السلطنة الإلهية له وعلمه بأن لا مفر ولا فرار يومئذ من باب ظهور ملكاته يومئذ فقد كان في الدنيا يسأل عن المفر إذا وقع في شدة أو هددته مهلكة وذلك كإنكارهم الشرك يومئذ وحلفهم كذبا قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨]

٣. ﴿كَلَّا لا وَزَرَ﴾ ردع عن طلبهم المفر، والوزر الملجأ من جبل أو حصن أو غيرهما، وهو من كلامه تعالى لا من تمام كلام الإنسان.

٤. ﴿إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾:

أ. الخطاب للنبي ﷺ، وتقديم ﴿إِلى رَبِّكَ﴾ وهو متعلق بقوله: ﴿الْمُسْتَقَرُّ﴾ يفيد الحصر فلا مستقر إلى غيره فلا وزر ولا ملجأ يلتجأ إليه فيمنع عنه.

ب. وذلك أن الإنسان سائر إليه تعالى كما قال: ﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦] وقال: ﴿إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى﴾ [العلق: ٨] وقال: ﴿وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى﴾ [النجم: ٤٢]، فهو ملاقي ربه راجع ومنته إليه لا حاجب يحجبه عنه ولا مانع يمنعه منه وأما الحجاب الذي يشير إليه قوله: ﴿كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] فسياق الآيتين يعطي أن المراد به حجاب الحرمان من الكرامة لا حجاب الجهل أو الغيبة.

ج. ويمكن أن يكون المراد بكون مستقره إليه رجوع أمر ما يستقر فيه من سعادة أو شقاوة وجنة أو نار إلى مشيته تعالى فمن شاء جعله في الجنة وهم المتقون ومن شاء جعله في النار وهم المجرمون قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ﴾ [المائدة: ٤٠]

د. ويمكن أن يراد به أن استقرارهم يومئذ إلى حكمه تعالى فهو النافذ فيهم لا غير قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]

٥. ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾:

أ. المراد بما قدم وأخر ما عمله من حسنة أو سيئة في أول عمره وآخره أو ما قدمه على موته من حسنة أو سيئة وما أخر من سنة حسنة سنها أو سنة سيئة فيثاب بالحسنات ويعاقب على السيئات.

ب. وقيل: المراد بما قدم ما عمله من حسنة أو سيئة فيثاب على الأول ويعاقب على الثاني، وبما أخر ما تركه من حسنة أو سيئة فيعاقب على الأول ويثاب على الثاني، وقيل، المراد ما قدم من المعاصي وما أخر من الطاعات، وقيل، ما قدم من طاعة الله وأخر من حقه فضيعه.

ج. وقيل: ما قدم من ماله لنفسه وما ترك لورثته وهي وجوه ضعيفة بعيدة عن الفهم.

٦. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله: ﴿فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ قال: يبرق البصر فلا يقدر أن يطرف.

٥. شهادة الإنسان على نفسه يوم القيامة:

المقطع [٥] من سورة القيامة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٤ـ١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٠٦»:

١. ﴿بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ﴾:

أ. إضراب عن قوله: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ﴾، والبصيرة رؤية القلب والإدراك الباطني وإطلاقها على الإنسان من باب زيد عدل أو التقدير الإنسان ذو بصيرة على نفسه.

ب. وقيل: المراد بالبصيرة الحجة كما في قوله تعالى، ﴿ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ﴾ [إسراء،: ١٠٢] والإنسان نفسه حجة على نفسه يومئذ حيث يسأل عن سمعه وبصره وفؤاده ويشهد عليه سمعه وبصره وجلده ويتكلم يداه ورجلاه، قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾ [فصلت،: ٢٠]، وقال، ﴿وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ [يس: ٦٥]

٢. ﴿وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ﴾:

أ. المعاذير جمع معذرة وهي ذكر موانع تقطع عن الفعل المطلوب، والمعنى هو ذو بصيرة على نفسه ولو جادل عن نفسه واعتذر بالمعاذير لصرف العذاب عنها.

ب. وقيل: المعاذير جمع معذار وهو الستر، والمعنى وإن أرخى الستور ليخفي ما عمل فإن نفسه شاهدة عليه ومآل الوجهين واحد.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ﴾ قال: يعلم ما صنع وإن اعتذر.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن عمر بن يزيد قال: إني لأتعشى مع أبي عبد الله عليه السلام وتلا هذه الآية ﴿بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ﴾، ثم قال: يا أبا حفص ما يصنع الإنسان، أن يعتذر إلى الناس بخلاف ما يعلم الله منه؟ إن رسول الله ﷺ كان يقول: من أسر سريرة ألبسه الله رداها، إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

ج. وفي المجمع: وروى العياشي بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما

يصنع أحدكم أن يظهر حسنا ويستر سيئا؟ أليس إذا رجع إلى نفسه يعلم أنه ليس كذلك؟ والله سبحانه يقول: ﴿بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ إن السريرة إذا صلحت قويت العلانية.

• أقول: ورواه في أصول الكافي، بإسناده عن فضل أبي العباس عنه عليه السلام.

د. وفيه، عن العياشي عن زرارة قال، سألت أبا عبد الله عليه السلام ما حد المرض الذي يفطر صاحبه؟ قال، ﴿بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ هو أعلم بما يطيق.

• أقول: ورواه في الفقيه، أيضا.

٦. تعليم النبي كيفية تلقي القرآن:

المقطع [٦] من سورة القيامة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦ـ١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٠٩»:

١. ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾، إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بيانه﴾:

أ. الذي يعطيه سياق الآيات الأربع بما يحفها من الآيات المتقدمة والمتأخرة الواصفة ليوم القيامة أنها معترضة متضمن أدبا إلهيا كلف النبي ﷺ أن يتأدب به حينما يتلقى ما يوحى إليه من القرآن الكريم فلا يبادر إلى قراءة ما لم يقرأ بعد ولا يحرك به لسانه وينصت حتى يتم الوحي.

ب. فالآيات الأربع في معنى قوله تعالى: ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]

ج. فالكلام في هذه الآيات يجري مجرى قول المتكلم منا أثناء حديثه لمخاطبه إذا بادر إلى تتميم بعض كلام المتكلم باللفظة واللفظتين قبل أن يلفظ بها المتكلم وذلك يشغله عن التجرد للإنصات فيقطع المتكلم حديثه ويعترض ويقول لا تعجل بكلامي وأنصت لتفقه ما أقول لك ثم يمضي في حديثه.

د. فقوله: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ الخطاب فيه للنبي ﷺ، والضميران للقرآن الذي يوحى إليه أو للوحي، والمعنى لا تحرك بالوحي لسانك لتأخذه عاجلا فتسبقنا إلى قراءة ما لم نقرأ بعد فهو كما مر في معنى قوله: ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]

٢. ﴿إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾:

أ. القرآن هاهنا مصدر كالفرقان والرجحان، والضميران للوحي، والمعنى لا تعجل به إذ علينا أن نجمع ما نوحيه إليك بضم بعض أجزائه إلى بعض وقراءته عليك فلا يفوتنا شيء منه حتى يحتاج إلى أن تسبقنا إلى قراءة ما لم نوحه بعد.

ب. وقيل: المعنى إن علينا أن نجمعه في صدرك بحيث لا يذهب عليك شيء من معانيه وأن نثبت قراءته في لسانك بحيث تقرأه متى شئت ولا يخلو من بعد.

٣. ﴿فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾:

أ. أي فإذا أتممنا قراءته عليك وحيا فاتبع قراءتنا له واقرأ بعد تمامها.

ب. وقيل: المراد باتباع قرآنه اتباعه ذهنا بالإنصات والتوجه التام إليه وهو معنى لا بأس به.

ج. وقيل: المراد فاتبع في الأوامر والنواهي قرآنه.

د. وقيل: المراد اتباع قراءته بالتكرار حتى يرسخ في الذهن وهما معنيان بعيدان.

٤. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بيانهُ﴾:

أ. أي علينا إيضاحه عليك بعد ما كان علينا جمعه وقرآنه فثم للتأخير الرتبي لأن البيان مترتب على الجمع والقراءة رتبة.

ب. وقيل، المعنى ثم إن علينا بيانه للناس بلسانك نحفظه في ذهنك عن التغير والزوال حتى تقرأه على الناس.

ج. وقال بعضهم في معنى هذه الآيات إن النبي ﷺ كان يحرك لسانه عند الوحي بما ألقي إليه من القرآن مخافة أن ينساه فنهي عن ذلك بالآيات وأمر بالإنصات حتى يتم الوحي فضمير ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ﴾ للقرآن أو الوحي باعتبار ما قرأ عليه منه لا باعتبار ما لم يقرأ بعد.

• وفيه أنه لا يلائم سياق الآيات، تلك الملاءمة نظرا إلى ما فيها من النهي عن العجل والأمر باتباع قرآنه تعالى بعد ما قرأ، وكذا قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ فذلك كله أظهر فيما تقدم منها في هذا المعنى.

د. وعن بعضهم في معنى هذه الآيات: (الذي اختاره أنه لم يرد القرآن، وإنما أراد قراءة العباد لكتبهم يوم القيامة يدل على ذلك ما قبله وما بعده، وليس فيه شيء يدل على أنه القرآن ولا شيء من أحكام الدنيا، وفي ذلك تقريع وتوبيخ له حين لا تنفعه العجلة يقول: لا تحرك لسانك بما تقرأه من صحيفتك التي

فيها أعمالك يعني اقرأ كتابك ولا تعجل فإن هذا الذي هو على نفسه بصيرة إذا رأى سيئاته ضجر واستعجل فيقال له توبيخا: لا تعجل وتثبت لتعلم الحجة عليك فإنا نجمعها لك فإذا جمعناه فاتبع ما جمع عليك بالانقياد لحكمه والاستسلام للتبعة فيه فإنه لا يمكنك إنكاره ثم إن علينا بيانه لو أنكرت)

• ويدفعه أن المعترضة لا تحتاج في تمام معناها إلى دلالة مما قبلها وما بعدها عليه على أن مشاكلة قوله: ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ في سياقه لهذه الآيات تؤيد مشاكلتها له في المعنى.

هـ. وعن بعضهم أن الآيات الأربع متصلة بما تقدم من حديث يوم القيامة، وخطاب ﴿لا تُحَرِّكْ﴾ للنبي ﷺ، وضمير ﴿بِهِ﴾ ليوم القيامة، والمعنى لا تتفوه بالسؤال عن وقت القيامة أصلا ولو كنت غير مكذب ولا مستهزئ ﴿لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ أي بالعلم به ﴿إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أي من الواجب في الحكمة أن نجمع من نجمعه فيه ونوحي شرح وصفه إليك في القرآن ﴿فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي إذا قرأنا ما يتعلق به فاتبع ذلك بالعمل بما يقتضيه من الاستعداد له ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بيانهُ﴾ أي إظهار ذلك بالنفخ في الصور.، وهو كما ترى.

و. وقد تقدم في تفسير قوله: ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ إن هذا النهي عن العجل بالقرآن يؤيد ما ورد في الروايات أن للقرآن نزولا على النبي ﷺ دفعة غير نزوله تدريجا.

٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج الطيالسي وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معا في الدلائل عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن ينفلت منه، يريد أن يحفظه فأنزل الله ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ قال: إن علينا أن نجمعه في صدرك ثم نقرأه ﴿فَإِذا قَرَأْناهُ﴾ يقول: إذا أنزلناه عليك ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بيانهُ﴾ بينه بلسانك، وفي لفظ علينا أن نقرأه، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق، وفي لفظ استمع، فإذا ذهب قرأ كما وعده الله.

ب. أخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ إذا أنزل عليه القرآن، تعجل

بقراءته ليحفظه، فنزلت هذه الآية ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ﴾، وكان رسول الله ﷺ لا يعلم ختم سورة، حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم.

• أقول: وروي ما في معنى صدر الحديث في المجمع: (عن ابن جبير وفي معناه غير واحد من الروايات، وقد تقدم أن في انطباق هذا المعنى على الآيات خفاء.

٧. تفضيل الكفار الدنيا على الآخرة:

المقطع [٧] من سورة القيامة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١١١»:

١. ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾:

أ. خطاب للناس وليس من تعميم الخطاب السابق في شيء لأن خطاب ﴿لا تُحَرِّكْ﴾ اعتراضي غير مرتبط بشيء من طرفيه.

ب. وقوله: ﴿كَلَّا﴾ ردع عن قوله السابق: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ﴾ وقوله: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ﴾، أي الحياة العاجلة وهي الحياة الدنيا.

٢. ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ أي تتركون الحياة الآخرة، وما في الكلام من الإضراب إضراب عن حسبان عدم الإحياء بعد الموت نظير الإضراب في قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ﴾

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ﴾ قال: الدنيا الحاضرة، ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ قال: تدعون ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ﴾ أي مشرقة ﴿إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ﴾ قال: ينظرون إلى وجه الله أي رحمة الله ونعمته.

٨. نعيم أهل الجنة ونضارة وجوههم:

المقطع [٨] من سورة القيامة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١١١»:

١. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ﴾:

أ. وصف ليوم القيامة بانقسام الوجوه فيه إلى قسمين: ناضرة وباسرة، ونضرة الوجه واللون والشجر ونحوها ونضارتها حسنها وبهجتها.

ب. والمعنى: نظرا إلى ما يقابله من قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ﴾ وجوه يوم إذ تقوم القيامة حسنة متهللة ظاهرة المسرة والبشاشة قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]، وقال: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ [الدهر: ١١]

٢. ﴿إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ﴾:

أ. خبر بعد خبر لوجوه، و﴿إِلى رَبِّها﴾ متعلق بناظرة قدم عليها لإفادة الحصر أو الأهمية.

ب. والمراد بالنظر إليه تعالى ليس هو النظر الحسي المتعلق بالعين الجسمانية المادية التي قامت البراهين القاطعة على استحالته في حقه تعالى بل المراد النظر القلبي ورؤية القلب بحقيقة الإيمان على ما يسوق إليه البرهان ويدل عليه الأخبار المأثورة عن أهل العصمة عليه السلام وقد أوردنا شطرا منها في ذيل تفسير قوله تعالى: ﴿قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقوله تعالى: ﴿ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى﴾ [النجم: ١١]

ج. فهؤلاء قلوبهم متوجهة إلى ربهم لا يشغلهم عنه سبحانه شاغل من الأسباب لتقطع الأسباب يومئذ، ولا يقفون موقفا من مواقف اليوم ولا يقطعون مرحلة من مراحله إلا والرحمة الإلهية شاملة لهم ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩] ولا يشهدون مشهدا من مشاهد الجنة ولا يتنعمون بشيء من نعيمها إلا وهم يشاهدون ربهم به لأنهم لا ينظرون إلى شيء ولا يرون شيئا إلا من حيث إنه آية لله سبحانه والنظر إلى الآية من حيث إنها آية ورؤيتها نظر إلى ذي الآية ورؤية له.

د. ومن هنا يظهر الجواب عما أورد على القول بأن تقديم ﴿إِلى رَبِّها﴾ على ﴿ناظِرَةٌ﴾ يفيد الحصر والاختصاص، إن من الضروري أنهم ينظرون إلى غيره تعالى كنعم الجنة، والجواب أنما لم يحجبوا عن ربهم كان نظرهم إلى كل ما ينظرون إليه إنما هو بما أنه آية، والآية بما أنها آية لا تحجب ذا الآية ولا تحول بينه وبين الناظر إليه فالنظر إلى الآية نظر إلى ذي الآية فهؤلاء لا ينظرون في الحقيقة إلا إلى ربهم.

هـ. وأما ما أجيب به عنه أن تقديم ﴿إِلى رَبِّها﴾ لرعاية الفواصل ولو سلم أنه للاختصاص فالنظر إلى غيره في جنب النظر إليه لا يعد نظرا، ولو سلم فالنظر إليه تعالى في بعض الأحوال لا في جميعها، فلا يخلو من تكلف التقييد من غير مقيد على أنه أسند النظر إلى الوجوه لا إلى العيون أو الأبصار ووجوه أهل الجنة إلى ربهم دائما من غير أن يواجهوا بها غيره.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في العيون، في باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من أخبار التوحيد بإسناده إلى إبراهيم بن أبي محمود قال: قال علي بن موسى الرضا عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ﴾ يعني مشرقة تنتظر ثواب ربها.

• أقول: ورواه في التوحيد، والاحتجاج، والمجمع، عن علي عليه السلام، وقد اعترض على أخذ ناظرة بمعنى منتظرة بأن الانتظار لا يتعدى بإلى بل هو متعد بنفسه، ورد عليه في مجمع ال بيان بالاستشهاد بقول جميل بن معمر:

وإذا نظرت إليك من ملك...والبحر دونك جدتني نعما

وقول الآخر:

إني إليك لما وعدت لناظر...نظر الفقير إلى الغني الموسر

وعد في الكشاف إطلاق النظر في الآية بمعنى الانتظار استعمالا كنائيا وهو معنى حسن.

ب. أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر والآجري في الشريعة والدارقطني في الرؤية والحاكم وابن مردويه واللالكائي في السنة والبيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: إن أدنى أهل الجنة منزلا لمن ينظر إلى جنانه، وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ﴾ قال: البياض والصفاء ﴿إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ﴾ قال: ينظر كل يوم في وجهه.

• أقول: الرواية تقبل الانطباق على المعنى الذي أوردناه في تفسير الآية، ومع الغض عنه تقبل الحمل على رحمته وفضله وكرمه تعالى وسائر صفاته الفعلية فإن وجه الشيء ما يستقبل به الشيء غيره وما يستقبل به الله سبحانه خلقه هو صفاته الكريمة فالنظر إلى رحمة الله وفضله وكرمه وصفاته الكريمة نظر إلى وجه الله الكريم.

ج. أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: في قول الله، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ﴾ قال: ينظرون إلى ربهم بلا كيفية ولا حد محدود ولا صفة معلومة.

• أقول: والرواية تؤيد ما قدمنا في تفسير الآية أن المراد به النظر القلبي ورؤية القلب دون العين

الحسية، وهي تفسر ما ورد في عدة روايات من طرق أهل السنة مما ظاهره التشبيه وأن الرؤية بالعين الحسية التي لا تفارق المحدودية.

٩. وجوه أهل النار ذليلة محطمة:

المقطع [٩] من سورة القيامة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤ـ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١١٢»:

١. ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ﴾:

أ. فسر البسور بشدة العبوس والظن بالعلم و﴿فاقِرَةٌ﴾ صفة محذوفة الموصوف أي فعله فاقرة، والفاقرة من فقره إذا أصاب فقار ظهره، وقيل: من فقرت البعير إذا وسمت أنفه بالنار.

ب. والمعنى: ووجوه يومئذ شديدة العبوس تعلم أنه يفعل بها فعلة تقصم ظهورها أو تسم أنوفها بالنار، واحتمل أن يكون تظن خطابا للنبي ﷺ بما أنه سامع والظن بمعناه المعروف.

١٠. سكرات الموت ومصير الإنسان:

المقطع [١٠] من سورة القيامة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٦ـ٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١١٢»:

١. ﴿كَلَّا إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ﴾:

أ. ردع عن حبهم العاجلة وإيثارها على الآخرة كأنه قيل: ارتدعوا عن ذلك فليس يدوم عليكم وسينزل عليكم الموت فتساقون إلى ربكم وفاعل ﴿بَلَغَتِ﴾ محذوف يدل عليه السياق كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣] والتقدير إذا بلغت النفس التراقي.

ب. والتراقي العظام المكتنفة للنحر عن يمين وشمال جمع ترقوة، والمعنى ظاهر.

٢. ﴿وَقِيلَ مَنْ راقٍ﴾ اسم فاعل من الرقى أي قال من حضره من أهله وأصدقائه من يرقيه ويشفيه؟ كلمة يأس، وقيل: المعنى قال بعض الملائكة لبعض: من يرقى بروحه من الملائكة أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب،؟

٣. ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ﴾ أي وعلم الإنسان المحتضر من مشاهدة هذه الأحوال أنه مفارقته للعاجلة

التي كان يحبها ويؤثرها على الآخرة.

٤. ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾:

أ. ظاهره أن المراد به التفاف ساق المحتضر بساقه ببطلان الحياة السارية في أطراف البدن عند بلوغ الروح التراقي.

ب. وقيل: المراد به التفاف شدة أمر الآخرة بأمر الدنيا، وقيل: التفاف حال الموت بحال الحياة، وقيل: التفاف ساق الدنيا وهي شدة كرب الموت بساق الآخرة وهي شدة هول المطلع.

ج. ولا دليل من جهة اللفظ على شيء من هذه المعاني نعم من الممكن أن يقال: إن المراد بالتفاف الساق بالساق غشيان الشدائد وتعاقبها عليه واحدة بعد أخرى من حينه ذلك إلى يوم القيامة فينطبق على كل من المعاني.

٥. ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾:

أ. المساق مصدر ميمي بمعنى السوق، والمراد بكون السوق يومئذ إليه تعالى أنه الرجوع إليه، وعبر بالمساق للإشارة إلى أن لا خيرة للإنسان في هذا المسير ولا مناص له عنه فهو مسوق مسير من يوم موته وهو قوله: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ حتى يرد على ربه يوم القيامة وهو قوله: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ ولو كان تقديم ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾ لإفادة الحصر أفاد انحصار الغاية في الرجوع إليه تعالى.

ب. وقيل: الكلام على تقدير مضاف وتقديم ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾ لإفادة الحصر والتقدير إلى حكم ربك يومئذ المساق أي يساق ليحكم الله ويقضي فيه بحكمه، أو التقدير إلى موعد ربك وهو الجنة والنار، وقيل: المراد برجوع المساق إليه تعالى أنه تعالى هو السائق لا غير، والوجه ما تقدم.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ قال: يعني النفس إذا بلغت الترقوة ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ قال: يقال له: من يرقيك ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ علم أنه الفراق

ب. وفي الكافي، بإسناده إلى جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل، ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ قال: فإن ذلك ابن آدم إذا حل به الموت، قال: هل من طبيب ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ أيقن بمفارقة الأحبة ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ قال: التفت الدنيا بالآخرة ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ

الْمَساقُ﴾ قال: المسير إلى رب العالمين.

ج. وفي تفسير القمي: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ قال: التفت الدنيا بالآخرة ﴿إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ﴾ قال: يساقون إلى الله.

١١. عاقبة من كذّب وتولى عن الحق:

المقطع [١١] من سورة القيامة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ [القيامة: ٣١-٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١١٤»:

١. ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى وَلكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾:

أ. الضمائر راجعة إلى الإنسان المذكور في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ﴾، والمراد بالتصديق المنفي تصديق الدعوة الحقة التي يتضمنها القرآن الكريم، وبالتصلية المنفية التوجه العبادي إليه تعالى بالصلاة التي هي عمود الدين.

ب. والتمطي، على ما في المجمع: (تمدد البدن من الكسل وأصله أن يلوي مطاه أي ظهره، والمراد بتمطيه في ذهابه التبختر والاختيال استعارة.

ج. والمعنى: فلم يصدق هذا الإنسان الدعوة فيما فيها من الاعتقاد ولم يصل لربه أي لم يتبعها فيما فيها من الفروع وركنها الصلاة ولكن كذب بها وتولى عنها ثم ذهب إلى أهله يتبختر ويختال مستكبرا.

١٢. دليل قدرة الله على إحياء الموتى:

المقطع [١٢] من سورة القيامة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٣٤-٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١١٤»:

١. ﴿أَوْلى لَكَ فَأَوْلى ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى﴾:

أ. لا ريب أنه كلمة تهديد كررت لتأكيد التهديد، ولا يبعد، والله أعلم، أن يكون قوله: ﴿أَوْلى لَكَ﴾ خبرا لمبتدإ محذوف هو ضمير عائد إلى ما ذكر من حال هذا الإنسان وهو أنه لم يصدق ولم يصل ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله متبخترا مختالا، وإثبات ما هو فيه من الحال له كناية عن إثبات ما هو

لازمه من التبعة والعقاب.

ب. فيكون الكلام وهي كلمة ملقاة من الله تعالى إلى هذا الإنسان كلمة طبع طبع الله بها على قلبه حرم بها الإيمان والتقوى وكتب عليه أنه من أصحاب النار، والآيتان تشبهان بوجه قوله تعالى: ﴿فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠]، والمعنى: ما أنت عليه من الحال أولى وأرجح لك فأولى ثم أولى لك فأولى لتذوق وبال أمرك ويأخذك ما أعد لك من العذاب.

ج. وقيل: أولى لك اسم فعل مبني ومعناه وليك شر بعد شر.

د. وقيل: أولى فعل ماض دعائي من الولي بمعنى القرب وفاعل الفعل ضمير مستتر عائد إلى الهلاك واللام مزيدة والمعنى أولاك الهلاك.

هـ. وقيل: الفاعل ضمير مستتر راجع إليه تعالى واللام مزيدة، والمعنى أولاك الله ما تكرهه، أو غير مزيدة والمعنى أدناك الله مما تكرهه.

و. وقيل: معناه الذم أولى لك من تركه إلا أنه حذف وكثر في الكلام حتى صار بمنزلة الويل لك وصار من المحذوف الذي لا يجوز إظهاره.

ز. وقيل: المعنى أهلكك الله هلاكا أقرب لك من كل شر وهلاك.

ح. وقيل: أولى أفعل تفضيل بمعنى الأحرى، وخبر لمبتدإ محذوف يقدر كما يليق بمقامه فالتقدير هنا النار أولى لك أي أنت أحق بها وأهل لها فأولى.

• وهي وجوه ضعيفة لا تخلو من تكلف والوجه الأخير قريب مما قدمنا وليس به.

٢. ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾:

أ. مختتم فيه رجوع إلى ما في مفتتح السورة من قوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ﴾

ب. والاستفهام للتوبيخ، والسدي المهمل، والمعنى أيظن الإنسان أن يترك مهملا لا يعتنى به فلا يبعث بإحيائه بعد الموت ولازمه أن لا يكلف ولا يجزى.

٣. ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى﴾ اسم كان ضمير راجع إلى الإنسان، وإمناء المني صبه في الرحم.

٤. ﴿ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ أي ثم كان الإنسان، أو المني، قطعة من دم منعقد فقدره فصوره

بالتعديل والتكميل.

٥. ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى﴾ أي فجعل من الإنسان الصنفين: الذكر والأنثى.

٦. ﴿أَلَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى﴾ احتجاج على البعث الذي ينكرونه استبعادا له بعموم القدرة وثبوتها على الخلق الابتدائي والإعادة لا تزيد على الابتداء مئونة بل هي أهون، وقد تقدم الكلام في تقريب هذه الحجة في تفسير الآيات المتعرضة لها مرارا.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في العيون، بإسناده عن عبد العظيم الحسني قال، سألت محمد بن علي الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿أَوْلى لَكَ فَأَوْلى ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى﴾ قال: يقول الله عز وجل بعدا لك من خير الدنيا، وبعدا لك من خير الآخرة.

• أقول: يمكن إرجاعه إلى ما قدمناه من معنى الآيتين، وكذا إلى بعض ما قيل فيه.

ب. وفي المجمع: (وجاءت الرواية: أن رسول الله ﷺ أخذ بيد أبي جهل ثم قال له: أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى، فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني، لا تستطيع أنت وربك أن تفعلا بي شيئا، وإني لأعز أهل هذا الوادي، فأنزل الله سبحانه كما قال له رسول الله ﷺ.

• أقول: وروي ما في معناه في الدر المنثور، عن عدة عن قتادة قال: ذكر لنا وساق الحديث.

ج. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾ قال: لا يحاسب ولا يعذب ولا يسأل عن شيء.

د. وفي العلل، بإسناده إلى مسعدة بن زياد قال: قال رجل لجعفر بن محمد عليه السلام، يا أبا عبد الله، إنا خلقنا للعجب قال: وما ذلك لله أنت؟ قال: خلقنا للفناء فقال: يا ابن أخ خلقنا للبقاء، وكيف يفنى جنة لا تبيد ونار لا تخمد؟ ولكن قل: إنما نتحول من دار إلى دار.

هـ. وفي المجمع: (وجاء في الحديث عن البراء عن عازب قال: لما نزلت هذه الآية ﴿أَلَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى﴾ قال رسول الله ﷺ: سبحانك اللهم وبلى: وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام.

• أقول: وروي في الدر المنثور، عن أبي هريرة وغيره: أنه ﷺ إذا قرأ الآية قال: سبحانك اللهم وبلى،

وكذا في العيون، عن الرضا عليه السلام: أنه كان إذا قرأ السورة، قال عند الفراغ سبحانك اللهم بلى.

سورة الإنسان

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٧] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تذكر السورة خلق الإنسان بعد ما لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم هدايته السبيل إما شاكراً وإما كفوراً، وأن الله اعتد للكافرين أنواع العذاب، وللأبرار ألوان النعم.

ب. وقد فصل القول في وصف نعيمهم في ثمان عشرة آية، وهو الدليل على أنه المقصود بالبيان.

ج. ثم تذكر مخاطباً للنبي ﷺ أن القرآن تنزيل منه تعالى عليه وتذكرة، فليصبر لحكم ربه ولا يتبع الناس في أهوائهم، وليذكر اسم ربه بكرة وعشياً، وليسجد له من الليل وليسبحه ليلاً طويلاً.

د. والسورة مدنية بتمامها أو صدرها، وهي اثنتان وعشرون آية من أولها مدني، وذيلها ـ وهي تسع آيات من آخرها ـ مكي، وقد أطبقت روايات أهل البيت عليه السلام على كونها مدنية، واستفاضت بذلك روايات أهل السنة.

هـ. وقيل بكونها مكية بتمامها، وسيوافيك تفصيل القول في ذلك في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

أحاديث وآثار:

أ. في إتقان السيوطي، عن البيهقي في دلائل النبوة بإسناده عن عكرمة والحسن بن أبي الحسن قالا: أنزل الله من القرآن بمكة: اقرأ باسم ربك، ون، والمزمل، إلى أن قالا، وما نزل بالمدينة: ويل للمطففين، والبقرة، وآل عمران، والأنفال، والأحزاب، والمائدة، والممتحنة، والنساء، وإذا زلزلت، والحديد، ومحمد، والرعد، والرحمن، وهل أتى على الإنسان، الحديث.

ب. وفيه، عن ابن الضريس في فضائل القرآن بإسناده عن عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه عن ابن عباس قال: كان إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما شاء.

ج. وكان أول ما أنزل من القرآن: اقرأ باسم ربك، ثم ن، ثم يا أيها المزمل، إلى أن قال: ثم أنزل بالمدينة سورة البقرة، ثم الأنفال، ثم آل عمران، ثم الأحزاب، ثم الممتحنة، ثم النساء، ثم إذا زلزلت، ثم

الحديد، ثم القتال، ثم الرعد، ثم الرحمن، ثم الإنسان، الحديث.

د. وفيه، عن البيهقي في الدلائل بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال: إن أول ما أنزل الله على نبيه من القرآن، اقرأ باسم ربك، وذكر مثل حديث عكرمة والحسين، وفيه ذكر ثلاث من السور المكية التي سقطت من روايتهما، وهي الفاتحة والأعراف وكهيعص.

هـ. أخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الإنسان بالمدينة.

و. وفي المجمع، بإسناده عن الحاكم بإسناده عن سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب أنه قال: سألت النبي عن ثواب القرآن، فأخبرني بثواب سورة سورة، على نحو ما نزلت من السماء، فأول ما نزل عليه بمكة: فاتحة الكتاب، ثم اقرأ باسم ربك، ثم ن، إلى أن قال، وأول ما نزل بالمدينة: سورة البقرة، ثم الأنفال، ثم آل عمران، ثم الأحزاب، ثم الممتحنة، ثم النساء، ثم إذا زلزلت، ثم الحديد، ثم سورة محمد، ثم الرعد، ثم سورة الرحمن، ثم هل أتى، الحديث.

ز. وفيه، عن أبي حمزة الثمالي في تفسيره قال: حدثني الحسن بن الحسن أبو عبد الله بن الحسن: أنها مدنية نزلت في علي وفاطمة السورة كلها.

ح. وفي الدر المنثور، أيضاً أخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة الإنسان بمكة.

• أقول: هو تلخيص حديث طويل أورده النحاس في كتاب الناسخ والمنسوخ، وقد نقله في الإتقان، وهو معارض لما تقدم نقله مستفيضاً عن ابن عباس من نزول السورة بالمدينة وأنها نزلت في أهل البيت عليه السلام.

• على أن سياق آياتها وخاصة قوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ و﴿يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ﴾ سياق قصة واقعة، وذكر الأسير فيمن أطعموهم نعم الشاهد على نزول الآيات بالمدينة، إذ لم يكن للمسلمين أسير بمكة كما تقدمت الإشارة إلى ذلك.

• قال بعضهم ما ملخصه: أن الروايات مختلفة في مكية هذه السورة ومدنيتها، والأرجح أنها مكية، بل الظاهر من سياقها أنها من عتائق السور القرآنية النازلة بمكة في أوائل البعثة، يؤيد ذلك ما ورد فيها من صور النعم الحسية المفصلة الطويلة وصور العذاب الغليظ، كما يؤيده ما ورد فيها من أمر النبي ﷺ بالصبر لحكم ربه وأن لا يطيع منهم آثماً أو كفوراً ويثبت على ما نزل عليه من الحق ولا يداهن المشركين، من

الأوامر التي كانت تنزل بمكة عند اشتداد الأذى على الدعوة وأصحابها بمكة، كما في سورة القلم والمزمل والمدثر، فلا عبرة باحتمال مدنية السورة.

• وهو فاسد، أما ما ذكره من اشتمال السورة على صور النعم الحسية المفصلة الطويلة وصور العذاب الغليظ، فليس ذلك مما يختص بالسور المكية حتى يقضى بها على كون السورة مكية، فهذه سورة الرحمن وسورة الحج مدنيتان على ما تقدمت في الروايات المشتملة على ترتيب نزول السور القرآنية، وقد اشتملتا من صور النعم الحسية المفصلة الطويلة وصور العذاب الغليظ على ما يربو ويزيد على هذه السورة بكثير.

• وأما ما ذكره من اشتمال السورة على أمر النبي ﷺ بالصبر وأن لا يطيع منهم آثماً أو كفوراً ولا يداهنهم ويثبت على ما نزل عليه من الحق، ففيه أن هذه الأوامر واقعة في الفصل الثاني من آيات السورة وهو قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾ إلى آخر السورة، ومن المحتمل جداً أن يكون هذا الفصل من الآيات، وهو ذو سياق تام مستقل ـ نازلاً بمكة، ويؤيده ما في كثير من الروايات المتقدمة أن الذي نزل في أهل البيت بالمدينة هو الفصل الأول من الآيات، وعلى هذا أول السورة مدني وآخرها مكي.

• ولو سلم نزولها دفعة واحدة، فأمره ﷺ بالصبر لا اختصاص له بالسور المكية، فقد ورد في قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [الكهف: ٢٨] والآية، على ما روي، مدنية، والآية، كما ترى، متحدة المعنى مع قوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، وهي في سياق شبيه جداً بسياق هذه الآيات، فراجع وتأمل.

• ثم الذي كان يلقاه النبي ﷺ من أذى المنافقين والذين في قلوبهم مرض والجفاة من ضعفاء الإيمان، لم يكن بأهون من أذى المشركين بمكة، يشهد بذلك أخبار سيرته.

• ولا دليل أيضاً على انحصار الإثم والكفور في مشركي مكة، فهناك غيرهم من الكفار، وقد أثبت القرآن الإثم لجمع من المسلمين في موارد كقوله: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ [النور: ١١]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾ [النساء: ١١٢]

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٢٢] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر أن الله خلق الإنسان من نطفة، وهداه السبيل، وتصف الأبرار الذين يوفون بالنذر ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً، وتبشرهم بالجنة والنعيم.

٢. الآيات [٢٣ ـ ٣١]:

أ. لما وصف جزاء الأبرار وما قدر لهم من النعيم المقيم والملك العظيم بما صبروا في جنب الله، وجه الخطاب إلى النبي ﷺ وأمره بالصبر لحكم ربه، وأن لا يطيع هؤلاء الآثمين والكفار المحبين للعاجلة المتعلقين بها المعرضين عن الآخرة من المشركين وسائر الكفار والمنافقين وأهل الأهواء.

ب. وأن يذكر اسم ربه ويسجد له ويسبحه مستمراً عليه، ثم عمم الحكم لأمته بقوله: ﴿إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾

ج. فهذا وجه اتصال الآيات بما قبلها، وسياقها مع ذلك لا يخلو من شبه بالسياقات المكية، وعلى تقدير مكيتها فصدر السورة مدني وذيلها مكي.

١. الإنسان بين العدم والوجود:

المقطع [١] من سورة الإنسان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٢٠»:

١. ﴿هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾:

أ. الاستفهام للتقرير فيفيد ثبوت معنى الجملة وتحققه أي قد أتى على الإنسان ولعل هذا مراد من قال من قدماء المفسرين: إن ﴿هَلْ﴾ في الآية بمعنى قد، لا على أن ذلك أحد معاني (هل) كما ذكره بعضهم.

ب. والمراد بالإنسان الجنس، وأما قول بعضهم: إن المراد به آدم عليه السلام فلا يلائمه قوله في الآية التالية: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾

ج. والحين قطعة من الزمان محدودة قصيرة كانت أو طويلة، والدهر الزمان الممتد من دون تحديد ببداية أو نهاية.

٢. ﴿شَيْئاً مَذْكُوراً﴾:

أ. أي شيئا يذكر باسمه في المذكورات أي كان يذكر مثلا الأرض والسماء والبر والبحر وغير ذلك

ولا يذكر الإنسان لأنه لم يوجد بعد حتى وجد.

ب. فقيل: الإنسان فكونه مذكورا كناية عن كونه موجودا بالفعل فالنفي في قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ متوجه إلى كونه شيئا مذكورا لا إلى أصل كونه شيئا فقد كان شيئا ولم يكن شيئا مذكورا ويؤيده قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ فقد كان موجودا بمادته ولم يتكون بعد إنسانا بالفعل والآية وما يتلوها من الآيات واقعة في سياق الاحتجاج يبين بها أن الإنسان حادث يحتاج في وجوده إلى صانع يصنعه وخالق يخلقه، وقد خلقه ربه وجهزه التدبير الربوبي بأدوات الشعور من السمع والبصر يهتدي بها إلى السبيل الحق الذي من الواجب أن يسلكه مدى حياته فإن كفر فمصيره إلى عذاب أليم وإن شكر فإلى نعيم مقيم.

ج. والمعنى هل أتى، قد أتى، على الإنسان قطعة محدودة من هذا الزمان الممتد، غير المحدود والحال أنه لم يكن موجودا بالفعل مذكورا في عداد المذكورات.

٣. وضع هنا مبحثا حول [هوية الإنسان على ما يفيده القرآن]، خلاصته:«الميزان: ٢٠/ ١٣٨»:

أ. في الهيكل المحسوس الذي نسميه إنساناً، مبدأ للحياة ينتسب إليه الشعور والإرادة، عبر عنه القرآن بالروح (في خلق آدم) وبالنفس (في سائر المواضع)

ب. النظر البادئ يفهم أن الروح والبدن حقيقتان متفارقتان، وأن الإنسان مجموع الحقيقتين، فإذا قارنت الروح الجسد كان حياً، وإذا فارقته كان الموت.

ج. لكن الآيات تفسر ذلك بخلاف: قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ يفيد أن الروح التي يتوفاها هي الإنسان بتمام حقيقته، لا جزء من مجموع، فالمراد بنفخ الروح في الجسد هو جعل الجسد بعينه إنساناً، لا ضم واحد إلى آخر.

د. قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ يدل على أن الذي أنشأه الله خلقاً آخر هو النطفة التي تكونت علقة ثم مضغة ثم عظاماً بعينها، وقوله: ﴿هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ يفيد أنه كان شيئاً (أرضاً أو نطفة) لكن لم يكن مذكوراً أنه الإنسان الفلاني، ثم صار هو هو.

هـ. مفاد كلام الله أن الإنسان واحد حقيقي، هو المبدأ الوحيد لجميع آثار البدن الطبيعية والآثار الروحية، وهو مجرد في نفسه عن المادة، كما يفيده قوله: ﴿يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾، وقوله: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى

الْأَنْفُسَ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ﴾

٤. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: (وروى العياشي بإسناده عن عبد الله بن بكير عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ قال: كان شيئا ولم يكن مذكورا.

• أقول: وروي فيه، أيضا عن عبد الأعلى مولى آل سام عن أبي عبد الله عليه السلام: مثله.

ب. وفيه، أيضا عن العياشي بإسناده عن سعيد الحذاء عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان مذكورا في العلم ولم يكن مذكورا في الخلق.

• أقول: يعني أنه كان له ثبوت في علم الله ثم خلق بالفعل فصار مذكورا فيمن خلق.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن مالك الجهني عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: كان مقدرا غير مذكور.

• أقول: هو في معنى الحديث السابق.

د. وفي تفسير القمي: في الآية قال: لم يكن في العلم ولا في الذكر، وفي حديث آخر: كان في العلم ولم يكن في الذكر.

• أقول: معنى الحديث الأول أنه لم يكن في علم الناس ولا فيمن يذكرونه فيما بينهم، ومعنى الثاني أنه كان في علم الله ولم يكن مذكورا عند الناس.

٢. خلق الإنسان من نطفة أمشاج وامتحانه:

المقطع [٢] من سورة الإنسان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٢١»:

١. ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾:

أ. النطفة في الأصل بمعنى الماء القليل غلب استعماله في ماء الذكور من الحيوان الذي يتكون منه مثله، وأمشاج جمع مشيج أو المشج بفتحتين أو بفتح فكسر بمعنى المختلط الممتزج، ووصفت بها النطفة باعتبار أجزائها المختلفة أو اختلاط ماء الذكور والإناث.

ب. والابتلاء نقل الشيء من حال إلى حال ومن طور إلى طور كابتلاء الذهب في البوتقة، وابتلاؤه

تعالى الإنسان في خلقه من النطفة هو ما ذكره في مواضع من كلامه أنه يخلق النطفة فيجعلها علقة والعلقة مضغة إلى آخر الأطوار التي تتعاقبها حتى ينشئه خلقا آخر.

ج. وقيل: المراد بابتلائه امتحانه بالتكليف، ويدفعه تفريع قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ على الابتلاء ولو كان المراد به التكليف كان من الواجب تفريعه على جعله سميعا بصيرا لا بالعكس، والجواب عنه بأن في الكلام تقديما وتأخيرا والتقدير إنا خلقناه من نطفة أمشاج فجعلناه سميعا بصيرا لنبتليه، لا يصغي إليه.

٢. ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾:

أ. سياق الآيات وخاصة قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ يفيد أن ذكر جعله سميعا بصيرا للتوسل به في التدبير الربوبي إلى غايته وهي أن يرى آيات الله الدالة على المبدإ والمعاد ويسمع كلمة الحق التي تأتيه من جانب ربه بإرسال الرسل وإنزال الكتب فيدعوه البصر والسمع إلى سلوك سبيل الحق والسير في مسير الحياة بالإيمان والعمل الصالح فإن لزم السبيل الذي هدي إليه أداه إلى نعيم الأبد وإلا فإلى عذاب مخلد.

ب. وذكر الإنسان في الآية من وضع الظاهر موضع الضمير والنكتة فيه تسجيل أنه تعالى هو خالقه ومدبر أمره.

ج. والمعنى: إنا خلقنا الإنسان من نطفة هي أجزاء مختلطة ممتزجة والحال أنا ننقله من حال إلى حال ومن طور إلى طور فجعلناه سميعا بصيرا ليسمع ما يأتيه من الدعوة الإلهية، ويبصر الآيات الإلهية الدالة على وحدانيته تعالى والنبوة والمعاد.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، أيضا في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى ﴿أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ قال: ماء الرجل والمرأة اختلطا جميعا.

٣. هداية الإنسان واختياره بين الشكر والكفر:

المقطع [٣] من سورة الإنسان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٢٢»:

١. ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾:

أ. الهداية بمعنى إراءة الطريق دون الإيصال إلى المطلوب والمراد بالسبيل السبيل بحقيقة معنى

الكلمة وهو المؤدي إلى الغاية المطلوبة وهو سبيل الحق.

ب. والشكر استعمال النعمة بإظهار كونها من منعمها وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] إن حقيقة كون العبد شاكرا لله كونه مخلصا لربه، والكفران استعمالها مع ستر كونها من المنعم.

٢. ﴿إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾:

أ. حالان من ضمير ﴿هَدَيْناهُ﴾ لا من ﴿السَّبِيلَ﴾ كما قاله بعضهم، و﴿إِمَّا﴾ يفيد التقسيم والتنويع أي إنا هديناه السبيل حال كونه منقسما إلى الشاكر والكفور أي أنه مهدي سواء كان كذا أو كذلك.

ب. والتعبير بقوله: ﴿إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ هو الدليل:

أ. أولا: على أن المراد بالسبيل السنة والطريقة التي يجب على الإنسان أن يسلكها في حياته الدنيا لتوصله إلى سعادته في الدنيا والآخرة وتسوقه إلى كرامة القرب والزلفى من ربه ومحصله الدين الحق وهو عند الله الإسلام، وبه يظهر أن تفسير بعضهم السبيل بسبيل الخروج من الرحم غير سديد.

ب. وثانيا: أن السبيل المهدي إليه سبيل اختياري وأن الشكر والكفر اللذين يترتبان على الهداية المذكورة واقعان في مستقر الاختيار للإنسان أن يتلبس بأيهما شاء من غير إكراه وإجبار كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس: ٢٠]، وما في آخر السورة من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ إنما يفيد تعلق مشيته تعالى بمشية العبد لا بفعل العبد الذي تعلقت به مشية العبد حتى يفيد نفي تأثير مشية العبد المتعلقة بفعله، وقد تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى في هذا الكتاب مرارا.

٣. والهداية التي هي نوع إيذان وإعلام منه تعالى للإنسان:

أ. هداية فطرية هي تنبيه بسبب نوع خلقته وما جهز به وجوده بإلهام من الله سبحانه على حق الاعتقاد وصالح العمل قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾ [الشمس: ٨] وأوسع مدلولا منه قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]

ب. وهداية قولية من طريق الدعوة يبعث الأنبياء وإرسال الرسل وإنزال الكتب وتشريع الشرائع الإلهية، ولم يزل التدبير الربوبي تدعم الحياة الإنسانية بالدعوة الدينية القائم بها أنبياؤه ورسله، ويؤيد بذلك

دعوة الفطرة كما قال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾، إلى أن قال، ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]

ج. ومن الفرق بين الهدايتين أن الهداية الفطرية عامة بالغة لا يستثني منها إنسان لأنها لازم الخلقة الإنسانية وهي في الأفراد بالسوية غير أنها ربما تضعف أو يلغو أثرها لعوامل وأسباب تشغل الإنسان وتصرفه عن التوجه إلى ما يدعو إليه عقله ويهديه إليه فطرته أو ملكات وأحوال رديئة سيئة تمنعه عن إجابة نداء الفطرة كالعناد واللجاج وما يشبه ذلك قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]، والهداية المنفية في الآية بمعنى الإيصال إلى المطلوب دون إراءة الطريق بدليل قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ﴾

د. وأما الهداية القولية وهي التي تتضمنها الدعوة الدينية فإن من شأنها أن تبلغ المجتمع فتكون في معرض من عقول الجماعة فيرجع إليها من آثر الحق على الباطل وأما بلوغها لكل واحد واحد منهم فإن العلل والأسباب التي يتوسل بها إلى بيان أمثال هذه المقاصد ربما لا تساعد على ذلك على ما في الظروف والأزمنة والبيئات من الاختلاف وكيف يمكن لإنسان أن يدعو كل إنسان إلى ما يريد بنفسه أو بوسائط من نوعه؟ فمن المتعذر ذلك جدا.

هـ. وإلى المعنى الأول أشار تعالى بقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وإلى الثاني بقوله: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ﴾ [يس: ٦]، فمن بلغته الدعوة وانكشف له الحق فقد تمت عليه الحجة ومن لم تبلغه الدعوة بلوغا ينكشف به له الحق فقد أدركه الفضل الإلهي بعده مستضعفا أمره إلى الله إن يشأ يغفر له وإن يشأ يعذبه قال تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٩٨]

و. ثم من الدليل على أن الدعوة الإلهية وهي الهداية إلى السبيل حق يجب على الإنسان أن يتبعها فطرة الإنسان وخلقته المجهزة بما يهدي إليها من الاعتقاد والعمل، ووقوع الدعوة خارجا من طريق النبوة والرسالة فإن سعادة كل موجود وكماله في الآثار والأعمال التي تناسب ذاته وتلائمها بما جهزت به من القوى والأدوات فسعادة الإنسان وكماله في اتباع الدين الإلهي الذي هو سنة الحياة الفطرية وقد حكم به العقل وجاءت به الأنبياء والرسل عليهم السلام.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن حمران بن أعين قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله عز وجل، ﴿إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ قال: إما آخذ فهو شاكر وإما تارك فهو كافر.

• أقول: ورواه القمي في تفسيره، بإسناده عن ابن أبي عمير عن أبي جعفر عليه السلام مثله، وفي التوحيد، بإسناده إلى حمزة بن الطيار عن أبي عبد الله عليه السلام ما يقرب منه ولفظه: عرفناه إما آخذا وإما تاركا.

ب. أخرج أحمد وابن المنذر عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: كل مولود يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه، فإذا عبر عنه لسانه إما شاكرا وإما كفورا، والله تعالى أعلم.

٤. عذاب الله للكافرين في الآخرة:

المقطع [٤] من سورة الإنسان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٢٤»:

١. ﴿إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً﴾:

أ. الاعتاد التهيئة، وسلاسل جمع سلسلة وهي القيد الذي يقاد به المجرم، وأغلال جمع غل بالضم قيل هي القيد الذي يجمع اليدين على العنق، وقال الراغب: (فالغل مختص بما يقيد به فيجعل الأعضاء وسطه)، والسعير النار المشتعلة، والمعنى ظاهر.

ب. والآية تشير إلى تبعة الإنسان الكفور المذكور في قوله: ﴿إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ وقدم بيان تبعته على بيان جزاء الإنسان الشاكر لاختصار الكلام فيه.

٥. شراب الأبرار في الجنة:

المقطع [٥] من سورة الإنسان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٥-٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٢٤»:

١. ﴿إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً﴾:

أ. الكأس إناء الشراب إذا كان فيه شراب، والمزاج ما يمزج به كالحزام لما يحزم به، والكافور

معروف يضرب به المثل في البرودة وطيب الرائحة، وقيل: هو اسم عين في الجنة.

ب. والأبرار جمع بر بفتح الباء صفة مشبهة من البر وهو الإحسان ويتحصل معناه في أن يحسن الإنسان في عمله من غير أن يريد به نفعا يرجع إليه من جزاء أو شكور فهو يريد الخير لأنه خير لا لأن فيه نفعا يرجع إلى نفسه وإن كرهت نفسه ذلك فيصبر على مر مخالفة نفسه فيما يريده ويعمل العمل لأنه خير في نفسه كالوفاء بالنذر أو لأن فيه خيرا لغيره كإطعام الطعام للمستحقين من عباد الله.

ج. وإذ لا خير في عمل ولا صلاح إلا بالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر كما قال تعالى: ﴿أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمالَهُمْ﴾ [الأحزاب: ١٩] إلى غير ذلك من الآيات.

د. فالأبرار مؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر، وإذ كان إيمانهم إيمان رشد وبصيرة فهم يرون أنفسهم عبيدا مملوكين لربهم، له خلقهم وأمرهم، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا عليهم أن لا يريدوا إلا ما أراده ربهم ولا يفعلوا إلا ما يرتضيه فقدموا إرادته على إرادة أنفسهم وعملوا له فصبروا على مخالفة أنفسهم فيما تهواه وتحبه وكلفة الطاعة، وعملوا ما عملوه لوجه الله، فأخلصوا العبودية في مرحلة العمل لله سبحانه.

هـ. وهذه الصفات هي التي عرف سبحانه الأبرار بها كما يستفاد من قوله: ﴿يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللهِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾ وقوله: ﴿وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا﴾ وهي المستفادة من قوله في صفتهم: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقد مر بعض الكلام في معنى البر في تفسير الآية وسيأتي بعضه في قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]

و. والآية أعني قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ﴾ بما يتبادر من معناها من حيث مقابلتها لقوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ﴾ المبين لحال الكافرين في الآخرة، تبين حال الأبرار في الآخرة في الجنة، وأنهم يشربون من شراب ممزوج بالكافور باردا طيب الرائحة.

٢. ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً﴾:

أ. ﴿عَيْناً﴾ منصوب بنزع الخافض والتقدير من عين أو بالاختصاص والتقدير أخص عينا، والشرب، على ما قيل، يتعدى بنفسه وبالباء فشرب بها وشربها واحد، والتعبير عنهم بعباد الله للإشارة إلى

تحليهم بحلية العبودية وقيامهم بلوازمها على ما يفيده سياق المدح.

ب. وتفجير العين شق الأرض لإجرائها، وينبغي أن يحمل تفجيرهم العين على إرادتهم جريانها لأن نعم الجنة لا تحتاج في تحققها والتنعم بها إلى أزيد من مشية أهلها قال تعالى: ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها﴾ [ق: ٣٥]

٣. والآيتان، كما تقدمت الإشارة إليه، تصفان تنعم الأبرار بشراب الجنة في الآخرة، وبذلك فسرت الآيتان:

أ. ولا يبعد أن تكون الآيتان مسوقتين على مسلك تجسم الأعمال تصفان حقيقة عملهم الصالح من الإيفاء بالنذر وإطعام الطعام لوجه الله، وأن أعمالهم المذكورة بحسب باطنها شرب من كأس مزاجها كافور من عين لا يزالون يفجرونها بأعمالهم الصالحة وستظهر لهم بحقيقتها في جنة الخلد وإن كانت في الدنيا في صورة الأعمال فتكون الآيتان في مجرى أمثال قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ [يس: ٨]

ب. ويؤيد ذلك ظاهر قوله: ﴿يَشْرَبُونَ﴾ و﴿يَشْرَبُ بِها﴾ ولم يقل: سيشربون وسيشرب بها، ووقوع قوله: يشربون ويوفون ويخافون ويطعمون متعاقبة في سياق واحد، وذكر التفجير في قوله: ﴿يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً﴾ الظاهر في استخراج العين وإجرائها بالتوسل بالأسباب.

٤. ولهم في مفردات الآيتين وإعرابها أقاويل كثيرة مختلفة مذكورة في المطولات فليراجعها من أراد الوقوف عليها.

٦. وفاء الأبرار بالنذر وخوفهم من الله:

المقطع [٦] من سورة الإنسان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٢٦»:

أ. المستطير اسم فاعل من استطار إذا فشا وانتشر في الأقطار غاية الانتشار وهو أبلغ من طار كما قيل: يقال: استطار الحريق واستطار الفجر إذا اتسعا غايته، والمراد باستطارة شر اليوم وهو يوم القيامة بلوغ شدائده وأهواله وما فيه من العذاب غايته.

ب. والمراد بالإيفاء بالنذر ما هو ظاهره المعروف من معناه، وقول القائل: إن المراد به ما عقدوا

عليه قلوبهم من العمل بالواجبات أو ما عقدوا عليه القلوب من اتباع الشارع في جميع ما شرعه خلاف ظاهر اللفظ من غير دليل يدل عليه.

٧. إيثار الأبرار وإطعامهم للفقراء:

المقطع [٧] من سورة الإنسان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٨-١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٢٧»:

١. ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾:

أ. ضمير ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ للطعام على ما هو الظاهر، والمراد بحبه توقان النفس إليه لشدة الحاجة، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]

ب. وقيل: الضمير لله سبحانه أي يطعمون الطعام حبا لله لا طمعا في الثواب، ويدفعه أن قوله تعالى حكاية منهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾ يغني عنه.

ج. ويليه في الضعف ما قيل: إن الضمير للإطعام المفهوم من قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ﴾ وجه الضعف أنه إن أريد بحب الإطعام حقيقة معناه فليس في حب الإطعام في نفسه فضل حتى يمدحوا به، وإن أريد به كون الإطعام بطيب النفس وعدم التكلف فهو خلاف الظاهر، ورجوع الضمير إلى الطعام هو الظاهر.

د. والمراد بالمسكين واليتيم معلوم، والمراد بالأسير ما هو الظاهر منه وهو المأخوذ من أهل دار الحرب.

هـ. وقول بعضهم: إن المراد به أسارى بدر أو الأسير من أهل القبلة في دار الحرب بأيدي الكفار أو المحبوس أو المملوك من العبيد أو الزوجة كل ذلك تكلف من غير دليل يدل عليه.

و. والذي يجب أن يتنبه له أن سياق هذه الآيات سياق الاقتصاص تذكر قوما من المؤمنين تسميهم الأبرار وتكشف عن بعض أعمالهم وهو الإيفاء بالنذر وإطعام مسكين ويتيم وأسير وتمدحهم وتعدهم الوعد الجميل.

ز. فما تشير إليه من القصة سبب النزول، وليس سياقها سياق فرض موضوع وذكر آثارها الجميلة، ثم الوعد الجميل عليها، ثم إن عد الأسير فيمن أطعمه هؤلاء الأبرار نعم الشاهد على كون الآيات مدنية

فإن الأسر إنما كان بعد هجرة النبي ﷺ وظهور الإسلام على الكفر والشرك لا قبلها.

٢. ﴿إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً﴾:

أ. وجه الشيء هو ما يستقبل به غيره، ووجهه تعالى صفاته الفعلية الكريمة التي يفيض بها الخير على خلقه من الخلق والتدبير والرزق وبالجملة الرحمة العامة التي بها قيام كل شيء، ومعنى كون العمل لوجه الله على هذا كون الغاية في العمل هي الاستفاضة من رحمة الله وطلب مرضاته بالاقتصار على ذلك والإعراض عما عند غيره من الجزاء المطلوب، ولذا ذيلوا قولهم: ﴿إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾ بقولهم ﴿لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً﴾

ب. ووراء ذلك صفاته الذاتية الكريمة التي هي المبدأ لصفاته الفعلية ولما يترتب عليها من الخير في العالم، ومرجع كون العمل لوجه الله على هذا هو الإتيان بالعمل حبا لله لأنه الجميل على الإطلاق، وإن شئت فقل: عبادته تعالى لأنه أهل للعبادة.

ج. وابتغاء وجه الله بجعله غاية داعية في الأعمال مذكور في مواضع من كلامه تعالى كقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقوله: ﴿وَما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وفي هذا المعنى قوله: ﴿وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقوله: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥]، وقوله: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ﴾ [الزمر: ٣]

٣. ﴿لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً﴾:

أ. الجزاء مقابلة العمل بما يعادله إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا، ويعم الفعل والقول لكن المراد به في الآية بقرينة مقابلته الشكور مقابلة إطعامهم عملا لا لسانا.

ب. والشكر والشكور ذكر النعمة وإظهارها قلبا أو لسانا أو عملا، والمراد به في الآية وقد قوبل بالجزاء الثناء الجميل لسانا.

٤. والآية أعني قوله: ﴿إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾ خطاب منهم لمن أطعموه من المسكين واليتيم والأسير إما بلسان المقال فهي حكاية قولهم أو بتقدير القول وكيف كان فقد أرادوا به تطييب قلوبهم أن يأمنوا المن والأذى، وإما بلسان الحال وهو ثناء من الله عليهم لما يعلم من الإخلاص في قلوبهم.

٥. ﴿إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾:

أ. عد اليوم وهو يوم القيامة عبوسا من الاستعارة، والمراد بعبوسه ظهوره على المجرمين بكمال شدته، والقمطرير الصعب الشديد على ما قيل.

ب. والآية في مقام التعليل لقولهم المحكي: ﴿إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾ ينبهون بقولهم هذا أن قصرهم العمل في ابتغاء وجه الله تعالى إخلاصا للعبودية لمخافتهم ذاك اليوم الشديد، ولم يكتفوا بنسبة المخافة إلى اليوم حتى نسبوه نحوا من النسبة إلى ربهم فقالوا: ﴿نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً﴾ لأنهم لما لم يريدوا إلا وجه ربهم فهم لا يخافون غيره كما لا يرجون غيره وإنما يخافون ويرجون ربهم فلا يخافون يوم القيامة إلا لأنه من ربهم يحاسب فيه عباده على أعمالهم فيجزيهم بها.

ج. وأما قوله قبلا: ﴿وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ حيث نسب خوفهم إلى اليوم فإن الواصف فيه هو الله سبحانه وقد نسب اليوم بشدائده إلى نفسه قبلا حيث قال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ﴾

د. وبالجملة ما ذكروه من الخوف مخافة في مقام العمل لما يحاسب العبد على عمله فالعبودية لازمة للإنسان لا تفارقه وإن بلغ ما بلغ قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٦]

٦. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ﴾ الآية، قال: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ.

• أقول: الآية تشارك سائر آيات صدر السورة مما تقدم عليها أو تأخر عنها في سياق واحد متصل فنزولها فيهما عليه السلام لا ينفك نزولها جميعا بالمدينة.

ب. وفي الكشاف: (وعن ابن عباس: أن الحسن والحسين مرضا، فعادهما رسول الله ﷺ في ناس معه فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك (ولديك) فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما، إن برءا مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام، فشفيا وما معهم شيء، فاستقرض علي من شمعون الخيبري اليهودي، ثلاث أصوع من شعير فطحنت فاطمة صاعا، واختبزت خمسة أقراص على عددهم، فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل وقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني

أطعمكم الله من موائد الجنة، فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياما، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم، وقف عليهم يتيم فآثروه، ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك، فلما أصبحوا أخذ علي بيد الحسن والحسين، وأقبلوا إلى رسول الله ﷺ، فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع، قال: ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم، فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها، قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها، فساءه ذلك فنزل جبريل وقال: خذها يا محمد، هنأك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة.

• أقول: الرواية مروية بغير واحد من الطرق عن عطاء عن ابن عباس ونقلها البحراني في غاية المرام، عن أبي المؤيد الموفق بن أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس، وعنه بإسناد آخر عن الضحاك عن ابن عباس وعن الحمويني في كتاب فرائد السمطين بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس، وعن الثعلبي بإسناده عن أبي صالح عن ابن عباس، ورواه في المجمع: (عن الواحدي في تفسيره.

ج. وفي تفسير القمي، عن أبيه عن عبد الله بن ميمون عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان عند فاطمة عليه السلام شعير فجعلوه عصيدة فلما أنضجوها ووضعوها بين أيديهم جاء مسكين فقال: مسكين رحمكم الله فقام علي عليه السلام فأعطاه ثلثا، فلم يلبث أن جاء يتيم فقال: اليتيم رحمكم الله، فقام علي عليه السلام فأعطاه الثلث ثم جاء أسير فقال: الأسير رحمكم الله فأعطاه علي عليه السلام الثلث، وما ذاقوها فأنزل الله سبحانه الآيات فيهم، وهي جارية في كل مؤمن فعل ذلك لله عز وجل.

• أقول: القصة كما ترى ملخصة في الرواية وروى ذلك البحراني في غاية المرام، عن المفيد في الاختصاص، مسندا وعن ابن بابويه في الأمالي، بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس، وبإسناده عن سلمة بن خالد عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام، وعن محمد بن العباس بن ماهيار في تفسيره بإسناده عن أبي كثير الزبيري عن عبد الله بن عباس، وفي المناقب، أنه مروي عن الأصبغ بن نباتة.

د. في الاحتجاج، عن علي عليه السلام: في حديث يقول فيه للقوم بعد موت عمر بن الخطاب: نشدتكم بالله هل فيكم أحد نزل فيه وفي ولده ﴿إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً﴾ إلى آخر السورة غيري؟ قالوا: لا.

هـ. وفي كتاب الخصال، في احتجاج علي على أبي بكر قال: أنشدك بالله أنا صاحب الآية، ﴿يُوفُونَ

بِالنَّذْرِ وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ أم أنت؟ قال: بل أنت.

و. في أمالي الصدوق، بإسناده عن الصادق عن أبيه عليه السلام في حديث: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً﴾ قال: هي عين في دار النبي ﷺ، يفجر إلى دور الأنبياء والمؤمنين ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ يعني عليا وفاطمة، والحسن والحسين عليه السلام وجاريتهم ﴿وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ يقول عابسا كلوحا ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ﴾ يقول: على شهوتهم للطعام وإيثارهم له ﴿مِسْكِيناً﴾ من مساكين المسلمين، ﴿وَيَتِيماً﴾ من يتامى المسلمين ﴿وَأَسِيراً﴾ من أسارى المشركين، ويقولون إذا أطعموهم: ﴿إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ، لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً﴾ قال: والله ما قالوا هذا لهم، ولكنهم أضمروه في أنفسهم فأخبر الله بإضمارهم، يقولون: لا نريد جزاء تكافئوننا به، ولا شكورا تثنون علينا به، ولكنا إنما أطعمناكم لوجه الله وطلب ثوابه.

ز. أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه عن الحسن قال: كان الأسارى مشركين يوم نزلت هذه الآية ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾

• أقول: مدلول الرواية نزول الآية بالمدينة، ونظيرها ما رواه فيه عن عبد بن حميد عن قتادة، وما رواه عن ابن المنذر عن ابن جريح، وما رواه عن عبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس.

ح. أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾ قال: يقبض ما بين الأبصار.

٨. جزاء الأبرار في الجنة:

المقطع [٨] من سورة الإنسان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١١-١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ١٢٨/٢٠»:

١. ﴿فَوَقاهُمُ اللهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾:

أ. الوقاية الحفظ والمنع من الأذى ولقي بكذا يلقيه أي استقبله به والنضرة البهجة وحسن اللون والسرور مقابل المساءة والحزن.

ب. والمعنى: فحفظهم الله ومنع عنهم شر ذلك اليوم واستقبلهم بالنضرة والسرور، فهم ناضرة الوجوه مسرورون يومئذ كما قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢]

٢. ﴿وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ المراد بالصبر صبرهم عند المصيبة وعلى الطاعة وعن المعصية فإنهم ابتغوا في الدنيا وجه ربهم وقدموا إرادته على إرادتهم فصبروا على ما قضى به فيهم وأراده من المحن ومصائب الدنيا في حقهم، وصبروا على امتثال ما أمرهم به وصبروا على ترك ما نهاهم عنه وإن كان مخالفا لأهواء أنفسهم فبدل الله ما لقوه من المشقة والكلفة نعمة وراحة.

٣. ﴿مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً﴾ الأرائك جمع أريكة وهو ما يتكأ عليه، والزمهرير البرد الشديد، والمعنى حال كونهم متكئين في الجنة على الأرائك لا يرون فيها شمسا حتى يتأذوا بحرها ولا زمهريرا حتى يتأذوا ببرده.

٤. ﴿وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً﴾ الظلال جمع ظل، ودنو الظلال عليهم قربها منهم بحيث تنبسط عليهم فكان الدنو مضمن معنى الانبساط وقطوف جمع قطف بالكسر فالسكون وهو الثمرة المقطوفة المجتناة، وتذليل القطوف لهم جعلها مسخرة لهم يقطفونها كيف شاءوا من غير مانع أو كلفة.

٥. أحاديث وآثار: في روضة الكافي، بإسناده عن محمد بن إسحاق المدني عن أبي جعفر عليه السلام في صفة الجنة قال: والثمار دانية منهم، وهو قوله عز وجل: ﴿وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها، وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً﴾ من قربها منهم يتناول المؤمن، من النوع الذي يشتهيه من الثمار بفيه وهو متكئ، وإن الأنواع من الفاكهة ليقلن لولي الله: يا ولي الله كلمني قبل أن تأكل هذه قبلي.

٩. آنية الجنة وأطعمتها وأشربتها:

المقطع [٩] من سورة الإنسان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٥ـ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٢٩»:

١. ﴿وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا﴾ الآنية جمع إناء كأكسية جمع كساء وهو الوعاء، وأكواب جمع كوب وهو إناء الشراب الذي لا عروة له ولا خرطوم والمراد طواف الولدان

المخلدين عليهم بالآنية وأكواب الشراب كما سيأتي في قوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ﴾ الآية.

٢. ﴿قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً﴾:

أ. بدل من قوارير في الآية السابقة، وكون القوارير من فضة مبني على التشبيه البليغ أي إنها في صفاء الفضة وإن لم تكن منها حقيقة، كذا قيل، واحتمل أن يكون بحذف مضاف والتقدير من صفاء الفضة.

ب. وضمير الفاعل في ﴿قَدَّرُوها﴾ للأبرار والمراد بتقديرهم الآنية والأكواب كونها على ما شاءوا من القدر ترويهم بحيث لا تزيد ولا تنقص كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها﴾ [ق: ٣٥] وقد قال تعالى قبل: ﴿يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً﴾

ج. ويحتمل رجوع الضمير إلى الطائفين المفهوم من قوله: ﴿يُطافُ عَلَيْهِمْ﴾ والمراد بتقديرهم الآنية والأكواب إتيانهم بها على قدر ما أرادوا محتوية على ما اشتهوا قدر ما اشتهوا.

٣. ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلاً﴾ قيل: إنهم كانوا يستطيبون الزنجبيل في الشراب فوعد الأبرار بذلك وزنجبيل الجنة أطيب وألذ.

٤. ﴿عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾ أي من عين أو التقدير أعني أو أخص عينا، قال الراغب: (وقوله: ﴿سَلْسَبِيلاً﴾ أي سهلا لذيذا سلسا حديد الجرية.

١٠. خدمة الولدان لأهل الجنة:

المقطع [١٠] من سورة الإنسان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٣٠»:

١. ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾:

أ. أي ولدان دائمون على ما هم عليه من الطراوة والبهاء وصباحة المنظر.

ب. وقيل: أي مقرطون بخلدة وهي ضرب من القرط.

ج. والمراد بحسبانهم لؤلؤا منثورا أنهم في صفاء ألوانهم وإشراق وجوههم وانعكاس أشعة بعضهم على بعض وانبثاثهم في مجالسهم كاللؤلؤ المنثور.

٢. أحاديث وآثار: في تفسير القمي: في قوله: ﴿وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ قال: مسورون.

١١. نعيم الجنة وملكها العظيم:

المقطع [١١] من سورة الإنسان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٣٠»:

١. ﴿وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾:

أ. ﴿ثَمَّ﴾ ظرف مكان ممحض في الظرفية، ولذا قيل: إن معنى ﴿رَأَيْتَ﴾ الأول: رميت ببصرك، والمعنى وإذا رميت ببصرك ثم يعني الجنة رأيت نعيما لا يوصف وملكا كبيرا لا يقدر قدره.

ب. وقيل: ﴿ثَمَّ﴾ صلة محذوفة الموصول والتقدير وإذا رأيت ما ثم من النعيم والملك، وهو كقوله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] والكوفيون من النحاة يجوزون حذف الموصول وإبقاء الصلة وإن منعه البصريون منهم.

٢. أحاديث وآثار:

أ. أخرج الطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمر قال: جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: سل واستفهم، فقال: يا رسول الله فضلتم علينا، بالألوان والصور والنبوة، أفرأيت إن آمنت بما آمنت به، وعملت بمثل ما عملت به إني لكائن معك في الجنة؟ قال: نعم والذي نفسي بيده، إنه ليرى بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام، ثم قال: من قال لا إله إلا الله كان له عهد عند الله، ومن قال: سبحان الله وبحمده كتبت له مائة ألف حسنة، وأربعة وعشرون ألف حسنة، ونزلت عليه السورة ﴿هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ إلى قوله: ﴿مُلْكاً كَبِيراً﴾، فقال الحبشي: وإن عيني لترى ما ترى عيناك في الجنة؟ قال: نعم فاشتكى حتى فاضت نفسه، قال عمر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يدليه في حفرته بيده.

ب. أخرج أحمد في الزهد عن محمد بن مطرف قال: حدثني الثقة: أن رجلا أسود كان يسأل النبي ﷺ عن التسبيح والتهليل، فقال له عمر بن الخطاب: مه أكثرت على رسول الله، فقال: مه يا عمر وأنزلت على رسول الله ﷺ ﴿هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ حتى إذا أتى على ذكر الجنة، زفر الأسود زفرة خرجت نفسه، فقال النبي ﷺ: مات شوقا إلى الجنة.

ج. أخرج ابن وهب عن ابن زيد أن رسول الله ﷺ قرأ هذه السورة، ﴿هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ

مِنَ الدَّهْرِ﴾، وقد أنزلت عليه وعنده رجل أسود، فلما بلغ صفة الجنان زفر زفرة فخرجت نفسه، فقال رسول الله ﷺ: أخرج نفس صاحبكم الشوق إلى الجنة.

• أقول: وهذه الروايات الثلاث على تقدير صحتها لا تدل على أزيد من كون نزول السورة مقارنا لقصة الرجل وأما كونها سببا للنزول فلا، وهذا المعنى في الرواية الأخيرة أظهر وبالجملة لا تنافي الروايات الثلاث نزول السورة في أهل البيت عليه السلام.

• على أن رواية ابن عمر للقصة الظاهرة في حضوره القصة وقد هاجر إلى المدينة وهو ابن إحدى عشرة سنة من شواهد وقوع القصة بالمدينة.

د. وفي المعاني، بإسناده عن عباس بن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام وكنت عنده ذات يوم: أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾ ما هذا الملك الذي كبر الله عز وجل حتى سماه كبيرا؟ قال: إذا أدخل الله أهل الجنة الجنة، أرسل رسولا إلى ولي من أوليائه فيجد الحجبة على بابه، فتقول له: قف حتى نستأذن لك، فما يصل إليه رسول ربه إلا بإذن فهو قوله عز وجل: ﴿وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾

١٢. لباس أهل الجنة وحليهم وشرابهم:

المقطع [١٢] من سورة الإنسان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٣٠»:

١. ﴿عالِيَهُمْ ثِيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ الظاهر أن ﴿عالِيَهُمْ﴾ حال من الأبرار الراجعة إليه الضمائر و﴿ثِيابُ﴾ فاعله، والسندس، كما قيل، ما رق نسجه من الحرير، والخضر صفة ثياب والإستبرق ما غلظ نسجه من ثياب الحرير، وهو معرب كالسندس.

٢. ﴿وَحُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ التحلية التزيين، وأساور جمع سوار وهو معروف، وقال الراغب: (هو معرب دستواره.

٣. ﴿وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً﴾:

أ. أي بالغا في التطهير لا تدع قذارة إلا أزالها ومن القذارة قذارة الغفلة عن الله سبحانه

والاحتجاب عن التوجه إليه فهم غير محجوبين عن ربهم ولذا كان لهم أن يحمدوا ربهم كما قال: ﴿وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] وقد تقدم في تفسير سورة الحمد إن الحمد وصف لا يصلح له إلا المخلصون من عباد الله تعالى لقوله: ﴿سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلَّا عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٦٠]

ب. وقد أسقط تعالى في قوله: ﴿وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ الوسائط كلها ونسب سقيهم إلى نفسه، وهذا أفضل ما ذكره الله تعالى من النعيم الموهوب لهم في الجنة، ولعله من المزيد المذكور في قوله: ﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]

٤. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع ﴿وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾ لا يزول ولا يفنى: عن الصادق عليه السلام.

ب. وفيه: ﴿عالِيَهُمْ ثِيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾ وروي عن الصادق عليه السلام في معناه: تعلوهم الثياب فيلبسونها.

١٣. الجزاء على السعي المشكور:

المقطع [١٣] من سورة الإنسان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٣١»:

١. ﴿إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾ حكاية ما يخاطبون به من عنده تعالى عند توفيته أجرهم أو بحذف القول والتقدير ويقال لهم: إن هذا كان لكم جزاء.

٢. ﴿وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾ إنشاء شكر لمساعيهم المرضية وأعمالهم المقبولة، ويا لها من كلمة طيبة تطيب بها نفوسهم.

٣. واعلم أنه تعالى لم يذكر فيما ذكر من نعيم الجنة في هذه الآيات نساء الجنة من الحور العين وهي من أهم ما يذكره عند وصف نعم الجنة في سائر كلامه:

أ. ويمكن أن يستظهر منه أنه كانت بين هؤلاء الأبرار الذين نزلت فيهم الآيات من هي من النساء.

ب. وقال في روح المعاني: (ومن اللطائف على القول بنزول السورة فيهم يعني في أهل البيت إنه

سبحانه لم يذكر فيها الحور العين وإنما صرح عز وجل بولدان مخلدين رعاية لحرمة البتول وقرة عين الرسول)

١٤. توجيه النبي إلى الصبر والذكر والعبادة:

المقطع [١٤] من سورة الإنسان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣-٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٤٠»:

١. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾ تصدير الكلام بأن وتكرار ضمير المتكلم مع الغير والإتيان بالمفعول المطلق كل ذلك للتأكيد، ولتسجيل أن الذي نزل من القرآن نجوما متفرقة هو من الله سبحانه لم يداخله نفث شيطاني ولا هو نفساني.

٢. ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ تفريع على ما هو لازم مضمون الآية السابقة فإن لازم كون الله سبحانه هو الذي نزل القرآن عليه أن يكون ما في القرآن من الحكم حكم ربه يجب أن يطاع فالمعنى إذا كان تنزيله منا فما فيه من الحكم حكم ربك فيجب عليك أن تصبر له فاصبر لحكم ربك.

٣. ﴿وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾:

أ. ورود الترديد في سياق النهي يفيد عموم الحكم فالنهي عن طاعتهما سواء اجتمعا أو افترقا، والظاهر أن المراد بالإثم المتلبس بالمعصية وبالكفور المبالغ في الكفر فتشمل الآية الكفار والفساق جميعا.

ب. وسبق النهي عن طاعة الإثم والكفور بالأمر بالصبر لحكم ربه يفيد كون النهي مفسرا للأمر فمفاد النهي أن لا تطع منهم آثما إذا دعاك إلى إثمه ولا كفورا إذا دعاك إلى كفره لأن إثم الآثم منهم وكفر الكافر مخالفان لحكم ربك وأما تعليق الحكم بالوصف المشعر بالعلية فإنما يفيد علية الإثم والكفر للنهي عن الطاعة مطلقا لا عليتهما للنهي إذا دعا الآثم إلى خصوص إثمه والكافر إلى خصوص كفره.

٤. ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي داوم على ذكر ربك وهو الصلاة في كل بكرة وأصيل وهما الغدو والعشي.

٥. ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾:

أ. من للتبعيض والمراد بالسجود له الصلاة، ويقبل ما في الآيتين من ذكر اسمه بكرة وأصيلا

والسجود له بعض الليل الانطباق على صلاة الصبح والعصر والمغرب والعشاء وهذا يؤيد نزول الآيات بمكة قبل فرض الفرائض الخمس بقوله في آية الإسراء: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨]

ب. فالآيتان كقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤]، وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ﴾ [طه: ١٣٠]

ج. نعم قيل: على أن الأصيل يطلق على ما بعد الزوال فيشمل قوله: ﴿وَأَصِيلاً﴾ وقتي صلاتي الظهر والعصر جميعا، ولا يخلو من وجه.

٦. ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ أي في ليل طويل ووصف الليل بالطويل توضيحي لا احترازي، والمراد بالتسبيح صلاة الليل، واحتمل أن يكون طويلا صفة لمفعول مطلق محذوف، والتقدير سبحه في الليل تسبيحا طويلا.

٧. أحاديث وآثار:

أ. أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ قال: حدثنا أنها نزلت في عدو الله أبي جهل.

• أقول: وهو أشبه بالتطبيق.

ب. وفي المجمع في قوله تعالى ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ روي عن الرضا عليه السلام: أنه سأله أحمد بن محمد عن هذه الآية وقال: ما ذلك التسبيح؟ قال: صلاة الليل.

١٥. محبة الكفار للدنيا وإعراضهم عن الآخرة:

المقطع [١٥] من سورة الإنسان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٤١»:

١. ﴿إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾:

أ. تعليل لما تقدم من الأمر والنهي والإشارة بهؤلاء إلى جمع الإثم والكفور المدلول عليه بوقوع النكرة في سياق النهي، والمراد بالعاجلة الحياة الدنيا، وعد اليوم ثقيلا من الاستعارة، والمراد بثقله شدته كأنه محمول ثقيل يشق حمله، واليوم يوم القيامة.

ب. وكون اليوم وراءهم تقرره أمامهم لأن وراء تفيد معنى الإحاطة، أو جعلهم إياه خلفهم ووراء ظهورهم بناء على إفادة ﴿يَذَرُونَ﴾ معنى الإعراض.

ج. والمعنى: فاصبر لحكم ربك وأقم الصلاة ولا تطع الآثمين والكفار منهم لأن هؤلاء الآثمين والكفار يحبون الحياة الدنيا فلا يعملون إلا لها ويتركون أمامهم يوما شديدا أو يعرضون فيجعلون خلفهم يوما شديدا سيلقونه.

١٦. قدرة الله على الخلق والإبدال:

المقطع [١٦] من سورة الإنسان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٤٢»:

١. ﴿نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَشَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَإِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ الشد خلاف الفك، والأسر في الأصل الشد والربط ويطلق على ما يشد ويربط به فمعنى شددنا أسرهم أحكمنا ربط مفاصلهم بالرباطات والأعصاب والعضلات أو الأسر بمعنى المأسور والمعنى أحكمنا ربط أعضائهم المختلفة المشدودة بعضها ببعض حتى صار الواحد منهم بذلك إنسانا واحدا.

٢. ﴿وَإِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾:

أ. أي إذا شئنا بدلناهم أمثالهم فذهبنا بهم وجئنا بأمثالهم مكانهم وهو أماته قرن وإحياء آخرين، وقيل المراد به تبديل نشأتهم الدنيا من نشأة القيامة وهو بعيد من السياق.

ب. والآية في معنى دفع الدخل كان متوهما يتوهم أنهم بحبهم للدنيا وإعراضهم عن الآخرة يعجزونه تعالى ويفسدون عليه إرادته منهم أن يؤمنوا ويطيعوا فأجيب بأنهم مخلوقون لله خلقهم وشد أسرهم وإذا شاء أذهبهم وجاء بآخرين فكيف يعجزونه وخلقهم وأمرهم وحياتهم وموتهم بيده،؟

١٧. التذكرة بالقرآن ومشيئة الله ورحمته:

المقطع [١٧] من سورة الإنسان، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩-٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٤٢»:

١. ﴿إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ تقدم تفسيره في سورة المزمل والإشارة بهذه إلى

ما ذكر في السورة.

٢. ﴿وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾:

أ. الاستثناء من النفي يفيد أن مشية العبد متوقفة في وجودها على مشيته تعالى فلمشيته تعالى تأثير في فعل العبد من طريق تعلقها بمشية العبد، وليست متعلقة بفعل العبد مستقلا وبلا واسطة حتى تستلزم بطلان تأثير إرادة العبد وكون الفعل جبريا ولا أن العبد مستقل في إرادة يفعل ما يشاؤه شاء الله أو لم يشأ، فالفعل اختياري لاستناده إلى اختيار العبد، وأما اختيار العبد فليس مستندا إلى اختيار آخر، وقد تكرر توضيح هذا البحث في مواضع مما تقدم.

ب. والآية مسوقة لدفع توهم أنهم مستقلون في مشيتهم منقطعون من مشية ربهم، ولعل تسجيل هذا التنبيه عليهم هو الوجه في الالتفات إلى الخطاب في قوله: ﴿وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ كما أن الوجه في الالتفات من التكلم بالغير إلى الغيبة في قوله: ﴿يَشاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ﴾ هو الإشارة إلى علة الحكم فإن مسمى هذا الاسم الجليل يبتدئ منه كل شيء وينتهي إليه كل شيء فلا تكون مشية إلا بمشيته ولا تؤثر مشية إلا بإذنه.

٣. ﴿إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ توطئة لبيان مضمون الآية التالية.

٤. ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾ مفعول ﴿يَشاءُ﴾ محذوف يدل عليه الكلام، والتقدير يدخل في رحمته من يشاء دخوله في رحمته، ولا يشاء إلا دخول من آمن واتقى، وأما غيرهم وهم أهل الإثم والكفر فبين حالهم بقوله: ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾

٥. والآية تبين سنته تعالى الجارية في عباده من حيث السعادة والشقاء، وقد علل ذلك بما في ذيل الآية السابقة من قوله: ﴿إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ فأفاد به أن سنته تعالى ليست سنة جزافية مبنية على الجهالة بل هو يعامل كلا من الطائفتين بما هو أهل له وسينبئهم حقيقة ما كانوا يعملون.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في الخرائج والجرائح، عن القائم عليه السلام: في حديث يقول لكامل بن إبراهيم المدني: وجئت تسأل عن مقالة المفوضة، كذبوا بل قلوبنا أوعية لمشية الله عز وجل، فإذا شاء شئنا، والله يقول ﴿وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾

ب. أخرج ابن مردويه من طريق ابن شهاب عن سالم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا خطب: كل ما هو آت قريب، لا بعد لما يأتي، ولا يعجل الله لعجلة أحد، ما شاء الله لا ما شاء الناس، يريد الناس أمرا ويريد الله أمرا، ما شاء الله كان ولو كره الناس، لا مباعد لما قرب الله، ولا مقرب لما باعد الله، لا يكون شيء إلا بإذن الله.

• أقول: وفي بعض الروايات من طرق أهل البيت عليه السلام تطبيق الحكم في قوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ والرحمة في قوله: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ على الولاية وهو من الجري أو البطن وليس من التفسير في شيء.

سورة المرسلات

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٠] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تذكر السورة يوم الفصل وهو يوم القيامة، وتؤكد الإخبار بوقوعه، وتشفعه بالوعيد الشديد للمكذبين به، والإنذار والتبشير لغيرهم، ويربو فيها جانب الوعيد على غيره، فقد كرر فيها قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرات.

ب. والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

ج. أحاديث وآثار:

• في الخصال، عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: أسرع الشيب إليك يا رسول الله، قال ﷺ: شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون.

• أخرج البخاري ومسلم والنسائي وابن مردويه عن ابن مسعود قال: بينما نحن مع النبي ﷺ في غار بمنى، إذ نزلت عليه سورة والمرسلات عرفاً، فإنه يتلوها وإني لألقاها من فيه، وإن فاه لرطب بها، إذ وثبت عليه حية، فقال النبي ﷺ: اقتلوها، فابتدرناها فذهبت، فقال النبي ﷺ: وقيت شركم كما وقيتم شرها.

• أقول: ورواها أيضاً بطريقين آخرين.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٥] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تقسم بالمرسلات عرفاً والعاصفات عصفاً والناشرات نشراً، وتذكر أن ما يوعدون واقع، وتصف يوم الفصل وما فيه من عذاب للمكذبين.

٢. الآيات [٣ ـ ٥٠] حجج دالة على توحد الربوبية تقضي بوجود يوم الفصل الذي فيه جزاء المكذبين به، وإشارة إلى ما فيه من الجزاء المعد لهم الذي كانوا يكذبون به، وإلى ما فيه من النعمة والكرامة للمتقين، وتختتم بتوبيخهم وذمهم على استكبارهم عن عبادته تعالى والإيمان بكلامه.

١. القسم بالمرسلات وإثبات وقوع الوعد:

المقطع [١] من سورة المرسلات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَالْعَاصِفَاتِ

عَصْفًا وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا عُذْرًا أَوْ نُذْرًا إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ [المرسلات: ١ـ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٤٥»:

١. ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً﴾:

أ. الآية وما يتلوها إلى تمام ست آيات إقسام منه تعالى بأمور يعبر عنها بالمرسلات فالعاصفات والناشرات فالفارقات فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا، والأوليان أعني المرسلات عرفا والعاصفات عصفا لا تخلوان لو خليتا ونفسهما مع الغض عن السياق من ظهور ما في الرياح المتعاقبة الشديدة الهبوب لكن الأخيرة أعني الملقيات ذكرا عذرا أو نذرا كالصريحة في الملائكة النازلين على الرسل الحاملين لوحي الرسالة الملقين له إليهم إتماما للحجة أو إنذارا وبقية الصفات لا تأبى الحمل على ما يناسب هذا المعنى.

ب. وحمل جميع الصفات الخمس على إرادة الرياح كما هو ظاهر المرسلات والعاصفات، على ما عرفت، يحتاج إلى تكلف شديد في توجيه الصفات الثلاث الباقية وخاصة في الصفة الأخيرة.

ج. وكذا حمل المرسلات والعاصفات على إرادة الرياح وحمل الثلاث الباقية أو الأخيرتين أو الأخيرة فحسب على ملائكة الوحي إذ لا تناسب ظاهرا بين الرياح وبين ملائكة الوحي حتى يقارن بينها في الأقسام وينظم الجميع في سلك واحد، وما وجهوه من مختلف التوجيهات معان بعيدة عن الذهن لا ينتقل إليها في مفتتح الكلام من غير تنبيه سابق.

د. فالوجه هو الغض عن هذه الأقاويل وهي كثيرة جدا لا تكاد تنضبط، وحمل المذكورات على إرادة ملائكة الوحي كنظيرتها في مفتتح سورة الصافات ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِراتِ زَجْراً فَالتَّالِياتِ ذِكْراً﴾ وفي معناها قوله تعالى: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٨]

هـ. فقوله: ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً﴾ إقسام منه تعالى بها والعرف بالضم فالسكون الشعر النابت على عنق الفرس ويشبه به الأمور إذا تتابعت يقال: جاءوا كعرف الفرس، ويستعار فيقال: جاء القطا عرفا أي متتابعة وجاءوا إليه عرفا واحدا أي متتابعين، والعرف أيضا المعروف من الأمر والنهي و﴿عُرْفاً﴾ حال بالمعنى الأول مفعول له بالمعنى الثاني، والإرسال خلاف الإمساك، وتأنيث المرسلات باعتبار الجماعات أو باعتبار الروح التي تنزل بها الملائكة قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾

[النحل: ٢] وقال ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ [غافر: ١٥]، والمعنى أقسم بالجماعات المرسلات من ملائكة الوحي.

و. وقيل: المراد بالمرسلات عرفا الرياح المتتابعة المرسلة وقد تقدمت الإشارة إلى ضعفه، ومثله في الضعف القول بأن المراد بها الأنبياء عليهمالسلام فلا يلائمه ما يتلوها.

٢. ﴿فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً﴾ عطف على المرسلات والمراد بالعصف سرعة السير استعارة من عصف الرياح أي سرعة هبوبها إشارة إلى سرعة سيرها إلى ما أرسلت إليه، والمعنى أقسم بالملائكة الذين يرسلون متتابعين فيسرعون في سيرهم كالرياح العاصفة.

٣. ﴿وَالنَّاشِراتِ نَشْراً﴾:

أ. إقسام آخر، ونشر الصحيفة والكتاب والثوب ونحوها: بسطه، والمراد بالنشر نشر صحف الوحي كما يشير إليه قوله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٦] والمعنى وأقسم بالملائكة الناشرين للصحف المكتوبة عليها الوحي للنبي ليتلقاه.

ب. وقيل: المراد بها الرياح ينشرها الله تعالى بين يدي رحمته.

ج. وقيل: الرياح الناشرة للسحاب.

د. وقيل: الملائكة الناشرين لصحائف الأعمال.

هـ. وقيل: الملائكة نشروا أجنحتهم حين النزول.

و. وقيل: غير ذلك.

٤. ﴿فَالْفارِقاتِ فَرْقاً﴾ المراد به الفرق بين الحق والباطل وبين الحلال والحرام، والفرق المذكور صفة متفرعة على النشر المذكور.

٥. ﴿فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾:

أ. المراد بالذكر القرآن يقرءونه على النبي ﷺ أو مطلق الوحي النازل على الأنبياء المقرو عليهم.

ب. والصفات الثلاث أعني النشر والفرق وإلقاء الذكر مترتبة فإن الفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام يتحقق بنشر الصحف وإلقاء الذكر فبالنشر يشرع الفرق في التحقق وبالتلاوة يتم تحققه

فالنشر يترتب عليه مرتبة من وجود الفرق ويترتب عليها تمام وجوده بالإلقاء.

٦. ﴿عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾:

أ. هما من المفعول له و﴿أَوْ﴾ للتنويع قيل: هما مصدران بمعنى الإعذار والإنذار، والإعذار الإتيان بما يصير به معذورا والمعنى أنهم يلقون الذكر لتكون عذرا لعباده المؤمنين بالذكر وتخويفا لغيرهم.

ب. وقيل: ليكون عذرا يعتذر به الله إلى عباده في العقاب أنه لم يكن إلا على وجه الحكمة، ويئول إلى إتمام الحجة، فمحصل المعنى عليه أنهم يلقون الذكر ليكون إتماما للحجة على المكذبين وتخويفا لغيرهم، وهو معنى حسن.

٧. ﴿إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ﴾ جواب القسم، وما موصولة والخطاب لعامة البشر، والمراد بما توعدون يوم القيامة بما فيه من العقاب والثواب والواقع أبلغ من الكائن لما فيه من شائبة الاستقرار، والمعنى أن الذي وعدكم الله به من البعث والعقاب والثواب سيتحقق لا محالة.

٨. وضع هنا مبحثا حول [إقسامه تعالى في القرآن]، خلاصته:

أ. من لطيف صنعة البيان في الآيات الست (المقسَم بها) أنها تتضمن الإقسام لتأكيد الخبر في الجواب، وتتضمن الحجة على مضمون الجواب (وهو وقوع الجزاء الموعود)

ب. التدبير الربوبي الذي يشير إليه القسم (إرسال المرسلات العاصفات، ونشر الصحف، وفرقها، وإلقاء الذكر) لا يتم إلا مع وجود التكليف الإلهي، والتكليف لا يتم إلا مع تحتم وجود يوم للجزاء يجازى فيه العاصي والمطيع.

ج. المقسم به في القرآن هو بعينه حجة على وقوع الجواب، كقوله: ﴿فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣]، فإن ربوبية السماء والأرض هي المبدأ للرزق، وقوله: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، فإن حياة النبي الطاهرة دالة على سكرهم، وقوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحاها... قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها﴾، فإن النظام المتقن المنتهي إلى النفس الملهمة المميزة لفجورها وتقواها هو الدليل على الفلاح والخيبة.

د. وعلى هذا النسق سائر ما ورد من القسم في كلامه تعالى، وإن كان بعضها لا يخلو من خفاء يحوج إلى إمعان النظر، كقوله: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ١-٢]، وعليك بالتدبر فيها.

٩. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً﴾ قال: آيات تتبع بعضها بعضا.

ب. وفي المجمع في الآية وقيل: إنها الملائكة أرسلت بالمعروف، من أمر الله ونهيه، في رواية الهروي عن ابن مسعود، وعن أبي حمزة الثمالي عن أصحاب علي عنه عليه السلام.

٢. أهوال يوم الفصل:

المقطع [٢] من سورة المرسلات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٨-١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٤٨»:

١. ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾:

أ. بيان لليوم الموعود الذي أخبر بوقوعه في قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ وجواب إذا محذوف يدل عليه قوله: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾، إلى قوله: ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾

ب. وقد عرف سبحانه اليوم الموعود بذكر حوادث واقعة تلازم انقراض العالم الإنساني وانقطاع النظام الدنيوي كانطماس النجوم وانشقاق الأرض واندكاك الجبال وتحول النظام إلى نظام آخر يغايره، وقد تكرر ذلك في كثير من السور القرآنية وخاصة السور القصار كسورة النبإ والنازعات والتكوير والانفطار والانشقاق والفجر والزلزال والقارعة، وغيرها، وقد عدت الأمور المذكورة فيها في الأخبار من أشراط الساعة.

ج. ومن المعلوم بالضرورة من بيانات الكتاب والسنة أن نظام الحياة في جميع شئونها في الآخرة غير نظامها في الدنيا فالدار الآخرة دار أبدية فيها محض السعادة لساكنيها لهم فيها ما يشاءون أو محض الشقاء وليس لهم فيها إلا ما يكرهون والدار الدنيا دار فناء وزوال لا يحكم فيها إلا الأسباب والعوامل الخارجية الظاهرية مخلوط فيها الموت بالحياة، والفقدان بالوجدان، والشقاء بالسعادة، والتعب بالراحة، والمساءة بالسرور، والآخرة دار جزاء ولا عمل والدنيا دار عمل ولا جزاء، وبالجملة النشأة غير النشأة.

د. فتعريفه تعالى نشأة البعث والجزاء بأشراطها التي فيها انطواء بساط الدنيا بخراب بنيان أرضها وانتساف جبالها وانشقاق سمائها وانطماس نجومها إلى غير ذلك من قبيل تحديد نشأة بسقوط النظام الحاكم

في نشأة أخرى قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢]

هـ. فقوله: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي محي أثرها من النور وغيره، والطمس إزالة الأثر بالمحو قال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢]

٢. ﴿وَإِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ﴾ أي انشقت، والفرج والفرجة الشق بين الشيئين قال تعالى: ﴿إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]

٣. ﴿وَإِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ﴾ أي قلعت وأزيلت من قولهم: نسفت الريح الشيء أي اقتلعته وأزالته قال تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً﴾ [طه: ١٠٥]

٤. ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ أي عين لها الوقت الذي تحضر فيه للشهادة على الأمم أو بلغت الوقت الذي تنتظره لأداء شهادتها على الأمم من التأقيت بمعنى التوقيت، قال تعالى: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وقال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]

٥. ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾:

أ. الأجل المدة المضروبة للشيء، والتأجيل جعل الأجل للشيء، ويستعمل في لازمه وهو التأخير كقولهم: دين مؤجل أي له مدة بخلاف الحال وهذا المعنى هو الأنسب للآية، والضمير في ﴿أُجِّلَتْ﴾ للأمور المذكورة قبلا من طمس النجوم وفرج السماء ونسف الجبال وتأقيت الرسل، والمعنى لأي يوم أخرت يوم أخرت هذه الأمور.

ب. واحتمل أن يكون ﴿أُجِّلَتْ﴾ بمعنى ضرب الأجل للشيء وأن يكون الضمير المقدر فيه راجعا إلى الرسل، أو إلى ما يشعر به الكلام من الأمور المتعلقة بالرسل مما أخبروا به من أحوال الآخرة وأهوالها وتعذيب الكافرين وتنعيم المؤمنين فيها، ولا يخلو كل ذلك من خفاء.

ج. وقد سيقت الآية والتي بعدها أعني قوله: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ في صورة الاستفهام وجوابه للتعظيم والتهويل والتعجيب وأصل المعنى أخرت هذه الأمور ليوم الفصل.

د. وهذا النوع من الجمل الاستفهامية في معنى تقدير القول، والمعنى أن من عظمة هذا اليوم وهوله وكونه عجبا أنه يسأل فيقال: لأي يوم أخرت هذه الأمور العظيمة الهائلة العجيبة فيجاب: ليوم الفصل.

٦. ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ هو يوم الجزاء الذي فيه فصل القضاء قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ [الحج: ١٧]

٧. ﴿وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ تعظيم لليوم وتفخيم لأمره.

٨. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾:

أ. الويل الهلاك، والمراد بالمكذبين المكذبون بيوم الفصل الذي فيه ما يوعدون فإن الآيات مسوقة لبيان وقوعه وقد أقسم على أنه واقع.

ب. وفي الآية دعاء على المكذبين، وقد استغنى به عن ذكر جواب إذا في قوله: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ والتقدير فإذا كان كذا وكذا وقع ما توعدون من العذاب على التكذيب أو التقدير فإذا كان كذا وكذا كان يوم الفصل وهلك المكذبون به.

٩. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ قال: يذهب نورها وتسقط.

ب. وفيه، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ فطمسها ذهاب ضوئها ﴿وَإِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ﴾ قال: تفرج وتنشق ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ قال: بعثت في أوقات مختلفة.

ج. وفي المجمع قال الصادق عليه السلام: ﴿أُقِّتَتْ﴾ أي بعثت في أوقات مختلفة.

د. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ قال: أخرت.

٣. سنة الله في إهلاك المكذبين:

المقطع [٣] من سورة المرسلات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٦-١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٥٢»:

١. ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ الاستفهام للإنكار، والمراد بالأولين أمثال قوم نوح وعاد وثمود من الأمم القديمة عهدا، وبالآخرين الملحقون بهم من الأمم الغابرة، والإتباع جعل الشيء أثر الشيء.

٢. ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ﴾ برفع نتبع على الاستيناف وليس بمعطوف على ﴿نُهْلِكِ﴾ وإلا لجزم، والمعنى قد أهلكنا المكذبين من الأمم الأولين ثم إنا نهلك الأمم الآخرين على أثرهم.

٣. ﴿كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾:

أ. في موضع التعليل لما تقدمه ولذا أورد بالفصل من غير عطف كان قائلا قال: لما ذا أهلكوا؟ فقيل: كذلك نفعل بالمجرمين، والآيات، كما ترى، إنذار وإرجاع للبيان إلى الأصل المضروب في السورة أعني قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ وهي بعينها حجة على توحد الربوبية فإن إهلاك المجرمين من الإنسان تصرف في العالم الإنساني وتدبير، وإذ ليس المهلك إلا الله، وقد اعترف به المشركون، فهو الرب لا رب سواه ولا إله غيره.

ب. على أنها تدل على وجود يوم الفصل لأن إهلاك قوم لإجرامهم لا يتم إلا بعد توجه تكليف إليهم يعصونه ولا معنى للتكليف إلا مع مجازاة المطيع بالثواب والعاصي بالعقاب فهناك يوم يفصل فيه القضاء فيثاب فيه المطيع ويعاقب فيه العاصي وليس هو الثواب والعقاب الدنيويين لأنهما لا يستوعبان في هذه الدار فهناك يوم يجازى فيه كل بما عمل، وهو يوم الفصل ذلك يوم مجموع له الناس.

٤. أحاديث وآثار: في أصول الكافي، في رواية عن أبي الحسن الماضي عليه السلام: تطبيق قوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ على مكذبي الرسل في طاعة الأوصياء، وقوله: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ على من أجرم إلى آل محمد عليه السلام، على اضطراب في متن الخبر، وهو من الجري دون التفسير.

٤. خلق الإنسان من ماء مهين وقدرة الله:

المقطع [٤] من سورة المرسلات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٢٠ـ٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٥٣»:

١. ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ﴾ الاستفهام للإنكار والماء المهين الحقير قليل الغناء والمراد به النطفة، والمراد بالقرار المكين الرحم وبقوله: ﴿قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ مدة الحمل.

٢. ﴿فَقَدَرْنا﴾:

أ. من القدر بمعنى التقدير، والفاء لتفريع القدر على الخلق أي خلقناكم فقدرنا ما سيجري عليكم

من الحوادث وما يستقبلكم من الأوصاف والأحوال من طول العمر وقصره وهيئة وجمال وصحة ومرض ورزق إلى غير ذلك.

ب. واحتمل أن يكون ﴿فَقَدَرْنا﴾ من القدرة مقابل العجز والمراد فقدرنا على جميع ذلك، وما تقدم أوجه، والمعنى: قد خلقناكم من ماء حقير هو النطفة فجعلنا ذلك الماء في قرار مكين هي الرحم إلى مدة معلومة هي مدة الحمل فقدرنا جميع ما يتعلق بوجودكم من الحوادث والصفات والأحوال فنعم المقدرون نحن.

ج. ويجري في كون مضمون هذه الآيات حجة على توحد الربوبية نظير البيان السابق في الآيات المتقدمة، وكذا في كونه حجة على تحقق يوم الفصل فإن الربوبية تستوجب خضوع المربوبين لساحتها وهو الدين المتضمن للتكليف، ولا يتم التكليف إلا بجعل جزاء على الطاعة والعصيان، واليوم الذي يجازى فيه بالأعمال هو يوم الفصل.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، وقوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ﴾ قال: منتن ﴿فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ﴾ قال: في الرحم، وأما قوله: ﴿إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ يقول: منتهى الأجل.

٥. نعم الله في الأرض من ماء وجبال:

المقطع [٥] من سورة المرسلات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٢٥ـ٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٥٣»:

١. ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً أَحْياءً وَأَمْواتاً﴾، إلى قوله: ﴿فُراتاً﴾ الكفت والكفات بمعنى الضم والجمع أي ألم نجعل الأرض كفاتا يجمع العباد أحياء وأمواتا، وقيل: الكفات جمع كفت بمعنى الوعاء، والمعنى ألم نجعل الأرض أوعية تجمع الأحياء والأموات.

٢. ﴿وَجَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ﴾:

أ. الرواسي الثابتات من الجبال، والشامخات العاليات، وكان في ذكر الرواسي توطئة لقوله: ﴿وَأَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً﴾ لأن الأنهار والعيون الطبيعية تنفجر من الجبال فتجري على السهول، والفرات الماء العذب.

ب. ويجري في حجية الآيات نظير البيان السابق في الآيات المتقدمة.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في أصول الكافي، في رواية عن أبي الحسن الماضي عليه السلام: وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً أَحْياءً وَأَمْواتاً﴾ قال الكفات المساكن وقال: نظر أمير المؤمنين عليه السلام في رجوعه من صفين إلى المقابر، فقال: هذه كفات الأموات أي مساكنهم، ثم نظر إلى بيوت الكوفة فقال: هذه كفات الأحياء، ثم تلا قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً أَحْياءً وَأَمْواتاً﴾

• أقول: وروي في المعاني، بإسناده عن حماد عن أبي عبد الله عليه السلام أنه نظر إلى المقابر، وذكر مثل الحديث السابق.

ب. وفيه: وقوله: ﴿وَجَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ﴾ قال: جبال مرتفعة.

٦. وعيد المكذبين بظل جهنم وشررها:

المقطع [٦] من سورة المرسلات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٢٩ـ٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٥٤»:

١. ﴿انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ حكاية لما يقال لهم يوم الفصل والقائل هو الله سبحانه بقرينة قوله في آخر الآيات: ﴿فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ والمراد بما كانوا به يكذبون: جهنم، والانطلاق الانتقال من مكان إلى مكان من غير مكث، والمعنى يقال لهم: انتقلوا من المحشر من غير مكث إلى النار التي كنتم تكذبون به.

٢. ﴿انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ﴾:

أ. ذكروا أن المراد بهذا الظل ظل دخان نار جهنم قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٣]

ب. وذكروا أن في ذكر انشعابه إلى ثلاث شعب إشارة إلى عظم الدخان فإن الدخان العظيم يتفرق تفرق الذوائب.

٣. ﴿لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللهَبِ﴾ الظل الظليل هو المانع من الحر والأذى بستره على المستظل فكون الظل غير ظليل كونه لا يمنع ذلك، واللهب ما يعلو على النار من أحمر وأصفر وأخضر.

٤. ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ ضمير أنها للنار المعلومة من السياق، والشرر ما يتطاير من النار، والقصر معروف، والجمالة جمع جمل وهو البعير، والمعنى ظاهر.

٥. أحاديث وآثار: في أصول الكافي: وقوله: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ قال فيه ثلاث شعب من النار، وقوله: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ قال: شر النار مثل القصور والجبال.

٧. يوم القيامة لا ينطق المذنبون ولا يعذرون:

المقطع [٧] من سورة المرسلات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٥٤»:

١. ﴿هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ الإشارة إلى يوم الفصل، والمراد بالإذن الإذن في النطق أو في الاعتذار.

٢. ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾:

أ. معطوف على ﴿يُؤْذَنُ﴾ منتظم معه في سلك النفي، والمعنى هذا اليوم يوم لا ينطقون فيه أي أهل المحشر من الناس ولا يؤذن لهم في النطق أو في الاعتذار فلا يعتذرون، ولا ينافي نفي النطق هاهنا إثباته في آيات أخر لأن اليوم ذو مواقف كثيرة مختلفة يسألون في بعضها فينطقون ويختم على أفواههم في آخر فلا ينطقون.

ب. وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥] فليراجع.

٨. يوم الفصل وجمع الأولين والآخرين:

المقطع [٨] من سورة المرسلات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨-٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٥٤»:

١. ﴿هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَالْأَوَّلِينَ فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾:

أ. سمي يوم الفصل لما أن الله تعالى يفصل ويميز فيه بين أهل الحق وأهل الباطل بالقضاء بينهم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣]

ب. والخطاب في قوله: ﴿جَمَعْناكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ لمكذبي هذه الأمة بما أنهم من الآخرين ولذا قوبلوا بالأولين قال تعالى: ﴿ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ [هود: ١٠٣] وقال ﴿وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ [الكهف: ٦٧]

٢. ﴿فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾:

أ. أي إن كانت لكم حيلة تحتالون بي في دفع عذابي عن أنفسكم فاحتالوا، وهذا خطاب تعجيزي منبئ عن انسلاب القوة والقدرة عنهم يومئذ بالكلية بظهور أن لا قوة إلا لله عز اسمه قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذابِ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]

ب. والآية أعني قوله: ﴿فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ أوسع مدلولا من قوله: ﴿يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣] لاختصاصه بنفي القدرة على الفرار بخلاف الآية التي نحن فيها وفي قوله: ﴿فَكِيدُونِ﴾ التفات من التكلم مع الغير إلى التكلم وحده والنكتة فيه أن متعلق هذا الأمر التعجيزي إنما هو الكيد لمن له القوة والقدرة فحسب وهو الله وحده ولو قيل: فكيدونا فأت الإشعار بالتوحد.

٩. نعيم المتقين في ظلال وعيون وفواكه:

المقطع [٩] من سورة المرسلات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤١-٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٥٥»:

١. ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ وَفَواكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾، إلى قوله: ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ الظلال والعيون ظلال الجنة وعيونها التي يتنعمون بالاستظلال بها وشربها، والفواكه جمع فاكهة وهي الثمرة.

٢. ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مفاده الإذن والإباحة، وكان الأكل والشرب كناية عن مطلق التنعم بنعم الجنة والتصرف فيها وإن لم يكن بالأكل والشرب، وهو شائع كما يطلق أكل المال على مطلق التصرف فيه.

٣. ﴿إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تسجيل لسعادتهم.

٤. أحاديث وآثار: في أصول الكافي: وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ﴾ قال: في ظلال من نور أنور من الشمس.

١٠. تهديد المكذبين ورفضهم للسجود:

المقطع [١٠] من سورة المرسلات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦ـ٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٥٥»:

١. ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾:

أ. الخطاب من قبيل قولهم: افعل ما شئت فإنه لا ينفعك، وهذا النوع من الأمر إياس للمخاطب أن ينتفع بما يأتي به من الفعل للحصول على ما يريده، ومنه قوله: ﴿فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا﴾ [طه: ٧٢]، وقوله: ﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]

ب. فقوله: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً﴾ أي تمتعا قليلا أو زمانا قليلا إياس لهم من أن ينتفعوا بمثل الأكل والتمتع في دفع العذاب عن أنفسهم فليأكلوا وليتمتعوا قليلا فليس يدفع عنهم شيئا.

ج. وإنما ذكر الأكل والتمتع لأن منكري المعاد لا يرون من السعادة إلا سعادة الحياة الدنيا ولا يرون لها من السعادة إلا الفوز بالأكل والتمتع كالحيوان العجم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ﴾ سورة [محمد: ١٢]

٢. ﴿إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ تعليل لما يستفاد من الجملة السابقة المشتملة على الأمر أي لا ينفعكم الأكل والتمتع قليلا لأنكم مجرمون بتكذيبكم بيوم الفصل وجزاء المكذبين به النار لا محالة.

٣. ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ﴾:

أ. المراد بالركوع الصلاة كما قيل ولعل ذلك باعتبار اشتمالها على الركوع.

ب. وقيل: المراد بالركوع المأمور به الخشوع والخضوع والتواضع له تعالى باستجابة دعوته وقبول كلامه واتباع دينه، وعبادته.

ج. وقيل: المراد بالركوع ما يؤمرون بالسجود يوم القيامة كما يشير إليه قوله تعالى ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢] والوجهان لا يخلوان من بعد.

د. ووجه اتصال الآية بما قبلها أن الكلام كان مسوقا لتهديد المكذبين بيوم الفصل وبيان تبعة تكذيبهم به وتمم ذلك في هذه الآية بأنهم لا يعبدون الله إذا دعوا إلى عبادته كما ينكرون ذلك اليوم فلا معنى للعبادة مع نفي الجزاء، وليكون كالتوطئة لقوله الآتي: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾

هـ. ونسب إلى الزمخشري أن الآية متصلة بقوله في الآية السابقة: ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ كأنه قيل: ويل يومئذ للذين كذبوا والذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون.

و. وفي الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ﴾ وجهه الإعراض عن مخاطبتهم بعد تركهم وأنفسهم يفعلون ما يشاءون بقوله: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا﴾

٤. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾:

أ. أي إذا لم يؤمنوا بالقرآن وهو آية معجزة إلهية، وقد بين لهم أن الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأن أمامهم يوم الفصل بأوضح البيان وساطع البرهان فبأي كلام بعد القرآن يؤمنون.

ب. وهذا إيئاس من إيمانهم بالله ورسوله واليوم الآخر وكالتنبيه على أن رفع اليد عن دعوتهم إلى الإيمان بإلقاء قوله: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا﴾ إليهم في محله فليسوا بمؤمنين ولا فائدة في دعوتهم غير أن فيها إتماما للحجة.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله: ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ﴾ قال مقاتل: نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله ﷺ بالصلاة، فقالوا: لا ننحني، والرواية لا نحني فإن ذلك سبة علينا، فقال ﷺ: لا خير في دين ليس فيه ركوع وسجود.

- أقول: وفي انطباق القصة، وقد وقعت بعد الهجرة، على الآية خفاء.

ب. وفي تفسير القمي في الآية السابقة قال: وإذا قيل لهم (تولوا الإمام لم يتولوه)

- أقول: وهو من الجري دون التفسير.

سورة النبأ

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٩] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تتضمن السورة الإخبار بمجيء يوم الفصل وصفته، والاحتجاج على أنه حق لا ريب فيه.

ب. فقد افتتحت بذكر تساؤلهم عن نبئه، ثم ذكر في سياق الجواب ولحن التهديد أنهم سيعلمون، ثم احتج على ثبوته بالإشارة إلى النظام المشهود في الكون بما فيه من التدبير الحكيم، الدال بأوضح الدلالة على أن وراء هذه النشأة المتغيرة الدائرة نشأة ثابتة باقية، وأن عقيب هذه الدار التي فيها عمل ولا جزاء، داراً فيها جزاء ولا عمل، فهناك يوم يفصح عنه هذا النظام.

ج. ثم تصف اليوم بما يقع فيه من إحضار الناس وحضورهم، وانقلاب الطاغين إلى عذاب أليم، والمتقين إلى نعيم مقيم، ويختم الكلام بكلمة في الإنذار.

د. والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

هـ. أحاديث وآثار: عن الخصال، عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله أسرع إليك الشيب، قال: شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٦] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تسأل عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون، وتقرر أنهم سيعلمون، وتذكر أن الله جعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً، وأنه خلق البشر أزواجاً، وجعل النوم سباتاً، والليل لباساً، والنهار معاشاً، وبنى سبعاً شداداً، وجعل سراجاً وهاجاً، وأنزل من المعصرات ماءً ثجاجاً ليخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافاً.

٢. الآيات [١٧ ـ ٤٠] تصف الآيات يوم الفصل الذي أخبر به إجمالاً بقوله: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾، ثم تصف ما يجري فيه على الطاغين والمتقين، وتختتم بكلمة في الإنذار وهي كالنتيجة.

١. تساؤل المشركين عن النبأ العظيم:

المقطع [١] من سورة النبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي

هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ١-٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٥٨»:

١. ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾:

أ. ﴿عَمَّ﴾ أصله عما وما استفهامية تحذف الألف منها اطرادا إذا دخل عليها حرف الجر نحو لم ومم وعلى م وإلى م، والتساؤل سؤال القوم بعضهم بعضا عن أمر أو سؤال بعضهم بعد بعض عن أمر وإن كان المسئول غيرهم، فهم كان يسأل بعضهم بعضا عن أمر أو كان بعضهم بعد بعض يسأل النبي ﷺ عن أمر وحيث كان سياق السورة سياق جواب يغلب فيه الإنذار والوعيد تأيد به أن المتسائلين هم كفار مكة من المشركين النافين للنبوة والمعاد دون المؤمنين ودون الكفار والمؤمنين جميعا.

ب. فالتساؤل من المشركين والإخبار عنه في صورة الاستفهام للإشعار بهوانه وحقارته لظهور الجواب عنه ظهورا ما كان ينبغي معه أن يتساءلوا عنه.

٢. ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾:

أ. جواب عن الاستفهام السابق أي يتساءلون عن النبإ العظيم، ولا يخفى ما في توصيف النبإ المتسائل عنه بالعظيم من تعظيمه وتفخيم أمره.

ب. والمراد بالنبإ العظيم نبأ البعث والقيامة الذي يهتم به القرآن العظيم في سورة المكية ولا سيما في العتائق النازلة في أوائل البعثة كل الاهتمام.

ج. ويؤيد ذلك سياق آيات السورة بما فيه من الاقتصار على ذكر صفة يوم الفصل وما تقدم عليها من الحجة على أنه حق واقع.

د. وقيل: المراد به نبأ القرآن العظيم، ويدفعه كون السياق بحسب مصبه أجنبيا عنه وإن كان الكلام لا يخلو من إشارة إليه استلزاما.

هـ. وقيل: النبأ العظيم ما كانوا يختلفون فيه من إثبات الصانع وصفاته والملائكة والرسل والبعث والجنة والنار وغيرها، وكان القائل به اعتبر فيه ما في السورة من الإشارة إلى حقية جميع ذلك مما تتضمنه الدعوة الحقة الإسلامية.

• ويدفعه أن الإشارة إلى ذلك كله من لوازم صفة البعث المتضمنة لجزاء الاعتقاد الحق والعمل الصالح والكفر والاجرام، وقد دخل فيها في السورة من صفة يوم الفصل تبعا وبالقصد الثاني.

• على أن المراد بهؤلاء المتسائلين، كما تقدم، المشركون وهم يثبتون الصانع والملائكة وينفون ما وراء ذلك مما ذكر.

٣. ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ إنما اختلفوا في نحو إنكاره وهم متفقون في نفيه فمنهم من كان يرى استحالته فينكره كما هو ظاهر قولهم على ما حكاه الله: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧]، ومنهم من كان يستبعده فينكره وهو قولهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦]، ومنهم من كان يشك فيه فينكره قال تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها﴾ [النمل: ٦٦]، ومنهم من كان يوقن به لكنه لا يؤمن عنادا فينكره كما كان لا يؤمن بالتوحيد والنبوة وسائر فروع الدين بعد تمام الحجة عنادا قال تعالى: ﴿بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١]

٤. والمحصل من سياق الآيات الثلاث وما يتلوها أنهم لما سمعوا ما ينذرهم به القرآن من أمر البعث والجزاء يوم الفصل ثقل عليهم ذلك فغدوا يسأل بعضهم بعضا عن شأن هذا النبإ العجيب الذي لم يكن مما قرع أسماعهم حتى اليوم، وربما راجعوا النبي ﷺ والمؤمنين وسألوهم عن صفة اليوم وأنه متى هذا الوعد إن كنتم صادقين وربما كانوا يراجعون في بعض ما قرع سمعهم من حقائق القرآن واحتوته دعوته الجديدة أهل الكتاب وخاصة اليهود ويستمدونهم في فهمه.

٥. وقد أشار تعالى في هذه السورة إلى قصة تساؤلهم في صورة السؤال والجواب فقال: ﴿عَمَّ يَتَساءَلُونَ﴾ وهو سؤال عما يتساءلون عنه، ثم قال: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ وهو جواب السؤال عما يتساءلون عنه، ثم قال: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾، وهو جواب عن تساؤلهم.

٦. وللمفسرين في مفردات الآيات الثلاث وتقرير معانيها وجوه كثيرة تركناها لعدم ملاءمتها السياق والذي أوردناه هو الذي يعطيه السياق.

٧. ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ردع عن تساؤلهم عنه بانين ذلك على الاختلاف في النفي أي ليرتدعوا عن التساؤل لأنه سينكشف لهم الأمر بوقوع هذا النبإ فيعلمونه، وفي هذا التعبير تهديد كما في قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]

٨. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تأكيد للردع والتهديد السابقين ولحن التهديد هو القرينة على أن

المتسائلين هم المشركون النافون للبعث والجزاء دون المؤمنين ودون المشركين والمؤمنين جميعا.

٩. أحاديث وآثار: في بعض الأخبار: أن النبأ العظيم علي عليه السلام وهو من البطن.

٢. آيات الله في الأرض والسماء للإنسان:

المقطع [٢] من سورة النبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ٦ـ١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٦١»:

١. ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً﴾:

أ. الآية إلى تمام إحدى عشرة آية مسوق سوق الاحتجاج على ثبوت البعث والجزاء وتحقق هذا النبإ العظيم ولازم ثبوته صحة ما في قوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ من الإخبار بأنهم سيشاهدونه فيعلمون.

ب. تقرير الحجة: أن العالم المشهود بأرضه وسمائه وليله ونهاره والبشر المتناسلين والنظام الجاري فيها والتدبير المتقن الدقيق لأمورها من المحال أن يكون لعبا باطلا لا غاية لها ثابتة باقية فمن الضروري أن يستعقب هذا النظام المتحول المتغير الدائر إلى عالم ذي نظام ثابت باق، وأن يظهر فيه أثر الصلاح الذي تدعو إليه الفطرة الإنسانية والفساد الذي ترتدع عنه، ولم يظهر في هذا العالم المشهود أعني سعادة المتقين وشقاء المفسدين، ومن المحال أن يودع الله الفطرة دعوة غريزية أو ردعا غريزيا بالنسبة إلى ما لا أثر له في الخارج ولا حظ له من الوقوع فهناك يوم يلقاه الإنسان ويجزي فيه على عمله إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا.

ج. فالآيات في معنى قوله تعالى ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]

د. وبهذا البيان يثبت أن هناك يوما يلقاه الإنسان ويجزي فيه بما عمل إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا فليس للمشركين أن يختلفوا فيه فيشك فيه بعضهم ويستبعده طائفة، ويحيله قوم، ولا يؤمن به مع العلم به عنادا آخرون، فاليوم ضروري الوقوع والجزاء لا ريب فيه.

هـ. ويظهر من بعضهم أن الآيات مسوقة لإثبات القدرة وأن العود يماثل البدء والقادر على الإبداء

قادر على الإعادة، وهذه الحجة وإن كانت تامة وقد وقعت في كلامه تعالى لكنها حجة على الإمكان دون الوقوع والسياق فيما نحن فيه سياق الوقوع دون الإمكان فالأنسب في تقريرها ما تقدم.

و. وكيف كان فقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً﴾ الاستفهام للإنكار، والمهاد الوطاء والقرار الذي يتصرف فيه، ويطلق على البساط الذي يجلس عليه والمعنى قد جعلنا الأرض قرارا لكم تستقرون عليها وتتصرفون فيها.

٢. ﴿وَالْجِبالَ أَوْتاداً﴾:

أ. الأوتاد جمع وتد وهو المسمار إلا أنه أغلظ منه كما في المجمع: (ولعل عد الجبال أوتادا مبني على أن عمدة جبال الأرض من عمل البركانات بشق الأرض فتخرج منه مواد أرضية مذابة تنتصب على فم الشقة متراكمة كهيئة الوتد المنصوب على الأرض تسكن به فورة البركان الذي تحته فيرتفع به ما في الأرض من الاضطراب والميدان.

ب. وعن بعضهم: أن المراد بجعل الجبال أوتادا انتظام معاش أهل الأرض بما أودع فيها من المنافع ولولاها لمادت الأرض بهم أي لما تهيأت لانتفاعهم، وفيه أنه صرف اللفظ عن ظاهره من غير ضرورة موجبة.

٣. ﴿وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً﴾:

أ. أي زوجا زوجا من ذكر وأنثى لتجري بينكم سنة التناسل فيدوم بقاء النوع إلى ما شاء الله.

ب. وقيل: المراد به الإشكال أي كل منكم شكل للآخر.

ج. وقيل: المراد به الأصناف أي أصنافا مختلفة كالأبيض والأسود والأحمر والأصفر إلى غير ذلك.

د. وقيل: المراد به خلق كل منهم من منيين مني الرجل ومني المرأة وهذه وجوه ضعيفة.

هـ. قيل: الالتفات في الآية من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في الإلزام والتبكيت.

٤. ﴿وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً﴾:

أ. السبات الراحة والدعة فإن في المنام سكوتا وراحة للقوى الحيوانية البدنية مما اعتراها في اليقظة من التعب والكلال بواسطة تصرفات النفس فيها.

ب. وقيل: السبات بمعنى القطع وفي النوم قطع التصرفات النفسانية في البدن، وهو قريب من

سابقه.

ج. وقيل: المراد بالسبات الموت، وقد عد سبحانه النوم من الموت حيث قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وهو بعيد، وأما الآية فإنه تعالى عد النوم توفيا ولم يعده موتا بل القرآن يصرح بخلافه قال تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها﴾ [الزمر: ٤٢]

٥. ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً﴾:

أ. أي ساترا يستر الأشياء بما فيه من الظلمة الساترة للمبصرات كما يستر اللباس البدن وهذا سبب إلهي يدعو إلى ترك التقلب والحركة والميل إلى السكن والدعة والرجوع إلى الأهل والمنزل.

ب. وعن بعضهم أن المراد بكون الليل لباسا كونه كاللباس للنهار يسهل إخراجه منه وهو كما ترى.

٦. ﴿وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً﴾ العيش هو الحياة، على ما ذكره الراغب، غير أن العيش يختص بحياة الحيوان فلا يقال: عيشه تعالى وعيش الملائكة ويقال حياته تعالى وحياة الملائكة، والمعاش مصدر ميمي واسم زمان واسم مكان، وهو في الآية بأحد المعنيين الأخيرين، والمعنى وجعلنا النهار زمانا لحياتكم أو موضعا لحياتكم تبتغون فيه من فضل ربكم، وقيل: المراد به المعنى المصدري بحذف مضاف، والتقدير وجعلنا النهار طلب معاش أي مبتغي معاش.

٧. ﴿وَبَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً﴾ أي سبع سماوات شديدة في بنائها.

٨. ﴿وَجَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً﴾ الوهاج شديد النور والحرارة والمراد بالسراج الوهاج: الشمس.

٩. ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً﴾ المعصرات السحب الماطرة وقيل: الرياح التي تعصر السحب لتمطر والثجاج الكثير الصب للماء، والأولى على هذا المعنى أن تكون ﴿مِنَ﴾ بمعنى الباء.

١٠. ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَباتاً﴾ أي حبا ونباتا يقتات بهما الإنسان وسائر الحيوان.

١١. ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفافاً﴾:

أ. معطوف على قوله: ﴿حَبًّا﴾ وجنات ألفاف أي ملتفة أشجارها بعضها ببعض.

ب. قيل: إن الألفاف جمع لا واحد له من لفظه.

١٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً﴾ قال: يمهد فيها الإنسان، ﴿وَالْجِبالَ أَوْتاداً﴾ أي أوتاد الأرض.

ب. وفي نهج البلاغة، قال عليه السلام: ووتد بالصخور ميدان أرضه.

ج. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً﴾ قال: يلبس على النهار.

• أقول: ولعل المراد به أنه يخفي ما يظهره النهار ويستر ما يكشفه.

د. وفيه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً﴾ قال: الشمس المضيئة ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ﴾ قال: من السحاب ﴿ماءً ثَجَّاجاً﴾ قال: صبا على صب.

هـ. وعن تفسير العياشي، عن أبي عبد الله عليه السلام: ﴿عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ بالياء يمطرون، ثم قال: أما سمعت قوله: ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً﴾

• أقول: المراد أن ﴿يَعْصِرُونَ﴾ بضم الياء بصيغة المجهول والمراد به أنهم يمطرون واستشهاده عليه السلام بقوله: ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ﴾ دليل على أنه عليه السلام أخذ المعصرات بمعنى الممطرات من أعصرت السحابة إذا أمطرت.

• وروى العياشي مثل الحديث عن علي بن معمر عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام وروى القمي في تفسيره مثله عن أمير المؤمنين.

٣. يوم الفصل ونفخ الصور وأهوال القيامة:

المقطع [٣] من سورة النبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ١٧-٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٦٥»:

١. ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً﴾:

أ. قال في المجمع: (الميقات منتهى المقدار المضروب لحدوث أمر من الأمور وهو من الوقت كما أن الميعاد من الوعد والمقدار من القدر)

ب. شروع في وصف ما تضمنه النبأ العظيم الذي أخبر بوقوعه وهددهم به في قوله: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ثم أقام الحجة عليه بقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً﴾، وقد سماه يوم الفصل ونبه به على أنه

يوم يفصل فيه القضاء بين الناس فينال كل طائفة ما يستحقه بعمله فهو ميقات وحد مضروب لفصل القضاء بينهم والتعبير بلفظ ﴿كانَ﴾ للدلالة على ثبوته وتعينه في العلم الإلهي على ما ينطق به الحجة السابقة الذكر، ولذا أكد الجملة بإن.

ج. والمعنى: أن يوم فصل القضاء الذي نبأه نبأ عظيم كان في علم الله يوم خلق السماوات والأرض وحكم فيها النظام الجاري حدا مضروبا ينتهي إليه هذا العالم فإنه تعالى كان يعلم أن هذه النشأة التي أنشأها لا تتم إلا بالانتهاء إلى يوم يفصل فيه القضاء بينهم.

٢. ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً﴾:

أ. قد تقدم الكلام في معنى نفخ الصور كرارا، والأفواج جمع فوج وهي الجماعة المارة المسرعة على ما ذكره الراغب.

ب. وفي قوله: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْواجاً﴾ جري على الخطاب السابق الملتفت إليه قضاء لحق الوعيد الذي يتضمنه قوله: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وكان الآية ناظرة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]

٣. ﴿وَفُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً﴾:

أ. فاتصل به عالم الإنسان بعالم الملائكة.

ب. وقيل: التقدير فكانت ذات أبواب.

ج. وقيل: صار فيها طرق ولم يكن كذلك من قبل، ولا يخلو الوجهان من تحكم فليتدبر.

٤. ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً﴾:

أ. السراب هو الموهوم من الماء اللامع في المفاوز ويطلق على كل ما يتوهم ذا حقيقة ولا حقيقة له على طريق الاستعارة.

ب. ولعل المراد بالسراب في الآية هو المعنى الثاني، بيان ذلك: أن تسيير الجبال ودكها ينتهي بالطبع إلى تفرق أجزائها وزوال شكلها كما وقع في مواضع من كلامه تعالى عند وصف زلزلة الساعة وآثارها إذ قال: ﴿وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً﴾ [الطور: ١٠] وقال: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال: ﴿وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾ [المزمل: ١٤]، وقال: ﴿وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾

[القارعة: ٥]، وقال: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥]، وقال: ﴿وَإِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: ١٠]

ج. فتسيير الجبال ودكها ينتهي بها إلى بسها ونسفها وصيرورتها كثيبا مهيلا وكالعهن المنفوش كما ذكره الله تعالى وأما صيرورتها سرابا بمعنى ما يتوهم ماء لامعا فلا نسبة بين التسيير وبين السراب بهذا المعنى.

د. نعم ينتهي تسييرها إلى انعدامها وبطلان كينونتها وحقيقتها بمعنى كونها جبلا فالجبال الراسيات التي كانت ترى حقائق ذوات كينونة قوية لا تحركه العواصف تتبدل بالتسيير سرابا باطلا لا حقيقة له، ونظيره من كلامه تعالى قوله في أقوام أهلكهم وقطع دابرهم، ﴿فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ﴾ [سبأ: ١٩] وقوله: ﴿فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وقوله في الأصنام ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ﴾ [النجم: ٢٣]

هـ. فالآية بوجه كقوله تعالى ﴿وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ﴾ [النمل: ٨٨]، بناء على كونه ناظرا إلى صفة زلزلة الساعة،

٥. أحاديث وآثار: في تفسير القمي: وقوله: ﴿وَفُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً﴾ قال: تفتح أبواب الجنان، وقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً﴾ قال: تصير الجبال مثل السراب الذي يلمع في المفازة.

٤. عذاب الطاغين في جهنم:

المقطع [٤] من سورة النبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَآبًا لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا جَزَاءً وِفَاقًا إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٢١ـ٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٦٧»:

١. ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً﴾ قال في المفردات: (الرصد الاستعداد للترقب، إلى أن قال، والمرصد موضع الرصد قال تعالى: ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ والمرصاد نحوه لكن يقال للمكان الذي اختص بالرصد قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً﴾ تنبيها على أن عليها مجاز الناس، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها﴾)

٢. ﴿لِلطَّاغِينَ مَآباً﴾ الطاغون الملتبسون بالطغيان وهو الخروج عن الحد، والمآب اسم مكان من الأوب بمعنى الرجوع، والعناية في عدها مآبا للطاغين أنهم هيئوها مأوى لأنفسهم وهم في الدنيا ثم إذا انقطعوا عن الدنيا آبوا ورجعوا إليها.

٣. ﴿لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً﴾:

أ. الأحقاب الأزمنة الكثيرة والدهور الطويلة من غير تحديد.

ب. وهو جمع اختلفوا في واحده فقيل: واحده حقب بالضم فالسكون أو بضمتين، وقد وقع في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾ [الكهف: ٦٠]، وقيل: حقب بالفتح فالسكون وواحد الحقب حقبة بالكسر فالسكون قال الراغب: (والحق أن الحقبة مدة من الزمان مبهمة)

ج. وحد بعضهم الحقب بثمانين سنة أو ببضع وثمانين سنة وزاد آخرون أن السنة منها ثلاثمائة وستون يوما كل يوم يعدل ألف سنة، وعن بعضهم أن الحقب أربعون سنة وعن آخرين أنه سبعون ألف سنة إلى غير ذلك ولا دليل من الكتاب يدل على شيء من هذه التحديدات ولم يثبت من اللغة شيء منها.

د. وظاهر الآية أن المراد بالطاغين المعاندون من الكفار ويؤيده قوله ذيلا: ﴿إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً وَكَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً﴾

هـ. وقد فسروا ﴿أَحْقاباً﴾ في الآية بالحقب بعد الحقب فالمعنى حال كون الطاغين لابثين في جهنم حقبا بعد حقب بلا تحديد ولا نهاية فلا تنافي الآية ما نص عليه القرآن من خلود الكفار في النار.

و. وقيل: إن قوله: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيها﴾ صفة ﴿أَحْقاباً﴾ والمعنى لابثين فيها أحقابا هي على هذه الصفة وهي أنهم لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا، ثم يكونون على غير هذه الصفة إلى غير النهاية، وهو حسن لو ساعد السياق.

٤. ﴿لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَلا شَراباً﴾ ظاهر المقابلة بين البرد والشراب أن المراد بالبرد مطلق ما يتبرد به غير الشراب كالظل الذي يستراح إليه بالاستظلال فالمراد بالذوق مطلق النيل والمس.

٥. ﴿إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً﴾ الحميم الماء الحار شديد الحر، والغساق صديد أهل النار.

٦. ﴿جَزاءً وِفاقاً﴾، إلى قوله: ﴿كِتاباً﴾ المصدر بمعنى اسم الفاعل والمعنى يجزون جزاء موافقا لما عملوا أو بتقدير مضاف أي جزاء ذا وفاق أو إطلاق الوفاق على الجزاء للمبالغة كزيد عدل.

٧. ﴿إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً وَكَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً﴾ أي تكذيبا عجيبا يصرون عليه، تعليل يوضح موافقة جزائهم لعملهم، وذلك أنهم لم يرجوا الحساب يوم الفصل فأيسوا من الحياة الآخرة وكذبوا بالآيات الدالة عليها فأنكروا التوحيد والنبوة وتعدوا في أعمالهم طور العبودية فنسوا الله تعالى فنسيهم وحرم عليهم سعادة الدار الآخرة فلم يبق لهم إلا الشقاء ولا يجدون فيها إلا ما يكرهون، ولا يواجهون إلا ما يتعذبون به وهو قوله: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً﴾

٨. وفي الآية أعني قوله: ﴿جَزاءً وِفاقاً﴾ دلالة على المطابقة التامة بين الجزاء والعمل فالإنسان لا يريد بعمله إلا الجزاء الذي بإزائه والتلبس بالجزاء تلبس بالعمل بالحقيقة قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧]

٩. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً﴾:

أ. أي كل شيء ومنه الأعمال ضبطناه وبيناه في كتاب جليل القدر فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢]

ب. أو المراد وكل شيء حفظناه حال كونه مكتوبا أي في اللوح المحفوظ أو في صحائف الأعمال، وجوز أن يكون الإحصاء بمعنى الكتابة أو الكتاب بمعنى الإحصاء فإن الإحصاء والكتابة يتشاركان في معنى الضبط والمعنى كل شيء أحصيناه إحصاء أو كل شيء كتبناه كتابا.

ج. والآية على أي حال متمم للتعليل السابق، والمعنى الجزاء موافق لأعمالهم لأنهم كانوا على حال كذا وكذا وقد حفظناها عليهم فجزيناهم بها جزاء وفاقا.

١٠. ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً﴾:

أ. تفريع على ما تقدم من تفصيل عذابهم مسوق لإيئاسهم من أن يرجو نجاة من الشقوة وراحة ينالونها.

ب. والالتفات إلى خطابهم بقوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ تقدير لحضورهم ليخاطبوا بالتوبيخ والتقريع بلا واسطة.

ج. والمراد بقوله: ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً﴾ أن ما تذوقونه بعد عذاب ذقتموه عذاب آخر فهو عذاب بعد عذاب وعذاب على عذاب فلا تزالون يضاف عذاب جديد إلى عذابكم القديم فاقنطوا من أن

تنالوا شيئا مما تطلبون وتحبون.

د. والآية لا تخلو من ظهور في كون المراد بقوله: ﴿لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً﴾ الخلود دون الانقطاع.

١١. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: وقوله: ﴿لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً﴾ قال: الأحقاب السنين والحقب سنة، والسنة عددها ثلاثمائة وستون يوما، واليوم كألف سنة مما تعدون.

ب. وفي المجمع: (روى نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها أحقابا، والحقب بضع وستون سنة والسنة ثلاثمائة وستون يوما، كل يوم كألف سنة مما تعدون، فلا يتكلن أحد على أن يخرج من النار.

• أقول: وأورد الرواية في الدر المنثور، وفيها ثمانون مكان ستون ولفظ آخرها، قال ابن عمر: فلا يتكلن أحد، وأورد أيضا رواية أخرى عنه ﷺ: أن الحقب أربعون سنة.

ج. وفيه، وروى العياشي بإسناده عن حمران قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية فقال: هذه في الذين يخرجون من النار، وروي عن الأحول مثله.

٥. جزاء المتقين في الجنان:

المقطع [٥] من سورة النبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا وَكَأْسًا دِهَاقًا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٣١-٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٦٩»:

١. ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً﴾، إلى قوله: ﴿كِذَّاباً﴾ الفوز الظفر بالخير مع حصول السلامة، على ما قاله الراغب، ففيه معنى النجاة والتخلص من الشر والحصول على الخير، والمفاز مصدر ميمي أو اسم مكان من الفوز والآية تحتمل الوجهين جميعا.

٢. ﴿حَدائِقَ وَأَعْناباً﴾ الحدائق جمع حديقة وهي البستان المحوط، والأعناب جمع عنب وهو ثمر شجرة الكرم وربما يطلق على نفس الشجرة.

٣. ﴿وَكَواعِبَ﴾ جمع كاعب وهي الفتاة التي تكعب ثدياها واستدار مع ارتفاع يسير، والترائب جمع ترب وهي المماثلة لغيرها من اللذات.

٤. ﴿وَكَأْساً دِهاقاً﴾ أي ممتلئة شرابا مصدر بمعنى اسم الفاعل.

٥. ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا كِذّاباً﴾ أي لا يسمعون في الجنة لغوا من القول لا يترتب عليه أثر مطلوب ولا تكذيبا من بعضهم لبعضهم فيما قال فقولهم حق له أثره المطلوب وصدق مطابق للواقع.

٦. أحاديث وآثار: في تفسير القمي وقوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً﴾ قال: يفوزون، قوله: ﴿وَكَواعِبَ أَتْراباً﴾ قال: جوار وأتراب لأهل الجنة، وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال في قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً﴾ قال: هي الكرامات ﴿وَكَواعِبَ أَتْراباً﴾ أي الفتيات النواهد.

٦. عطاء الله الجزيل للمتقين:

المقطع [٦] من سورة النبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النبأ: ٣٦-٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٧٠»:

١. ﴿جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً﴾:

أ. أي فعل بالمتقين ما فعل حال كونه جزاء من ربك عطية محسوبة فقوله: ﴿جَزاءً﴾ حال وكذا ﴿عَطاءً﴾ و﴿حِساباً﴾ بمعنى اسم المفعول صفة لعطاء، ويحتمل أن يكون عطاء تمييزا أو مفعولا مطلقا.

ب. قيل: إضافة الجزاء إلى الرب مضافا إلى ضميره ﷺ تشريف له، ولم يضف جزاء الطاغين إليه تعالى تنزها منه تعالى فليس يغشاهم شر إلا من عند أنفسهم قال تعالى: ﴿ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥١]

ج. ووقوع لفظ الحساب في ذيل جزاء الطاغين والمتقين معا لتثبيت ما يلوح إليه يوم الفصل الواقع في أول الكلام.

٢. ﴿رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ﴾:

أ. بيان لقوله: ﴿رَبِّكَ﴾ أريد به أن ربوبيته تعالى عامة لكل شيء وأن الرب الذي يتخذه النبي ﷺ ربا ويدعو إليه رب كل شيء لا كما كان يقول المشركون: إن لكل طائفة من الموجودات ربا والله سبحانه رب الأرباب أو كما كان يقول بعضهم: أنه رب السماء.

ب. وفي توصيف الرب بالرحمن، صيغة مبالغة من الرحمة، إشارة إلى سعة رحمته وأنها سمة ربوبية

لا يحرم منها شيء إلا أن يمتنع منها شيء بنفسه لقصوره وسوء اختياره فمن شقوة هؤلاء الطاغين أنهم حرموها على أنفسهم بالخروج عن طور العبودية.

٣. ﴿لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً﴾:

أ. وقوع صدر الآية في سياق قوله: ﴿رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ﴾، وشأن الربوبية هو التدبير وشأن الرحمانية بسط الرحمة، دليل على أن المراد بخطابه تعالى تكليمه في بعض ما فعل من الفعل بنحو السؤال عن السبب الداعي إلى الفعل كان يقال: لم فعلت هذا؟ ولم لم تفعل كذا؟ كما يسأل الفاعل منا عن فعله فتكون الجملة ﴿لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً﴾ في معنى قوله تعالى: ﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وقد تقدم الكلام في معنى الآية.

ب. لكن وقوع قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا﴾ بعد قوله: ﴿لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً﴾ الظاهر في اختصاص عدم الملك بيوم الفصل مضافا إلى وقوعه في سياق تفصيل جزاء الطاغين والمتقين منه تعالى يوم الفصل يعطي أن يكون المراد به أنهم لا يملكون أن يخاطبوه فيما يقضي ويفعل بهم باعتراض عليه أو شفاعة فيهم لكن الملائكة، وهم ممن لا يملكون منه خطابا، منزهون عن وصمة الاعتراض عليه تعالى وقد قال فيهم: ﴿عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] وكذلك الروح الذي هو كلمته وقوله، وقوله حق، وهو تعالى الحق المبين والحق لا يعارض الحق ولا يناقضه.

ج. ومن هنا يظهر أن المراد بالخطاب الذي لا يملكونه هو الشفاعة وما يجري مجراها من وسائل التخلص من الشر كالعدل والبيع والخلة والدعاء والسؤال قال تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال: ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥]

د. وبالجملة قوله: ﴿لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً﴾ ضمير الفاعل في ﴿لا يَمْلِكُونَ﴾ لجميع المجموعين ليوم الفصل من الملائكة والروح والإنس والجن كما هو المناسب للسياق الحاكي عن ظهور العظمة والكبرياء دون خصوص الملائكة والروح لعدم سبق الذكر ودون خصوص الطاغين كما قيل لكثرة الفصل، والمراد بالخطاب الشفاعة وما يجري مجراها كما تقدم.

٧. قيام الروح والملائكة لله:

المقطع [٧] من سورة النبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٧١»:

١. ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾:

أ. ظرف لقوله: ﴿لا يَمْلِكُونَ﴾ وقيل: لقوله: ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ﴾ وهو بعيد مع صلاحية ظرفيته لما سبقه.

ب. والمراد بالروح المخلوق الأمري الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]

ج. وقيل: المراد به أشراف الملائكة.

د. وقيل حفظة الملائكة.

هـ. وقيل: ملك موكل على الأرواح، ولا دليل على شيء من هذه الأقوال.

و. وقيل: المراد به جبريل.

ز. وقيل: أرواح الناس وقيامها مع الملائكة صفا إنما هو بين النفختين قبل أن تلج الأجساد.

ح. وقيل: القرآن والمراد من قيامه ظهور آثاره يومئذ من سعادة المؤمنين به وشقاوة الكافرين.

• ويدفعها أن هذه الثلاثة وإن أطلق على كل منها الروح في كلامه تعالى لكنه مع التقييد كقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا﴾ [مريم: ١٧]، وقوله: ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا﴾ [الشورى: ٥٢] والروح في الآية التي نحن فيها مطلق، على أن في القولين الأخيرين تحكما ظاهرا.

ط. ﴿صَفًّا﴾ حال من الروح والملائكة وهو مصدر أريد به اسم الفاعل أي حال كونهم صافين، وربما استفيد من مقابلة الروح للملائكة أن الروح وحده صف والملائكة جميعا صف.

٢. وضع هنا مبحثا حول [الروح في القرآن]، خلاصته:

أ. تكررت كلمة ﴿الرُّوحُ﴾ في القرآن ولم تقتصر على الإنسان والحيوان، بل أطلقت على غيرهما

(كروح القدس، والروح الأمين، والروح في سورة القدر)، والروح لها مصداق في الإنسان ومصداق في غيره.

ب. المعرف للروح في القرآن هو قوله: ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، والأمر هو كلمة الإيجاد التي هي الوجود من حيث انتسابه إليه تعالى وقيامه به، لا من حيث انتسابه إلى العلل الظاهرية، وبهذه العناية عد المسيح كلمة منه وروحاً منه.

ج. الروح في القرآن ترد مطلقة (كروح في سورة القدر والمعارج) وهي موجود مستقل وخلق سماوي غير الملائكة، وترد مضافة ومقيدة (كنفخ الروح في الإنسان، وتأييد المؤمنين بروح منه، وتأييد الأنبياء بروح القدس)

د. نسبة الروح المضافة إلى الروح المطلقة نسبة الإفاضة إلى المفيض والظل إلى ذي الظل بإذن الله، والملائكة أرواح محضة على اختلاف مراتبهم، وتمثلاتهم أجساماً هي تمثلات لا تشكلات.

هـ. للروح مراتب مختلفة بحسب أثر الحياة: الروح المنفوخة في الإنسان، والروح المؤيد بها المؤمن (وهي أشرف وأعلى مرتبة)، والروح المؤيد بها الأنبياء (وهي أعلى)، والروح في النبات (لما فيه من أثر الحياة)

٣. ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ﴾:

أ. بيان لقوله: ﴿لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً﴾ وضمير الفاعل لأهل الجمع من الروح والملائكة والإنس والجن على ما يفيده السياق.

ب. وقيل: الضمير للروح والملائكة، وقيل: للناس ووقوع ﴿لا يَمْلِكُونَ﴾ بما مر من معناه و﴿لا يَتَكَلَّمُونَ﴾ في سياق واحد لا يلائم شيئا من القولين.

٤. ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ﴾ بدل من ضمير الفاعل في ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أريد به بيان من له أن يتكلم منهم يومئذ بإذن الله فالجملة في معنى قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥] على ظاهر إطلاقه.

٥. ﴿وَقالَ صَواباً﴾:

أ. أي قال قولا صوابا لا يشوبه خطأ وهو الحق الذي لا يداخله باطل، والجملة في الحقيقة قيد

للإذن كأنه قيل: إلا من أذن له الرحمن ولا يأذن إلا لمن قال صوابا فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]

ب. وقيل: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ﴾ استثناء ممن يتكلم فيه والمراد بالصواب التوحيد وقول لا إله إلا الله والمعنى لا يتكلمون في حق أحد إلا في حق شخص أذن له الرحمن وقال ذلك الشخص في الدنيا صوابا أي أقر بالوحدانية وشهد أن لا إله إلا الله فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى﴾ [الأنبياء: ٢٨]

• ويدفعه أن العناية الكلامية في المقام متعلقة بنفي أصل الخطاب والتكلم يومئذ من كل متكلم لا بنفي التكلم في كل أحد مع تسليم جواز أصل التكلم فالمستثنون هم المتكلمون المأذون لهم في أصل التكلم من دون تعرض لمن يتكلم فيه.

٦. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: الروح جند من جنود الله، ليسوا بملائكة لهم رءوس وأيد وأرجل، ثم قرأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا﴾ قال: هؤلاء جند وهؤلاء جند.

• أقول: وقد تقدمت الرواية في ذيل الآيات المشتملة على الروح عن أئمة أهل البيت عليه السلام أن الروح خلق أعظم من جبرائيل وميكائيل، وتقدمت الرواية أيضاعن علي عليه السلام: أن الروح غير الملائكة، واستدل عليه السلام عليه بقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ الآية.

• نعم في رواية القمي عن حمران أنه ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل وكان مع رسول الله ﷺ وهو مع الأئمة عليهمالسلام، ولعل المراد بالملك مطلق الموجود السماوي أو هو من وهم بعض الرواة في النقل بالمعنى ولا دليل على انحصار الموجودات الأمرية السماوية في الملائكة بل الدليل على خلافه كما يستفاد من قوله تعالى لإبليس حين أبى عن السجود لآدم وقد سجد له الملائكة كلهم أجمعون: ﴿يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ﴾ [ص: ٧٥] وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في تفسير الآية.

ب. وفي أصول الكافي، بإسناده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الماضي عليه السلام قال قلت: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ﴾ الآية، قال نحن والله المأذون لهم يوم القيامة، والقائلون صوابا، قلت: ما تقولون إذا تكلمتم؟ قال: نمجد ربنا ونصلي على نبينا، ونشفع لشيعتنا ولا يردنا ربنا الحديث.

- أقول: ورواه في المجمع: (عن العياشي مرفوعا عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام.
- والرواية من قبيل ذكر بعض المصاديق فهناك شفعاء أخر من الملائكة والأنبياء والمؤمنين مأذون لهم في التكلم، وهناك شهداء من الأمم مأذون لهم في التكلم على ما ينص عليه القرآن والحديث.

٨. اليوم الحق ودعوة الإنسان للمآب:

المقطع [٨] من سورة النبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾ [النبأ: ٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٧٥»:

١. ﴿ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾:

أ. إشارة إلى يوم الفصل المذكور في السورة الموصوف بما مر من الأوصاف وهو في الحقيقة خاتمة الكلام المنعطفة إلى فاتحة السورة وما بعده أعني قوله: ﴿فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً﴾ فضل تفريع على البيان السابق.

ب. والإشارة إليه بالإشارة البعيدة للدلالة على فخامة أمره والمراد بكونه حقا ثبوته حتما مقضيا لا يتخلف عن الوقوع.

٢. ﴿فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً﴾ أي مرجعا إلى ربه ينال به ثواب المتقين وينجو به من عذاب الطاغين، والجملة كما أشرنا إليه تفريع على ما تقدم من الإخبار بيوم الفصل والاحتجاج عليه ووصفه، والمعنى إذا كان كذلك فمن شاء الرجوع إلى ربه فليرجع.

٩. التحذير من عذاب قريب وندم الكافر:

المقطع [٩] من سورة النبأ، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٧٥»:

١. ﴿إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً﴾:

أ. المراد به عذاب الآخرة، وكونه قريبا لكونه حقا لا ريب في إتيانه وكل ما هو آت قريب.

ب. على أن الأعمال التي سيجزي بها الإنسان هي معه أقرب ما يكون منه.

٢. ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ﴾ أي ينتظر المرء جزاء أعماله التي قدمتها يداه بالاكتساب، وقيل: المعنى ينظر المرء إلى ما قدمت يداه من الأعمال لحضورها عنده قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠]

٣. ﴿وَيَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً﴾ أي يتمنى من شدة اليوم أن لو كان ترابا فاقدا للشعور والإرادة فلم يعمل ولم يجز.

سورة النازعات

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٩] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. في السورة أخبار مؤكد بوقوع البعث والقيامة، واحتجاج عليه من طريق التدبير الربوبي المنتج، أن الناس سينقسمون يومئذ طائفتين: أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم.

ب. وتختتم السورة بالإشارة إلى سؤالهم النبي ﷺ عن وقت قيام الساعة والجواب عنه.

ج. والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٣٩] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تقسم بالنازعات والناشطات والسابحات والسابقات فالمدبرات، وتذكر يوم القيامة، وتذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وكيف كذبه وعصاه، وأهلكه الله، وتقرر أن في ذلك عبرة لمن يخشى، وتذكر أن الجنة للطاغين المكذبين، والجنة للمتقين.

٢. الآيات [٤٢ ـ ٤٦] تعرض لسؤالهم عن وقت قيام الساعة ورد له بأن علمه ليس لأحد إلا الله، فقد خصه بنفسه.

١. القسم بالملائكة المدبرات لأمر الله:

المقطع [١] من سورة النازعات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١ـ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٧٩»:

١. ﴿وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً﴾ اختلف المفسرون في تفسير هذه الآيات الخمس اختلافا عجيبا مع اتفاقهم على أنها إقسام، وقول أكثرهم بأن جواب القسم محذوف، والتقدير أقسم بكذا وكذا لتبعثن.

٢. ﴿وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً﴾:

أ. قيل: المراد بها ملائكة الموت تنزع الأرواح من الأجساد، و﴿غَرْقاً﴾ مصدر مؤكد بحذف

الزوائد أي إغراقا وتشديدا في النزع.

ب. وقيل: المراد بها الملائكة الذين ينزعون أرواح الكفار من أجسادهم بشدة.

ج. وقيل: هو الموت ينزع الأرواح من الأبدان نزعا بالغا.

د. وقيل: المراد بها النجوم تنزع من أفق لتغيب في أفق أي تطلع من مطالعها لتغرب في مغاربها.

هـ. وقيل: المراد بها القسي تنزع بالسهم أي تمد بجذب وترها إغراقا في المد فالإقسام بقسي المجاهدين في سبيل الله أو بالمجاهدين أنفسهم.

و. وقيل: المراد بها الوحش تنزع إلى الكلإ.

٣. ﴿وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً﴾ النشط الجذب والخروج والإخراج برفق وسهولة وحل العقدة:

أ. قيل: المراد بها الملائكة الذين يخرجون الأرواح من الأجساد.

ب. وقيل المراد بها خصوص الملائكة يخرجون أرواح المؤمنين من أجسادهم برفق وسهولة، كما أن المراد بالنازعات غرقا الملائكة الذين ينزعون أرواح الكفار من أجسادهم.

ج. وقيل: هم الملائكة الذين ينشطون أرواح الكفار من أجسادهم.

د. وقيل: المراد بها أرواح المؤمنين أنفسهم.

هـ. وقيل: هي النجوم تنشط وتذهب من أفق إلى أفق.

و. وقيل: هي السهام تنشط من قسيها في الغزوات.

ز. وقيل: هو الموت ينشط ويخرج الأرواح من الأجساد.

ح. وقيل: هي الوحش تنشط من قطر إلى قطر.

٤. ﴿وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً﴾:

أ. قيل: المراد بها الملائكة تقبض الأرواح فتسرع بروح المؤمن إلى الجنة وبروح الكافر إلى النار، والسبح الإسراع في الحركة كما يقال للفرس سابح إذا أسرع في جريه.

ب. وقيل: المراد بها الملائكة يقبضون أرواح المؤمنين يسلونها من الأبدان سلا رفيقا ثم يدعونها حتى يستريح كالسابح بالشيء في الماء يرمي.

ج. وقيل: هي الملائكة ينزلون من السماء مسرعين.

د. وقيل: هي النجوم تسبح في فلكها كما قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

هـ. وقيل: هي خيل الغزاة تسبح في عدوها وتسرع.

و. وقيل: هي المنايا تسبح في نفوس الحيوان.

ز. وقيل: هي السفن تسبح في المياه.

ح. وقيل: السحاب.

ط. وقيل: دواب البحر.

٥. ﴿فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً﴾:

أ. قيل المراد بها مطلق الملائكة لأنها سبقت ابن آدم بالخير والإيمان والعمل الصالح، وقيل ملائكة الموت تسبق بروح المؤمن إلى الجنة وبروح الكافر إلى النار.

ب. وقيل: الملائكة القابضون لروح المؤمن تسبق بها إلى الجنة.

ج. وقيل: ملائكة الوحي تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء.

د. وقيل: أرواح المؤمنين تسبق إلى الملائكة التي يقبضونها شوقا إلى لقاء الله سبحانه.

هـ. وقيل: هي النجوم تسبق بعضها بعضا في السير.

و. وقيل: هي خيل الغزاة تسبق بعضها بعضا في الحرب.

ز. وقيل: هي المنايا تسبق الآمال.

٦. ﴿فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً﴾:

أ. قيل: المراد بها مطلق الملائكة المدبرين للأمور، كذا فسر الأكثرون حتى ادعى بعضهم اتفاق المفسرين عليه.

ب. وقيل: المراد بها الملائكة الأربعة المدبرون لأمور الدنيا: جبرائيل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل، فجبرائيل يدبر أمر الرياح والجنود والوحي، وميكائيل يدبر أمر القطر والنبات، وعزرائيل موكل بقبض الأرواح، وإسرافيل يتنزل بالأمر عليهم وهو صاحب الصور.

ج. وقيل: إنها الأفلاك يقع فيها أمر الله فيجري بها القضاء في الدنيا.

د. وهناك قول بأن الإقسام في الآيات بمضاف محذوف والتقدير ورب النازعات نزعا.

٧. وأنت خبير بأن سياق الآيات الخمس سياق واحد متصل متشابه الأجزاء:

أ. لا يلائم كثيرا من هذه الأقوال القاضية باختلاف المعاني المقسم بها ككون المراد بالنازعات الملائكة القابضين لأرواح الكفار، وبالناشطات الوحش، وبالسابحات السفن، وبالسابقات المنايا تسبق الآمال وبالمدبرات الأفلاك.

ب. مضافا إلى أن كثيرا منها لا دليل عليها من جهة السياق إلا مجرد صلاحية اللفظ بحسب اللغة للاستعمال فيه أعم من الحقيقة والمجاز.

ج. على أن كثيرا منها لا تناسب سياق آيات السورة التي تذكر يوم البعث وتحتج على وقوعه على ما تقدم في سورة المرسلات من حديث المناسبة بين ما في كلامه تعالى من الإقسام وجوابه.

٨. والذي يمكن أن يقال، والله أعلم:

أ. أن ما في هذه الآيات من الأوصاف المقسم بها يقبل الانطباق على صفات الملائكة في امتثالها للأوامر الصادرة عليهم من ساحة العزة المتعلقة بتدبير أمور هذا العالم المشهود ثم قيامهم بالتدبير بإذن الله.

ب. والآيات شديدة الشبه سياقا بآيات مفتتح سورة الصافات: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً﴾ وآيات مفتتح سورة المرسلات: ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً وَالنَّاشِراتِ نَشْراً فَالْفارِقاتِ فَرْقاً فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً﴾ وهي تصف الملائكة في امتثالهم لأمر الله غير أنها تصف ملائكة الوحي، والآيات في مفتتح هذه السورة تصف مطلق الملائكة في تدبيرهم أمر العالم بإذن الله.

ج. ثم إن أظهر الصفات المذكورة في هذه الآيات الخمس في الانطباق على الملائكة قوله: ﴿فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً﴾ وقد أطلق التدبير ولم يقيد بشيء دون شيء فالمراد به التدبير العالمي بإطلاقه، وقوله: ﴿أَمْراً﴾ تمييز أو مفعول به للمدبرات ومطلق التدبير شأن مطلق الملائكة فالمراد بالمدبرات مطلق الملائكة.

د. وإذ كان قوله: ﴿فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً﴾ مفتتحا بفاء التفريع الدالة على تفرع صفة التدبير على صفة السبق، وكذا قوله: ﴿فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً﴾ مقرونا بفاء التفريع الدالة على تفرع السبق على السبح دل ذلك على مجانسة المعاني المرادة بالآيات الثلاث: ﴿وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً﴾ فمدلولها أنهم يدبرون الأمر بعد ما سبقوا إليه ويسبقون إليه بعد ما سبحوا أي أسرعوا إليه عند النزول فالمراد

بالسابحات والسابقات هم المدبرات من الملائكة باعتبار نزولهم إلى ما أمروا بتدبيره.

هـ. فالآيات الثلاث في معنى قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ [الرعد: ١١] على ما تقدم من توضيح معناه فالملائكة ينزلون على الأشياء وقد تجمعت عليها الأسباب وتنازعت فيها وجودا وعدما وبقاء وزوالا وفي مختلف أحوالها فما قضاه الله فيها من الأمر وأبرم قضاءه أسرع إليه الملك المأمور به، بما عين له من المقام، وسبق غيره وتمم السبب الذي يقتضيه فكان ما أراده الله فافهم ذلك.

و. وإذا كان المراد بالآيات الثلاث الإشارة إلى إسراع الملائكة في النزول على ما أمروا به من أمر وسبقهم إليه وتدبيره تعين حمل قوله: ﴿وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً﴾ على انتزاعهم وخروجهم من موقف الخطاب إلى ما أمروا به فنزعهم غرقا شروعهم في النزول نحو المطلوب بشدة وجد، ونشطهم خروجهم من موقفهم نحوه كما أن سبحهم إسراعهم إليه بعد الخروج ويتعقب ذلك سبقهم إليه وتدبير الأمر بإذن الله.

ز. فالآيات الخمس أقسام بما يتلبس به الملائكة من الصفات عند ما يؤمرون بتدبير أمر من أمور هذا العالم المشهود من حين يأخذون في النزول إليه إلى تمام التدبير.

ح. وفيها إشارة إلى نظام التدبير الملكوتي عند حدوث الحوادث كما أن الآيات التالية أعني قوله: ﴿هَلْ أَتاكَ﴾ إشارة إلى التدبير الربوبي الظاهر في هذا العالم.

ط. وفي التدبير الملكوتي حجة على البعث والجزاء كما أن في التدبير الدنيوي المشهود حجة عليه على ما سيوافيك إن شاء الله بيانه.

ي. هذا ما يعطيه التدبر في سياق الآيات الكريمة ويؤيده بعض التأييد ما سيأتي من الأخبار في البحث الروائي الآتي إن شاء الله.

٩. وضع هنا مبحثا حول [الملائكة وسائط في التدبير]، خلاصته:

أ. الملائكة وسائط بين الله والأشياء بدءاً وعوداً، فهم أسباب للحوادث فوق الأسباب المادية في العالم المشهود قبل الموت وبعده، وفي مرحلة التشريع (كالوحي وتسديد النبي وتأييد المؤمنين)

ب. وساطتهم في تدبير الأمور في هذه النشأة تدل عليها آيات كقوله: ﴿وَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً﴾، وقوله:

﴿جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً﴾، وقوله في صفتهم: ﴿بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾

ج. لا شغل للملائكة إلا التوسط بين الله وخلقه بإنفاذ أمره، وليس ذلك على سبيل الاتفاق، بل سنة إلهية لا تبديل لها، ومن الوساطة كون بعضهم فوق بعض، والأمر من العالي للسافل.

د. وساطتهم لا تنافي استناد الحوادث إلى أسبابها الطبيعية، لأن السببية طولية لا عرضية، فالسبب القريب سبب للحادث، والسبب البعيد سبب للسبب، ولا استقلال لأي سبب قبال الله.

هـ. عبادتهم وتسبيحهم وسجودهم لا تنافي عملهم في التدبير، بل يمكن أن تكون عبادتهم عين عملهم في التدبير وامتثالهم الأمر الإلهي بالتوسط.

١٠. أحاديث وآثار:

أ. في الفقيه، وروى علي بن مهزيار قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: قوله عز وجل ﴿وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى﴾ وقوله عز وجل: ﴿وَالنَّجْمِ إِذا هَوى﴾ وما أشبه هذا؟ فقال إن لله عز وجل أن يقسم من خلقه بما شاء، وليس لخلقه أن يقسموا إلا به.

• أقول: وتقدم في هذا المعنى رواية الكافي، عن محمد بن مسلم عن الباقر عليه السلام في تفسير أول سورة النجم.

ب. أخرج سعيد بن المنصور وابن المنذر عن علي في قوله: ﴿وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً﴾ قال: هي الملائكة تنزع أرواح الكفار ﴿وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً﴾ هي الملائكة تنشط أرواح الكفار، ما بين الأظفار والجلد حتى تخرجها ﴿وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً﴾ هي الملائكة، تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض ﴿فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً﴾ هي الملائكة، يسبق بعضها بعضا بأرواح المؤمنين إلى الله ﴿فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً﴾ قال هي الملائكة، تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة.

• أقول: ينبغي أن تحمل الرواية، لو صحت، على ذكر بعض المصاديق، وقوله: (تنشط أرواح الكفار ما بين الأظفار والجلد حتى تخرجها) ضرب من التمثيل لشدة العذاب.

ج. أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب أن ابن الكواء سأله عن ﴿فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً﴾ قال: الملائكة يدبرون ذكر الرحمن وأمره.

٢. البعث بعد الموت وما فيه من أهوال:

المقطع [٢] من سورة النازعات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ٦-١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٨٤»:

١. ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾:

أ. فسرت الراجفة بالصيحة العظيمة التي فيها تردد واضطراب والرادفة بالمتأخرة التابعة، وعليه تنطبق الآيتان على نفختي الصور التي يدل عليهما قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]

ب. وقيل: الراجفة بمعنى المحركة تحريكا شديدا، فإن الرجف يستعمل لازما بمعنى التحرك الشديد، ومتعديا بمعنى التحريك الشديد، والمراد بها أيضا النفخة الأولى المحركة للأرض والجبال، وبالرادفة النفخة الثانية المتأخرة عن الأولى.

ج. وقيل: المراد بالراجفة الأرض وبالرادفة السماوات والكواكب التي ترجف وتضطرب وتنشق، وتتلاشى والوجهان لا يخلوان من بعد ولا سيما الأخير.

د. والأنسب بالسياق على أي حال كون قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ ظرفا لجواب القسم المحذوف للدلالة على فخامته وبلوغه الغاية في الشدة وهو لتبعثن.

هـ. وقيل: إن ﴿يَوْمَ﴾ منصوب على معنى قلوب يومئذ واجفة يوم ترجف الراجفة، ولا يخلو من بعد.

٢. ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ تنكير ﴿قُلُوبٌ﴾ للتنويع وهو مبتدأ خبره ﴿وَاجِفَةٌ﴾ والوجيف الاضطراب، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف متعلق بواجفة والجملة استئناف مبين لصفة اليوم.

٣. ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾:

أ. ضمير ﴿أَبْصَارُهَا﴾ للقلوب ونسبة الأبصار وإضافتها إلى القلوب لمكان أن المراد بالقلوب في أمثال هذه المواضع التي تضاف إليها الصفات الإدراكية كالعلم والخوف والرجاء وما يشبهها هي النفوس، وقد تقدمت الإشارة إليها.

ب. ونسبة الخشوع إلى الأبصار وهو من أحوال القلب إنما هي لظهور أثره الدال عليه في الأبصار أقوى من سائر الأعضاء.

٤. ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ﴾:

أ. إخبار وحكاية لقولهم في الدنيا استبعادا منهم لوقوع البعث والجزاء وإشارة إلى أن هؤلاء الذين لقلوبهم وجيف ولأبصارهم خشوع يوم القيامة هم الذين ينكرون البعث وهم في الدنيا ويقولون كذا وكذا.

ب. والحافرة على ما قيل، أول الشيء ومبتداه، والاستفهام للإنكار استبعادا، والمعنى يقول: هؤلاء أإنا لمردودون بعد الموت إلى حالتنا الأولى وهي الحياة.

ج. وقيل: الحافرة بمعنى المحفورة وهي أرض القبر، والمعنى أنرد من قبورنا بعد موتنا أحياء، وهو كما ترى.

د. وقيل: الآية تخبر عن اعترافهم بالبعث يوم القيامة، والكلام كلامهم بعد الإحياء والاستفهام للاستغراب كأنهم لما بعثوا وشاهدوا ما شاهدوا يستغربون ما شاهدوا فيستفهمون عن الرد إلى الحياة بعد الموت.

- وهو معنى حسن لو لم يخالف ظاهر السياق.

٥. ﴿أَإِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً﴾ تكرار للاستفهام لتأكيد الاستبعاد فلو كانت الحياة بعد الموت مستبعدة فهي مع فرض نخر العظام وتفتت الأجزاء أشد استبعادا، والنخر بفتحتين البلى والتفتت يقال: نخر العظم ينخر نخرا فهو ناخر ونخر.

٦. ﴿قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ﴾:

أ. الإشارة بتلك إلى معنى الرجعة المفهوم من قوله: ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ﴾ والكرة الرجعة والعطفة، وعد الكرة خاسرة إما مجاز والخاسر بالحقيقة صاحبها، أو الخاسرة بمعنى ذات خسران، والمعنى قالوا: تلك الرجعة، وهي الرجعة إلى الحياة بعد الموت، رجعة متلبسة بالخسران.

ب. وهذا قول منهم أوردوه استهزاء، على أن يكون قولهم: ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ مما قالوه في الدنيا، ولذا غير السياق وقال ﴿قالُوا تِلْكَ إِذاً﴾ بعد قوله: ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ وأما على تقدير أن يكون مما

سيقولونه عند البعث فهو قول منهم على سبيل التشؤم والتحسر.

٧. ﴿فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾:

أ. ضمير ﴿هِيَ﴾ للكرة وقيل: للرادفة والمراد بها النفخة الثانية، والزجر طرد بصوت وصياح عبر عن النفخة الثانية بالزجرة لما فيها من نقلهم من نشأة الموت إلى نشاة الحياة ومن بطن الأرض إلى ظهرها، و﴿فَإِذا﴾ فجائية، والساهرة الأرض المستوية أو الأرض الخالية من النبات.

ب. والآيتان في محل الجواب عما يدل عليه قولهم: ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ من استبعاد البعث واستصعابه والمعنى لا يصعب علينا أحياؤهم بعد الموت وكرتهم فإنما كرتهم، أو الرادفة التي هي النفخة الثانية، زجرة واحدة فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتا في بطنها.

ج. فالآيتان في معنى قوله تعالى: ﴿وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]

٨. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ قال: تنشق الأرض بأهلها والرادفة الصيحة.

ب. وفيه في قوله: ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ﴾ قال: قالت قريش: أنرجع بعد الموت؟

ج. وفيه في قوله: ﴿تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ﴾ قال: قالوا هذه على حد الاستهزاء.

د. وفيه، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قوله: ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ﴾ يقول: في الخلق الجديد، وأما قوله: ﴿فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ والساهرة الأرض، كانوا في القبور فلما سمعوا الزجرة خرجوا من قبورهم، فاستووا على الأرض.

٣. قصة موسى وفرعون عبرة للمتقين:

المقطع [٣] من سورة النازعات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ [النازعات: ١٥-٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٨٦»:

١. ﴿هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى﴾:

أ. الآية إلى تمام اثنتي عشرة آية إشارة إلى إجمال قصة موسى ورسالته إلى فرعون ورده دعوته إلى أن أخذه الله نكال الآخرة والأولى.

ب. وفيها عظة وإنذار للمشركين المنكرين للبعث وقد توسلوا به إلى رد الدعوة الدينية إذ لا معنى لتشريع الدين لولا المعاد، وفيها مع ذلك تسلية للنبي ﷺ من تكذيب قومه، وتهديد لهم كما يؤيده توجيه الخطاب في قوله: ﴿هَلْ أَتاكَ﴾

ج. وفي القصة مع ذلك كله حجة على وقوع البعث والجزاء فإن هلاك فرعون وجنوده تلك الهلكة الهائلة دليل على حقية رسالة موسى من جانب الله إلى الناس ولا تتم رسالته من جانبه تعالى إلا بربوبية منه تعالى للناس على خلاف ما يزعمه المشركون أن لا ربوبية له تعالى بالنسبة إلى الناس وأن هناك أربابا دونه وأنه سبحانه رب الأرباب لا غير.

د. ففي قوله: ﴿هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى﴾ استفهام بداعي ترغيب السامع في استماع الحديث ليتسلى به هو ويكون للمنكرين إنذارا بما فيه من ذكر العذاب وإتماما للحجة كما تقدم.

هـ. ولا ينافي هذا النوع من الاستفهام تقدم علم السامع بالحديث لأن الغرض توجيه نظر السامع إلى الحديث دون السؤال والاستعلام حقيقة فمن الممكن أن تكون الآيات أول ما يقصه الله من قصة موسى أو تكون مسبوقة بذكر قصته كما في سورة المزمل إجمالا، وهي أقدم نزولا من سورة النازعات، وفي سورة الأعراف وطه وغيرهما تفصيلا.

٢. ﴿إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً﴾ ظرف للحديث وهو أول ما أوحى الله إليه فقلده الرسالة، وطوى اسم للوادي المقدس.

٣. ﴿اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى﴾:

أ. تفسير للنداء.

ب. وقيل: الكلام على تقدير القول أي قائلا اذهب.، أو بتقدير أن المفسرة أي أن اذهب.، وفي الوجهين أن التقدير مستغنى عنه، وقوله: ﴿إِنَّهُ طَغى﴾ تعليل للأمر.

٤. ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى﴾ متعلق ﴿إِلى﴾ محذوف والتقدير هل لك ميل إلى أن تتزكى أو ما في معناه، والمراد بالتزكي التطهر من قذارة الطغيان.

٥. ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى﴾:

أ. عطف على قوله: ﴿تَزَكَّى﴾ والمراد بهدايته إياه إلى ربه، كما قيل، تعريفه له وإرشاده إلى معرفته تعالى وتترتب عليه الخشية منه الرادعة عن الطغيان وتعدي طور العبودية قال تعالى: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾ [فاطر: ٢٨]

ب. والمراد بالتزكي إن كان هو التطهر عن الطغيان بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى كانت الخشية مترتبة عليه والمراد بها الخشية الملازمة للإيمان الداعية إلى الطاعة والرادعة عن المعصية، وإن كان هو التطهر بالطاعة وتجنب المعصية كان قوله: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى﴾ مفسرا لما قبله والعطف عطف تفسير.

٦. ﴿فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى﴾ الفاء فصيحة وفي الكلام حذف وتقدير والأصل فأتاه ودعاه فأراه.، والمراد بالآية الكبرى على ما يظهر من تفصيل القصة آية العصا، وقيل: المراد بها مجموع معجزاته التي أراها فرعون وملأه وهو بعيد.

٧. ﴿فَكَذَّبَ وَعَصى﴾ أي كذب موسى فجحد رسالته وسماه ساحرا وعصاه فيما أمره به أو عصى الله.

٨. ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى﴾ الإدبار التولي والسعي هو الجد والاجتهاد أي ثم تولى فرعون يجد ويجتهد في إبطال أمر موسى ومعارضته.

٩. ﴿فَحَشَرَ فَنادى﴾:

أ. الحشر جمع الناس بإزعاج والمراد به جمعه الناس من أهل مملكته كما يدل عليه تفريع قوله: ﴿فَنادى فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى﴾ عليه فإن كان يدعي الربوبية لأهل مملكته جميعا لا لطائفة خاصة منهم.

ب. وقيل: المراد بالحشر جمع السحرة لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٣]، وقوله: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى﴾ [طه: ٦٠] وفيه أنه لا دليل على كون المراد بالحشر في هذه الآية هو عين المراد بالحشر والجمع في تينك الآيتين.

١٠. ﴿فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى﴾:

أ. دعوى الربوبية وظاهره أنه يدعي أنه أعلى في الربوبية من سائر الأرباب التي كان يقول بها قومه الوثنيون فيفضل نفسه على سائر آلهتهم.

ب. ولعل مراده بهذا التفضيل مع كونه وثنيا يعبد الآلهة كما يدل عليه قوله تعالى حكاية عن ملئه يخاطبونه: ﴿أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] إنه أقرب الآلهة منهم تجري بيده أرزاقهم وتصلح بأمره شئون حياتهم ويحفظ بمشيته شرفهم وسؤددهم، وسائر الآلهة ليسوا على هذه الصفة.

ج. وقيل: مراده بما قال تفضيل نفسه على كل من يلي أمورهم ومحصله دعوى الملك وأنه فوق سائر أولياء أمور المملكة من حكام وعمال فيكون في معنى قوله فيما حكاه الله عنه إذ قال: ﴿وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ الآية: [الزخرف: ٥١]

• وهو خلاف ظاهر الكلام وفيما قال قوله لملئه: ﴿يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقوله لموسى: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]

١١. ﴿فَأَخَذَهُ اللهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى﴾:

أ. الأخذ كناية عن التعذيب، والنكال التعذيب الذي يردع من رآه أو سمعه عن تعاطي مثله، وعذاب الآخرة نكال حيث إن من شأنه أن يردع من سمعه عن تعاطي ما يؤدي إليه من المعصية كما أن عذاب الاستئصال في الدنيا نكال.

ب. والمعنى: فأخذ الله فرعون أي عذبه ونكله نكال الآخرة والأولى وأما عذاب الدنيا فإغراقه وإغراق جنوده، وأما عذاب الآخرة فعذابه بعد الموت، فالمراد بالأولى والآخرة الدنيا والآخرة.

ج. وقيل: المراد بالآخرة كلمته الآخرة، ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى﴾ وبالأولى كلمته الأولى قالها قبل ذلك ﴿ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي﴾ فأخذه الله بهاتين الكلمتين ونكله نكالهما، ولا يخلو هذا المعنى من خفاء.

د. وقيل: المراد بالأولى تكذيبه ومعصيته المذكوران في أول القصة وبالأخرى كلمة أنا ربكم الأعلى، المذكورة في آخرها، وهو كسابقه.

هـ. وقيل: الأولى أول معاصيه والأخرى آخرها والمعنى أخذه الله نكال مجموع معاصيه ولا يخلو أيضا من خفاء.

١٢. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى﴾:

أ. الإشارة إلى حديث موسى، والظاهر أن مفعول ﴿يَخْشى﴾ منسي معرض عنه، والمعنى أن في

هذا الحديث، حديث موسى، لعبرة لمن كان له خشية وكان من غريزته أن يخشى الشقاء والعذاب والإنسان من غريزته ذلك ففيه عبرة لمن كان إنسانا مستقيم الفطرة.

ب. وقيل: المفعول محذوف والتقدير لمن يخشى الله والوجه السابق أبلغ.

٤. خلق السماء أعظم من خلق الإنسان:

المقطع [٤] من سورة النازعات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٩٠»:

١. ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها﴾:

أ. خطاب توبيخي للمشركين المنكرين للبعث المستهزءين به على سبيل العتاب ويتضمن الجواب عن استبعادهم البعث بقولهم: ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ أَإِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً﴾ بأن الله خلق ما هو أشد منكم خلقا فهو على خلقكم وإنشائكم النشأة الأخرى لقدير.

ب. ويتضمن أيضا الإشارة إلى الحجة على وقوع البعث حيث يذكر التدبير العام العالمي وارتباطه بالعالم الإنساني ولازمه ربوبيته تعالى، ولازم الربوبية صحة النبوة وجعل التكاليف، ولازم ذلك الجزاء الذي موطنه البعث والحشر، ولذا فرع عليه حديث البعث بقوله: (فإذا جاءت الطامة الكبرى) إلخ.

ج. فقوله: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ﴾ استفهام توبيخي بداعي رفع استبعادهم البعث بعد الموت، والإشارة إلى تفصيل خلق السماء بقوله: ﴿بَناها﴾ دليل أن المراد به تقرير كون السماء أشد خلقا.

د. ﴿بَناها﴾ استئناف وبيان تفصيلي لخلق السماء.

٢. ﴿رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها﴾ أي رفع سقفها وما ارتفع منها، وتسويتها ترتيب أجزائها وتركيبها بوضع كل جزء في موضعه الذي تقتضيه الحكمة كما في قوله: ﴿فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]

٣. ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحاها﴾ أي أظلم ليلها وأبرز نهارها، والأصل في معنى الضحى انبساط الشمس وامتداد النهار أريد به مطلق النهار بقرينة المقابلة ونسبة الليل والضحى إلى السماء لأن السبب الأصلي لها سماوي وهو ظهور الأجرام المظلمة بشروق الأنوار السماوية كنور الشمس وغيره

وخفاؤها بالاستتار ولا يختص الليل والنهار بالأرض التي نحن عليها بل يعمان سائر الأجرام المظلمة المستنيرة.

٥. تسخير الأرض وما فيها للإنسان:

المقطع [٥] من سورة النازعات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٠-٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٩٠»:

١. ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها﴾:

أ. أي بسطها ومدها بعد ما بنى السماء ورفع سمكها وسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها.

ب. وقيل: المعنى والأرض مع ذلك دحاها كما في قوله: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ﴾ وقد تقدم كلام فيما يظهر من كلامه تعالى في خلق السماء والأرض في تفسير سورة الم السجدة وذكر بعضهم أن الدحو بمعنى الدحرجة.

٢. ﴿أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعاها﴾ قيل: المرعى يطلق على الرعي بالكسر فالسكون وهو الكلأ كما يجيء مصدرا ميميا، واسم زمان ومكان، والمراد بإخراج مائها منها تفجير العيون وإجراء الأنهار عليها، وإخراج المرعى إنبات النبات عليها مما يتغذى به الحيوان والإنسان فالظاهر أن المراد بالمرعى مطلق النبات الذي يتغذى به الحيوان والإنسان كما يشعر به قوله: ﴿مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ﴾ لا ما يختص بالحيوان كما هو الغالب في استعماله.

٣. ﴿وَالْجِبالَ أَرْساها﴾ أي أثبتها على الأرض لئلا تميد بكم وادخر فيها المياه والمعادن كما ينبئ عنه سائر كلامه تعالى.

٤. ﴿مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ﴾ أي خلق ما ذكر من السماء والأرض ودبر ما دبر من أمرهما ليكون متاعا لكم ولأنعامكم التي سخرها لكم تتمتعون به في حياتكم فهذا الخلق والتدبير الذي فيه تمتيعكم يوجب عليكم معرفة ربكم وخوف مقامه وشكر نعمته فهناك يوم تجزون فيه بما عملتم في ذلك إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا كما أن هذا الخلق والتدبير أشد من خلقكم فليس لكم أن تستبعدوا خلقكم ثانيا وتستصعبوه عليه تعالى.

٦. يوم الطامة الكبرى وتذكر الإنسان:

المقطع [٦] من سورة النازعات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات: ٣٤ـ٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٩١»:

١. ﴿فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى﴾:

أ. في المجمع: (الطامة العالية الغالبة يقال: هذا أطم من هذا أي أعلى منه، وطم الطائر الشجرة أي علاها وتسمى الداهية التي لا يستطاع دفعها طامة)، فالمراد بالطامة الكبرى القيامة لأنها داهية تعلو وتغلب كل داهية هائلة، وهذا معنى اتصافها بالكبرى وقد أطلقت إطلاقا.

ب. وتصدير الجملة بفاء التفريع للإشارة إلى أن مضمونها أعني مجيء القيامة من لوازم خلق السماء والأرض وجعل التدبير الجاري فيهما المترتبة على ذلك كما تقدمت الإشارة إليه.

٢. ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى﴾ ظرف لمجيء الطامة الكبرى، والسعي هو العمل بجد.

٣. ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى﴾:

أ. التبريز الإظهار ومفعول ﴿يَرى﴾ منسي معرض عنه والمراد بمن يرى من له بصر يرى به، والمعنى وأظهرت الجحيم بكشف الغطاء عنها لكل ذي بصر فيشاهدونها مشاهدة عيان.

ب. فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] غير أن آية ق أوسع معنى.

ج. والآية ظاهرة في أن الجحيم مخلوقة قبل يوم القيامة وإنما تظهر يومئذ ظهورا بكشف الغطاء عنها.

٧. مصير الطاغين المؤثرين للدنيا:

المقطع [٧] من سورة النازعات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٧ـ٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٩٢»:

١. ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغى وَآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى﴾:

أ. تفصيل حال الناس يومئذ في انقسامهم قسمين أقيم مقام الإجمال الذي هو جواب إذا المحذوف استغناء بالتفصيل عن الإجمال، والتقدير فإذا جاءت الطامة الكبرى انقسم الناس قسمين فأما من طغى إلخ.

ب. وقد قسم تعالى الناس في الآيات الثلاث إلى أهل الجحيم وأهل الجنة، وقدم صفة أهل الجحيم لأن وجه الكلام إلى المشركين، وعزف أهل الجحيم بما وصفهم به في قوله: ﴿مَنْ طَغى وَآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا﴾ وقابل تعريفهم بتعريف أهل الجنة بقوله: ﴿مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى﴾ وسبيل ما وصف به الطائفتين على أي حال سبيل بيان الضابط.

ج. وإذ كانت الطائفتان متقابلتين بحسب حالهما كان ما بين لكل منهما من الوصف مقابلا لوصف الآخر فوصف أهل الجنة بالخوف من مقام ربهم، والخوف تأثر الضعيف المقهور من القوي القاهر وخشوعه وخضوعه له، يقتضي كون طغيان أهل الجحيم، والطغيان التعدي عن الحد، هو عدم تأثرهم من مقام ربهم بالاستكبار وخروجهم عن زي العبودية فلا يخشعون ولا يخضعون ولا يجرون على ما أراده منهم ولا يختارون ما اختاره لهم من السعادة الخالدة بل ما تهواه أنفسهم من زينة الحياة الدنيا.

د. فمن لوازم طغيانهم اختيارهم الحياة الدنيا وهو الذي وصفهم به بعد وصفهم بالطغيان إذ قال: ﴿وَآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا﴾

هـ. وإذ كان من لوازم الطغيان رفض الآخرة وإيثار الحياة الدنيا وهو اتباع النفس فيما تريده وطاعتها فيما تهواه ومخالفته تعالى فيما يريده كان لما يقابل الطغيان من الوصف وهو الخوف ما يقابل الإيثار واتباع هوى النفس وهو قريحة الردع عن الإخلاد إلى الأرض ونهى النفس عن اتباع الهوى وهو قوله في وصف أهل الجنة بعد وصفهم بالخوف: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى﴾

و. وإنما أخذ في وصفه النهي عن الهوى دون ترك اتباعه عملا لأن الإنسان ضعيف ربما ساقته الجهالة إلى المعصية من غير استكبار والله واسع المغفرة قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ [النساء: ٣١]

ز. ويتحصل معنى الآيات الثلاث في إعطاء الضابط في صفة أهل الجحيم وأهل الجنة في أن أهل الجحيم أهل الكفر والفسوق وأهل الجنة أهل الإيمان والتقوى، وهناك غير الطائفتين طوائف أخر من المستضعفين والذين اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وغيرهم أمرهم إلى الله سبحانه عسى أن يشملهم المغفرة بشفاعة وغيرها.

ح. فقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغى﴾، إلى قوله: ﴿هِيَ الْمَأْوى﴾ أي هي مأواه على أن تكون اللام عوضا عن الضمير أو الضمير محذوف والتقدير هي المأوى له.

٨. مصير الخائفين من مقام ربهم:

المقطع [٨] من سورة النازعات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٩٣»:

١. ﴿وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ﴾:

أ. المقام اسم مكان يراد به المكان الذي يقوم فيه جسم من الأجسام وهو الأصل في معناه ككونه اسم زمان ومصدرا ميميا لكن ربما يعتبر ما عليه الشيء من الصفات والأحوال محلا ومستقرا للشيء بنوع من العناية فيطلق عليه المقام كالمنزلة كما في قوله تعالى في الشهادة: ﴿فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما﴾ [المائدة: ١٠٧] وقول نوح عليه السلام لقومه على ما حكاه الله: ﴿إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَتَذْكِيرِي بِآياتِ الله﴾ [يونس: ٧١]، وقول الملائكة على ما حكاه الله: ﴿وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]

ب. فمقامه تعالى المنسوب إليه بما أنه رب هو صفة ربوبيته بما تستلزمه أو تتوقف عليه من صفاته الكريمة كالعلم والقدرة المطلقة والقهر والغلبة والرحمة والغضب وما يناسبها قال إيذانا به: ﴿وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى﴾ [طه: ٨٢]، وقال: ﴿نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٥٠]

ج. فمقامه تعالى الذي يخوف منه عباده مرحلة ربوبيته التي هي المبدأ لرحمته ومغفرته لمن آمن واتقى ولأليم عذابه وشديد عقابه لمن كذب وعصى.

د. وقيل: المراد بمقام ربه مقامه من ربه يوم القيامة حين يسأله عن أعماله وهو كما ترى.

هـ. وقيل: معنى خاف مقام ربه خاف ربه بطريق الإقحام كما قيل في قوله: ﴿أَكْرِمِي مَثْواهُ﴾

٢. أحاديث وآثار:

أ. في أصول الكافي، بإسناده إلى داود الرقي عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ﴾، قال: من علم أن الله يراه ويسمع ما يقول، ويعلم ما يعمله من خير أو شر، فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فذلك الذي خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى.

• أقول: يؤيد الحديث ما تقدم من معنى الخوف من مقامه تعالى.

ب. وفيه، بإسناده عن يحيى بن عقيل قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنما أخاف عليكم الاثنين: اتباع الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة.

ج. في تفسير القمي: ﴿وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى﴾ قال: هو العبد إذا وقف على معصية الله، وقدر عليها ثم تركها مخافة الله ونهي الله، ونهى النفس عنها فمكافاته الجنة، قوله: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها﴾ قال: متى تقوم؟ فقال الله: ﴿إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها﴾ أي علمها عند الله، قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها﴾ قال: بعض يوم.

٩. علم الساعة عند الله وإنذار الناس:

المقطع [٩] من سورة النازعات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢-٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٩٥»:

١. ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها﴾:

أ. الظاهر أن التعبير بيسألونك لإفادة الاستمرار فقد كان المشركون بعد ما سمعوا حديث القيامة يراجعون النبي ﷺ ويسألونه أن يعين لهم وقتها مصرين على ذلك وقد تكرر في القرآن الكريم الإشارة إلى ذلك.

ب. والمرسى مصدر ميمي بمعنى الإثبات والإقرار وقوله: ﴿أَيَّانَ مُرْساها﴾ بيان للسؤال والمعنى يسألك هؤلاء المنكرون للساعة المستهزءون به عن الساعة متى إثباتها وإقرارها؟ أي متى تقوم القيامة؟

٢. ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها﴾:

أ. استفهام إنكاري و﴿فِيمَ أَنْتَ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، والذكرى كثرة الذكر وهو أبلغ من الذكر على ما ذكره الراغب.

ب. والمعنى في أي شيء أنت من كثرة ذكر الساعة أي ما ذا يحصل لك من العلم بوقتها من ناحية كثرة ذكرها وبسبب ذلك أي لست تعلمها بكثرة ذكرها.

ج. أو الذكرى بمعنى حضور حقيقة معنى الشيء في القلب، والمعنى، على الاستفهام الإنكاري، لست في شيء من العلم بحقيقتها وما هي عليه حتى تحيط بوقتها وهو أنسب من المعنى السابق.

د. وقيل: المعنى ليس ذكراها مما يرتبط ببعثتك إنما بعثت لتنذر من يخشاها.

هـ. وقيل: ﴿فِيمَ﴾ إنكار لسؤالهم، وقوله: ﴿أَنْتَ مِنْ ذِكْراها﴾ استئناف وتعليل لإنكار سؤالهم، والمعنى فيم هذا السؤال إنما أنت من ذكرى الساعة لاتصال بعثتك بها وأنت خاتم الأنبياء، وهذا المقدار من العلم يكفيهم، وهو قوله ﷺ فيما روي: (بعثت أنا والساعة كهاتين إن كادت لتسبقني)

و. وقيل: الآية من تمام سؤال المشركين خاطبوا به النبي ﷺ والمعنى ما الذي عندك من العلم بها وبوقتها؟ أو ما الذي حصل لك وأنت تكثر ذكرها.

- وأنت خبير بأن السياق لا يلائم شيئا من هذه المعاني تلك الملاءمة، على أنها أو أكثرها لا تخلو من تكلف.

٣. ﴿إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها﴾:

أ. في مقام التعليل لقوله: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها﴾ والمعنى لست تعلم وقتها لأن انتهاءها إلى ربك فلا يعلم حقيقتها وصفاتها ومنها تعين الوقت إلا ربك فليس لهم أن يسألوا عن وقتها وليس في وسعك أن تجيب عنها.

ب. وليس من البعيد، والله أعلم، أن تكون الآية في مقام التعليل بمعنى آخر وهو أن الساعة تقوم بفناء الأشياء وسقوط الأسباب وظهور أن لا ملك إلا لله الواحد القهار فلا ينتسب اليوم إلا إليه تعالى من غير أن يتوسط بالحقيقة بينه تعالى وبين اليوم أي سبب مفروض ومنه الزمان فليس يقبل اليوم توقيتا بحسب الحقيقة.

ج. ولذا لم يرد في كلامه تعالى من التحديد:

• إلا تحديد اليوم بانقراض نشأة الدنيا كقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] وما في معناه من الآيات الدالة على خراب الدنيا بتبدل الأرض والسماء وانتثار الكواكب وغير ذلك.

• وإلا تحديده بنوع من التمثيل والتشبيه كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها﴾، وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ﴾ ثم ذكر حق القول في ذلك فقال: ﴿وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]

• ويلوح إلى ما مر ما في مواضع من كلامه أن الساعة لا تأتي إلا بغتة، قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] إلى غير ذلك من الآيات.

د. وهذا وجه عميق يحتاج في تمامه إلى تدبر واف ليرتفع به ما يتراءى من مخالفته لظواهر عدة من آيات القيامة وعليك بالتدبر في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] وما في معناه من الآيات والله المستعان.

٤. ﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها﴾ أي إنما كلفناك بإنذار من يخشى الساعة دون الإخبار بوقت قيام الساعة حتى تجيبهم عن وقتها إذا سألوك عنه فالقصر في الآية قصر إفراد بقصر شأنه ﷺ في الإنذار وتنفي عنه العلم بالوقت وتعيينه لمن يسأل عنه، والمراد بالخشية على ما يناسب المقام الخوف منها إذا ذكر بها أي شأنية الخشية لا فعليتها قبل الإنذار.

٥. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها﴾:

أ. بيان لقرب الساعة بحسب التمثيل والتشبيه بأن قرب الساعة من حياتهم الدنيا بحيث مثلهم حين يرونها مثلهم لو لبثوا بعد حياتهم في الأرض عشية أو ضحى تلك العشية أي وقتا نسبته إلى نهار واحد نسبة العشية إلى ما قبلها منه أو نسبة الضحى إلى ما قبله منه.

ب. وقد ظهر بما تقدم أن المراد باللبث لبث ما بين الحياة الدنيا والبعث أي لبثهم في القبور لأن الحساب يقع على مجموع الحياة الدنيا.

ج. وقيل: المراد به اللبث بين حين سؤالهم عن وقتها وبين البعث.

• وفيه أنهم إنما يشاهدون لبثهم على هذه الصفة عند البعث والبعث الذي هو الإحياء بعد الموت إنما نسبته إلى الموت الذي قبله دون مجموع الموت وبعض الحياة التي بين زمان السؤال عن الوقت وزمان الموت.

• على أنه لا يلائم ظواهر سائر الآيات المتعرضة للبثهم قبل البعث كقوله تعالى ﴿قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢]

د. وقيل: المراد باللبث اللبث في الدنيا وهو سخيف.

٦. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس قال: إن مشركي مكة سألوا النبي ﷺ فقالوا: متى تقوم الساعة استهزاء منهم، فنزلت ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها﴾ الآيات.

ب. أخرج البزار وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن عائشة قالت: ما زال رسول الله يسأل عن الساعة، حتى أنزل عليه ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها﴾ فلم يسأل عنها.

• أقول: ورواه أيضا عن عدة من أصحاب الكتب عن عروة مرسلا، ورواه أيضا عن عدة منهم عن شهاب بن طارق عن النبي ﷺ: مثله، والسياق لا يلائم كونه جوابا عن سؤال النبي ﷺ.

ج. وفي بعض الروايات: كانت الأعراب إذا قدموا على النبي ﷺ، سألوه عن الساعة، فينظر إلى أحدث إنسان فيهم فيقول: إن يعش هذا قرنا قامت عليكم ساعتكم: رواها في الدر المنثور، عن ابن مردويه عن عائشة.

• وهي من التوقيت الذي يجل عنه ساحة النبي ﷺ وقد أوحي إليه في كثير من السور القرآنية سيما المكية أن علم الساعة يختص به تعالى لا يعلمه إلا هو وأمر أن يجيب من سأله عن وقتها بنفي العلم به عن نفسه.

سورة عبس

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٦] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. وردت الروايات من طرق أهل السنة أن الآيات نزلت في قصة ابن أم مكتوم الأعمى، دخل على النبي ﷺ وعنده قوم من صناديد قريش يناجيهم في أمر الإسلام، فعبس النبي عنه، فعاتبه الله تعالى بهذه الآيات، وفي بعض الأخبار من طرق الشيعة إشارة إلى ذلك.

ب. وفي بعض روايات الشيعة أن العابس المتولي رجل من بني أمية كان عند النبي ﷺ، فدخل عليه ابن أم مكتوم فعبس الرجل وقبض وجهه، فنزلت الآيات، وسيوافيك تفصيل البحث عن ذلك في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

ج. وكيف كان الأمر، فغرض السورة عتاب من يقدم الأغنياء والمترفين على الضعفاء والمساكين من المؤمنين، فيرفع أهل الدنيا ويضع أهل الآخرة.

د. ثم ينجر الكلام إلى الإشارة إلى هوان أمر الإنسان في خلقه، وتناهيه في الحاجة إلى تدبير أمره، وكفره مع ذلك بنعم ربه وتدبيره العظيم لأمره، وتتخلص إلى ذكر بعثه وجزائه إنذاراً.

هـ. والسورة مكية بلا كلام.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٦] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر عبوس النبي وتوليه عن الأعمى، وتذكر أن الأعمى يتزكى والمستغني يتصدى، وتقرر أن التذكرة تنفع المؤمنين، وتذكر أن القرآن في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة.

٢. الآيات [١٧ ـ ٤٢]:

أ. دعاء على الإنسان وتعجيب من مبالغته في الكفر بربوبية ربه، وإشارة إلى أمره حدوثاً وبقاءً، فإنه لا يملك لنفسه شيئاً من خلق وتدبير، بل الله سبحانه هو الذي خلقه من نطفة مهينة فقدره، ثم السبيل يسره، ثم أماته فأقبره، ثم إذا شاء أنشره، فهو سبحانه ربه الخالق له المدبر لأمره مطلقاً، وهو في مدى

وجوده لا يقضي ما أمره به ربه ولا يهتدي بهداه.

ب. ولو نظر الإنسان إلى طعامه فقط، وهو مظهر واحد من مظاهر تدبيره وغرفة من بحار رحمته، رأى من وسيع التدبير ولطيف الصنع ما يبهر عقله ويدهش لبه، ووراء ذلك نعم لا تعد، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾

ج. فستره تدبير ربه وتركه شكر نعمته عجيب، وإن الإنسان لظلوم كفار، وسيرون تبعة شكرهم وكفرهم من السرور والاستبشار أو الكآبة وسواد الوجه.

د. والآيات، كما ترى، لا تأبى الاتصال بما قبلها سياقاً واحداً، وإن قال بعضهم إنها نزلت لسبب آخر كما سيجيء.

١. عتاب العابس لمجيء الأعمى:

المقطع [١] من سورة عبس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ [عبس: ١-١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ١٩٩»:

١. ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ أي بسر وقبض وجهه وأعرض.

٢. ﴿أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى﴾ تعليل لما ذكر من العبوس بتقدير لام التعليل.

٣. ﴿وما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى﴾:

أ. حال من فاعل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ والمراد بالتزكي التطهر بعمل صالح بعد التذكر الذي هو الاتعاظ والانتباه للاعتقاد الحق، ونفع الذكرى هو دعوتها إلى التزكي بالإيمان والعمل الصالح.

ب. ومحصل المعنى: بسر وأعرض عن الأعمى لما جاءه والحال أنه ليس يدري لعل الأعمى الذي جاءه يتطهر بصالح العمل بعد الإيمان بسبب مجيئه وتعلمه وقد تذكر قبل أو يتذكر بسبب مجيئه واتعاظه بما يتعلم فتنفعه الذكرى فيتطهر.

ج. وفي الآيات الأربع عتاب شديد ويزيد شدة بإتيان الآيتين الأولين في سياق الغيبة لما فيه من الإعراض عن المشافهة والدلالة على تشديد الإنكار وإتيان الآيتين الأخيرتين في سياق الخطاب لما فيه من تشديد التوبيخ وإلزام الحجة بسبب المواجهة بعد الإعراض والتقريع من غير واسطة.

د. وفي التعبير عن الجائي بالأعمى مزيد توبيخ لما أن المحتاج الساعي في حاجته إذا كان أعمى فاقدا للبصر وكانت حاجته في دينه دعته إلى السعي فيها خشية الله كان من الحري أن يرحم ويخص بمزيد الإقبال والتعطف لا أن ينقبض ويعرض عنه.

هـ. وقيل، بناء على كون المراد بالمعاتب هو النبي ﷺ: أن في التعبير عنه أولا بضمير الغيبة إجلالا له لإيهام أن من صدر عنه العبوس والتولي غيره ﷺ لأنه لا يصدر مثله عن مثله، وثانيا بضمير الخطاب إجلالا له أيضا لما فيه من الإيناس بعد الإيحاش والإقبال بعد الإعراض.

وفيه أنه لا يلائمه الخطاب في قوله بعد: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ والعتاب والتوبيخ فيه أشد مما في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ولا إيناس فيه قطعا.

٤. ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴾:

أ. الغنى والاستغناء والتغني والتغاني بمعنى على ما ذكره الراغب فالمراد بمن استغنى من تلبس بالغنى ولازمه التقدم والرئاسة والعظمة في أعين الناس والاستكبار عن اتباع الحق قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى﴾ [العلق: ٧] والتصدي التعرض للشيء بالإقبال عليه والاهتمام بأمره.

ب. وفي الآية إلى تمام ست آيات إشارة إلى تفصيل القول في ملاك ما ذكر من العبوس والتولي فعوتب عليه ومحصله أنك تعتني وتقبل على من استغنى واستكبر عن اتباع الحق وما عليك ألا يزكى وتتلهى وتعرض عمن يجتهد في التزكي وهو يخشى.

٥. ﴿وَما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴾:

أ. قيل: ﴿ما﴾ نافية والمعنى وليس عليك بأس أن لا يتزكى حتى يبعثك الحرص على إسلامه إلى الإعراض والتلهي عمن أسلم والإقبال عليه.

ب. وقيل: ﴿ما﴾ للاستفهام الإنكاري والمعنى وأي شيء يلزمك أن لم يتطهر من الكفر والفجور فإنما أنت رسول ليس عليك إلا البلاغ.

ج. وقيل: المعنى ولا تبالي بعدم تطهره من دنس الكفر والفجور وهذا المعنى أنسب لسياق العتاب ثم الذي قبله ثم الذي قبله.

٦. ﴿وَأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى وَهُوَ يَخْشى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ السعي الإسراع في المشي فمعنى قوله:

﴿وَأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى﴾ بحسب ما يفيده المقام: وأما من جاءك مسرعا ليتذكر ويتزكى بما يتعلم من معارف الدين.

٧. ﴿وَهُوَ يَخْشى﴾ أي يخشى الله والخشية آية التذكر بالقرآن قال تعالى: ﴿ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى﴾ [طه: ٣] وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى﴾ [الأعلى: ١٠]

٨. ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ أي تتلهى وتتشاغل بغيره وتقديم ضمير أنت في قوله: ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ وقوله: ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ وكذا الضميرين ﴿لَهُ﴾ و﴿عَنْهُ﴾ في الآيتين لتسجيل العتاب وتثبيته.

٩. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: قيل: نزلت الآيات في عبد الله بن أم مكتوم، وهو عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري، من بني عامر بن لؤي، وذلك أنه أتى رسول الله ﷺ، وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب وأبيا، وأمية بن خلف يدعوهم إلى الله ويرجو إسلامهم، فقال: يا رسول الله أقرئني، وعلمني مما علمك الله، فجعل يناديه ويكرر النداء، ولا يدري أنه مشتغل مقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد، إنما أتباعه العميان والعبيد فأعرض عنه، وأقبل على القوم الذين كان يكلمهم فنزلت الآيات، وكان رسول الله بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه قال: مرحبا بمن عاتبني فيه ربي، ويقول له: هل لك من حاجة؟ واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين.

• أقول: روى السيوطي في الدر المنثور القصة عن عائشة وأنس وابن عباس على اختلاف يسير وما أورده الطبرسي محصل الروايات.

• وليست الآيات ظاهرة الدلالة على أن المراد بها هو النبي ﷺ بل خبر محض لم يصرح بالمخبر عنه بل فيها ما يدل على أن المعنى بها غيره لأن العبوس ليس من صفات النبي ﷺ مع الأعداء المباينين فضلا عن المؤمنين المسترشدين، ثم الوصف بأنه يتصدى للأغنياء ويتلهى عن الفقراء لا يشبه أخلاقه الكريمة كما عن المرتضى رحمه الله.

• وقد عظم الله خلقه ﷺ إذ قال، وهو قبل نزول هذه السورة ـ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ والآية واقعة في سورة (ن) التي اتفقت الروايات المبينة لترتيب نزول السور على أنها نزلت بعد سورة اقرأ باسم

ربك، فكيف يعقل أن يعظم الله خلقه في أول بعثته ويطلق القول في ذلك ثم يعود فيعاتبه على بعض ما ظهر من أعماله الخلقية ويذمه بمثل التصدي للأغنياء وإن كفروا والتلهي عن الفقراء وإن آمنوا واسترشدوا.

• وقال تعالى أيضا: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] فأمره بخفض الجناح للمؤمنين والسورة من السور المكية والآية في سياق قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ النازل في أوائل الدعوة.

• وكذا قوله: ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] وفي سياق الآية قوله: ﴿فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] النازل في أول الدعوة العلنية فكيف يتصور منه ﷺ العبوس والإعراض عن المؤمنين وقد أمر باحترام إيمانهم وخفض الجناح وأن لا يمد عينيه إلى دنيا أهل الدنيا.

• على أن قبح ترجيح غنى الغني، وليس ملاكا لشيء من الفضل، على كمال الفقير وصلاحه بالعبوس والإعراض عن الفقير والإقبال على الغني لغناه قبح عقلي مناف لكريم الخلق الإنساني لا يحتاج في لزوم التجنب عنه إلى نهي لفظي.

• وبهذا وما تقدمه يظهر الجواب عما قيل: إن الله سبحانه لم ينهه ﷺ عن هذا الفعل إلا في هذا الوقت فلا يكون معصية منه إلا بعده وأما قبل النهي فلا.

• وذلك أن دعوى أنه تعالى لم ينهه إلا في هذا الوقت تحكم ممنوع، ولو سلم فالعقل حاكم بقبحه ومعه ينافي صدوره كريم الخلق وقد عظم الله خلقه ﷺ قبل ذلك إذ قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وأطلق القول، والخلق ملكة لا تتخلف عن الفعل المناسب لها.

ب. وعن الصادق عليه السلام، على ما في المجمع: أنها نزلت في رجل من بني أمية، كان عند النبي ﷺ فجاء ابن أم مكتوم، فلما رآه تقذر منه وجمع نفسه وعبس، وأعرض بوجهه عنه، فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه.

ج. وفي المجمع: وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا رأى عبد الله بن أم مكتوم قال: مرحبا مرحبا والله لا يعاتبني الله فيك أبدا، وكان يصنع به من اللطف، حتى كان يكف عن

النبي ﷺ مما يفعل به.

• أقول: الكلام فيه كالكلام فيما تقدمه، ومعنى قوله: حتى أنه كان يكف.، أنه كان يكف عن الحضور عند النبي ﷺ لكثرة صنيعه ﷺ به انفعالا منه وخجلا.

٢. القرآن تذكرة في صحف مكرمة:

المقطع [٢] من سورة عبس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١-١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٠١»:

١. ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾:

أ. ﴿كَلَّا﴾ ردع عما عوتب عليه من العبوس والتولي والتصدي لمن استغنى والتلهي عمن يخشى.

ب. والضمير في ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ للآيات القرآنية أو للقرآن وتأنيث الضمير لتأنيث الخبر والمعنى أن الآيات القرآنية أو القرآن تذكرة أي موعظة يتعظ بها من اتعظ أو مذكر يذكر حق الاعتقاد والعمل.

٢. ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾:

أ. جملة معترضة والضمير للقرآن أو ما يذكر به القرآن من المعارف، والمعنى فمن شاء ذكر القرآن أو ذكر ما يذكر به القرآن وهو الانتقال إلى ما تهدي إليه الفطرة مما تحفظه في لوحها من حق الاعتقاد والعمل.

ب. وفي التعبير بهذا التعبير: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ تلويح إلى أن لا إكراه في الدعوة إلى التذكر فلا نفع فيها يعود إلى الداعي وإنما المنتفع بها المتذكر فليختر ما يختاره.

٣. ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ﴾:

أ. قال في المجمع: (الصحف جمع صحيفة، والعرب تسمي كل مكتوب فيه صحيفة كما تسميه كتابا رقا كان أو غيره)

ب. ﴿فِي صُحُفٍ﴾ خبر بعد خبر لأن وظاهره أنه مكتوب في صحف متعددة بأيدي ملائكة الوحي، وهذا يضعف القول بأن المراد بالصحف اللوح المحفوظ ولم يرد في كلامه تعالى إطلاق الصحف ولا الكتب ولا الألواح بصيغة الجمع على اللوح المحفوظ، ونظيره في الضعف القول بأن المراد بالصحف

كتب الأنبياء الماضين لعدم ملاءمته لظهور قوله: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ في أنه صفة لصحف.

٤. ﴿مُكَرَّمَةٍ﴾ أي معظمة، وقوله: ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ أي قدرا عند الله، وقوله: ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ أي من قذارة الباطل ولغو القول والشك والتناقض قال تعالى: ﴿لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَما هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٤] وقال: ﴿ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، وقال: ﴿وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ [النساء: ٨٢]

٥. ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرامٍ بَرَرَةٍ﴾:

أ. صفة بعد صفة لصحف، والسفرة هم السفراء جمع سفير بمعنى الرسول و﴿كِرامٍ﴾ صفة لهم باعتبار ذواتهم و﴿بَرَرَةٍ﴾ صفة لهم باعتبار عملهم وهو الإحسان في الفعل.

ب. ومعنى الآيات أن القرآن تذكرة مكتوبة في صحف متعددة معظمة مرفوعة قدرا مطهرا من كل دنس وقذارة بأيدي سفراء من الملائكة كرام على ربهم بطهارة ذواتهم بررة عنده تعالى بحسن أعمالهم.

ج. ويظهر من الآيات أن للوحي ملائكة يتصدون لحمل الصحف وإيحاء ما فيها من القرآن فهم أعوان جبريل وتحت أمره ونسبة إلقاء الوحي إليهم لا تنافي نسبته إلى جبريل في مثل قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٤] وقد قال تعالى في صفته: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١] فهو مطاع من الملائكة من يصدر عن أمره ويأتي بما يريده والإيحاء الذي هو فعل أعوانه فعله كما أن فعله وفعلهم جميعا فعل الله وذلك نظير كون التوفي الذي هو فعل أعوان ملك الموت فعله، وفعله وفعلهم جميعا فعل الله تعالى، وقد تقدمت الإشارة إلى هذا البحث مرارا.

د. وقيل: المراد بالسفرة الكتاب من الملائكة، والذي تقدم من المعنى أجلى.

هـ. وقيل: المراد بهم القراء يكتبونها ويقرءونها وهو كما ترى.

٣. الإنسان بين خلق الله وإماتته وإحيائه:

المقطع [٣] من سورة عبس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس: ١٧-٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٠٦»:

١. ﴿قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ﴾ دعاء على الإنسان لما أن في طبعه التوغل في اتباع الهوى ونسيان ربوبية ربه والاستكبار عن اتباع أوامره.

٢. ﴿ما أَكْفَرَهُ﴾:

أ. تعجيب من مبالغة في الكفر وستر الحق الصريح وهو يرى أنه مدبر بتدبير الله لا يملك شيئا من تدبير أمره غيره تعالى.

ب. فالمراد بالكفر مطلق ستر الحق وينطبق على إنكار الربوبية وترك العبادة ويؤيده ما في ذيل الآية من الإشارة إلى جهات من التدبير الربوبي المتناسبة مع الكفر بمعنى ستر الحق وترك العبادة، وقد فسر بعضهم الكفر بترك الشكر وكفران النعمة وهو وإن كان معنى صحيحا في نفسه لكن الأنسب بالنظر إلى السياق هو المعنى المتقدم.

ج. قال في الكشاف: (﴿قُتِلَ الْإِنْسانُ﴾ دعاء عليه وهي من أشنع دعواتهم لأن القتل قصارى شدائد الدنيا وفظائعها و﴿ما أَكْفَرَهُ﴾ تعجب من إفراطه في كفران نعمة الله ولا ترى أسلوبا أغلظ منه، ولا أخشن مسا، ولا أدل على سخط، ولا أبعد شوطا في المذمة مع تقارب طرفيه، ولا أجمع للأئمة على قصر متنه) انتهى

د. وقيل جملة ﴿ما أَكْفَرَهُ﴾ استفهامية والمعنى ما هو الذي جعله كافرا، والوجه المتقدم أبلغ.

٣. ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾:

أ. معناه على ما يعطيه المقام من أي شيء خلق الله الإنسان حتى يحق له أن يطغى ويستكبر عن الإيمان والطاعة، وحذف فاعل قوله: ﴿خَلَقَهُ﴾ وما بعده من الأفعال للإشعار بظهوره فمن المعلوم بالفطرة، وقد اعترف به المشركون، أن لا خالق إلا الله تعالى.

ب. والاستفهام بداعي تأكيد ما في قوله: ﴿ما أَكْفَرَهُ﴾ من العجب، والعجب إنما هو في الحوادث التي لا يظهر لها سبب، فأفيد أولا: أن من العجب إفراط الإنسان في كفره ثم سئل ثانيا: هل في خلقته إذ خلقه الله ما يوجب له الإفراط في الكفر فأجيب بنفيه وأن لا حجة له يحتج بها ولا عذر يعتذر به فإنه مخلوق من ماء مهين لا يملك شيئا من خلقته ولا من تدبير أمره في حياته ومماته ونشره، وبالجملة الاستفهام توطئة للجواب الذي في قوله: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ﴾

٤. ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾:

تنكير ﴿نُطْفَةٍ﴾ للتحقير أي من نطفة مهينة حقيرة خلقة فلا يحق له وأصله هذا الأصل أن يطغى بكفره ويستكبر عن الطاعة.

٥. ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ أي أعطاه القدر في ذاته وصفاته وأفعاله فليس له أن يتعدى الطور الذي قدر له ويتجاوز الحد الذي عين له فقد أحاط به التدبير الربوبي من كل جانب ليس له أن يستقل بنيل ما لم يقدر له.

٦. ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾:

أ. ظاهر السياق المقصود به نفي العذر من الإنسان في كفره واستكباره أن المراد بالسبيل، وقد أطلق، السبيل إلى طاعة الله وامتثال أوامره وإن شئت فقل: السبيل إلى الخير والسعادة.

ب. فتكون الآية في معنى دفع الدخل فإنه إذا قيل: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ أمكن أن يتوهم السامع أن الخلق والتقدير إذا كانا محيطين بالإنسان من كل جهة كانت أفعال الإنسان لذاته وصفاته مقدرة مكتوبة ومتعلقة لمشية الربوبية التي لا تتخلف فتكون أفعال الإنسان ضرورية الثبوت واجبة التحقق والإنسان مجبرا عليها فاقدا للاختيار فلا صنع للإنسان في كفره إذا كفر ولا في فسقه إذا فسق ولم يقض ما أمره الله به وإنما ذلك بتقديره تعالى وإرادته فلا ذم ولا لائمة على الإنسان ولا دعوة دينية تتعلق به لأن ذلك كله فرع للاختيار ولا اختيار.

ج. فدفع الشبهة بقوله: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ ومحصله أن الخلق والتقدير لا ينافيان كون الإنسان مختارا فيما أمر به من الإيمان والطاعة له طريق إلى السعادة التي خلق لها فكل ميسر لما خلق له وذلك أن التقدير واقع على الأفعال الإنسانية من طريق اختياره، والإرادة الربوبية متعلقة بأن يفعل الإنسان بإرادته واختياره كذا وكذا فالفعل صادر عن الإنسان باختياره وهو بما أنه اختياري متعلق للتقدير.

د. فالإنسان مختار في فعله مسئول عنه وإن كان متعلقا للقدر، وقد تقدم البحث عن هذا المعنى كرارا في ذيل الآيات المناسبة له في هذا الكتاب.

هـ. وقيل: المراد بتيسير السبيل تسهيل خروج الإنسان من بطن أمه والمعنى ثم سهل للإنسان سبيل الخروج وهو جنين مخلوق من نطفة.

و. وقيل: المراد الهداية إلى الدين وتبين طريق الخير والشر كما قال: ﴿وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] والوجه المتقدم أوجه.

٧. ﴿ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾:

أ. الإماتة إيقاع الموت على الإنسان، والمراد بالإقبار دفنه في القبر وإخفاؤه في بطن الأرض وهذا بالبناء على الغالب الذي جرى عليه ديدن الناس وبهذه المناسبة نسب إليه تعالى لأنه تعالى هو الذي هداهم إلى ذلك وألهمهم إياه فللفعل نسبة إليه كما له نسبة إلى الناس.

ب. وقيل: المراد بالإقبار جعله ذا قبر ومعنى جعله ذا قبر أمره تعالى بدفنه تكرمة له لتتوارى جيفته فلا يتأذى بها الناس ولا يتنفروا.

ج. والوجه المتقدم أنسب لسياق الآيات المسرود لتذكير تدبيره تعالى التكويني للإنسان دون التدبير التشريعي الذي عليه بناء هذا الوجه.

٨. ﴿ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ﴾ في المجمع: (الإنشار الإحياء للتصرف بعد الموت كنشر الثوب بعد الطي)، فالمراد به البعث إذا شاء الله، وفيه إشارة إلى كونه بغتة لا يعلمه غيره تعالى.

٩. ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ﴾:

أ. الذي يعطيه السياق أن ﴿كَلَّا﴾ ردع عن معنى سؤال يستدعيه السياق ويلوح إليه قوله: ﴿لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ﴾ كأنه لما أشير إلى أن الإنسان مخلوق مدبر له تعالى من أول وجوده إلى آخره من خلق وتقدير وتيسير للسبيل وإماتة وإقبار وإنشار وكل ذلك نعمة منه تعالى سئل فقيل: فما ذا صنع الإنسان والحال هذه الحال وهل خضع للربوبية أو هل شكر النعمة فأجيب.

ب. وقيل: كلا، ثم أوضح فقيل: لما يقض ما أمره الله به بل كفر وعصى.

ج. فقد ظهر مما تقدم أن ضمير ﴿يَقْضِ﴾ للإنسان والمراد بقضائه إتيانه بما أمر الله به.

د. وقيل: الضمير لله تعالى والمعنى لما يقض الله لهذا الكافر أن يأتي بما أمره به من الإيمان والطاعة بل إنما أمره بما أمر إتماما للحجة، وهو بعيد.

هـ. وظهر أيضا أن ما في الآيات من الذم واللائمة إنما هو للإنسان بما في طبعه من الإفراط في الكفر كما في قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] فينطبق على من تلبس بالكفر وأفرط فيه بالعناد

ومنه يظهر عدم استقامة ما نقل عن بعضهم أن الآية على العموم في الكافر والمسلم لم يعبده أحد حق عبادته.

و. وذلك أن الضمير للإنسان المذكور في صدر الآيات بما في طبعه من داعية الإفراط في الكفر وينطبق على من تلبس به بالفعل.

١٠. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله: ﴿قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ﴾ قال: نزلت في عتبة بن أبي لهب حين قال: كفرت برب النجم إذا هوى، فدعا عليه النبي ﷺ فأخذه الأسد بطريق الشام.

ب. وفي الاحتجاج، عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل: ﴿قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ﴾ أي لعن الإنسان.

ج. وفي تفسير القمي: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ قال: يسر له طريق الخير.

• أقول: المراد به جعله مختارا في فعله يسهل به سلوكه سبيل السعادة ووصوله إلى الكمال الذي خلق له، فالخبر منطبق على ما قدمناه من الوجه في تفسير الآية.

٤. نعم الله في الطعام والشراب والنبات:

المقطع [٤] من سورة عبس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ـ٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٠٨»:

١. ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ﴾:

أ. متفرع على ما تقدم تفرع التفصيل على الإجمال ففيه توجيه نظر الإنسان إلى طعامه الذي يقتات به ويستمد منه لبقائه وهو واحد مما لا يحصى مما هيأه التدبير الربوبي لرفع حوائجه في الحياة حتى يتأمله فيشاهد سعة التدبير الربوبي التي تدهش لبه وتحير عقله، وتعلق العناية الإلهية، على دقتها وإحاطتها، بصلاح حاله واستقامة أمره.

ب. والمراد بالإنسان، كما قيل، غير الإنسان المتقدم المذكور في قوله: ﴿قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ﴾ فإن المراد به خصوص الإنسان المبالغ في الكفر بخلاف الإنسان المذكور في هذه الآية المأمور بالنظر فإنه عام

شامل لكل إنسان، ولذلك أظهر ولم يضمر.

٢. ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾:

أ. إلى قوله: ﴿وَلِأَنْعامِكُمْ﴾ القراءة الدائرة ﴿أَنَّا﴾ بفتح الهمزة وهو بيان تفصيلي لتدبيره تعالى طعام الإنسان نعم هو مرحلة ابتدائية من التفصيل وأما القول المستوفى لبيان خصوصيات النظام الذي هيأ له هذه الأمور والنظام الوسيع الجاري في كل من هذه الأمور والروابط الكونية التي بين كل واحد منها وبين الإنسان فمما لا يسعه نطاق البيان عادة.

ب. وبالجملة قوله: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ الصب إراقة الماء من العلو، والمراد بصب الماء إنزال الأمطار على الأرض لإنبات النبات، ولا يبعد أن يشمل إجراء العيون والأنهار فإن ما في بطن الأرض من ذخائر الماء إنما يتكون من الأمطار.

٣. ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ ظاهره شق الأرض بالنبات الخارج منها ولذا عطف على صب الماء بثم وعطف عليه إنبات الحب بالفاء.

٤. ﴿فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا﴾ ضمير ﴿فِيها﴾ للأرض، والمراد بالحب جنس الحب الذي يقتات به الإنسان كالحنطة والشعير ونحوهما وكذا في العنب والقضب وغيرهما.

٥. ﴿وَعِنَباً وَقَضْباً﴾:

أ. العنب معروف، ويطلق على شجر الكرم ولعله المراد في الآية ونظيره الزيتون.

ب. والقضب هو الغض الرطب من البقول الذي يأكله الإنسان يقضب أي يقطع مرة بعد أخرى.

ج. وقيل: هو ما يقطع من النبات فتعلف به الدواب.

٦. ﴿وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً﴾ معروفان.

٧. ﴿وَحَدائِقَ غُلْباً﴾ الحدائق جمع حديقة وهي على ما فسر البستان المحوط والغلب جمع غلباء يقال: شجرة غلباء أي عظيمة غليظة فالحدائق الغلب البساتين المشتملة على أشجار عظام غلاظ.

٨. ﴿وَفاكِهَةً وَأَبًّا﴾:

أ. قيل: الفاكهة مطلق الثمار.

ب. وقيل: ما عدا العنب والرمان، قيل: إن ذكر ما يدخل في الفاكهة أولا كالزيتون والنخل

للاعتناء بشأنه والأب الكلاء والمرعى.

٩. ﴿مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ﴾:

أ. مفعول له أي أنبتنا ما أنبتنا مما تطعمونه ليكون تمتيعا لكم وللأنعام التي خصصتموها بأنفسكم.

ب. والالتفات عن الغيبة إلى الخطاب في الآية لتأكيد الامتنان بالتدبير أو بإنعام النعمة.

١٠. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله: ﴿وَقَضْباً﴾ قال: القضب القت.

ب. وفيه في قوله: ﴿وَفاكِهَةً وَأَبًّا﴾ قال: الأب الحشيش للبهائم.

ج. أخرج أبو عبيد في فضائله عن إبراهيم التيمي قال: سئل أبو بكر الصديق عن قوله: ﴿وَأَبًّا﴾ فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني، إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم.

د. أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان والخطيب والحاكم وصححه عن أنس أن عمر قرأ على المنبر ﴿فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا وَعِنَباً وَقَضْباً﴾، إلى قوله: ﴿وَأَبًّا﴾ قال: كل هذا قد عرفناه فما الأب؟ ثم رفض عصا كانت في يده فقال: هذا لعمر الله هو التكلف فما عليك أن لا تدري ما الأب؟ اتبعوا ما بين لكم هداه من الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه.

هـ. أخرج عبد بن حميد عن عبد الرحمن بن يزيد أن رجلا سأل عمر عن قوله: ﴿وَأَبًّا﴾ فلما رآهم يقولون أقبل عليهم بالدرة.

• أقول: هو مبني على منعهم عن البحث عن معارف الكتاب حتى تفسير ألفاظه.

هـ. وفي إرشاد المفيد، وروي: أن أبا بكر سئل عن قول الله تعالى: ﴿وَفاكِهَةً وَأَبًّا﴾ فلم يعرف معنى الأب من القرآن فقال: أي سماء تظلني أم أي أرض تقلني، أم كيف أصنع إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟ أما الفاكهة فنعرفها وأما الأب فالله أعلم، فبلغ أمير المؤمنين عليه السلام مقاله في ذلك، فقال: سبحان الله أما علم أن الأب هو الكلاء والمرعى؟ وأن قوله تعالى: ﴿وَفاكِهَةً وَأَبًّا﴾ اعتداد من الله، بإنعامه على خلقه فيما غذاهم به وخلقه لهم، ولأنعامهم مما تحيى به أنفسهم وتقوم به أجسادهم.

و. وفي المجمع: وروي عن عطاء بن يسار عن سودة زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ:

يبعث الناس حفاة عراة غرلا يلجمهم العرق ويبلغ شحمة الإذن، قالت: قلت: يا رسول الله وا سوأتاه، ينظر بعضنا إلى بعض إذا جاء؟ قال: شغل الناس عن ذلك وتلا رسول الله ﷺ ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾

٥. يوم الصاخة والفرار من الأقربين:

المقطع [٥] من سورة عبس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣-٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢١٠»:

١. ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾:

أ. إشارة إلى ما ينتهي إليه ما ذكر من التدبير العام الربوبي للإنسان بما أن فيه أمرا ربوبيا إلهيا بالعبودية يقضيه الإنسان أولا يقضيه وهو يوم القيامة الذي يوفى فيه الإنسان جزاء أعماله.

ب. والصاخة: الصيحة الشديدة التي تصم الأسماع من شدتها، والمراد بها نفخة الصور.

٢. ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾:

أ. إشارة إلى شدة اليوم فالذين عدوا من أقرباء الإنسان وأخصائه هم الذين كان يأوي إليهم ويأنس بهم ويتخذهم أعضادا وأنصارا يلوذ بهم في الدنيا لكنه يفر منهم يوم القيامة لما أن الشدة أحاطت به بحيث لا تدعه يشتغل بغيره ويعتني بها سواه كائنا من كان فالبلبلة إذا عظمت واشتدت وأطلت على الإنسان جذبته إلى نفسها وصرفته عن كل شيء.

ب. والدليل على هذا المعنى قوله بعد: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي يكفيه من أن يشتغل بغيره.

ج. وقيل: في سبب فرار الإنسان من أقربائه وأخصائه يومئذ وجوه أخر لا دليل عليها أغمضنا عن إيرادها.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي قوله: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ قال: شغل يشغله عن غيره.

٦. وجوه المؤمنين والكافرين يوم القيامة:

المقطع [٦] من سورة عبس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٣٨-٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢١٠»:

١. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ بيان لانقسام الناس يومئذ إلى قسمين: أهل السعادة وأهل الشقاء، وإشارة إلى أنهم يعرفون بسيماهم في وجوههم وإسفار الوجه إشراقه وإضاءته فرحا وسرورا واستبشاره تهلله بمشاهدة ما فيه البشرى.

٢. ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ هي الغبار والكدورة وهي سيماء الهم والغم.

٣. ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي يعلوها ويغشاها سواد وظلمة، وقد بين حال الطائفتين في الآيات الأربع ببيان حال وجوههما لأن الوجه مرآة القلب في سروره ومساءته.

٤. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ أي الجامعون بين الكفر اعتقادا والفجور وهو المعصية الشنيعة عملا أو الكافرون بنعمة الله الفاجرون، وهذا تعريف للطائفة الثانية وهم أهل الشقاء ولم يأت بمثله في الطائفة الأولى وهم أهل السعادة لأن الكلام مسوق للإنذار والاعتناء بشأن أهل الشقاء.

سورة التكوير

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٠] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تذكر السورة يوم القيامة بذكر بعض أشراطها وما يقع فيها، وتصفه بأنه يوم ينكشف فيه للإنسان ما عمله من عمل.

ب. ثم تصف القرآن بأنه مما ألقاه إلى النبي ﷺ رسول سماوي، وهو ملك الوحي، وليس بإلقاء شيطاني، ولا أن النبي ﷺ مجنون يمسه الشيطان.

ج. ويشبه أن تكون السورة من السور العتائق النازلة في أوائل البعثة، كما يشهد به ما فيها من تنزيهه ﷺ مما رموه به من الجنون، وقد اتهموه به في أوائل الدعوة، وقد اشتملت على تنزيهه منه سورة ﴿ن﴾ وهي من العتائق.

د. والسورة مكية بلا كلام.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ١٤] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر تكوير الشمس وتنكير الكواكب وتسيير الجبال وتعطيل العشار وحشر الوحوش وتكوير البحار وتسجير النفوس، وتصف أحوال يوم القيامة وأهواله.

٢. الآيات [١٥ ـ ٢٩] تنزيه للنبي ﷺ من الجنون، وقد اتهموه به، ولما يأتي به من القرآن من مداخلة الشيطان، وأنه كلامه تعالى يلقيه إليه ملك الوحي الذي لا يخون في رسالته، وأنه ذكر للعالمين هاد بإذن الله لمن اهتدى منهم.

١. من أهوال يوم القيامة:

المقطع [١] من سورة التكوير، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ١ـ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢١٣»:

١. ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ التكوير اللف على طريق الإدارة كلف العمامة على الرأس، ولعل المراد بتكوير الشمس انظلام جرمها على نحو الإحاطة استعارة.

٢. ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ انكدار الطائر من الهواء انقضاضه نحو الأرض، وعليه فالمراد سقوط النجوم كما يفيده قوله: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢] ويمكن أن يكون من الانكدار بمعنى التغير وقبول الكدورة فيكون المراد به ذهاب ضوئها.

٣. ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ بما يصيبها من زلزلة الساعة من التسيير فتندك وتكون هباء منبثا وتصير سرابا على ما ذكره سبحانه في مواضع من كلامه.

٤. ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾:

أ. قيل: العشار جمع عشراء كالنفاس جمع نفساء وهي الناقة الحامل التي أتت عليها عشرة أشهر فتسمى عشراء حتى تضع حملها وربما سميت عشراء بعد الوضع أيضا وهي من أنفس المال عند العرب.

ب. وتعطيل العشار تركها مهملة لا راعي لها ولا حافظ يحفظها وكان في الجملة إشارة على نحو الكناية إلى أن نفائس الأموال التي يتنافس فيها الإنسان تبقى اليوم ولا صاحب لها يتملكها ويتصرف فيها لأنهم مشغولون بأنفسهم عن كل شيء كما قال: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]

٥. ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾:

أ. الوحوش جمع وحش وهو من الحيوان ما لا يتأنس بالإنسان كالسباع وغيرها.

ب. وظاهر الآية من حيث وقوعها في سياق الآيات الواصفة ليوم القيامة أن الوحوش محشورة كالإنسان، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]

ج. وأما تفصيل حالها بعد الحشر وما يئول إليه أمرها فلم يرد في كلامه تعالى ولا فيما يعتمد عليه من الأخبار ما يكشف عن ذلك نعم ربما استفيد من قوله في آية الأنعام: ﴿أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ﴾ وقوله: ﴿ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ بعض ما يتضح به الحال في الجملة لا يخفى على الناقد المتدبر، وربما قيل: إن حشر الوحوش من أشراط الساعة لا مما يقع يوم القيامة والمراد به خروجها من غاباتها وأكنانها.

٦. ﴿وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ﴾ فسر التسجير بإضرام النار وفسر بالملإ والمعنى على الأول وإذا البحار

أضرمت نارا، وعلى الثاني وإذا البحار ملئت.

٧. ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾:

أ. أما نفوس السعداء فبنساء الجنة قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [النساء: ٥٧]، وقال: ﴿وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤]

ب. وأما نفوس الأشقياء فبقرناء الشياطين قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ وَما كانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٢٢] وقال: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]

٨. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ قال: تصير سوداء مظلمة ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ قال: يذهب ضوؤها ﴿وَإِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ﴾ قال: تسير كما قال ﴿تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ﴾، قوله: ﴿وَإِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ﴾ قال، الإبل تتعطل إذا مات الخلق، فلا يكون من يحلبها، قوله: ﴿وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ﴾ قال: تتحول البحار التي حول الدنيا كلها نيرانا ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قال: من الحور العين.

ب. وفيه، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قال: أما أهل الجنة فزوجوا الخيرات الحسان، وأما أهل النار فمع كل إنسان منهم شيطان، يعني قرنت نفوس الكافرين والمنافقين بالشياطين، فهم قرناؤهم.

• أقول: الظاهر أن قوله: يعني.، من كلام الراوي.

ج. أخرج ابن أبي حاتم والديلمي عن أبي مريم أن النبي ﷺ قال في قوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ قال: كورت في جهنم ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ قال: انكدرت في جهنم، وكل من عبد من دون الله فهو في جهنم، إلا ما كان من عيسى بن مريم وأمه، ولو رضيا أن يعبدا لدخلاها.

د. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ قال: صحف الأعمال، قوله: ﴿وَإِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ﴾ قال: أبطلت.

هـ. أخرج ابن مردويه عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قال: هما الرجلان يعملان العمل يدخلان الجنة والنار.

٢. سؤال الموؤودة عن الذنب الذي جعلهم يقتلونها بسببه:

المقطع [٢] من سورة التكوير، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢١٤»:

١. ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾:

أ. الموءودة البنت التي تدفن حية وكانت العرب تئد البنات خوفا من لحوق العار بهم من أجلهن كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ﴾ [النحل: ٥٩]

ب. والمسئول بالحقيقة عن قتل الموءودة أبوها الوائد لها لينتصف منه وينتقم لكن عد المسئول في الآية هي الموءودة نفسها فسئلت عن سبب قتلها لنوع من التعريض والتوبيخ لقاتلها وتوطئة لأن تسأل الله الانتصاف لها من قاتلها حتى يسأل عن قتلها فيؤخذ لها منه، فالكلام نظير قوله تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قالَ اللهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [المائدة: ١١٦]

ج. وقيل: إسناد المسئولية إلى الموءودة من المجاز العقلي والمراد كونها مسئولا عنها نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً﴾ [الإسراء: ٣٤]

٣. نشر الصحف يوم القيامة:

المقطع [٣] من سورة التكوير، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢١٥»:

١. ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ أي للحساب، والصحف كتب الأعمال.

٤. كشف السماء وإزاحتها:

المقطع [٤] من سورة التكوير، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢١٥»:

١. ﴿وَإِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ﴾ في المجمع: (الكشط القلع عن شدة التزاق فينطبق على طيها كما في قوله: ﴿وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ

تَنْزِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٥] وغير ذلك من الآيات المفصحة عن هذا المعنى.

٥. إيقاد النار وتقريب الجنة:

المقطع [٥] من سورة التكوير، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٢ـ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢١٥»:

١. ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ التسعير تهييج النار حتى تتأجج.

٢. ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ الإزلاف التقريب والمراد تقريبها من أهلها للدخول.

٣. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ﴾:

أ. جواب إذا، والمراد بالنفس الجنس والمراد بما أحضرت عملها الذي عملته يقال: أحضرت الشيء أي وجدته حاضرا كما يقال: أحمدته أي وجدته محمودا.

ب. فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠]

٦. القسم بالكواكب والليل والصبح:

المقطع [٦] من سورة التكوير، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٥ـ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢١٦»:

١. ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوارِ الْكُنَّسِ﴾:

أ. الخنس جمع خانس كطلب جمع طالب، والخنوس الانقباض والتأخر والاستتار، والجواري جمع جارية، والجري السير السريع مستعار من جرى الماء، والكنس جمع كانس والكنوس دخول الوحش كالظبي والطير كناسة أي بيته الذي اتخذه لنفسه واستقراره فيه.

ب. وتعقب قوله: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ بقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ﴾ يؤيد كون المراد بالخنس الجوار الكنس الكواكب كلها أو بعضها لكن صفات حركة بعضها أشد مناسبة وأوضح انطباقا على ما ذكر من الصفات المقسم بها: الخنوس والجري والكنوس وهي السيارات الخمس المتحيرة: زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد فإن لها في حركاتها على ما تشاهد استقامة ورجعة وإقامة فهي تسير وتجري حركة متشابهة زمانا وهي الاستقامة وتنقبض وتتأخر وتخنس زمانا وهي الرجعة وتقف عن

الحركة استقامة ورجعة زمانا كأنها الوحش تكنس في كناسها وهي الإقامة.

ج. وقيل: المراد بها مطلق الكواكب وخنوسها استتارها في النهار تحت ضوء الشمس وجريها سيرها المشهود في الليل وكنوسها غروبها في مغربها وتواريها.

د. وقيل: المراد بها بقر الوحش أو الظبي ولا يبعد أن يكون ذكر بقر الوحش أو الظبي من باب المثال والمراد مطلق الوحوش.

هـ. وكيف كان فأقرب الأقوال أولها والثاني بعيد والثالث أبعد.

٢. ﴿وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ﴾:

أ. عطف على الخنس، و﴿إِذا عَسْعَسَ﴾ قيد لليل، والعسعسة تطلق على إقبال الليل وعلى إدباره قال الراغب: (﴿وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ﴾ أي أقبل وأدبر وذلك في مبدإ الليل ومنتهاه فالعسعسة والعساس رقة الظلام وذلك في طرفي الليل) والأنسب لاتصال الجملة بقوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ﴾ أن يراد بها إدبار الليل.

ب. وقيل: المراد بها إقبال الليل: وهو بعيد لما عرفت.

٣. ﴿وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ﴾:

أ. عطف على الخنس، و﴿إِذا تَنَفَّسَ﴾ قيد للصبح، وعد الصبح متنفسا بسبب انبساط ضوئه على الأفق ودفعه الظلمة التي غشيته نوع من الاستعارة بتشبيه الصبح وقد طلع بعد غشيان الظلام للآفاق بمن أحاطت به متاعب أعمال شاقة ثم وجد خلاء من الزمان فاستراح فيه وتنفس فعد إضاءته للأفق تنفسا منه كذا يستفاد من بعضهم.

ب. وذكر الزمخشري فيه وجها آخر فقال في الكشاف: (فإن قلت: ما معنى تنفس الصبح؟ قلت: إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم فجعل ذلك نفسا له على المجاز) والوجه المتقدم أقرب إلى الذهن.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج سعيد بن منصور والفاريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طرق عن علي في قوله: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ قال: هي الكواكب تكنس بالليل وتخنس بالنهار فلا ترى.

ب. وفي تفسير القمي في قوله: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ قال: أي وأقسم بالخنس وهو اسم النجوم، ﴿الْجَوارِ الْكُنَّسِ﴾ قال: النجوم تكنس بالنهار فلا تبين.

ج. وفي المجمع ﴿بِالْخُنَّسِ﴾ وهي النجوم تخنس بالنهار وتبدو بالليل (و﴿الْجَوارِ﴾) صفة لها لأنها تجري في أفلاكها ﴿الْكُنَّسِ﴾ من صفتها أيضا، لأنها تكنس أي تتوارى في بروجها، كما تتوارى الظباء في كناسها، وهي خمسة أنجم: زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد عن علي ﴿وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ﴾ أي إذا أدبر بظلامه عن علي.

د. وفي تفسير القمي: ﴿وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ﴾ قال: إذا أظلم (و﴿الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ﴾) قال: إذا ارتفع.

٧. القرآن قول رسول كريم عند الله:

المقطع [٧] من سورة التكوير، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ـ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢١٨»:

١. ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾:

أ. جواب القسم، وضمير ﴿إِنَّهُ﴾ للقرآن أو لما تقدم من آيات السورة بما أنها قرآن بدليل قوله: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ والمراد بالرسول جبريل كما قال تعالى: ﴿مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة: ٩٧]

ب. وفي إضافة القول إليه بما أنه رسول دلالة على أن القول لله سبحانه، ونسبته إلى جبريل نسبة الرسالة إلى الرسول وقد وصفه الله بصفات ست مدحه بها.

ج. فقوله: ﴿رَسُولٍ﴾ يدل على رسالته وإلقائه وحي القرآن إلى النبي ﷺ، وقوله: ﴿كَرِيمٍ﴾ أي ذي كرامة وعزة عند الله بإعزازه، وقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أي ذي قدرة وشدة بالغة، وقوله: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي صاحب مكانة عند الله والمكانة القرب والمنزلة، وقوله: ﴿مُطاعٍ ثَمَّ﴾ أي مطاع عند الله فهناك ملائكة يأمرهم فيطيعونه، ومن هنا يظهر أن له أعوانا من الملائكة يأمرهم فيأتمرون بأمره، وقوله: ﴿أَمِينٍ﴾ أي لا يخون فيما أمر به يبلغ ما حمله من الوحي والرسالة من غير أي تصرف فيه.

د. وقيل: المراد بالرسول الجاري عليه الصفات هو النبي ﷺ، وهو كما ترى ولا تلائمه الآيات

التالية.

٢. أحاديث وآثار: أخرج ابن عساكر عن معاوية بن قرة قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: ما أحسن ما أثنى عليك ربك: ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين، فما كانت قوتك؟ وما كانت أمانتك؟ قال: أما قوتي فإني بعثت إلى مدائن لوط، وهي أربع مدائن، وفي كل مدينة أربع مائة ألف مقاتل سوى الذراري، فحملتهم من الأرض السفلى، حتى سمع أهل السماء أصوات الدجاج ونباح الكلاب، ثم هويت بهم فقتلتهم، وأما أمانتي فلم أومر بشيء فعدوته إلى غيره.

• أقول: والرواية لا تخلو من شيء وقد ضعفوا ابن عساكر وخاصة فيما تفرد به.

٨. النبي ليس بمجنون ورؤيته للوحي:

المقطع [٨] من سورة التكوير، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٢-٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢١٩»:

١. ﴿وَما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾:

أ. عطف على قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ﴾ ورد لرميهم له ﷺ بالجنون.

ب. وفي التعبير عنه ﷺ بقوله: ﴿صاحِبُكُمْ﴾ تكذيب لهم في رميهم له بالجنون وتنزيه لساحته، كما قيل، ففيه إيماء إلى أنه صاحبكم لبث بينكم معاشرا لكم طول عمره وأنتم أعرف به قد وجدتموه على كمال من العقل ورزانة من الرأي وصدق من القول ومن هذه صفته لا يرمى بالجنون.

ج. وتوصيف جبريل بما مر من صفات المدح دون النبي ﷺ لا دلالة فيه على أفضليته من النبي ﷺ لأن الكلام مسوق لبيان أن القرآن كلام الله سبحانه منزل على النبي ﷺ من عنده سبحانه من طريق الوحي لا من أوهام الجنون بإلقاء من شيطان والذي يفيد في هذا الغرض بيان سلامة طريق الإنزال وتجليل المنزل، اسم فاعل، بذكر أوصافه الكريمة والمبالغة في تنزيهه عن الخطإ والخيانة، وأما المنزل عليه فلا يتعلق به غرض إلا بمقدار الإشارة إلى دفع ما يرتاب فيه من صفته وقد أفيد بنفي الجنون الذي رموه به والتعبير عنه بقوله: ﴿صاحِبُكُمْ﴾ كما تقدم توضيحه، كذا قيل.

د. وفي مطاوي كلامه تعالى من نعوت النبي ﷺ الكريمة ما لا يرتاب معه في أفضليته ﷺ على جميع الملائكة، وقد أسجد الله الملائكة كلهم أجمعين للإنسان الذي هو خليفته في الأرض.

٢. ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾:

أ. ضمير الفاعل في ﴿رَآهُ﴾ للصاحب وضمير المفعول للرسول الكريم وهو جبريل.

ب. والأفق المبين الناحية الظاهرة، والظاهر أنه الذي أشار إليه بقوله: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ [النجم: ٧]

ج. والمعنى وأقسم لقد راى النبي ﷺ جبريل حال كون جبريل كائنا في الأفق المبين وهو الأفق الأعلى من سائر الآفاق بما يناسب عالم الملائكة.

د. وقيل: المعنى لقد رأى ﷺ جبريل على صورته الأصلية حيث تطلع الشمس وهو الأفق الأعلى من ناحية المشرق.

• وفيه أن لا دليل من اللفظ يدل عليه وخاصة في تعلق الرؤية بصورته الأصلية ورؤيته في أي مثال تمثل به رؤيته، وكأنه مأخوذ مما ورد في بعض الروايات أنه رآه في أول البعثة وهو بين السماء والأرض جالس على كرسي، وهو محمول على التمثل.

٣. أحاديث وآثار: في الخصال، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قال في كل يوم من شعبان سبعين مرة: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الحي القيوم وأتوب إليه، كتب في الأفق المبين، قال: قلت: وما الأفق المبين؟ قال: قاع بين يدي العرش فيه أنهار تطرد، وفيه من القدحان عدد النجوم.

٩. القرآن تنزيل من الله وليس من شيطان:

المقطع [٩] من سورة التكوير، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٤-٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢١٩»:

١. ﴿وَما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ الضمير للنبي ﷺ، والمراد بالغيب الوحي النازل عليه، والضنين صفة مشبهة من الضن بمعنى البخل يعني أنه ﷺ لا يبخل بشيء مما يوحى إليه فلا يكتمه ولا يحبسه ولا يغيره بتبديل بعضه أو كله شيئا آخر بل يعلم الناس كما علمه الله ويبلغهم ما أمر بتبليغه.

٢. ﴿وَما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ﴾:

أ. نفي لاستناد القرآن إلى إلقاء شيطان بما هو أعم من طريق الجنون فإن الشيطان بمعنى الشرير والشيطان الرجيم كما أطلق في كلامه تعالى على إبليس وذريته كذلك أطلق على أشرار سائر الجن قال تعالى:

﴿قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص: ٧٧]، وقال: ﴿وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧]

ب. فالمعنى أن القرآن ليس بتسويل من إبليس وجنوده ولا بإلقاء من أشرار الجن كما يلقونه على المجانين.

٣. ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾:

أ. أوضح سبحانه في الآيات السبع المتقدمة ما هو الحق في أمر القرآن دافعا عنه ارتيابهم فيه بما يرمون به الجائي به من الجنون وغيره على إيجاز متون الآيات فبين أولا أنه كلام الله واتكاء هذه الحقيقة على آيات التحدي، وثانيا أن نزوله برسالة ملك سماوي جليل القدر عظيم المنزلة وهو أمين الوحي جبريل لا حاجز بينه وبين الله ولا بينه وبين النبي ﷺ، ولا صارف من نفسه أو غيره يصرفه عن أخذه ولا حفظه ولا تبليغه، وثالثا أن الذي أنزل عليه وهو يتلوه لكم وهو صاحبكم الذي لا يخفى عليكم حاله ليس بمجنون كما يبهتونه به وقد راى الملك الحامل للوحي وأخذ عنه وليس بكاتم لما يوحى إليه ولا بمغير، ورابعا أنه ليس بتسويل من إبليس وجنوده ولا بإلقاء من بعض أشرار الجن.

ب. ونتيجة هذا البيان أن القرآن كتاب هدى يهتدي به من أراد الاستقامة على الحق وهو قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾

ج. فقوله: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ توطئة وتمهيد لذكر نتيجة البيان السابق، وهو استضلال لهم فيما يرونه في أمر القرآن الكريم أنه من طواري الجنون أو من تسويلات الشيطان الباطلة.

د. فالاستفهام في الآية توبيخي والمعنى إذا كان الأمر على هذا فأين تذهبون وتتركون الحق وراءكم؟

٤. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، في حديث أسنده إلى أبي عبد الله عليه السلام: قوله: ﴿وَما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ﴾ قال: يعني الكهنة الذين كانوا في قريش، فنسب كلامهم إلى كلام الشياطين الذين كانوا معهم، يتكلمون على ألسنتهم، فقال: ﴿وَما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ﴾ مثل أولئك.

١٠. القرآن ذكر للعالمين لمن أراد الاستقامة:

المقطع [١٠] من سورة التكوير، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧ـ٢٩]، وفيه المسائل التالية

«الميزان: ٢٠/ ٢٢٠»:

١. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾ أي تذكرة لجماعات الناس كائنين من كانوا يمكنهم بها أن يتبصروا للحق، وقد تقدم بعض الكلام في نظيرة الآية.

٢. ﴿لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ بدل من قوله: ﴿لِلْعالَمِينَ﴾ مسوق لبيان أن فعلية الانتفاع بهذا الذكر مشروط بأن يشاءوا الاستقامة على الحق وهو التلبس بالثبات على العبودية والطاعة.

٣. ﴿وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ تقدم الكلام في معناه في نظائر الآية.

٤. والآية بحسب ما يفيده السياق:

أ. في معنى دفع الدخل فإن من الممكن أن يتوهموا من قوله: ﴿لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ أن لهم الاستقلال في مشية الاستقامة إن شاءوا استقاموا وإن لم يشاءوا لم يستقيموا، فلله إليهم حاجة في الاستقامة التي يريدها منهم.

ب. فدفع ذلك بأن مشيتهم متوقفة على مشية الله سبحانه فلا يشاءون الاستقامة إلا أن يشاء الله أن يشاءوها، فأفعال الإنسان الإرادية مرادة لله تعالى من طريق إرادته وهو أن يريد الله أن يفعل الإنسان فعلا كذا وكذا عن إرادته.

سورة الانفطار

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٥] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. تحد السورة يوم القيامة ببعض أشراطه الملازمة له المتصلة به، وتصفه بما يقع فيه، وهو ذكر الإنسان ما قدم وما أخر من أعماله الحسنة والسيئة، على أنها محفوظة عليه بواسطة حفظة الملائكة الموكلين عليه، وجزاؤه بعمله: إن كان براً فبنعيم، وإن كان فاجراً مكذباً بيوم الدين فبجحيم يصلاها مخلداً فيها.

ب. ثم يستأنف وصف اليوم بأنه يوم لا يملك نفس لنفس شيئاً، والأمر يومئذ لله، وهي من غرر الآيات.

ج. والسورة مكية بلا كلام.

١. انفطار السماء وانتثار الكواكب وانفجار البحار:

المقطع [١] من سورة الانفطار، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ١-٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٢٣»:

١. ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ الفطر الشق والانفطار الانشقاق والآية كقوله: ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦]

٢. ﴿وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ أي تفرقت بتركها مواضعها التي ركزت فيها شبهت الكواكب بلآلي منظومة قطع سلكها فانتثرت وتفرقت.

٣. ﴿وَإِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ﴾:

أ. قال في المجمع: (التفجير خرق بعض مواضع الماء إلى بعض التكثير، ومنه الفجور لانخراق صاحبه بالخروج إلى كثير من الذنوب، ومنه الفجر لانفجاره بالضياء)

ب. وإليه يرجع تفسيرهم لتفجير البحار بفتح بعضها في بعض حتى يزول الحائل ويختلط العذب منها والمالح ويعود بحرا واحدا، وهذا المعنى يناسب تفسير قوله: ﴿وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] بامتلاء البحار.

٤. ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ قال في المجمع: (بعثرت الحوض وبحثرته إذا جعلت أسفله أعلاه، والبعثرة والبحثرة إثارة الشيء بقلب باطنه إلى ظاهره)، فالمعنى وإذا قلب تراب القبور وأثير باطنها إلى ظاهرها لإخراج الموتى وبعثهم للجزاء.

٥. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾:

أ. المراد بالعلم علمها التفصيلي بأعمالها التي عملتها في الدنيا، وهذا غير ما يحصل لها من العلم بنشر كتاب أعمالها لظاهر قوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٥] وقوله: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى﴾ [النازعات: ٣٥]، وقوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠]

ب. والمراد بالنفس جنسها فتفيد الشمول، والمراد بها قدمت وما أخرت هو ما قدمته مما عملته في حياتها، وبما أخرت ما سنته من سنة حسنة أو سيئة فعملت بها بعد موتها فتكتب صحيفة عملها قال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ﴾ [يس: ١٢]

ج. وقيل: المراد بها قدمت وأخرت ما عملته في أول العمر وما عملته في آخره فيكون كناية عن الاستقصاء.

د. وقيل في معنى التقديم والتأخير وجوه أخر لا يعبأ بها مذكورة في مطولات التفاسير من أراد الوقوف عليها فليراجعها.

هـ. وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، كلام لا يخلو من نفع هاهنا.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ قال: تنشق فتخرج الناس منها.

ب. أخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال: قال النبي ﷺ: من استن خيرا فاستن به فله أجره، ومثل أجور من اتبعه غير منتقص من أجورهم، ومن استن شرا فاستن به فله وزره، ومثل أوزار من اتبعه غير منتقص من أوزارهم، وتلا حذيفة ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾

٢. توبيخ الإنسان على غروره بالله الكريم:

المقطع [٢] من سورة الانفطار، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٢٥»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾:

أ. عتاب وتوبيخ للإنسان، والمراد بهذا الإنسان المكذب ليوم الدين، على ما يفيده السياق المشتمل على قوله: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ وفي تكذيب يوم الدين كفر وإنكار لتشريع الدين وفي إنكاره إنكار لربوبية الرب تعالى، وإنما وجه الخطاب إليه بما أنه إنسان ليكون حجة أو كالحجة لثبوت الخصال التي يذكرها من نعمه عليه المختصة من حيث المجموع بالإنسان.

ب. وقد علق الغرور بصفتي ربوبيته وكرمه تعالى ليكون ذلك حجة في توجه العتاب والتوبيخ فإن تمرد المربوب وتوغله في معصية ربه الذي يدبر أمره ويغشيه نعمه ظاهرة وباطنة كفران لا ترتاب الفطرة السليمة في قبحه ولا في استحقاق العقاب عليه وخاصة إذا كان الرب المنعم كريما لا يريد في نعمه وعطاياه نفعا ينتفع به ولا عضوا يقابله به المنعم عليه، ويسامح في إحسانه ويصفح عما يأتي به المربوب من الخطيئة والإثم بجهالة فإن الكفران حينئذ أقبح وأقبح وتوجه الذم واللائمة أشد وأوضح.

ج. فقوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ استفهام توبيخي يوبخ الإنسان بكفران خاص لا عذر له يعتذر به عنه وهو كفران نعمة رب كريم.

د. وليس للإنسان أن يجيب فيقول: أي رب غرني كرمك فقد قضى الله سبحانه فيما قضى وبلغه بلسان أنبيائه: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغى وَآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى﴾ [النازعات: ٣٩]، إلى غير ذلك من الآيات الناصة في أن لا مخلص للمعاندين من العذاب وأن الكرم لا يشملهم يوم القيامة قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ولو كفى الإنسان العاصي قوله: (غرني كرمك) لصرف العذاب عن الكافر المعاند كما يصرفه عن المؤمن العاصي، ولا عذر بعد البيان

هـ. ومن هنا يظهر أن لا محل لقول بعضهم: إن توصيف الرب بالكريم من قبيل تلقين الحجة وهو من الكرم أيضا، كيف؟ والسياق سياق الوعيد والكلام ينتهي إلى مثل قوله: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ

يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ وَما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ﴾

٢. ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾:

أ. بيان لربوبيته المتلبسة بالكرم فإن من تدبيره خلق الإنسان بجمع أجزاء وجوده ثم تسويته بوضع كل عضو فيما يناسبه من الموضع على ما يقتضيه الحكمة ثم عدله بعدل بعض أعضائه وقواه ببعض بجعل التوازن والتعادل بينها فما يضعف عنه عضو يقوى عليه عضو فيتم به فعله كما أن الأكل مثلا بالالتقام وهو للفم، ويضعف الفم عن قطع اللقمة ونهشها وطحنها فيتم ذلك بمختلف الأسنان، ويحتاج ذلك إلى نقل اللقمة من جانب من الفم إلى آخر وقلبها من حال إلى حال فجعل ذلك للسان ثم الفم يحتاج في فعل الأكل إلى وضع الغذاء فيه فتوصل إلى ذلك باليد وتمم عملها بالكف وعملها بالأصابع على اختلاف منافعها وعملها بالأنامل، وتحتاج اليد في الأخذ والوضع إلى الانتقال المكاني نحو الغذاء وعدل ذلك بالرجل.

ب. وعلى هذا القياس في أعمال سائر الجوارح والقوى وهي ألوف وألوف لا يحصيها العد، والكل من تدبيره تعالى وهو المفيض لها من غير أن يريد بذلك انتفاعا لنفسه ومن غير أن يمنعه من إفاضتها ما يقابله به الإنسان من نسيان الشكر وكفران النعمة فهو تعالى ربه الكريم.

٣. ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ﴾:

أ. بيان لقوله: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ ولذا لم يعطف على ما تقدمه والصورة ما ينتقش به الأعيان ويتميز به الشيء من غيره و(ما) زائدة للتأكيد.

ب. والمعنى: في أي صورة شاء أن يركبك، ولا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة، ركبك من ذكر وأنثى وأبيض وأسود وطويل وقصير ووسيم ودميم وقوي وضعيف إلى غير ذلك وكذا الأعضاء المشتركة بين أفراد الإنسان المميزة لها من غيرها كاليدين والرجلين والعينين والرأس والبدن واستواء القامة ونحوها فكل ذلك من عدل بعض الأجزاء ببعض في التركيب قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] والجميع ينتهي إلى تدبير الرب الكريم لا صنع للإنسان في شيء من ذلك.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج عبد بن حميد عن صالح بن مسمار قال: بلغني أن النبي ﷺ تلا هذه الآية ﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ثم قال: جهله.

ب. وفي تفسير القمي: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ﴾ قال: لو شاء ركبك على غير هذه الصورة.

• أقول: ورواه في المجمع: (عن الصادق عليه السلام مرسلا.

٣. حفظة الأعمال يكتبون ما يفعلون:

المقطع [٣] من سورة الانفطار، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ٩-١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٢٦»:

١. ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾:

أ. ﴿كَلَّا﴾ ردع عن اغترار الإنسان بكرم الله وجعل ذلك ذريعة إلى الكفر والمعصية أي لا تغتروا فلا ينفعكم الاغترار.

ب. ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ أي بالجزاء، إضراب عما يفهم من قوله: ﴿ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ من غرور الإنسان بربه الكريم على اعتراف منه ولو بالقوة بالجزاء لقضاء الفطرة السليمة به.

ج. فإذ عاتب الإنسان ووبخه على غروره بربه الكريم واجترائه على الكفران والمعصية من غير أن يخاف الجزاء أضرب عنه مخاطبا للإنسان وكل من يشاركه في كفره ومعصيته فقال: بل أنت ومن حاله حالك تكذبون بيوم الدين والجزاء فتجحدونه ملحين عليه.

٢. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ كِراماً كاتِبِينَ يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ﴾:

أ. إشارة إلى أن أعمال الإنسان حاضرة محفوظة يوم القيامة من طريق آخر غير حضورها للإنسان العامل لها من طريق الذكر وذلك حفظها بكتابة كتاب الأعمال من الملائكة الموكلين بالإنسان فيحاسب عليها كما قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ [الإسراء: ١٤]

ب. فقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ﴾ أي إن عليكم من قبلنا حافظين يحفظون أعمالكم بالكتابة كما يفيده السياق.

٣. ﴿كِراماً كاتِبِينَ﴾:

أ. أي أولي كرامة وعزة عند الله تعالى وقد تكرر في القرآن الكريم وصف الملائكة بالكرامة ولا يبعد أن يكون المراد به بإعانة من السياق كونهم بحسب الخلقة مصونين عن الإثم والمعصية مفطورين على

العصمة، ويؤيده قوله: ﴿بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] حيث دل على أنهم لا يريدون إلا ما أراده الله ولا يفعلون إلا ما أمرهم به، وكذا قوله: ﴿كِرامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٦]

ب. والمراد بالكتابة في قوله: ﴿كاتِبِينَ﴾ كتابة الأعمال بقرينة قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ﴾ وقد تقدم في تفسير قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] كلام في معنى كتابة الأعمال فليراجعه من شاء.

٤. ﴿يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ﴾:

أ. نفي لخطئهم في تشخيص الخير والشر وتمييز الحسنة والسيئة كما أن الآية السابقة متضمنة لتنزيههم عن الإثم والمعصية فهم محيطون بالأفعال على ما هي عليه من الصفة وحافظون لها على ما هي عليه.

ب. ولا تعيين في هذه الآيات لعدة هؤلاء الملائكة الموكلين على كتابة أعمال الإنسان نعم المستفاد من قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧] إن على كل إنسان منهم اثنين عن يمينه وشماله، وقد ورد في الروايات المأثورة أن الذي على اليمين كاتب الحسنات والذي على الشمال كاتب السيئات.

ج. وورد أيضا في تفسير قوله: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً﴾ [الإسراء: ٧٨] أخبار مستفيضة من طرق الفريقين دالة على أن كتبة الأعمال بالنهار يصعدون بعد غروب الشمس وينزل آخرون فيكتبون أعمال الليل حتى إذا طلع الفجر صعدوا ونزل ملائكة النهار وهكذا.

د. وفي الآية أعني قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ﴾ دلالة على أن الكتبة عالمون بالنيات إذ لا طريق إلى العلم بخصوصيات الأفعال وعناوينها وكونها خيرا أو شرا أو حسنة أو سيئة إلا العلم بالنيات فعلمهم بالأفعال لا يتم إلا عن العلم بالنيات.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ﴾ قال: الملكان الموكلان بالإنسان.

ب. وعن سعد السعود، وفي رواية: إنهما، يعني الملكين الموكلين، يأتيان المؤمن عند حضور صلاة

الفجر، فإذا هبطا صعد الملكان الموكلان بالليل، فإذا غربت الشمس نزل إليه الموكلان بكتابة الليل، ويصعد الملكان الكاتبان بالنهار، بديوانه إلى الله عز وجل، فلا يزال ذلك دأبهم إلى وقت حضور أجله، فإذا حضر أجله قالا للرجل الصالح: جزاك الله من صاحب عنا خيرا، فكم من عمل صالح أريتناه، وكم من قول حسن أسمعتناه، وكم من مجلس خير أحضرتناه، فنحن اليوم على ما تحبه وشفعاء إلى ربك، وإن كان عاصيا قالا له: جزاك الله من صاحب عنا شرا، فلقد كنت تؤذينا فكم من عمل سيء أريتناه، وكم من قول سيء أسمعتناه، و[كم] من مجلس سوء أحضرتناه، ونحن اليوم لك على ما تكره، وشهيدان عند ربك.

٤. الأبرار في النعيم والفجار في الجحيم:

المقطع [٤] من سورة الانفطار، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٣-١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٢٧»:

١. ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾:

أ. استئناف مبين لنتيجة حفظ الأعمال بكتابة الكتبة وظهورها يوم القيامة.

ب. والأبرار هم المحسنون عملا، والفجار هم المنخرقون بالذنوب والظاهر أن المراد بهم المتهتكون من الكفار إذ لا خلود لمؤمن في النار، وفي تنكير (نعيم) و(جحيم) إشعار بالتفخيم والتهويل، كما قيل،

٢. ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ الضمير للجحيم أي يلزمون يعني الفجار الجحيم يوم الجزاء ولا يفارقونها.

٣. ﴿وَما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ﴾ عطف تفسيري على قوله: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يؤكد معنى ملازمتهم للجحيم وخلودهم في النار، والمراد بغيبتهم عنها خروجهم منها فالآية في معنى قوله: ﴿وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]

٥. عظمة يوم الدين والأمر كله لله:

المقطع [٥] من سورة الانفطار، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧-١٩]، وفيه المسائل

التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٢٧»:

١. ﴿وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ﴾ تهويل وتفخيم لأمر يوم الدين، والمعنى لا تحيط علما بحقيقة يوم الدين وهذا التعبير كناية عن فخامة أمر الشيء وعلوه من أن يناله وصف الواصف، وفي إظهار اليوم، والمحل محل الضمير، تأكيد لأمر التفخيم.

٢. ﴿ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ﴾ في تكرار الجملة تأكيد للتفخيم.

٣. ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾:

أ. الظرف منصوب بتقدير اذكر ونحوه، وفي الآية بيان إجمالي لحقيقة يوم الدين بعد ما في قوله: ﴿وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ﴾ من الحث على معرفته.

ب. وذلك أن رابطة التأثير والتأثر بين الأسباب الظاهرية ومسبباتها منقطعة زائلة يومئذ كما يستفاد من أمثال قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ [البقرة: ١٦٥] فلا تملك نفس لنفس شيئا فلا تقدر على دفع شر عنها ولا جلب خير لها، ولا ينافي ذلك آيات الشفاعة لأنها بإذن الله فهو المالك لها لا غير.

٤. ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾:

أ. أي هو المالك للأمر ليس لغيره من الأمر شيء.

ب. والمراد بالأمر كما قيل واحد الأوامر لقوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وشأن الملك المطاع، الأمر بالمعنى المقابل للنهي، والأمر بمعنى الشأن لا يلائم المقام تلك الملاءمة.

٥. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ روى عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: الأمر يومئذ واليوم كله لله، يا جابر إذا كان يوم القيامة بادت الحكام، فلم يبق حاكم إلا الله.

• أقول: مراده عليه السلام أن كون الأمر لله لا يختص بيوم القيامة بل الأمر لله دائما، وتخصيصه بيوم القيامة باعتبار ظهوره لا باعتبار أصله فالذي يختص به ظهور هذه الحقيقة ظهور عيان فيسقط اليوم أمر غيره تعالى وحكمه، ونظير الأمر سائر ما عد في كلامه تعالى من مختصات يوم القيامة، فالرواية من غرر الروايات.

سورة المطففين

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٢] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. تفتتح السورة بوعيد أهل التطفيف في الكيل والوزن، وتنذرهم بأنهم مبعوثون للجزاء في يوم عظيم وهو يوم القيامة، ثم تتخلص لتفصيل ما يجري يومئذ على الفجار والأبرار.

ب. والأنسب بالنظر إلى السياق أن يكون أول السورة المشتمل على وعيد المطففين نازلاً بالمدينة، وأما ما يتلوه من الآيات إلى آخر السورة فيقبل الانطباق على السياقات المكية والمدنية.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٢١] تفتتح السورة بوعيد أهل التطفيف في الكيل والوزن، وتنذرهم بأنهم مبعوثون للجزاء في يوم عظيم وهو يوم القيامة، ثم تتخلص لتفصيل ما يجري يومئذ على الفجار والأبرار.

٢. الآيات [٢٢ ـ ٣٦] بيان فيه بعض التفصيل لجلالة قدر الأبرار وعظم منزلتهم عند الله تعالى وغزارة عيشهم في الجنة، وأنهم على كونهم يستهزئ بهم الكفار ويتغامزون بهم ويضحكون منهم، سيضحكون منهم وينظرون إلى ما ينالهم من العذاب.

١. وعيد المطففين الذين يبخسون المكيال والميزان:

المقطع [١] من سورة المطففين، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ـ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٣٠»:

١. ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ دعاء على المطففين والتطفيف نقص المكيال والميزان، وقد نهى الله تعالى عنه وسماه إفسادا في الأرض كما فيما حكاه من قول شعيب: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٤]، وقد تقدم الكلام في تفسير الآية في معنى كونه إفسادا في الأرض.

٢. ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾:

أ. الاكتيال من الناس الأخذ منهم بالكيل، وتعديته بعلى لإفادة معنى الضرر، والكيل إعطاؤهم بالمكيال يقال: كاله طعامه ووزنه وكال له طعامه ووزن له والأول لغة أهل الحجاز وعليه التنزيل والثاني لغة غيرهم كما في المجمع: (والاستيفاء أخذ الحق تاما كاملا، والإخسار الإيقاع في الخسارة.

ب. والمعنى: الذين إذا أخذوا من الناس بالكيل يأخذون حقهم تاما كاملا، وإذا أعطوا الناس بالكيل أو الوزن ينقصون فيوقعونهم في الخسران.

ج. فمضمون الآيتين جميعا ذم واحد وهو أنهم يراعون الحق لأنفسهم ولا يراعونه لغيرهم وبعبارة أخرى لا يراعون لغيرهم من الحق مثل ما يراعونه لأنفسهم وفيه إفساد الاجتماع الإنساني المبني على تعادل الحقوق المتقابلة وفي إفساده كل الفساد.

د. ولم يذكر الاتزان مع الاكتيال كما ذكر الوزن مع الكيل إذ قال: ﴿وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ قيل: لأن المطففين كانوا باعة وهم كانوا في الأغلب يشترون الكثير من الحبوب والبقول ونحوهما من الأمتعة ثم يكسبون بها فيبيعونها يسيرا يسيرا تدريجا، وكان دأبهم في الكثير من هذه الأمتعة أن يؤخذ ويعطى بالكيل لا بالوزن فذكر الاكتيال وحده في الآية مبني على الغالب.

هـ. وقيل: لم يذكر الاتزان لأن الكيل والوزن بهما البيع والشراء فذكر أحدهما يدل على الآخر، وفيه أن ما ذكر في الاكتيال جار في الكيل أيضا وقد ذكر معه الوزن فالوجه لا يخلو من تحكم.

و. وقيل: الآيتان تحاكيان ما كان عليه دأب الذين نزلت فيهم السورة فقد كانوا يشترون بالاكتيال فقط ويبيعون بالكيل والوزن جميعا، وهذا الوجه دعوى من غير دليل.

ز. إلى غير ذلك مما ذكروه في توجيه الاقتصار على ذكر الاكتيال في الآية، ولا يخلو شيء منها من ضعف.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي، وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: نزلت يعني سورة المطففين على نبي الله ﷺ، حين قدم المدينة وهم يومئذ أسوأ الناس كيلا، فأحسنوا الكيل.

٢. إيقاظ المطففين بيوم البعث العظيم:

المقطع [٢] من سورة المطففين، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٣١»:

١. ﴿أَلا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾:

أ. الاستفهام للإنكار والتعجيب، والظن بمعناه المعروف والإشارة إلى المطففين بأولئك الموضوعة للإشارة البعيدة للدلالة على بعدهم من رحمة الله، واليوم العظيم يوم القيامة الذي يجازون فيه بعملهم.

ب. والاكتفاء بظن البعث وحسبانه، مع أن من الواجب الاعتقاد العلمي بالمعاد، لأن مجرد حسبان الخطر والضرر في عمل يوجب التجنب عنه والتحرز عن اقترافه وإن لم يكن هناك علم فالظن بالبعث ليوم عظيم يؤاخذ الله فيه الناس بما كسبوا من شأنه أن يردعهم عن اقتراف هذا الذنب العظيم الذي يستتبع العذاب الأليم.

ج. وقيل: الظن في الآية بمعنى العلم.

٢. ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ المراد به قيامهم من قبورهم، كناية عن تلبسهم بالحياة بعد الممات، لحكمه تعالى وقضائه بينهم.

٣. كتاب الفجار في سجين:

المقطع [٣] من سورة المطففين، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٧-٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٣١»:

١. ﴿كَلَّا إِنَّ كِتابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ وَما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ كِتابٌ مَرْقُومٌ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ردع، كما قيل، عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب.

٢. ﴿إِنَّ كِتابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾:

أ. الذي يعطيه التدبر في سياق الآيات الأربع بقياس بعضها إلى بعض وقياس المجموع إلى مجموع قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ إلى تمام أربع آيات أن المراد بسجين ما يقابل عليين ومعناه علو على علو مضاعف ففيه شيء من معنى السفل والانحباس فيه كما يشير إليه قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ﴾ [التين: ٥] فالأقرب أن يكون مبالغة من السجن بمعنى الحبس كسكير وشريب من السكر والشرب فمعناه الذي يحبس من دخله على التخليد كما قيل.

ب. والكتاب بمعنى المكتوب من الكتابة بمعنى القضاء المحتوم والمراد بكتاب الفجار ما قدره الله لهم من الجزاء وأثبته بقضائه المحتوم.

ج. فمحصل الآية أن الذي أثبته الله من جزائهم أو عده لهم لفي سجين الذي هو سجن يحبس من دخله حبسا طويلا أو خالدا.

٣. ﴿وَما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ﴾ مسوق للتهويل.

٤. ﴿كِتابٌ مَرْقُومٌ﴾:

أ. خبر لمبتدإ محذوف هو ضمير راجع إلى سجين والجملة بيان لسجين و(كتاب) أيضا بمعنى المكتوب من الكتابة بمعنى القضاء والإثبات، و(مرقوم) من الرقم، قال الراغب: (الرقم الخط الغليظ.

ب. وقيل: هو تعجيم الكتاب، وقوله تعالى: ﴿كِتابٌ مَرْقُومٌ﴾ حمل على الوجهين) انتهى، والمعنى الثاني أنسب للمقام فيكون إشارة إلى كون ما كتب لهم متبينا لا إبهام فيه أي إن القضاء حتم لا يتخلف.

ج. والمحصل أن سجين مقضي عليهم مثبت لهم متبين متميز لا إبهام فيه.

د. ولا ضير في لزوم كون الكتاب ظرفا للكتاب على هذا المعنى لأن ذلك من ظرفية الكل للجزء وهي مما لا ضير فيه فيكون سجين كتابا جامعا فيه ما قضي على الفجار وغيرهم من مستحقي العذاب.

٥. هذا ما يفيده التدبر في هذه الآيات الأربع، وهي ذات سياق واحد متصل متلائم الأجزاء، وللقوم في تفسير مفردات الآيات الأربع وجملها أقوال متفرقة:

أ. كقولهم: إن الكتاب في قوله: ﴿إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ﴾ بمعنى المكتوب والمراد به صحيفة أعمالهم.

ب. وقيل: مصدر بمعنى الكتابة وفي الكلام مضاف محذوف والتقدير كتابة عمل الفجار لفي سجين.

ج. وقولهم: إن الفجار أعم من المكذبين فيشمل الكفار والفسقة جميعا.

د. وقولهم: إن المراد بسجين الأرض السابعة السفلى يوضع فيها كتاب الفجار.

هـ. وقيل: واد في جهنم.

و. وقيل: جب فيها.

ز. وقيل: سجين اسم لكتابهم.

ح. وقيل: سجين الأول اسم الموضع الذي يوضع فيه كتابهم والثاني اسم كتابهم.

ط. وقيل: هو اسم كتاب جامع هو ديوان الشر دون فيه أعمال الفجرة من الثقلين.

ي. وقيل: المراد به الخسار والهوان فهو كقولهم: بلغ فلان الحضيض إذا صار في غاية الخمول.

ك. وقيل: هو السجيل بدل لامه نونا كما يقال جبرين في جبريل إلى غير ذلك مما قيل.

ل. وقولهم: إن قوله: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ ليس بيانا وتفسيرا لسجين بل تفسير للكتاب المذكور في قوله: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾

م. وقولهم: إن قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ متصل بقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والآيات الثلاث الواقعة بين الآيتين اعتراض.

• وأنت إن تأملت هذه الأقاويل وجدت كثيرا منها تحكما محضا لا دليل عليه.

• على أنها تقطع ما في الآيات من السياق الواحد المتصل الذي يحاذي به ما في الآيات الأربع الآتية في صفة كتاب الأبرار من السياق الواحد المتصل فلا نطيل الكلام بالتعرض لواحد منها والمناقشة فيها.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ قال: ما كتب الله لهم من العذاب لفي سجين.

ب. وفيه، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: السجين الأرض السابعة وعليون السماء السابعة.

• أقول: الرواية لو صحت مبنية على انتساب الجنة والنار إلى جهتي العلو والسفل بنوع من العناية ولذلك نظائر في الروايات كعد القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار وعد وادي برهوت مكانا لجهنم.

ج. أخرج ابن المبارك عن سعيد بن المسيب قال: التقى سلمان وعبد الله بن سلام فقال أحدهما لصاحبه: إن مت قبلي فالقني فأخبرني بما صنع ربك بك وإن أنا مت قبلك لقيتك فأخبرتك فقال عبد الله: كيف يكون هذا؟ قال: نعم إن أرواح المؤمنين تكون في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت ونفس الكافر في سجين والله أعلم.

٤. تكذيب المكذبين بيوم الدين:

المقطع [٤] من سورة المطففين، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين: ١٠ـ١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٣٢»:

١. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ نعي ودعاء على الفجار وفيه تفسيرهم بالمكذبين، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف لقوله: ﴿إِنَّ كِتابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ بحسب المعنى أي ليهلك الفجار، وهم المكذبون، يومئذ تحقق ما كتب الله لهم وقضى عليهم من الجزاء وحل بهم ما أعد لهم من العذاب.

٢. ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾:

أ. تفسير للمكذبين وظاهر الآية، ويؤيده الآيات التالية، أن المراد بالتكذيب هو التكذيب القولي الصريح فيختص الذم بالكفار ولا يشمل الفسقة من أهل الإيمان فلا يشمل مطلق المطففين بل الكفار منهم.

ب. اللهم إلا أن يراد بالتكذيب ما يعم التكذيب العملي كما ربما أيده قوله السابق: ﴿أَلا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ فيشمل الفجار من المؤمنين كالكفار.

٣. ﴿وَما يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾:

أ. المعتدي اسم فاعل من الاعتداء بمعنى التجاوز والمراد به المتجاوز عن حدود العبودية، والأثيم كثير الآثام بحيث تراكم بعضها على بعض بانهماكه في الأهواء.

ب. ومن المعلوم أن المانع الوحيد الذي يردع عن المعصية هو الإيمان بالبعث والجزاء، والمنهمك في الأهواء المتعلق قلبه بالاعتداء والآثم تأبى نفسه التسليم لما يردع عنها والتزهد عن المعاصي وينتهي إلى تكذيب البعث والجزاء قال تعالى: ﴿ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ [الروم: ١٠]

٤. ﴿إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ المراد بالآيات آيات القرآن بقرينة قوله: ﴿تُتْلى﴾ والأساطير ما سطروه وكتبوه والمراد بها أباطيل الأمم الماضين والمعنى إذا تتلى عليه آيات القرآن مما يحذرهم المعصية وينذرهم بالبعث والجزاء قال: هي أباطيل.

٥. الران على قلوب المكذبين من كسبهم:

المقطع [٥] من سورة المطففين، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٣٤»:

١. ﴿كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾:

أ. ردع عما قاله المكذبون: ﴿أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال الراغب: (الرين صدا يعلو الشيء الجليل قال تعالى: ﴿بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ﴾ أي صار ذلك كصدء على جلاء قلوبهم فعمي عليهم معرفة الخير من الش، فكون ما كانوا يكسبون وهو الذنوب رينا على قلوبهم هو حيلولة الذنوب بينهم وبين أن يدركوا الحق على ما هو عليه.

ب. ويظهر من الآية:

- أولا: أن للأعمال السيئة نقوشا وصورا في النفس تنتقش وتتصور بها.
- وثانيا: أن هذه النقوش والصور تمنع النفس أن تدرك الحق كما هو وتحول بينها وبينه.
- وثالثا: أن للنفس بحسب طبعها الأولي صفاء وجلاء تدرك به الحق كما هو وتميز بينه وبين الباطل وتفرق بين التقوى والفجور قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾ [الشمس: ٨]

٢. أحاديث وآثار:

أ. في أصول الكافي، بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء فإذا أذنب ذنبا خرج في تلك النكتة نكتة سوداء فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض فإذا غطى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبدا وهو قول الله عز وجل: ﴿كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾

- أقول: وروي هذا المعنى في الدر المنثور، عن عدة من أصحاب الجوامع عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

ب. وفيه، بإسناده عن عبد الله بن محمد الحجال عن بعض أصحابنا رفعه قال: قال رسول الله ﷺ: تذاكروا وتلاقوا وتحدثوا فإن الحديث جلاء للقلوب، إن القلوب لترين كما يرين السيف وجلاؤه الحديث.

ج. وعن روضة الواعظين، قال الباقر عليه السلام: ما شيء أفسد للقلب من الخطيئة إن القلب ليواقع الخطيئة فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أسفله أعلاه وأعلاه أسفله.

د. قال رسول الله ﷺ: إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منه وإن ازداد زادت، فذلك الران الذي ذكره الله تعالى في كتابه، ﴿كَلَّا بَلْ رانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾

٦. حجاب الكفار عن ربهم يوم القيامة:

المقطع [٦] من سورة المطففين، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٣٤»:

١. ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾:

أ. ردع عن كسب الذنوب الحائلة بين القلب وإدراك الحق، والمراد بكونهم محجوبين عن ربهم يوم القيامة حرمانهم من كرامة القرب والمنزلة ولعله مراد من قال: إن المراد كونهم محجوبين عن رحمة ربهم.

ب. وأما ارتفاع الحجاب بمعنى سقوط الأسباب المتوسطة بينه تعالى وبين خلقه والمعرفة التامة به تعالى فهو حاصل لكل أحد قال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وقال: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]

٧. دخول الكفار النار جزاء تكذيبهم:

المقطع [٧] من سورة المطففين، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٦ـ١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٣٤»:

١. ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي داخلون فيها ملازمون لها أو مقاسون حرها على ما فسره بعضهم و﴿ثُمَ﴾ في الآية وما بعدها للتراخي بحسب رتبة الكلام.

٢. ﴿ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ هو توبيخ وتقريع والقائل خزنة النار أو أهل الجنة.

٨. كتاب الأبرار في عليين:

المقطع [٨] من سورة المطففين، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٨ـ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٣٤»:

١. ﴿كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ كِتابٌ مَرْقُومٌ﴾:

أ. ردع في معنى الردع الذي في قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتابَ الفُجَّارِ﴾ وعليون، كما تقدم، علو على علو مضاعف، وينطبق على الدرجات العالية ومنازل القرب من الله تعالى كما أن السجين بخلافه.

ب. والكلام في معنى الآيات الثلاث نظير الكلام في الآيات الثلاث المتقدمة التي تحاذيها من قوله: ﴿إِنَّ كِتابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ وَما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ كِتابٌ مَرْقُومٌ﴾

ج. فالمعنى أن الذي كتب للأبرار وقضي جزاء لبرهم لفي عليين وما أدراك ما عليون هو أمر مكتوب ومقضي قضاء حتما لازما متبين لا إبهام فيه.

د. وللقوم أقاويل في هذه الآيات نظير ما لهم في الآيات السابقة من الأقوال:

- غير أن من أقوالهم في عليين أنه السماء السابعة تحت العرش فيه أرواح المؤمنين.
- وقيل: سدرة المنتهى التي إليها تنتهي الأعمال.
- وقيل: لوح من زبرجدة تحت العرش معلق مكتوب فيه أعمالهم.
- وقيل: هي مراتب عالية محفوفة بالجلالة، والكلام فيها كالكلام فيما تقدم من أقوالهم.

٢. ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾:

أ. الأنسب لما تقدم من معنى الآيات السابقة أن يكون ﴿يَشْهَدُهُ﴾ من الشهود بمعنى المعاينة والمقربون قوم من أهل الجنة هم أعلى درجة من عامة الأبرار على ما سيأتي استفادته من قوله: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ فالمراد معاينتهم له بإراءة الله إياه لهم وقد قال الله تعالى في مثله من أمر الجحيم: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦] ومنه يظهر أن المقربين هم أهل اليقين.

ب. وقيل: الشهادة هي الحضور والمقربون الملائكة، والمراد حضور الملائكة على صحيفة عملهم إذا صعدوا بها إلى الله سبحانه.

ج. وقيل: المقربون هم الأبرار والملائكة جميعا.

- والقولان مبنيان على أن المراد بالكتاب صحيفة الأعمال وقد تقدم ضعفه.

٣. أحاديث وآثار: في أصول الكافي، بإسناده عن أبي حمزة الثمالي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إن الله عز وجل خلقنا من أعلى عليين، وخلق قلوب شيعتنا مما خلقنا منه، وخلق أبدانهم من دون ذلك، فقلوبهم تهوي إلينا لأنها خلقت مما خلقنا، ثم تلا هذه الآية ﴿كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي

عِلِّيِّينَ، وَما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ كِتابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾، وخلق قلوب عدونا من سجين، وخلق قلوب شيعتهم مما خلقهم منه، وأبدانهم من دون ذلك، قلوبهم تهوي إليهم لأنها خلقت مما خلقوا منه، ثم تلا هذه الآية ﴿كَلَّا إِنَّ كِتابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ، وَما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ كِتابٌ مَرْقُومٌ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾

• أقول: وروي مثله في أصول الكافي، بطريق آخر عن الثمالي عنه عليه السلام، ورواه في علل الشرائع، بإسناد فيه رفع عن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام: مثله، والأحاديث، كما ترى، تؤيد ما قدمناه في معنى الآيات.

٩. نعيم الأبرار ورؤيتهم للنعيم في وجوههم:

المقطع [٩] من سورة المطففين، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٢ـ٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٣٧»:

١. ﴿إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ النعيم النعمة الكثيرة وفي تنكيره دلالة على فخامة قدره، والمعنى أن الأبرار لفي نعمة كثيرة لا يحيط بها الوصف.

٢. ﴿عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ﴾:

أ. الأرائك جمع أريكة والأريكة السرير في الجملة وهي البيت المزين للعروس وإطلاق قوله: ﴿يَنْظُرُونَ﴾ من غير تقييد يؤيد أن يكون المراد نظرهم إلى مناظر الجنة البهجة وما فيها من النعيم المقيم.

ب. وقيل: المراد به النظر إلى ما يجزي به الكفار وليس بذاك.

٣. ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ النضرة البهجة والرونق، والخطاب للنبي ﷺ باعتبار أن له أن ينظر فيعرف فالحكم عام والمعنى كل من نظر إلى وجوههم يعرف فيها بهجة النعيم الذي هم فيه.

١٠. شراب الأبرار من الرحيق المختوم:

المقطع [١٠] من سورة المطففين، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٥ـ٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٣٨»:

١. ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ الرحيق الشراب الصافي الخالص من الغش، ويناسبه وصفه بأنه مختوم فإنه إنما يختم على الشيء النفيس الخالص ليسلم من الغش والخلط وإدخال ما يفسده فيه.

٢. ﴿خِتامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ﴾:

أ. قيل الختام بمعنى ما يختم به أي إن الذي يختم به مسك بدلا من الطين ونحوه الذي يختم به في الدنيا.

ب. وقيل: أي آخر طعمه الذي يجده شاربه رائحة المسك.

٣. ﴿وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ﴾:

أ. التنافس التغالب على الشيء ويفيد بحسب المقام معنى التسابق قال تعالى: ﴿سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ﴾ [المائدة: ٤٨]، ففيه ترغيب إلى ما وصف من الرحيق المختوم.

ب. واستشكل في الآية بأن فيها دخول العاطف على العاطف إذ التقدير فليتنافس في ذلك.، وأجيب بأن الكلام على تقدير حرف الشرط والفاء واقعة في جوابه وقدم الظرف ليكون عوضا عن الشرط والتقدير وإن أريد تنافس فليتنافس في ذلك المتنافسون.

ج. ويمكن أن يقال: إن قوله: ﴿وَفِي ذلِكَ﴾ معطوف على ظرف آخر محذوف متعلق بقوله: ﴿فَلْيَتَنافَسِ﴾ يدل عليه المقام فإن الكلام في وصف نعيم الجنة فيفيد قوله: ﴿وَفِي ذلِكَ﴾ ترغيبا مؤكدا بتخصيص الحكم بعد التعميم، والمعنى فليتنافس المتنافسون في نعيم الجنة عامة وفي الرحيق المختوم الذي يسقونه خاصة فهو كقولنا: أكرم المؤمنين والصالحين منهم خاصة، ولا تكن عيابا وللعلماء خاصة.

٤. ﴿وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ المزاج ما يمزج به، والتسنيم على ما تفسره الآية التالية عين في الجنة سماه الله تسنيما وفي لفظه معنى الرفع والملء يقال: سنمه أي رفعه ومنه سنام الإبل، ويقال: سنم الإناء أي ملأه.

٥. ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾:

أ. يقال: شربه وشرب به بمعنى و﴿عَيْناً﴾ منصوب على المدح أو الاختصاص و﴿يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ وصف لها والمجموع تفسير للتسنيم.

ب. ومفاد الآية أن المقربين يشربون التسنيم صرفا كما أن مفاد قوله: ﴿وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ أنه يمزج بها ما في كأس الأبرار من الرحيق المختوم، ويدل ذلك أولا على أن التسنيم أفضل من الرحيق المختوم الذي يزيد لذة بمزجها، وثانيا أن المقربين أعلى درجة من الأبرار الذين يصفهم الآيات.

٦. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ﴾ قال: فيما ذكرناه من الثواب الذي يطلبه المؤمن.

١١. استهزاء المجرمين بالمؤمنين في الدنيا:

المقطع [١١] من سورة المطففين، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٣٩»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ يعطي السياق أن المراد بالذين آمنوا هم الأبرار الموصوفون في الآيات وإنما عبر عنهم بالذين آمنوا لأن سبب ضحك الكفار منهم واستهزائهم بهم إنما هو إيمانهم كما أن التعبير عن الكفار بالذين أجرموا للدلالة على أنهم بذلك من المجرمين.

٢. ﴿وَإِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ﴾ عطف على قوله: ﴿يَضْحَكُونَ﴾ أي كانوا إذا مروا بالذين آمنوا يغمز بعضهم بعضا ويشيرون بأعينهم استهزاء بهم.

٣. ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ الفكه بالفتح فالكسر المرح البطر، والمعنى وكانوا إذا انقلبوا وصاروا إلى أهلهم عن ضحكهم وتغامزهم انقلبوا ملتذين فرحين بما فعلوا أو هو من الفكاهة بمعنى حديث ذوي الإنس والمعنى انقلبوا وهم يحدثون بما فعلوا تفكها.

٤. ﴿وَإِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ﴾ على سبيل الشهادة عليهم بالضلال أو القضاء عليهم والثاني أقرب.

٥. ﴿وَما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ﴾ أي وما أرسل هؤلاء الذين أجرموا حافظين على المؤمنين يقضون في حقهم بما شاءوا أو يشهدون عليهم بما هووا، وهذا تهكم بالمستهزئين.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَإِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ﴾ قيل نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام، وذلك أنه كان في نفر من المسلمين جاءوا إلى النبي ﷺ، فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا، ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا: رأينا اليوم الأصلع فضحكنا منه، فنزلت الآية قبل أن يصل علي وأصحابه إلى النبي ﷺ: عن مقاتل والكلبي.

• أقول: وقد أورده في الكشاف.

ب. وفيه ذكر الحاكم أبو القاسم الحسكاني في كتاب شواهد التنزيل لقواعد التفصيل بإسناده عن أبي صالح عن ابن عباس قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ منافقو قريش، و﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ علي بن أبي طالب وأصحابه.

ج. وفي تفسير القمي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾، إلى قوله: ﴿فَكِهِينَ﴾ قال: يسخرون.

١٢. ضحك المؤمنين من الكفار يوم القيامة:

المقطع [١٢] من سورة المطففين، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٤-٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٣٩»:

١. ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ المراد باليوم يوم الجزاء، والتعبير عن الذين أجرموا بالكفار رجوع إلى حقيقة صفتهم، قيل: تقديم الجار والمجرور على الفعل أعني ﴿مِنَ الْكُفَّارِ﴾ على ﴿يَضْحَكُونَ﴾ لإفادة قصر القلب، والمعنى فاليوم الذين آمنوا يضحكون من الكفار لا الكفار منهم كما كانوا يفعلون في الدنيا.

٢. ﴿عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ﴾:

أ. الثواب في الأصل مطلق الجزاء وإن غلب استعماله في الخير، وقوله: ﴿عَلَى الْأَرائِكِ﴾ خبر بعد خبر للذين آمنوا و﴿يَنْظُرُونَ﴾ خبر آخر، وقوله: ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ متعلق بقوله: ﴿يَنْظُرُونَ﴾ قائم مقام المفعول.

ب. والمعنى: الذين آمنوا على سرر في الحجال ينظرون إلى جزاء الكفار بأفعالهم التي كانوا يفعلونها في الدنيا من أنواع الأجرام ومنها ضحكهم من المؤمنين وتغامزهم إذا مروا بهم وانقلابهم إلى أهلهم فكهين وقولهم: إن هؤلاء لضالون.

سورة الانشقاق

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٤] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. تشير السورة إلى قيام الساعة، وتذكر أن للإنسان سيراً إلى ربه حتى يلاقيه فيحاسب على ما يقتضيه كتابه، وتؤكد القول في ذلك، والغلبة فيها للإنذار على التبشير.

ب. وسياق آياتها سياق مكي.

١. انشقاق السماء وامتداد الأرض:

المقطع [١] من سورة الانشقاق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١-٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٤١»:

١. ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾:

أ. شرط جزاؤه محذوف يدل عليه قوله: ﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ والتقدير: لاقى الإنسان ربه فحاسبه وجازاه على ما عمل.

ب. وانشقاق السماء وهو تصدعه وانفراجه من أشراط الساعة كمد الأرض وسائر ما ذكر في مواضع من كلامه تعالى من تكوير الشمس واجتماع الشمس والقمر وانتثار الكواكب ونحوها.

٢. ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ﴾ الإذن الاستماع ومنه الأذن لجارحة السمع وهو مجاز عن الانقياد والطاعة، و﴿حُقَّتْ﴾ أي جعلت حقيقة وجديرة بأن تسمع، والمعنى وأطاعت وانقادت لربها وكانت حقيقة وجديرة بأن تستمع وتطيع.

٣. ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ الظاهر أن المراد به اتساع الأرض، وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]

٤. ﴿وَأَلْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ﴾:

أ. أي ألقت الأرض ما في جوفها من الموتى وبالغت في الخلو مما فيها منهم.

ب. وقيل: المراد إلقائها الموتى والكنوز كما قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها﴾ [الزلزال: ٢]

ج. وقيل: المعنى ألقت ما في بطنها وتخلت مما على ظهرها من الجبال والبحار، ولعل أول الوجوه أقربها.

٥. ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ضمائر التأنيث للأرض كما أنها في نظيرتها المتقدمة للسماء، وقد تقدم معنى الآية.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ قال: يوم القيامة.

ب. أخرج ابن أبي حاتم عن علي قال: تنشق السماء من المجرة.

ج. وفي تفسير القمي في قوله: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ﴾ قال: تمد الأرض فتنشق فيخرج الناس منها.

د. أخرج الحاكم بسند جيد عن جابر عن النبي ﷺ قال: تمد الأرض يوم القيامة مد الأديم، ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه.

٢. كدح الإنسان إلى ربه ويوم اللقاء:

المقطع [٢] من سورة الانشقاق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَى سَعِيرًا إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: ٦ـ١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٤٢»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾:

أ. قال الراغب: (الكدح السعي والعناء)، ففيه معنى السير.

ب. وقيل: الكدح جهد النفس في العمل حتى يؤثر فيها)، وعلى هذا فهو مضمن معنى السير بدليل تعديه بإلى ففي الكدح معنى السير على أي حال.

٢. ﴿فَمُلاقِيهِ﴾ عطف على ﴿كادِحٌ﴾ وقد بين به أن غاية هذا السير والسعي والعناء هو الله سبحانه بما أن له الربوبية أي إن الإنسان بما أنه عبد مربوب ومملوك مدبر ساع إلى الله سبحانه بما أنه ربه ومالكه المدبر لأمره فإن العبد لا يملك لنفسه إرادة ولا عملا فعليه أن يريد ولا يعمل إلا ما أراده ربه ومولاه

وأمره به فهو مسئول عن إرادته وعمله.

٣. ومن هنا يظهر:

أ. أولا: أن قوله: ﴿إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ﴾ يتضمن حجة على المعاد لما عرفت أن الربوبية لا تتم إلا مع عبودية ولا تتم العبودية إلا مع مسئولية ولا تتم مسئولية إلا برجوع وحساب على الأعمال ولا يتم حساب إلا بجزاء.

ب. وثانيا: أن المراد بملاقاته انتهاؤه إلى حيث لا حكم إلا حكمه من غير أن يحجبه عن ربه حاجب.

ج. وثالثا: أن المخاطب في الآية هو الإنسان بما أنه إنسان فالمراد به الجنس وذلك أن الربوبية عامة لكل إنسان.

٤. ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ تفصيل مترتب على ما يلوح إليه قوله: ﴿إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ﴾ أن هناك رجوعا وسؤالا عن الأعمال وحسابا، والمراد بالكتاب صحيفة الأعمال بقرينة ذكر الحساب، وقد تقدم الكلام في معنى إعطاء الكتاب باليمين في سورتي الإسراء والحاقة.

٥. ﴿فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً﴾ الحساب اليسير ما سوهل فيه وخلا عن المناقشة.

٦. ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾:

أ. المراد بالأهل من أعده الله له في الجنة من الحور والغلمان وغيرهم وهذا هو الذي يفيده السياق.

ب. وقيل: المراد به عشيرته المؤمنون ممن يدخل الجنة.

ج. وقيل: المراد فريق المؤمنين وإن لم يكونوا من عشيرته فالمؤمنون إخوة، والوجهان لا يخلوان من بعد.

٧. ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ﴾:

أ. الظرف منصوب بنزع الخافض والتقدير من وراء ظهره، ولعلهم إنما يؤتون كتبهم من وراء ظهورهم لرد وجوههم على أدبارهم كما قال تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلى أَدْبارِها﴾ [النساء: ٤٧]

ب. ولا منافاة بين إيتاء كتابهم من وراء ظهورهم وبين إيتائهم بشمالهم كما وقع في قوله تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥] وسيأتي في البحث الروائي التالي ما ورد في الروايات من معنى إيتاء الكتاب من وراء ظهورهم.

٨. ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً﴾ الثبور كالويل الهلاك ودعاؤهم الثبور قولهم: وا ثبوراه.

٩. ﴿وَيَصْلى سَعِيراً﴾ أي يدخل نارا مؤججة لا يوصف عذابها، أو يقاسي حرها.

١٠. ﴿إِنَّهُ كانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ يسره ما يناله من متاع الدنيا وتنجذب نفسه إلى زينتها وينسيه ذلك أمر الآخرة وقد ذم تعالى فرح الإنسان بما يناله من خير الدنيا وسماه فرحا بغير حق قال تعالى بعد ذكر النار وعذابها: ﴿ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥]

١١. ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ أي لن يرجع والمراد الرجوع إلى ربه للحساب والجزاء، ولا سبب يوجبه عليهم إلا التوغل في الذنوب والآثام الصارفة عن الآخرة الداعية إلى استبعاد البعث.

١٢. ﴿بَلى إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً﴾ رد لظنه أي ليس الأمر كما ظنه بل يحور ويرجع، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً﴾ تعليل للرد المذكور فإن الله سبحانه كان ربه المالك له المدبر لأمره وكان يحيط به علما ويرى ما كان من أعماله وقد كلفه بما كلف ولأعماله جزاء خيرا أو شرا فلا بد أن يرجع إليه ويجزي بما يستحقه بعمله.

١٣. وبذلك يظهر:

أ. أن قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً﴾ من إعطاء الحجة على وجوب المعاد نظير ما تقدم في قوله: ﴿إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ﴾ الآية.

ب. ويظهر أيضا من مجموع هذه الآيات التسع أن إيتاء الكتب ونشر الصحف قبل الحساب كما يدل عليه أيضا قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ [الإسراء: ١٤]

١٤. سؤال وإشكال: ثم الآيات كما ترى تخص إيتاء الكتاب من وراء الظهر بالكفار فيقع الكلام في عصاة المؤمنين من أصحاب الكبائر ممن يدخل النار فيمكث فيها برهة ثم يخرج منها بالشفاعة على ما في الأخبار من طرق الفريقين فهؤلاء لا يؤتون كتابهم من وراء ظهورهم لاختصاص ذلك بالكفار ولا بيمينهم لظهور الآيات في أن أصحاب اليمين يحاسبون حسابا يسيرا ويدخلون الجنة، ولا سبيل إلى القول

بأنهم لا يؤتون كتابا لمكان قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ الآية المفيد للعموم، والجواب:

أ. وقد تخلص بعضهم عن الإشكال بأنهم يؤتون كتابهم باليمين بعد الخروج من النار.

• وفيه أن ظاهر الآيات إن لم يكن صريحها أن دخول النار أو الجنة فرع مترتب على القضاء المترتب على الحساب المترتب على إيتاء الكتب ونشر الصحف فلا معنى لإيتاء الكتاب بعد الخروج من النار.

ب. واحتمل بعضهم أن يؤتوا كتابهم بشمالهم ويكون الإيتاء من وراء الظهر مخصوصا بالكفار كما تفيده الآيات.

• وفيه أن الآيات التي تذكر إيتاء الكتاب بالشمال، وهي التي في سورة الواقعة والحاقة وفي معناها ما في سورة الإسراء أيضا، تخص إيتاء الكتاب بالشمال بالكفار ويظهر من مجموع الآيات أن الذين يؤتون كتابهم بشمالهم هم الذين يؤتونه من وراء ظهورهم.

ج. وقال بعضهم من الممكن أن يؤتوا كتابهم من وراء ظهورهم ويكون قوله: ﴿فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً﴾ من قبيل وصف الكل بصفة بعض أجزائه.

• وفيه أن المقام لا يساعد على هذا التجوز فإن المقام مقام تمييز السعداء من الأشقياء وتشخيص كل بجزائه الخاص به فلا مجوز لإدغام جمع من أهل العذاب في أهل الجنة.

• على أن قوله: ﴿فَسَوْفَ يُحاسَبُ﴾ وعد جميل إلهي ولا معنى لشموله لغير مستحقيه ولو بظاهر من القول.

• نعم يمكن أن يقال: إن اليسر والعسر معنيان إضافيان وحساب العصاة من أهل الإيمان يسير بالإضافة إلى حساب الكفار المخلدين في النار ولو كان عسيرا بالإضافة إلى حساب المتقين.

د. ويمكن أيضا أن يقال إن قسمة أهل الجمع إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال غير حاصرة كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١١] فمدلول الآيات خروج المقربين من الفريقين، ومثلهم المستضعفون كما ربما يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦]

هـ. فمن الجائز أن لا يكون تقسيم أهل الجمع إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال تقسيما حاصرا

لجميعهم بل تخصيصا لأهل الجنة من المتقين وأهل الخلود في النار بالذكر بتوصيفهم بإيتاء الكتاب باليمين وبالشمال لمكان الدعوة إلى الإيمان والتقوى ونظير ذلك ما في سورة المرسلات من ذكر يوم الفصل ثم بيان حال المتقين والمكذبين فحسب وليس ينحصر الناس في القبيلين، ونظيره ما في سورة النبإ والنازعات وعبس والانفطار، والمطففين وغيرها فالغرض فيها ذكر أنموذج من أهل الإيمان والطاعة وأهل الكفر والتكذيب والسكوت عمن سواهم ليتذكر أن السعادة في جانب التقوى والشقاء في جانب التمرد والطغوى.

١٥. أحاديث وآثار:

أ. في الاحتجاج، عن علي عليه السلام في حديث قال: والناس يومئذ على صفات ومنازل، فمنهم من يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا، ومنهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب، لأنهم لم يلبثوا من أمر الدنيا بشيء، وإنما الحساب هناك على من يلبس بها هاهنا، ومنهم من يحاسب على النقير والقطمير، ويصير إلى عذاب السعير.

ب. وفي المعاني، بإسناده عن ابن سنان عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: كل محاسب معذب فقال له قائل: يا رسول الله فأين قول الله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِساباً يَسِيراً﴾ قال: ذلك العرض يعني التصفح.

• أقول: وروي في الدر المنثور، عن البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن عائشة: مثله.

ج. وفي تفسير القمي، وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ فهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسود بن هلال المخزومي، وهو من بني مخزوم، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ﴾ فهو أخوه الأسود بن عبد الأسود المخزومي، فقتله حمزة بن عبد المطلب يوم بدر.

٣. القسم بالشفق والليل والقمر:

المقطع [٣] من سورة الانشقاق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٦-١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٤٥»:

١. ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ الشفق الحمرة ثم الصفرة ثم البياض التي تحدث بالمغرب أول الليل.

٢. ﴿وَاللَّيْلِ وَما وَسَقَ﴾:

أ. أي ضم وجمع ما تفرق وانتشر في النهار من الإنسان والحيوان فإنها تتفرق وتنتشر بالطبع في النهار وترجع إلى مأواها في الليل فتسكن.

ب. وفسر بعضهم (وسق) بمعنى طرد أي طرد الكواكب من الخفاء إلى الظهور.

٣. ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ أي اجتمع وانضم بعض نوره إلى بعض فاكتمل نوره وتبدر.

٤. ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ﴾:

أ. جواب القسم والخطاب للناس والطبق هو الشيء أو الحال الذي يطابق آخر سواء كان أحدهما فوق الآخر أم لا والمراد به كيف كان المرحلة بعد المرحلة يقطعها الإنسان في كدحه إلى ربه من الحياة الدنيا ثم الموت ثم الحياة البرزخية ثم الانتقال إلى الآخرة ثم الحياة الآخرة ثم الحساب والجزاء.

ب. وفي هذا الإقسام، كما ترى، تأكيد لما في قوله: ﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ﴾ الآية وما بعده من نبإ البعث وتوطئة وتمهيد لما في قوله: ﴿فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ من التعجيب والتوبيخ وما في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ﴾ من الإنذار والتبشير.

ج. وفي الآية إشارة إلى أن المراحل التي يقطعها الإنسان في مسيره إلى ربه مترتبة متطابقة.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ﴾ وقيل: معناه شدة بعد شدة، حياة ثم موت ثم بعث ثم جزاء: وروي ذلك مرفوعا.

ب. وعن جوامع الجامع، في الآية عن أبي عبيدة: لتركبن سنن من كان قبلكم من الأولين وأحوالهم: وروي ذلك عن الصادق عليه السلام.

٤. عذاب الكفار وأجر المؤمنين غير الممنون:

المقطع [٤] من سورة الانشقاق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٢٠ـ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٤٦»:

١. ﴿فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ وَإِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ﴾ الاستفهام للتعجيب والتوبيخ ولذا

ناسب الالتفات الذي فيه من الخطاب إلى الغيبة كأنه لما رأى أنهم لا يتذكرون بتذكيره ولا يتعظون بعظته أعرض عنهم إلى النبي ﷺ فخاطبه بقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾

٢. ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾:

أ. ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ يفيد الاستمرار، والتعبير عنهم بالذين كفروا للدلالة على علة التكذيب، والإيعاء كما قيل جعل الشيء في وعاء.

ب. والمعنى: أنهم لم يتركوا الإيمان لقصور في البيان أو لانقطاع من البرهان لكنهم اتبعوا أسلافهم ورؤساءهم فرسخوا في الكفر واستمروا على التكذيب والله يعلم بما جمعوا في صدورهم وأضمروا في قلوبهم من الكفر والشرك.

ج. وقيل: المراد بقوله: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أن لهم وراء التكذيب مضمرات في قلوبهم لا يحيط بها العبارة ولا يعلمها إلا الله، وهو بعيد من السياق.

٣. ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ التعبير عن الإخبار بالعذاب بالتبشير مبني على التهكم، والجملة متفرعة على التكذيب.

٤. ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ استثناء منقطع من ضمير ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ والمراد بكون أجرهم غير ممنون خلوة من قول يثقل على المأجور.

سورة البروج

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٨] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. سورة إنذار وتبشير، فيها وعيد شديد للذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات لإيمانهم بالله، كما كان المشركون من أهل مكة يفعلون ذلك بالذين آمنوا بالنبي ﷺ فيعذبونهم ليرجعوا إلى شركهم السابق، فمنهم من كان يصبر ولا يرجع بلغ الأمر ما بلغ، ومنهم من رجع وارتد وهم ضعفاء الإيمان، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ﴾ [الحج: ١١]

ب. وقد قدم سبحانه على ذلك الإشارة إلى قصة أصحاب الأخدود، وفيه تحريض المؤمنين على الصبر في جنب الله تعالى.

ج. وأتبعها بالإشارة إلى حديث الجنود فرعون وثمود، وفيه تطييب لنفس النبي ﷺ بوعد النصر وتهديد للمشركين.

د. والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

١. القسم بالسماء ذات البروج واليوم الموعود:

المقطع [١] من سورة البروج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ١-٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٤٩»:

١. ﴿وَالسَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ﴾:

أ. البروج جمع برج وهو الأمر الظاهر ويغلب استعماله في القصر العالي لظهوره على الناظرين ويسمى البناء المعمول على سور البلد للدفاع برجا وهو المراد في الآية لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧]، فالمراد بالبروج مواضع الكواكب من السماء.

ب. وبذلك يظهر أن تفسير البروج بالبروج الاثني عشر المصطلح عليها في علم النجوم غير سديد

وفي الآية إقسام بالسماء المحفوظة بالبروج، ولا يخفى مناسبته لما سيشار إليه من القصة ثم الوعيد والوعد وسنشير إليه.

٢. ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ عطف على السماء وإقسام باليوم الموعود وهو يوم القيامة الذي وعد الله القضاء فيه بين عباده.

٣. ﴿وَشاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾:

أ. معطوفان على السماء والجميع قسم بعد قسم على ما أريد بيانه في السورة وهو، كما تقدمت الإشارة إليه، الوعيد الشديد لمن يفتن المؤمنين والمؤمنات لإيمانهم والوعد الجميل لمن آمن وعمل صالحا.

ب. فكأنه قيل: أقسم بالسماء ذات البروج التي يدفع الله بها عنها الشياطين أن الله يدفع عن إيمان المؤمنين كيد الشياطين وأوليائهم من الكافرين، وأقسم باليوم الموعود الذي يجزي فيه الناس بأعمالهم، وأقسم بشاهد يشهد ويعاين أعمال أولئك الكفار وما يفعلونه بالمؤمنين لإيمانهم بالله وأقسم بمشهود سيشهده الكل ويعاينونه إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، إلى آخر الآيتين.

ج. ومن هنا يظهر أن الشهادة في ﴿شاهِدٍ﴾ و﴿مَشْهُودٍ﴾ بمعنى واحد وهو المعاينة بالحضور، على أنها لو كانت بمعنى تأدية الشهادة لكان حق التعبير (ومشهود عليه) لأنها بهذا المعنى إنما تتعدى بعلى.

د. وعلى هذا يقبل ﴿شاهِدٍ﴾ الانطباق على النبي ﷺ لشهادته أعمال أمته ثم يشهد عليها يوم القيامة، ويقبل ﴿مَشْهُودٍ﴾ الانطباق على تعذيب الكفار لهؤلاء المؤمنين وما فعلوا بهم من الفتنة وإن شئت فقل: على جزائه وإن شئت فقل على ما يقع يوم القيامة من العقاب والثواب لهؤلاء الظالمين والمظلومين، وتنكير ﴿مَشْهُودٍ﴾ و﴿وَشاهِدٍ﴾ على أي حال للتفخيم، ولهم في تفسير شاهد ومشهود أقاويل كثيرة أنهاها بعضهم إلى ثلاثين كقول بعضهم إن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة، والقول بأن الشاهد يوم النحر والمشهود يوم عرفة، والقول بأن الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم القيامة، والقول بأن الشاهد الملك يشهد على بني آدم والمشهود يوم القيامة، والقول بأن الشاهد الذين يشهدون على الناس والمشهود الذين يشهد عليهم.

هـ. والقول بأن الشاهد هذه الأمة والمشهود سائر الأمم، والقول بأن الشاهد أعضاء بني آدم والمشهود أنفسهم والقول بأن الشاهد الحجر الأسود والمشهود الحاج والقول بأن الشاهد الأيام والليالي

والمشهود بنو آدم، والقول بأن الشاهد الأنبياء والمشهود محمد ﷺ، والقول بأن الشاهد هو الله والمشهود لا إله إلا الله، والقول بأن الشاهد الخلق والمشهود الحق، والقول بأن الشاهد هو الله والمشهود يوم القيامة، والقول بأن الشاهد آدم وذريته والمشهود يوم القيامة، والقول بأن الشاهد يوم التروية والمشهود يوم عرفة، والقول بأنها يوم الإثنين ويوم الجمعة، والقول بأن الشاهد: المقربون والمشهود عليون، والقول بأن الشاهد هو الطفل الذي قال لأمه في قصة الأخدود: اصبري فإنك على الحق والمشهود الواقعة، والقول بأن الشاهد الملائكة المتعاقبون لكتابة الأعمال والمشهود قرآن الفجر إلى غير ذلك من أقوالهم.

و. وأكثر هذه الأقوال، كما ترى، مبني على أخذ الشهادة بمعنى أداء ما حمل من الشهادة وبعضها على تفريق بين الشاهد والمشهود في معنى الشهادة وقد عرفت ضعفه، وأن الأنسب للسياق أخذها بمعنى المعاينة وإن استلزم الشهادة بمعنى الأداء يوم القيامة، وأن الشاهد يقبل الانطباق على النبي ﷺ.

ز. كيف لا؟ وقد سماه الله تعالى شاهدا إذ قال: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وسماه شهيدا إذ قال: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾ [الحج: ٧٨]، وقد عرفت معنى شهادة الأعمال من شهدائها فيما مر.

ح. ثم إن جواب القسم محذوف يدل عليه قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ﴾ إلى تمام آيتين، ويشعر به أيضا قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ﴾ وهو وعيد الفاتنين ووعد المؤمنين الصالحين وأن الله يوفقهم على الصبر ويؤيدهم على حفظ إيمانهم من كيد الكائدين أن أخلصوا كما فعل بالمؤمنين في قصة الأخدود.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ سئل عن ﴿السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ﴾ فقال: الكواكب، وسئل عن ﴿الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً﴾ فقال: الكواكب، قيل: فـ ﴿بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ فقال: قصور.

ب. أخرج عبد بن حميد والترمذي وابن أبي الدنيا في الأصول وابن جرير وابن المنذر وابن حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: اليوم الموعود يوم القيامة، واليوم المشهود يوم عرفة، والشاهد يوم الجمعة، الحديث.

• أقول: وروي مثله بطرق أخرى عن أبي مالك وسعيد بن المسيب وجبير بن مطعم عنه ﷺ، ولفظ الأخير: الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة.

• وروي هذا اللفظ عن عبد الرزاق والفاريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علي بن أبي طالب.

ج. أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن علي قال: اليوم الموعود يوم القيامة، والشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم النحر.

د. وفي المجمع: روي: أن رجلا دخل مسجد رسول الله ﷺ، فإذا رجل يحدث عن رسول الله ﷺ، قال: فسألته عن الشاهد والمشهود فقال: نعم الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة، فجزته إلى آخر يحدث عن رسول الله ﷺ، فسألته عن ذلك فقال: أما الشاهد فيوم الجمعة وأما المشهود فيوم النحر، فجزتهما إلى غلام كان وجهه الدينار، وهو يحدث عن رسول الله ﷺ، فقلت: أخبرني عن شاهد ومشهود فقال: نعم أما الشاهد فمحمد وأما المشهود فيوم القيامة، أما سمعت الله سبحانه يقول: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ وقال: ﴿ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾، فسألت عن الأول فقالوا: ابن عباس، وسألت عن الثاني فقالوا: ابن عمرو، وسألت عن الثالث فقالوا: الحسن بن علي.

• أقول: والحديث مروي بطرق مختلفة وألفاظ متقاربة وقد تقدم في تفسير الآية أن ما ذكره عليه السلام أظهر بالنظر إلى سياق الآيات، وإن كان لفظ الشاهد والمشهود لا يأبى الانطباق على غيره أيضا بوجه.

٢. قصة أصحاب الأخدود:

المقطع [٢] من سورة البروج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج: ٤-٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٥١»:

١. ﴿قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ﴾:

أ. إشارة إلى قصة الأخدود لتكون توطئة وتمهيدا لما سيجيء من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا﴾ وليس جوابا للقسم البتة.

ب. والأخدود الشق العظيم في الأرض، وأصحاب الأخدود هم الجبابرة الذين خدوا أخدودا وأضرموا فيها النار وأمروا المؤمنين بدخولها فأحرقوهم عن آخرهم نقما منهم لإيمانهم فقوله: ﴿قُتِلَ﴾ دعاء عليهم والمراد بالقتل اللعن والطرد.

ج. وقيل: المراد بأصحاب الأخدود المؤمنون والمؤمنات الذين أحرقوا فيه، وقوله: ﴿قُتِلَ﴾ إخبار عن قتلهم بالإحراق وليس من الدعاء في شيء، ويضعفه ظهور رجوع الضمائر في قوله: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْها﴾ و﴿هُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ﴾ و﴿ما نَقَمُوا﴾ إلى أصحاب الأخدود، والمراد بها وخاصة بالثاني والثالث الجبابرة الناقمون دون المؤمنين المعذبين.

٢. ﴿النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ﴾ بدل من الأخدود، والوقود ما يشعل به النار من حطب وغيره، وفي توصيف النار بذات الوقود إشارة إلى عظمة أمر هذه النار وشدة اشتعالها وأجيجها.

٣. ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ﴾ أي في حال أولئك الجبابرة قاعدون في أطراف النار المشرفة عليها.

٤. ﴿وَهُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أي حضور ينظرون ويشاهدون إحراقهم واحتراقهم.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ﴾ قال: كان سببه أن الذي هيج الحبشة، على غزوة اليمن ذو نواس، وهو آخر من ملك من حمير، تهود واجتمعت معه حمير على اليهودية، وسمى نفسه يوسف وأقام على ذلك حينا من الدهر، ثم أخبر أن بنجران بقايا قوم على دين النصرانية، وكانوا على دين عيسى وحكم الإنجيل، ورأس ذلك الدين عبد الله بن بريامن، فحمله أهل دينه على أن يسير إليهم، ويحملهم على اليهودية ويدخلهم فيها، فسار حتى قدم نجران، فجمع من كان بها على دين النصرانية، ثم عرض عليهم دين اليهودية والدخول فيها، فأبوا عليه فجادلهم وعرض عليهم، وحرص الحرص كله فأبوا عليه، وامتنعوا من اليهودية والدخول فيها واختاروا القتل، فاتخذ لهم أخدودا وجمع فيه الحطب، وأشعل فيه النار فمنهم من أحرق بالنار، ومنهم من قتل بالسيف ومثل بهم كل مثلة، فبلغ عدد من قتل وأحرق بالنار عشرين ألفا، وأفلت منهم رجل يدعى دوش ذو ثعلبان على فرس له ركضة، واتبعوه حتى أعجزهم في الرمل، ورجع ذو نواس إلى صنيعه في جنوده فقال الله: ﴿قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ﴾، إلى قوله: ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾

ب. وفي المجمع: روى سعيد بن جبير قال: لما انهزم أهل إسفندهان قال عمر بن الخطاب: ما هم يهود ولا نصارى ولا لهم كتاب وكانوا مجوسا، فقال علي بن أبي طالب: بلى قد كان لهم كتاب رفع، وذلك أن ملكا لهم سكر فوقع على ابنته، أو قال: على أخته، فلما أفاق قال لها: كيف المخرج مما وقعت فيه؟ قالت: تجمع أهل مملكتك، وتخبرهم أنك ترى نكاح البنات وتأمرهم أن يحلوه، فجمعهم فأخبرهم فأبوا أن يتابعوه، فخد لهم أخدودا في الأرض، وأوقد فيه النيران وعرضهم عليها، فمن أبى قبول ذلك قذفه في النار، ومن أجاب خلى سبيله.

• أقول: وروي هذا المعنى في الدر المنثور، عن عبد بن حميد عنه عليه السلام.

ج. وعن تفسير العياشي، بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: أرسل علي عليه السلام إلى أسقف نجران يسأله عن أصحاب الأخدود، فأخبره بشيء فقال عليه السلام: ليس كما ذكرت، ولكن سأخبرك عنهم: إن الله بعث رجلا حبشيا نبيا وهم حبشية، فكذبوه فقاتلهم فقتلوا أصحابه فأسروه وأسروا أصحابه، ثم بنوا له حيرا ثم ملئوه نارا ثم جمعوا الناس، فقالوا: من كان على ديننا وأمرنا فليعتزل، ومن كان على دين هؤلاء فليرم نفسه في النار، فجعل أصحابه يتهافتون في النار، فجاءت امرأة معها صبي لها ابن شهر، فلما هجمت هابت ورقت على ابنها فنادى الصبي: لا تهابي وارميني ونفسك في النار، فإن هذا والله في الله قليل، فرمت بنفسها في النار وصبيها، وكان ممن تكلم في المهد.

• أقول: وروي هذا المعنى في الدر المنثور، عن ابن مردويه عن عبد الله بن نجي عنه عليه السلام، وروي أيضا عن ابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن نجي عنه عليه السلام قال: كان نبي أصحاب الأخدود حبشيا.

د. وروي أيضا عن ابن أبي حاتم وابن المنذر من طريق الحسن عنه عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ قال: هم الحبشة.

• ولا يبعد أن يستفاد أن حديث أصحاب الأخدود وقائع متعددة وقعت بالحبشة واليمن والعجم والإشارة في الآية إلى جميعها وهناك روايات تقص القصة مع السكوت عن محل وقوعها.

٣. سبب حرق أصحاب الأخدود هو إيمانهم بالله:

المقطع [٣] من سورة البروج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ

الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٨ـ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٥١»:

١. ﴿وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ﴾ النقم بفتحتين الكراهة الشديدة أي ما كرهوا من أولئك المؤمنين إلا إيمانهم بالله فأحرقوهم لأجل إيمانهم.

٢. ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾:

أ. أوصاف جارية على اسم الجلالة تشير إلى الحجة على أن أولئك المؤمنين كانوا على الحق في إيمانهم مظلومين فيما فعل بهم لا يخفى حالهم على الله وسيجزيهم خير الجزاء، وعلى أن أولئك الجبابرة كانوا على الباطل مجترين على الله ظالمين فيما فعلوا وسيذوقون وبال أمرهم وذلك أنه تعالى هو الله العزيز الحميد أي الغالب غير المغلوب على الإطلاق والجميل في فعله على الإطلاق فله وحده كل الجلال والجمال فمن الواجب أن يخضع له وأن لا يتعرض لجانبه، وإذ كان له ملك السماوات والأرض فهو المليك على الإطلاق له الأمر وله الحكم فهو رب العالمين فمن الواجب أن يتخذ إلها معبودا ولا يشرك به أحد فالمؤمنون به على الحق والكافرون في ضلال.

ب. ثم إن الله، وهو الموجد لكل شيء، على كل شيء شهيد لا يخفى عليه شيء من خلقه ولا عمل من أعمال خلقه ولا يحتجب عنه إحسان محسن ولا إساءة مسيء فسيجزي كلا بما عمل.

ج. وبالجملة إذ كان تعالى هو الله المتصف بهذه الصفات الكريمة كان على هؤلاء المؤمنين أن يؤمنوا به ولم يكن لأولئك الجبابرة أن يتعرضوا لحالهم ولا أن يمسوهم بسوء.

د. وقال بعض المفسرين في توجيه إجراء الصفات في الآية: إن القوم إن كانوا مشركين فالذي كانوا ينقمونه من المؤمنين وينكرونه عليهم لم يكن هو الإيمان بالله تعالى بل نفي ما سواه من معبوداتهم الباطلة، وإن كانوا معطلة فالمنكر عندهم ليس إلا إثبات معبود غير معهود لهم لكن لما كان مآل الأمرين إنكار المعبود الحق الموصوف بصفات الجلال والإكرام عبر بها عبر بإجراء الصفات عليه تعالى.

- وفيه غفلة عن أن المشركين وهم الوثنية ما كانوا ينسبون إلى الله تعالى إلا الصنع والإيجاد.
- وأما الربوبية التي تستتبع التدبير والألوهية التي تستوجب العبادة فكانوا يقصرونها في أربابهم وآلهتهم فيعبدونها دون الله سبحانه، فليس له تعالى عندهم إلا أنه رب الأرباب وإله الآلهة لا غير.

٤. عذاب الذين فتنوا المؤمنين ولم يتوبوا:

المقطع [٤] من سورة البروج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٥٢»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ﴾:

أ. الفتنة المحنة والتعذيب، و﴿الَّذِينَ فَتَنُوا﴾ عام يشمل أصحاب الأخدود ومشركي قريش الذين كانوا يفتنون من آمن بالنبي ﷺ من المؤمنين والمؤمنات بأنواع من العذاب ليرجعوا عن دينهم.

ب. قال في المجمع: (يسأل فيقال: كيف فصل بين عذاب جهنم وعذاب الحريق وهما واحد؟ أجيب عن ذلك بأن المراد لهم أنواع العذاب في جهنم سوى الإحراق مثل الزقوم والغسلين والمقامع ولهم مع ذلك الإحراق بالنار)

٥. الفوز العظيم للمؤمنين العاملين الصالحات:

المقطع [٥] من سورة البروج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٥٢»:

١. وعد جميل للمؤمنين يطيب به نفوسهم كما أن ما قبله وعيد شديد للكفار الفاتنين المعذبين.

٦. بطش الله شديد وهو الغفور الودود:

المقطع [٦] من سورة البروج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٢-١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٥٣»:

١. ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾:

أ. الآية إلى تمام سبع آيات تحقيق وتأكيد لما تقدم من الوعيد والوعد، والبطش، كما ذكره الراغب، تناول الشيء بصولة.

ب. وفي إضافة البطش إلى الرب وإضافة الرب إلى الكاف تطييب لنفس النبي ﷺ بالتأييد والنصر،

وإشارة إلى أن لجبابرة أمته نصيبا من الوعيد المتقدم.

٢. ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾:

أ. المقابلة بين المبدئ والمعيد يعطي أن المراد بالإبداء البدء، والافتتاح بالشيء، قالوا: ولم يسمع من العرب الإبداء لكن القراءة ذلك وفي بعض القراءات الشاذة يبدأ بفتح الياء والدال.

ب. وعلى أي حال فالآية تعليل لشدة بطشه تعالى وذلك أنه تعالى مبدئ يوجد ما يريده من شيء إيجادا ابتدائيا من غير أن يستمد على ذلك من شيء غير نفسه، وهو تعالى يعيد كل ما كان إلى ما كان وكل حال فاتته إلى ما كانت عليه قبل الفوت فهو تعالى لا يمتنع عليه ما أراد ولا يفوته فائت زائل وإذ كان كذلك فهو القادر على أن يحمل على العبد المتعدي حده، من العذاب ما هو فوق حده ووراء طاقته ويحفظه على ما هو عليه ليذوق العذاب قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها﴾ [فاطر: ٣٦]

ج. وهو القادر على أن يعيد ما أفسده العذاب إلى حالته الأولى ليذوق المجرم بذلك العذاب من غير انقطاع قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ناراً كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ﴾ [النساء: ٥٦]

د. وبهذا البيان يتضح:

- أولا: أن سياق قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ﴾ يفيد القصر أي إن إبداع الوجود وإعادته لله سبحانه وحده إذ الصنع والإيجاد ينتهي إليه تعالى وحده.
- وثانيا: أن حدود الأشياء إليه تعالى ولو شاء أن لا يحد لم يحدا وبدل حدا من آخر فهو الذي حد العذاب والفتنة في الدنيا بالموت والزوال ولو لم يشأ لم يحد كما في عذاب الآخرة.
- وثالثا: أن المراد من شدة البطش، وهو الأخذ بعنف، أن لا دافع لأخذه ولا راد لحكمه كيفما حكم إلا أن يحول بين حكمه ومتعلقه حكم آخر منه يقيد الأول.

٣. ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ أي كثير المغفرة والمودة ناظر إلى وعد المؤمنين كما أن قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ ناظر إلى وعيد الكافرين.

٤. ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ﴾:

أ. العرش عرش الملك، وذو العرش كناية عن الملك أي هو ملك له أن يتصرف في مملكته كيفما تصرف ويحكم بما شاء والمجيد صفة من المجد وهو العظمة المعنوية وهي كمال الذات والصفات، وقوله: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ أي لا يصرفه عما أراده صارف لا من داخل لضجر وكسل وملل وتغير إرادة وغيرها ولا من خارج لمانع يحول بينه وبين ما أراد.

ب. فله تعالى أن يوعد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات بالنار ويعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالجنة لأنه ذو العرش المجيد ولن يخلف وعده لأنه فعال لما يريد.

٧. جنود فرعون وثمود وإحاطة الله بهم:

المقطع [٧] من سورة البروج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ١٧-٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٥٤»:

١. ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ تقرير لما تقدم من شدة بطشه تعالى وكونه ملكا مجيدا فعالا لما يريد، وفيه تسلية للنبي ﷺ وتطييب لنفسه الشريفة بالإشارة إلى حديثهم، ومعنى الآيتين ظاهر.

٢. ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾:

أ. لا يبعد أن يستفاد من السياق كون المراد بالذين كفروا هم قوم النبي ﷺ.

ب. وفي الآية إضراب عما تقدم من الموعظة والحجة من حيث الأثر، والمعنى لا ينبغي أن يرجى منهم الإيمان بهذه الآيات البينات فإن الذين كفروا مصرون على تكذيبهم لا ينتفعون بموعظة أو حجة.

ج. ومن هنا ظهر أن المراد بكون الذين كفروا في تكذيب أي بظرفية التكذيب لهم إصرارهم عليه.

٣. ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾:

أ. وراء الشيء الجهات الخارجة منه المحيطة به، إشارة إلى أنهم غير معجزين لله سبحانه فهو محيط بهم قادر عليهم من كل جهة، وفيه أيضا تطييب لنفس النبي ﷺ.

ب. وعن بعضهم أن في قوله: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ﴾ تلويحا إلى أنهم اتخذوا الله وراءهم ظهريا، وهو مبني على أخذ وراء بمعنى خلف.

٨. القرآن المجيد في اللوح المحفوظ:

المقطع [٨] من سورة البروج، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٥٤»:

١. ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ إضراب عن إصرارهم على تكذيب القرآن، والمعنى ليس الأمر كما يدعون بل القرآن كتاب مقرو عظيم في معناه غزير في معارفه في لوح محفوظ عن الكذب والباطل مصون من مس الشياطين.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ قال: اللوح المحفوظ له طرفان طرف على يمين العرش، على جبين إسرافيل، فإذا تكلم الرب جل ذكره بالوحي، ضرب اللوح جبين إسرافيل فنظر في اللوح، فيوحي بما في اللوح إلى جبرئيل.

ب. أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: خلق الله لوحا من درة بيضاء دفتاه من زبرجدة خضراء، كتابه من نور يلحظ إليه في كل يوم ثلاث مائة وستين لحظة، يحيي ويميت ويخلق ويرزق ويعز ويذل ويفعل ما يشاء.

• أقول: والروايات في صفة اللوح كثيرة مختلفة وهي على نوع من التمثيل.

سورة الطارق

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٥] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. في السورة إنذار بالمعاد، وتستدل عليه بإطلاق القدرة وتؤكد القول في ذلك، وفيها إشارة إلى حقيقة اليوم، وتختتم بوعيد الكفار.

ب. والسورة ذات سياق مكي.

١. القسم بالسماء والنجم وحفظ الله للنفس:

المقطع [١] من سورة الطارق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ١ـ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٥٨»:

١. ﴿وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ وَما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾:

أ. الطرق في الأصل، على ما قيل، هو الضرب بشدة يسمع له صوت ومنه المطرقة والطريق لأن السابلة تطرقها بأقدامها ثم شاع استعماله في سلوك الطريق ثم اختص بالإتيان ليلا لأن الآتي بالليل في الغالب يجد الأبواب مغلقة فيطرقها ويدقها ثم شاع الطارق في كل ما يظهر ليلا، والمراد بالطارق في الآية النجم الذي يطلع بالليل.

ب. والثقب في الأصل بمعنى الخرق ثم صار بمعنى النير المضيء لأنه يثقب الظلام بنوره ويأتي بمعنى العلو والارتفاع ومنه ثقب الطائر أي ارتفع وعلا كأنه يثقب الجو بطيرانه.

ج. فقوله: ﴿وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ﴾ إقسام بالسماء وبالنجم الطالع ليلا، وقوله: ﴿وَما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ﴾ تفخيم لشأن المقسم به وهو الطارق، وقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ بيان للطارق والجملة في معنى جواب استفهام مقدر كأنه لما قيل: وما أدراك ما الطارق؟ سئل فقيل: فما هو الطارق؟ فأجيب.

د. وقيل: النجم الثاقب.

٢. ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ﴾:

أ. جواب للقسم ولما بمعنى إلا والمعنى ما من نفس إلا عليها حافظ، والمراد من قيام الحافظ على

حفظها كتابة أعمالها الحسنة والسيئة على ما صدرت منها ليحاسب عليها يوم القيامة ويجزي بها فالحافظ هو الملك والمحفوظ العمل كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ كِراماً كاتِبِينَ يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٢]

ب. ولا يبعد أن يكون المراد من حفظ النفس حفظ ذاتها وأعمالها، والمراد بالحافظ جنسه فتفيد أن النفوس محفوظة لا تبطل بالموت ولا تفسد حتى إذا أحيا الله الأبدان أرجع النفوس إليها فكان الإنسان هو الإنسان الدنيوي بعينه وشخصه ثم يجزيه بما يقتضيه أعماله المحفوظة عليه من خير أو شر.

ج. ويؤيد ذلك كثير من الآيات الدالة على حفظ الأشياء كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ الم [السجدة: ١١]، وقوله: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ [الزمر: ٤٢]

د. ولا ينافي هذا الوجه ظاهر آية الانفطار السابقة من أن حفظ الملائكة هو الكتابة فإن حفظ نفس الإنسان أيضا من الكتابة على ما يستفاد من قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] وقد تقدمت الإشارة إليه.

هـ. ويندفع بهذا الوجه الاعتراض على ما استدل به على المعاد من إطلاق القدرة كما سيجيء، ومحصله أن إطلاق القدرة إنما ينفع فيما كان ممكنا لكن إعادة الإنسان بعينه محال فإن الإنسان المخلوق ثانيا مثل الإنسان الدنيوي المخلوق أولا لا شخصه الذي خلق أولا ومثل الشيء غير الشيء لا عينه.

• وجه الاندفاع أن شخصية الشخص من الإنسان بنفسه لا ببدنه والنفس محفوظة فإذا خلق البدن وتعلقت به النفس كان هو الإنسان الدنيوي بشخصه وإن كان البدن بالقياس إلى البدن مع الغض عن النفس، مثلا لا عينا.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ﴾ قال: الملائكة.

٢. خلق الإنسان من ماء دافق:

المقطع [٢] من سورة الطارق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥ـ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٥٩»:

١. ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ﴾:

أ. أي ما هو مبدأ خلقه؟ وما هو الذي صيره الله إنسانا؟

ب. والجملة متفرعة على الآية السابقة وما تدل عليه بفحواها بحسب السياق ومحصل المعنى وإذ كانت كل نفس محفوظة بذاتها وعملها من غير أن تفنى أو ينسى عملها فليذعن الإنسان أن سيرجع إلى ربه ويجزي بما عمل ولا يستبعد ذلك ولينظر لتحصيل هذا الإذعان إلى مبدإ خلقه ويتذكر أنه خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب، فالذي بدأ خلقه من ماء هذه صفته يقدر على رجعه وإحيائه بعد الموت.

ج. وفي الإتيان بقوله: ﴿خُلِقَ﴾ مبنيا للمفعول وترك ذكر الفاعل وهو الله سبحانه إيماء إلى ظهور أمره، ونظيره قوله: ﴿خُلِقَ مِنْ ماءٍ﴾

٢. ﴿خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ﴾ الدفق تصبب الماء وسيلانه بدفع وسرعة والماء الدافق هو المني والجملة جواب عن استفهام مقدر يهدي إليه قوله: ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾

٣. ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائِبِ﴾:

أ. الصلب الظهر، والترائب جمع تريبة وهي عظم الصدر.

ب. وقد اختلفت كلماتهم في الآية وما قبلها اختلافا عجيبا، والظاهر أن المراد بقوله: ﴿بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائِبِ﴾ البعض المحصور من البدن بين جداري عظام الظهر وعظام الصدر.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ﴾ قال: النطفة التي تخرج بقوة.

ب. وفيه في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائِبِ﴾ قال: الصلب الرجل والترائب المرأة، وهو صدرها.

• أقول: الرواية على إضمارها وإرسالها لا تخلو من شيء.

٣. قدرة الله على إعادة الإنسان واختبار السرائر:

المقطع [٣] من سورة الطارق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٨-١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٦٠»:

١. ﴿إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ﴾:

أ. الرجع الإعادة، وضمير ﴿إِنَّهُ﴾ له تعالى واكتفى بالإضمار مع أن المقام مقام الإظهار لظهوره نظير قوله: ﴿خُلِقَ﴾ مبنيا للمفعول.

ب. والمعنى أن الذي خلق الإنسان من ماء صفته تلك الصفة، على إعادته وإحيائه بعد الموت، وإعادته مثل بدئه، لقادر لأن القدرة على الشيء قدرة على مثله إذ حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد.

٢. ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ﴾:

أ. ظرف للرجع، والسريرة ما أسره الإنسان وأخفاه في نفسه، والبلاء الاختبار والتعرف والتصفح.

ب. فالمعنى يوم يختبر ما أخفاه الإنسان وأسره من العقائد وآثار الأعمال خيرها وشرها فيميز خيرها من شرها ويجزي الإنسان به فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]

٣. ﴿فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا ناصِرٍ﴾ أي لا قدرة له في نفسه يمتنع بها من عذاب الله ولا ناصر له يدفع عنه ذلك أي لا قدرة هناك يدفع عنه الشر لا من نفسه ولا من غيره.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ﴾ قال: يكشف عنها.

ب. وفي المجمع: (روي مرفوعا عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: ضمن الله خلقه أربع خصال: الصلاة، والزكاة، وصوم شهر رمضان، والغسل من الجنابة، وهي السرائر التي قال الله تعالى: يوم تبلى السرائر.

• أقول: ولعله من قبيل ذكر بعض المصاديق كما تؤيده الرواية التالية.

ج. وفيه، عن معاذ بن جبل قال: سألت رسول الله ﷺ: ما هذه السرائر، التي ابتلى الله بها العباد في الآخرة؟ فقال: سرائركم هي أعمالكم من الصلاة والصيام، والزكاة والوضوء والغسل من الجنابة وكل مفروض، لأن الأعمال كلها سرائر خفية فإن شاء الرجل قال: صليت ولم يصل وإن شاء قال: توضيت ولم يتوض، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ﴾

د. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا ناصِرٍ﴾ قال: ما له من قوة يهوي بها على خالقه، ولا ناصر من الله ينصره إن أراد به سوءا.

٤. القسم على أن القرآن قول فصل وليس بالهزل:

المقطع [٤] من سورة الطارق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١١ـ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٦٠»:

١. ﴿وَالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ﴾:

أ. إقسام بعد إقسام لتأكيد أمر القيامة والرجوع إلى الله.

ب. والمراد بكون السماء ذات رجع ما يظهر للحس من سيرها بطلوع الكواكب بعد غروبها وغروبها بعد طلوعها.

ج. وقيل: رجعها أمطارها، والمراد بكون الأرض ذات صدع تصدعها وانشقاقها بالنبات، ومناسبة القسمين لما أقسم عليه من الرجوع بعد الموت والخروج من القبور ظاهرة.

٢. ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَما هُوَ بِالْهَزْلِ﴾:

أ. الفصل إبانة أحد الشيئين من الآخر حتى يكون بينهما فرجة، والتعبير بالفصل، والمراد الفاصل، للمبالغة كزيد عدل والهزل خلاف الجد.

ب. والآيتان جواب القسم، وضمير ﴿إِنَّهُ﴾ للقرآن والمعنى أقسم بكذا وكذا أن القرآن لقول فاصل بين الحق والباطل وليس هو كلاما لا جد فيه فما يحقه حق لا ريب فيه وما يبطله باطل لا ريب فيه فما أخبركم به من البعث والرجوع حق لا ريب فيه.

ج. وقيل: الضمير لما تقدم من خبر الرجوع والمعاد، والوجه السابق أوجه.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ﴾ قال: ذات المطر ﴿وَالْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ﴾ أي ذات النبات.

ب. وفي المجمع: (﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ يعني أن القرآن يفصل بين الحق والباطل، بالبيان عن كل واحد منهما، وروي ذلك عن الصادق عليه السلام.

ج. أخرج ابن أبي شيبة والدارمي والترمذي ومحمد بن نصر وابن الأنباري في المصاحف عن الحارث الأعور قال: دخلت المسجد فإذا الناس قد وقعوا في الأحاديث، فأتيت عليا فأخبرته فقال: أوقد فعلوها؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنها ستكون فتنة، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله، قال: كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، من ابتغى الهوى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا تلتبس منه الألسن، ولا يخلق من الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم ينته الجن إذ سمعته حتى قالوا، ﴿إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعي إليه هدي إلى صراط مستقيم.

• أقول: وروي ما يقرب منه عن معاذ بن جبل عنه ﷺ، ورواه مختصرا عن ابن مردويه عن علي عليه السلام.

٥. كيد الكفار وكيد الله لهم:

المقطع [٥] من سورة الطارق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٦١»:

١. ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً﴾ أي الكفار يحتالون بكفرهم وإنكارهم المعاد احتيالا يريدون به إطفاء نور الله وإبطال دعوتك، واحتال عليهم بعين أعمالهم بالاستدراج والإملاء والإضلال بالطبع على قلوبهم وجعل الغشاوة على سمعهم وأبصارهم احتيالا أسوقهم به إلى عذاب يوم القيامة.

٢. ﴿فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾:

أ. التمهيل والإمهال بمعنى واحد غير أن باب التفعيل يفيد التدريج والإفعال يفيد الدفعة، والرويد القليل.

ب. والمعنى: إذا كان منهم كيد ومني كيد عليهم بعين ما يكيدون به والله غالب على أمره، فانتظر بهم ولا تعاجلهم انتظر بهم قليلا فسيأتيهم ما أوعدهم به فكل ما هو آت قريب.

ج. وفي التعبير أولا بمهل الظاهر في التدريج وثانيا مع التقييد برويدا بأمهل الظاهر في الدفعة لطف ظاهر.

سورة الأعلى

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٨] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. أمر بتوحيده تعالى على ما يليق بساحته المقدسة، وتنزيه ذاته المتعالية من أن يذكر مع اسمه اسم غيره، أو يسند إلى غيره ما يجب أن يسند إليه كالخلق والتدبير والرزق.

ب. ووعدله ﷺ بتأييده بالعلم والحفظ، وتمكينه من الطريقة التي هي أسهل وأيسر للتبليغ وأنسب للدعوة.

ج. وسياق الآيات في صدر السورة سياق مكي، وأما ذيلها أعني قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾، فقد ورد من طرق أئمة أهل البيت عليه السلام وكذا من طريق أهل السنة أن المراد به زكاة الفطرة وصلاة العيد، ومن المعلوم أن الصوم وما يتبعه من زكاة الفطرة وصلاة العيد إنما شرعت بالمدينة بعد الهجرة، فتكون آيات الذيل نازلة بالمدينة.

د. فالسورة صدرها مكي وذيلها مدني، ولا ينافي ذلك ما جاء في الآثار أن السورة مكية، فإنه لا يأبى الحمل على صدر السورة.

١. تسبيح اسم الله الأعلى الذي خلق فسوى:

المقطع [١] من سورة الأعلى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ١-٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٦٤»:

١. ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾:

أ. أمر بتنزيه اسمه تعالى وتقديسه، وإذ علق التنزيه على الاسم، وظاهر اللفظ الدال على المسمى، والاسم إنما يقع في القول فتنزيهه أن لا يذكر معه ما هو تعالى منزه عنه كذكر الآلهة والشركاء والشفعاء ونسبة الربوبية إليهم وكذكر بعض ما يختص به تعالى كالخلق والإيجاد والرزق والإحياء والإماتة ونحوها ونسبته إلى غيره تعالى أو كذكر بعض ما لا يليق بساحة قدسه تعالى من الأفعال كالعجز والجهل والظلم والغفلة وما يشبهها من صفات النقص والشين ونسبته إليه تعالى.

ب. وبالجملة تنزيه اسمه تعالى أن يجرد القول عن ذكر ما لا يناسب ذكره ذكر اسمه تعالى وهو

تنزيهه تعالى في مرحلة القول الموافق لتنزيهه في مرحلة الفعل.

ج. وهو يلازم التوحيد الكامل بنفي الشرك الجلي كما في قوله: ﴿وَإِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] وقوله: ﴿وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً﴾ [الإسراء: ٤٦]

د. وفي إضافة الاسم إلى الرب والرب إلى ضمير الخطاب تأييد لما قدمناه فإن المعنى سبح اسم ربك الذي اتخذته ربا وأنت تدعو إلى أنه الرب الإله فلا يقعن في كلامك مع ذكر اسمه بالربوبية ذكر من غيره بحيث ينافي تسميه بالربوبية على ما عرف نفسه لك.

هـ. ﴿الْأَعْلَى﴾ وهو الذي يعلو كل عال ويقهر كل شيء صفة ﴿رَبِّكَ﴾ دون الاسم ويعلل بمعناه الحكم أي سبح اسمه لأنه أعلى.

و. وقيل: معنى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قل: سبحان ربي الأعلى كما عن ابن عباس ونسب إليه أيضا أن المعنى صل.

ز. وقيل: المراد بالاسم المسمى والمعنى نزهه تعالى عن كل ما لا يليق بساحة قدسه من الصفات والأفعال.

ح. وقيل: إنه ذكر الاسم والمراد به تعظيم المسمى واستشهد عليه بقول لبيد، إلى الحول ثم اسم السلام عليكما، فالمعنى سبح ربك الأعلى.

ط. وقيل: المراد تنزيه أسمائه تعالى عما لا يليق بأن لا يئول مما ورد منها اسم من غير مقتض، ولا يبقى على ظاهره إذا كان ما وضع له لا يصح له تعالى، ولا يطلقه على غيره تعالى إذا كان مختصا كاسم الجلالة ولا يتلفظ به في محل لا يناسبه كبيت الخلاء، وعلى هذا القياس

ي. وما قدمناه من المعنى أوسع وأشمل وأنسب لسياق قوله الآتي ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى﴾ ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى فَذَكِّرْ﴾ فإن السياق سياق البعث إلى التذكرة والتبليغ فبدأ أولا بإصلاح كلامه ﷺ وتجريده عن كل ما يشعر بجلي الشرك وخفيه بأمره بتنزيه اسم ربه، ووعد ثانيا بإقرائه بحيث لا ينسى شيئا مما أوحي إليه وتسهيل طريقة التبليغ عليه ثم أمر بالتذكير والتبليغ فافهم.

٢. ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾:

أ. خلق الشيء جمع أجزائه، وتسويته جعلها متساوية بحيث يوضع كل في موضعه الذي يليق به ويعطى حقه كوضع كل عضو من أعضاء الإنسان فيما يناسبه من الموضع.

ب. والخلق والتسوية وإن كانا مطلقين لكنهما إنما يشملان ما فيه تركيب أو شائبة تركيب من المخلوقات.

ج. والآية إلى تمام أربع آيات تصف التدبير الإلهي وهي برهان على ربوبيته تعالى المطلقة.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال رسول الله ﷺ: اجعلوها في ركوعكم، ولما نزل ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: اجعلوها في سجودكم.

• أقول: ورواه أيضا في الدر المنثور، عن أحمد وأبي داود وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن عقبة عنه ﷺ.

ب. وفي تفسير القمي: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: قل سبحان ربي الأعلى ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى﴾ قال: قدر الأشياء بالتقدير الأول ثم هدى إليها من يشاء.

• وفيه في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعى﴾ قال: أي النبات، وفي قوله: ﴿غُثاءً أَحْوى﴾ قال: يصير هشيما بعد بلوغه ويسود.

٢. تسبيح اسم الله الذي قدّر فهدى:

المقطع [٢] من سورة الأعلى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٦٥»:

١. ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى﴾ أي جعل الأشياء التي خلقها على مقادير مخصوصة وحدود معينة في ذواتها وصفاتها وأفعالها لا تتعداها وجهزها بما يناسب ما قدر لها فهداها إلى ما قدر فكل يسلك نحو ما قدر له بهداية ربانية تكوينية كالطفل يهتدي إلى ثدي أمه والفرخ إلى زق أمه وأبيه، والذكر إلى الأنثى وذي النفع إلى نفعه وعلى هذا القياس، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، وقال: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس: ٢٠] وقال: ﴿لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها﴾ [البقرة: ١٤٨]

٣. تسبيح اسم الله الذي أخرج المرعى فجعله أحوى:

المقطع [٣] من سورة الأعلى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ [الأعلى: ٤ـ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٦٦»:

١. ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعى﴾ المرعى ما ترعاه الدواب فالله تعالى هو الذي أخرجها أي أنبتها.

٢. ﴿فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى﴾:

أ. الغثاء ما يقذفه السيل على جانب الوادي من الحشيش والنبات، والمراد هنا، كما قيل، اليابس من النبات، والأحوى الأسود.

ب. وإخراج المرعى لتغذي الحيوان ثم جعله غثاء أحوى من مصاديق التدبير الربوبي ودلائله كما أن الخلق والتسوية والتقدير والهداية كذلك.

٤. وعد الله نبيه بإقرائه القرآن وتيسيره له:

المقطع [٤] من سورة الأعلى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ [الأعلى: ٦ـ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٦٦»:

١. ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى إِلَّا ما شاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَما يَخْفى﴾:

أ. قال في المفردات: (والقراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، وليس يقال ذلك لكل جمع لا يقال: قرأت القوم إذا جمعتهم، ويدل على ذلك أنه لا يقال للحرف الواحد إذا تفوه به قراءة)، وقال في المجمع: (والإقراء أخذ القراءة على القارئ بالاستماع لتقويم الزلل، والقارئ التالي)

ب. وليس إقراؤه تعالى نبيه ﷺ القرآن مثل إقراء بعضنا بعضا باستماع المقري لما يقرؤه القارئ وإصلاح ما لا يحسنه أو يغلط فيه فلم يعهد من النبي ﷺ أن يقرأ شيئا من القرآن فلا يحسنه أو يغلط فيه عن نسيان للوحي ثم يقرأ فيصلح بل المراد تمكينه من قراءة القرآن كما أنزل من غير أن يغيره بزيادة أو نقص أو تحريف بسبب النسيان.

ج. فقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى﴾ وعد منه لنبيه ﷺ أن يمكنه من العلم بالقرآن وحفظه على ما أنزل بحيث يرتفع عنه النسيان فيقرؤه كما أنزل وهو الملاك في تبليغ الوحي كما أوحي إليه.

٢. ﴿إِلَّا ما شاءَ اللهُ﴾:

أ. استثناء مفيد لبقاء القدرة الإلهية على إطلاقها وأن هذه العطية وهي الإقراء بحيث لا تنسى لا

ينقطع عنه سبحانه بالإعطاء بحيث لا يقدر بعد على إنسائك بل هو باق على إطلاق قدرته له أن يشاء إنساءك متى شاء وإن كان لا يشاء ذلك فهو نظير الاستثناء الذي في قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] وقد تقدم توضيحه.

ب. وليس المراد بالاستثناء إخراج بعض أفراد النسيان من عموم النفي والمعنى سنقرئك فلا تنسى شيئا إلا ما شاء الله أن تنساه وذلك أن كل إنسان على هذه الحال يحفظ أشياء وينسى أشياء فلا معنى لاختصاصه بالنبي ﷺ بلحن الامتنان مع كونه مشتركا بينه وبين غيره فالوجه ما قدمناه.

ج. والآية بسياقها لا تخلو من تأييد لما قيل: إنه كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي يقرؤه مخافة أن ينساه فكان لا يفرغ جبريل من آخر الوحي حتى يتكلم هو بأوله فلما نزلت هذه الآية لم ينس بعده شيئا.

د. ويقرب من الاعتبار أن تكون هذه الآية أعني قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى﴾ نازلة أولا ثم قوله: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بيانَهُ﴾ [القيامة: ١٩] ثم قوله: ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤]

٣. ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَما يَخْفى﴾:

أ. الجهر كمال ظهور الشيء لحاسة البصر كقوله: ﴿فَقالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، أو لحاسة السمع كقوله: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الأنبياء: ١١٠]، والمراد بالجهر الظاهر للإدراك بقرينة مقابلته لقوله: ﴿وَما يَخْفى﴾ من غير تقييده بسمع أو بصر.

ب. والجملة في مقام التعليل لقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى﴾ والمعنى سنصلح لك بالك في تلقي الوحي وحفظه لأنا نعلم ظاهر الأشياء وباطنها فنعلم ظاهر حالك وباطنها وما أنت عليه من الاهتمام بأمر الوحي والحرص على طاعته فيما أمر به.

ج. وفي قوله: ﴿إِلَّا ما شاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ﴾ التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة والنكتة فيه الإشارة إلى حجة الاستثناء فإفاضة العلم والحفظ للنبي ﷺ إنما لا يسلب القدرة على خلافه ولا يحدها منه تعالى لأنه الله المستجمع لجميع صفات الكمال ومنها القدرة المطلقة ثم جرى الالتفات في قوله: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ﴾ لمثل

النكتة.

٤. ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى﴾:

أ. اليسرى، مؤنث أيسر، وهو وصف قائم مقام موصوفة المحذوف أي الطريقة اليسرى والتيسير التسهيل أي ونجعلك بحيث تتخذ دائما أسهل الطرق للدعوة والتبليغ قولا وفعلا فتهدي قوما وتتم الحجة على آخرين وتصبر على أذاهم.

ب. وكان مقتضى الظاهر أن يقال: ونيسر لك اليسرى كما قال: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٦] وإنما عدل عن ذلك إلى قوله: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى﴾ لأن الكلام في تجهيزه تعالى نفس النبي الشريفة وجعله إياها صالحة لتأدية الرسالة ونشر الدعوة، على ما في نيسر اليسرى من إيهام تحصيل الحاصل.

ج. فالمراد جعله ﷺ صافي الفطرة حقيقا على اختيار الطريقة اليسرى التي هي طريقة الفطرة فالآية في معنى قوله حكاية عن موسى: ﴿حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٥]

٥. أحاديث وآثار: أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يستذكر القرآن مخافة أن ينساه، فقيل له: كفيناك ذلك ونزلت: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى﴾

٥. التذكير ينفع من يخشى:

المقطع [٥] من سورة الأعلى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى﴾ [الأعلى: ٩-١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٦٨»:

١. ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى﴾:

أ. تفريع على ما تقدم من أمره ﷺ بتنزيه اسم ربه ووعده إقراء الوحي بحيث لا ينسى وتيسيره لليسرى وهي الشرائط الضرورية التي يتوقف عليها نجاح الدعوة الدينية.

ب. والمعنى إذ تم لك الأمر بامتثال ما أمرناك به وإقرائك فلا تنسى وتيسيرك لليسرى فذكر إن نفعت الذكرى.

ج. وقد اشترط في الأمر بالتذكرة أن تكون نافعة وهو شرط على حقيقته فإنها إذا لم تنفع كانت لغوا وهو تعالى يجل عن أن يأمر باللغو فالتذكرة لمن يخشى لأول مرة تفيد ميلا من نفسه إلى الحق وهو نفعها

وكذا التذكرة بعد التذكرة كما قال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى﴾ والتذكرة للأشقى الذي لا خشية في قلبه لأول مرة تفيد تمام الحجة عليه وهو نفعها ويلازمها تجنبه وتوليه عن الحق كما قال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ والتذكرة بعد التذكرة له لا تنفع شيئا ولذا أمر بالإعراض عن ذلك قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيا﴾ [النجم: ٢٩]

د. وقيل: الشرط شرط صوري غير حقيقي وإنما هو إخبار عن أن الذكرى نافعة لا محالة في زيادة الطاعة والانتهاء عن المعصية كما يقال: سله إن نفع السؤال ولذا قال بعضهم (إن) ﴿إِنْ﴾ في الآية بمعنى قد، وقال آخرون: إنها بمعنى إذ.

• وفيه أن كون الذكرى نافعة مفيدة دائما حتى فيمن يعاند الحق، وقد تمت عليه الحجة، ممنوع كيف؟ وقد قيل فيهم: ﴿سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ وَعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]

هـ. وقيل: إن في الكلام إيجازا بالحذف، والتقدير فذكر إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع وذلك لأنه ﷺ بأس للتذكرة والإعذار فعليه أن يذكر نفع أو لم ينفع فالآية من قبيل قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي والبرد.

• وفيه أن وجوب التذكرة عليه ﷺ حتى فيما لا يترتب عليها أثرا أصلا ممنوع.

و. وقيل: إن الشرط مسوق للإشارة إلى استبعاد النفع في تذكرة هؤلاء المذكورين نعيا عليهم كأنه قيل: افعل ما أمرت به لتوجر وإن لم ينتفعوا به.

• وفيه أنه يرده قوله تعالى بعده بلا فصل: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى﴾

٢. ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى﴾ أي سيتذكر ويتعظ بالقرآن من في قلبه شيء من خشية الله وخوف عقابه.

٣. ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ الضمير للذكرى والمراد بالأشقى بقرينة المقابلة من ليس في قلبه شيء من خشية الله تعالى، وتجنب الشيء التباعد عنه، والمعنى وسيتباعد عن الذكرى من لا يخشى الله.

٤. ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى﴾:

أ. الظاهر أن المراد بالنار الكبرى نار جهنم وهي نار كبري بالقياس إلى نار الدنيا.

ب. وقيل: المراد بها أسفل دركات جهنم وهي أشدها عذابا.

٥. ﴿ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى﴾ ثم للتراخي بحسب رتبة الكلام، والمراد من نفي الموت والحياة عنه معا نفي النجاة نفيا مؤبدا فإن النجاة بمعنى انقطاع العذاب بأحد أمرين إما بالموت حتى ينقطع عنه العذاب بانقطاع وجوده وإما يتبدل صفة الحياة من الشقاء إلى السعادة ومن العذاب إلى الراحة فالمراد بالحياة في الآية الحياة الطيبة على حد قولهم في الحرض: لا حي فيرجى ولا ميت فينسى.

٦. أفلح من تزكى وذكر الله وصلى:

المقطع [٦] من سورة الأعلى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٤ـ١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٦٩»:

١. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ التزكي هو التطهر والمراد به التطهر من ألواث التعلقات الدنيوية الصارفة عن الآخرة بدليل قوله بعد ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا﴾، والرجوع إلى الله بالتوجه إليه تطهر من الإخلاد إلى الأرض، والإنفاق في سبيل الله تطهر من لوث التعلق المالي حتى أن وضوء الصلاة تمثيل للتطهر عما كسبته الوجوه والأيدي والأقدام.

٢. ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ الظاهر أن المراد بالذكر الذكر اللفظي، وبالصلاة التوجه الخاص المشروع في الإسلام.

٣. والآيتان بحسب ظاهر مدلولهما على العموم لكن ورد في المأثور عن أئمة أهل البيت عليه السلام أنهما نزلتا في زكاة الفطر وصلاة العيد وكذا من طرق أهل السنة.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الفقيه: وسئل الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ قال قال: من أخرج الفطرة، قيل له: و﴿ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ قال: خرج إلى الجبانة فصلى.

• أقول: وروي هذا المعنى أيضا عن حماد عن جرير عن أبي بصير وزرارة عنه عليه السلام ورواه القمي في تفسيره، مرسلا مضمرا.

ب. أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ ثم يقسم الفطرة قبل أن يغدو إلى المصلى يوم الفطر.

• أقول: وروي أيضا نزول الآيتين في زكاة الفطرة وصلاة العيد بطريقين عن أبي سعيد موقوفا،

وكذا بطريقين عن ابن عمر وبطريق عن نائلة بن الأصقع وبطريقين عن أبي العالية وبطريق عن عطاء وبطريق عن محمد بن سيرين وبطريق عن إبراهيم النخعي وكذا عن عمرو بن عوف عن النبي ﷺ.

٧. المعاندون وإيثار الدنيا والآخرة خير وأبقى:

المقطع [٧] من سورة الأعلى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦ـ١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٦٩»:

١. ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيا﴾:

أ. إضراب بالخطاب لعامة الناس على ما يدعو إليه طبعهم البشري من التعلق التام بالدنيا والاشتغال بتعميرها، والإيثار الاختيار.

ب. وقيل: الخطاب للكفار، والكلام على أي حال مسوق للعتاب والالتفات لتأكيده.

٢. ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ عد الآخرة أبقى بالنسبة إلى الدنيا مع أنها باقية أبدية في نفسها لأن المقام مقام الترجيح بين الدنيا والآخرة ويكفي في الترجيح مجرد كون الآخرة خيرا وأبقى بالنسبة إلى الدنيا وإن قطع النظر عن كونها باقية أبدية.

٨. الحقائق الموجودة في صحف إبراهيم وموسى:

المقطع [٨] من سورة الأعلى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: ١٨ـ١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٧٠»:

١. ﴿إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى﴾:

أ. الإشارة بهذا إلى ما بين في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ إلى تمام أربع آيات.

ب. وقيل: هذا إشارة إلى مضمون قوله: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى﴾

ج. قيل: وفي إبهام الصحف ووصفها بالتقدم أولا ثم بيانها وتفسيرها بصحف إبراهيم وموسى ثانيا ما لا يخفى من تفخيم شأنها وتعظيم أمرها.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في الخصال، عن عتبة بن عمرو الليثي عن أبي ذر في حديث قلت: يا رسول الله فما في الدنيا مما أنزل الله عليك، شيء مما كان في صحف إبراهيم وموسى؟ قال: يا أبا ذر اقرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى، وَذَكَرَ

اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيا، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى، إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى﴾

• أقول: يؤيد الحديث كون الإشارة بهذا إلى مجموع الآيات الأربع كما تقدم.

ب. وفي البصائر، بإسناده عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: عندنا الصحف التي قال الله: ﴿صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى﴾ قلت: الصحف هي الألواح؟ قال: نعم.

• أقول: ورواه أيضا بطريق آخر عن أبي بصير عنه عليه السلام والظاهر أن المراد بكون الصحف هي الألواح كونها هي التوراة المعبر عنها في مواضع من القرآن بالألواح كقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] وقوله: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْواحَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وقوله: ﴿أَخَذَ الْأَلْواحَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]

ج. وفي المجمع: روي عن أبي ذر أنه قال: قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألفا، قلت: يا رسول الله كم المرسلون منهم؟ قال: ثلاث مائة وثلاثة عشر وبقيتهم أنبياء، قلت: كان آدم نبيا؟ قال: نعم كلمة الله وخلقه بيده، يا أبا ذر أربعة من الأنبياء عرب: هود وصالح وشعيب ونبيك، قلت: يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب؟ قال: مائة وأربعة كتب أنزل منها على آدم عشرة صحف، وعلى شيث خمسين صحيفة، وعلى أخنوخ وهو إدريس ثلاثين صحيفة، وهو أول من خط بالقلم وعلى إبراهيم عشر صحائف، والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان.

• أقول: وروي ذلك في الدر المنثور، عن عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن أبي ذر غير أنه لم يذكر صحف آدم، وذكر لموسى عشر صحف قبل التوراة.

سورة الغاشية

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٥] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. سورة إنذار وتبشير، تصف الغاشية وهي يوم القيامة الذي يحيط بالناس، تصفه بحال الناس فيه من حيث انقسامهم فريقين: السعداء والأشقياء، واستقرارهم فيما أعد لهم من الجنة والنار.

ب. وتنتهي إلى أمره ﷺ أن يذكر الناس بفنون من التدبير الربوبي في العالم، الدالة على ربوبيته تعالى لهم ورجوعهم إليه لحساب أعمالهم.

ج. والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

١. أهوال الغاشية وعذاب الكفار:

المقطع [١] من سورة الغاشية، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية: ١-٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٧٣»:

١. ﴿هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ﴾ استفهام بداعي التفخيم والإعظام، والمراد بالغاشية يوم القيامة سميت بذلك لأنها تغشى الناس وتحيط بهم كما قال: ﴿وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ [الكهف: ٤٧]، أو لأنها تغشى الناس بأهوالها بغتة كما قيل، أو لأنها تغشى وجوه الكفار بالعذاب.

٢. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ﴾ أي مذللة بالغم والعذاب يغشاها، والخشوع إنما هو لأرباب الوجوه وإنما نسب إلى الوجوه لأن الخشوع والمذلة يظهر فيها.

٣. ﴿عامِلَةٌ ناصِبَةٌ﴾:

أ. النصب التعب و﴿عامِلَةٌ﴾ خبر بعد خبر لوجوه، وكذا قوله: ﴿ناصِبَةٌ﴾ و﴿تَصْلى﴾ و﴿تُسْقى﴾ و﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ والمراد من عملها ونصبها بقرينة مقابلتها في صفة أهل الجنة الآتية بقوله: ﴿لِسَعْيِها راضِيَةٌ﴾ عملها في الدنيا ونصبها في الآخرة فإن الإنسان إنما يعمل ما يعمل في الدنيا ليسعد به ويظفر بالمطلوب لكن عملهم خبط باطل لا ينفعهم شيئا كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٣] فلا يعود إليهم من عملهم إلا النصب والتعب بخلاف أهل الجنة

فإنهم لسعيهم الذي سعوه في الدنيا راضون لما ساقهم إلى الجنة والراحة.

ب. وقيل: المراد أنها عاملة في النار ناصبة فيها فهي تعالج أنواع العذاب الذي تعذب به وتتعب لذلك.

ج. وقيل: المراد أنها عاملة في الدنيا بالمعاصي ناصبة في النار يوم القيامة.

٤. ﴿تَصْلى ناراً حامِيَةً﴾ أي تلزم نارا في نهاية الحرارة.

٥. ﴿تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ أي حارة بالغة في حرارتها.

٦. ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ قيل: الضريع نوع من الشوك يقال له: الشبرق وأهل الحجاز يسمونه الضريع إذا يبس وهو أخبث طعام وأبشعه لا ترعاه دابة، ولعل تسمية ما في النار به لمجرد المشابهة شكلا وخاصة.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: (وقال أبو عبد الله عليه السلام: كل ناصب وإن تعبد واجتهد يصير إلى هذه الآية، ﴿عامِلَةٌ ناصِبَةٌ تَصْلى ناراً حامِيَةً﴾

• أقول: ورواه في ثواب الأعمال، مسندا ولفظه: كل ناصب وإن تعبد واجتهد يصير إلى هذه الغاية ﴿عامِلَةٌ ناصِبَةٌ تَصْلى ناراً حامِيَةً﴾

ب. وفيه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: الضريع شيء في النار يشبه الشوك، أمر من الصبر وأنتن من الجيفة، وأشد حرا من النار سماه الله الضريع.

٢. نعيم أهل الجنة في الجنات العالية:

المقطع [٢] من سورة الغاشية، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ٨-١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٧٤»:

١. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ﴾ من النعومة فيكون كناية عن البهجة والسرور الظاهر على البشرة كما قال: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]، أو من النعمة أي متنعمة، قيل: ولم يعطف على قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ﴾ إشارة إلى كمال البينونة بين حالي الفريقين.

٢. ﴿لِسَعْيِها راضِيَةٌ﴾ اللام للتقوية، والمراد بالسعي سعيها في الدنيا بالعمل الصالح، والمعنى رضيت سعيها وهو عملها الصالح حيث جوزيت به جزاء حسنا.

٣. ﴿فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ﴾، إلى قوله: ﴿وَزَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ المراد بعلوها ارتفاع درجاتها وشرفها وجلالتها وغزارة عيشها فإن فيها حياة لا موت معها، ولذة لا ألم يشوبها وسرورا لا غم ولا حزن يداخله لهم فيها فوق ما يشاءون.

٤. ﴿لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً﴾ أي لا تسمع تلك الوجوه في الجنة كلمة ساقطة لا فائدة فيها.

٥. ﴿فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ﴾ المراد بالعين جنسها فقد عد تعالى فيها عيونا في كلامه كالسلسبيل والشراب الطهور وغيرهما.

٦. ﴿فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ السرر جمع سرير وفي ارتفاعها جلالة القاعد عليها، ﴿وَأَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ الأكواب جمع كوب وهو الإبريق لا خرطوم له ولا عروة يتخذ فيه الشراب ﴿وَنَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ النمارق جمع نمرقة وهي الوسادة وكونها مصفوفة وضعها في المجلس بحيث يتصل بعضها ببعض على هيئة المجالس الفاخرة في الدنيا ﴿وَزَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ الزرابي جمع زربية مثلثة الزاي وهي البساط الفاخر وبثها بسطها للقعود عليها.

٧. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً﴾ قال: الهزل والكذب.

٣. دعوة للتفكر في خلق الإبل والسماء والجبال والأرض:

المقطع [٣] من سورة الغاشية، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٧٥»:

١. ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾:

أ. بعد ما فرغ من وصف الغاشية وبيان حال الفريقين، المؤمنين والكفار عقبه بإشارة إجمالية إلى التدبير الربوبي الذي يفصح عن ربوبيته تعالى المقتضية لوجوب عبادته ولازم ذلك حساب الأعمال وجزاء المؤمن بإيمانه والكافر بكفره والظرف الذي فيه ذلك هو الغاشية.

ب. وقد دعاهم أولا أن ينظروا إلى الإبل كيف خلقت؟ وكيف صور الله سبحانه أرضا عادمة

للحياة فاقدة للشعور بهذه الصورة العجيبة في أعضائها وقواها وأفاعيلها فسخرها لهم ينتفعون من ركوبها وحملها ولحمها وضرعها وجلدها ووبرها حتى بولها وبعرتها فهل هذا كله توافق اتفاقي غير مطلوب بحياله؟

ج. وتخصيص الإبل بالذكر من جهة أن السورة مكية وأول من تتلى عليهم الإعراب واتخاذ الآبال من أركان عيشتهم.

٢. ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ وزينت بالشمس والقمر وسائر النجوم الزواهر بما فيها من المنافع لأهل الأرض وقد جعل دونها الهواء الذي يضطر إليه الحيوان في تنفسه.

٣. ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ وهي أوتاد الأرض المانعة من مورها ومخازن الماء التي تتفجر منها العيون والأنهار ومحافظ للمعادن.

٤. ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾:

أ. أي بسطت وسويت فصلحت لسكنى الإنسان وسهل فيها النقل والانتقال وأغلب التصرفات الصناعية التي للإنسان.

ب. فهذه تدبيرات كلية مستندة إليه تعالى بلا ريب فيه فهو رب السماء والأرض ما بينهما فهو رب العالم الإنساني يجب عليهم أن يتخذوه ربا ويوحدوه ويعبدوه وأمامهم الغاشية وهو يوم الحساب والجزاء.

٤. النبي مذكر وليس بمسيطر:

المقطع [٤] من سورة الغاشية، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٧٥»:

١. ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ تفريع على ما تقدم والمعنى إذا كان الله سبحانه هو ربهم لا رب سواه وأمامهم يوم الحساب والجزاء لمن آمن منهم أو كفر فذكرهم بذلك.

٢. ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ بيان أن وظيفته، وهو رسول، التذكرة رجاء أن يستجيبوا ويؤمنوا من غير إكراه وإلجاء.

٣. ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ المصيطر، وأصله المسيطر، المتسلط، والجملة بيان وتفسير لقوله:

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾

٤. ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾:

أ. استثناء من المفعول المحذوف لقوله السابق: ﴿فَذَكِّرْ﴾ والتقدير فذكر الناس إلا من تولى منهم عن التذكرة وكفر إذ تذكرته لغو لا فائدة فيها، ومعلوم أن التولي والكفر إنما يكون بعد التذكرة فالمنفي بالاستثناء هو التذكرة بعد التذكرة كأنه قيل: ذكرهم وأدم التذكرة إلا لمن ذكرته فتولى عنها وكفر، فليس عليك إدامة تذكرته بل أعرض عنه فيعذبه الله العذاب الأكبر.

ب. فقوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾، إلى أن قال، ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ في معنى قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾، إلى أن قال، ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ [الأعلى: ١٢] وقد تقدم بيانه.

ج. وقيل: الاستثناء من ضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في قوله: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ والمعنى لست عليهم بمتسلط إلا على من تولى منهم عن التذكرة وأقام على الكفر فسيسلطك الله عليه ويأمرك بالجهاد فتقاتله فتقتله.

د. وقيل: الاستثناء منقطع والمعنى لست عليهم بمتسلط لكن من تولى وكفر منهم يعذبه الله العذاب الأكبر، وما قدمناه من الوجه أرجح وأقرب.

٥. ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ هو عذاب جهنم فالآية كما تقدم محاذية لقوله في سورة الأعلى ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ قال: بحافظ ولا كاتب عليهم.

ب. أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله ثم قرأ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾

• أقول: لا دلالة في الرواية على كون الاستثناء من ضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وهو ظاهر.

ج. وفيه، وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ يريد من لم يتعظ ولم يصدقك، وجحد ربوبيتي وكفر نعمتي ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ﴾ يريد الغليظ الشديد الدائم ﴿إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ﴾ يريد مصيرهم ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ﴾ يريد جزاءهم.

٥. إياب الخلق إلى الله وحسابهم عليه:

المقطع [٥] من سورة الغاشية، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٧٦»:

١. ﴿إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ﴾ الإياب الرجوع و﴿إِلَيْنا﴾ خبر إن وإنما قدم للتأكيد ولرعاية الفواصل دون الحصر إذ لا قائل برجوع الناس إلى غير الله سبحانه والآية في مقام التعليل للتعذيب المذكور في الآية السابقة.

٢. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ﴾ الكلام فيه كالكلام في الآية السابقة.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في النهج: وسئل عليه السلام: كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم؟ قال: كما يرزقهم على كثرتهم، قيل: فكيف يحاسبهم ولا يرونه؟ قال: كما يرزقهم ولا يرونه.

ب. وفيه، قال الصادق عليه السلام: كل أمة يحاسبها إمام زمانها، ويعرف الأئمة أولياءهم وأعداءهم بسيماهم وهو قوله: ﴿وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ﴾ الحديث.

• أقول: قد تقدم توضيح معنى الحديث في تفسير الآية من سورة الأعراف، وروي هذا المعنى في البصائر، عن الصادق عليه السلام مسندا وفي الكافي، عن الباقر والكاظم عليه السلام وفي الفقيه، عن الهادي عليه السلام في الزيارة الجامعة.

سورة الفجر

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٨] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. في السورة ذم التعلق بالدنيا المتعقب للطغيان والكفران، وإيعاد أهله بأشد عذاب الله في الدنيا والآخرة.

ب. فتبين أن الإنسان لقصور نظره وسوء فكره يرى أن ما آتاه الله من نعمه من كرامته على الله، وأن ما يتلبس به من الفقر والعدم من هوانه، فيطغى ويفسد في الأرض إذا وجد، ويكفر إذا فقد، وقد اشتبه عليه الأمر، فما يصيبه من القدرة والثروة، ومن الفقر وضيق المعاش، امتحان وابتلاء إلهي، ليظهر به ما ذا يقدم من دنياه لأخراه.

ج. فليس الأمر على ما يتوهمه الإنسان ويقوله، بل الأمر كما سيتذكره إذا وقع الحساب وحضر العذاب، أن ما أصابه من فقر أو غنى أو قوة أو ضعف كان امتحاناً إلهياً، وكان يمكنه أن يقدم من يومه لغده، فلم يفعل وآثر العقاب على الثواب، فليس ينال الحياة السعيدة في الآخرة إلا النفس المطمئنة إلى ربها المسلمة لأمره، التي لا تتزلزل بعواصف الابتلاءات، ولا يطغيه الوجدان، ولا يكفره الفقدان.

د. والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

١. القسم بالفجر والليالي العشر والشفع والوتر:

المقطع [١] من سورة الفجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١-٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٧٨»:

١. ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إذا يَسْرِ هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾:

أ. الفجر الصبح والشفع الزوج، قال الراغب: (الشفع ضم الشيء إلى مثله ويقال للمشفوع شفع)، وسري الليل مضيه وإدباره، والحجر العقل فقوله: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ إقسام بالصبح وكذا الحال فيما عطف عليه من ليال والشفع والوتر والليل.

ب. ولعل ظاهر قوله: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أن المراد به مطلق الفجر ولا يبعد أيضا أن يراد به فجر يوم النحر وهو عاشر ذي الحجة.

ج. وقيل: المراد فجر ذي الحجة.

د. وقيل: فجر المحرم أول السنة.

هـ. وقيل: فجر يوم الجمعة.

و. وقيل: فجر ليلة جمع.

ز. وقيل: المراد به صلاة الفجر.

ح. وقيل: النهار كله.

ط. وقيل: فجر العيون من الصخور وغيرها وهي وجوه ردية.

٢. ﴿وَلَيالٍ عَشْرٍ﴾:

أ. لعل المراد بها الليالي العشر من أول ذي الحجة إلى عاشرها والتنكير للتفخيم.

ب. وقيل: المراد بها الليالي العشر من آخر شهر رمضان.

ج. وقيل: الليالي العشر من أوله.

د. وقيل: الليالي العشر من أول المحرم.

هـ. وقيل: المراد عبادة ليال عشر على تقدير أن يراد بالفجر صلاة الفجر.

٣. ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾:

أ. يقبل الانطباق على يوم التروية ويوم عرفة وهو الأنسب على تقدير أن يراد بالفجر وليال عشر فجر ذي الحجة والعشر الأول من لياليها.

ب. وقيل: المراد صلاتا الشفع والوتر في آخر الليل.

ج. وقيل: مطلق الصلاة فمنها شفع ومنها وتر.

د. وقيل: الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة.

هـ. وقيل: الشفع جميع الخلق لأنه قال: ﴿وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً﴾ [النبأ: ٨] والوتر هو الله تعالى، وعلى هذه الأقوال روايات ستوافيك في البحث الروائي الآتي إن شاء الله.

و. وقيل: المراد الزوج والفرد من العدد، وفي الإقسام بهما تذكير بالعدد لما في ضبط المقادير به من عظيم النعمة من الله سبحانه.

ز. وقيل: الشفع والوتر جميع المخلوقات لأن الأشياء إما زوج وإما فرد.

ح. وقيل: الوتر آدم شفع بزوجته.

ط. وقيل: الشفع الأيام والليالي والوتر اليوم الذي لا ليل بعده وهو يوم القيامة.

ي. وقيل: الشفع الصفا والمروة والوتر البيت الحرام.

ك. وقيل: الشفع أيام عاد والوتر لياليها.

ل. وقيل: الشفع أبواب الجنة وهي ثمانية والوتر أبواب جهنم وهي سبعة إلى غير ذلك وهي كثيرة أنهاها بعضهم إلى ستة وثلاثين قولا ولا يخلو أكثرها من تحكم.

٤. ﴿وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ﴾:

أ. أي يمضي فهو كقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣] وظاهره أن اللام للجنس فالمراد به مطلق آخر الليل.

ب. وقيل: المراد به ليلة المزدلفة وهي ليلة النحر التي يسري فيها الحاج من عرفات إلى المزدلفة فيجتمع فيها على طاعة الله ثم يغدوا منها إلى منى وهو كما ترى وخاصة على القول بكون المراد بليال عشر هو الليالي العشر الأوائل منها.

٥. ﴿هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾:

أ. الإشارة بذلك إلى ما تقدم من القسم، والاستفهام للتقرير، والمعنى أن في ذلك الذي قدمناه قسما كافيا لمن له عقل يفقه به القول ويميز الحق من الباطل، وإذا أقسم الله سبحانه بأمر، ولا يقسم إلا بما له شرف ومنزلة، كان من القول الحق المؤكد الذي لا ريب في صدقه.

ب. وجواب الأقسام المذكورة محذوف يدل عليه ما سيذكر من عذاب أهل الطغيان والكفران في الدنيا والآخرة وثواب النفوس المطمئنة، وأن إنعامه تعالى على من أنعم عليه وإمساكه عنه فيمن أمسك إنما هو ابتلاء وامتحان.

ج. وحذف الجواب والإشارة إليه على طريق التكنية أوقع وآكد في باب الإنذار والتبشير.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾: وقيل: الشفع الخلق لأنه قال: ﴿وَخَلَقْناكُمْ

أَزْواجاً﴾ والوتر الله تعالى، عن عطية العوفي وأبي صالح وابن عباس ومجاهد وهي رواية أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ.

ب. وقيل: الشفع والوتر الصلاة منها شفع ومنها وتر: وهي رواية عن ابن حصين عن النبي ﷺ.

ج. وقيل: الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة: عن ابن عباس وعكرمة والضحاك، وهي رواية جابر عن النبي ﷺ والوجه فيه أن يوم النحر يشفع بيوم نفر بعده ويتفرد يوم عرفة بالموقف.

د. وقيل: الشفع يوم التروية والوتر يوم عرفة: وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام.

• أقول: الروايات الثلاث المشار إليها مروية عن النبي ﷺ من طرق أهل السنة ويمكن الجمع بينها بأن المراد مطلق الشفع والوتر والروايات من قبيل الإشارة إلى بعض المصاديق.

هـ. وفي تفسير القمي: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قال: عشر ذي الحجة ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ قال: الشفع ركعتان والوتر ركعة، وفي حديث: الشفع الحسن والحسين، والوتر أمير المؤمنين عليه السلام ﴿وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ﴾ قال: هي ليلة جمع.

و. وفيه، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿لِذِي حِجْرٍ﴾ يقول: لذي عقل.

٢. عقاب الله لعاد وإرم ذات العماد:

المقطع [٢] من سورة الفجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦ـ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٨٠»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ﴾ هم عاد الأولى قوم هود تكررت قصتهم في القرآن الكريم وأشير إلى أنهم كانوا بالأحقاف، وقد قدمنا ما يتحصل من قصصهم في القرآن الكريم في تفسير سورة هود.

٢. ﴿إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ﴾:

أ. العماد وجمعه عمد ما يعتمد عليه الأبنية، وظاهر الآيتين أن إرم كانت مدينة لهم معمورة عديمة النظير ذات قصور عالية وعمد ممددة، وقد انقطعت أخبار القوم عهدهم وانمحت آثارهم، فلا سبيل إلى الحصول على تفصيل حالهم تطمئن إليها النفس إلا ما قصة القرآن الكريم من إجمال قصتهم أنهم كانوا بعد

قوم نوح قاطنين بالأحقاف وكانوا ذوي بسطة في الخلق أولي قوة وبطش شديد، وكان لهم تقدم ورقي في المدنية والحضارة لهم بلاد عامرة وأراض خصبة ذات جنات ونخيل وزروع ومقام كريم وقد تقدمت القصة.

ب. وقيل: المراد بإرم قوم عاد، وهو في الأصل اسم أبيهم سموا باسم أبيهم كما يقال: قريش ويراد به القرشيون ويطلق إسرائيل ويراد به بنو إسرائيل، والمراد بكونهم ذات عماد كونهم أولي قوة وسطوة، والمعنى: ألم تر كيف فعل ربك بقوم عاد الذين هم قوم إرم ذوو القوة والشدة الذين لم يخلق مثلهم في بسطة الجسم والقوة والبطش في البلاد أو في أقطار الأرض ولا يخلو من بعد من ظاهر اللفظ.

ج. وأبعد منه ما قيل: إن المراد بكونهم ذات العماد أنهم كانوا أهل عمد سيارة في الربيع فإذا هاج النبت رجعوا إلى منازلهم.

د. ومن الأساطير قصة جنة إرم المشهورة المروية عن وهب بن منبه وكعب الأحبار.

٣. عقاب ثمود وفرعون الطاغين في البلاد:

المقطع [٣] من سورة الفجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٩-١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٨١»:

١. ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ﴾ الجوب القطع أي قطعوا صخر الجبال بنحتها بيوتا فهو في معنى قوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً﴾ [الشعراء: ١٤٩]

٢. ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ﴾ هو فرعون موسى، وسمي ذا الأوتاد، على ما في بعض الروايات، لأنه كان إذا أراد أن يعذب رجلا بسطه على الأرض ووتد يديه ورجليه بأربعة أوتاد في الأرض وربما بسطه على خشب وفعل به ذلك، ويؤيده ما حكاه الله من قوله يهدد السحرة إذ آمنوا بموسى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] فإنهم كانوا يوتدون يدي المصلوب ورجليه على خشبة الصليب.

٣. ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ﴾ صفة للمذكورين من عاد وثمود وفرعون، والمعنى ظاهر.

٤. ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ﴾:

أ. صب الماء معروف وصب سوط العذاب كناية عن التعذيب المتتابع المتواتر الشديد، وتنكير عذاب للتفخيم.

ب. والمعنى فأنزل ربك على كل من هؤلاء الطاغين المكثرين للفساد إثر طغيانهم وإكثارهم الفساد عذابا شديدا متتابعا متواليا لا يوصف.

٥. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ﴾:

أ. المرصاد المكان الذي يرصد منه ويرقب وكونه تعالى على المرصاد استعارة تمثيلية شبه فيها حفظه تعالى لأعمال عباده بمن يقعد على المرصاد يرقب من يراد رقوبه فيأخذه حين يمر به وهو لا يشعر فالله سبحانه رقيب يرقب أعمال عباده حتى إذا طغوا وأكثروا الفساد أخذهم بأشد العذاب.

ب. وفي الآية تعليل ما تقدم من حديث تعذيب الطغاة المكثرين للفساد من الماضين وفي قوله: ﴿رَبَّكَ﴾ بإضافة الرب إلى ضمير الخطاب تلويح إلى أن سنة العذاب جارية في أمته ﷺ على ما جرت عليه في الأمم الماضين.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في العلل، بإسناده إلى أبان الأحمر قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ﴾ لأي شيء سمي ذا الأوتاد؟ فقال: لأنه كان إذا عذب رجلا، بسطه على الأرض على وجهه ومد يديه ورجليه، فأوتدها بأربعة أوتاد في الأرض، وربما بسطه على خشب منبسط، فوتد رجليه ويديه بأربعة أوتاد، ثم تركه على حاله حتى يموت، فسماه الله عز وجل فرعون ذا الأوتاد.

ب. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ﴾ وروي عن علي عليه السلام أنه قال: إن معناه إن ربك قادر أن يجزي أهل المعاصي جزاءهم.

- أقول: بناء الرواية على أخذ الجملة استعارة تمثيلية.

ج. وفيه، عن الصادق عليه السلام أنه قال: المرصاد قنطرة على الصراط لا يجوزها عبد بمظلمة عبد.

٤. ظن الإنسان الخاطئ في الابتلاء بالنعم والنقم:

المقطع [٤] من سورة الفجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ

وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٥-١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٨٢»:

١. ﴿فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾:

أ. متفرع على ما قبله، فيه تفصيل حال الإنسان إذا أوتي من نعم الدنيا أو حرم كأنه قيل: إن الإنسان تحت رقوب إلهي يرصده ربه هل يصلح أو يفسد؟ ويبتليه ويمتحنه فيما آتاه من نعمة أو حرمة هذا هو الأمر في نفسه وأما الإنسان فإنه إذا أنعم الله عليه بنعمة حسب أن ذلك إكرام إلهي له أن يفعل بها ما يشاء فيطغى ويكثر الفساد، وإذا أمسك وقدر عليه رزقه حسب أنه إهانة إلهية فيكفر ويجزع.

ب. فقوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسانُ﴾ المراد به النوع بحسب الطبع الأولي فاللام للجنس دون الاستغراق.

٢. ﴿إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ﴾ أي امتحنه واختبره، والعامل في الظرف محذوف تقديره كائنا إذا.، وقيل: العامل فيه ﴿فَيَقُولُ﴾

٣. ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ تفسير للابتلاء، والمراد بالإكرام والتنعيم الصوريان وإن شئت فقل: الإكرام والتنعيم حدوثا لا بقاء أي أنه تعالى أكرمه وآتاه النعمة ليشكره ويعبده لكنه جعلها نقمة على نفسه تستتبع العذاب.

٤. ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾:

أ. أي جعلني على كرامة منه بالنعم التي آتانيها وإن شئت فقل: القدرة والجدة الموهوبتان إكرام وتنعيم حدوثا وبقاء فلي أن أفعل ما أشاء.

ب. والجملة أعني قوله: ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ حكاية ما يراه الإنسان بحسب الطبع، وقول الإنسان: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ الظاهر في نسبة التدبير إلى الله سبحانه، ولا يقول به الوثنية والمنكرون للصانع، مبني على اعترافه بحسب الفطرة به تعالى وإن استنكف عنه لسانا، وأيضا لرعاية المقابلة مع قوله: ﴿إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ﴾

٥. ﴿وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ﴾ أي وأما إذا ما امتحنه واختبره فضيق عليه رزقه فيقول ربي أذلني واستخف بي.

٦. ويظهر من مجموع الآيتين:

أ. أولا: حيث كرر الابتلاء وأثبته في صورتي التنعيم والإمساك عنه أن إيتاء النعم والإمساك عنه جميعا من الابتلاء والامتحان الإلهي كما قال: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] لا كما يراه الإنسان.

ب. وثانيا: أن إيتاء النعم بما أنه فضل ورحمة إكرام إن لم يبدلها الإنسان نقما على نفسه.

ج. وثالثا: أن الآيتين معا تفيدان أن الإنسان يرى سعادته في الحياة هي التنعم في الدنيا بنعم الله تعالى وهو الكرامة عنده والحرمان منه شقاء عنده والحال أن الكرامة هي في التقرب إليه تعالى بالإيمان والعمل الصالح سواء في ذلك الغنى والفقر وأي وجدان وفقدان فإنما ذلك بلاء وامتحان.

٧. ولهم في معنى الآيتين وجوه أخر تركنا التعرض لها لقلة الجدوى.

٨. أحاديث وآثار: عن الغوالي، عن الصادق عليه السلام في حديث في تفسير قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً، فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ إنما ظن بمعنى استيقن إن الله تعالى لن يضيق عليه رزقه، ألا تسمع قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي ضيق عليه.

٥. ذم الإنسان على إهماله اليتيم والمسكين:

المقطع [٥] من سورة الفجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٧ـ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٨٣»:

١. ﴿كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلا تَحَاضُّونَ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ﴾:

أ. ردع لقولهم: إن الكرامة هي في الغنى والتنعم، وفي الفقر والفقدان هوان ومذلة، والمعنى ليس كما تقولون وإنما إيتاؤه تعالى النعمة وإمساكه عنه كل ذلك ابتلاء وامتحان يختبر به حال الإنسان من حيث عبوديته.

ب. وفي قوله: ﴿بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ إضراب يؤكد الردع بذكر بعض التنعم الذي لا يجامع الكرامة البتة كعدم إكرامهم اليتيم بأكل تراثه ومنعه منه وعدم التحريض على إطعام المسكين حبا للمال فالفطرة الإنسانية لا يرتاب في أن لا كرامة في غنى هذا شأنه.

ج. وفي الإضراب مضافا إلى أصل الردع تقريع ولتشديد هذا التقريع وقع الالتفات من الغيبة إلى

الخطاب.

د. فقوله: ﴿بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ عدم إكرامه حرمانه من تراث أبيه، كما كانوا يحرمون صغار الأولاد من الإرث، وتركه صفر الكف بلغ به الجهد ما بلغ كما تؤيده الآية التالية ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾

٢. ﴿وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أصله ولا تتحاضون، وهو تحريض بعضهم بعضا على التصدق على المساكين المعدمين، ومنشؤه حب المال كما في الآية الآتية ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ﴾

٣. ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا﴾ اللم أكل الإنسان نصيب نفسه وغيره وأكله ما يجده من دون أن يميز الطيب من الخبيث، والآية تفسير لعدم إكرامهم اليتيم كما تقدم.

٤. ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ الجم الكثير العظيم، والآية تفسر عدم تحاضهم على طعام المسكين كما تقدم.

٦. دك الأرض ومجيء أمر الله والملائكة:

المقطع [٦] من سورة الفجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢١-٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٨٣»:

١. ﴿كَلَّا إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾:

أ. الدك هو الدق الشديد، والمراد بالظرف حضور يوم القيامة.

ب. ردع ثان عما يقوله الإنسان في حالي الغنى والفقر، وقوله: ﴿إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ﴾ في مقام التعليل للردع، ومحصل المعنى ليس كما يقوله الإنسان فإنه سيتذكر إذا قامت القيامة إن الحياة الدنيا وما فيها من الغنى والفقر وأضرابهما لم تكن مقصودة بالذات بل كانت ابتلاء وامتحانا من الله تعالى يميز به السعيد من الشقي ويهيئ الإنسان فيها ما يعيش به في الآخرة وقد التبس عليه الأمر فحسبها كرامة مقصودة بالذات فاشتغل بها ولم يقدم لحياته الآخرة شيئا فيتمنى عند ذلك ويقول: يا ليتني قدمت لحياتي ولن يصرف التمني عنه شيئا من العذاب.

٢. ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾:

أ. نسبة المجيء إليه تعالى من المتشابه الذي يحكمه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وما ورد في آيات القيامة من خواص اليوم كتقطع الأسباب وارتفاع الحجب عنهم وظهور أن الله هو

الحق المبين.

ب. وإلى ذلك يرجع ما ورد في الروايات أن المراد بمجيئه تعالى مجيء أمره قال تعالى: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ للهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، ويؤيد هذا الوجه بعض التأييد قوله تعالى ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠] إذا انضم إلى قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣] وعليه فهناك مضاف محذوف والتقدير جاء أمر ربك أو نسبة المجيء إليه تعالى من المجاز العقلي.

ج. والكلام في نسبة المجيء إلى الملائكة وكونهم صفا صفا كما مر.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿كَلَّا إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ قال: هي الزلزلة.

ب. أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: هل تدرون ما تفسير هذه الآية ﴿كَلَّا إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ﴾، إلى قوله: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ قال: إذا كان يوم القيامة تقاد جهنم بسبعين ألف زمام، بيد سبعين ألف ملك فتشرد شردة، لولا أن الله حبسها لأحرقت السماوات والأرض.

• أقول: وهو مروي أيضا عن أبي سعيد وابن مسعود ومن طرق الشيعة في أمالي الشيخ، بإسناده عن داود بن سليمان عن الرضا عن آبائه عن علي عليه السلام عن النبي ﷺ.

ج. وفي العيون، في باب ما جاء عن الرضا من أخبار التوحيد بإسناده عن علي بن فضال عن أبيه قال: سألت الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ فقال: إن الله سبحانه لا يوصف بالمجيء والذهاب، تعالى عن الانتقال إنما يعني بذلك وجاء أمر ربك.

٧. تذكير الإنسان بجهنم وندمه ووعده:

المقطع [٧] من سورة الفجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٣-٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٨٤»:

١. ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ لا يبعد أن يكون المراد بالمجيء بجهنم إبرازها لهم كما في قوله تعالى:

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى﴾ [النازعات: ٣٦] وقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١]، وقوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]

٢. ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ﴾ أي يتذكر أجلى التذكر أن ما كان يؤتاه في الحياة الدنيا من خير أو شر كان من ابتلاء الله وامتحانه وأنه قصر في أمره، هذا ما يفيده السياق.

٣. ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى﴾ أي ومن أين له الذكرى كناية عن عدم انتفاعه بها فإن الذكرى إنما تنفع فيما أمكنه أن يتدارك ما فرط فيه بتوبة وعمل صالح واليوم يوم الجزاء لا يوم الرجوع والعمل.

٤. ﴿يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي﴾:

أ. أي لحياتي هذه وهي الحياة الآخرة أو المراد الحياة الحقيقية وهي الحياة الآخرة على ما نبه تعالى عليه بقوله: ﴿وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]

ب. والمراد بالتقديم للحياة تقديم العمل الصالح للحياة الآخرة وما في الآية تمن يتمناه الإنسان عند ما يتذكر يوم القيامة ويشاهد أنه لا ينفعه.

٥. ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ وَلا يُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ﴾:

أ. ضميرا عذابه ووثاقه لله تعالى والمعنى فيومئذ لا يعذب عذاب الله أحد من الخلق ولا يوثق وثاق الله أحد من الخلق أي إن عذابه ووثاقه تعالى يومئذ فوق عذاب الخلق ووثاقهم، تشديد في الوعيد.

ب. وقرئ ﴿لا يُعَذَّبُ﴾ بفتح الذال و﴿وَلا يُوثَقُ﴾ بفتح الثاء بالبناء للمفعول وضميرا عذابه ووثاقه على هذا للإنسان والمعنى لا يعذب أحد يومئذ مثل عذاب الإنسان ولا يوثق أحد يومئذ مثل وثاقه.

٨. نداء الله للنفس المطمئنة بدخول الجنة:

المقطع [٨] من سورة الفجر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٨٥»:

١. ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الذي يعطيه سياق المقابلة بين هذه النفس بما ذكر لها من الأوصاف وعين لها من حسن المنقلب وبين الإنسان المذكور قبل بما ذكر له من وصف التعلق بالدنيا والطغيان

والفساد والكفران، وما أوعد من سوء المصير هو أن النفس المطمئنة هي التي تسكن إلى ربها وترضى بما رضي به فترى نفسها عبدا لا يملك لنفسه شيئا من خير أو شر أو نفع أو ضر ويرى الدنيا دار مجاز وما يستقبله فيها من غنى أو فقر أو أي نفع وضر ابتلاء وامتحانا إلهيا فلا يدعوه تواتر النعم عليه إلى الطغيان وإكثار الفساد والعلو والاستكبار، ولا يوقعه الفقر والفقدان في الكفر وترك الشكر بل هو في مستقر من العبودية لا ينحرف عن مستقيم صراطه بإفراط أو تفريط.

٢. ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾:

أ. خطاب ظرفه جميع يوم القيامة من لدن إحيائها إلى استقرارها في الجنة بل من حين نزول الموت إلى دخول جنة الخلد وليس خطابا واقعا بعد الحساب كما ذكره بعضهم.

ب. وتوصيفها بالراضية لأن اطمئنانها إلى ربها يستلزم رضاها بما قدر وقضى تكوينا أو حكم به تشريعا فلا تسخطها سانحة ولا تزيغها معصية، وإذا رضي العبد من ربه رضي الرب منه إذ لا يسخطه تعالى إلا خروج العبد من زي العبودية فإذا لزم طريق العبودية استوجب ذلك رضى ربه ولذا عقب قوله: ﴿راضِيَةً﴾ بقوله: ﴿مَرْضِيَّةً﴾

٣. ﴿فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾:

أ. تفريع على قوله: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ وفيه دلالة على أن صاحب النفس المطمئنة في زمرة عباد الله حائز مقام العبودية.

ب. وذلك أنه لما اطمأن إلى ربه انقطع عن دعوى الاستقلال ورضي بما هو الحق من ربه فرأى ذاته وصفاته وأفعاله ملكا طلقا لربه فلم يرد فيما قدر وقضى ولا فيما أمر ونهى إلا ما أراده ربه، وهذا ظهور العبودية التامة في العبد ففي قوله: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبادِي﴾ تقرير لمقام عبوديتها.

ج. وفي قوله: ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ تعيين لمستقرها، وفي إضافة الجنة إلى ضمير التكلم تشريف خاص، ولا يوجد في كلامه تعالى إضافة الجنة إلى نفسه تعالى وتقدس إلا في هذه الآية.

٤. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن سدير الصيرفي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك يا ابن رسول الله، هل يكره المؤمن على قبض روحه؟ قال: لا والله إنه إذا أتاه ملك الموت ليقبض روحه، جزع عند ذلك فيقول ملك الموت: يا ولي الله لا تجزع فوالذي بعث محمدا لأني أبر بك،

وأشفق عليك من والد رحيم لو حضرك، افتح عينيك فانظر، قال: ويمثل له رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين، وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذريتهم عليه السلام، فيقال له: هذا رسول الله وأمير المؤمنين، وفاطمة والحسن والحسين، والأئمة عليهمالسلام رفقاؤك، قال: فيفتح عينيه فينظر، فينادي روحه مناد من قبل رب العزة، فيقول: يا أيتها النفس المطمئنة إلى محمد وأهل بيته، ارجعي إلى ربك راضية بالولاية مرضية بالثواب، فادخلي في عبادي يعني محمدا وأهل بيته، وادخلي جنتي، فما من شيء أحب إليه من استلال روحه واللحوق بالمنادي.

- أقول: وروى هذا المعنى القمي في تفسيره والبرقي في المحاسن.

سورة البلد

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٥] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. تذكر السورة أن خلقة الإنسان مبنية على التعب والمشقة، فلا تجد شأناً من شئون الحياة إلا مقروناً بمرارة الكد والتعب، من حين يلج في جثمانه الروح إلى أن يموت، فلا راحة له عارية من التعب والمشقة، ولا سعادة له خالصة من الشقاء والمشأمة، إلا في الدار الآخرة عند الله.

ب. فليتحمل ثقل التكاليف الإلهية بالصبر على الطاعة وعن المعصية، وليجد في نشر الرحمة على المبتلين بنوائب الدهر كاليتم والفقر والمرض وأضرابها، حتى يكون من أصحاب الميمنة، وإلا فآخرته كأولاه، وهو من أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة.

ج. وسياق آيات السورة يشبه السياق المكي، فيؤيد به كون السورة مكية، وقد ادعى بعضهم عليه الإجماع.

د. وقيل: السورة مدنية، والسياق لا يساعد عليه.

هـ. وقيل: مدنية إلا أربع آيات من أولها، وسيأتي في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

١. القسم على أن الإنسان في كبد:

المقطع [١] من سورة البلد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ١-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٨٩»:

١. ﴿لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ﴾ ذكروا أن المراد بهذا البلد مكة وتؤيده مكية سياق السورة وقوله: ﴿وَوالِدٍ وَما وَلَدَ﴾ خاصة بناء على كون المراد بوالد هو إبراهيم عليه السلام على ما سيجيء.

٢. ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ﴾:

أ. حال من هذا البلد، ووضع الظاهر موضع الضمير في قوله: ﴿بِهذَا الْبَلَدِ﴾ للدلالة على عظم شأنه والاعتناء بأمره وهو البلد الحرام، والحل مصدر كالحلول بمعنى الإقامة والاستقرار في مكان والمصدر بمعنى الفاعل.

ب. والمعنى أقسم بهذا البلد والحال أنك حال به مقيم فيه وفي ذلك تنبيه على تشرف مكة بحلوله

ﷺ فيها وكونها مولده ومقامه.

ج. وقيل: الجملة معترضة بين القسم والمقسم به والمراد بالحل المستحل الذي لا حرمة له قال في الكشاف: (واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ﴾ يعني ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد الحرام كما يستحل الصيد في غير الحرم، عن شرحبيل، يحرمون أن يقتلوا بها صيدا ويعضدوا بها شجرة ويستحلون إخراجك وقتلك، وفيه تثبيت من رسول الله ﷺ وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة وتعجيب من حالهم في عداوته) ثم قال: (أو سلي رسول الله ﷺ بالقسم ببلده أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد واعترض بأن وعده فتح مكة تتميما للتسلية والتنفيس عنه فقال: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ﴾ يعني وأنت حل به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر) إلى آخر ما قال، ومحصله تفسير الحل بمعنى المحل ضد المحرم، والمعنى وسنحل لك يوم فتح مكة حينا فنقاتل وتقتل فيه من شئت.

٣. ﴿وَوالِدٍ وَما وَلَدَ﴾:

أ. لزوم نوع من التناسب والارتباط بين القسم والمقسم عليه يستدعي أن يكون المراد بوالد وما ولد من بينه وبين البلد المقسم به نسبة ظاهرة وينطبق على إبراهيم وولده إسماعيل عليه السلام وهما السببان الأصليان لبناء بلدة مكة والبانيان للبيت الحرام قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧] وإبراهيم عليه السلام هو الذي سأل الله أن يجعل مكة بلدا آمنا قال تعالى: ﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وتنكير ﴿والِدٍ﴾ للتعظيم والتفخيم، والتعبير بقوله: ﴿وَما وَلَدَ﴾ دون أن يقال: ومن ولد، للدلالة على التعجيب من أمره مدحا كما في قوله: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: ٣٦]

ب. والمعنى وأقسم بوالد عظيم الشأن هو إبراهيم وما ولد من ولد عجيب أمره مبارك أثره وهو إسماعيل ابنه وهما البانيان لهذا البلد فمفاد الآيات الثلاث الإقسام بمكة المشرفة وبالنبي ﷺ الذي هو حل فيها وبإبراهيم وإسماعيل اللذين بنياها.

ج. وقيل: المراد بالوالد إبراهيم وبما ولد جميع أولاده من العرب.

- وفيه أن من البعيد أن يقارن الله سبحانه بين النبي ﷺ وإبراهيم عليه السلام وبين أمثال أبي لهب

وأبي جهل وغيرهم من أئمة الكفر فيقسم بهم جميعا في سياق، وقد تبرأ إبراهيم عليه السلام ممن لم يتبعه من بنيه على التوحيد إذ قال فيما حكاه الله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]

• فعلى من يفسر ما ولد بأولاد إبراهيم أن يخصهم بالمسلمين من ذريته كما في دعاء إبراهيم وإسماعيل عند بنائهما الكعبة على ما حكاه الله: ﴿رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا﴾ [البقرة: ١٢٨]

د. وقيل: المراد بوالد وما ولد، آدم عليه السلام وذريته جميعا بتقريب أن المقسم عليه بهذه الأقسام خلق الإنسان في كبد وقد سن الله في خلق هذا النوع وإبقاء وجوده سنة الولادة فقد أقسم في هذه الآيات بمحصول هذه السنة وهو الوالد وما ولد على أن الإنسان في كد وتعب بحسب نوع خلقته من حين يحيى إلى حين يموت.

• وهذا الوجه في نفسه لا بأس به لكن يبقى عليه بيان المناسبة بين بلدة مكة وبين والد وكل مولود في الجمع بينهما في الأقسام.

هـ. وقيل: المراد بهما آدم والصالحون من ذريته، وكان الوجه فيه تنزيهه تعالى من أن يقسم بأعدائه الطغاة والمفسدين من الكفار والفساق.

و. وقيل: المراد بهما كل والد وكل مولود.

ز. وقيل: من يلد ومن لا يلد منهم بأخذ (ما) في ﴿ما وَلَدَ﴾ نافية لا موصولة.

ح. وقيل: المراد بوالد هو النبي ﷺ وبما ولد أمته لأنه بمنزلة الأب لأمته وهي وجوه بعيدة.

٤. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ﴾ الكبد الكد والتعب، والجملة جواب القسم فاشتمال الكبد على خلق الإنسان وإحاطة الكد والتعب به في جميع شئون حياته مما لا يخفى على ذي لب فليس يقصد نعمة من نعم الدنيا إلا خالصة في طيبها محضة في هنائها ولا ينال شيئا منها إلا مشوبة بما ينغص العيش مقرونة بمقاساة ومكابدة مضافا إلى ما يصيبه من نوائب الدهر ويفاجئه من طوارق الحدثان.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ﴾ قيل: معناه وأنت محل بهذا البلد وهو ضد المحرم،

والمراد أنت حلال لك قتل من رأيت من الكفار، وذلك حين أمر بالقتال يوم فتح مكة، فأحلها الله له حتى قاتل وقتل، وقد قال ﷺ: لم يحل لأحد قبلي ولا يحل لأحد بعدي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، عن ابن عباس ومجاهد وعطاء.

ب. وفيه في الآية وقيل: لا أقسم بهذا البلد، وأنت حلال منتهك الحرمة مستباح العرض لا تحترم، فلا تبقى للبلد حرمة حيث هتكت: عن أبي مسلم وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

ج. قال: كانت قريش تعظم البلد وتستحل محمدا فيه فقال: ﴿لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ﴾ يريد أنهم استحلوك فيه وكذبوه وشتموك، وكانوا لا يأخذ الرجل منهم فيه قاتل أبيه، ويتقلدون لحاء شجر الحرم، فيأمنون بتقلدهم إياه، فاستحلوا من رسول الله ﷺ ما لم يستحلوه من غيره، فعاب الله ذلك عليهم.

د. وفيه في قوله تعالى: ﴿وَوالِدٍ وَما وَلَدَ﴾ قيل: آدم وما ولد من الأنبياء والأوصياء وأتباعهم، عن أبي عبد الله عليه السلام.

• أقول: والمعاني السابقة مروية من طرق أهل السنة في أحاديث موقوفة، وروى القمي في تفسيره الأخيرتين بالإرسال والإضمار.

٢. ظن الإنسان أنه لن يقدر عليه أحد:

المقطع [٢] من سورة البلد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾ [البلد: ٥-٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٩١»:

١. ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾:

أ. بمنزلة النتيجة لحجة الآية السابقة تقريرها أن الإنسان لما كانت خلقته مبنية على كبد مظروفة له لا ينال قط شيئا مما يريد إلا دون ما يريد أو غير ما يريد فهو محاط في خلقه مغلوب في إرادته مقهور فيما قدر له من الأمر والذي يغلبه في إرادته ويقهره على التلبس بما قدر له وهو الله سبحانه يقدر عليه من كل جهة فله أن يتصرف فيه بما شاء ويأخذه إذا أراد.

ب. فليس للإنسان أن يحسب أن لن يقدر عليه أحد فيدعوه ذلك إلى أن يعلو على الله ويستكبر عن عبادته أو يعطيه في بعض ما أمر به كالإنفاق في سبيله فيستكثره ويمتن به على الله أو يمكر به تعالى بعد

ما عمله رياء وسمعة عملا لوجه الكريم فيقول: أهلكت مالا لبدا.

٢. ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً﴾ اللبد الكثير، سياق الآية وما يتلوها من الآيات إلى آخر السورة مشعر بأنه كان هناك بعض من أظهر الإسلام أو مال إليه فقد أنفق بعض ماله وامتن به مستكثرا له بقوله: ﴿أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً﴾ فنزلت الآيات ورد الله عليه بأن الفوز بميمنة الحياة لا يتم إلا باقتحام عقبة الإنفاق في سبيل الله والدخول في زمرة الذين آمنوا وتواصوا بالصبر والمرحمة، ويتأيد به ما سيأتي في البحث الروائي إن شاء الله تعالى.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً﴾ قال: اللبد المجتمع.

ب. وفي المجمع: في الآية قيل: هو الحارث بن نوفل بن عبد مناف، وذلك أنه أذنب ذنبا فاستفتى رسول الله ﷺ، فأمره أن يكفر فقال: لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات، منذ دخلت في دين محمد، عن مقاتل.

٣. نعم الله على الإنسان وبيان النجدين:

المقطع [٣] من سورة البلد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٧-١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٩٢»:

١. ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ إنكار لما هو لازم قول الإنسان ﴿أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً﴾ على طريق التكنية ومحصل المعنى أن لازم إخبار الإنسان بإهلاكه مالا لبدا أنه يحسب أنا في غفلة وجهل بما أنفق وقد أخطأ في ذلك فالله سبحانه بصير بما أنفق لكن هذا المقدار لا يكفي في الفوز بميمنة الحياة بل لا بد له من أن يتحمل ما هو أزيد من ذلك من مشاق العبودية فيقتحم العقبة ويكون مع المؤمنين في جميع ما هم فيه.

٢. ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾ النجد الطريق المرتفع، والمراد بالنجدين طريق الخير وطريق الشر وسميا النجدين لما في سلوك كل منهما من الجهد والكدح، وفسرا بثديي الأم وهو بعيد.

٣. ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ أي جهزناه في بدنه بما يبصر به فيحصل له العلم بالمرئيات على سعة نطاقها، وقوله: ﴿وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ﴾ أي أولم نجعل له لسانا وشفتين يستعين بها على التكلم والدلالة على

ما في ضميره من العلم ويهتدي بذلك غيره على العلم بالأمور الغائبة عن البصر.

٤. ﴿وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي علمناه طريق الخير وطريق الشر بإلهام منا فهو يعرف الخير ويميزه من الشر فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾ [الشمس: ٨]

٥. وفي الآيات الثلاث حجة على قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ أي على أنه تعالى يرى أعمال عباده ويعلم ما في ضمائرهم من وجوه الأعمال ويميز الخير من الشر والحسنة من السيئة، محصلها أن الله سبحانه هو الذي يعرف المرئيات للإنسان بوسيلة عينيه وكيف يتصور أن يعرفه أمرا وهو لا يعرفه؟ وهو الذي يدل الإنسان على ما في الضمير بواسطة الكلام وهل يعقل أن يكشف له عما هو في حجاب عنه؟ وهو الذي يعلم الإنسان ويميز له الخير والشر بالإلهام وهل يمكن معه أن يكون هو نفسه لا يعلم به ولا يميزه؟ فهو تعالى يرى ما عمله الإنسان ويعلم ما ينويه بعمله ويميز كونه خيرا أو شرا وحسنة أو سيئة.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: أنه قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: إن أناسا يقولون في قوله: ﴿وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أنهما الثديان، فقال: لا، هما الخير والشر.

ب. وفي أصول الكافي، بإسناده عن حمزة بن محمد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله تعالى: ﴿وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾ قال: نجد الخير والشر.

• أقول: وروي في الدر المنثور، هذا المعنى بطرق عن علي عليه السلام وأنس وأبي أمامة وغيرهم عن النبي ﷺ ورواه القمي في تفسيره، مرسلا مضمرا.

٤. اقتحام العقبة بالإيمان والعمل الصالح:

المقطع [٤] من سورة البلد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: ١١ـ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٩٢»:

١. ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾:

أ. الاقتحام الدخول بسرعة وضغط وشدة، والعقبة الطريق الصعب الوعر الذي فيه صعود من

الجبل، واقتحام العقبة إشارة إلى الإنفاق الذي يشق على منفقه كما سيصرح به.

ب. وقيل: الجملة دعاء على الإنسان القائل: أهلكت مالا لبدا، وليس بشيء.

٢. ﴿وَما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ تفخيم لشأنها كما مر في نظائره.

٣. ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾:

أ. أي عتقها وتحريرها أو التقدير هي أي العقبة فك رقبة فالمراد بالعقبة نفس الفك الذي هو العمل واقتحامه الإتيان به، والإتيان بالعمل نفس العمل.

ب. وبه يظهر فساد قول بعضهم إن فك رقبة اقتحام للعقبة لا نفس العقبة فهناك مضاف محذوف يعود إليه الضمير والتقدير وما أدراك ما اقتحام العقبة هو، أي الاقتحام، فك رقبة.

ج. وما ذكر في بيان العقبة من فك الرقبة والإطعام في يوم ذي مسغبة من مصاديق نشر الرحمة خص بالذكر لمكان الأهمية، وقدم فك الرقبة وابتدئ به لكمال عناية الدين بفك الرقاب.

٤. ﴿أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ﴾ المسغبة المجاعة، والمقربة القرابة بالنسب، والمتربة من التراب ومعناها الالتصاق بالتراب من شدة الفقر، والمعنى أو إطعام في يوم المجاعة يتيما من ذي القربى أو مسكينا شديد الفقر.

٥. ﴿ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾:

أ. المرحمة مصدر ميمي من الرحمة، والتواصي بالصبر وصية بعضهم بعضا بالصبر على طاعة الله والتواصي بالمرحمة وصية بعضهم بعضا بالرحمة على ذوي الفقر والفاقة والمسكنة.

ب. والجملة أعني قوله: ﴿ثُمَّ كانَ﴾ معطوفة على قول: ﴿اقْتَحَمَ﴾ والتقدير فلا اقتحم العقبة ولا كان من الذين آمنوا.

ج. وقيل فيها غير ذلك مما لا جدوى فيه.

٦. ﴿أُولئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ﴾:

أ. بمعنى اليمن مقابل الشؤم، والإشارة بأولئك إلى ما يدل عليه السياق السابق أي الذين اقتحموا العقبة وكانوا من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر والمرحمة أصحاب اليمن لا يرون مما قدموه من الإيمان وعملهم الصالح إلا أمرا مباركا جميلا مرضيا.

ب. وقيل: المراد بالميمنة جهة اليمين وأصحاب الميمنة هم الذين يؤتون كتابهم بيمينهم، ومقابلة الميمنة بالمشأمة لا تلائمه.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن جعفر بن خلاد قال: كان أبو الحسن الرضا عليه السلام إذا أكل أتي بصحفة، فتوضع قرب مائدته، فيعمد إلى أطيب الطعام مما يؤتى به، فيأخذ من كل شيء شيئا فيضع في تلك الصحفة، ثم يأمر بها للمساكين، ثم يتلو هذه الآية ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾، ثم يقول: علم الله عز وجل، أنه ليس كل إنسان يقدر على عتق رقبة، فجعل لهم السبيل إلى الجنة.

ب. وفي المجمع: (وروي مرفوعا عن البراء بن عازب قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، علمني عملا يدخلني الجنة، قال: إن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة، أعتق النسمة وفك الرقبة، فقال أوليسا واحدا؟ قال: لا، عتق الرقبة أن يتفرد بعتقها، وفك الرقبة أن يعين في ثمنها، والفيء على ذي الرحم الظالم، فإن لم يكن ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن، وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من خير.

ج. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ﴾ قال: لا يقيه من التراب شيء.

٥. الكافرون بآيات الله أصحاب المشأمة والنار:

المقطع [٥] من سورة البلد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ [البلد: ١٩-٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٩٣»:

١. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ﴾:

أ. الآيات الآفاقية والأنفسية آيات وأدلة عليه تعالى تدل على توحده في الربوبية والألوهية وسائر ما يتفرع عليه ردها كفر بها والكفر بها كفر بالله وكذا القرآن الكريم وآياته، وكذا ما نزل وبلغ من طريق الرسالة.

ب. والظاهر أن المراد بالآيات مطلقها، والمشأمة خلاف الميمنة.

٢. ﴿عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ أي مطبقة.

سورة الشمس

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٣] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. تذكر السورة أن فلاح الإنسان ـ وهو يعرف التقوى والفجور بتعريف إلهي وإلهام باطني ـ أن يزكي نفسه وينميها إنماء صالحاً بتحليتها بالتقوى وتطهيرها من الفجور، والخيبة والحرمان من السعادة لمن يدسيها.

ب. ويستشهد لذلك بما جرى على ثمود من عذاب الاستئصال لما كذبوا رسولهم صالحاً وعقروا الناقة، وفي ذلك تعريض لأهل مكة.

ج. والسورة مكية بشهادة من سياقها.

١. القسم بالشمس والقمر والنهار والليل:

المقطع [١] من سورة الشمس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ١ـ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٩٦»:

١. ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحاها﴾ في المفردات: (الضحى انبساط الشمس وامتداد النهار وسمي الوقت به) انتهى، والضمير للشمس، وفي الآية إقسام بالشمس وانبساط ضوئها على الأرض.

٢. ﴿وَالْقَمَرِ إِذا تَلاها﴾ عطف على الشمس والضمير لها وإقسام بالقمر حال كونه تاليا للشمس، والمراد بتلوه لها إن كان كسبه النور منها فالحال حال دائمة وإن كان طلوعه بعد غروبها فالإقسام به من حال كونه هلالا إلى حال تبدره.

٣. ﴿وَالنَّهارِ إِذا جَلَّاها﴾:

أ. التجلية الإظهار والإبراز، وضمير التأنيث للأرض، والمعنى وأقسم بالنهار إذا أظهر الأرض للأبصار.

ب. وقيل: ضمير الفاعل في ﴿جَلَّاها﴾ للنهار وضمير المفعول للشمس، والمراد الإقسام بحال إظهار النهار للشمس فإنها تنجلي وتظهر إذا انبسط النهار، وفيه أنه لا يلائم ما تقدمه فإن الشمس هي

المظهرة للنهار دون العكس.

ج. وقيل: الضمير المؤنث للدنيا.

د. وقيل: للظلمة.

هـ. وقيل: ضمير الفاعل لله تعالى وضمير المفعول للشمس، والمعنى وأقسم بالنهار إذا أظهر الله الشمس، وهي وجوه بعيدة.

٤. ﴿وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشاها﴾:

أ. أي يغطي الأرض، فالضمير للأرض كما في ﴿جَلَّاها﴾

ب. وقيل: للشمس وهو بعيد فالليل لا يغطي الشمس وإنما يغطي الأرض وما عليها.

ج. والتعبير عن غشيان الليل الأرض بالمضارع بخلاف تجلية النهار لها حيث قيل: ﴿وَالنَّهارِ إِذا جَلَّاها وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشاها﴾ للدلالة على الحال ليكون فيه إيماء إلى غشيان الفجور الأرض في الزمن الحاضر الذي هو أوائل ظهور الدعوة الإسلامية لما تقدم أن بين هذه الأقسام وبين المقسم بها نوع اتصال وارتباط، هذا مضافا إلى رعاية الفواصل.

٥. ﴿وَالسَّماءِ وَما بَناها وَالْأَرْضِ وَما طَحاها﴾:

أ. طحو الأرض ودحوها بسطها، و(ما) في ﴿وَما بَناها﴾ و﴿ما طَحاها﴾ موصولة، والذي بناها وطحاها هو الله تعالى والتعبير عنه تعالى بما دون من لإيثار الإبهام المفيد للتفخيم والتعجيب فالمعنى وأقسم بالسماء والشيء القوي العجيب الذي بناها وأقسم بالأرض والشيء القوي العجيب الذي بسطها.

ب. وقيل: ما مصدرية والمعنى وأقسم بالسماء وبنائها والأرض وطحوها، والسياق، وفيه قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها فَأَلْهَمَها﴾، لا يساعده.

٦. ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها﴾:

أ. أي وأقسم بنفس والشيء ذي القدرة والعلم والحكمة الذي سواها ورتب خلقتها ونظم أعضاءها وعدل بين قواها.

ب. وتنكير ﴿نَفْسٍ﴾ قيل: للتنكير.

ج. وقيل: للتفخيم ولا يبعد أن يكون التنكير للإشارة إلى أن لها وصفا وأن لها نبأ.

د. والمراد بالنفس النفس الإنسانية مطلقا.

هـ. وقيل: المراد بها نفس آدم عليه السلام ولا يلائمه السياق وخاصة قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها﴾ إلا بالاستخدام على أنه لا موجب للتخصيص.

٧. ﴿فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾:

أ. الفجور، على ما ذكره الراغب، شق ستر الديانة فالنهي الإلهي عن فعل أو عن ترك حجاب مضروب دونه حائل بين الإنسان وبينه واقتراف المنهي عنه شق للستر وخرق للحجاب.

ب. والتقوى، على ما ذكره الراغب، جعل النفس في وقاية مما يخاف، والمراد بها بقرينة المقابلة في الآية بينها وبين الفجور التجنب عن الفجور والتحرز عن المنافي وقد فسرت في الرواية بأنها الورع عن محارم الله.

ج. والإلهام الإلقاء في الروع وهو إفاضته تعالى الصور العملية من تصور أو تصديق على النفس.

د. وتعليق الإلهام على عنواني فجور النفس وتقواها للدلالة على أن المراد تعريفه تعالى للإنسان صفة فعله من تقوى أو فجور وراء تعريفه متن الفعل بعنوانه الأولي المشترك بين التقوى والفجور كأكل المال مثلا المشترك بين أكل مال اليتيم الذي هو فجور وبين أكل مال نفسه الذي هو من التقوى، والمباشرة المشتركة بين الزنا وهو فجور والنكاح وهو من التقوى وبالجملة المراد أنه تعالى عرف الإنسان كون ما يأتي به من فعل فجورا أو تقوى وميز له ما هو تقوى مما هو فجور.

هـ. وتفريع الإلهام على التسوية في قوله: ﴿وَما سَوَّاها فَأَلْهَمَها﴾ للإشارة إلى أن إلهام الفجور والتقوى وهو العقل العملي من تكميل تسوية النفس فهو من نعوت خلقتها كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]

و. وإضافة الفجور والتقوى إلى ضمير النفس للإشارة إلى أن المراد بالفجور والتقوى الملهمين الفجور والتقوى المختصين بهذه النفس المذكورة وهي النفس الإنسانية ونفوس الجن على ما يظهر من الكتاب العزيز من كونهم مكلفين بالإيمان والعمل الصالح.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها﴾ قال: خلقها وصورها.

ب. أخرج أحمد ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عمران بن حصين أن رجلا قال: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه شيء قد قضي عليهم، ومضى عليهم في قدر قد سبق؟ أو فيما يستقبلون به نبيهم واتخذت عليهم به الحجة؟ قال: بل شيء قضي عليهم، قال: فلم يعملون إذا؟ قال: من كان الله خلقه لواحدة من المنزلتين هيأه لعملها، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾

• أقول: قوله: أو فيما يستقبلون.، الظاهر أن الهمزة فيه للاستفهام والواو للعطف والمعنى وهل في طاعتهم لنبيهم قضاء من الله وقدر قد سبق؟ وقوله: فلم يعملون إذا، أي فما معنى عملهم واستناد الفعل إليهم،؟

• وقوله ﷺ: من كان الله.، معناه أن وجوب صدور الفعل حسنة أو سيئة منهم بالنظر إلى القضاء والقدر السابقين لا ينافي إمكان صدوره بالنظر إلى الإنسان واختياره، وقد اتضح ذلك في الأبحاث السابقة من الكتاب مرارا.

٢. فلاح من زكى نفسه وخيبة من دسها:

المقطع [٢] من سورة الشمس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٩٨»:

١. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها﴾:

أ. الفلاح هو الظفر بالمطلوب وإدراك البغية، والخيبة خلافه، والزكاة نمو النبات نموا صالحا ذا بركة والتزكية إنماؤه كذلك، والتدسي، وهو من الدس بقلب إحدى السينين ياء، إدخال الشيء في الشيء بضرب من الإخفاء، والمراد بها بقرينة مقابله التزكية: الإنماء على غير ما يقتضيه طبعها وركبت عليه نفسها.

ب. والآية أعني قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ جواب القسم، وقوله: ﴿وَقَدْ خابَ﴾ معطوف عليه.

ج. والتعبير بالتزكية والتدسي عن إصلاح النفس وإفسادها مبتن على ما يدل عليه قوله: ﴿فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾ على أن من كمال النفس الإنسانية أنها ملهمة مميزة، بحسب فطرتها، للفجور من التقوى أي إن الدين وهو الإسلام لله فيما يريده فطري للنفس فتحلية النفس بالتقوى تزكية وإنماء صالح وتزويد لها بما يمدها في بقائها قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَاتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]

وأمرها في الفجور على خلاف التقوى.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: (وروى زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾ قال: بين لها ما يأتي وما يترك، وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾ قال: قد أفلح من أطاع ﴿وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها﴾ قال: قد خاب من عصى.

ب. أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾ الآية أفلحت نفس زكاها الله، وخابت نفس خيبها الله من كل خير.

- أقول: انتساب التزكية والتخييب إليه تعالى بوجه لا ينافي انتسابها بالطاعة والمعصية إلى الإنسان.
- وإنما ينتسب إلى الله سبحانه من الإضلال ما كان على طريق المجازاة كما قال: ﴿وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]

٣. قصة ثمود وناقة الله وعقابهم:

المقطع [٣] من سورة الشمس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١١ـ١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٢٩٩»:

١. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها﴾:

أ. الطغوى مصدر كالطغيان، والباء للسببية.

ب. والآية وما يتلوها إلى آخر السورة استشهاد وتقرير لما تقدم من قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾

٢. ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها﴾ ظرف لقوله: ﴿كَذَّبَتْ﴾ أو لقوله: ﴿بِطَغْواها﴾ والمراد بأشقى ثمود هو الذي عقر الناقة واسمه على ما في الروايات قدار بن سالف وقد كان انبعاثه ببعث القوم كما تدل عليه الآيات التالية بما فيها من ضمائر الجمع.

٣. ﴿فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ناقَةَ اللهِ وَسُقْياها﴾:

أ. المراد برسول الله صالح عليه السلام نبي ثمود، وقوله: ﴿ناقَةَ اللهِ﴾ منصوب على التحذير،

وقوله: ﴿وَسُقْياها﴾ معطوف عليه.

ب. والمعنى فقال لهم صالح برسالة من الله: احذروا ناقة الله وسقياها ولا تتعرضوا لها بقتلها أو منعها عن نوبتها في شرب الماء، وقد فصل الله القصة في سورة هود وغيرها.

٤. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ﴾ فَسَوَّاها) العقر إصابة أصل الشيء ويطلق على نحر البعير والقتل، والدمدمة على الشيء الإطباق عليه يقال: دمدم عليه القبر أي أطبقه عليه والمراد شمولهم بعذاب يقطع دابرهم ويمحو أثرهم بسبب ذنبهم.

٥. ﴿فَسَوَّاها﴾:

أ. الظاهر أن الضمير لثمود باعتبار أنهم قبيلة أي فسواها بالأرض أو هو تسوية الأرض بمعنى تسطيحها وإعفاء ما فيها من ارتفاع وانخفاض.

ب. وقيل: الضمير للدمدمة المفهومة من قوله: ﴿فَدَمْدَمَ﴾ والمعنى فسوى الدمدمة بينهم فلم يفلت منهم قوي ولا ضعيف ولا كبير ولا صغير.

٦. ﴿وَلا يَخافُ عُقْباها﴾:

أ. الضمير للدمدمة أو التسوية، والواو للاستئناف أو الحال.

ب. والمعنى: ولا يخاف ربهم عاقبة الدمدمة عليهم وتسويتهم كما يخاف الملوك والأقوياء عاقبة عقاب أعدائهم وتبعته، لأن عواقب الأمور هي ما يريده وعلى وفق ما يأذن فيه فالآية قريبة المعنى من قوله تعالى: ﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]

ج. وقيل: ضمير ﴿لا يَخافُ﴾ للأشقى، والمعنى ولا يخاف عاقر الناقة عقبى ما صنع بها.

د. وقيل: ضمير ﴿لا يَخافُ﴾ لصالح وضمير ﴿عُقْباها﴾ للدمدمة والمعنى ولا يخاف صالح عقبى الدمدمة عليهم لثقته بالنجاة وضعف الوجهين ظاهر.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: وقد صحت الرواية بالإسناد عن عثمان بن صهيب عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: من أشقى الأولين؟ قال: عاقر الناقة، قال: صدقت، فمن أشقى الآخرين؟ قال: قلت: لا أعلم يا رسول الله، قال: الذي يضربك على هذه فأشار إلى يافوخة.

• أقول: وروي فيه هذا المعنى أيضا عن عمار بن ياسر.

ب. وفي تفسير البرهان: وروى الثعلبي والواحدي بإسنادهما عن عمار وعن عثمان بن صهيب وعن الضحاك وروى ابن مردويه بإسناده عن جابر بن سمرة وعن عمار وعن ابن عدي أو عن الضحاك وروى الخطيب في التاريخ، عن جابر بن سمرة وروى الطبري والموصلي وروى أحمد عن الضحاك عن عمار أنه قال: قال النبي ﷺ: يا علي أشقى الأولين عاقر الناقة، وأشقى الآخرين قاتلك، وفي رواية من يخضب هذه من هذا.

سورة الليل

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٧] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. غرض السورة الإنذار، وتسلك إليه بالإشارة إلى اختلاف مساعي الناس، وأن منهم من أنفق واتقى وصدق بالحسنى، فسيمكنه الله من حياة خالدة سعيدة، ومنهم من بخل واستغنى وكذب بالحسنى، فسيسلك الله به إلى شقاء العاقبة.

ب. وفي السورة اهتمام وعناية خاصة بأمر الإنفاق المالي.

ج. والسورة تحتمل المكية والمدنية بحسب سياقها.

١. القسم بالليل والنهار والذكر والأنثى:

المقطع [١] من سورة الليل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: ١-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٠٢»:

١. ﴿وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى﴾ إقسام بالليل إذا يغشى النهار على حد قوله تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ويحتمل أن يكون المراد غشيانه الأرض أو الشمس.

٢. ﴿وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى﴾ عطف على الليل، والتجلي ظهور الشيء بعد خفائه، والتعبير عن صفة الليل بالمضارع وعن صفة النهار بالماضي حيث قيل: ﴿يَغْشى﴾ و﴿تَجَلَّى﴾ تقدم فيه وجه في تفسير أول السورة السابقة.

٣. ﴿وما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى﴾:

أ. عطف على الليل كسابقه، و﴿ما﴾ موصولة والمراد به الله سبحانه وإنما عبر بها، دون من، إيثارا للإبهام المشعر بالتعظيم والتفخيم والمعنى وأقسم بالشيء العجيب الذي أوجد الذكر والأنثى المختلفين على كونهما من نوع واحد.

ب. وقيل: ما مصدرية والمعنى وأقسم بخلق الذكر والأنثى وهو ضعيف، والمراد بالذكر والأنثى مطلق الذكر والأنثى أينما تحققا.

ج. وقيل: الذكر والأنثى من الإنسان.

د. وقيل: المراد بهما آدم وزوجته حواء، وأوجه الوجوه أولها.

٤. ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾:

أ. السعي هو المشي السريع، والمراد به العمل من حيث يهتم به، وهو في معنى الجمع، وشتى جمع شتيت بمعنى المتفرق كمرضى جمع مريض.

ب. والجملة جواب القسم والمعنى أقسم بهذه المتفرقات خلقا وأثرا أن مساعيكم لمتفرقات في نفسها وآثارها فمنها إعطاء وتقوى وتصديق ولها أثر خاص بها، ومنها بخل واستغناء وتكذيب ولها أثر خاص بها.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: قول الله عز وجل، ﴿وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى﴾ ﴿وَالنَّجْمِ إِذا هَوى﴾ وما أشبه ذلك؟ فقال: إن لله عز وجل أن يقسم من خلقه بما شاء، وليس لخلقه أن يقسموا إلا به.

• أقول: ورواه في الفقيه، بإسناده عن علي بن مهزيار عن أبي جعفر الثاني عليه السلام.

ب. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى﴾ قال: حين يغشى النهار وهو قسم.

ج. وعن الحميري في قرب الإسناد، عن أحمد بن محمد عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: سمعته يقول: في تفسير ﴿وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى﴾ إن رجلا كان لرجل في حائطه نخلة فكان يضر به، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فدعاه، فقال: أعطني نخلتك بنخلة في الجنة فأبى، فسمع ذلك رجل من الأنصار يكنى أبا الدحداح، فجاء إلى صاحب النخلة فقال: بعني نخلتك بحائطي فباعه فجاءه إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله قد اشتريت نخلة فلان بحائطي، فقال رسول الله: لك بدلها نخلة في الجنة، فأنزل الله تعالى على نبيه ﴿وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى، إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى فَأَمَّا مَنْ أَعْطى﴾ يعني النخلة ﴿وَاتَّقى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى﴾ هو ما عند رسول الله ﷺ، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى﴾، إلى قوله: ﴿تَرَدَّى﴾

• أقول: ورواه القمي في تفسيره، مرسلا مضمرا، وقوله: الزوجين تفسير منه عليه السلام للذكر والأنثى.

٢. تيسير اليسرى لمن أعطى واتقى وصدق:

المقطع [٢] من سورة الليل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥-٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٠٢»:

١. ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعطى وَاتَّقى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى﴾:

أ. تفصيل تفرق مساعيهم واختلاف آثارها.

ب. والمراد بالإعطاء إنفاق المال لوجه الله بقرينة مقابلته للبخل الظاهر في الإمساك عن إنفاق المال وقوله بعد: ﴿وَما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى﴾

٢. ﴿وَاتَّقى﴾ كالمفسر للإعطاء يفيد أن المراد هو الإعطاء على سبيل التقوى الدينية.

٣. ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى﴾:

أ. الحسنى صفة قائمة مقام الموصوف والظاهر أن التقدير بالعدة الحسنى وهي ما وعد الله من الثواب على الإنفاق لوجهه الكريم وهو تصديق البعث والإيمان به ولازمه الإيمان بوحدانيته تعالى في الربوبية والألوهية، وكذا الإيمان بالرسالة فإنها طريق بلوغ وعده تعالى للثواب.

ب. ومحصل الآيتين أن يكون مؤمنا بالله ورسوله واليوم الآخر وينفق المال لوجه الله وابتغاء ثوابه الذي وعده بلسان رسوله.

٤. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى﴾ التيسير التهيئة والإعداد واليسرى الخصلة التي فيها يسر من غير عسر، وتوصيفها باليسر بنوع من التجوز فالمراد من تيسيره لليسرى توفيقه للأعمال الصالحة بتسهيلها عليه من غير تعسير أو جعله مستعدا للحياة السعيدة عند ربه ودخول الجنة بسبب الأعمال الصالحة التي يأتي بها، والوجه الثاني أقرب وأوضح انطباقا على ما هو المعهود من مواعد القرآن.

٣. تيسير العسرى لمن بخل واستغنى وكذب:

المقطع [٣] من سورة الليل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ٨-١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٠٣»:

١. ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى وَما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى﴾:

أ. البخل مقابل الإعطاء، والاستغناء طلب الغنى والثروة بالإمساك والجمع، والمراد بالتكذيب

بالحسنى الكفر بالعدة الحسنى وثواب الله الذي بلغه الأنبياء والرسل ويرجع إلى إنكار البعث.

ب. والمراد بتيسيره للعسرى خذلانه بعدم توفيقه للأعمال الصالحة، بتثقيلها عليه وعدم شرح صدره للإيمان أو إعداده للعذاب.

٢. ﴿وَما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى﴾:

أ. التردي هو السقوط من مكان عال ويطلق على الهلاك فالمراد سقوطه في حفرة القبر أو في جهنم أو هلاكه.

ب. ﴿ما﴾ استفهامية أو نافية أي أي شيء يغنيه ماله إذا مات وهلك أو ليس يغني عنه ماله إذا مات وهلك.

٤. الهدى والآخرة والأولى لله:

المقطع [٤] من سورة الليل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ [الليل: ١٢-١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٠٣»:

١. ﴿إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى وَإِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولى﴾:

أ. تعليل لما تقدم من حديث تيسيره لليسرى وللعسرى أو الإخبار به بأوجز بيان، محصله أنا إنما نفعل هذا التيسير أو نبين هذا البيان لأنه من الهدى والهدى علينا لا يزاحمنا في ذلك شيء ولا يمنعنا عنه مانع.

ب. فقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى﴾ يفيد أن هدى الناس مما قضى سبحانه به وأوجبه على نفسه بمقتضى الحكمة وذلك أنه خلقهم ليعبدوه كما قال: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فجعل عبادته غاية لخلقهم وجعلها صراطا مستقيما إليه كما قال: ﴿إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ صِراطِ اللهِ﴾ [الشورى: ٥٣] وقضى على نفسه أن يبين لهم سبيله ويهديهم إليه بمعنى إراءة الطريق سواء سلكوها أم تركوها كما قال: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ﴾ [النحل: ٩]، وقال: ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] وقال: ﴿إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [الإنسان: ٣] ولا ينافي ذلك قيام غيره تعالى بأمر هذا المعنى من الهدى بإذنه كالأنبياء كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

[الشورى: ٥٢]، وقال: ﴿قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقد تقدم لهذه المسألة بيان عقلي في مباحث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب.

ج. هذا في الهداية بمعنى إراءة الطريق وأما الهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب، والمطلوب في المقام الآثار الحسنة التي تترتب على الاهتداء بهدى الله والتلبس بالعبودية كالحياة الطيبة المعجلة في الدنيا والحياة السعيدة الأبدية في الآخرة، فمن البين أنه من قبيل الصنع والإيجاد الذي يختص به تعالى فهو مما قضى به الله وأوجبه على نفسه وسجله بوعده الحق قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى﴾ [طه: ١٢٣]، وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢]

د. ولا ينافي انتساب هذا المعنى من الهداية إليه تعالى بنحو الأصالة انتسابه إلى غيره تعالى بنحو التبع بتخلل الأسباب بينه تعالى وبين ما ينسب إليه من الأثر بإذنه.

هـ. ومعنى الآية، إن كان المراد بالهدى إراءة الطريق، أنا إنما نبين لكم ما نبين لأنه من إراءة طريق العبودية وإراءة الطريق علينا، وإن كان المراد به الإيصال إلى المطلوب أنا إنما نيسر هؤلاء لليسرى من الأعمال الصالحة أو من الحياة السهلة الأبدية ودخول الجنة لأنه من إيصال الأشياء إلى غاياتها وعلينا ذلك.

و. وأما التيسير للعسرى فهو مما يتوقف عليه التيسير لليسرى ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧] وقد قال سبحانه في القرآن الذي هو هدى للعالمين: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً﴾ [الإسراء: ٨٢]

ز. ويمكن أن يكون المراد به مطلق الهداية أعم من الهداية التكوينية الحقيقية والتشريعية الاعتبارية، على ما هو ظاهر إطلاق اللفظ، فله تعالى الهداية الحقيقية كما قال: ﴿الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾ [طه: ٥٠]، والهداية الاعتبارية كما قال: ﴿إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [الإنسان: ٣]

٢. ﴿وَإِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولى﴾:

أ. أي عالم البدء وعالم العود فكل ما يصدق عليه أنه شيء فهو مملوك له تعالى بحقيقة الملك الذي

هو قيام وجوده بربه القيوم ويتفرع عليه الملك الاعتباري الذي من آثاره جواز التصرفات.

ب. فهو تعالى يملك كل شيء من كل جهة فلا يملك شيء منه شيئا فلا معارض يعارضه ولا مانع يمنعه ولا شيء يغلبه كما قال: ﴿وَاللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١] وقال: ﴿وَاللهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١]، وقال: ﴿وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]

٣. أحاديث وآثار: عن الحميري عن أحمد بن محمد عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال، قلت: قول الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى﴾ قال: إن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فقلت له: أصلحك الله إن قوما من أصحابنا يزعمون، أن المعرفة مكتسبة، وأنهم إن ينظروا من وجه النظر أدركوه، فأنكر ذلك وقال: ما لهؤلاء القوم لا يكتسبون الخير لأنفسهم؟ ليس أحد من الناس، إلا ويجب أن يكون خيرا ممن هو خير منه، هؤلاء بنو هاشم موضعهم موضعهم وقرابتهم قرابتهم، وهم أحق بهذا الأمر منكم، أفترى أنهم لا ينظرون لأنفسهم؟ وقد عرفتم ولم يعرفوا، قال أبو جعفر: لو استطاع الناس لأحبونا.

• أقول: أما الهداية، والمراد بها الإيصال إلى المطلوب، فهي لله تعالى لأنها من شئون الربوبية، وأما الإضلال والمراد به الإضلال على سبيل المجازاة دون الإضلال الابتدائي الذي لا يضاف إليه تعالى فهو الله أيضا لكونه إمساكا عن إنزال الرحمة وعدما للهداية وإذا كانت الهداية له فالإمساك عنه أيضا منسوب إليه تعالى.

٥. النار تلظى للأشقى المكذب المتولي:

المقطع [٥] من سورة الليل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل: ١٤-١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٠٥»:

١. ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾:

أ. تفريع على ما تقدم أي إذا كان الهدى علينا فأنذرتكم نار جهنم وبذلك يوجه ما في قوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ﴾ من الالتفات عن التكلم مع الغير إلى التكلم وحده أي إذا كان الهدى مقضية محتومة فالمنذر بالأصالة هو الله وإن كان بلسان رسوله.

ب. وتلظى النار تلهبها وتوهجها، والمراد بالنار التي تتلظى جهنم كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّها لَظى﴾

[المعارج: ١٥]

ج. والمراد بالأشقى مطلق الكافر الذي يكفر بالتكذيب والتولي فإنه أشقى من سائر من شقي في دنياه فمن ابتلي في بدنه شقي ومن أصيب في ماله أو ولده مثلا شقي ومن خسر في أمر آخرته شقي والشقي في أمر آخرته أشقى من غيره لكون شقوته أبدية لا مطمع في التخلص منها بخلاف الشقوة في شأن من شئون الدنيا فإنها مقطوعة لا محالة مرجوة الزوال عاجلا.

د. فالمراد بالأشقى هو الكافر المكذب بالدعوة الحقة المعرض عنها على ما يدل عليه توصيفه بقوله: ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ ويؤيده إطلاق الإنذار، وأما الأشقى بمعنى أشقى الناس كلهم فمما لا يساعد عليه السياق البتة.

هـ. والمراد بصلي النار اتباعها ولزومها فيفيد معنى الخلود وهو مما قضى الله به في حق الكافر، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]

و. وبذلك يندفع ما قيل: إن قوله: ﴿لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى﴾ ينفي عذاب النار عن فساق المؤمنين على ما هو لازم القصر في الآية، وجه الاندفاع أن الآية إنما تنفي عن غير الكافر الخلود فيها دون أصل الدخول.

٦. تجنب النار للأتقى المتصدق:

المقطع [٦] من سورة الليل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الليل: ١٧ـ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٠٦»:

١. ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى وَما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى﴾:

أ. التجنيب التبعيد، وضمير ﴿سَيُجَنَّبُهَا﴾ للنار، والمعنى سيبعد عن النار الأتقى.

ب. والمراد بالأتقى من هو أتقى من غيره ممن يتقي المخاطر فهناك من يتقي ضيعة النفوس كالموت والقتل ومن يتقي فساد الأموال ومن يتقي العدم والفقر فيمسك عن بذل المال وهكذا ومنهم من يتقي الله فيبذل المال، وأتقى هؤلاء الطوائف من يتقي الله فيبذل المال لوجهه وإن شئت فقل يتقي خسران الآخرة فيتزكى بالإعطاء.

ج. فالمفضل عليه للأتقى هو من لا يتقي بإعطاء المال وإن اتقى سائر المخاطر الدنيوية أو اتقى الله

بسائر الأعمال الصالحة.

د. فالآية عامة بحسب مدلولها غير خاصة ويدل عليه توصيف الأتقى بقوله: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ﴾ وهو وصف عام وكذا ما يتلوه، ولا ينافي ذلك كون الآيات أو جميع السورة نازلة لسبب خاص كما ورد في أسباب النزول.

هـ. وأما إطلاق المفضل عليه بحيث يشمل جميع الناس من طالح أو صالح ولازمه انحصار المفضل في واحد مطلقا أو واحد في كل عصر، ويكون المعنى وسيجنبها من هو أتقى الناس كلهم وكذا المعنى في نظيره: لا يصلاها إلا أشقى الناس كلهم فلا يساعد عليه سياق آيات صدر السورة، وكذا الإنذار العام الذي في قوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى﴾ فلا معنى لأن يقال: أنذرتكم جميعا نارا لا يخلد فيها إلا واحد منكم جميعا ولا ينجو منها إلا واحد منكم جميعا.

٢. ﴿الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى﴾ صفة للأتقى أي الذي يعطي وينفق ماله يطلب بذلك أن ينمو نماء صالحا.

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ قال: أبو الدحداح.

• أقول: هذا ما من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليه السلام.

ب. وروى الطبرسي في مجمع البيان، القصة عن الواحدي بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس وفيه أن الأنصاري ساوم صاحب النخلة في نخلة في نخلته، ثم اشتراها منه بأربعين نخلة ثم وهبها للنبي ﷺ، فوهبها النبي لصاحب الدار، ثم روى الطبرسي عن عطاء أن اسم الرجل أبو الدحداح، وروى السيوطي في الدر المنثور، القصة عن ابن أبي حاتم عن ابن عباس وضعفه.

ج. وقد ورد من طرق أهل السنة أن السورة نزلت في أبي بكر قال الرازي في التفسير الكبير: أجمع المفسرون منا على أن المراد منه، يعني من الأتقى، أبو بكر، واعلم أن الشيعة بأسرهم ينكرون هذه الرواية، ويقولون إنما نزلت في حق علي بن أبي طالب والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ﴾ فقوله: ﴿الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى﴾ إشارة إلى ما في تلك الآية من قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ﴾ ثم أخذ الأتقى بمعنى أفضل الخلق أي أتقى الناس جميعا وقد تقدم الكلام فيه.

د. أما ما نسب إلى الشيعة بأسرهم من القول فالمعتمد عليه من طرقهم صحيح الحميري المتقدم

وما في معناه من الروايات الدالة على نزولها في أبي الدحداح الأنصاري.

هـ. نعم ورد في رواية ضعيفة عن البرقي عن إسماعيل بن مهران عن أيمن بن محرز عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام وفيها، وأما قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ قال رسول الله ﷺ ومن تبعه، و﴿الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى﴾ قال: ذاك أمير المؤمنين عليه السلام وهو قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ﴾ وقوله: ﴿وَما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى﴾ فهو رسول الله الذي ليس لأحد عنده من نعمة تجزى، ونعمته جارية على جميع الخلق ﷺ.

• والرواية على ضعف سندها من قبيل الجري والتطبيق دون التفسير ومن واضح الدليل عليه تطبيقه الموصوف على رسول الله ﷺ والوصف على علي عليه السلام ثم الآية التالية على النبي ﷺ ولو كانت من التفسير لفسد بذلك النظم قطعا، هذا لو كانت الواو في قوله: (و﴿الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى﴾) من الرواية ولو فرضت من الآية كانت الرواية من روايات التحريف المردودة.

٧. العطاء لوجه الله والرضا:

المقطع [٧] من سورة الليل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ١٩-٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٠٧»:

١. ﴿وَما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى﴾:

أ. تقرير لمضمون الآية السابقة أي ليس لأحد عنده من نعمة تجزى تلك النعمة بما يؤتيه من المال وتكافأ وإنما يؤتيه لوجه الله ويؤيد هذا المعنى تعقيبه بقوله: ﴿إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى﴾

ب. فالتقدير من نعمة تجزى به، وإنما حذف الظرف رعاية للفواصل، ويندفع بذلك ما قيل: إن بناء ﴿تُجْزى﴾ للمفعول لأن القصد ليس لفاعل معين.

٢. ﴿إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى﴾ استثناء منقطع والمعنى ولكنه يؤتي ماله طلبا لوجه ربه الأعلى وقد تقدم كلام في معنى وجه الله تعالى وفي معنى الاسم الأعلى.

٣. ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضى﴾ أي ولسوف يرضى هذا الأتقى بما يؤتيه ربه الأعلى من الأجر الجزيل والجزاء الحسن الجميل.

٤. وفي ذكر صفتي الرب والأعلى إشعار بأن ما يؤتاه من الجزاء أنعم الجزاء وأعلاه وهو المناسب

لربوبيته تعالى وعلوه، ومن هنا يظهر وجه الالتفات في الآية السابقة في قوله: ﴿وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ من سياق التكلم وحده إلى الغيبة بالإشارة إلى الوصفين: ربه الأعلى.

سورة الضحى

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٧] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. قيل: انقطع الوحي عن النبي ﷺ أياماً، حتى قالوا: إن ربه ودعه، فنزلت السورة فطيب الله بها نفسه.

ب. والسورة تحتمل المكية والمدنية.

١. القسم بالضحى والليل على عدم ترك الله لنبيه:

المقطع [١] من سورة الضحى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ١-٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣١٠»:

١. ﴿وَالضُّحى وَاللَّيْلِ إِذا سَجى﴾ إقسام، والضحى، على ما في المفردات، انبساط الشمس وامتداد النهار وسمي الوقت به، وسجو الليل سكونه وهو غشيان ظلمته.

٢. ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى﴾ التوديع الترك، والقلى بكسر القاف البغض أو شدته، والآية جواب القسم، ومناسبة نور النهار وظلمة الليل لنزول الوحي وانقطاعه ظاهرة.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَالضُّحى﴾ قال: إذا ارتفعت الشمس ﴿وَاللَّيْلِ إِذا سَجى﴾ قال: إذا أظلم.

ب. وفيه في قوله تعالى ﴿وَما قَلى﴾ قال: لم يبغضك.

٢. الآخرة خير للنبي من الأولى:

المقطع [٢] من سورة الضحى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣١٠»:

١. ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى﴾ في معنى الترقي بالنسبة إلى ما تفيده الآية السابقة من كونه ﷺ على ما هو عليه من موقف الكرامة والعناية الإلهية كأنه قيل: أنت على ما كنت عليه من الفضل والرحمة ما دمت حيا في الدنيا وحياتك الآخرة خير لك من حياتك الدنيا.

٣. وعد الله لنبيه بالعطاء والرضا:

المقطع [٣] من سورة الضحى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣١٠»:

١. ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى﴾:

أ. تقرير وتثبيت لقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى﴾ وقد اشتمل الوعد على عطاء مطلق يتبعه رضي مطلق.

ب. وقيل: الآية ناظرة إلى الحياتين جميعا دون الحياة الآخرة فقط.

٢. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى﴾

ب. أخرج العسكري في المواعظ وابن لآل وابن النجار عن جابر بن عبد الله قال: دخل رسول الله ﷺ على فاطمة، وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من حلة الإبل، فلما نظر إليها قال: يا فاطمة تعجلي، فتجرعي مرارة الدنيا لنعيم الآخرة غدا، فأنزل الله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى﴾

• أقول: تحتمل الرواية نزول الآية وحدها بعد نزول بقية آيات السورة قبلها ثم الإلحاق وتحتمل نزولها وحدها ثانيا.

ج. أخرج ابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية من طريق حرب بن شريح قال: قلت لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين: أرأيت هذه الشفاعة التي يتحدث بها أهل العراق أحق هي؟ قال: إي والله حدثني عمي محمد بن الحنفية، عن علي أن رسول الله ﷺ قال: أشفع لأمتي حتى يناديني ربي: أرضيت يا محمد؟ فأقول: نعم يا رب رضيت، ثم أقبل علي فقال: إنكم تقولون يا معشر أهل العراق، إن أرجى آية في كتاب الله: ﴿يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ، لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ قلت: إنا لنقول ذلك، قال: فكلنا أهل البيت نقول: إن أرجى آية في كتاب الله، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى﴾ الشفاعة.

٤. تذكير النبي بنعمة الإيواء بعد اليتم:

المقطع [٤] من سورة الضحى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣١٠»:

١. ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى﴾:

أ. الآية وما يتلوها من الآيتين إشارة إلى بعض نعمه تعالى العظام عليه ﷺ فقد مات أبوه وهو في بطن أمه ثم ماتت أمه وهو ابن سنتين ثم مات جده الكفيل له وهو ابن ثمان سنين فكفّله عمه ورباه.

ب. وقيل: المراد باليتيم الوحيد الذي لا نظير له في الناس كما يقال: در يتيم، والمعنى ألم يجدك وحيدا بين الناس فآوى الناس إليك وجمعهم حولك.

٢. أحاديث وآثار: في تفسير البرهان، عن ابن بابويه بإسناده عن ابن الجهم عن الرضا عليه السلام في مجلس المأمون قال: قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى﴾ يقول: ألم يجدك وحيدا فآوى إليك الناس؟ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ يعني عند قومك ﴿فَهَدى﴾ أي هداهم إلى معرفتك؟ ﴿وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنى﴾ يقول: أغناك بأن جعل دعاءك مستجابا؟ فقال المأمون: بارك الله فيك يا ابن رسول الله.

٥. تذكير النبي بنعمة الهداية بعد الضلال:

المقطع [٥] من سورة الضحى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣١٠»:

أ. المراد بالضلال عدم الهداية والمراد بكونه ﷺ ضالا حالة في نفسه مع قطع النظر عن هدايته تعالى فلا هدى له ﷺ ولا لأحد من الخلق إلا بالله سبحانه فقد كانت نفسه في نفسها ضالة وإن كانت الهداية الإلهية ملازمة لها منذ وجدت فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ﴾ [الشورى: ٥٢]، ومن هذا الباب قول موسى على ما حكى الله عنه: ﴿فَعَلْتُها إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠] أي لم أهتد بهدى الرسالة بعد.

ب. ويقرب منه ما قيل: إن المراد بالضلال الذهاب من العلم كما في قوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ويؤيده قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]

ج. وقيل المعنى وجدك ضالا بين الناس لا يعرفون حقك فهداهم إليك ودلهم عليك.

د. وقيل: إنه إشارة إلى ضلاله في طريق مكة حينما كانت تجيء به حليمة بنت أبي ذؤيب من البدو

إلى جده عبد المطلب على ما روي.

هـ. وقيل: إشارة إلى ما روي من ضلاله في شعاب مكة صغيرا.

و. وقيل: إشارة إلى ما روي من ضلاله في مسيره إلى الشام مع عمه أبي طالب في قافلة ميسرة غلام خديجة.

ز. وقيل: غير ذلك وهي وجوه ضعيفة ظاهرة الضعف.

٦. تذكير النبي بنعمة الغنى بعد العيلة:

المقطع [٦] من سورة الضحى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣١١»:

أ. العائل الفقير الذي لا مال له وقد كان ﷺ فقيرا لا مال له فأغناه الله بعد ما تزوج بخديجة بنت خويلد عليه السلام فوهبت له مالها وكان لها مال كثير.

ب. وقيل: المراد بالإغناء استجابة دعوته.

٧. وصية النبي باليتيم والسائل والتحدث بنعمة الله:

المقطع [٧] من سورة الضحى، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ٩ـ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣١١»:

١. ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ قال الراغب: (القهر الغلبة والتذليل معا ويستعمل في كل واحد منهما) انتهى

٢. ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ النهر هو الزجر والرد بغلظة.

٣. ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ التحديث بالنعمة ذكرها قولا وإظهارها فعلا وذلك شكرها، وهذه الأوامر عامة للناس وإن كانت موجهة إلى النبي ﷺ.

٤. والآيات الثلاث متفرعة على الآيات الثلاث التي تسبقها وتذكر نعمه تعالى عليه كأنه قيل: فقد وجدت ما يجده اليتيم من ذلة اليتيم وانكساره فلا تقهر اليتيم باستذلاله في نفسه أو ماله، ووجدت مرارة حاجة الضال إلى الهدى والعائل إلى الغنى فلا تزجر سائلا يسألك رفع حاجته إلى هدى أو معاش، ووجدت أن ما عندك نعمة أنعمها عليك ربك بجوده وكرمه ورحمته فاشكر نعمته بالتحديث بها ولا

تسترها.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير البرهان، عن البرقي بإسناده عن عمرو بن أبي نصر قال: حدثني رجل من أهل البصرة قال: رأيت الحسين بن علي عليه السلام وعبد الله بن عمر، يطوفان بالبيت، فسألت ابن عمر فقلت: قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ قال: أمره أن يحدث بما أنعم الله عليه، ثم إني قلت للحسين بن علي عليه السلام: قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ قال: أمره أن يحدث بما أنعم الله عليه من دينه.

ب. وفي الدر المنثور، عن البيهقي عن الحسن بن علي في قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ قال: إذا أصبت خيرا فحدث إخوانك.

ج. أخرج أبو داود عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: من أبلى بلاء فذكره فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط فإنه كلابس ثوب زور.

سورة الشرح

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٣] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. أمر بالنصب في الله والرغبة إليه، توصل إليه بتقدمة الامتنان.

ب. والسورة تحتمل المكية والمدنية، وسياق آياتها أوفق للمدنية.

ج. وفي بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليه السلام أن الضحى وألم نشرح سورة واحدة، ويروى ذلك أيضاً عن طاووس وعمر بن عبد العزيز.

د. قال الرازي في التفسير الكبير بعد نقله عنهما: (والذي دعاهما إلى ذلك هو أن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ كالعطف على قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً﴾ وليس كذلك، لأن الأول كان نزوله حال اغتمام الرسول ﷺ من إيذاء الكفار، فكانت حال محنة وضيق صدر، والثاني يقتضي أن يكون حال النزول منشرح الصدر طيب القلب، فأنى يجتمعان؟)

• وفيه أن المراد بشرح صدره ﷺ في الآية جعله بحيث يسع ما يلقى إليه من الحقائق، ولا يضيق بما ينزل عليه من المعارف وما يصيبه من أذى الناس في تبليغها، كما سيجيء، لا طيب القلب والسرور كما فسره.

• ويدل على ذلك ما رواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: لقد سألت ربي مسألة وددت أني لم أسأله، قلت: أي رب، إنه قد كان أنبياء قبلي، منهم من سخرت له الريح، ومنهم من كان يحيي الموتى، قال: فقال: ألم أجدك يتيماً فآويتك؟ قال: قلت: بلى، قال: ألم أجدك ضالاً فهديتك؟ قال: قلت: بلى أي رب، قال: ألم أشرح لك صدرك ووضعت عنك وزرك؟ قال: قلت: بلى أي رب، وللكلام تتمة ستوافيك في تفسير سورة الإيلاف إن شاء الله تعالى.

١. شرح الصدر ورفع الوزر والذكر:

المقطع [١] من سورة الشرح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣١٤»:

١. ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾:

أ. قال الراغب: (أصل الشرح بسط اللحم ونحوه يقال: شرحت اللحم وشرحته ومنه شرح الصدر أي بسطته بنور إلهي وسكينة من جهة الله وروح منه قال تعالى: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ﴿فَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ﴾)

ب. وترتب الآيات الثلاث الأول في مضامينها ثم تعليلها بقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ الظاهر في الانطباق على حاله ﷺ في أوائل دعوته وأواسطها وأواخرها ثم تكرار التعليل ثم تفريع آيتي آخر السورة كل ذلك يشهد على كون المراد بشرح صدره ﷺ بسطه بحيث يسع ما يلقى إليه من الوحي ويؤمر بتبليغه وما يصيبه من المكاره والأذى في الله، وبعبارة أخرى جعل نفسه المقدسة مستعدة تامة الاستعداد لقبول ما يفاض عليها من جانب الله تعالى.

٢. ﴿وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾:

أ. الوزر الحمل الثقيل، وإنقاض الظهر كسره بحيث يسمع له صوت كما يسمع من السرير ونحوه عند استقرار شيء ثقيل عليه، والمراد به ظهور ثقل الوزر عليه ظهورا بالغا.

ب. ووضع الوزر إذهاب ما يحس من ثقله وجملة: ﴿وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ معطوفة على قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ لما أن معناه قد شرحنا لك صدرك.

ج. والمراد بوضع وزره ﷺ على ما يفيده السياق، وقد أشرنا إليه، إنفاذ دعوته وإمضاء مجاهدته في الله بتوفيق الأسباب فإن الرسالة والدعوة وما يتفرع على ذلك هي الثقل الذي حمله إثر شرح صدره.

د. وقيل: وضع الوزر إشارة إلى ما وردت به الرواية أن ملكين نزلا عليه وفلقا صدره وأخرجا قلبه وطهراه ثم رداه إلى محله وستوافيك روايته.

هـ. وقيل: المراد بالوزر ما صدر عنه ﷺ قبل البعثة.

و. وقيل: غفلته عن الشرائع ونحوها مما يتوقف على الوحي مع تطلبه.

ز. وقيل: حيرته في بعض الأمور كأداء حق الرسالة.

ح. وقيل: الوحي وثقله عليه في بادئ أمره.

ط. وقيل: ما كان يرى من ضلال قومه وعنادهم مع عجزه عن إرشادهم.

ي. وقيل: ما كان يرى من تعديهم ومبالغتهم في إيذائه.

ك. وقيل: همه لوفاة عمه أبي طالب وزوجه خديجة.

ل. وقيل: الوزر المعصية ورفع الوزر عصمته.

م. وقيل: الوزر ذنب أمته ووضعه غفرانه.

• وهذه الوجوه بعضها سخيف وبعضها ضعيف لا يلائم السياق، وهي بين ما قيل به وبين ما احتمل احتمالا.

٣. ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ رفع الذكر إعلاؤه عن مستوى ذكر غيره من الناس وقد فعل سبحانه به ذلك، ومن رفع ذكره أن قرن الله اسمه ﷺ باسمه فاسمه قرين اسم ربه في الشهادتين اللتين هما أساس دين الله، وعلى كل مسلم أن يذكره مع ربه كل يوم في الصلوات الخمس المفروضة، ومن اللطف وقوع الرفع بعد الوضع في الآيتين.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أبي بن كعب أن أبا هريرة قال: يا رسول الله ما أول ما رأيت من أمر النبوة؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالسا وقال: لقد سألت أبا هريرة، إني لفي صحراء ابن عشرين سنة وأشهرا، إذا بكلام فوق رأسي وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط، وأرواح لم أجدها في خلق قط، وثياب لم أجدها على أحد قط، فأقبلا إلي يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي، لا أجد لأحدهما مسا، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه فأضجعني بلا قصر ولا هصر، فقال أحدهما: أفلق صدره فحوى أحدهما إلى صدري، ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئا كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة، ثم هز إبهام رجلي اليمنى وقال: اغد وأسلم، فرجعت بها أغدو بها رقة على الصغير ورحمة للكبير.

• أقول: وفي نقل بعضهم، كما في روح المعاني، ابن عشر حجج مكان قوله: ابن عشرين سنة وأشهرا، وفي بعض الروايات نقل القصة عند نزول سورة اقرأ باسم ربك وفي بعضها كما في صحيح البخاري ومسلم والترمذي والنسائي نقل القصة عند إسراء النبي.

• والقصة على أي حال من قبيل التمثل بلا إشكال، وقد أطالوا البحث في توجيه ما تتضمنه على

أنها واقعة مادية فتمحلوا بوجوه لا جدوى في التعرض لها بعد فساد أصلها.

ب. أخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: أتاني جبرئيل فقال: إن ربك يقول: تدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت: الله أعلم، قال: إذا ذكرت ذكرت معي.

٢. سنة الله في وضع اليسر مع العسر:

المقطع [٢] من سورة الشرح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣١٥»:

١. ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾:

أ. لا يبعد أن يكون تعليلا لما تقدم من وضع الوزر ورفع الذكر فما حمله الله من الرسالة وأمر به من الدعوة، وذلك أثقل ما يمكن لبشر أن يحمله، كان قد اشتد عليه الأمر بذلك، وكذا تكذيب قومه دعوته واستخفافهم به وإصرارهم على إمحاء ذكره كان قد اشتد عليه فوضع الله وزره الذي حمله بتوفيق الناس لإجابة دعوته ورفع ذكره الذي كانوا يريدون إمحاءه وكان ذلك جريا على سنته تعالى في الكون من الإتيان باليسر بعد العسر فعلل رفع الشدة عنه ﷺ بما أشار إليه من سنته، وعلى هذا فاللام في (العسر) للجنس دون الاستغراق ولعل السنة سنة تحول الحوادث وتقلب الأحوال وعدم دوامها.

ب. وعن الزمخشري في الكشاف، أن الفاء في ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ﴾ فصيحة والكلام مسوق لتسليته ﷺ بالوعد الجميل، قال: كان المشركون يعيرون رسول الله ﷺ والمؤمنين بالفقر والضيقة حتى سبق إلى ذهنه الشريف أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله واحتقارهم فذكره سبحانه ما أنعم به عليه من جلائل النعم ثم قال: (﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ كأنه قال: خولناك ما خولناك فلا تيأس من فضل الله فإن مع العسر الذي أنتم فيه يسرا، وظاهره أن اللام في العسر للعهد دون الجنس وأن المراد باليسر ما رزقه الله المؤمنين بعد من الغنائم الكثيرة)

• وهو ممنوع فذهنه الشريف ﷺ أجل من أن يخفى عليه حالهم وأنهم إنما يرغبون عن دعوته استكبارا على الحق واستعلاء على الله على أن القوم لم يرغبوا في الإسلام حتى بعد ظهور شوكته وإثراء المؤمنين وقد أيأس الله نبيه من إيمان أكثرهم حيث قال: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾،

إلى أن قال، ﴿وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠] والآيات مكية وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] والآية مدنية.

• ولو حمل اليسر بعد العسر على شوكة الإسلام ورفعته بعد ضعته مع أخذ السورة مكية لم يكن به كثير بأس.

٢. ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾:

أ. تكرار للتأكيد والتثبيت.

ب. وقيل: استئناف وذكروا أن في الآيتين دلالة على أن مع العسر الواحد يسران بناء على أن المعرفة إذا أعيدت ثانية في الكلام كان المراد بها عين الأولى بخلاف النكرة كما أنه لو قيل: إذا اكتسبت الدرهم أو درهما فأنفق الدرهم كان المراد بالثاني هو الأول بخلاف ما لو قيل: إذا اكتسبت درهما فأنفق درهما وليست القاعدة بمطردة.

ج. والتنوين في ﴿يُسْراً﴾ للتنويع لا للتفخيم كما ذكره بعضهم، والمعية معية التوالي دون المعية بمعنى التحقق في زمان واحد.

٣. أحاديث وآثار: أخرج عبد الرزاق وابن جرير والحاكم والبيهقي عن الحسن قال: خرج النبي ﷺ يوما مسرورا وهو يضحك ويقول: لن يغلب عسر يسرين ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾

٣. الفراغ والنصب والرغبة إلى الله:

المقطع [٣] من سورة الشرح، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧-٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣١٦»:

١. ﴿فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾:

أ. خطاب للنبي ﷺ متفرع على ما بين قبل من تحميله الرسالة والدعوة ومنه تعالى عليه بما من من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر وكل ذلك من اليسر بعد العسر.

ب. وعليه فالمعنى إذا كان العسر يأتي بعده اليسر والأمر فيه إلى الله لا غير فإذا فرغت مما فرض عليك فأتعب نفسك في الله، بعبادته ودعائه، وارغب فيه ليمن عليك بما لهذا التعب من الراحة ولهذا العسر من اليسر.

ج. وقيل: المراد إذا فرغت من الفرائض فانصب في النوافل.

د. وقيل: إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء، وما يتضمنه القولان بعض المصاديق.

هـ. وقيل: المعنى إذا فرغت من الغزو فاجتهد في العبادة.

و. وقيل: المراد إذا فرغت من دنياك فانصب في آخرتك وقيل غير ذلك وهي وجوه ضعيفة.

٢. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ معناه فإذا فرغت من الصلاة المكتوبة، فانصب إلى ربك في الدعاء وارغب إليه في المسألة، قال: وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام.

سورة التين

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٣] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. تذكر السورة البعث والجزاء، وتسلك إليه من طريق خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم اختلافهم بالبقاء على الفطرة الأولى وخروجهم منها بالانحطاط إلى أسفل سافلين، ووجوب التمييز بين الطائفتين جزاء باقتضاء الحكمة.

ب. والسورة مكية وتحتمل المدنية، ويؤيد نزولها بمكة قوله: ﴿وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾، وليس بصريح فيه لاحتمال نزولها بعد الهجرة وهو ﷺ بمكة.

١. القسم بالتين والزيتون وطور سينين والبلد الأمين:

المقطع [١] من سورة التين، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣١٩»:

١. ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾:

أ. قيل: المراد بالتين والزيتون الفاكهتان المعروفتان أقسم الله بهما لما فيهما من الفوائد الجمة والخواص النافعة.

ب. وقيل: المراد بهما شجرتا التين والزيتون.

ج. وقيل: المراد بالتين الجبل الذي عليه دمشق وبالزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس، ولعل إطلاق اسم الفاكهتين على الجبلين لكونهما منبتيهما ولعل الإقسام بهما لكونهما مبعثي جم غفير من الأنبياء.

د. وقيل غير ذلك.

هـ. والمراد بطور سينين الجبل الذي كلم الله تعالى فيه موسى بن عمران عليه السلام، ويسمى أيضا طور سيناء.

و. والمراد بهذا البلد الأمين مكة المشرفة لأن الأمن خاصة مشرعة للحرم وهي فيه قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً﴾ [العنكبوت: ٦٧] وفي دعاء إبراهيم عليه السلام على ما حكى الله عنه: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً﴾ [البقرة: ١٢٦]، وفي دعائه ثانيا: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾ [إبراهيم: ٣٥]

ز. وفي الإشارة بهذا إلى البلد تثبيت التشريف عليه بالتشخيص وتوصيفه بالأمين إما لكونه فعيلا بمعنى الفاعل ويفيد معنى النسبة والمعنى ذي الأمن كاللابن والتامر وإما لكونه فعيلا بمعنى المفعول والمراد البلد الذي يؤمن الناس فيه أي لا يخاف فيه من غوائلهم ففي نسبة الأمن إلى البلد نوع تجوز.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ، وَطُورِ سِينِينَ وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ التين المدينة والزيتون بيت المقدس، وطور سينين الكوفة وهذا البلد الأمين مكة.

• أقول: وقد ورد هذا المعنى في بعض الروايات عن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام عن النبي ﷺ ولا يخلو من شيء، وفي بعضها: أن التين والزيتون الحسن والحسين والطور علي، والبلد الأمين النبي ﷺ وليس من التفسير في شيء.

ب. أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن خزيمة بن ثابت وليس بالأنصاري سأل النبي ﷺ، عن البلد الأمين فقال: مكة.

٢. خلق الإنسان في أحسن تقويم ورده أسفل سافلين:

المقطع [٢] من سورة التين، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٤ـ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣١٩»:

١. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾:

أ. جواب للقسم والمراد بكون خلقه في أحسن تقويم اشتمال التقويم عليه في جميع شئونه وجهات وجوده، والتقويم جعل الشيء ذا قوام وقوام الشيء ما يقوم به ويثبت فالإنسان والمراد به الجنس ذو أحسن قوام بحسب الخلقة.

ب. ومعنى كونه ذا أحسن قوام بحسب الخلقة على ما يستفاد من قوله بعد: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ﴾ صلوحه بحسب الخلقة للعروج إلى الرفيع الأعلى والفوز بحياة خالدة عند ربه سعيدة لا شقوة معها، وذلك بما جهزه الله به من العلم النافع ومكنه منه من العمل الصالح قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾ [الشمس: ٨] فإذا آمن بما علم وزاول صالح العمل رفعه الله إليه

كما قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال: ﴿وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وقال: ﴿فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى﴾ [طه: ٧٥] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ارتفاع مقام الإنسان وارتقائه بالإيمان والعمل الصالح عطاء من الله غير مجذوذ، وقد سماه تعالى أجرا كما يشير إليه قوله الآتي: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

٢. ﴿ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ﴾:

أ. ظاهر الرد أن يكون بمعناه المعروف فأسفل منصوب بنزع الخافض، والمراد بأسفل سافلين مقام منحط هو أسفل من سفل من أهل الشقوة والخسران والمعنى ثم رددنا الإنسان إلى أسفل من سفل من أهل العذاب.

ب. واحتمل أن يكون الرد بمعنى الجعل أي جعلناه أسفل سافلين، وأن يكون بمعنى التغيير والمعنى ثم غيرناه حال كونه أسفل جمع سافلين، والمراد بالسفالة على أي حال الشقاء والعذاب.

ج. وقيل: المراد بخلق الإنسان في أحسن تقويم ما عليه وجوده أوان الشباب من استقامة القوى وكمال الصورة وجمال الهيئة، وبرده إلى أسفل سافلين رده إلى الهرم بتضعيف قواه الظاهرة والباطنة ونكس خلقته فتكون الآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ [يس: ٦٨]

• وفيه أنه لا يلائمه ما في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ من الاستثناء الظاهر في المتصل فإن حكم الخلق عام في المؤمن والكافر والصالح والطالح ودعوى أن المؤمن أو المؤمن الصالح مصون من ذلك مجازفة.

• وكذا القول بأن المراد بالإنسان هو الكافر والمراد بالرد رده إلى جهنم أو إلى نكس الخلق والاستثناء منقطع.

٣. ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع استثناء متصل من جنس الإنسان، وتفريع قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ عليه يؤيد كون المراد من رده إلى أسفل سافلين رده إلى الشقاء والعذاب.

٣. تساؤل عن تكذيب الدين وحكم الله:

المقطع [٣] من سورة التين، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٧-٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٢٠»:

١. ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾:

أ. الخطاب للإنسان باعتبار الجنس.

ب. وقيل: للنبي ﷺ والمراد غيره، و﴿فَمَا﴾ استفهامية توبيخية، و﴿بِالدِّينِ﴾ متعلق بيكذبك، والدين الجزاء والمعنى، على ما قيل، ما الذي يجعلك مكذبا بالجزاء يوم القيامة بعد ما جعلنا الإنسان طائفتين طائفة مردودة إلى أسفل سافلين وطائفة مأجورة أجرا غير ممنون.

٢. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾:

أ. الاستفهام للتقرير وكونه تعالى أحكم الحاكمين هو كونه فوق كل حاكم في إتقان الحكم وحقيته ونفوذه من غير اضطراب ووهن وبطلان فهو تعالى يحكم في خلقه وتدبيره بما من الواجب في الحكمة أن يحكم به الناس من حيث الإتقان والحسن والنفوذ وإذا كان الله تعالى أحكم الحاكمين والناس طائفتان مختلفتان اعتقادا وعملا فمن الواجب في الحكمة أن يميز بينهم بالجزاء في حياتهم الباقية وهو البعث.

ب. فالتفريع في قوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ من قبيل تفريع النتيجة على الحجة وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ تتميم للحجة المشار إليها بما يتوقف عليه تمامها.

ج. والمحصل أنه إذا كان الناس خلقوا في أحسن تقويم ثم اختلفوا فطائفة خرجت عن تقويمها الأحسن وردت إلى أسفل سافلين وطائفة بقيت في تقويمها الأحسن وعلى فطرتها الأولى والله المدبر لأمرهم أحكم الحاكمين، ومن الواجب في الحكمة أن تختلف الطائفتان جزاء، فهناك يوم تجزى فيه كل طائفة بما عملت ولا مسوغ للتكذيب به.

د. فالآيات، كما ترى، في معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]

هـ. وبعض من جعل الخطاب في قوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ للنبي ﷺ جعل (ما) بمعنى من والحكم بمعنى القضاء، وعليه فالمعنى إذا كان الناس مختلفين ولازم ذلك اختلاف جزائهم في يوم معد للجزاء فمن

الذي ينسبك إلى الكذب بالجزاء أليس الله بأقضى القاضين فهو يقضي بينك وبين المكذبين لك بالدين.

- وأنت خبير بأن فيه تكلفا من غير موجب.

سورة العلق

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٥] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها: أمر للنبي ﷺ بتلقي القرآن بالوحي منه تعالى، وهي أول سورة نزلت من القرآن، وسياق آياتها لا يأبى نزولها دفعة واحدة كما سنشير إليه، وهي مكية قطعاً.

١. الأمر بالقراءة باسم الرب الذي خلق الإنسان من علق:

المقطع [١] من سورة العلق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١-٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٢٢»:

١. ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾:

أ. قال الراغب: (والقراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، وليس يقال ذلك لكل جمع لا يقال: قرأت القوم إذا جمعتهم، ويدل على ذلك أنه لا يقال: للحرف الواحد إذا تفوه به: قراءة)

ب. وعلى أي حال، يقال: قرأت الكتاب إذا جمعت ما فيه من الحروف والكلمات بضم بعضها إلى بعض في الذهن وإن لم تتلفظ بها، ويقال: قرأته إذا جمعت الحروف والكلمات بضم بعضها إلى بعض في التلفظ، ويقال قرأته عليه إذا جمعت بين حروفه وكلماته في سمعه ويطلق عليها بهذا المعنى التلاوة أيضا قال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴾ [البينة: ٢]

ج. وظاهر إطلاق قوله: ﴿اقْرَأْ﴾ المعنى الأول والمراد به الأمر بتلقي ما يوحيه إليه ملك الوحي من القرآن فالجملة أمر بقراءة الكتاب وهي من الكتاب كقول القائل في مفتتح كتابه لمن أرسله إليه: اقرا كتابي هذا واعمل به فقوله هذا أمر بقراءة الكتاب وهو من الكتاب.

د. وهذا السياق يؤيد:

- أولا: ما ورد أن الآيات أول ما نزل من القرآن على النبي ﷺ.
- وثانيا: أن التقدير اقرأ القرآن أو ما في معناه، وليس المراد مطلق القراءة باستعمال (اقرأ) استعمال الفعل اللازم بالإعراض عن المفعول، ولا المراد القراءة على الناس بحذف المتعلق وإن كان ذلك من أغراض النزول كما قال: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً﴾ [الإسراء: ١٠٦]،

ولا أن قوله: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ مفعول ﴿اقْرَأْ﴾ والباء زائدة والتقدير اقرأ اسم ربك أي بسمل.

٢. ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ متعلق بمقدر نحو مفتتحا ومبتدئا أو باقرأ والباء للملابسة ولا ينافي ذلك كون البسملة المبتدأة بها السورة جزء من السورة فهي من كلام الله افتتح سبحانه بها وأمر أن يقرأ مبتدئا بها كما أمر أن يقرأ قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ﴾ ففيه تعليم بالعمل نظير الأمر بالاستثناء في قوله: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ [الكهف: ٢٤] فافهم ذلك.

٣. في قوله: ﴿رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إشارة إلى قصر الربوبية في الله عز اسمه وهو توحيد الربوبية المقتضية لقصر العبادة فيه فإن المشركين كانوا يقولون: إن الله سبحانه ليس له إلا الخلق والإيجاد وأما الربوبية وهي الملك والتدبير فلمقربي خلقه من الملائكة والجن والإنس فدفعه الله بقوله: ﴿رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ الناص على أن الربوبية والخلق له وحده.

٤. ﴿خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ﴾:

أ. المراد جنس الإنسان المتناسل والعلق الدم المنجمد والمراد به ما يستحيل إليه النطفة في الرحم.

ب. ففي الآية إشارة إلى التدبير الإلهي الوارد على الإنسان من حين كان علقة إلى حين يصير إنسانا تاما كاملا له من أعاجيب الصفات والأفعال ما تتحير فيه العقول فلم يتم الإنسان إنسانا ولم يكمل إلا بتدبير متعاقب منه تعالى وهو بعينه خلق بعد خلق فهو تعالى رب مدبر لأمر الإنسان بعين أنه خالق له فليس للإنسان إلا أن يتخذه وحده ربا ففي الكلام احتجاج على توحيد الربوبية.

٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه والبيهقي من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي، الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ قال: قلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ

فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ الآية، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة: كلا ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة، حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ما ذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى! يا ليتني أكون فيها جذعا، يا ليتني أكون فيها حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أومخرجي هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي، قال ابن شهاب: وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء، فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء، جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فأنزل الله: ﴿يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فحمي الوحي وتتابع.

ب. أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وأبو نعيم في الدلائل عن عبد الله بن شداد قال: أتى جبريل محمدا ﷺ فقال: يا محمد اقرأ، قال: وما أقرأ فضمه ثم قال: يا محمد اقرأ، قال: وما أقرأ، قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، حتى بلغ ﴿ما لَمْ يَعْلَمْ﴾، فجاء إلى خديجة فقال: يا خديجة، ما أراه إلا قد عرض لي، قالت: كلا والله ما كان ربك يفعل ذلك بك، وما أتيت فاحشة قط، فأتت خديجة ورقة فأخبرته الخبر قال: لئن كنت صادقة إن زوجك لنبي، وليلقين من أمته شدة ولئن أدركته لأومنن به، قال: ثم أبطأ عليه جبريل فقالت خديجة: ما أرى ربك إلا قد قلاك فأنزل الله: ﴿وَالضُّحى وَاللَّيْلِ إِذا سَجى ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى﴾

• أقول: وفي رواية: أن الذي ألقاه جبريل سورة الحمد.

• والقصة لا تخلو من شيء وأهون ما فيها من الإشكال شك النبي ﷺ في كون ما شاهده وحيا إلهيا من ملك سماوي ألقى إليه كلام الله وتردده بل ظنه أنه من مس الشياطين بالجنون، وأشكل منه سكون نفسه في كونه نبوة إلى قول رجل نصراني مترهب وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ [الأنعام: ٥٧] وأي حجة بينة في قول ورقة؟ وقال تعالى: ﴿قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ فهل بصيرته ﷺ هي سكون نفسه إلى قول ورقة؟ وبصيرة من اتبعه سكون أنفسهم إلى سكون نفسه إلى ما لا حجة فيه قاطعة؟ وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣] فهل كان اعتمادهم في نبوتهم على مثل ما تقصه هذه القصة؟

• والحق أن وحي النبوة والرسالة يلازم اليقين من النبي والرسول بكونه من الله تعالى على ما ورد عن أئمة أهل البيت عليه السلام.

٢. الرب الأكرم الذي علم بالقلم وعلم الإنسان:

المقطع [٢] من سورة العلق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٣-٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٢٤»:

١. ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾:

أ. أمر بالقراءة ثانيا تأكيدا للأمر الأول على ما هو ظاهر سياق الإطلاق.

ب. وقيل: المراد به الأمر بالقراءة على الناس وهو التبليغ بخلاف الأمر الأول فالمراد به الأمر بالقراءة لنفسه، كما قيل: إن المراد بالأمرين جميعا الأمر بالقراءة على الناس، والوجهان غير ظاهرين.

٢. ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ أي الذي يفوق عطاؤه عطاء ما سواه فهو تعالى يعطي لا عن استحقاق وما من نعمة إلا وينتهي إيتاؤها إليه تعالى.

٣. ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾:

أ. الباء للسببية أي علم القراءة أو الكتابة والقراءة بواسطة القلم والجملة حالية أو استئنافية، والكلام مسوق لتقوية نفس النبي ﷺ وإزالة القلق والاضطراب عنها حيث أمر بالقراءة وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ كأنه قيل: اقرأ كتاب ربك الذي يوحيه إليك ولا تخف والحال أن ربك الأكرم الذي علم الإنسان القراءة بواسطة القلم الذي يخط به فهو قادر على أن يعلمك قراءة كتابه وأنت أمي وقد أمرك بالقراءة ولو

لم يقدرك عليها لم يأمرك بها.

ب. ثم عمم سبحانه النعمة فذكر تعليمه للإنسان ما لم يعلم فقال: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ وفيه مزيد تقوية لقلب النبي ﷺ وتطييب لنفسه.

٤. والمراد بالإنسان الجنس كما هو ظاهر السياق:

أ. وقيل: المراد به آدم عليه السلام.

ب. وقيل: إدريس عليه السلام لأنه أول من خط بالقلم.

ج. وقيل: كل نبي كان يكتب.

• وهي وجوه ضعيفة بعيدة عن الفهم.

٣. طغيان الإنسان إذا رأى نفسه غنياً:

المقطع [٣] من سورة العلق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق: ٦ـ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٢٥»:

١. ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى﴾ ردع عما يستفاد من الآيات السابقة أنه تعالى أنعم على الإنسان بعظائم نعم مثل التعليم بالقلم وسائر ما علم والتعليم من طريق الوحي فعلى الإنسان أن يشكره على ذلك لكنه يكفر بنعمته تعالى ويطغى.

٢. ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى﴾ أن يتعدى طوره، وهو إخبار بما في طبع الإنسان ذلك كقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]

٣. ﴿أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى﴾ من الرأي دون الرؤية البصرية، وفاعل ﴿رَآهُ﴾ ومفعوله الإنسان، وجملة ﴿أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى﴾ في مقام التعليل أي ليطغى لأنه يعتقد نفسه مستغنيا عن ربه المنعم عليه فيكفر به، وذلك أنه يشتغل بنفسه والأسباب الظاهرية التي يتوصل بها إلى مقاصده فيغفل عن ربه من غير أن يرى حاجة منه إليه تبعثه إلى ذكره وشكره على نعمه فينساه ويطغى.

٤. ﴿إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى﴾:

أ. الرجعى هو الرجوع والظاهر من سياق الوعيد الآتي أنه وعيد وتهديد بالموت والبعث، والخطاب للنبي ﷺ.

ب. وقيل: الخطاب للإنسان بطريق الالتفات للتشديد، والأول أظهر.

٤. توبيخ المانع للعبد عن الصلاة:

المقطع [٤] من سورة العلق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾ [العلق: ٩-١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٢٥»:

١. ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى أَرَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرى﴾:

أ. بمنزلة ذكر بعض المصاديق للإنسان الطاغي وهو كالتوطئة لوعيده بتصريح العقاب والنهي عن طاعته والأمر بعبادته تعالى، والمراد بالعبد الذي كان يصلي هو النبي ﷺ على ما يستفاد من آخر الآيات حيث ينهاه ﷺ عن طاعة ذلك الناهي ويأمره بالسجود والاقتراب.

ب. وسياق الآيات، على تقدير كون السورة أول ما نزل من القرآن ونزولها دفعة واحدة، يدل على صلاة النبي ﷺ قبل نزول القرآن وفيه دلالة على نبوته قبل رسالته بالقرآن.

ج. وأما ما ذكره بعضهم أنه لم يكن الصلاة مفروضة في أول البعثة وإنما شرعت ليلة المعراج على ما في الأخبار وهو قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨]

د. ففيه أن المسلم من دلالتها أن الصلوات الخمس اليومية إنما فرضت بهيئتها الخاصة ركعتين ركعتين ليلة المعراج ولا دلالة فيها على عدم تشريعها قبل وقد ورد في كثير من السور المكية ومنها النازلة قبل سورة الإسراء كالمدثر والمزمل وغيرهما ذكر الصلاة بتعبيرات مختلفة وإن لم يظهر فيها من كيفيتها إلا أنها كانت مشتملة على تلاوة شيء من القرآن والسجود.

هـ. وقد ورد في بعض الروايات صلاة النبي ﷺ مع خديجة وعلي في أوائل البعثة وإن لم يذكر كيفية صلاتهم.

و. وبالجملة قوله: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ بمعنى أخبرني، والاستفهام للتعجيب، والمفعول الأول لقوله: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ الأول قوله: ﴿الَّذِي يَنْهى﴾ ولأرأيت الثالث ضمير عائد إلى الموصول، ولأرأيت الثاني ضمير

عائد إلى قوله: ﴿عَبْداً﴾ والمفعول الثاني لأرأيت في المواضع الثلاث قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرى﴾

ز. ومحصل معنى الآيات أخبرني عن الذي ينهى عبدا إذا صلى وعبد الله الناهي يعلم أن الله يرى ما يفعله كيف يكون حاله، أخبرني عن هذا الناهي إن كان ذاك العبد المصلي على الهدى أو أمر بالتقوى كيف يكون حال هذا الناهي وهو يعلم أن الله يرى، أخبرني عن هذا الناهي أن تلبس بالتكذيب للحق والتولي عن الإيمان به ونهي العبد المصلي عن الصلاة وهو يعلم أن الله يرى؟ هل يستحق إلا العذاب،؟

ح. وقيل: المفعول الأول لأرأيت في جميع المواضع الثلاث هو الموصول أو الضمير العائد إليه تحرزا عن التفكيك بين الضمائر.

ط. والأولى على هذا أن يجعل معنى قوله: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى﴾ أخبرني عن هذا الناهي إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى وهو يعلم أن الله يرى ما ذا كان يجب عليه أن يفعله ويأمر به؟ وكيف يكون حاله وقد نهى عن عبادة الله سبحانه؟

ي. وهو مع ذلك معنى بعيد ولا بأس بالتفكيك بين الضمائر مع مساعدة السياق وإعانة القرائن.

ك. ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرى﴾ المراد به العلم على طريق الاستلزام فإن لازم الاعتقاد بأن الله خالق كل شيء هو الاعتقاد بأن له علما بكل شيء وإن غفل عنه وقد كان الناهي وثنيا مشركا والوثنية معترفون بأن الله هو خالق كل شيء وينزهونه عن صفات النقص فيرون أنه تعالى لا يجهل شيئا ولا يعجز عن شيء وهكذا.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى﴾ الآية، أن أبا جهل قال: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، قال: فبالذي يحلف به، لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن رقبته، فقيل له: ها هو ذلك يصلي فانطلق ليطأ على رقبته، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه خندقا من نار وهؤلاء أجنحة، وقال نبي الله: والذي نفسي بيده، لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا، فأنزل الله ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى﴾ إلى آخر السورة، رواه مسلم في الصحيح.

ب. وفي تفسير القمي في الآية: كان الوليد بن المغيرة ينهى الناس عن الصلاة، وأن يطاع الله ورسوله فقال الله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى﴾

• أقول: مفاده لا يلائم ظهور سياق الآيات في كون المصلي هو النبي ﷺ.

٥. تهديد الكذاب الخاطئ بالناصية والزبانية:

المقطع [٥] من سورة العلق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٥-١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٢٦»:

١. ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ﴾:

أ. قال في المجمع: (والسفع الجذب الشديد يقال: سفعت بالشيء إذا قبضت عليه وجذبته جذبا شديدا)، وفي توصيف الناصية بالكذب والخطإ وهما وصفا صاحب الناصية مجاز.

ب. وفي الكلام ردع وتهديد شديد، والمعنى ليس الأمر كما يقول ويريد أو ليس له ذلك.

ج. أقسم لئن لم يكف عن نهيه ولم ينصرف لنأخذن بناصيته أخذ الذليل المهان ونجذبنه إلى العذاب تلك الناصية التي صاحبها كاذب فيما يقول خاطئ فيما يفعل.

د. وقيل: المعنى لنسمن ناصيته بالنار ونسودنها.

٢. ﴿فَلْيَدْعُ نادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ﴾:

أ. النادي المجلس وكان المراد به أهل المجلس أي الجمع الذين يجتمع بهم.

ب. وقيل: الجليس، والزبانية الملائكة الموكلون بالنار.

ج. وقيل: الزبانية في كلامهم الشرط، والأمر تعجيزي أشير به إلى شدة الأخذ والمعنى فليدع هذا الناهي جمعه لينجوه منا سندع الزبانية الغلاظ الشداد الذين لا ينفع معهم نصر ناصر.

٣. ﴿كَلَّا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾:

أ. تكرار الردع للتأكيد، وقوله: ﴿لا تُطِعْهُ﴾ أي لا تطعه في النهي عن الصلاة وهي القرينة على أن المراد بالسجود الصلاة، ولعل الصلاة التي كان ﷺ يأتي بها يومئذ كانت تسبيحه تعالى والسجود له.

ب. وقيل: المراد به السجود لقراءة هذه السورة التي هي إحدى العزائم الأربع في القرآن.

ج. والاقتراب التقرب إلى الله.

د. وقيل: الاقتراب من ثواب الله تعالى.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: في الحديث عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: أقرب ما يكون العبد من الله إذا كان ساجدا.

ب. وفي الكافي، بإسناده إلى الوشاء قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: أقرب ما يكون العبد من الله وهو ساجد، وذلك قوله: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾

ج. وفي المجمع: (روى عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: العزائم الم التنزيل وحم السجدة والنجم إذا هوى، واقرأ باسم ربك، وما عداها في جميع القرآن مسنون وليس بمفروض.

سورة القدر

هذه السورة الكريمة تحتوي على مقطعين، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. تذكر السورة إنزال القرآن في ليلة القدر، وتعظم الليلة بتفضيلها على ألف شهر، وتنزل الملائكة والروح فيها.

ب. والسورة تحتمل المكية والمدنية، ولا يخلو بعض ما روي في سبب نزولها عن أئمة أهل البيت عليه السلام وغيرهم من تأييد لكونها مدنية.

١. إنزال القرآن في ليلة القدر:

المقطع [١] من سورة القدر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ١-٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٣٠»:

١. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾:

أ. ضمير ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ للقرآن وظاهره جملة الكتاب العزيز لا بعض آياته ويؤيده التعبير بالإنزال الظاهر في اعتبار الدفعة دون التنزيل الظاهر في التدريج.

ب. وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣] وظاهره الإقسام بجملة الكتاب المبين ثم الإخبار عن إنزال ما أقسم به جملة.

ج. فمدلول الآيات أن للقرآن نزولا جمليا على النبي ﷺ غير نزوله التدريجي الذي تم في مدة ثلاث وعشرين سنة كما يشير إليه قوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]

د. فلا يعبأ بما قيل: إن معنى قوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ ابتدأنا بإنزاله والمراد إنزال بعض القرآن.

هـ. وليس في كلامه تعالى ما يبين أن الليلة أية ليلة هي غير ما في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥] فإن الآية بانضمامها إلى آية القدر تدل على أن الليلة من ليالي شهر رمضان، وأما تعيينها أزيد من ذلك فمستفاد من الأخبار وسيجيء بعض ما يتعلق به في البحث الروائي التالي إن

شاء الله.

و. وقد سماها الله تعالى ليلة القدر، والظاهر أن المراد بالقدر التقدير فهي ليلة التقدير يقدر الله فيها حوادث السنة من الليلة إلى مثلها من قابل من حياة وموت ورزق وسعادة وشقاء وغير ذلك كما يدل عليه قوله في سورة الدخان في صفة الليلة: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الدخان: ٦] فليس فرق الأمر الحكيم إلا أحكام الحادثة الواقعة بخصوصياتها بالتقدير.

ز. ويستفاد من ذلك أن الليلة متكررة بتكرر السنين ففي شهر رمضان من كل سنة قمرية ليلة تقدر فيها أمور السنة من الليلة إلى مثلها من قابل إذ لا معنى لفرض ليلة واحدة بعينها أو ليال معدودة في طول الزمان تقدر فيها الحوادث الواقعة التي قبلها والتي بعدها وإن صح فرض واحدة من ليالي القدر المتكررة ينزل فيها القرآن جملة واحدة.

ح. على أن قوله: ﴿يُفْرَقُ﴾، وهو فعل مضارع، ظاهر في الاستمرار، وقوله: ﴿خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ و﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ﴾ يؤيد ذلك.

ط. فلا وجه لما قيل: إنها كانت ليلة واحدة بعينها نزل فيها القرآن من غير أن يتكرر، وكذا ما قيل: إنها كانت تتكرر بتكرر السنين في زمن النبي ﷺ ثم رفعها الله، وكذا ما قيل: إنها واحدة بعينها في جميع السنة وكذا ما قيل: إنها في جميع السنة غير أنها تتبدل بتكرر السنين فسنة في شهر رمضان وسنة في شعبان وسنة في غيرهما.

ي. وقيل: القدر بمعنى المنزلة وإنما سميت ليلة القدر للاهتمام بمنزلتها أو منزلة المتعبدين فيها.

ك. وقيل: القدر بمعنى الضيق وسميت ليلة القدر لضيق الأرض فيها بنزول الملائكة، والوجهان كما ترى.

ل. فمحصل الآيات، كما ترى، أنها ليلة بعينها من شهر رمضان من كل سنة فيها أحكام الأمور بحسب التقدير، ولا ينافي ذلك وقوع التغير فيها بحسب التحقق في ظرف السنة فإن التغير في كيفية تحقق المقدر أمر والتغير في التقدير أمر آخر كما أن إمكان التغير في الحوادث الكونية بحسب المشية الإلهية لا ينافي تعينها في اللوح المحفوظ قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ﴾ [الرعد: ٣٩]

م. على أن لاستحكام الأمور بحسب تحققها مراتب من حيث حضور أسبابها وشرائطها تامة

وناقصة ومن المحتمل أن تقع في ليلة القدر بعض مراتب الأحكام ويتأخر تمام الأحكام إلى وقت آخر لكن الروايات كما ستأتي لا تلائم هذا الوجه.

٢. ﴿وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ كناية عن جلالة قدر الليلة وعظم منزلتها ويؤكد ذلك إظهار الاسم مرة بعد مرة حيث قيل: ﴿ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ﴾ ولم يقل: وما أدراك ما هي هي خير.

٣. ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾:

أ. بيان إجمالي لما أشير إليه بقوله: ﴿وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ من فخامة أمر الليلة.

ب. والمراد بكونها خيرا من ألف شهر خيريتها منها من حيث فضيلة العبادة على ما فسره المفسرون وهو المناسب لغرض القرآن وعنايته بتقريب الناس إلى الله فإحياؤها بالعبادة خير من عبادة ألف شهر، ويمكن أن يستفاد ذلك من المباركة المذكورة في سورة الدخان في قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ﴾ وهناك معنى آخر سيأتي في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير البرهان، عن الشيخ الطوسي عن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله القدر شيء يكون على عهد الأنبياء، ينزل عليهم فيها الأمر فإذا مضوا رفعت؟ قال: لا بل هي إلى يوم القيامة.

• أقول: وفي معناه غير واحد من الروايات من طرق أهل السنة.

ب. وفي المجمع: وعن حماد بن عثمان عن حسان بن أبي علي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن ليلة القدر، قال: اطلبها في تسع عشرة، وإحدى وعشرين وثلاث وعشرين.

• أقول: وفي معناه غيرها، وفي بعض الأخبار الترديد بين ليلتين الإحدى والعشرين والثلاث والعشرين كرواية العياشي عن عبد الواحد عن الباقر عليه السلام ويستفاد من روايات أنها ليلة ثلاث وعشرين وإنما لم يعين تعظيما لأمرها أن لا يستهان بها بارتكاب المعاصي.

ج. وفيه، أيضا في رواية عبد الله بن بكير عن زرارة عن أحدهما عليهماالسلام قال: ليلة ثلاث وعشرين هي ليلة الجهني، وحديثه أنه قال لرسول الله ﷺ، إن منزلي نائي عن المدينة فمرني بليلة أدخل فيها، فأمره بليلة ثلاث وعشرين.

• أقول: وحديث الجهني واسمه عبد الله بن أنيس الأنصاري مروي من طرق أهل السنة أيضا

أورده في الدر المنثور، عن مالك والبيهقي.

د. وفي الكافي، بإسناده عن زرارة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: التقدير في تسع عشرة، والإبرام في ليلة إحدى وعشرين، والإمضاء في ليلة ثلاث وعشرين.

• أقول: وفي معناها روايات أخر، فقد اتفقت أخبار أهل البيت عليه السلام أنها باقية متكررة كل سنة، وأنها ليلة من ليالي شهر رمضان وأنها إحدى الليالي الثلاث.

• وأما من طرق أهل السنة فقد اختلفت الروايات اختلافا عجيبا يكاد لا يضبط والمعروف عندهم أنها ليلة سبع وعشرون فيها نزل القرآن، ومن أراد الحصول عليها فليراجع الدر المنثور وسائر الجوامع.

هـ. أخرج الخطيب عن ابن المسيب قال: قال رسول الله ﷺ: رأيت بني أمية يصعدون منبري فشق ذلك علي، فأنزل الله إنا أنزلناه في ليلة القدر.

• أقول: وروي أيضا مثله عن الخطيب في تاريخه، عن ابن عباس، وأيضا ما في معناه عن الترمذي وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي عن الحسن بن علي وهناك روايات كثيرة في هذا المعنى من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليه السلام وفيها أن الله تعالى سلا نبيه ﷺ بإعطاء ليلة القدر وجعلها خيرا من ألف شهر وهي مدة ملك بني أمية.

و. وفي الكافي، بإسناده عن ابن أبي عمير عن غير واحد عن أبي عبد الله عليه السلام قال له بعض أصحابنا ولا أعلمه إلا سعيد السمان: كيف تكون ليلة القدر خيرا من ألف شهر؟ قال: العمل فيها خير من العمل في ألف شهر، ليس فيها ليلة القدر.

ز. وفيه، بإسناده عن الفضيل وزرارة ومحمد بن مسلم عن حمران أنه سأل أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ قال: نعم ليلة القدر وهي في كل سنة في شهر رمضان، في العشر الأواخر، فلم ينزل القرآن إلا في ليلة القدر، قال الله عز وجل: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، قال: يقدر في ليلة القدر كل شيء، يكون في تلك السنة إلى مثلها من قابل: خير وشر طاعة ومعصية ومولود وأجل أو رزق، فما قدر في تلك الليلة وقضي فهو المحتوم، ولله عز وجل فيه المشية، قال: قلت: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي شيء عنى بذلك؟ فقال: والعمل الصالح فيها من الصلاة والزكاة، وأنواع الخير خير من العمل في ألف شهر، ليس فيها ليلة القدر، ولولا ما يضاعف الله تبارك وتعالى للمؤمنين ما بلغوا،

ولكن الله يضاعف لهم الحسنات.

• أقول: وقوله: ولله فيه المشية يريد به إطلاق قدرته تعالى فله أن يشاء ما يشاء وإن حتم فإن إيجابه الأمر لا يفيد القدرة المطلقة فله أن ينقض القضاء المحتوم وإن كان لا يشاء ذلك أبدا.

٢. تنزل الملائكة والروح في ليلة القدر:

المقطع [٢] من سورة القدر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ٤ـ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٣٢»:

١. ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾:

أ. تنزل أصله تتنزل، والظاهر من الروح هو الروح الذي من الأمر قال تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] والإذن في الشيء الرخصة فيه وهو إعلام عدم المانع منه.

ب. و ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾:

• قيل: بمعنى الباء.

• وقيل: لابتداء الغاية وتفيد السببية أي بسبب كل أمر إلهي.

• وقيل: للتعليل بالغاية أي لأجل تدبير كل أمر من الأمور.

ج. والحق أن المراد بالأمر:

• إن كان هو الأمر الإلهي المفسر بقوله: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ [يس: ٨٢] فمن للابتلاء وتفيد السببية والمعنى تتنزل الملائكة والروح في ليلة القدر بإذن ربهم مبتدأ تنزلهم وصادرا من كل أمر إلهي.

• وإن كان هو الأمر من الأمور الكونية والحوادث الواقعة فمن بمعنى اللام التعليلية والمعنى تتنزل الملائكة والروح في الليلة بإذن ربهم لأجل تدبير كل أمر من الأمور الكونية.

٢. ﴿سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾:

أ. قال في المفردات: (السلام والسلامة التعري من الآفات الظاهرة والباطنة) فيكون قوله: ﴿سَلامٌ هِيَ﴾ إشارة إلى العناية الإلهية بشمول الرحمة لعباده المقبلين إليه وسد باب نقمة جديدة تختص بالليلة ويلزمه بالطبع وهن كيد الشياطين كما أشير إليه في بعض الروايات.

ب. وقيل: المراد به أن الملائكة يسلمون على من مروا به من المؤمنين المتعبدين ومرجعه إلى ما تقدم.

٣. والآيتان أعني قوله: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ﴾ إلى آخر السورة في معنى التفسير لقوله: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾

٤. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: (روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: إذا كان ليلة القدر تنزل الملائكة، الذين هم سكان سدرة المنتهى ومنهم جبرائيل، فينزل جبرائيل ومعه ألوية، ينصب لواء منها على قبري ولواء على بيت المقدس، ولواء في المسجد الحرام ولواء على طور سيناء، ولا يدع فيها مؤمنا ولا مؤمنة إلا سلم عليه، إلا مدمن خمر وآكل لحم الخنزير والمتضمخ بالزعفران.

ب. وفي تفسير البرهان، عن سعد بن عبد الله بإسناده عن أبي بصير قال: كنت مع أبي عبد الله عليه السلام فذكر شيئا من أمر الإمام إذا ولد، فقال: استوجب زيادة الروح في ليلة القدر، فقلت: جعلت فداك أليس الروح هو جبرئيل؟ فقال: جبرئيل من الملائكة والروح أعظم من الملائكة، أليس أن الله عز وجل يقول: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾

• أقول: والروايات في ليلة القدر وفضلها كثيرة جدا، وقد ذكرت في بعضها لها علامات ليست بدائمة ولا أكثرية كطلوع الشمس صبيحتها ولا شعاع لها واعتدال الهواء فيها أغمضنا عنها.

سورة البينة

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٦] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. تسجل السورة رسالة محمد ﷺ لعامة أهل الكتاب والمشركين، وبعبارة أخرى للمليين وغيرهم وهم عامة البشر، فتفيد عموم الرسالة، وأنها مما كانت تقتضيه السنة الإلهية، سنة الهداية، التي تشير إليها أمثال قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [الإنسان: ٣]، وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]

ب. وتحتج على عموم دعوته ﷺ بأنها لا تتضمن إلا ما يصلح المجتمع الإنساني من الاعتقاد والعمل، على ما سيتضح إن شاء الله.

ج. والسورة تحتمل المكية والمدنية، وإن كان سياقها بالمدنية أشبه.

١. الكفار لم يكونوا منفكين حتى تأتيهم البينة:

المقطع [١] من سورة البينة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ١-٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٣٦»:

١. ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾:

أ. ظاهر الآيات، وهي في سياق يشير إلى قيام الحجة على الذين كفروا بالدعوة الإسلامية من أهل الكتاب والمشركين وعلى الذين أوتوا الكتاب حينما بدا فيهم الاختلاف، أن المراد هو الإشارة إلى أن الرسول ﷺ من مصاديق الحجة البينة القائمة على الناس التي تقتضي قيامها السنة الإلهية الجارية في عباده فقد كانت توجب مجيء البينة إليهم كما أوجبته من قبل ما تفرقوا في دينهم.

ب. وعلى هذا فالمراد بالذين كفروا في الآية هم الكافرون بالدعوة النبوية الإسلامية من أهل الكتاب والمشركين، و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ﴾ للتبعيض لا للتبيين، وقوله: و﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ عطف على ﴿أَهْلِ الْكِتابِ﴾ والمراد بهم غير أهل الكتاب من عبدة الأصنام وغيرهم.

٢. ﴿مُنْفَكِّينَ﴾ من الانفكاك وهو الانفصال عن شدة اتصال، والمراد به، على ما يستفاد من قوله:

﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾، انفكاكهم عما تقتضي سنة الهداية والبيان كان السنة الإلهية كانت قد أخذتهم ولم تكن تتركهم حتى تأتيهم البينة ولما أتتهم البينة تركتهم وشأنهم كما قال تعالى: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]

٣. ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾:

أ. على ظاهره من الاستقبال والبينة هي الحجة الظاهرة والمعنى لم يكن الذين كفروا برسالة النبي ﷺ أو بدعوته أو بالقرآن لينفكوا حتى تأتيهم البينة والبينة هي محمد ﷺ.

ب. وللقوم اختلاف عجيب في تفسير الآية ومعاني مفرداتها حتى قال بعضهم، على ما نقل: (إن الآية من أصعب الآيات القرآنية نظما وتفسيرا)، والذي أوردناه من المعنى هو الذي يلائمه سياقها من غير تناقض بين الآيات وتدافع بين الجمل والمفردات، ومن أراد الاطلاع على تفصيل ما قيل ويقال فعليه أن يراجع المطولات.

٤. ﴿رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾:

أ. بيان للبينة والمراد به محمد رسول الله ﷺ قطعا على ما يعطيه السياق.

ب. والصحف جمع صحيفة وهي ما يكتب فيها، والمراد بها أجزاء القرآن النازلة وقد تكرر في كلامه تعالى إطلاق الصحف على أجزاء الكتب السماوية ومنها القرآن الكريم قال تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٦]

ج. والمراد بكون الصحف مطهرة تقدسها من قذارة الباطل بمس الشياطين، وقد تكرر منه تعالى أنه حق مصون من مداخلة الشياطين وقال: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]

٥. ﴿فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾:

أ. الكتب جمع كتاب ومعناه المكتوب ويطلق على اللوح والقرطاس ونحوهما المنقوشة فيها الألفاظ وعلى نفس الألفاظ التي تحكي عنها النقوش، وربما يطلق على المعاني بما أنها محكية بالألفاظ، ويطلق أيضا على الحكم والقضاء يقال كتب عليه كذا أي قضى أن يفعل كذا قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] وقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ﴾ [البقرة: ٢١٦]

ب. والظاهر أن المراد بالكتب التي في الصحف الأحكام والقضايا الإلهية المتعلقة بالاعتقاد

والعمل، ومن الدليل عليه توصيفها بالقيامة فإنها من القيام بالشيء بمعنى حفظه ومراعاة مصلحته وضمان سعادته قال تعالى: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠]، ومعلوم أن الصحف السماوية إنما تقوم بأمر المجتمع الإنساني وتحفظ مصلحته بما فيها من الأحكام والقضايا المتعلقة بالاعتقاد والعمل.

ج. فمعنى الآيتين: الحجة البينة التي أتتهم رسول من الله يقرأ صحائف سماوية مطهرة من دنس الباطل في تلك الصحائف أحكام وقضايا قائمة بأمر المجتمع الإنساني حافظة لمصالحه.

٢. تفرق أهل الكتاب بعد مجيء البينة:

المقطع [٢] من سورة البينة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٣٨»:

١. ﴿وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾:

أ. كانت الآية الأولى ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ﴾ تشير إلى كفرهم بالنبي ﷺ وكتابه المتضمن للدعوة الحقة وهذه الآية تشير إلى اختلافهم السابق على الدعوة الإسلامية وقد أشير إلى ذلك في مواضع من القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩] إلى غير ذلك من الآيات.

ب. ومجيء البينة لهم هو البيان النبوي الذي تبين لهم في كتابهم أو أوضحه لهم أنبياؤهم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ [الزخرف: ٦٥]

٢. سؤال وإشكال: فإن قلت: ما باله تعرض لاختلاف أهل الكتاب وتفرقهم في مذاهبهم ولم يتعرض لتفرق المشركين وإعراضهم عن دين التوحيد وإنكارهم الرسالة، والجواب:

أ. لا يبعد أن يكون قوله: ﴿وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ﴾ شاملا للمشركين كما هو شامل لأهل الكتاب فقد بدل أهل الكتاب، وهم في عرف القرآن اليهود والنصارى والصابئون والمجوس أو اليهود والنصارى، من الذين أوتوا الكتاب، والتعبيران متغايران، وقد صرح تعالى بأنه أنزل الكتاب، وهو الشريعة المفروضة عليهم الحاكمة في اختلافاتهم في أمور الحياة، أول ما بدا الاختلافات الحيوية بينهم ثم

اختلفوا في الدين بعد تبين الحق لهم وقيام الحجة عليهم فعامة البشر آتاهم الله كتابا ثم اختلفوا فيه فمنهم من نسي ما أوتيه، ومنهم من أخذ به محرفا ومنهم من حفظه وآمن به، قال تعالى: ﴿كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣] وقد مر تفسير الآية.

ب. وفي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ﴾، إلى أن قال، ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ وَلكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣]

ج. وبالجملة فالذين أوتوا الكتاب أعم من أهل الكتاب فقوله: ﴿وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ﴾ يشمل المشركين كما يشمل أهل الكتاب.

٣. الأمر بعبادة الله بإخلاص:

المقطع [٣] من سورة البينة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٣٩»:

١. ﴿وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ﴾ ضمير ﴿أُمِرُوا﴾ للذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين أي لم يتضمن رسالة الرسول ﷺ والكتب القيمة التي في صحف الوحي إلا أمرهم بعبادة الله تعالى بقيد الإخلاص في الدين فلا يشركوا به شيئا.

٢. ﴿حُنَفاءَ﴾ حال من ضمير الجمع وهو جمع حنيف من الحنف وهو الميل عن جانبي الإفراط والتفريط إلى حاق وسط الاعتدال وقد سمى الله تعالى الإسلام دينا حنيفا لأنه يأمر في جميع الأمور بلزوم الاعتدال والتحرز عن الإفراط وتفريط.

٣. ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ﴾ من قبيل ذكر الخاص بعد العام أو الجزء بعد الكل اهتماما بأمره فالصلاة والزكاة على أركان الإسلام وهما التوجه العبودي الخاص إلى الله وإنفاق المال في الله.

٤. ﴿وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾:

أ. أي دين الكتب القيمة على ما فسروا، والمراد بالكتب القيمة إن كان جميع الكتب السماوية أعني

كتاب نوح ومن دونه من الأنبياء عليهم السلام فالمعنى أن هذا الذي أمروا به ودعوا إليه في الدعوة المحمدية هو الدين الذي كلفوا به في كتبهم القيمة وليس بأمر بدع فدين الله واحد وعليهم أن يدينوا به لأنه القيم.

ب. وإن كان المراد به ما كان يتلوه النبي ﷺ من الكتب القيمة التي في الصحف المطهرة فالمعنى أنهم لم يؤمروا في الدعوة الإسلامية إلا بأحكام وقضايا هي القيمة الحافظة لمصالح المجتمع الإنساني فلا يسعهم إلا أن يؤمنوا بها ويتدينوا.

ج. فالآية على أي حال تشير إلى كون دين التوحيد الذي يتضمنه القرآن الكريم المصدق لما بين يديه من الكتاب والمهيمن عليه فيما يأمر المجتمع البشري قائما بأمرهم حافظا لمصالح حياتهم كما يبينه بأوفى البيان قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]

٥. وبهذه الآية يكمل بيان عموم رسالة النبي ﷺ وشمول الدعوة الإسلامية لعامة البشر:

أ. فقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ يشير إلى أنه كان من الواجب في سنة الهداية الإلهية أن تتم الحجة على من كفر بالدعوة من أهل الكتاب والمشركين، وهؤلاء وإن كانوا بعض أهل الكتاب والمشركين لكن من الضروري أن لا فرق بين البعض والبعض في تعلق الدعوة فتعلقها بالبعض لا ينفك عن تعلقها بالكل.

ب. ﴿رَسُولٌ مِنَ اللهِ﴾ يشير إلى أن تلك البينة محمد ﷺ، وقوله: ﴿وَما تَفَرَّقَ﴾ يشير إلى أن تفرقهم وكفرهم السابق بالحق أيضا كان بعد مجيء البينة.

ج. ﴿وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ﴾ يفيد أن الذي دعوا إليه وأمروا به دين قيم حافظ لمصالح المجتمع البشري فعليهم جميعا أن يؤمنوا به ولا يكفروا.

٤. الكفار في نار جهنم وهم شر البرية:

المقطع [٤] من سورة البينة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٤٠»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾

لما فرغ من الإشارة إلى كفرهم بالبينة التي كانت توجبها سنة الهداية الإلهية وما كانت تدعو إليه من الدين القيم أخذ في الإنذار والتبشير بوعيد الكفار ووعد المؤمنين، والبرية الخلق، والمعنى ظاهر.

٥. المؤمنون الذين يعملون الصالحات هم خير البرية:

المقطع [٥] من سورة البينة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٤٠»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ فيه قصر الخيرية في المؤمنين الصالحين كما أن في الآية السابقة قصر الشرية في الكفار.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: البينة محمد رسول الله ﷺ.

ب. أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله من أكرم الخلق على الله؟ قال: يا عائشة أما تقرئين ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾؟

ج. أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال: كنا عند النبي ﷺ فأقبل علي، فقال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده، إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة، ونزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ فكان أصحاب النبي ﷺ إذا أقبل علي قالوا: جاء خير البرية.

• أقول: وروي هذا المعنى أيضا عن ابن عدي عن ابن عباس، وأيضا عن ابن مردويه عن علي عليه السلام ورواه أيضا في البرهان، عن الموفق بن أحمد في كتاب المناقب عن يزيد بن شراحيل الأنصاري كاتب علي عنه، وكذا في المجمع: (عن كتاب شواهد التنزيل للحاكم عن يزيد بن شراحيل عنه، ولفظه: سمعت عليا يقول: قبض رسول الله ﷺ، وأنا مسنده إلى صدري فقال: يا علي ألم تسمع قول الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ هم شيعتك وموعدي وموعدكم الحوض، إذا اجتمع الأمم للحساب يدعون غرا محجلين.

د. وفي المجمع: (عن مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ قال: نزلت في علي وأهل بيته.

٦. جزاء الصالحين جنات عدن ورضوان من الله:

المقطع [٦] من سورة البينة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٤٠»:

١. ﴿جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، إلى قوله: ﴿ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ العدن الاستقرار والثبات فجنات عدن جنات خلود ودوام وتوصيفها بقوله: ﴿خالِدِينَ فِيها أَبَداً﴾ تأكيد بما يدل عليه الاسم.

٢. ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ الرضى منه تعالى صفة فعل ومصداقه الثواب الذي أعطاهموه جزاء لإيمانهم وعملهم الصالح.

٣. ﴿ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ علامة مضروبة لسعادة الدار الآخرة وقد قال تعالى: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾ [فاطر: ٢٨] فالعلم بالله يستتبع الخشية منه، والخشية منه تستتبع الإيمان به بمعنى الالتزام القلبي بربوبيته وألوهيته ثم العمل الصالح.

٤. واعلم أن لهم في تفسير مفردات هذه الآيات اختلافا شديدا وأقوالا كثيرة لا جدوى في التعرض لها من أراد الوقوف عليها فليراجع المطولات.

سورة الزلزلة

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٣] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. ذكر للقيامة وصدور الناس للجزاء، وإشارة إلى بعض أشراطها وهي زلزلة الأرض وتحديثها أخبارها.

ب. والسورة تحتمل المكية والمدنية.

١. زلزلة الأرض وإخراج أثقالها:

المقطع [١] من سورة الزلزلة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ [الزلزلة: ١-٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٤٢»:

١. ﴿إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها﴾ الزلزال مصدر كالزلزلة، وإضافته إلى ضمير الأرض تفيد الاختصاص، والمعنى إذا زلزلت الأرض زلزلتها الخاصة بها فتفيد التعظيم والتفخيم أي أنها منتهية في الشدة والهول.

٢. ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها﴾ الأثقال جمع ثقل بفتحتين بمعنى المتاع أو خصوص متاع المسافر أو جمع ثقل بالكسر فالسكون بمعنى الحمل، وعلى أي حال المراد بأثقالها التي تخرجها، الموتى على ما قيل أو الكنوز والمعادن التي في بطنها أو الجميع ولكل قائل وأول الوجوه أقربها ثم الثالث لتكون الآية إشارة إلى خروجهم للحساب، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ إشارة إلى انصرافهم إلى الجزاء.

٣. ﴿وَقالَ الْإِنْسانُ ما لَها﴾:

أ. أي يقول مدهوشا متعجبا من تلك الزلزلة الشديدة الهائلة: ما للأرض تتزلزل هذا الزلزال.

ب. وقيل: المراد بالإنسان الكافر غير المؤمن بالبعث.

ج. وقيل: غير ذلك كما سيجيء.

٢. تحديث الأرض أخبارها بإذن الله:

المقطع [٢] من سورة الزلزلة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤-٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٤٢»:

١. ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها﴾ فتشهد على أعمال بني آدم كما تشهد بها أعضاؤهم وكتاب الأعمال من الملائكة وشهداء الأعمال من البشر وغيرهم.

٢. ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها﴾:

أ. اللام بمعنى إلى لأن الإيحاء يتعدى بإلى والمعنى تحدث أخبارها بسبب أن ربك أوحى إليها أن تحدث فهي شاعرة بما يقع فيها من الأعمال خيرها وشرها متحملة لها يؤذن لها يوم القيامة بالوحي أن تحدث أخبارها وتشهد بما تحملت، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقوله: ﴿قالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] أن المستفاد من كلامه سبحانه أن الحياة والشعور ساريان في الأشياء وإن كنا في غفلة من ذلك.

ب. وقد اشتد الخلاف بينهم في معنى تحديث الأرض بالوحي أهو بإعطاء الحياة والشعور للأرض الميتة حتى تخبر بما وقع فيها أو بخلق صوت عندها وعد ذلك تكلما منها أو دلالتها بلسان الحال بما وقع فيها من الأعمال، ولا محل لهذا الاختلاف بعد ما سمعت ولا أن الحجة تتم على أحد بهذا النوع من الشهادة.

٣. أحاديث وآثار: أخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: إن الأرض لتخبر يوم القيامة، بكل ما عمل على ظهرها، وقرأ رسول الله ﷺ ﴿إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها﴾ حتى بلغ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها﴾ قال أتدرون ما أخبارها؟ جاءني جبريل قال: خبرها إذا كان يوم القيامة أخبرت بكل عمل على ظهرها.

• أقول: وروي مثله عن أبي هريرة.

٣. خروج الناس أشتاتاً ورؤيتهم أعمالهم:

المقطع [٣] من سورة الزلزلة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتًا لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٦ـ٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٤٣»:

١. ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ﴾:

أ. الصدور انصراف الإبل عن الماء بعد وروده، وأشتات كشتى جمع شتيت بمعنى المتفرق، والآية جواب بعد جواب لإذا.

ب. والمراد بصدور الناس متفرقين يومئذ انصرافهم عن الموقف إلى منازلهم في الجنة والنار وأهل السعادة والفلاح منهم متميزون من أهل الشقاء والهلاك، وإراءتهم أعمالهم إراءتهم جزاء أعمالهم بالحلول فيه أو مشاهدتهم نفس أعمالهم بناء على تجسم الأعمال.

ج. وقيل: المراد به خروجهم من قبورهم إلى الموقف متفرقين متميزين بسواد الوجوه وبياضها وبالفزع والأمن وغير ذلك لإعلامهم جزاء أعمالهم بالحساب والتعبير عن العلم بالجزاء بالرؤية وعن الاعلام بالإراءة نظير ما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠]، والوجه الأول أقرب وأوضح.

٢. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾:

أ. المثقال ما يوزن به الأثقال، والذرة ما يرى في شعاع الشمس من الهباء، وتقال لصغار النمل.

ب. تفريع على ما تقدم من إراءتهم أعمالهم، فيه تأكيد البيان في أنه لا يستثني من الإراءة عمل خيرا أو شرا كبيرا أو صغيرا حتى مثقال الذرة من خير أو شر، وبيان حال كل من عمل الخير والشر في جملة مستقلة لغرض إعطاء الضابط وضرب القاعدة.

ج. ولا منافاة بين ما تدل عليه الآيتان من العموم وبين الآيات الدالة على حبط الأعمال، والدالة على انتقال أعمال الخير والشر من نفس إلى نفس كحسنات القاتل إلى المقتول وسيئات المقتول إلى القاتل، والدالة على تبديل السيئات حسنات في بعض التائبين إلى غير ذلك مما تقدمت الإشارة إليه في بحث الأعمال وكذا في تفسير قوله: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الآية: [الأنفال: ٣٧]

د. وذلك لأن الآيات المذكورة حاكمة على هاتين الآيتين فإن من حبط عمله الخير محكوم بأنه لم يعمل خيرا فلا عمل له خيرا حتى يراه وعلى هذا القياس في غيره فافهم.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج الحسين بن سفيان في مسنده وأبو نعيم في الحلية عن شداد بن أوس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أيها الناس إن الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر، يحق فيها الحق ويبطل الباطل، أيها الناس كونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن كل أم يتبعها ولدها، اعملوا وأنتم من الله على حذر، واعلموا أنكم معروضون على أعمالكم،

وأنكم ملاقوا الله لا بد منه، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.

ب. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها﴾ قال: من الناس، ﴿وَقالَ الْإِنْسانُ ما لَها﴾ قال: ذلك أمير المؤمنين عليه السلام ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها﴾، إلى قوله: ﴿أَشْتاتاً﴾ قال: يجيئون أشتاتا مؤمنين وكافرين ومنافقين ﴿لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ﴾ قال: يقفون على ما فعلوه.

ج. وفيه، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ يقول: إن كان من أهل النار، قد عمل مثقال ذرة في الدنيا خيرا (كان عليه ظ) يوم القيامة حسرة، إن كان عمله لغير الله ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ يقول: إن كان من أهل الجنة، راى ذلك الشر يوم القيامة ثم غفر له.

سورة العاديات

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٣] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. تذكر السورة كفران الإنسان لنعم ربه، وحبه الشديد للخير عن علم منه به، وهو حجة عليه، وسيحاسب على ذلك.

ب. والسورة مدنية بشهادة ما في صدرها من الإقسام بمثل قوله: ﴿وَالْعادِياتِ ضَبْحاً﴾ الظاهر في خيل الغزاة المجاهدين على ما سيجيء، وإنما شرع الجهاد بعد الهجرة.

ج. ويؤيد ذلك ما ورد من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليه السلام أن السورة نزلت في علي عليه السلام وسريته في غزوة ذات السلاسل، ويؤيده أيضاً بعض الروايات من طرق أهل السنة على ما سنشير إليه في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

د. أحاديث وآثار:

• في المجمع، قيل: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى حي من كنانة، فاستعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري أحد النقباء، فتأخر رجوعهم فقال المنافقون: قتلوا جميعاً، فأخبر الله تعالى عنها بقوله: ﴿وَالْعادِياتِ ضَبْحاً﴾ عن مقاتل.

• وقيل: نزلت السورة لما بعث النبي ﷺ علياً عليه السلام إلى ذات السلاسل فأوقع بهم، وذلك بعد أن بعث عليهم مراراً غيره من الصحابة، فرجع كل منهم إلى رسول الله ﷺ، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل.

• قال: وسميت هذه الغزوة ذات السلاسل لأنه أسر منهم وقتل وسبي، وشد أسراؤهم في الحبال مكتفين كأنهم في السلاسل، ولما نزلت السورة خرج رسول الله ﷺ إلى الناس، فصلى بهم الغداة وقرأ فيها ﴿وَالْعادِياتِ﴾، فلما فرغ من صلاته قال أصحابه: هذه سورة لم نعرفها، فقال رسول الله ﷺ: نعم، إن علياً ظفر بأعداء الله، وبشرني بذلك جبريل في هذه الليلة، فقدم علي عليه السلام بعد أيام بالغنائم والأسارى.

١. القسم بالخيل العاديات المغيرات:

المقطع [١] من سورة العاديات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فَالْمُورِيَاتِ

قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [العاديات: ١-٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٤٥»:

١. ﴿وَالْعادِياتِ ضَبْحاً﴾:

أ. العاديات من العدو وهو الجري بسرعة والضبح صوت أنفاس الخيل عند عدوها وهو المعهود المعروف من الخيل وإن ادعي أنه يعرض لكثير من الحيوان غيرها، والمعنى أقسم بالخيل اللاتي يعدون يضبحن ضبحا.

ب. وقيل: المراد بها إبل الحاج في ارتفاعها بركبانها من الجمع إلى منى يوم النحر.

ج. وقيل: إبل الغزاة، وما في الآيات التالية من الصفات لا يلائم كون الإبل هو المراد بالعاديات.

٢. ﴿فَالْمُورِياتِ قَدْحاً﴾:

أ. الإيراء إخراج النار والقدح الضرب والصك المعروف يقال: قدح فأورى إذا أخرج النار بالقدح، والمراد بها الخيل تخرج النار بحوافرها إذا عدت على الحجارة والأرض المحصبة.

ب. وقيل: المراد بالإيراء مكر الرجال في الحرب.

ج. وقيل: إيقادهم النار.

د. وقيل: الموريات ألسنة الرجال توري النار من عظيم ما تتكلم به، وهي وجوه ظاهرة الضعف.

٣. ﴿فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً﴾:

أ. الإغارة والغارة الهجوم على العدو بغتة بالخيل وهي صفة أصحاب الخيل ونسبتها إلى الخيل مجاز، والمعنى فأقسم بالخيل الهاجمات على العدو بغتة في وقت الصبح.

ب. وقيل: المراد بها الآبال ترتفع بركبانها يوم النحر من جمع إلى منى والسنة أن لا ترتفع حتى تصبح، والإغارة سرعة السير وهو خلاف ظاهر الإغارة.

٤. ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً﴾:

أ. أثرن من الإثارة بمعنى تهييج الغبار ونحوه، والنقع الغبار، والمعنى فهيجن بالعدو والإغارة غبارا.

ب. قيل: لا بأس بعطف ﴿فَأَثَرْنَ﴾ وهو فعل على ما قبله وهو صفة لأنه اسم فاعل وهو في معنى

الفعل كأنه قيل: أقسم باللاتي عدون فأورين فأغرن فأثرن.

٥. ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾:

أ. وسط وتوسط بمعنى، وضمير ﴿بِهِ﴾ للصبح والباء بمعنى في أو الضمير للنقع والباء للملابسة.

ب. والمعنى فصرن في وقت الصبح في وسط جمع والمراد به كتيبة العدو أو المعنى فتوسطن جمعا ملابسين للنقع.

ج. وقيل: المراد توسط الآبال جمع منى وأنت خبير بأن حمل الآيات الخمس بما لمفرداتها من ظواهر المعاني على إبل الحاج الذين يفيضون من جمع إلى منى خلاف ظاهرها جدا، فالمتعين حملها على خيل الغزاة وسياق الآيات وخاصة قوله: ﴿فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً﴾ ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ يعطي أنها غزاة بعينها أقسم الله فيها بخيل المجاهدين العاديات والفاء في الآيات الأربع تدل على ترتب كل منها على ما قبلها.

٢. الإنسان كنود لربه وشهيد على ذلك:

المقطع [٢] من سورة العاديات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٦-٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٤٦»:

١. ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾:

أ. الكنود الكفور، والآية كقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦]، وهو إخبار عما في طبع الإنسان من اتباع الهوى والانكباب على عرض الدنيا والانقطاع به عن شكر ربه على ما أنعم عليه.

ب. وفيه تعريض للقوم المغار عليهم، وكان المراد بكفرانهم كفرانهم بنعمة الإسلام التي أنعم الله بها عليهم وهي أعظم نعمة أوتوها فيها طيب حياتهم الدنيا وسعادة حياتهم الأبدية الأخرى.

٢. ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذلِكَ لَشَهِيدٌ﴾:

أ. ظاهر اتساق الضمائر أن يكون ضمير ﴿وَإِنَّهُ﴾ للإنسان فيكون المراد بكونه شهيدا على كفران نفسه بكفران نفسه علمه المذموم وتحمله له.

ب. فالمعنى وإن الإنسان على كفرانه بربه شاهد متحمل فالآية في معنى قوله: ﴿بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤]

ج. وقيل: الضمير لله واتساق الضمائر لا يلائمه.

٣. ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾:

أ. قيل: اللام في ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ للتعليل والخير المال، والمعنى وإن الإنسان لأجل حب المال لشديد أي بخيل شحيح.

ب. وقيل: المراد أن الإنسان لشديد الحب للمال ويدعوه ذلك إلى الامتناع من إعطاء حق الله، والإنفاق في الله، كذا فسروا.

ج. ولا يبعد أن يكون المراد بالخير مطلقة ويكون المراد أن حب الخير فطري للإنسان ثم إنه يرى عرض الدنيا وزينتها خيرا فتنجذب إليه نفسه وينسيه ذلك ربه أن يشكره.

٣. بعثرة القبور وتحصيل الصدور:

المقطع [٣] من سورة العاديات، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ٩ـ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٤٧»:

١. ﴿أَفَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ﴾:

أ. البعثرة كالبحثرة البعث والنشر، وتحصيل ما في الصدور تمييز ما في باطن النفوس من صفة الإيمان والكفر ورسم الحسنة والسيئة قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ﴾ [الطارق: ٩]

ب. وقيل: هو إظهار ما أخفته الصدور لتجازى على السر كما تجازى على العلانية.

٢. ﴿أَفَلا يَعْلَمُ﴾ الاستفهام فيه للإنكار، ومفعول يعلم جملة قائمة مقام المفعولين يدل عليه المقام، ثم استؤنف فقيل: إذا بعثر ما في القبور.، تأكيدا للإنكار، والمراد بها في القبور الأبدان.

٣. والمعنى، والله أعلم، أفلا يعلم الإنسان أن لكنوده وكفرانه بربه تبعة ستلحقه ويجازى بها، إذا أخرج ما في القبور من الأبدان وحصل وميز ما في سرائر النفوس من الإيمان والكفر والطاعة والمعصية إن ربهم بهم يومئذ لخبير فيجازيهم بما فيها.

سورة القارعة

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٤] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. إنذار وتبشير بالقيامة، يغلب فيه جانب الإنذار.

ب. والسورة مكية.

١. هول القارعة:

المقطع [١] من سورة القارعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١-٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٤٨»:

١. ﴿الْقارِعَةُ مَا الْقارِعَةُ﴾:

أ. مبتدأ وخبر، والقارعة من القرع وهو الضرب باعتماد شديد، وهي من أسماء القيامة في القرآن، قيل: سميت بها لأنها تقرع القلوب بالفزع وتقرع أعداء الله بالعذاب.

ب. والسؤال عن حقيقة القارعة في قوله: ﴿مَا الْقارِعَةُ﴾ مع كونها معلومة إشارة إلى تعظيم أمرها وتفخيمه وأنها لا تكتنه علما، وقد أكد هذا التعظيم والتفخيم بقوله بعد: ﴿وَما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ﴾

٢. حال الناس والجبال يوم القارعة:

المقطع [٢] من سورة القارعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٤-٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٤٩»:

١. ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ﴾ ظرف متعلق بفعل مقدر نحو اذكر وتقرع وتأتي، والفراش على ما نقل عن الفراء الجراد الذي ينفرش ويركب بعضه بعضا وهو غوغاء الجراد، قيل: شبه الناس عند البعث بالفراش لأن الفراش إذا ثار لم يتجه إلى جهة واحدة كسائر الطير وكذلك الناس إذا خرجوا من قبورهم أحاط بهم الفزع فتوجهوا جهات شتى أو توجهوا إلى منازلهم المختلفة سعادة وشقاء، والمبعوث من البث وهو التفريق.

٢. ﴿وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ العهن الصوف ذو ألوان مختلفة، والمنفوش من النفش وهو نشر الصوف بندف ونحوه فالعهن المنفوش الصوف المنتشر ذو ألوان مختلفة إشارة إلى تلاشي الجبال على

اختلاف ألوانها بزلزلة الساعة.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ قال: العهن الصوف.

٣. العيشة الراضية لمن ثقلت موازينه:

المقطع [٣] من سورة القارعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٦-٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٤٩»:

١. ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ﴾ إشارة إلى وزن الأعمال وأن الأعمال منها ما هو ثقيل في الميزان وهو ما له قدر ومنزلة عند الله وهو الإيمان وأنواع الطاعات، ومنها ما ليس كذلك وهو الكفر وأنواع المعاصي ويختلف القسمان أثرا فيستتبع الثقيل السعادة ويستتبع الخفيف الشقاء، وقد تقدم البحث عن معنى الميزان في تفسير السور السابقة.

٢. ﴿فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ﴾ العيشة بكسر العين كالجلسة بناء نوع، وتوصيفها براضية، والراضي صاحبها، من المجاز العقلي أو المعنى في عيشة ذات رضى.

٤. جزاء من خفت موازينه:

المقطع [٤] من سورة القارعة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ٨-١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٤٩»:

١. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ﴾:

أ. الظاهر أن المراد بهاوية جهنم وتسميتها بهاوية لهوي من ألقي فيها أي سقوطه إلى أسفل سافلين قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [التين: ٦]

ب. فتوصيف النار بالهاوية مجاز عقلي كتوصيف العيشة بالراضية وعد هاوية إما للداخل فيها لكونها مأواه ومرجعه الذي يرجع إليه كما يرجع الولد إلى أمه.

ج. وقيل: المراد بأمه أم رأسه والمعنى فأم رأسه هاوية أي ساقطة فيها لأنهم يلقون في النار على أم رأسهم، ويبعده بقاء الضمير في قوله: ﴿ما هِيَهْ﴾ بلا مرجع ظاهر.

٢. ﴿وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ﴾ ضمير هي لهاوية، والهاء في ﴿هِيَهْ﴾ للوقف والجملة تفسير تفيد تعظيم أمر النار وتفخيمه.

٣. ﴿نارٌ حامِيَةٌ﴾ أي حارة شديدة الحرارة وهو جواب الاستفهام في ﴿ما هِيَهْ﴾ وتفسير لهاوية.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ﴾ قال: من الحسنات.

ب. وفي قوله: ﴿فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ﴾ قال: أم رأسه، يقذف في النار على رأسه.

ج. أخرج ابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: إن نفس المؤمن إذا قبضت، يلقاها أهل الرحمة من عباد الله، كما يلقون البشير من أهل الدنيا فيقولون: انظروا صاحبكم يستريح فإنه كان في كرب شديد، ثم يسألونه ما فعل فلان وفلانة؟ هل تزوجت؟ فإذا سألوه عن الرجل قد مات قبله فيقول: هيهات قد مات ذاك قبلي فيقولون: إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية، فبئست الأم وبئست المربية.

• أقول: وروي هذا المعنى عن أنس بن مالك وعن الحسن والأشعث بن عبد الله الأعمى عنه ﷺ.

سورة التكاثر

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٣] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. توبيخ شديد للناس على تلهيهم بالتكاثر في الأموال والأولاد والأعضاء، وغفلتهم عما وراءه من تبعة الخسران والعذاب، وتهديد بأنهم سوف يعلمون ويرون ذلك، ويسألون عن هذه النعم التي أوتوها ليشكروا، فتلهوا بها وبدلوا نعمة الله كفراً.

ب. والسورة بما لها من السياق تحتمل المكية والمدنية، وسيأتي ما ورد في سبب نزولها في البحث الروائي إن شاء الله.

١. التكاثر يلهي حتى الممات:

المقطع [١] من سورة التكاثر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١-٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٥٠»:

١. ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾:

أ. قال في المفردات: (اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه، قال، ويقال: ألهاه كذا أي شغله عما هو أهم إليه، قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾) وقال: والمكاثرة والتكاثر التباري في كثرة المال والعز)، وقال: (المقبرة بكسر الميم، والمقبرة، بفتحها، موضع القبور وجمعها مقابر، قال تعالى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ كناية عن الموت)

ب. فالمعنى على ما يعطيه السياق شغلكم التكاثر في متاع الدنيا وزينتها والتسابق في تكثير العدة والعدة عما يهمكم وهو ذكر الله حتى لقيتم الموت فعمتكم الغفلة مدى حياتكم.

ج. وقيل: المعنى شغلكم التباهي والتباري بكثرة الرجال بأن يقول هؤلاء: نحن أكثر رجالا، وهؤلاء: نحن أكثر حتى إذا استوعبتم عدد الأحياء صرتم إلى القبور فعددتم الأموات من رجالكم فتكاثرتم بأمواتكم.

د. وهذا المعنى مبني على ما ورد في أسباب النزول أن قبيلتين من الأنصار تفاخرتا بالأحياء ثم بالأموات، وفي بعضها أن ذلك كان بمكة بين بني عبد مناف وبني سهم فنزلت السورة، وسيأتي القصة في

البحث الروائي.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: قيل: نزلت في اليهود قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضلالا: عن قتادة.

ب. وقيل: نزلت في فخذ من الأنصار تفاخروا: عن أبي بريدة.

ج. وقيل: نزلت في حيين من قريش: بني عبد مناف بن قصي، وبني سهم بن عمر، وتكاثروا وعدوا أشرافهم، فكثرهم بنو عبد مناف، ثم قالوا: نعد موتانا حتى زاروا القبور، فعدوهم وقالوا: هذا قبر فلان وهذا قبر فلان، فكثرهم بنو سهم لأنهم كانوا أكثر عددا في الجاهلية: عن مقاتل والكلبي.

٢. اكتشاف اللاهين للحقائق ورؤيتها رأي العين:

المقطع [٢] من سورة التكاثر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٣ـ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٥١»:

١. ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ردع عن اشتغالهم بما لا يهمهم عما يعنيهم وتخطئة لهم، وقوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد معناه على ما يفيده المقام سوف تعلمون تبعة تلهيكم هذا وتعرفونها إذا انقطعتم عن الحياة الدنيا.

٢. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾:

أ. تأكيد للردع والتهديد السابقين.

ب. وقيل: المراد بالأول علمهم بها عند الموت وبالثاني علمهم بها عند البعث.

٣. ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ردع بعد ردع تأكيدا واليقين العلم الذي لا يداخله شك وريب.

٤. ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾:

أ. جواب لو محذوف والتقدير لو تعلمون الأمر علم اليقين لشغلكم ما تعلمون عن التباهي والتفاخر بالكثرة، وقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ استئناف في الكلام، واللام للقسم، والمعنى أقسم لترون

الجحيم التي جزاء هذا التلهي كذا فسروا.

ب. قالوا: ولا يجوز أن يكون قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ جواب لو الامتناعية لأن الرؤية محقق الوقوع وجوابها لا يكون كذلك.

ج. وهذا مبني على أن يكون المراد رؤية الجحيم يوم القيامة كما قال: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات: ٣٦] وهو غير مسلم بل الظاهر أن المراد رؤيتها قبل يوم القيامة رؤية البصيرة وهي رؤية القلب التي هي من آثار اليقين على ما يشير إليه، قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وقد تقدم الكلام فيها، وهذه الرؤية القلبية قبل يوم القيامة غير محققة لهؤلاء المتلهين بل ممتنعة في حقهم لامتناع اليقين عليهم.

٥. أحاديث وآثار: في تفسير البرهان، عن البرقي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ قال: المعاينة.

• أقول: الرواية تؤيد ما قدمناه من المعنى.

٣. رؤية الجحيم عين اليقين والسؤال عن النعيم:

المقطع [٣] من سورة التكاثر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٧-٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٥٢»:

١. ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾:

أ. المراد بعين اليقين نفسه، والمعنى لترونها محض اليقين، وهذه بمشاهدتها يوم القيامة، ومن الدليل عليه قوله بعد ذلك ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ فالمراد بالرؤية الأولى رؤيتها قبل يوم القيامة وبالثانية رؤيتها يوم القيامة.

ب. وقيل: الأولى قبل الدخول فيها يوم القيامة والثانية إذ دخلوها.

ج. وقيل: الأولى بالمعرفة والثانية بالمشاهدة.

د. وقيل: المراد الرؤية بعد الرؤية إشارة إلى الاستمرار والخلود.

هـ. وقيل: غير ذلك وهي وجوه ضعيفة.

٢. ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من

المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ وبيان المراد بالنعيم المسؤول عنه]، خلاصته:

أ. بيان أن الخطاب في الآية عام للناس، ولكن التهديد واقع على طائفة خاصة وهم الذين ألهاهم التكاثر عن ذكر الله.

ب. إثبات أن المراد بالنعيم هو كل ما يصدق عليه أنه نعمة، وأن الإنسان مسئول عن كل نعمة أنعم الله بها عليه.

ج. توضيح أن النعمة تكون نعمة إذا استعملت في طريق السعادة والطاعة، وتكون نقمة إذا استعملت على خلاف ذلك، والسؤال عن النعيم هو سؤال عن كيفية استعمالها.

د. بيان أن السؤال عن النعيم في الحقيقة سؤال عن العمل بالدين، الذي جاء به النبي ﷺ وبينه الأئمة من أهل بيته عليهم السلام.

هـ. عرض الروايات الواردة في تفسير الآية، وبيان أنها تدل على أن النعيم المسؤول عنه هو النبي وآل بيته، أو الدين الحق، أو ولاية أهل البيت، وأن الجميع يرجع إلى معنى واحد.

و. الرد على الأقوال التي حملت النعيم على الصحة والفراغ أو التمر والماء البارد، وبيان أنها أمثلة لا حصر.

سورة العصر

هذه السورة الكريمة تحتوي على مقطعين، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. تخلص السورة جميع المعارف القرآنية، وتجمع شتات مقاصد القرآن في أوجز بيان.

ب. وهي تحتمل المكية والمدنية، لكنها أشبه بالمكية.

١. القسم بالعصر على خسران الإنسان:

المقطع [١] من سورة العصر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١-٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٥٥»:

١. ﴿وَالْعَصْرِ﴾:

أ. إقسام بالعصر والأنسب لما تتضمنه الآيتان التاليتان من شمول الخسران للعالم الإنساني إلا لمن اتبع الحق وصبر عليه وهم المؤمنون الصالحون عملا، أن يكون المراد بالعصر عصر النبي ﷺ وهو عصر طلوع الإسلام على المجتمع البشري وظهور الحق على الباطل.

ب. وقيل: المراد به وقت العصر وهو الطرف الأخير من النهار لما فيه من الدلالة على التدبير الربوبي بإدبار النهار وإقبال الليل وذهاب سلطان الشمس.

ج. وقيل: المراد به صلاة العصر وهي الصلاة الوسطى التي هي أفضل الفرائض اليومية.

د. وقيل: الليل والنهار ويطلق عليهما العصران.

هـ. وقيل: الدهر لما فيه من عجائب الحوادث الدالة على القدرة الربوبية وغير ذلك.

و. وقد ورد في بعض الروايات أنه عصر ظهور المهدي عليه السلام لما فيه من تمام ظهور الحق على الباطل.

٢. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ المراد بالإنسان جنسه، والخسر والخسران والخسار والخسارة نقص رأس المال قال الراغب: (وينسب ذلك إلى الإنسان فيقال: خسر فلان وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته) انتهى، والتنكير في ﴿خُسْرٍ﴾ للتعظيم ويحتمل التنويع أي في نوع من الخسر غير الخسارات المالية والجاهية قال تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]

٢. نجاة المؤمنين العاملين الصالحات المتواصين:

المقطع [٢] من سورة العصر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٥٦»:

١. ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾:

أ. استثناء من جنس الإنسان الواقع في الخسر، والمستثنون هم الأفراد المتلبسون بالإيمان والأعمال الصالحة فهم آمنون من الخسر.

ب. وذلك أن كتاب الله يبين أن للإنسان حياة خالدة مؤبدة لا تنقطع بالموت وإنما الموت انتقال من دار إلى دار كما تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١]، ويبين أن شطرا من هذه الحياة وهي الحياة الدنيا حياة امتحانية تتعين بها صفة الشطر الأخير الذي هو الحياة الآخرة المؤبدة من سعادة وشقاء قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]

ج. ويبين أن مقدمية هذه الحياة لتلك الحياة إنما هي بمظاهرها من الاعتقاد والعمل فالاعتقاد الحق والعمل الصالح ملاك السعادة الأخروية والكفر والفسوق ملاك الشقاء فيها قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى﴾، وقال: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]، وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها﴾ [فصلت: ٤٦]، وقد سمى الله تعالى ما سيلقاه الإنسان في الآخرة جزاء وأجرا في آيات كثيرة.

د. ويتبين بذلك كله أن الحياة رأس مال للإنسان يكسب به ما يعيش به في حياته الآخرة فإن اتبع الحق في العقد والعمل فقد ربحت تجارته وبورك في مكسبه وأمن الشر في مستقبله، وإن اتبع الباطل وأعرض عن الإيمان والعمل الصالح فقد خسرت تجارته وحرم الخير في عقباه وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾

هـ. والمراد بالإيمان الإيمان بالله ومن الإيمان بالله الإيمان بجميع رسله والإيمان باليوم الآخر فقد نص تعالى فيمن لم يؤمن ببعض رسله أو باليوم الآخر إنه غير مؤمن بالله.

و. ظاهر قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التلبس بجميع الأعمال الصالحة فلا يشمل الاستثناء

الفساق بترك بعض الصالحات من المؤمنين ولازمه أن يكون الخسر أعم من الخسر في جميع جهات حياته كما في الكافر المعاند للحق المخلد في العذاب، والخسر في بعض جهات حياته كالمؤمن الفاسق الذي لا يخلد في النار وينقطع عنه العذاب بشفاعة ونحوها.

٢. ﴿وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ﴾:

أ. التواصي بالحق هو أن يوصي بعضهم بعضا بالحق أي باتباعه والدوام عليه فليس دين الحق إلا اتباع الحق اعتقادا وعملا والتواصي بالحق أوسع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشموله الاعتقاديات ومطلق الترغيب والحث على العمل الصالح.

ب. ثم التواصي بالحق من العمل الصالح فذكره بعد العمل الصالح من قبيل ذكر الخاص بعد العام اهتماما بأمره كما أن التواصي بالصبر من التواصي بالحق وذكره بعده من ذكر الخاص بعد العام اهتماما بأمره، ويؤكد تكرار ذكر التواصي حيث قال: ﴿وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ ولم يقل: وتواصوا بالحق والصبر.

ج. وعلى الجملة ذكر تواصيهم بالحق وبالصبر بعد ذكر تلبسهم بالإيمان والعمل الصالح للإشارة إلى حياة قلوبهم وانشراح صدورهم للإسلام لله فلهم اهتمام خاص واعتناء تام بظهور سلطان الحق وانبساطه على الناس حتى يتبع ويدوم اتباعه قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]

د. وقد أطلق الصبر فالمراد به أعم من الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، والصبر عند النوائب التي تصيبه بقضاء من الله وقدر.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، بإسناده عن عبد الرحمن بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فقال: استثنى أهل صفوته من خلقه.

• أقول: وطبق في ذيل الرواية الإيمان على الإيمان بولاية علي عليه السلام، والتواصي بالحق على توصيتهم ذرياتهم وأخلافهم بها.

ب. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ يعني أبا جهل بن هشام ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ ذكر عليا وسلمان.

سورة الهمزة

هذه السورة الكريمة تحتوي على مقطعين، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. وعيد شديد للمغرمين بجمع المال المستعلين به على الناس المستكبرين عليهم، فيزرون بهم ويعيبونهم بما ليس بعيب.

ب. والسورة مكية.

١. الويل للهمزة اللمزة الذي حصر اهتمامه في جمع المال:

المقطع [١] من سورة الهمزة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ١-٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٥٨»:

١. ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾:

أ. قال في المجمع: (الهمزة الكثير الطعن على غيره بغير حق العائب له بما ليس بعيب، وأصل الهمز الكسر، قال: واللمز العيب أيضا والهمزة واللمزة بمعنى، وقد قيل: بينهما فرق فإن الهمزة الذي يعيبك بظهر الغيب، واللمزة الذي يعيبك في وجهك، عن الليث، وقيل: الهمزة الذي يؤذي جليسه بسوء لفظه، واللمزة الذي يكسر عينه على جليسه ويشير برأسه ويومئ بعينه، قال: وفعله بناء المبالغة في صفة من يكثر منه الفعل ويصير عادة له تقول: رجل نكحة كثير النكاح وضحكة كثير الضحك وكذا همزة ولمزة)

ب. فالمعنى ويل لكل عياب مغتاب، وفسر بمعان أخر على حسب اختلافهم في تفسير الهمزة واللمزة.

٢. ﴿الَّذِي جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ﴾:

أ. بيان لهمزة لمزة وتنكير ﴿مالاً﴾ للتحقير فإن المال وإن كثر ما كثر لا يغني عن صاحبه شيئا غير أن له منه ما يصرفه في حوائج نفسه الطبيعية من أكلة تشبعه وشربة ماء ترويه ونحو ذلك و﴿عَدَّدَهُ﴾ من العد بمعنى الإحصاء أي أنه لحبه المال وشغفه بجمعه يجمع المال ويعده عدا بعد عد التذاذا بتكثره.

ب. وقيل: المعنى جعله عدة وذخرا لنوائب الدهر.

٣. ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ﴾:

أ. أي يخلده في الدنيا ويدفع عنه الموت والفناء فالماضي أريد به المستقبل بقرينة قوله: ﴿يَحْسَبُ﴾

ب. فهذا الإنسان لإخلاده إلى الأرض وانغماره في طول الأمل لا يقنع من المال بما يرتفع به حوائج حياته القصيرة وضروريات أيامه المعدودة بل كلما زاد مالا زاد حرصا إلى ما لا نهاية له فظاهر حاله أنه يرى أن المال يخلده، ولحبه الغريزي للبقاء يهتم بجمعه وتعديده، ودغاه ما جمعه وعدده من المال وما شاهده من الاستغناء إلى الطغيان والاستعلاء على غيره من الناس كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى﴾ [العلق: ٧]، ويورثه هذا الاستكبار والتعدي الهمز واللمز.

ج. ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ بمنزلة التعليل لقوله: ﴿الَّذِي جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ﴾، وقوله: ﴿الَّذِي جَمَعَ﴾ بمنزلة التعليل لقوله: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾

٤. أحاديث وآثار:

أ. في روح المعاني في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ نزل ذلك على ما أخرج ابن أبي حاتم، من طريق ابن إسحاق عن عثمان بن عمر في أبي بن خلف، وعلى ما أخرج عن السدي في أبي بن عمر والثقفي، الشهير بالأخنس بن شريق، فإنه كان مغتابا كثير الوقيعة، وعلى ما قال ابن إسحاق في أمية بن خلف الجمحي، وكان يهمز النبي ﷺ، وعلى ما أخرج ابن جرير وغيره عن مجاهد في جميل بن عامر، وعلى ما قيل في الوليد بن المغيرة، واغتيابه لرسول الله ﷺ وغضه منه، وعلى قول في العاص بن وائل.، ويجوز أن يكون نازلا في جمع من ذكر)

- ولا يبعد أن يكون من تطبيق الرواة وهو كثير في أسباب النزول.

ب. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ قال: الذي يغمز الناس ويستحقر الفقراء، وقوله: ﴿لُمَزَةٍ﴾ يلوي عنقه ورأسه، ويغضب إذا رأى فقيرا أو سائلا ﴿الَّذِي جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ﴾ قال: أعده ووضعه.

٢. الحطمة نار الله الموقدة على الأفئدة:

المقطع [٢] من سورة الهمزة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ نارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٤-٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٥٩»:

١. ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾:

أ. ردع عن حسبانه الخلود بالمال، واللام في ﴿لَيُنْبَذَنَ﴾ للقسم، والنبذ القذف والطرح، والحطمة مبالغة من الحطم وهو الكسر وجاء بمعنى الأكل، وهي من أسماء جهنم على ما يفسرها قوله الآتي: ﴿نارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ﴾

ب. والمعنى ليس مخلدا بالمال كما يحسب أقسم ليموتن ويقذفن في الحطمة.

٢. ﴿وَما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ تفخيم وتهويل.

٣. ﴿نارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾:

أ. إيقاد النار إشعالها والاطلاع والطلوع على الشيء الإشراف والظهور، والأفئدة جمع فؤاد وهو القلب، والمراد به في القرآن مبدأ الشعور والفكر من الإنسان وهو النفس الإنسانية.

ب. وكان المراد من اطلاعها على الأفئدة أنها تحرق باطن الإنسان كما تحرق ظاهره بخلاف النار الدنيوية التي إنما تحرق الظاهر فقط قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]

٤. ﴿إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ﴾ أي مطبقة لا مخرج لهم منها ولا منجا.

٥. ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾:

أ. العمد بفتحتين جمع عمود والتمديد مبالغة في المد قيل: هي أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار.

ب. وقيل: عمد ممددة يوثقون فيها مثل المقاطر وهي خشب أو جذوع كبار فيها خروق توضع فيها أرجل المحبوسين من اللصوص وغيرهم.

ج. وقيل: غير ذلك.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي قوله تعالى: ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ قال: تلتهب على الفؤاد، قال أبو ذر رضي الله عنه: بشر المتكبرين بكي في الصدور وسحب على الظهور، قوله: ﴿إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ﴾ قال: مطبقة ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ قال: إذا مدت العمد عليهم أكلت والله الجلود.

ب. وفي المجمع: (روى العياشي بإسناده عن محمد بن النعمان الأحول عن حمران بن أعين عن أبي

جعفر عليه السلام قال: إن الكفار والمشركين يعيرون أهل التوحيد في النار، ويقولون: ما نرى توحيدكم أغنى عنكم شيئا، وما نحن وأنتم إلا سواء، قال: فيأنف لهم الرب تعالى فيقول للملائكة: اشفعوا فيشفعون لمن شاء الله، ثم يقول للنبيين: اشفعوا فيشفعون لمن شاء الله، ثم يقول للمؤمنين: اشفعوا فيشفعون لمن شاء الله، ويقول الله: أنا أرحم الراحمين اخرجوا برحمتي، فيخرجون كما يخرج الفراش، قال: ثم قال أبو جعفر عليه السلام: ثم مدت العمد وأوصدت عليهم وكان والله الخلود.

سورة الفيل

هذه السورة الكريمة تحتوي على مقطعين، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. فيها إشارة إلى قصة أصحاب الفيل، إذ قصدوا مكة لتخريب الكعبة المعظمة، فأهلكهم الله بإرسال طير أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول.

ب. وهي من آيات الله الجلية التي لا سترة عليها، وقد أرخوا بها وذكرها الجاهليون في أشعارهم.

ج. والسورة مكية.

١. فعل الله بأصحاب الفيل:

المقطع [١] من سورة الفيل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٦١»:

١. ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ المراد بالرؤية العلم الظاهر ظهور الحس، والاستفهام إنكاري، والمعنى ألم تعلم كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، وقد كانت الواقعة عام ولد فيه النبي ﷺ.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: أجمعت الرواة على أن ملك اليمن الذي قصد هدم الكعبة هو أبرهة بن الصباح الأشرم وقيل: إن كنيته أبو يكسوم ونقل عن الواقدي أنه جد النجاشي الذي كان على عهد رسول الله ﷺ.

ب. ثم ساق الكلام في قصة استيلائه على ملك اليمن إلى أن قال: ثم إنه بنى كعبة باليمن وجعل فيها قبابا من ذهب فأمر أهل مملكته بالحج إليها يضاهي بذلك البيت الحرام، وإن رجلا من بني كنانة خرج حتى قدم اليمن فنظر إليها ثم قعد فيها يعني لحاجة الإنسان فدخلها أبرهة فوجد تلك العذرة فيها فقال: من اجترأ علي بهذا؟ ونصرانيتي لأهدمن ذلك البيت حتى لا يحجه حاج أبدا ودعا بالفيل وأذن قومه بالخروج ومن اتبعه من أهل اليمن، وكان أكثر من اتبعه منهم عك والأشعرون وخثعم.

ج. قال: ثم خرج يسير حتى إذا كان ببعض طريقه بعث رجلا من بني سليم ليدعو الناس إلى حج بيته الذي بناه فتلقاه أيضا رجل من الحمس من بني كنانة فقتله فازداد بذلك حنقا وحث السير والانطلاق،

وطلب من أهل الطائف دليلا فبعثوا معه رجلا من هذيل يقال له نفيل فخرج بهم يهديهم حتى إذا كانوا بالمغمس نزلوه وهو من مكة على ستة أميال فبعثوا مقدماتهم إلى مكة فخرجت قريش عباديد في رءوس الجبال وقالوا: لا طاقة لنا بقتال هؤلاء ولم يبق بمكة غير عبد المطلب بن هاشم أقام على سقايته وغير شيبة بن عثمان بن عبد الدار أقام على حجابة البيت فجعل عبد المطلب يأخذ بعضادتي الباب ثم يقول:

لا هم أن المرء يمنع رحله فامنع جلالك...لا يغلبوا بصليبهم ومحالهم عدوا محالك

لا يدخلوا البلد الحرام إذا فأمر ما بدا لك

ثم إن مقدمات أبرهة أصابت نعما لقريش فأصابت فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم فلما بلغه ذلك خرج حتى أتى القوم، وكان حاجب أبرهة رجلا من الأشعرين وكان له بعبد المطلب معرفة فاستأذن له على الملك وقال له: أيها الملك جاءك سيد قريش الذي يطعم إنسها في الحي ووحشها في الجبل فقال له: ائذن له، وكان عبد المطلب رجلا جسيما جميلا فلما رآه أبو يكسوم أعظمه أن يجلسه تحته وكره أن يجلسه معه على سريره فنزل من سريره فجلس على الأرض وأجلس عبد المطلب معه ثم قال: ما حاجتك؟ قال: حاجتي مائتا بعير لي أصابتها مقدمتك فقال أبو يكسوم: والله لقد رأيتك فأعجبتني ثم تكلمت فزهدت فيك فقال: ولم أيها الملك؟ قال: لأني جئت إلى بيت عزكم ومنعتكم من العرب وفضلكم في الناس وشرفكم عليهم ودينكم الذي تعبدون فجئت لأكسره وأصيبت لك مائتا بعير فسألتك عن حاجتك فكلمتني في إبلك ولم تطلب إلي في بيتكم، فقال له عبد المطلب: أيها الملك أنا أكلمك في مالي ولهذا البيت رب هو يمنعه لست أنا منه في شيء فراع ذلك أبو يكسوم وأمر برد إبل عبد المطلب عليه ثم رجع وأمست ليلتهم تلك الليلة كالحة نجومها كأنها تكلمهم كلاما لاقترابها منهم فأحست نفوسهم بالعذاب، إلى أن قال: حتى إذا كان مع طلوع الشمس طلعت عليهم الطير معها الحجارة فجعلت ترميهم، وكل طائر في منقاره حجر وفي رجليه حجران وإذا رمت بذلك مضت وطلعت أخرى فلا يقع حجر من حجارتهم تلك على بطن إلا خرقه ولا عظم إلا أوهاه وثقبه، وثاب أبو يكسوم راجعا قد أصابته بعض الحجارة فجعل كلما قدم أرضا انقطع له فيها إرب حتى إذا انتهى إلى اليمن لم يبق شيء إلا باده فلما قدمها تصدع صدره وانشق بطنه فهلك ولم يصب من الأشعرين وخثعم أحد، الحديث.

- أقول: وفي الروايات اختلاف شديد في خصوصيات القصة من أراد الوقوف عليها فعليه

بمطولات السير والتواريخ.

٢. إرسال الطير الأبابيل بالحجارة من سجيل:

المقطع [٢] من سورة الفيل، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٢-٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٦٢»:

١. ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ المراد بكيدهم سوء قصدهم بمكة وإرادتهم تخريب البيت الحرام، والتضليل والإضلال واحد، وجعل كيدهم في تضليل جعل سعيهم ضالا لا يهتدى إلى الغاية المقصودة منه فقد ساروا لتخريب الكعبة وانتهى بهم إلى هلاك أنفسهم.

٢. ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ﴾ الأبابيل، كما قيل، جماعات في تفرقة زمرة زمرة، والمعنى وأرسل الله على أصحاب الفيل جماعات متفرقة من الطير والآية والتي تتلوها عطف تفسير على قوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾

٣. ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ أي ترمي أبابيل الطير أصحاب الفيل بحجارة من سجيل، وقد تقدم معنى السجيل في تفسير قصص قوم لوط.

٤. ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾:

أ. العصف ورق الزرع والعصف المأكول ورق الزرع الذي أكل حبه أو قشر الحب الذي أكل لبه والمراد أنهم عادوا بعد وقوع السجيل عليهم أجسادا بلا أرواح أو أن الحجر بحرارته أحرق أجوافهم.

ب. وقيل: المراد ورق الزرع الذي وقع فيها الأكال وهو أن يأكله الدود فيفسده وفسرت الآية ببعض وجوه أخر لا يناسب الأدب القرآني.

سورة قريش

هذه السورة الكريمة تحتوي على مقطعين، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. تتضمن السورة امتناناً على قريش بإيلافهم الرحلتين، وتعقبه بدعوتهم إلى التوحيد وعبادة رب البيت.

ب. والسورة مكية.

ج. ولمضمون السورة نوع تعلق بمضمون سورة الفيل، ولذا ذهب قوم من أهل السنة إلى كون الفيل ولإيلاف سورة واحدة، كما قيل بمثله في الضحى وألم نشرح لما بينهما من الارتباط، كما نسب ذلك إلى المشهور بين الشيعة، والحق أن شيئاً مما استندوا إليه لا يفيد ذلك.

د. أما القائلون بذلك من أهل السنة، فإنهم استندوا فيه إلى ما روي أن أبي بن كعب لم يفصل بينهما في مصحفه بالبسملة، وبما روي عن عمرو بن ميمون الأزدي قال: صليت المغرب خلف عمر بن الخطاب، فقرأ في الركعة الأولى والتين، وفي الثانية ألم تر ولإيلاف قريش من غير أن يفصل بالبسملة.

هـ. وأجيب عن الرواية الأولى بمعارضتها بما روي أنه أثبت البسملة بينهما في مصحفه، وعن الثانية بأن من المحتمل على تقدير صحتها أن يكون الراوي لم يسمع قراءتها، أو يكون قرأها سراً، على أنها معارض بما روي عن النبي ﷺ أن الله فضل قريشاً بسبع خصال، وفيها (ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم: لإيلاف قريش)، الحديث، على أن الفصل متواتر.

و. وأما القائلون بذلك من الشيعة، فاستندوا فيه إلى ما في المجمع عن أبي العباس عن أحدهما عليهما السلام قال: ألم تر كيف فعل ربك ولإيلاف قريش سورة واحدة، وما في التهذيب بإسناده عن العلاء عن زيد الشحام قال: صلى بنا أبو عبد الله عليه السلام الفجر، فقرأ الضحى وألم نشرح في ركعة، وما في المجمع عن العياشي عن المفضل بن صالح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: لا تجمع بين سورتين في ركعة واحدة إلا الضحى، وألم نشرح، وألم تر كيف ولإيلاف قريش، ورواه المحقق في المعتبر نقلاً من كتاب الجامع لأحمد بن محمد بن أبي نصر عن المفضل مثله.

- أما رواية أبي العباس فضعيف لما فيها من الرفع.

• وأما رواية الشحام، فقد رويت عنه بطريقين آخرين: أحدهما ما في التهذيب بإسناده عن ابن مسكان عن زيد الشحام قال: صلى بنا أبو عبد الله عليه السلام فقرأ بنا بالضحى وألم نشرح، وثانيهما عنه عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابنا عن زيد الشحام قال: صلى بنا أبو عبد الله عليه السلام فقرأ في الأولى الضحى، وفي الثانية ألم نشرح لك صدرك.

• وهذه أعني صحيحة ابن أبي عمير صريحة في قراءة السورتين في ركعتين، ولا يبقى معها لرواية العلاء ظهور في الجمع بينهما، وأما رواية ابن مسكان فلا ظهور لها في الجمع ولا صراحة، وأما حمل ابن أبي عمير على النافلة فيدفعه قوله فيها: (صلى بنا) فإنه صريح في الجماعة، ولا جماعة في نفل.

• وأما رواية المفضل، فهي أدل على كونهما سورتين منها على كونهما سورة واحدة، حيث قيل: لا تجمع بين سورتين، ثم استثنى من السورتين الضحى وألم نشرح، وكذا الفيل ولإيلاف.

• فالحق أن الروايات إن دلت فإنما تدل على جواز القرآن بين سورتي الضحى وألم نشرح، وسورتي الفيل ولإيلاف في ركعة واحدة من الفرائض، وهو ممنوع في غيرها.

• ويؤيده رواية الراوندي في الخرائج عن داود الرقي عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال: فلما طلع الفجر قام فأذن وأقام، وأقامني عن يمينه وقرأ في أول ركعة الحمد والضحى، وفي الثانية بالحمد وقل هو الله أحد، ثم قنت ثم سلم ثم جلس.

١ . إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف:

المقطع [١] من سورة قريش، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [قريش: ١-٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٦٥»:

١ . ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾:

أ. الألف بكسر الهمزة اجتماع مع التئام كما قاله الراغب ومنه الألفة، وقال في الصحاح: (وفلان قد ألف هذا الموضع بالكسر يألفه ألفا وآلفه إياه غيره، ويقال أيضا: آلفت الموضع أولفه إيلافا)

ب. وقريش عشيرة النبي ﷺ وهم ولد النضر بن كنانة المسمى قريشا، والرحلة حال السير على الراحلة وهي الناقة القوية على السير كما في المجمع: (والمراد بالرحلة خروج قريش من مكة للتجارة وذلك أن الحرم واد جديب لا زرع فيه ولا ضرع فكانت قريش تعيش فيه بالتجارة، وكانت لهم في كل سنة

رحلتان للتجارة رحلة في الشتاء إلى اليمن ورحلة بالصيف إلى الشام، وكانوا يعيشون بذلك وكان الناس يحترمونهم لمكان البيت الحرام فلا يتعرضون لهم بقطع طريقهم أو الإغارة على بلدهم الأمن.

٢. ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ اللام فيه للتعليل، وفاعل الإيلاف هو الله سبحانه وقريش مفعوله الأول ومفعوله الثاني محذوف يدل عليه ما بعده، وقوله: ﴿إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ﴾ بدل من إيلاف قريش، وفاعل إيلافهم هو الله ومفعوله الأول ضمير الجمع ومفعوله الثاني رحلة، والتقدير لإيلاف الله قريشا رحلة الشتاء والصيف.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ﴾ قال: نزلت في قريش لأنه كان معاشهم من الرحلتين، رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام، وكانوا يحملون من مكة الأدم واللب، وما يقع من ناحية البحر من الفلفل وغيره، فيشترون بالشام الثياب والدرمك والحبوب، وكانوا يتألفون في طريقهم ويثبتون في الخروج، في كل خرجة رئيسا من رؤساء قريش، وكان معاشهم من ذلك، فلما بعث الله نبيه استغنوا عن ذلك، لأن الناس وفدوا على رسول الله ﷺ وحجوا إلى البيت، فقال الله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ لا يحتاجون أن يذهبوا إلى الشام ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ يعني خوف الطريق.

• أقول: قوله: فلما بعث الله.. خفي الانطباق على سياق آيات السورة، ولعله من كلام القمي أخذه من بعض ما روي عن ابن عباس.

٢. دعوة قريش لعبادة رب البيت الذي أنعم عليهم بالطعام والأمن:

المقطع [٢] من سورة قريش، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٦٦»:

١. ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ﴾:

أ. الفاء في ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ لتوهم معنى الشرط أي أي شيء كان فليعبدوا رب هذا البيت لإيلافه أيام الرحلتين أو لتوهم التفصيل أي مهما يكن من شيء فليعبدوا رب هذا البيت إلخ، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧]

ب. ومحصل معنى الآيات الثلاث ليعبد قريش رب هذا البيت لأجل إيلافه إياهم رحلة الشتاء

والصيف وهم عائشون بذلك في أمن.

ج. هذا بالنظر إلى كون السورة منفصلة عما قبلها ذات سياق مستقل في نفسها، وأما على تقدير كونها جزء من سورة الفيل متممة لها فذكروا أن اللام في ﴿لِإِيلافِ﴾ تعليلية متعلقة بمقدر يدل عليه المقام والمعنى فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش مضافة إلى نعمتنا عليهم في رحلة الشتاء والصيف فكأنه قال: نعمة إلى نعمة ولذا قيل: إن اللام مؤدية معنى إلى وهو قول الفراء.

د. وقيل: المعنى فعلنا ذلك بأصحاب الفيل لتألف قريش بمكة ويمكنهم المقام بها أو لنؤلف قريشا فإنهم هابوا من أبرهة لما قصدها وهربوا منه فأهلكناهم لترجع قريش إلى مكة ويألفوا بها ويولد محمد ﷺ فيبعث إلى الناس بشيرا ونذيرا هذا، والكلام في استفادة هذه المعاني من السياق.

٢. ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ إشارة إلى ما في إيلافهم الرحلتين من منه الواضح ونعمته الظاهرة عليهم وهو الإطعام والأمن فيعيشون في أرض لا خصب فيها ولا أمن لغيرهم فليعبدوا ربا يدبر أمرهم أحسن التدبير وهو رب البيت.

سورة الماعون

هذه السورة الكريمة تحتوي على مقطعين، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. وعيد لمن كان من المنتحلين بالدين متخلقاً بأخلاق المنافقين: كالسهو عن الصلاة، والرياء في الأعمال، ومنع الماعون، مما لا يلائم التصديق بالجزاء.

ب. والسورة تحتمل المكية والمدنية، وقيل: نصفها مكي ونصفها مدني.

١. الذي يكذّب بالدين والقسوة على اليتيم والمسكين:

المقطع [١] من سورة قريش، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ـ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٦٨»:

١. ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ الرؤية تحتمل الرؤية البصرية وتحتمل أن تكون بمعنى المعرفة، والخطاب للنبي ﷺ بما أنه سامع فيتوجه إلى كل سامع، والمراد بالدين الجزاء يوم الجزاء فالمكذب بالدين منكر المعاد وقيل المراد به الدين بمعنى الملة.

٢. ﴿فَذلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ الدع هو الرد بعنف وجفاء، والفاء في ﴿فَذلِكَ﴾ لتوهم معنى الشرط والتقدير أرأيت الذي يكذب بالجزاء فعرفته بصفاته اللازمة لتكذيبه فإن لم تعرفه فذلك الذي يرد اليتيم بعنف ويجفوه ولا يخاف عاقبة عمله السيئ ولو لم يكذب به لخافها ولو خافها لرحمه.

٣. ﴿وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعامِ الْمِسْكِينِ﴾:

أ. الحض الترغيب، والكلام على تقدير مضاف أي لا يرغب الناس على إطعام طعام المسكين قيل: إن التعبير بالطعام دون الإطعام للإشعار بأن المسكين كأنه مالك لما يعطى له كما في قوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]

ب. وقيل: الطعام في الآية بمعنى الإطعام.

ج. والتعبير بالحض دون الإطعام لأن الحض أعم من الحض العملي الذي يتحقق بالإطعام.

٢. الويل للمرائين مانعي الماعون:

المقطع [٢] من سورة قريش، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ

صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٦٨»:

١. ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ﴾:

أ. أي غافلون لا يهتمون بها ولا يبالون أن تفوتهم بالكلية أو في بعض الأوقات أو تتأخر عن وقت فضيلتها وهكذا.

ب. وفي الآية تطبيق من يكذب بالدين على هؤلاء المصلين لمكان فاء التفريع ودلالة على أنهم لا يخلون من نفاق لأنهن يكذبون بالدين عملا وهم يتظاهرون بالإيمان.

٢. ﴿الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ﴾ أي يأتون بالعبادات لمراءاة الناس فهم يعملون للناس لا لله تعالى.

٣. ﴿وَيَمْنَعُونَ الْماعُونَ﴾ الماعون كل ما يعين الغير في رفع حاجة من حوائج الحياة كالقرض تقرضه والمعروف تصنعه ومتاع البيت تعيره وإلى هذا يرجع متفرقات ما فسر به في كلماتهم.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ قال: نزلت في أبي جهل وكفار قريش، وفي قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ﴾ قال: عنى به تاركون لأن كل إنسان يسهو في الصلاة، قال أبو عبد الله عليه السلام: تأخير الصلاة عن أول وقتها لغير عذر.

ب. وفي الخصال، عن علي عليه السلام في حديث الأربعمائة قال: ليس عمل أحب إلى الله عز وجل من الصلاة، فلا يشغلنكم عن أوقاتها شيء من أمور الدنيا، فإن الله عز وجل ذم أقواما فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ﴾ يعني أنهم غافلون استهانوا بأوقاتها.

ج. وفي الكافي، بإسناده عن محمد بن الفضيل قال: سألت عبدا صالحا عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ﴾ قال هو التضييع.

• أقول: وفي هذه المضامين روايات أخر.

د. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب ﴿الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ﴾ قال: يراءون بصلاتهم.

هـ. أخرج أبو نعيم والديلمي وابن عساكر عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ

الْمَاعُونَ﴾ قال: ما تعاون الناس بينهم الفأس والقدر والدلو وأشباهه.

و. وفي الكافي، بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال: وقوله عز وجل: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ هو القرض تقرضه والمعروف تصنعه، ومتاع البيت تعيره ومنه الزكاة.

• أقول: وتفسير الماعون بالزكاة مروي من طرق أهل السنة أيضا عن علي عليه السلام كما في الدر المنثور، ولفظه: الماعون الزكاة المفروضة، يراءون بصلاتهم ويمنعون زكاتهم.

ز. أخرج ابن قانع عن علي بن أبي طالب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: المسلم أخو المسلم إذا لقيه حياة بالسلام، ويرد عليه ما هو خير منه لا يمنع الماعون، قلت: يا رسول الله ما الماعون؟ قال ﷺ: الحجر والحديد والماء وأشباه ذلك.

• أقول: وقد فسر ﷺ في رواية أخرى الحديد بقدور النحاس وحديد الفأس والحجر بقدور الحجارة.

سورة الكوثر

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٣] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. امتنان على النبي ﷺ بإعطائه الكوثر، وتطييب لنفسه الشريفة بأن شانئه هو الأبتر.

ب. وهي أقصر سورة في القرآن، وقد اختلفت الروايات في كون السورة مكية أو مدنية، والظاهر أنها مكية، وذكر بعضهم أنها نزلت مرتين جمعاً بين الروايات.

١. إعطاء النبي الكوثر:

المقطع [١] من سورة الكوثر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٧٠»:

١. ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قال في المجمع: (الكوثر فوعل وهو الشيء الذي من شأنه الكثرة، والكوثر الخير الكثير)

٢. وقد اختلفت أقوالهم في تفسير الكوثر اختلافا عجيبا:

أ. فقيل: هو الخير الكثير.

ب. وقيل: نهر في الجنة.

ج. وقيل: حوض النبي ﷺ في الجنة أو في المحشر.

د. وقيل: أولاده.

هـ. وقيل: أصحابه وأشياعه ﷺ إلى يوم القيامة.

و. وقيل: علماء أمته ﷺ.

ز. وقيل: القرآن وفضائله كثيرة.

ح. وقيل: النبوة.

ط. وقيل: تيسير القرآن وتخفيف الشرائع.

ي. وقيل: الإسلام وقيل التوحيد.

ك. وقيل: العلم والحكمة.

ل. وقيل: فضائله ﷺ.

م. وقيل: المقام المحمود.

ن. وقيل: هو نور قلبه ﷺ.

س. إلى غير ذلك مما قيل، وقد نقل عن بعضهم أنه أنهى الأقوال إلى ستة وعشرين.

٣. وقد استند في القولين الأولين إلى بعض الروايات، وباقي الأقوال لا تخلو من تحكم وكيفما كان فقوله في آخر السورة: ﴿إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ وظاهر الأبتر هو المنقطع نسله وظاهر الجملة أنها من قبيل قصر القلب، أن كثرة ذريته ﷺ هي المرادة وحدها بالكوثر الذي أعطيه النبي ﷺ أو المراد بها الخير الكثير وكثرة الذرية مرادة في ضمن الخير الكثير ولولا ذلك لكان تحقيق الكلام بقوله: ﴿إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ خاليا عن الفائدة.

٤. وقد استفاضت الروايات أن السورة إنما نزلت فيمن عابه ﷺ بالبتر بعد ما مات ابناه القاسم وعبد الله، وبذلك يندفع ما قيل: إن مراد الشانئ بقوله: ﴿الْأَبْتَرُ﴾ المنقطع عن قومه أو المنقطع عن الخير فرد الله عليه بأنه هو المنقطع من كل خير.

٥. ولما في قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْناكَ﴾ من الامتنان عليه ﷺ جيء بلفظ المتكلم مع الغير الدال على العظمة، ولما فيه من تطييب نفسه الشريفة أكدت الجملة بإن وعبر بلفظ الإعطاء الظاهر في التمليك.

٦. والجملة لا تخلو من دلالة على أن ولد فاطمة عليه السلام ذريته ﷺ، وهذا في نفسه من ملاحم القرآن الكريم فقد كثر الله تعالى نسله بعده كثرة لا يعادلهم فيها أي نسل آخر مع ما نزل عليهم من النوائب وأفنى جموعهم من المقاتل الذريعة.

٧. أحاديث وآثار:

أ. أخرج البخاري وابن جرير والحاكم من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: الكوثر الخير الذي أعطاه إياه، قال أبو بشر قلت لسعيد بن جبير، فإن ناسا يزعمون أنه نهر في الجنة، قال: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه.

ب. أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب قال: لما نزلت هذه السورة على النبي ﷺ ﴿إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ﴾ قال النبي ﷺ لجبريل: ما هذه النحيرة التي أمرني

بها ربي؟ قال: إنها ليست بنحيرة، ولكن يأمرك إذا تحرمت للصلاة، أن ترفع يديك إذا كبرت، وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من الركوع، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين في السماوات السبع، وأن لكل شيء زينة، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة، قال النبي ﷺ: رفع اليدين من الاستكانة التي قال الله: ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَما يَتَضَرَّعُونَ﴾

• أقول: ورواه في المجمع: (عن المقاتل عن الأصبغ بن نباتة عنه عليه السلام ثم قال: أورده الثعلبي والواحدي في تفسيرهما، وقال أيضا: إن جميع عترته الطاهرة رووا عنه عليه السلام: أن معنى النحر رفع اليدين إلى النحر في الصلاة.

ج. وفي تفسير القمي: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قال: الكوثر نهر في الجنة أعطى الله محمدا ﷺ، عوضا عن ابنه إبراهيم.

• أقول: الخبر على إرساله وإضماره معارض لسائر الروايات وتفسير الكوثر بنهر في الجنة لا ينافي التفسير بالخير الكثير كما تقدم في خبر ابن جبير.

٢. الأمر بالصلاة والنسك والنحر:

المقطع [٢] من سورة الكوثر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٧١»:

١. ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾:

أ. ظاهر السياق في تفريع الأمر بالصلاة والنحر على الامتنان في قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ إنه من شكر النعمة والمعنى إذا مننا عليك بإعطاء الكوثر فاشكر لهذه النعمة بالصلاة والنحر.

ب. والمراد بالنحر على ما رواه الفريقان عن النبي ﷺ وعن علي عليه السلام وروته الشيعة عن الصادق عليه السلام وغيره من الأئمة هو رفع اليدين في تكبير الصلاة إلى النحر.

ج. وقيل: معنى الآية صل لربك صلاة العيد وانحر البدن.

د. وقيل: يعني صل لربك واستو قائما عند رفع رأسك من الركوع وقيل غير ذلك.

٢. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن جرير عن أبي جعفر في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ قال: الصلاة ﴿وَانْحَرْ﴾ قال يرفع يديه

أول ما يكبر في الافتتاح.

ب. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ قال: إن الله أوحى إلى رسوله، أن ارفع يديك حذاء نحرك إذا كبرت للصلاة فذاك النحر.

ج. وفي المجمع: (في الآية عن عمر بن يزيد قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ هو رفع يديك حذاء وجهك.

• أقول: ثم قال: وروى عنه عبد الله بن سنان مثله، وروي أيضا قريبا منه عن جميل عنه عليه السلام.

٣. الشانئ هو الأبتر:

المقطع [٣] من سورة الكوثر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٧١»:

١. ﴿إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾:

أ. الشانئ هو المبغض والأبتر من لا عقب له وهذا الشانئ هو العاص بن وائل.

ب. وقيل: المراد بالأبتر المنقطع عن الخير أو المنقطع عن قومه، وقد عرفت أن روايات سبب نزول السورة لا تلائمه وستجيء.

٢. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كان أكبر ولد رسول الله ﷺ القاسم، ثم زينب ثم عبد الله ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية، فمات القاسم وهو أول ميت من ولده بمكة، ثم مات عبد الله، فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع نسله فهو أبتر، فأنزل الله ﴿إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾

ب. أخرج الزبير بن بكار وابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: توفي القاسم بن رسول الله بمكة، فمر رسول الله ﷺ وهو آت من جنازته، على العاص بن وائل وابنه عمرو، فقال حين رأى رسول الله ﷺ: إني لأشنؤه، فقال العاص بن وائل: لا جرم لقد أصبح أبتر، فأنزل الله ﴿إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾

ج. أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: كانت قريش تقول، إذا مات ذكور الرجل، بتر فلان، فلما

مات ولد النبي ﷺ، قال العاص بن وائل: بتر والأبتر الفرد.

• أقول: وفي بعض الآثار أن الشانئ هو الوليد بن المغيرة، وفي بعضها أبو جهل وفي بعضها عقبة بن أبي معيط، وفي بعضها كعب بن الأشرف، والمعتمد ما تقدم.

د. ويؤيده ما في الاحتجاج الطبرسي، عن الحسن بن علي عليه السلام: في حديث يخاطب فيه عمرو بن العاصي: وأنك ولدت على فراش مشترك، فتحاكمت فيك رجال قريش منهم أبو سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة وعثمان بن الحارث، والنضر بن الحارث بن كلدة والعاص بن وائل، كلهم يزعم أنك ابنه، فغلبهم عليك من بين قريش ألأمهم حسبا، وأخبثهم منصبا وأعظمهم بغية، ثم قمت خطيبا وقلت: أنا شانئ محمد، وقال العاص بن وائل: إن محمدا رجل أبتر لا ولد له، قد مات انقطع ذكره، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ الحديث.

سورة الكافرون

هذه السورة الكريمة تحتوي على مقطعين، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. فيها أمره ﷺ أن يظهر للكفار براءته من دينهم، ويخبرهم بامتناعهم من دينه، فلا دينه يتعداه إليهم، ولا دينهم يتعداهم إليه، فلا يعبد ما يعبدون أبداً، ولا يعبدون ما يعبد أبداً، فلييأسوا من أي نوع من المداهنة والمساهلة.

ب. واختلفوا في كون السورة مكية أو مدنية، والظاهر من سياقها أنها مكية.

١. البراءة من عبادة الكفار:

المقطع [١] من سورة الكافرون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ١ـ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٧٣»:

١. ﴿قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ﴾ الظاهر أن هؤلاء قوم معهودون لا كل كافر ويدل على ذلك أمره ﷺ أن يخاطبهم ببراءته من دينهم وامتناعهم من دينه.

٢. ﴿لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ﴾ الآية إلى آخر السورة مقول القول، والمراد بها تعبدون الأصنام التي كانوا يعبدونها، ومفعول ﴿تَعْبُدُونَ﴾ ضمير راجع إلى الموصول محذوف لدلالة الكلام عليه ولرعاية الفواصل، وكذا مفاعيل الأفعال التالية: ﴿أَعْبُدُ﴾ و﴿عَبَدْتُّمْ﴾ و﴿أَعْبُدُ﴾

٣. ﴿لا أَعْبُدُ﴾ نفي استقبالي فإن لا لنفي الاستقبال كما أن ما لنفي الحال، والمعنى لا أعبد أبدا ما تعبدونه اليوم من الأصنام.

٤. ﴿وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ﴾:

أ. نفي استقبالي أيضا لعبادتهم ما يعبده ﷺ وهو إخبار عن امتناعهم عن الدخول في دين التوحيد في مستقبل الأمر.

ب. وبانضمام الأمر الذي في مفتتح الكلام تفيد الآيتان إن الله سبحانه أمرني بالدوام على عبادته وأن أخبركم أنكم لا تعبدونه أبدا فلا يقع بيني وبينكم اشتراك في الدين أبدا.

ج. فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]

د. وكان من حق الكلام أن يقال: ولا أنتم عابدون من أعبد، لكن قيل: ما أعبد ليطابق ما في قوله: ﴿لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ﴾

٥. ﴿وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ﴾:

أ. تكرار لمضمون الجملتين السابقتين لزيادة التأكيد، كقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٤] وقوله: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: ٢٠]

ب. وقيل: إن ما في ﴿ما عَبَدْتُّمْ﴾ و﴿ما أَعْبُدُ﴾ مصدرية لا موصولة والمعنى ولا أنا عابد عبادتكم ولا أنتم عابدون عبادتي أي لا أشارككم ولا تشاركونني لا في المعبود ولا في العبادة فمعبودي هو الله ومعبودكم الوثن وعبادتي ما شرعه الله لي وعبادتكم ما ابتدعتموه جهلا وافتراء، وعلى هذا فالآيتان غير مسوقتين للتأكيد، ولا يخلو من بعد وسيأتي في البحث الروائي التالي وجه آخر للتكرار لطيف.

٦. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف عن سعيد بن ميناء مولى أبي البختري قال: لقي الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب وأمية بن خلف، رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد، ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كله، فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه، كنت قد أخذت منه حظا، وإن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه، كنا قد أخذنا منه حظا، فأنزل الله ﴿قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ﴾ حتى انقضت السورة.

• أقول: وروى الشيخ في الأمالي، بإسناده عن ميناء عن غير واحد من أصحابه قريبا منه.

ب. وفي تفسير القمي، عن أبيه عن ابن أبي عمير قال: سأل أبو شاكر أبا جعفر الأحول عن قول الله: ﴿قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ، وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ، وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ﴾ فهل يتكلم الحكيم بمثل هذا القول، ويكرر مرة بعد مرة؟ فلم يكن عند أبي جعفر الأحول في ذلك جواب، فدخل المدينة فسأل أبا عبد الله عليه السلام عن ذلك، فقال: كان سبب نزولها وتكرارها، أن قريشا قالت لرسول الله ﷺ: تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، وتعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك

سنة، فأجابهم الله بمثل ما قالوا فقال فيما قالوا: تعبد آلهتنا سنة: ﴿قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ﴾، وفيما قالوا: نعبد إلهك سنة: ﴿وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ﴾، وفيما قالوا: تعبد آلهتنا سنة: ﴿وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ﴾ وفيما قالوا: نعبد إلهك سنة: ﴿وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، قال: فرجع أبو جعفر الأحول إلى أبي شاكر، فأخبره بذلك فقال أبو شاكر: هذا حملته الإبل من الحجاز.

• أقول: مفاد التكرار في كلام قريش الاستمرار على عبادة آلهتهم سنة وعبادة الله تعالى سنة.

٢. تميز الأديان وعدم اختلاطها:

المقطع [٢] من سورة الكافرون، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٧٤»:

١. ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾:

أ. تأكيد بحسب المعنى لما تقدم من نفي الاشتراك، واللام للاختصاص أي دينكم وهو عبادة الأصنام يختص بكم ولا يتعداكم إلي وديني يختص بي ولا يتعداني إليكم ولا محل لتوهم دلالة الآية على إباحة أخذ كل بما يرتضيه من الدين ولا أنه ﷺ لا يتعرض لدينهم بعد ذلك فالدعوة الحقة التي يتضمنها القرآن تدفع ذلك أساسا.

ب. وقيل: الدين في الآية بمعنى الجزاء والمعنى لكم جزاؤكم ولي جزائي.

ج. وقيل: إن هناك مضافا محذوفا والتقدير لكم جزاء دينكم ولي جزاء ديني، والوجهان بعيدان عن الفهم.

سورة النصر

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٣] مقاطع، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. وعد له ﷺ بالنصر والفتح، وأنه سيرى الناس يدخلون في الإسلام فوجاً بعد فوج، وأمره بالتسبيح حينئذ والتحميد والاستغفار.

ب. والسورة مدنية نزلت بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة على ما سنستظهر.

ج. أحاديث وآثار: في العيون، بإسناده إلى الحسين بن خالد قال: قال الرضا عليه السلام سمعت أبي يحدث عن أبيه عليه السلام: أن أول سورة نزلت ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، وآخر سورة نزلت ﴿إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ﴾

• أقول: لعل المراد به أنها آخر سورة نزلت تامة كما قيل.

١. نصر الله وفتحه:

المقطع [١] من سورة النصر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِّ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٧٦»:

١. ﴿إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾:

أ. ظهور (إذا) المصدرة بها الآية في الاستقبال يستدعي أن يكون مضمون الآية إخبارا بتحقق أمر لم يتحقق بعد، وإذا كان المخبر به هو النصر والفتح وذلك مما تقر به عين النبي ﷺ فهو وعد جميل وبشرى له ﷺ ويكون من ملاحم القرآن الكريم.

ب. وليس المراد بالنصر والفتح جنسهما حتى يصدقا على جميع المواقف التي أيد الله فيها نبيه ﷺ على أعدائه وأظهر دينه على دينهم كما في حروبه ومغازيه وإيمان الأنصار وأهل اليمن كما قيل إذ لا يلائمه قوله بعد: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْواجاً﴾

ج. وليس المراد بذلك أيضا صلح الحديبية الذي سماه الله تعالى فتحا إذ قال ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ [الفتح: ١] لعدم انطباق الآية الثانية بمضمونها عليه.

د. وأوضح ما يقبل الانطباق عليه النصر والفتح المذكوران في الآية هو فتح مكة الذي هو أم

فتوحاته ﷺ في زمن حياته والنصر الباهر الذي انهدم به بنيان الشرك في جزيرة العرب.

هـ. ويؤيده وعد النصر الذي في الآيات النازلة في الحديبية ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾ [الفتح: ٣] فإن من القريب جدا أن يكون ما في الآيات وعدا بنصر عزيز يرتبط بفتح الحديبية وهو نصره تعالى نبيه ﷺ على قريش حتى فتح مكة بعد مضي سنتين من فتح الحديبية.

و. وهذا الذي ذكر أقرب من حمل الآية على إجابة أهل اليمن الدعوة الحقة ودخولهم في الإسلام من غير قتال، فالأقرب إلى الاعتبار كون المراد بالنصر والفتح نصره تعالى نبيه ﷺ على قريش وفتح مكة، وأن تكون السورة نازلة بعد صلح الحديبية ونزول سورة الفتح وقبل فتح مكة.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: في قصة فتح مكة: لما صالح رسول الله ﷺ قريشا عام الحديبية، كان في أشراطهم أنه من أحب، أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ، دخل فيه فدخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش، وكان بين القبيلتين شر قديم، ثم وقعت فيما بعد بين بني بكر وخزاعة مقاتلة، ورفدت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفيا، وكان ممن أعان بني بكر على خزاعة بنفسه، عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، فركب عمرو بن سالم الخزاعي، حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، وكان ذلك مما هاج فتح مكة، فوقف عليه وهو في المسجد بين ظهراني القوم وقال:

لا هم إني ناشد محمدا...حلف أبينا وأبيه الأتلدا

إن قريشا أخلفوك الموعدا...ونقضوا ميثاقك المؤكدا

وقتلونا ركعا وسجدا

فقال رسول الله ﷺ: حسبك يا عمرو، ثم قام فدخل دار ميمونة وقال: اسكبي لي ماء فجعل يغتسل وهو يقول: لا نصرت إن لم أنصر بني كعب، وهم رهط عمرو بن سالم، ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي، في نفر من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ، فأخبروه بما أصيب منهم، ومظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة، وقد كان ﷺ قال للناس: كأنكم بأبي سفيان قد جاء ليشدد العقد، ويزيد في المدة وسيلقى بديل بن ورقاء، فلقوا أبا سفيان بعسفان، وقد بعثته قريش إلى النبي ﷺ ليشدد

العقد، فلما لقي أبو سفيان بديلا قال: من أين أقبلت يا بديل، قال: سرت في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي، قال: ما أتيت محمدا؟ قال: لا فلما راح بديل إلى مكة، قال أبو سفيان: لئن كان جاء من المدينة، لقد علف بها النوى، فعمد إلى مبرك ناقته وأخذ من بعرها، ففته فرأى فيها النوى فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمدا، ثم خرج أبو سفيان حتى قدم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد احقن دماء قومك، وأجر بين قريش وزدنا في المدة، فقال: أغدرتم يا أبا سفيان؟ قال: لا، فقال: فنحن على ما كنا عليه فخرج فلقي أبا بكر فقال: أجر بين قريش، قال: ويحك وأحد يجير على رسول الله ﷺ؟ ثم لقي عمر بن الخطاب، فقال له مثل ذلك ثم خرج، فدخل على أم حبيبة فذهب ليجلس على الفراش، فأهوت إلى الفراش فطوته، فقال: يا بنية أرغبت بهذا الفراش عني؟ فقالت: نعم هذا فراش رسول الله ﷺ ما كنت لتجلس عليه وأنت رجس مشرك، ثم خرج فدخل على فاطمة عليه السلام، فقال يا بنت سيد العرب تجيرين بين قريش، وتزيدين في المدة فتكونين أكرم سيدة في الناس؟ فقالت: جواري جوار رسول الله ﷺ، قال: أتأمرين ابنيك أن يجيرا بين الناس؟ قالت: والله ما بلغ ابناي أن يجيرا بين الناس، وما يجير على رسول الله ﷺ أحد، فقال: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي، فانصحني فقال علي عليه السلام: إنك شيخ قريش، فقم على باب المسجد وأجر بين قريش، ثم الحق بأرضك، قال: وترى ذلك مغنيا عني شيئا؟ قال: لا والله ما أظن ذلك ولكن لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد فقال: يا أيها الناس إني قد أجرت بين قريش، ثم ركب بعيره فانطلق، فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ فأخبرهم بالقصة فقالوا: والله إن زاد علي بن أبي طالب، على أن لعب بك فما يغني عنا ما قلت؟ قال: لا والله ما وجدت غير ذلك، قال: فأمر رسول الله ﷺ بالجهاز لحرب مكة، وأمر الناس بالتهيئة وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها، وكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء، فبعث عليا عليه السلام والزبير حتى أخذا كتابه من المرأة، وقد مضت هذه القصة في سورة الممتحنة، ثم استخلف رسول الله ﷺ أبا ذر الغفاري، وخرج عامدا إلى مكة لعشر مضين من شهر رمضان، سنة ثمان في عشرة آلاف من المسلمين، ونحو من أربعمائة فارس، ولم يتخلف من المهاجرين والأنصار عنه أحد، وقد كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن أمية بن المغيرة، قد لقيا رسول الله ﷺ بنيق العقاب، فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه فلم يأذن لهما، فكلمته أم سلمة فيهما فقالت: يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك

وصهرك، قال لا حاجة لي فيهما أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري، فهو الذي قال لي بمكة ما قال، فلما خرج الخبر إليهما بذلك، ومع أبي سفيان بني له قال: والله ليأذنن لي أو لآخذن بيد بني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشا وجوعا، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رق لهما، فأذن لهما فدخلا عليه فأسلما، فلما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران، وقد غمت الأخبار عن قريش، فلا يأتيهم عن رسول الله ﷺ خبر، خرج في تلك الليلة أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء، يتجسسون الأخبار وقد قال العباس ليلتئذ: يا سوء صباح قريش، والله لئن بغتها رسول الله ﷺ في بلادها، فدخل مكة عنوة أنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، فخرج على بغلة رسول الله ﷺ وقال: أخرج إلى الأراك لعلي أرى خطابا، أو صاحب لبن أو داخلا يدخل مكة، فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ فيأتونه فيستأمنونه، قال العباس فوالله إني لأطوف في الأراك، ألتمس ما خرجت له، إذ سمعت صوت أبي سفيان، وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء، وسمعت أبا سفيان يقول: والله ما رأيت كالليلة قط نيرانا، فقال بديل: هذه نيران خزاعة، فقال أبو سفيان: خزاعة الأم من ذلك، قال: فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة يعني أبا سفيان، فقال: أبو الفضل؟ فقلت: نعم، قال: لبيك فداك أبي وأمي ما وراءك؟ فقلت: هذا رسول الله وراءك، قد جاء بما لا قبل لكم به بعشرة آلاف من المسلمين، قال: فما تأمرني؟ قلت: تركب عجز هذه البغلة، فاستأمن لك رسول الله ﷺ، فوالله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فردفني، فخرجت أركض به بغلة رسول الله ﷺ، فكلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: هذا عم رسول الله ﷺ على بغلة رسول الله، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، فقال يعني عمر: يا أبا سفيان، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عهد ولا عقد، ثم اشتد نحو رسول الله ﷺ، وركضت البغلة حتى اقتحمت باب القبة، وسبقت عمر بما يسبق به الدابة البطيئة الرجل البطيء، فدخل عمر فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان عدو الله، قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد، فدعني أضرب عنقه، فقلت: يا رسول الله إني قد أجرته، ثم إني جلست إلى رسول الله ﷺ، وأخذت برأسه وقلت: والله لا يناجيه اليوم أحد دوني، فلما أكثر فيه عمر قلت: مهلا يا عمر، فوالله ما يصنع هذا الرجل، إلا أنه رجل من آل بني عبد مناف، ولو كان من عدي بن كعب ما قلت هذا، قال: مهلا يا عباس لإسلامك يوم أسلمت، كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال ﷺ: اذهب فقد آمناه حتى تغدو به علي في الغداة، قال: فلما أصبح غدوت به على رسول الله ﷺ، فلما رآه قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن

لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأكرمك، وأرحمك وأحلمك، والله لقد ظننت أن لو كان معه إله، لأغنى يوم بدر ويوم أحد، فقال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك، أن تعلم أني رسول الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي أما هذه فإن في النفس منها شيئا، قال العباس: فقلت له: ويحك، اشهد بشهادة الحق قبل أن يضرب عنقك فتشهد، فقال ﷺ للعباس: انصرف يا عباس، فاحبسه عند مضيق الوادي حتى يمر عليه جنود الله، قال: فحبسته عند خطم الجبل بمضيق الوادي، ومر عليه القبائل قبيلة قبيلة وهو يقول: من هؤلاء؟ وأقول: أسلم وجهينة وفلان، حتى مر رسول الله ﷺ في الكتيبة الخضراء، من المهاجرين والأنصار في الحديد، لا يرى منهم إلا الحدق، فقال: من هؤلاء يا أبا الفضل؟ قلت: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار، فقال: يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما، فقلت: ويحك أنها النبوة فقال: نعم إذا، وجاء حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء، رسول الله ﷺ، وأسلما وبايعاه فلما بايعاه بعثهما رسول الله ﷺ، بين يديه إلى قريش يدعوانهم إلى الإسلام، وقال: من دخل دار أبي سفيان وهي بأعلى مكة فهو آمن، ومن دخل دار حكيم وهي بأسفل مكة فهو آمن، ومن أغلق بابه وكف يده فهو آمن، ولما خرج أبو سفيان وحكيم، من عند رسول الله ﷺ عامدين إلى مكة، بعث في أثرهما الزبير بن العوام، وأمره على خيل المهاجرين، وأمره أن يغرز رايته بأعلى مكة بالحجون، وقال له: لا تبرح حتى آتيك، ثم دخل رسول الله ﷺ مكة وضربت هناك خيمته، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمته، وبعث الخالد بن الوليد فيمن كان أسلم من قضاعة وبني سليم، وأمره أن يدخل أسفل مكة، ويغرز رايته دون البيوت، وأمرهم رسول الله ﷺ جميعا، أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم، وأمرهم بقتل أربعة نفر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، والحويرث بن نفيل وابن خطل ومقبس بن ضبابة، وأمرهم بقتل قينتين كانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ، وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، فقتل علي عليه السلام الحويرث بن نفيل، وإحدى القينتين وأفلتت الأخرى، وقتل مقبس بن ضبابة في السوق، وأدرك ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة، فاستبق إليه سعيد بن حريث وعمار بن ياسر، فسبق سعيد عمارا فقتله، قال: وسعى أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ، وأخذ غرزه أي ركابه فقبله ثم قال: بأبي أنت وأمي أما تسمع ما يقول سعد إنه يقول:

اليوم يوم الملحمة...اليوم تسبى الحرمة

فقال ﷺ لعلي عليه السلام: أدركه وخذ الراية منه، وكن أنت الذي يدخل بها، وأدخلها إدخالا رفيقا، فأخذها علي عليه السلام وأدخلها كما أمر، ولما دخل رسول الله ﷺ مكة، دخل صناديد قريش الكعبة، وهم يظنون أن السيف لا يرفع عنهم، وأتى رسول الله ﷺ ووقف قائما على باب الكعبة، فقال: لا إله إلا الله وحده وحده، أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا إن كل مال أو مأثرة ودم يدعى، فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة الكعبة وسقاية الحاج، فإنهما مردودتان إلى أهليهما، ألا إن مكة محرمة بتحريم الله، لم تحل لأحد كان قبلي ولم تحل لي إلا ساعة من نهار، وهي محرمة إلى أن تقوم الساعة لا يختلى خلاها، ولا يقطع شجرها ولا ينفر صيدها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد، ثم قال: ألا لبئس جيران النبي، كنتم لقد كذبتم وطردتم وأخرجتم وآذيتم، ثم ما رضيتم حتى جئتموني في بلادي تقاتلونني، فاذهبوا فأنتم الطلقاء فخرج القوم، فكأنما أنشروا من القبور ودخلوا في الإسلام، وكان الله سبحانه أمكنه من رقابهم عنوة، فكانوا له فيئا فلذلك سمي أهل مكة الطلقاء، وجاء ابن الزبعري إلى رسول الله ﷺ وأسلم وقال:

يا رسول الإله إن لساني...راتق ما فتقت إذ أنا بور

إذ أباري الشيطان في سنن...الغي ومن مال ميله مثبور

آمن اللحم والعظام لربي...ثم نفسي الشهيد أنت النذير

ب. قال: وعن ابن مسعود قال: دخل النبي ﷺ يوم الفتح، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ، إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً﴾

ج. وعن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ إلى مكة، أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت وصورة إبراهيم وإسماعيل عليه السلام، وفي أيديهما الأزلام، فقال ﷺ قاتلهم الله أما والله، لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط.

- أقول: والروايات حول قصة الفتح كثيرة من أراد استقصاءها فعليه بكتب السير وجوامع الأخبار وما تقدم كالملخص منها.

٢. دخول الناس في دين الله أفواجاً:

المقطع [٢] من سورة النصر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٧٧»:

١. ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْواجاً﴾:

أ. قال الراغب: (الفوج الجماعة المارة المسرعة، وجمعه أفواج)

ب. فمعنى دخول الناس في دين الله أفواجا دخولهم فيه جماعة بعد جماعة، والمراد بدين الله الإسلام قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩]

٣. الأمر بالتسبيح والاستغفار والتوبة:

المقطع [٣] من سورة النصر، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٧٧»:

١. ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً﴾:

أ. لما كان هذا النصر والفتح إذلالا منه تعالى للشرك وإعزازا للتوحيد وبعبارة أخرى إبطالا للباطل وإحقاقا للحق ناسب من الجهة الأولى تنزيهه تعالى وتسبيحه، وناسب من الجهة الثانية، التي هي نعمة، الثناء عليه تعالى وحمده فلذلك أمره ﷺ بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾

ب. وهاهنا وجه آخر يوجه به الأمر بالتسبيح والتحميد والاستغفار جميعا وهو أن للرب تعالى على عبده أن يذكره بصفات كماله ويذكر نفسه بما له من النقص والحاجة ولما كان في هذا الفتح فراغه ﷺ من جل ما كان عليه من السعي في إماطة الباطل وقطع دابر الفساد أمر أن يذكره عند ذلك بجلاله وهو التسبيح وجماله وهو التحميد وأن يذكره بنقص نفسه وحاجته إلى ربه وهو طلب المغفرة ومعناه فيه ﷺ، وهو مغفور، سؤال إدامة المغفرة فإن الحاجة إلى المغفرة بقاء كالحاجة إليها حدوثا فافهم ذلك، وبذلك يتم شكره لربه تعالى وقد تقدم كلام في معنى مغفرة الذنب في الأبحاث السابقة.

٢. ﴿إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً﴾ تعليل للأمر بالاستغفار لا يخلو من تشويق وتأكيد.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: (عن مقاتل: لما نزلت هذه السورة قرأها ﷺ على أصحابه، ففرحوا واستبشروا وسمعها العباس فبكى، فقال ﷺ ما يبكيك يا عم؟ قال: أظن أنه قد نعيت إليك نفسك يا رسول الله، فقال:

إنه لكما تقول فعاش بعدها سنتين، ما رئي بعدها ضاحكا مستبشرا.

• أقول: وروي هذا المعنى في عدة روايات بألفاظ مختلفة وقيل في وجه دلالتها أن سياقها يلوح إلى فراغه ﷺ مما عليه من السعي والمجاهدة وتمام أمره، وعند الكمال يرقب الزوال.

ب. وفيه، عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ بالآخرة لا يقوم، ولا يقعد ولا يجيء ولا يذهب إلا قال: سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه، فسألناه عن ذلك فقال: إني أمرت بها، ثم قرأ ﴿إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾

• أقول: وفي هذا المعنى غير واحد من الروايات مع اختلاف ما فيها كان يقوله ﷺ.

سورة المسد

هذه السورة الكريمة تحتوي على مقطعين، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. وعيد شديد لأبي لهب بهلاك نفسه وعمله وبنار جهنم ولامرأته.

ب. والسورة مكية.

١. هلاك أبي لهب:

المقطع [١] من سورة المسد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ١ـ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٨٤»:

١. ﴿تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَ﴾:

أ. التب والتباب هو الخسران والهلاك على ما ذكره الجوهري، ودوام الخسران على ما ذكره الراغب.

ب. وقيل: الخيبة.

ج. وقيل: الخلو من كل خير والمعاني، كما قيل، متقاربة فيد الإنسان هي عضوه الذي يتوصل به إلى تحصيل مقاصده وينسب إليه جل أعماله، وتباب يديه خسرانها فيما تكتسبانه من عمل وإن شئت فقل: بطلان أعماله التي يعملها بهما من حيث عدم انتهائها إلى غرض مطلوب وعدم انتفاعه بشيء منها وتباب نفسه خسرانها في نفسها بحرمانها من سعادة دائمة وهو هلاكها المؤبد.

د. فقوله: ﴿تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَ﴾ أي أبو لهب، دعاء عليه بهلاك نفسه وبطلان ما كان يأتيه من الأعمال لإطفاء نور النبوة أو قضاء منه تعالى بذلك.

٢. وأبو لهب هذا:

أ. هو أبو لهب بن عبد المطلب عم النبي ﷺ كان شديد المعاداة للنبي ﷺ مصرا في تكذيبه مبالغا في إيذائه بما يستطيعه من قول وفعل وهو الذي قال للنبي ﷺ: تبا لك لما دعاهم إلى الإسلام لأول مرة فنزلت السورة ورد الله التباب عليه.

ب. وذكر بعضهم أن أبا لهب اسمه وإن كان في صورة الكنية، وقيل: اسمه عبد العزى وقيل: عبد

مناف وأحسن ما قيل في ذكره في الآية بكنيته لا باسمه إن في ذلك تهكما به لأن أبا لهب يشعر بالنسبة إلى لهب النار كما يقال أبو الخير وأبو الفضل وأبو الشر في النسبة إلى الخير والفضل والشر فلما قيل: ﴿سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ﴾ فهم منه أن قوله: ﴿تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ﴾ في معنى قولنا: تبت يدا جهنمي يلازم لهبها.

ج. وقيل: لم يذكر باسمه وهو عبد العزى لأن عزى اسم صنم فكره أن يعد بحسب اللفظ عبدا لغير الله وهو عبد الله وإن كان الاسم إنما يقصد به المسمى.

٣. ﴿ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ﴾:

أ. ما الأولى نافية وما الثانية موصولة ومعنى ﴿ما كَسَبَ﴾ الذي كسبه بأعماله وهو أثر أعماله أو مصدرية والمعنى كسبه بيديه وهو عمله، والمعنى ما أغنى عنه عمله.

ب. ومعنى الآية على أي حال لم يدفع عنه ماله ولا عمله، أو أثر عمله، تباب نفسه ويديه الذي كتب عليه أو دعي عليه.

٤. ﴿سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ﴾ أي سيدخل نارا ذات لهب وهي نار جهنم الخالدة، وفي تنكير لهب تفخيم له وتهويل.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية صعد رسول الله ﷺ الصفا، فقال: يا صباحاه فاجتمعت إليه قريش فقالوا: ما لك؟ فقال: أرأيتكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم وممسيكم، ما كنتم تصدقونني؟ قالوا: بلى، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، قال أبو لهب: تبا لك ألهذا دعوتنا جميعا؟ فأنزل الله عز وجل ﴿تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ﴾

• أقول: ورواه أيضا في تفسير السورة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ولم يذكر فيه كون الدعوة عند نزول آية ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ﴾ الآية.

ب. وفيه، أيضا عن طارق المحاربي قال: بينما أنا بسوق ذي المجاز إذا أنا بشاب، يقول أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وإذا برجل خلفه يرميه قد أدمى ساقيه وعرقوبيه، ويقول: يا أيها الناس إنه كذاب فلا تصدقوه، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو محمد يزعم أنه نبي، وهذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب.

٢. امرأة أبي لهب حمالة الحطب:

المقطع [٢] من سورة المسد، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ [المسد: ٤ـ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٨٥»:

١. ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾:

أ. عطف على ضمير الفاعل المستكن في ﴿سَيَصْلَى﴾ والتقدير: وستصلى امرأته إلخ و﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ بالنصب وصف مقطوع عن الوصفية للذم أي أذم حمالة الحطب.

ب. وقيل: حال من ﴿امْرَأَتُهُ﴾ وهو معنى لطيف على ما سيأتي.

٢. ﴿فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾:

أ. المسد حبل مفتول من الليف، والجملة حال ثانية من امرأته.

ب. والظاهر أن المراد بالآيتين أنها ستتمثل في النار التي تصلاها يوم القيامة في هيئتها التي كانت تتلبس بها في الدنيا وهي أنها كانت تحمل أغصان الشوك وغيرها تطرحها بالليل في طريق رسول الله ﷺ تؤذيه بذلك فتعذب بالنار وهي تحمل الحطب وفي جيدها حبل من مسد.

ج. سؤال وإشكال: قال في مجمع البيان: (وإذا قيل: هل كان يلزم أبا لهب الإيمان بعد هذه السورة وهل كان يقدر على الإيمان ولو آمن لكان فيه تكذيب خبر الله سبحانه بأنه سيصلى نارا ذات لهب، والجواب: أن الإيمان يلزمه لأن تكليف الإيمان ثابت عليه وإنما توعده الله بشرط أن لا يؤمن)

• أقول: مبني الإشكال على الغفلة من أن تعلق القضاء الحتمي منه تعالى بفعل الإنسان الاختياري لا يستوجب بطلان الاختيار واضطرار الإنسان على الفعل فإن الإرادة الإلهية، وكذا فعله تعالى، إنما يتعلق بفعله الاختياري على ما هو عليه أي إن يفعل الإنسان باختياره كذا وكذا فلو لم يقع الفعل اختيارا تخلف مراده تعالى عن إرادته وهو محال وإذا كان الفعل المتعلق للقضاء الموجب اختياريا كان تركه أيضا اختياريا وإن كان لا يقع فافهم وقد تقدم هذا البحث في غير موضع من المباحث السابقة.

• فقد ظهر بذلك أن أبا لهب كان في اختياره أن يؤمن وينجو بذلك عن النار التي كان من المقضي المحتوم أن يدخلها بكفره.

• ومن هذا الباب الآيات النازلة في كفار قريش أنهم لا يؤمنون كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، وقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا

يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧]، ومن هذا الباب أيضا آيات الطبع على القلوب.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في قرب الإسناد، بإسناده إلى موسى بن جعفر عليه السلام في حديث طويل يذكر فيه آيات النبي ﷺ قال: من ذلك أن أم جميل امرأة أبي لهب، أتته حين نزلت سورة تبت، ومع النبي ﷺ أبو بكر بن أبي قحافة، فقال: يا رسول الله هذه أم جميل محفظة، أي مغضبة تريدك ومعها حجر تريد أن ترميك به، فقال ﷺ: إنها لا تراني، فقالت لأبي بكر: أين صاحبك؟ قال: حيث شاء الله، قالت: جئته ولو أراه لرميته، فإنه هجاني واللات والعزى إني لشاعرة، فقال أبو بكر: يا رسول الله لم ترك؟ قال ﷺ: لا، ضرب الله بيني وبينها حجابا.

• أقول: وروي ما يقرب منه بغير واحد من طرق أهل السنة.

ب. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ قال: كانت أم جميل بنت صخر، وكانت تنم على رسول الله ﷺ وتنقل أحاديثه إلى الكفار.

سورة الإخلاص

هذه السورة الكريمة تحتوي على مقطعين، وهذا تعريف بمقاصدها، وما ورد فيها من الآثار:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. السورة تصفه تعالى بأحدية الذات، ورجوع ما سواه إليه في جميع حوائجه الوجودية من دون أن يشاركه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وهو التوحيد القرآني الذي يختص به القرآن الكريم ويبني عليه جميع المعارف الإسلامية.

ب. وقد تكاثرت الأخبار في فضل السورة حتى ورد من طرق الفريقين أنها تعدل ثلث القرآن، كما سيجيء إن شاء الله.

ج. والسورة تحتمل المكية والمدنية، والظاهر من بعض ما ورد في سبب نزولها أنها مكية.

أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن اليهود سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: انسب لنا ربك، فلبث ثلاثاً لا يجيبهم، ثم نزلت ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرها.

• أقول: وفي الاحتجاج عن العسكري عليه السلام: إن السائل عبد الله بن صوريا اليهودي، وفي بعض روايات أهل السنة: أن السائل عبد الله بن سلام سأله ﷺ ذلك بمكة، ثم آمن وكتم إيمانه، وفي بعضها أن أناساً من اليهود سألوه ذلك، وفي غير واحد من رواياتهم: أن مشركي مكة سألوه ذلك، وكيف كان فالمراد النسبة والوصف.

ب. وفي المعاني، بإسناده عن الأصبغ بن نباتة عن علي عليه السلام في حديث: نسبة الله عز وجل: قل هو الله.

ج. وفي العلل، بإسناده عن الصادق عليه السلام في حديث المعراج: أن الله قال له ـ أي للنبي ﷺ ـ: اقرأ قل هو الله أحد كما أنزلت، فإنها نسبتي ونعتي.

• أقول: وروي أيضاً بإسناده إلى موسى بن جعفر عليه السلام ما في معناه.

د. أخرج أبو عبيد في فضائله عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: قل هو الله أحد ثلث القرآن.

• أقول: وقد تكاثرت الروايات من طرقهم في هذا المعنى، رووه عن عدة من الصحابة كابن عباس ـ وقد مر ـ وأبي الدرداء وابن عمر وجابر وابن مسعود وأبي سعيد الخدري ومعاذ بن أنس وأبي أيوب وأبي أمامة وغيرهم عن النبي ﷺ، وورد أيضاً في عدة من الروايات عن أئمة أهل البيت عليه السلام، وقد وجهوا كون السورة تعدل ثلث القرآن بوجوه مختلفة، أعدلها أن ما في القرآن من المعارف تنحل إلى الأصول الثلاثة: التوحيد والنبوة والمعاد، والسورة تتضمن واحداً من الثلاثة وهو التوحيد.

هـ. وفي التوحيد، عن أمير المؤمنين عليه السلام: رأيت الخضر عليه السلام في المنام قبل بدر بليلة، فقلت له: علمني شيئاً أنصر به على الأعداء، فقال: قل: يا هو يا من لا هو إلا هو، فلما أصبحت قصصتها على رسول الله ﷺ، فقال لي: يا علي علمت الاسم الأعظم، فكان على لساني يوم بدر، وإن أمير المؤمنين عليه السلام قرأ قل هو الله أحد، فلما فرغ قال: يا هو يا من لا هو إلا هو، اغفر لي وانصرني على القوم الكافرين.

١. الله أحد صمد:

المقطع [١] من سورة الإخلاص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١ـ٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٨٧»:

١. ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾:

أ. هو ضمير الشأن والقصة يفيد الاهتمام بمضمون الجملة التالية له، والحق أن لفظ الجلالة علم بالغلبة له تعالى بالعربية كما أن له في غيرها من اللغات اسما خاصا به، وقد تقدم بعض الكلام فيه في تفسير سورة الفاتحة.

ب. وأحد وصف مأخوذ من الوحدة كالواحد غير أن الأحد إنما يطلق على ما لا يقبل الكثرة لا خارجا ولا ذهنا ولذلك لا يقبل العد ولا يدخل في العدد بخلاف الواحد فإن كل واحد له ثانيا وثالثا إما خارجا وإما ذهنا بتوهم أو بفرض العقل فيصير بانضمامه كثيرا، وأما الأحد فكل ما فرض له ثانيا كان هو هو لم يزد عليه شيء.

ج. واعتبر ذلك في قولك: ما جاءني من القوم أحد فإنك تنفي به مجيء اثنين منهم وأكثر كما تنفي مجيء واحد منهم بخلاف ما لو قلت: ما جاءني واحد منهم فإنك إنما تنفي به مجيء واحد منهم بالعدد ولا

ينافيه مجيء اثنين منهم أو أكثر، ولإفادته هذا المعنى لا يستعمل في الإيجاب مطلقا إلا فيه تعالى ومن لطيف البيان في هذا الباب قول علي عليه أفضل السلام في بعض خطبه في توحيده تعالى: كل مسمى بالوحدة غيره قليل، وقد أوردنا طرفا من كلامه عليه السلام في التوحيد في ذيل البحث عن توحيد القرآن في الجزء السادس من الكتاب.

٢. ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾:

أ. الأصل في معنى الصمد القصد أو القصد مع الاعتماد يقال: صمده يصمده صمدا من باب نصر أي قصده أو قصده معتمدا عليه، وقد فسروا الصمد، وهو صفة، بمعاني متعددة مرجع أكثرها إلى أنه السيد المصمود إليه أي المقصود في الحوائج، وإذا أطلق في الآية ولم يقيد بقيد فهو المقصود في الحوائج على الإطلاق.

ب. وإذا كان الله تعالى هو الموجد لكل ذي وجود مما سواه يحتاج إليه فيقصده كل ما صدق عليه أنه شيء غيره، في ذاته وصفاته وآثاره قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال وأطلق: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢] فهو الصمد في كل حاجة في الوجود لا يقصد شيئا إلا وهو الذي ينتهي إليه قصده وينجح به طلبته ويقضي به حاجته.

ج. ومن هنا يظهر وجه دخول اللام في الصمد وأنه لإفادة الحصر فهو تعالى وحده الصمد على الإطلاق، وهذا بخلاف أحد في قوله: ﴿اللهُ أَحَدٌ﴾ فإن أحدا بما يفيده من معنى الوحدة الخاصة لا يطلق في الإثبات على غيره تعالى فلا حاجة فيه إلى عهد أو حصر.

د. وأما إظهار اسم الجلالة ثانيا حيث قيل: ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ ولم يقل: هو الصمد، ولم يقل: الله أحد صمد فالظاهر أن ذلك للإشارة إلى كون كل من الجملتين وحدها كافية في تعريفه تعالى حيث إن المقام مقام تعريفه تعالى بصفة تختص به فقيل: الله أحد الله الصمد إشارة إلى أن المعرفة به حاصلة سواء قيل كذا أو قيل كذا.

هـ. والآيتان مع ذلك تصفانه تعالى بصفة الذات وصفة الفعل جميعا فقوله: ﴿اللهُ أَحَدٌ﴾ يصفه بالأحدية التي هي عين الذات، وقوله: ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ يصفه بانتهاء كل شيء إليه وهو من صفات الفعل.

و. وقيل: الصمد بمعنى المصمت الذي ليس بأجوف فلا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يلد ولا

يولد وعلى هذا يكون قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ تفسيرا للصمد.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في نهج البلاغة: الأحد لا بتأويل عدد.

• أقول: ورواه في التوحيد، عن الرضا عليه السلام ولفظه: أحد لا بتأويل عدد.

ب. وفي أصول الكافي، بإسناده عن داود بن القاسم الجعفري قال: قلت لأبي جعفر الثاني عليه السلام: ما الصمد؟ قال عليه السلام: السيد المصمود إليه في القليل والكثير.

• أقول: وفي تفسير الصمد معان أخر مروية عنهم عليه السلام فعن الباقر عليه السلام: الصمد السيد المطاع الذي ليس فوقه آمر وناه، وعن الحسين عليه السلام: الصمد الذي لا جوف له والصمد الذي لا ينام، والصمد الذي لم يزل ولا يزال، وعن السجاد عليه السلام: الصمد الذي إذا أراد شيئا قال له: كن فيكون، والصمد الذي أبدع الأشياء، فخلقها أضدادا وأشكالا وأزواجا، وتفرد بالوحدة بلا ضد ولا شكل ولا مثل ولا ند.

• والأصل في معنى الصمد هو الذي رويناه عن أبي جعفر الثاني عليه السلام لما في مادته لغة في معنى القصد فالمعاني المختلفة المنقولة عنهم عليه السلام من التفسير يلازم المعنى فإن المعاني المذكورة لوازم كونه تعالى مقصودا يرجع إليه كل شيء في كل حاجة فإليه ينتهي الكل من دون أن تتحقق فيه حاجة.

ج. وفي التوحيد، عن وهب بن وهب القرشي عن الصادق عن آبائه عليهمالسلام أن أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن علي عليه السلام، يسألونه عن الصمد فكتب إليهم: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فلا تخوضوا في القرآن ولا تجادلوا فيه، ولا تتكلموا فيه بغير علم، فقد سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: من قال في القرآن بغير علم، فليتبوأ مقعده من النار، وإن الله سبحانه فسر الصمد فقال: الله أحد الله الصمد ثم فسره فقال: لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

٢. الله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوٱ أحد:

المقطع [٢] من سورة الإخلاص، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٨٨»:

١. ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾:

أ. الآيتان الكريمتان تنفيان عنه تعالى أن يلد شيئا بتجزيه في نفسه فينفصل عنه شيء سنخه بأي معنى أريد من الانفصال والاشتقاق كما يقول به النصارى في المسيح عليه السلام إنه ابن الله وكما يقول الوثنية في بعض آلهتهم أنهم أبناء الله سبحانه.

ب. وتنفيان عنه أن يكون متولدا من شيء آخر ومشتقا منه بأي معنى أريد من الاشتقاق كما يقول الوثنية ففي آلهتهم من هو إله أبو إله ومن هو آلهة أم إله ومن هو إله ابن إله.

ج. وتنفيان أن يكون له كفؤ يعدله في ذاته أو في فعله وهو الإيجاد والتدبير ولم يقل أحد من المليين وغيرهم بالكفؤ الذاتي بأن يقول بتعدد واجب الوجود عز اسمه، وأما الكفؤ في فعله وهو التدبير فقد قيل به كآلهة الوثنية من البشر كفرعون ونمرود من المدعين للألوهية وملاك الكفاءة عندهم استقلال من يرون ألوهيته في تدبير ما فوض إليه تدبيره كما أنه تعالى مستقل في تدبير من يدبره وهم الأرباب والآلهة وهو رب الأرباب وإله الآلهة.

د. وفي معنى كفاءة هذا النوع من الإله ما يفرض من استقلال الفعل في شيء من الممكنات فإنه كفاءة مرجعها استغناؤه عنه تعالى وهو محتاج من كل جهة والآية تنفيها.

هـ. وهذه الصفات الثلاث المنفية وإن أمكن تفريع نفيها على صفة أحديته تعالى بوجه لكن الأسبق إلى الذهن تفرعها على صفة صمديته.

و. أما كونه لم يلد فإن الولادة التي هي نوع من التجزي والتبعض بأي معنى فسرت لا تخلو من تركيب فيمن يلد، وحاجة المركب إلى أجزائه ضرورية والله سبحانه صمد ينتهي إليه كل محتاج في حاجته ولا حاجة له، وأما كونه لم يولد فإن تولد شيء من شيء لا يتم إلا مع حاجة من المتولد إلى ما ولد منه في وجوده وهو سبحانه صمد لا حاجة له، وأما أنه لا كفؤ له فلأن الكفؤ سواء فرض كفوا له في ذاته أو في فعله لا تتحقق كفاءته إلا مع استقلاله واستغنائه عنه تعالى فيما فيه الكفاءة والله سبحانه صمد على الإطلاق يحتاج إليه كل من سواه من كل جهة مفروضة.

ز. فقد تبين أن ما في الآيتين من النفي متفرع على صمديته تعالى ومآل ما ذكر من صمديته تعالى وما يتفرع عليه إلى إثبات توحده تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله بمعنى أنه واحد لا يناظره شيء ولا يشبهه فذاته تعالى بذاته ولذاته من غير استناد إلى غيره واحتياج إلى من سواه وكذا صفاته وأفعاله، وذوات من

سواه وصفاتهم وأفعالهم بإفاضة منه على ما يليق بساحة كبريائه وعظمته فمحصل السورة وصفه تعالى بأنه أحد واحد.

ح. ومما قيل في الآية إن المراد بالكفؤ الزوجة فإن زوجة الرجل كفؤه فيكون في معنى قوله: ﴿تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً﴾ وهو كما ترى.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في التوحيد، بإسناده إلى ابن أبي عمير عن موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال: واعلم أن الله تعالى واحد أحد صمد، لم يلد فيورث ولم يولد فيشارك.

ب. وفيه، في خطبة أخرى لعلي عليه السلام: الذي لم يولد فيكون في العز مشاركا، ولم يلد فيكون موروثا هالكاً.

ج. وفيه، في خطبة له عليه السلام: تعالى أن يكون له كفؤ فيشبه به.

• أقول: وفي المعاني المتقدمة روايات أخرى.

سورة الفلق

هذه السورة الكريمة تحتوي على مقطعين، وهذا تعريف بمقاصدها، وما ورد فيها من الآثار:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. أمر للنبي ﷺ أن يعوذ بالله من كل شر، ومن بعضه خاصة.

ب. والسورة مدنية على ما يظهر مما ورد في سبب نزولها.

أحاديث وآثار:

أ. أخرج عبد بن حميد عن زيد بن أسلم قال: سحر النبي ﷺ رجل من اليهود فاشتكى، فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوذتين وقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، والسحر في بئر فلان، فأرسل علياً فجاء به، فأمره أن يحل العقد ويقرأ آية، فجعل يقرأ ويحل حتى قام النبي ﷺ كأنما نشط من عقال.

• أقول: وعن كتاب طب الأئمة، بإسناده إلى محمد بن سنان عن المفضل عن الصادق عليه السلام: مثله، وفي هذا المعنى روايات كثيرة من طرق أهل السنة باختلاف يسيرة، وفي غير واحد منها أنه أرسل مع علي عليه السلام زبيراً وعماراً، وفيه روايات أخرى أيضاً من طرق أئمة أهل البيت عليه السلام.

• وما استشكل به بعضهم في مضمون الروايات: أن النبي ﷺ كان مصوناً من تأثير السحر، كيف؟ وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٩]، يدفعه أن مرادهم بالمسحور والمجنون بفساد العقل بالسحر، وأما تأثره عن السحر بمرض يصيبه في بدنه ونحوه، فلا دليل على مصونيته منه.

ب. وفي المجمع، وروي: أن النبي ﷺ كان كثيراً ما يعوذ الحسن والحسين عليه السلام بهاتين السورتين.

ج. وفيه، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: أنزلت علي آيات لم ينزل مثلهن المعوذتان، أورده في الصحيح.

• أقول: وأسندها في الدر المنثور إلى الترمذي والنسائي وغيرهما أيضاً، وروي ما في معناه أيضاً عن الطبراني في الأوسط عن ابن مسعود، ولعل المراد من عدم نزول مثلهن أنهما في العوذة فقط، ولا يشاركهما

في ذلك غيرهما من السور.

د. أخرج أحمد والبزار والطبراني وابن مردويه من طرق صحيحة عن ابن عباس وابن مسعود أنه كان يحك المعوذتين من المصحف ويقول: لا تخلطوا القرآن بما ليس منه، إنهما ليستا من كتاب الله، إنما أمر النبي أن يتعوذ بهما، وكان ابن مسعود لا يقرأ بهما.

• أقول: ثم قال السيوطي: قال البزار (ولم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قرأ بهما في الصلاة، وقد أثبتنا في المصحف)

هـ. وفي تفسير القمي، بإسناده عن أبي بكر الحضرمي قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام، إن ابن مسعود كان يمحو المعوذتين من المصحف، فقال: كان أبي يقول: إنما فعل ذلك ابن مسعود برأيه، وهو [هماظ] من القرآن.

• أقول: وفي هذا المعنى روايات كثيرة من طرق الفريقين، على أن هناك تواتراً قطعياً من عامة المنتحلين بالإسلام على كونهما من القرآن، وقد استشكل بعض المنكرين لإعجاز القرآن أنه لو كان معجزاً في بلاغته لم يختلف في كون السورتين من القرآن مثل ابن مسعود، وأجيب بأن التواتر القطعي كاف في ذلك، على أنه لم ينقل عنه أحد أنه قال بعدم نزولهما على النبي ﷺ، أو قال بعدم كونهما معجزتين في بلاغتهما، بل قال بعدم كونهما جزءاً من القرآن، وهو محجوج بالتواتر.

١. الاستعاذة من شر ما خلق:

المقطع [١] من سورة الفلق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ١-٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٩٢»:

١. ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾:

أ. العوذ هو الاعتصام والتحرز من الشر بالالتجاء إلى من يدفعه، والفلق بالفتح فالسكون الشق والفرق، والفلق بفتحتين صفة مشبهة بمعنى المفعول كالقصص بمعنى المقصوص، والغالب إطلاقه على الصبح لأنه المشقوق من الظلام، وعليه فالمعنى أعوذ برب الصبح الذي يفلقه ويشقه ومناسبة هذا التعبير للعوذ من الشر الذي يستر الخير ويحجب دونه ظاهر.

ب. وقيل: المراد بالفلق كل ما يفطر ويفلق عنه بالخلق والإيجاد فإن في الخلق والإيجاد شقا للعدم

وإخراجا للموجود إلى الوجود فيكون مساويا للمخلوق.

ج. وقيل: هو جب في جهنم ويؤيده بعض الروايات.

٢. ﴿مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ﴾ أي من شر من يحمل شرا من الإنس والجن والحيوانات وسائر ما له شر من الخلق فإن اشتمال مطلق ما خلق على الشر لا يستلزم الاستغراق.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: الفلق جب في جهنم مغطى.

• أقول: وفي معناه غير واحد من الروايات في بعضها: قال ﷺ: باب في النار إذ فتح سعرت جهنم: رواه عقبة بن عامر، وفي بعضها: بئر في جهنم إذا سعرت جهنم فمنه تسعر، رواه عمرو بن عنبسة إلى غير ذلك.

ب. وفي المجمع: وقيل: الفلق جب في جهنم، يتعوذ أهل جهنم من شدة حره: عن السدي ورواه أبو حمزة الثمالي وعلي بن إبراهيم في تفسيرهما.

٢. الاستعاذة من شر غاسق إذا وقب:

المقطع [٢] من سورة الفلق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٩٣»:

أ. في الصحاح: (الغسق أول ظلمة الليل وقد غسق الليل يغسق إذا أظلم والغاسق الليل إذا غاب الشفق)، والوقوب الدخول فالمعنى ومن شر الليل إذا دخل بظلمته، ونسبة الشر إلى الليل إنما هي لكونه بظلمته يعين الشرير في شره لستره عليه فيقع فيه الشر أكثر مما يقع منه بالنهار، والإنسان فيه أضعف منه في النهار تجاه هاجم الشر.

ب. وقيل: المراد بالغاسق كل هاجم يهجم بشره كائنا ما كان.

ج. وذكر شر الليل إذا دخل بعد ذكر شر ما خلق من ذكر الخاص بعد العام لزيادة الاهتمام وقد اهتم في السورة بثلاثة من أنواع الشر خاصة هي شر الليل إذا دخل وشر سحر السحرة وشر الحاسد إذا حسد لغلبة الغفلة فيهن.

٣. الاستعاذة من شر النفاثات في العقد:

المقطع [٣] من سورة الفلق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٩٣»:

١. ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ﴾:

أ. أي النساء الساحرات اللاتي يسحرن بالعقد على المسحور وينفثن في العقد، وخصت النساء بالذكر لأن السحر كان فيهن ومنهم أكثر من الرجال، وفي الآية تصديق لتأثير السحر في الجملة، ونظيرها قوله تعالى: في قصة هاروت وماروت ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] ونظيره ما في قصة سحرة فرعون.

ب. وقيل: المراد بالنفاثات في العقد النساء اللاتي يملن آراء أزواجهن إلى ما يرينه ويردنه فالعقد هو الرأي والنفث في العقد كناية عن حله، وهو بعيد.

٤. الاستعاذة من شر حاسد إذا حسد

المقطع [٤] من سورة الفلق، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٩٣»:

١. ﴿وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ﴾:

أ. أي إذا تلبس بالحسد وعمل بما في نفسه من الحسد بترتيب الأثر عليه.

ب. وقيل: الآية تشمل العائن فعين العائن نوع حسد نفساني يتحقق منه إذا عاين ما يستكثره ويتعجب منه.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: كاد الفقر أن يكون كفرا، وكاد الحسد أن يغلب القدر.

• أقول: الرواية مروية بلفظها عن أنس عنه ﷺ.

ب. وفي العيون، بإسناده عن السلطي عن الرضا عن أبيه عن آبائه عن النبي ﷺ قال: كاد الحسد أن يسبق القدر.

ج. أخرج ابن أبي شيبة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: إن الحسد ليأكل الحسنات كما يأكل النار

الحطب.

سورة الناس

هذه السورة الكريمة تحتوي على مقطعين، وهذا تعريف بمقاصدها:

أ. أمر للنبي ﷺ أن يعوذ بالله من شر الوسواس الخناس.

ب. والسورة مدنية كسابقتها على ما يستفاد مما ورد في سبب نزولها، بل المستفاد من الروايات أن السورتين نزلتا معاً.

ج. أحاديث وآثار: في المجمع: أبو خديجة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جاء جبرئيل إلى النبي ﷺ وهو شاك، فرقاه بالمعوذتين وقل هو الله أحد، وقال: بسم الله أرقيك والله يشفيك من كل داء يؤذيك، خذها فلتهنيك، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، قل أعوذ برب الناس إلى آخر السورة.

• أقول: وتقدم بعض الروايات الواردة في سبب نزول السورة.

١. الاستعاذة برب الناس وملكهم وإلههم:

المقطع [١] من سورة الناس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١-٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٩٥»:

١. ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ﴾:

أ. من طبع الإنسان إذا أقبل عليه شر يحذره ويخافه على نفسه وأحسن من نفسه الضعف أن يلتجئ بمن يقوى على دفعه ويكفيه وقوعه والذي يراه صالحا للعوذ والاعتصام به أحد ثلاثة إما رب يلي أمره ويدبره ويربيه يرجع إليه في حوائجه عامة، ومما يحتاج إليه في بقائه دفع ما يهدده من الشر، وهذا سبب تام في نفسه، وإما ذو قوة وسلطان بالغة قدرته نافذ حكمه يجيره إذا استجاره فيدفع عنه الشر بسلطته كملك من الملوك، وهذا أيضا سبب تام مستقل في نفسه.

ب. وهناك سبب ثالث وهو الإله المعبود فإن لازم معبودية الإله وخاصة إذا كان واحدا لا شريك له إخلاص العبد نفسه له فلا يدعو إلا إياه ولا يرجع في شيء من حوائجه إلا إليه فلا يريد إلا ما أراده ولا يعمل إلا ما يشاؤه.

ج. والله سبحانه رب الناس وملك الناس وإله الناس كما جمع الصفات الثلاث لنفسه في قوله:

﴿ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنّٰى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦] وأشار تعالى إلى سببية ربوبيته وألوهيته بقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل: ٩]، وإلى سببية ملكه بقوله: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الحديد: ٥] فإن عاذ الإنسان من شر يهدده إلى رب فالله سبحانه هو الرب لا رب سواه وإن أراد بعوذه ملكا فالله سبحانه هو الملك الحق له الملك وله الحكم وإن أراد لذلك إلها فهو الإله لا إله غيره.

د. فقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ أمر لنبيه ﷺ أن يعوذ به لأنه من الناس وهو تعالى رب الناس ملك الناس إله الناس.

٢. ومما تقدم ظهر:

أ. أولا: وجه تخصيص الصفات الثلاث: الرب والملك والإله من بين سائر صفاته الكريمة بالذكر وكذا وجه ما بينها من الترتيب فذكر الرب أولا لأنه أقرب من الإنسان وأخص ولاية ثم الملك لأنه أبعد منالا وأعم ولاية يقصده من لا ولي له يخصه ويكفيه ثم الإله لأنه ولي يقصده الإنسان عن إخلاصه لا عن طبعه المادي.

ب. وثانيا: وجه عدم وصل قوله: ﴿مَلِكِ النَّاسِ إِلٰهِ النَّاسِ﴾ بالعطف وذلك للإشارة إلى كون كل من الصفات سببا مستقلا في دفع الشر فهو تعالى سبب مستقل لكونه ربا لكونه ملكا لكونه إلها فله السببية بأي معنى أريد السبب وقد مر نظير الوجه في قوله: ﴿اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ﴾

ج. وبذلك يظهر أيضا وجه تكرار لفظ الناس من غير أن يقال: ربهم وإلههم فقد أشير به إلى أن كلا من الصفات الثلاث يمكن أن يتعلق بها العوذ وحدها من غير ذكر الأخريين لاستقلالها ولله الأسماء الحسنى جميعا، وللقوم في توجيه اختصاص هذه الصفات وسائر ما مر من الخصوصيات وجوه لا تغني شيئا.

٢. الاستعاذة من شر الوسواس الخناس:

المقطع [٢] من سورة الناس، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٤-٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٢٠/ ٣٩٧»:

١. ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾:

أ. قال في المجمع: (الوسواس حديث النفس بما هو كالصوت الخفي) فهو مصدر كالوسوسة كما ذكره وذكروا أنه سماعي والقياس فيه كسر الواو كسائر المصادر من الرباعي المجرد وكيف كان فالظاهر كما استظهر أن المراد به المعنى الوصفي مبالغة، وعن بعضهم أنه صفة لا مصدر.

ب. والخناس صيغة مبالغة من الخنوس بمعنى الاختفاء بعد الظهور قيل: سمي الشيطان خناسا لأنه يوسوس للإنسان فإذا ذكر الله تعالى رجع وتأخر ثم إذا غفل عاد إلى وسوسته.

٢. ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ صفة للوسواس الخناس، والمراد بالصدور هي النفوس لأن متعلق الوسوسة هو مبدأ الإدراك من الإنسان وهو نفسه وإنما أخذت الصدور مكانا للوسواس لما أن الإدراك ينسب بحسب شيوع الاستعمال إلى القلب والقلب في الصدر كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]

٣. ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ بيان للوسواس الخناس وفيه إشارة إلى أن من الناس من هو ملحق بالشياطين وفي زمرتهم كما قال تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]

٤. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: روي أن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله خنس وإذا نسي التقم، فذلك الوسواس الخناس.

ب. وفيه، روى العياشي بإسناده عن أبان بن تغلب عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: ما من مؤمن إلا ولقلبه في صدره أذنان، أذن ينفث فيها الملك وأذن ينفث فيها الوسواس الخناس، فيؤيد الله المؤمن بالملك، وهو قوله سبحانه: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾

ج. وفي أمالي الصدوق، بإسناده إلى الصادق عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً، أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ صعد إبليس جبلا بمكة يقال له ثوير، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا إليه، فقالوا: يا سيدنا لم دعوتنا؟ قال: نزلت هذه الآية فمن لها؟ فقام عفريت من الشياطين فقال: أنا لها بكذا وكذا، قال: لست لها فقام آخر فقال مثل ذلك فقال لست لها، فقال الوسواس الخناس: أنا لها، قال: بما ذا؟ قال: أعدهم وأمنيهم حتى يواقعوا الخطيئة، فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم الاستغفار، فقال: أنت لها فوكله بها إلى يوم القيامة.

• أقول: تقدم بعض الكلام في الشيطان.